الكواكب الدرية

على

الحدائق الوردية

في أجلاء السادة النقشبندية

تأليف

الشيخ عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني الشافعي

النقشبندي المتوفى سنة ١٣١٨ هـ

حققه وعلق عليه

محمد خالد الخرسة

دار البيروتي

الكواكب الدرية

على

الحدائق الوردية

في أجلاء السادة النقشبندية

الكواكب الدرية
على
الحدائق الوردية
في أجلاء السادة النقشبندية

تأليف
الشيخ عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني الشافعي
النقشبندي المتوفى سنة ١٣١٨ هـ

حققه وعلق عليه
محمد خالد الخرسة

دار البيروتي

الإهداء

حَدائِقُ الوَرْدِ في الأكْمَامِ دانِيَةٌ

قُطوفُهَا مِنْ جِنانِ الشّامِ للجاني

أَكُفُّ أَوْراقِهَا نَحْوَ السَّمَا بُسِطَتْ

تَدْعُو لأَوَّلِ مَمْدُوحٍ بِلا ثَاني

ذُو الفَضْلِ أَحْمَدُ بَاشَا طَلْعَتُ الوُزَرا

لا زالَ مَظْهَرَ مَعْرُوفٍ وَعِرْفانِ

أَهْدَى لَهُ دَوْحَهَا المَخْضُودَ مُنْشِئُهَا

دَاعِيهِ عَبْدُ المَجِيدِ الخَالِدِيُّ الخَانِي

هذه الأبيات من نظم المؤلف في مدح من سعى بطبع هذا الكتاب بالطبعة الأولى سنة ١٣٠٨ هـ أحمد باشا طلعت . كذا في نهاية الطبعة الأولى

مقدمة المحقق

الحمد لله المتفرد بالبقاء، والحاكم على ما سواه بالفناء، الذي هدى الناس للإسلام، ومنَّ عليهم بالإيمان، وحلاَّهم ورفع قدرهم بالإحسان.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام، واضع الأدوية للقلوب والأجسام، من كل داء دفين وظاهرٍ من الأسقام.

وعلى آله مصابيح الهدى في الظلام، وصحبه الهداة المهديين الكرام، وتابعيهم بصدق وإخلاص بتطبيق شرع الملك العلاّم.

أما بعد:

فلما كانت التزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسُّنَّة، يقرُّ بها المسلمون جميعاً كان لا بدّ للمسلم من تفهمها والعمل على تطبيقها، ليتم له الدين ويعيش بسعادة وهناء.

ولقد قيض الله ـ عز وجل ـ لكل عصر وجيل من أمتنا من يجددون هذا الطب النبوي. وينفخون في الأمة روحاً جديدة من الإيمان والإحسان. ويجددون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأرواح، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربانية، ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد وزينة الحياة الدنيا، وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك ووعدهم ووعيدهم، والاستهانة بالمظاهر والزخارف والقناعة باليسير. فكان هؤلاء الصوفية يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص، واتباع السنة والتوبة عن المعاصي، وطاعة الله ورسوله. ويحذّرونهم من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة، ويرغبونهم بالتحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل، وتزكية النفس وإصلاحها. ويعلّمونهم ذكر الله والنصح لعباده

والإيثار. ويدخلونهم الخلوات التي هي تدريب للإنسان كيف يستطيع أن يخرج إلى الناس ويعاملهم.

ولقد حفلت مكتبتنا الإسلامية بكتب كثيرة ترجمت العلماء العاملين، وبينت صفاتهم حتى يتعرف عليهم المسلمون ويقتدوا بأفعالهم.

ولقد رغب إلي الأستاذ محمود بيروتي صاحب دار البيروتي بدمشق أن أعلّق على كتاب (الحدائق الوردية في أجلاء النقشبندية) الذي عزّ وجوده وندر في هذه الأيام، فرأيت فيه كتاباً قيماً نفيساً لا يستغني عنه طالب علم فضلاً عن مريد سالك لطريق تزكية نفسه وفق منهج أهل الله عز وجل وخاصة أبناء الطريق النقشبندي الخالدي.

فلقد بيّن فيه مؤلفه - رحمه الله - حياة أعلام مصابيح هداية في حياتهم ومماتهم بما تركوه من أقوال وحكم ووعظ وإرشاد.

فشمرت عن ساعد الجد، ومنّ الله عليّ فقابلت المطبوع على نسخة بخط المؤلف، وخرّجت الآيات والأحاديث، وترجمت بعض الأعلام، وبينت الغريب قدر استطاعتي. ولقد رأيت في الكتاب كلمات يلزم شرحها من منهل المؤلف الذي استقى منه، فطلبت إلى أخي الشيخ عبد الهادي الخرسة - خريج جامعة الأزهر، وصاحب الباع الطويل في عبارات القوم - فتفضل مشكوراً فعلّق على تلك الكلمات وقد رمزت لها بحرف (ع) آخرها تمييزاً لها عن بقية التعليقات.

وقد سميت الكتاب:

(الكواكب الدريّة على الحدائق الورديّة في أجلاء النقشبندية).

والله َأسأل، وبنبيه أتوسل، أن يجعل عملنا متقبلاً خالصاً لوجهه الكريم، محفوظاً من الزلل والخطأ، إنه سميع قريب مجيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٩٩٦/٦/٢٠ دمشق - محمد خالد محمد الخرسة

ترجمة المؤلف

الشيخ عبد المجيد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن مصطفى، الخاني، الشافعي، النقشبندي، الخالدي. وأصل الأسرة يرجع إلى بلدة خان شيخون التابعة لمعرة النعمان.

عالم، صوفي، أديب، شاعر، مشارك.

ولد في صفر سنة ١٢٦٣ هـ، ونشأ في حجر والده وجدّه، قرأ القرآن الكريم على الشيخ علي الحذوري الحمصي النقشبندي، وأخذ عنه التجويد والإنشاء، ثم أخذ عن جده شيئاً من النحو والفقه وغيرهما، ولقنه الذكر.

لازم كوالده دروس الشيخ محمد الطنطاوي؛ فسمع منه أكثر الفتوحات المكية، وسمع كوالده كذلك من الأمير عبد القادر الجزائري أكثر صحيح البخاري في مدرسة دار الحديث؛ وكانت بينهما مودة؛ وحضر أكثر دروس والده، ولا سيما كتب الحديث الستة بسنده الهندي الخالدي، والدمشقي الكزبري، وكتب التصوف كاصطلاحات القاشاني، وشرح فصوص الحكم، ومواقف الأمير عبد القادر.

ولع كثيراً بالأدب. رحل إلى الآستانة، ودعا إلى الوحدة الإسلامية، واعترف العلماء الأتراك بفضله وعلو قدره. لم يشأ أن ينخرط في سلك الوظائف.

تصدر مكان والده بعد وفاته في الطريقة النقشبندية، وفي قراءة درس البخاري بجامع المرادية في السويقة. وقد اختلف مع عمه الشيخ أحمد بسبب وراثة المشيخة، ثم مع عمه الشيخ عبد الله.

له قصائد مختلفة؛ منها قصائد داعية إلى الله ونبذ العنصرية والشعوبية،

وقصيدة طويلة في مدح الرسول ﷺ، وأخرج ديواناً ضخماً باسم (وجه الحل في جهد المقل) وله كتابات منها مقامات سبع أسند روايتها إلى سعد بن بشير.

ومن مؤلفاته كتاب «الحدائق الوردية في أجلاّء النقشبندية» ترجم فيه لأعيان الطريقة النقشبندية.

اشتهر بفصاحته، ولباقته وطلاقة لسانه، وحسن الهيئة. كان منور الشيبة، قصير القامة. وكان هو والشيخ محمد المبارك نابغتي دمشق على رأس هذا القرن في فنون الأدب نظماً ونثراً.

توفي في الآستانة سنة (١٣١٨ هـ) ودفن في مقبرة نيشان طاش.

وقال في تعطير المشام: ورد خبر وفاته في أواخر جمادى الثانية سنة (١٣١٩ هـ) وصلي عليه صلاة الغائب بالجامع الأموي وجامع السّنانية.

نقلاً بتصرف عن «تاريخ علماء دمشق» للأستاذين محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة (ج١/ ١٨١).

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أظهر من بطون الشؤون إلى أعيان الثبوت ما كان وما يكون من عالم الملك والملكوت، ثم أنشأه خلقاً آخر في مراتب التكوين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والصَّلاة والسَّلام على نبيِّ الصَّلاة والسَّلام مرآة شمس الذات، جامع الأسماء والصفات، والد العالم[1] في دولة الكيان والظهور، وسيد ولد آدم يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وما مصدر الأشياء إلاّ محمد وناهيك طول المدح فيه قصور[2]
بدائرة التكوين قطب جماله عليه جميع الكائنات تدور

وعلى أُولي التمكين[3] في التلوين من آل عبائه وأحبَّائه، المؤدِّين حقَّ

---

(١) قوله: (والد العالَم) إلخ، أي: من حيث سَبْق نورانيته ـ في الخلق الحادث ـ عنهم.
ويشهد لذلك ما رواه أحمد والترمذي والحاكم من قوله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأه ضل».
وما رواه أبو نعيم في الحلية، والطبراني في الكبير، من قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد». (ع)

(٢) قوله: (وما مصدر الأشياء إلا محمد) أي: من حيث خلق الله إياها على يديه باعتبار لطائفها وأنوارها. قال ﷺ: «إنما أنا قاسم والله يعطي». رواه الطبراني في الكبير. (ع)

(٣) قوله: (وعلى أولي التمكين) أي: أصحاب المقامات الوراثية في التخلق والتحقق، الذين يملكون الحال عند التجليات في حضرات الأسماء والصفات، وهو المسمى بالتلوين، دون أن يملكهم، فلا يغيبون لتمكنهم؛ عن الآداب الشرعية في ظواهرهم عند تجلي شؤونات الحق سبحانه على بواطنهم. (ع)

الدين قياماً بأعبائه، ما سبح لله مَلَكٌ أو سَبحَ نجمٌ في فلك.

وبعد: فيقول ذَنوب[1] الذنوب، وعَيبةُ العيوب، الحقير الفاني عبد المجيد بن محمد بن محمد بن عبد الله الخاني الخالدي النقشبندي: إني منذ تشرفت قبل بلوغ السّن بسنين بتلقي الطريقة العليّة الخالدية النقشبندية، عن قِبْلَةِ العلماء[2] العاملين، وقلب الأولياء[3] الكاملين المُتمكِّن في مقام الفرق الثاني[4] سيدي الجدّ الأمجد الشيخ محمد الخاني - قدّس الله تعالى سرّه[5]-،

---

(١) الذَنوب: الدلو الملأى ماء. «مختار الصحاح / ذنب».

(٢) قوله: (عن قبلة العلماء) القِبلة: اسم لما يستقبل وجهاً أو قلباً، فعندما قابلت وجوههم وجهه، وقلوبهم قلبه، يتمُّ التطبع صورةً ومعنىً، علماً وحالاً، أدباً وخلقاً سمَّاه قبلة.

وهذا هو طريق أخذ الصحابة - رضوان الله عليهم - عن رسول الله - ﷺ - بالمجالسة والمجانسة، فكانوا نُسَخاً عنه انطبعت فيهم صورته وحاله، فأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾. (ع)

(٣) قوله: (وقلب الأولياء): فيه إشارة إلى أنه كان شيخ أولياء عصره، لأنَّ القلب النوراني يقلب الكثائف لطائف، فأخرجهم عن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف، فكان حياة قلوبهم وأرواحهم، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾. (ع)

(٤) قوله: (الفرق الثاني): هو الفرق النوراني - وهو كل ما يُوصِل إلى مرضاة الله ممَّا شرعه - الذي يستدعي القيام بحق الخلافة في الأرض بظاهره، مع تمكن باطنه في مقام الجمع في شهود إرادة الحق في الخلق، فصاحب هذا المقام يقابل أقدار الحق بالأسباب العادية، من غير اعتقاد تأثيرها، ثم يشهد بباطنه ما يقدِّره الحق عند تلك الأسباب على وفق إرادته.

أما الفرق الأول، وهو الفرق الظلماني - وهو كل ما يحجب عن الله من شهوة أو هوىً قبل التحقق بمقام الجمع - فقد مُحي من باطن الشيخ وظاهره بالمجاهدات، قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾. (ع)

(٥) قوله: (قدَّس الله تعالى سرَّه): جملة إخبارية بأن الله سبحانه طهَّر سرَّه - وهو أخصُّ من الروح - من التعلق بغيره - سبحانه - وسيلةً وغايةً في حق العارفين.

وإنشائية في حق السالكين، فالروح أن تكون موجوداً عند شهودك، فإذا غبت عن شهود وجودك عند شهود مشهودك، ففني مَنْ لم يكن، وبقي مَنْ لم يزل، سُمّي سراً، وهو جمع الجمع. (ع)

ورفعه عنده على أعلى الأسِرَّه ـ وسمعت أسماء سادات سلسلة الطريقة الجليلة؛ جعلت أتشوَّفُ للوقوف على تراجم أحوالهم المقدَّسة مدة غير قليلة، وإذ لم أرها مجتمعة باللغة العربية في كتاب واحد لأن أكثرهم من بلاد الفرس والهند وتلك المعاهد؛ عَزَمْتُ ـ وما أنا للعزم بإلف ـ سنة ثلاث وثلثمائة وألف؛ على أن أجمع أحوال من ترجموه، وأخدم بالترجمة من لم يخدموه؛ بادئاً بالمبدأ الفيّاض[1] وخاتماً بسيدي الوالد راجياً منه تعالى في ذلك تقدير التيسير، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير؛ فاستحضرت لتلك الخدمة كتباً مهمّة جمّة مثل:

«طبقات الأولياء» للعارفين الشيخ عبد الوهاب الشعراني[2]، والشيخ عبد الرؤوف المناوي[3].

و«مجمع الأحباب»[4] مختصر «الحلية» لشمس الدين الشيخ محمد بن الحسن الحسيني الشافعي.

و«النفحات» للعارف الكبير ملاّ عبد الرحمن الجامي النقشبندي، وهو

---

(١) قوله: (بالمبدأ الفياض)، أي: الحضرة المحمدية التي يفيض الله ـ سبحانه ـ عليها، ثمَّ منها لمن شاء من عباده، فالإسناد إليها مجازي لأنه في مقام الحكمة الشرعية، والتي تستدعي الأدب مع السبب مع اعتقاد عدم تأثيره، وأداء الشكر بالفرق الظاهر. قال تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وقال الصديق لعائشة رضي الله عنهما: (قومي اشكري رسول الله). (ع)

(٢) عبد الوهّاب بن أحمد بن علي (٨٩٨ ـ ٩٧٣ هـ) ويقال له: الشعراوي، من علماء الصوفية، ولد في قلقشند بمصر، وتوفي في القاهرة ـ «الأعلام» (٤/ ١٨٠).

(٣) المناوي: محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي القاهري (٩٥٢ ـ ١٠٣١هـ)، من كبار العلماء بالدين والفنون، انزوى للبحث والتصنيف. له نحو ثمانين مصنفاً، عاش وتوفي في القاهرة. «الأعلام» (٦/ ٢٠٤).

(٤) «مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب». ويقال له: «مجمع الأخبار في مناقب الأخيار» لمحمد بن حسن بن عبد الله الحسيني الشافعي (٠٠٠ ـ ٧٧٦ هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٥٩٦).

فارسي ترجمه الشيخ محمود البرهوي إلى التركية، وعرّبه الشيخ تاج الدين زكريا العثماني النقشبندي.

و«رشحات عين الحياة» للشيخ علي بن حسين المشهور بالصفي، وهو فارسي أيضاً ترجمه للتركية المولى محمد المعروف الشريف العباسي، وعرّبه الشيخ تاج الدين المشار إليه.

ومقامات سيدنا الشاه نقشبند التي جمعها أحد أجلاّء أصحابه الشيخ صلاح بن المبارك بالفارسي، وعرّبها الشيخ أحمد بن علان الصديقي المكّي.

ومكتوبات الإمام الرَّبَّاني الفارسية، ومعربات بعضها للشيخ يونس بن عبد الرحمن الإيراني النقشبندي، وترجمتها بالتركية بقلم المولى سعد الدين سليمان بن محمد القسطنطيني المشهور بمستقيم زاده.

ومكتوبات الإمام محمد المعصوم شبل الإمام الرَّبَّاني المترجمة بالتركية بقلم مستقيم زاده، وتعريب بعضها وبعض مكتوبات والده المسمّى بـ «كنز الهدايات» للمولى محمد بن ولي الدين الحفظي أحد أصحابه الكرام.

و«تاريخ» العلاّمتين ابن خلكان[1] والمُحِبِّي[2].

و«شرح مفتاح المعية» للعارف الشيخ عبد الغني النابلسي[3].

---

(١) ابن خلكان: أحمد بن محمد بن إبراهيم (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ) المؤرخ، الأديب، ولد في إربل، وانتقل إلى مصر، وتولى نيابة قضائها. وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام. وعزل بعد عشر سنين، ثم عاد إلى مصر فأقام سبع سنين، ورُدَّ إلى قضاء الشام، ثم عزل بعد مدة، ودرَّس في كثير من مدارس دمشق، ومات ودفن فيها. «الأعلام» (١/ ٢٢٠).

(٢) المحبي: محمد أمين بن فضل الله بن محب الله (١٠٦١ ـ ١١١١هـ) الحموي الأصل، الدمشقي: مؤرخ، باحث، أديب. عني كثيراً بتراجم أهل عصره، ولد في دمشق، وسافر إلى الآستانة، وبروسة، وأدرنة، ومصر. وولي القضاء في القاهرة، وعاد إلى دمشق فتوفي فيها. «الأعلام» (٦/ ٤١).

(٣) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني (١٠٥٠ ـ ١١٤٣هـ) النابلسي: شاعر، عالم بالدين والأدب، متصوف، وله مصنفات كثيرة جداً، ولد ونشأ وتوفي في دمشق. وله عدة رحلات. «الأعلام» (٤/ ٣٢).

ومقامات الشيخ حبيب الله جان جانان مظهر تأليف العارف العلوي الشيخ عبد الله الدهلوي.

و«خلاصة الجواهر العلوية» في ترجمة الشيخ عبدالله المومى إليه للشيخ عبد الغني المعصومي.

و«البهجة السَّنِيَّة» لسيدي الجدّ الأمجد.

و«الحديقة الندية» للشيخ محمد بن سليمان البغدادي أحد أجلّاء أصحاب حضرة مولانا خالد.

و«الأساور العسجدية» للشيخ حسين الدوسري أحد خلفائه.

و«أصفى الموارد من سلسال أحوال حضرة مولانا خالد» للشيخ عثمان بن سند النجدي البغدادي.

و«سل الحسام الهندي» للعلّامة الشيخ السيد محمد بن عابدين[(١)].

و«المجد التالد» للشيخ إبراهيم فصيح البغدادي الحيدري.

«و«المقامات السعيدية» للشيخ محمد مظهر المعصومي.

مستعيناً في ترجمة الفارسي والتركي بمن له تمام الوقوف على اللغتين، غير معوّل على الاقتداء بعبارة المعرّبين لأن أكثرهم من الفرس المتعربين، والتزمت عند ذكر كل ذات منهم رضي الله عنهم سرد خلفائه بقدر الإمكان، ولم أُترجم أحوالهم لعدم المواد الموصلة إلى المراد، ومع ذلك فقد شذ عني من رجال السلسلة اثنان، وهما سيدنا الدرويش محمد ونجله الشيخ محمد الخواجكي الأمكنكي فإني لم أقف لهما على ترجمة في مكان، فأرجو ممن ألمّ بترجمتهما أن يلحقهما تحت اسمهما.

---

(١) محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز (١١٩٨ ـ ١٢٥٢ هـ) ابن عابدين الدمشقي: فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره، مولده ووفاته في دمشق، وهو صاحب حاشية ابن عابدين. «الأعلام» (٦/ ٤٢).

فجاء ولله الحمد كتاباً موفياً بالعهد، في عهد أمير المؤمنين، وظلّ الله على العالمين، فخر ملوك السرير العثماني (السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني) أنام الله الأنامَ في ظلّ أمانه، وسلّم تعالى عَلَمَ الإسلام بنفوذ شوكة سلطانه، وأدام انبساط بساط عدالته على كافة رعية جلالته، آمين.

ربَّ السموات العظيم الشان ... بالمصطفى المبعوث بالقرآن
أيِّد بأيدي الأولياء المجتبى ... سلطاننا عبد الحميد الثاني
واحفظ على عرش السعادة ذاته ... ذات السعادة مظهر الرحمان[1]
واجعل مواضيه على هام العدا ... مشحوذة بالساعد العثماني
والحَظْ بأرواح الملائكة العلا ... توفيقه في السرِّ والإعلان[2]
وأدمْ لواء الدين منشوراً بما ... يرضاه منصوراً على الأقران
تسرعى رعيته بظل أمانه ... في روض صولة دولة الإيمان
ما أشرقت شمس العدالة من حمى ... أعتابه في كامل الأكوان

وسمّيته: «الحدائق الوردية في حقائق أجلاّء النقشبندية».

وهو بحساب الجمّل[3] تاريخ العام الذي به تكمَّل، والله أسأل، وإليه

---

(١) قوله: (مظهر الرحمان): وذلك أن كل دائرة إمكانية تعلق بها من صفاته تعالى العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر، ومن أسمائه ما ينطوي تحت تلك الصفات من الجلاليات أو الجماليات، فمنهم من يكون مظهر صفاته الجلالية القهرية ينتقم به ممن شاء من عباده ثم ينتقم منه، ومنهم من يكون مظهر صفاته الجمالية يفتح على يديه أبواب الرحمة فيرحمه ويرحم به رحمة خاصة أو عامة. (ع).

(٢) قوله (والحظ بأرواح الملائكة العلا): إشارة إلى أنه ما من عبد إلا وله مَلَك يسدّده، أو شيطان يغويه كما ثبت في الحديث، فعندما تلطف الكثائف الحسية يصير بين العبد وبين عالم اللطائف مجانسة، فيقع بينهما التزاور والمرافقة والمجالسة «تحفهم الملائكة بأجنحتها إلى عنان السماء»، وتقوى عندهم الإلهامات الملائكية النورانية التي سميت في الحديث: «لَمَّة الملك» وقد قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا﴾ الآية. (ع).

(٣) قوله (وهو بحساب الجُمَّل): حساب الجُمَّل هو: إعطاء كل حرف من الحروف الأبجدية =

أتوسل، بالنبيِّ وبنيه، أن يدنيه من كل نبيل نبيه، ويعيذ ما فيه من شرِّ كل سفيل سفيه، إنه وليُّ الهداية، في البداية والنهاية.

طليعة

اعلم أنَّ الطريقة العليّة النقشبندية ـ قدَّس الله أسرار سراتها[1] النديَّة ـ هي طريقة الصحابة الكرام ـ رضي الله تعالى عنهم ـ[2] على أصلها لم يزيدوا فيها ولم ينقصوا منها، وهي عبارة عن دوام العبودية[3] ظاهراً وباطناً بكمال التزام

= عدداً حسابياً تجمع به أعداد الحروف، اختصاراً واختزاناً للأعداد في الحروف على النحو التالي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠
س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

فيكون تاريخ الانتهاء عام ١٣٠٦ هـ ولله الحمد. (ع)

(١) قوله (سراتها): السَّرْو: سخاء في مروءة، وقد سرا يسرو، وسرِيَ سروا، وسَرُو من باب ظرُف، أي: صار سَرِيّاً، وجمع السَّري سراة. «مختار الصحاح».

وهو إشارة إلى أن أخلاق الأولياء ما قاله الإمام ابن عطاء الله في حكمه الصغرى: من أخلاق الأولياء سلامة الصدر، وسخاوة النفس، وحسن الظن بعباد الله. (ع).

(٢) لا يشكُّ باحث متجرد عن هوى النفس، ومتحرر من التبعية والتعصب أن الطريق الصوفية المسلسلة بأولياء الله متصلة الأسانيد بالسلف الصالح، كالإمام الجنيد وأضرابه، وأسانيد السلف متصلة بيقين إلى الصحابة المكرمين ـ رضوان الله عليهم ـ، فمن أراد السلفية تخلقاً وتحققاً لا ادعاءً، فعليه أن يسلك على يد عالم عارف من أهل عصره متصل النسب بالسلف، فيكون خير خلف لخير سلف، وإلاَّ فهو دَعيُّ علم، أو دجالٌ ضالٌّ مضلّ. (ع)

(٣) قوله: (دوام العبودية): عبودية الظاهر والباطن، امتثال الأمر واجتناب النهي على وفق العلم بالأحكام والآداب، وعلى وجه الإخلاص، قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾.

وفي هذا يقول صاحب الحكم: متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم المنَّة عليك.

فلا بد من العلم بالله الذي يورث الخشية والحياء، والأدب والمراقبة، والعلم بأحكام =

السنَّة العليّة والعزيمة العظيمة[1]، وتمام اجتناب البدعة والرخصة في جميع الحركات والسكنات، من عادات ومعاملات، مع دوام الحضور مع الله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك[2]، فهي طريق الانصباغ والانعكاس[3] بكمال ارتباطهم حُبّاً مع هذه المجاهدة الزكية المستورة[4]، يستوي في استفاضتها الشيوخ والشبان وفي إفاضتها الأحياء والأموات[5]، ونهايتُها مُندرجةٌ في

دين الله، ليورثك صحة العمل واستقامته، ومن زيَّن ظاهره بأدب السنة، زيَّن الله باطنه بدوام المراقبة. (ع)

(١) قوله: (والعزيمة العظيمة): القوم أخذوا أنفسهم بالعزائم بينما أخذ غيرهم بالرُّخص والتأويلات. فالصوفي عالمٌ عمل بعلمه على وجه الإخلاص، فرزقه الله علم ما لم يعلم، والطريق كلها جدٌ فلا يخلطونها بشيء من الهزل. يتمسكون بالمندوب كما تتمسك العامة بالواجبات، ويجتنبون المكروه وخلاف الأولى؛ كما تجتنب العامة المحرَّمات، ويخرجون من الخلافيات بالأحوط الأورع، فمن كان على هذا السَّنن فهو منهم، وإلا فعليه ألَّا يشوِّه طريقتهم بإلصاق نفسه بهم، لأنه باب من أبواب الغش والخديعة، ومسؤولية ذلك عظيمة عند الله سبحانه، ورضي الله عن الإمام أحمد الرفاعي إذ يقول: لاتخجلوني غداً بين يدي العزيز سبحانه. (ع)

(٢) قوله: (على طريق الذهول والاستهلاك): أما الذهول فهو الغَيبة عمّا سوى المذكور، والاستهلاك أن يستهلك الذكر منه كليته فلا تبقى منه بقية؛ فينطبق عليه قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «سبق المفرِّدون المستهترون في ذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافاً» (ع)

(٣) قوله: (فهي طريق الانصباغ والانعكاس): الانصباغ: هو التخلق بالأسماء والأوصاف في معاملة الخلق، وذلك يتم أثناء ذكر الاسم الجامع لمعاني الأسماء والصفات (الله)، قال تعالى: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾.

والانعكاس: يعني انعكاس الأنوار من حضرتي الملكوت والجبروت على ملكوته وجبروته، فيتم بهذا النور شهود تلك الحضرتين بالحضرتين قال تعالى: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾. وقال سبحانه: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾. (ع)

(٤) قوله: (المستورة) أي: في بواطنهم عن ملاحظة الخلق قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾. (ع)

(٥) قوله: (وفي إفاضتها الأحياء والأموات): لأن المفيض هو الله عزَّ وجلَّ، ومن اعتقد أن للأحياء تأثيراً في شيء يُرفع عند الموت فهو مشرك، بل الأحياء والأموات يخلق الله على=

بدايتها[١]، وبدايتها نهاية غيرها[٢]، لما فيها من انجذاب المحبة الذاتية مما فُضِّل به واسطتُها الصدِّيق الأكبر رضي الله تعالى عنه.

ولها أصلان أصيلان من أُعطيهما أُعطي كلَّ شيء: كمال اتباع النبيِّ ﷺ، ومحبة الشيخ الكامل.

لكنَّها ليست توجد بالتكلف بل التكلفُ فيها زندقة[٣]، وإنما هي من إعطاء الله تعالى يمنُّ بها على من يشاء من عباده، فالصحبة بشروطها مع هذين الأصلين كافية للانعكاس والانصباغ.

قال بعض أكابر علماء الظاهر والباطن من شُرَّاح الحكم العطائية عند قول

= أيديهم ما يشاء من المقادير، ومن الذي يتطاول على جناب الله فيجعل قدرته قاصرة على الأحياء، فيبرز الله بها على أيديهم دون الأموات الذين هم أحياء حياة برزخية.

وقد ثبت في الحديث الصحيح، أن الله نفع عموم الأمة المحمدية بتخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس على يد سيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو في برزخه، فما جاز في حق مخلوق لا تأثير له، يجوز في حق غيره، والله أعلم. (ع)

(١) قوله: (ونهايتها مندرجة في بدايتها) إلخ: يقول ابن عطاء الله رحمه الله: من أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

وقال غيره: البدايات مجلاة النهايات، ومن لم تكن له بداية محرقة ـ للأغيار ـ ليست له نهاية مشرقة ـ بالأنوار ـ.

فمن علامة العارف أن صورته في نهايته كصورته في بدايته، والمشاهد مختلفة، والسبب الذي وصلوا به لا يتركونه حتى الموت، بدايتها المجاهدة ونهايتها المشاهدة.

جاهدْ تشاهدْ كلَّ الفوائد سرَّ الأماجد بقولك الله. (ع)

(٢) قوله: (وبدايتها نهاية غيرها): لأن نهاية غيرها الفناء في الصفات، وهذه بدايتها، لأن نهايتها الفناء في الذات، ثم البقاء بالذات، ولذلك يسمُّون: الذاتيون. ويشاركهم في ذلك السادة الشاذلية، بدايةً ونهايةً، رضي الله عنهم أجمعين. (ع)

(٣) قوله: (بل التكلف): التكلف المعتبر زندقة؛ هو التصنع تستراً لغاية غير محمودة، كالتشدق في الكلام لكي يعرف عند الخلق، أو التمسكن ليعطيه الخلق من أموالهم، أو ذكر الحقائق والشطحات لساناً دون تحقق، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور». أما التشبه بالقوم في أخلاقهم ومواجيدهم رجاء نفحة إلهية فذلك محمود يشهد له حديث: «إن لم تبكوا فتباكوا» (ع)

الماتن: (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى):

إنَّ حقيقة الذكر هو طرد الغفلة وله مراتب: الأُولى ذكر اللسان، وله شواهد في الكتاب والسنة، فالزمْ يا أخي ذكر اللسان حتى تتصلَ وتتشرفَ بذكر الجَنَان، وهو المرتبة الثانية من مراتب الذكر في بعض الطرق، وهذه المرتبة هي أول مراتب السادة النقشبندية رضي الله عنهم أجمعين، فأول قَدَم يضعونه في الذكر القلبي، ولكن لا يُعرف ذلك إلاّ منهم، ولا يتمكن السالكُ من الرُّسوخ في هذه القدم إلاّ بهم. اهـ.

فاقصدهم واستنشق عَرْفَهم الطيِّب لعلك تظفر بواحد منهم فتفوز بهذا الجوهر النفيس، وتشمُّ من أنفاس الطريق ما لا يخطر لك ببال ويزولَ عنك التلبيس، فإنَّ طريقتهم أسهلُ الطرق الموصلة إلى الله تعالى، وليس فيها كثرة جوع ولا كثرة سهر بل اعتدال يصحبها. وخلوتهم في جلوتهم، فكل مجمع لهم زاوية[1]، يحضرون في المجالس وقلوبهم مع مولاهم حاضرة، ومن السِّوى خالية، فهم ممن قال تعالى في شأنهم: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: ٣٧] وما أحسن ما كانت تَنشده السيدَة رابعَة العدويّة[2] رضيَ الله تعالى عنها في هذا المعنى:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ومن لم يصلْ فعليه بالتصديق والإيمان لتحصل له الولاية الصغرى. كما قال سيدنا الجنيد رضي الله عنه: التصديق بطريقتنا هذه ولاية صغرى. وكما قيل:

وإذا لم ترَ الهلال فسلِّمْ ... لأناسٍ رأوه بالأبصار

---

(١) قوله: (زاوية): وفي هذا يقول العارف:

إذا كان قوم في الزوايا تقيدوا ... فإني أرى كلَّ الوجود زواياكم

وثبت في الحديث الصحيح قول النبي ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (ع)

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية (٠٠٠ ـ ١٣٥هـ) البصرية: صالحة مشهورة، ولدت في البصرة، لها أخبار في العبادة والنسك، توفيت في القدس، وقبرها يزار. «الأعلام» (٣/ ١٠).

ثم السالكون على قسمين: سالك مجذوب، ومجذوب سالك.

فالأول يشهدُ الآثار ثم يستدل بها على الأسماء ويستدل بالأسماء على ثبوت الأوصاف، وبثبوت الأوصاف على وجود الذات لأنه محال أن يقوم الوصفُ بنفسه[1] وهذا شأن العموم، وأكثر ما في الكتاب والسنة يشير إلى ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والثاني[2] يشهد الذات أولاً وينكشف له ما يليق باستعداده، ثمَّ يُردُّ إلى شهود الصفات، ثمَّ يرجع إلى التعلق بالأسماء، ثمَّ إلى شهود الآثار، عكس ما كان السالك الأول عليه، فنهاية السالك المجذوب بداية المجذوب السالك لا بمعنى واحد، فإن مراد السالك المجذوب شهود الأشياء لله تعالى، ومرادُ المجذوب السالك شهود الأشياء بالله تعالى، فالأول عامل بتحقق الفناء والمحو، والثاني مسلوك بطريق البقاء والصحو، ولما كان شأن الفريقين النُّزول في تلك المنازل المذكورة لزم منه التقاؤهما في السير هذا في الترقي وهذا في التدلي.

ومن هنا تعلم أن المجذوب السالك أعلى من السالك المجذوب لاشتراكهما في العبور في المنازل، وزيادة المجذوب بأنه يشهد الأشياء بالله تعالى، وهذا أعلى ممن يشهدها لله تعالى كما لا يخفى.

وأيضاً إنَّ السالك المجذوب ينتهي إلى الفناء، وهذا ينتهي إلى البقاء والصحو بعد الفناء، وهذا أكمل من الأول، لأنه مقام الأنبياء ووارثيهم من المرشدين المكملين، إذ مقام الإرشاد لا يصح إلاَّ لِمَنْ تحقق بالبقاء بعد الفناء،

---

(١) قوله: (الوصف بنفسه): هذا مضمون حكمة عطائية وهي: دلَّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، ودلَّ بوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، ودلَّ بثبوت أوصافه على كمال ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه. (ع)

(٢) قوله (والثاني): مثال الأول: الذي يستدل بالنهار على وجود الشمس وإن لم يرها. ومثال الثاني: الذي يشهد الشمس فيستدل بها على ثبوت النهار بها. (ع)

فلا بد للقسم الأول من الرجوع إلى هذا المقام حتى يصح منه الإرشاد، وغالب طريقة السادة النقشبندية تقدم الجَذْبة على السلوك وهذا يعرفه من ذاق طريقتهم، فاجتهد أيها الأخ في تحصيلها تكن من الملوك.

والطرائق وإنْ استوت كلّها بالدلالة على الله تعالى، لكنَّها تختلف وتتفاوت بالنسبة لأقربية الدلالة والوصول إلى الله تعالى، فأقرب الطرائق وأسهلها على المريد للوصول إلى أعلى درجات التوحيد هذه الطريقة العليّة النَّقشبندية ـ قدّس الله أسرار سراتها الندية ـ لأنَّ مبناها كما قدمنا على:

١ـ التصرف وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الدَّاخل تحت وراثته ﷺ في قوله: «ما صبَّ الله في صدري شيئاً إلاّ وصببته في صدر أبي بكر»[١] الذي هو واسطة هذا العقد، ومؤسس هذا المجد رضي الله تعالى عنه.

٢ـ وعلى اتباع السنة، واجتناب البدعة، والأخذ بالعزائم، والتخلي عن الرذائل، والتحلي بمحاسن الأخلاق والفضائل، وهذا معنى قول إمامنا بهاء الدين الشيخ محمد الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند[٢] قدّس الله سرَّه العزيز: المُعرض عن طريقتنا على خطر من دينه.

وقوله رضي الله عنه: طريقنا أقرب الطرق إلى الله تعالى[٣].

---

(١) هذا حديث باطل، نصَّ على وضعه الحافظ ابن الجوزي في «الموضوعات الكبرى» (١/ ٢١٩)، والحافظ ابن القيم في «المنار المنيف» (ص١١٥)، والعلامة الفَتَّني في «تذكرة الموضوعات» (ص٩٣)، والعلامة الشيخ القاري (ص٤٥٤)، والعلامة الحوت البيروتي في «أسنى المطالب» (ص٢٧٠) وغيرهم.

وهو من الأحاديث المتفق على وضعها. وفضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عظيمة وجليلة في الإسلام.

(٢) قوله (شاه نقشبند): وفي معناه ما قاله أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من لم يتغلغل في علمنا هذا؛ مات مُصراً على الكبائر وهو لا يشعر. (ع)

(٣) قوله (أقرب الطرق): المراد قرب مكانة لامكان، وقد ثبت في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد». وأهل الطريق قلوبهم دائمة السجود في الشهود ﴿فأينما تولّوا فثمَّ=

ويه تعلم أنَّ ما نقله بعض أهل العصر عن السويدي وأقرَّه من اعتراضه على السادة النقشبندية بأن قولهم (طريقنا أقرب الطرق إلى الله تعالى) مُشْعِرٌ بالمكان، ساقط من أصله، وناشيء من عدم الوقوف على حقيقة طريقة أهله، فلا يُعوَّل عليه، ولله درُّ مولانا العارف الجليل الشيخ ملاّ عبد الرحمن الجامي النقشبندي حيث يقول من أبيات له فارسية في مدح هذه الطريقة العليّة:

نقشبنديه عجب قافله سالاراننـد ... كه برندازره پنهان بحرم قافله را
ازدل سالك ره جاذبه صحبتشان ... ميبرد وسوسه خلوت وفكر وچله را
همه شيران جهان بسته اين سلسله اند ... روبه ازحيله چه سان بكسلداين سلسله را
قاصرى كرزند اين طائفه راطعن قصور ... حاش لله كه برارم بربان اين كله را

وقد عرَّبتها فقلت:

للنقشبندية العلم العجيب بما ... يحل ركب الهدى بالسرِّ في الحرم
تمحو بصحبتها عن قلب سالكها ... هم الرياضات والخلوات بالهمم
لها سلاسل من نظم الأُسود فهل ... يحتال ثعلبة في حل نظمهم
إن ينسب القاصر الفهم القصورَ لها ... فحاش لله أنْ يجري بذاك فمي

تخلص

قال العارف الرَّبَّاني الشيخ عبد الوهاب الشعراني - قدّس الله سرّه العزيز - في كتابه «مدارج السالكين»:

وجه الله﴾ وفي هذا يقول العارف عبد الغني النابلسي:

أينما لاحت سجدتُ لها ... حيث كلّي ذاب وانمحقا

وهذا من ديمومة الصلاة المشار إليها بقوله سبحانه: ﴿والذين هم على صلاتهم دائمون﴾ وليس بينك وبين الله مسافة تقطعها، وإنما بينك وبين الله نفسك والخلق، فكن مع الخلق بلا نفس، ومع الحق بلا خلق.

وفي الحكم: الوصول إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجَلَّ ربنا أن يتصل به شيء، أو يتصل هو بشيء. (ع)

اعلم أيها الطالب المريد وفقنا الله وإيّاك لمرضاته: أنَّ من لم يعلم آباءه وأجداده في الطريق فهو أعمى، وربما انتسب لغير أبيه، فيدخل في قوله ﷺ: «لعن اللهُ من انتسب لغير أبيه»(١).

وقال سيدي عمر بن الفارض(٢) رحمه الله تعالى:

نسب أقرب في شرع الهوى ... بيننا من نسب من أبوي

وذلك لأنَّ الروح ألصق بك من حقيقتك، فأبو الروح يليك وأبو الجسم بعده، فكان بذلك أحق بأن ينتسب إليه دون أبي الجسم، وقد درج السلفُ الصالح كلهم على تعليم المريدين آداب آبائهم ومعرفة أنسابهم، وأجمعوا كلهم على أن من لم يصح له نسب إلى القوم فهو لقيط في الطريق لا أب له، ولا يجوز له التصدّر والجلوس لإرشاد المريدين إلا بعد أخذه آداب الطريقة عن شيخ كامل مجمع على جلالته وخبرته في الطريق، ثم يؤذن له صريحاً بأن يرشد ويُلقِّن ويُلبس الخرقة على شروط ما كان عليه السلف رضي الله تعالى عنهم.

إلى أن قال: واعلم يا أخي أنَّ السرَّ في التلقين إنما هو لارتباط القلوب بعضها إلى بعض إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حضرة الله عزَّ وجلَّ، وأقل ما يحصل للمريد إذا دخل في سلسلة القوم بالتلقين أن يكون إذا حرك السلسلة تجاوبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الله عزَّ وجلَّ، فمن لم يدخل في طريقهم بذلك فهو غير معدود منهم ولا يجيبُه أحد إذا حرك السلسلة. انتهى.

فهذا أعظم باعث لي على جمع هذه التراجم من ألسنة سادات العرب

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٦) بلفظ «من ادعى»، وأخرج أحمد في «المسند» (١/ ٣١٨ / ٣٢٨) وابن ماجة (٢٦٠٩) وابن حبان برقم (٤١٧)، وإسناده صحيح. كلهم بلفظ: «من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

(٢) عمر بن علي بن مرشد بن الفارض (٥٧٦ ـ ٦٣٢هـ) الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أشعر المتصوفين، لقبه سلطان العاشقين. «الأعلام» (٥/ ٥٥).

والأعاجم، ليكون الولد الروحي على بصيرة من أمر والده وجدّه، فيزداد نشاط همته وجدّه.

تمهيد

اعلم أن للطريقة العليّة الخالدية ثلاث سلاسل أذكرها على طريق التدلي موافقة لمزاجها العالي:

السلسلة الأولى

هي السلسلة المتصلة من مدينة العلم: صلى الله تعالى عليه وسلم
إلى بابها الأعظم سيدنا الإمام علي بن أبي طالب
إلى سيد الشهداء أبي عبد الله الإمام الحسين
إلى سيدنا الإمام زين العابدين علي الأصغر
إلى سيدنا الإمام محمد الباقر
إلى سيدنا الإمام جعفر الصادق
إلى سيدنا الإمام موسى الكاظم
إلى سيدنا الإمام علي الرضا
إلى سيدنا معروف الكرخي
إلى سيدنا السريّ السقطي
إلى سيدنا أبي القاسم الجنيد البغدادي
إلى سيدنا الشيخ أبي علي الروذباري
إلى سيدنا أبي علي الكاتب
إلى سيدنا أبي عثمان المغربي

إلى سيدنا أبي القاسم الكركاني

إلى سيدنا أبي علي الفارمدي شيخ السلسلة الثالثة.

وهذه هي المسماة بسلسلة الذهب لاتصالها بآل البيت الأطهار رضوان الله عليهم أجمعين.

السلسلة الثانية

وهي السلسلة المتصلة من روح العالم ﷺ

إلى صنوه المكرم سيدنا علي المرتضى

إلى سيدنا الحسن البصري

إلى سيدنا حبيب العجمي

إلى سيدنا داود الطائي

إلى سيدنا معروف الكرخي شيخ السلسلة الأولى وعنده تجتمع السلسلتان رضوان الله عليهم أجمعين[١].

السلسلة الثالثة

وهي السلسلة المتصلة من: أبي الأرواح الأكبر الرؤوف الرحيم الأبرّ سيدنا رسول الله ﷺ

إلى حضرة الصدّيق الأعظم

إلى سيدنا سلمان الفارسي

إلى سيدنا القاسم حفيد أبي بكر الصدّيق

---

(١) قوله: (رضوان الله عليهم أجمعين): المتتبع للأسانيد يجد أن هاتين السلسلتين هما أصل جميع طرق التزكية الروحية التي تفرعت إلى فروع كثيرة فيما بعد. (ع)

إلى سيدنا جعفر الصادق

إلى سيدنا أبي يزيد البسطامي

إلى سيدنا أبي الحسن الخرقاني

إلى سيدنا أبي علي الفارمدي

إلى سيدنا يوسف الهمداني

إلى سيدنا عبد الخالق الغجدواني

إلى سيدنا عارف الريوكري

إلى سيدنا محمود الانجيرفغنوي

إلى سيدنا علي الراميتني

إلى سيدنا محمد بابا السماسي

إلى سيدنا الميركلال

إلى سيدنا محمد بهاء الدين الشاه نقشبند

إلى سيدنا علاء الدين العطار

إلى سيدنا يعقوب الجرخي

إلى سيدنا عبيد الله أحرار

إلى سيدنا محمد الزاهد

إلى سيدنا الدرويش محمد

إلى سيدنا الخواجكي محمد الأمكنكي

إلى سيدنا محمد الباقي بالله

إلى سيدنا أحمد الفاروقي السهرندي

إلى سيدنا محمد المعصوم

إلى سيدنا سيف الدين

إلى سيدنا نور محمد البدواني

إلى سيدنا حبيب الله مظهر

إلى سيدنا عبد الله الدهلوي

إلى سيدنا خالد العثماني

إلى سيدنا الجدّ محمد الخاني

إلى سيدنا الوالد محمد الخاني رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد نظمت أسماءهم في قصيدة نبوية تسهيلاً لحفظهم فقلت:

ما فاح من أرج الفيحاء عاطره ... إلاّ ليظهر ما يخفيه خاطره
وكيف يُظهِر أسرار الغرام فتى ... يهوى الجياد ولو شقت مرائره
صبٌّ له كبد حرا لفي كبد ... من نار هجر قد اشتدت هواجره
يشكو الهوى قلبه شوقاً ويشكره ... ذوقاً فما هو شاك منه شاكره
هوى سوى جيرة البيت الحرام على ... قلب المحب حرام لا يجاوره
يحلو الحديث عن البيت العتيق له ... كما حلا البرء من سقم تحاذره
في سفح رامة رامت سفح أدمعه ... نهراً ومدمعه ناهيه ناهره
أنفس بهم جادة جادت بأنفسها ... عشاقهم واستقلت ما تؤاثره
غرام أرامِهم أقصى المرام له ... مهما به غدوره لا يغادره
لا ينتهي عنهم أو ينتهي لهم ... قرباً وإن خاطرت فيه خواطره
أسواق أشواقه راجت تجارتها ... والحب كم أنفق الأرواح تاجره
يا ناظم الدرّ في شمس وفي قمر ... اقصر فإنَّك قاصي الفهم قاصره
لعمر طيبة ما في العمر أطيب من ... شعر به امتدح المختار شاعره
محمد أحمد الرسل الكرام على ... عرش السيادة ناهي الكون آمره
روح الوجود الذي لولاه لا ملك ... بدا ولا فلك دارت دوائره
لولاه ما برز الغيب المغيب من ... كنز الخفاء ولا امتازت حظائره

فالخلق ظاهره والحق باطنه ... والخلق باطنه والحق ظاهره[1]

خيرٌ إطاعته شرٌّ إضاعته ... نور أوامره نار زواجره

إذ كل خير فخير الكل مورده ... وعنه يصدر في الكونين صادره

سرّ الطرائق ما بين الخلائق من ... إحسانه سار للأصحاب سائره[2]

فالنقشبنديّ أقواها وأقومها ... لأنه عن أبي بكر مصادره

قطب الخلافة خير الخلق قاطبة ... بعد النبيين وافي الصدق وافره

ثم الصحابيّ شمس الفرس سيدنا ... سلمان باتك هام الكفر باتره

وقاسم الفقهاء السبع أعظمهم ... علماً حفيد أبي بكر موازره

وأشرف العلماء بل أعلم الشرفا ... الجعفر الصادق الميمون طائره

والفرد سلطان ملك العارفين أبو ... يزيد طيفور بحر العلم زاخره

وبدر خرقان مولانا أبو حسن ... روح المعارف بادي السرّ بادره

والفارمديّ الإمام الفضل سيدنا ... أبو عليّ بهيّ الفضل باهره

ويوسف الهمداني الغوث أعظم من ... به اهتدى الكون باديه وحاضره

---

(١) قوله: (فالخلق ظاهره): باعتبار أحكام رسالته،
(والحق باطنه): باعتبار أسرار وأنوار نبوته،
(والخلق باطنه): إذ أنه مسار للممكنات كلها من حيث خلقه الترابي والنوراني، فكلاهما مخلوق وليس فيه من الألوهيَة شيء،
(والحق ظاهره): من حيث إنه مجرىً لأقدار الحق يخلق الله ويجري على يديه ما يشاء، قال تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى﴾، وقال: ﴿إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ فأنزل الحق نفسه منزلة عبده، فزال بذلك الريب وحصل الانتباه. (ع)

(٢) قوله: (سار للأصحاب سائره): هذا السرُّ الباطن الذي هو العلم بالله، حالة قلب رسول الله ﷺ، سرى منه إلى أصحابه فكانوا نسخاً عنه، منطبعين بأخلاقه، وهكذا سرى منهم إلى التابعين حتى وصل إلينا بالسلاسل الذهبية، المتصلة الأسانيد بنقل الثقة العدل من أول السند إلى منتهاه، وقد ثبت قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» الحديث.
فهذا العلم الوراثي علم الصدور، يؤخذ صدراً عن صدر، فلما أدخل في الكتب دخل فيه غير أهله، قال تعالى: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾، فالمحروم من حُرِم بركتهم والانتساب إليهم.

على نفسه فليبكِ مَنْ ضاعَ عُمْره ... وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ (ع)

والغجدوانيّ عبد الخالق العلم الـ ... ـعالي الذي ترشد الأعمى بصائره
وعارف الريوكري صبح المعارف من ... بنوره الكون قد ضاءت دياجره
والقطب محمود الأنجيرفغنوي من ... في نصرة الحق لم تؤمن بوادره
وصفوة الصفوة الراميتنيّ علي ... وهو العزيزان إذ عزّت نظائره
وقدوة الأوليا بابا محمد الـ ... ـسماسي حاجب باب العلم ناظره
والسيد الميركلال من بهمته ... سرت إلى الملأ الأعلى أوامره
والنقشبند البهاء الغوث الاعظم من ... تفنى الدهور ولا تفنى مفاخره
ثم الولي علاء الدين سيدنا الـ ... ـعطار من عطّر الدنيا عباهره
والحبر يعقوب الجرخي الذي عقدت ... على ولايته الكبرى خناصره
والمستغاث عبيد الله سيدنا ... أحرار ناصح هذا الدين ناصره
والزاهد العابد القاضي محمد من ... في حلبة المجد لم تدرك ضوامره
وقبلة الأتقيا الدرويش سيدنا ... محمد طيب الأمداد طاهره
والخواجكي كعبة الإرشاد الأمكنكي ... محيي الطريقة زاهي المجد زاهره
والمفرد العلم الباقي محمد عا ... لي الشان عالم باقي العصر نادره
وأكبر الأوليا الفاروقي أحمد مو ... لانا مجدد هذا الألف عامره
ونجله العروة الوثقى محمد الـ ... ـمعصوم من فاز بالله معاصره
وشبله الغوث سيف الدين وارثه ... الحبر حاسم ليل الجهل حاسره
وسيد العلما بالله نور محمد البداؤوني من طابت سرائره
والمستجار حبيب الله مظهر من ... بالجان جانان تدعوه معاشره
وقبلة القصد عبد الله شاه غلا ... م الدهلوي عليّ القدر فاخره
وعالم الدهر قطب العصر سيدنا ... أبو البها خالد دامت مآثره
ونخبة الأصفيا الخانيّ مرشدنا ... محمد باهر الإرشاد ماهره
ونجله العالم الصوفيّ والدنا ... محمد مظهر العرفان ناشره
فهؤلاء هم السادات قد نظمت ... أسماؤهم ضمن سلك هم جواهره
عقد من اللؤلؤ الرطب المنضد أو ... مخلق تملأ الدنيا بشائره
تضوعت نفحات القوم منه هدى ... كما تضوع من روض أزاهره

وهم كبار الطريق الخالدية إن   عدَّت أكابرَه يوماً أصاغرُه
وهم ملاذ المسيء المستجير بهم   معاذه حينما تلقى معاذره[1]
تحيي القلوب كما تفني النفوس بما   أُوتوا من الذكر نعم العبد ذاكره
فمن توسل لله بحرمتهم   والقلب منكسر فالله جابره[2]
أمدنا الله طول العمر من بركا   تهم لتختم بالحسنى أواخره[3]

وقد تفرع عن كل من هؤلاء السادات العظام فروع عديدة، لم آلُ جهداً بحصرها عند ترجمة كل منهم على حسب ما بلغ إليه اطلاعي، مع التدقيق التام كما ستجد ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

إيقاظ

لا يخفى أن السلسلة الثالثة هي المشهورة بين مشايخ الطريق الأطهر، وهي التي كان يمليها حضرة مولانا خالد قدّس الله سرّه العزيز على الإخوان، ويذكر رجالها في دعاء ذكر الخواجكان، لكن لما كان الكلام على رجال السلسلة الأولى والثانية قليلاً والتقاؤهما بالسلسلة الثالثة قريباً،

---

(١) قوله: (المستجير بهم): لأنَّ المذنب العاصي أخف جرماً من كافر استجار بأم هانىء بنت أبي طالب، فقال لها النبي ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء». فكيف لا يجيرون عاصياً من المسلمين دخل جوارهم، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم. (ع)

(٢) قوله: (بحرمتهم): لأنَّ الجاه والمكانة اختصاص من الله خصَّهم به، فالمتوسل بهم إلى الله متوسل بصفة الاختصاص التي منه لهم، فكان توسله مشروعاً لأنه يدخل في التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، التي منها صفة الاختصاص، قال تعالى: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾، وقال سبحانه: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾. (ع)

(٣) فالممدُّ هو الله وحده، ولا تأثير لهم في شيء ألبتة، بل الله يمدُّ بهم ويخلق الإمداد على أيديهم، كما أمدَّ بالملائكة يوم بدر، فقال سبحانه: ﴿بلى إنْ تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين﴾. فالممدُّ بالملائكة يمدُّ بالأنبياء والأولياء، وحولُهم وقوتُهم بالله سبحانه، وكان من دعاء رسول الله ﷺ لحسَّان: «اللهم أيده بروح القُدُس». وهو جبريل عليه السلام، وقال تعالى: ﴿وأيدناه بروح القُدُس﴾. فالذي يؤيد بجبريل يؤيد بغيره من خلقه، والله أعلم. (ع)

وكانت الأُولى مشتملة على آل البيت الكرام، قدمتها في الذكر وترجمت رجالها قبلُ، حتى أتفرغ للكلام على رجال السلسلة الثالثة مبسوطاً كما ستراه بحوله تعالى في هذا السِّفْر[1].

وصل في فصل

قال في «البهجة السنية»: إنَّ ألقاب السلسلة تختلف باختلاف القرون، فمن حضرة الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ إلى حضرة أبي يزيد البسطامي ـ قدّس الله سرّه العزيز ـ تسمى: صدّيقية.

ومنه إلى حضرة رئيس الخواجكان الشيخ عبد الخالق الغجدواني ـ قدّس الله سرّه العزيز ـ تسمى: طيفورية.

ومنه إلى حضرة إمام الطريق ذي الفيض الجاري والنور الساري الشيخ بهاء الدين محمد الأويسي البخاري المعروف بالشاه نقشبند ـ قدّس الله سرّه العزيز ـ تسمى: خواجكانية.

ومنه إلى حضرة الغوث الأعظم الشيخ عبيد الله أحرار ـ قدّس الله سرّه العزيز ـ تسمى: نقشبندية أي منسوبة إلى نقشبند، ومعناه: ربط النقش، وهو صورة الكمال الحقيقي بقلب المريد.

وكان ذكرهم في الأول إلى زمان الشيخ بهاء الدين الملقب بهذا اللقب ـ قدّس الله سره العزيز ـ في الانفراد خفية، وفي الجمع جهراً، فأمرهم الشيخ المشار إليه بالخفية، بأمر له من روحانية الشيخ عبد الخالق الغجدواني شيخ مشايخه في عالم السَّير، فكان يُسِرُّ في الذكر انفراداً وجمعاً هو وجماعته، فيصير من ذكرهم كذلك في قلبَ المريد تأثير بليغ، فكان يقال لذلك التأثير: نقش، وذلك الذكر: بَنْد، أي: ربط. والنقش: هو

---

(١) السِفر: الكتاب. «مختار الصحاح».

صورة الطابع إذا طبع به على شمع ونحوه، وربطه بقاؤه من غير محو.

قلت: ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب «مفتاح المعية»: من أن صفات الله تعالى[1] هي المتوجهة على خلق آدم عليه السلام وبنيه، بتوجه من الذات العلية الأزلية حيث لا كيف ولا أين[2]، فظهر آدم عليه السلام وظهرت بنوه بعده على صورة مخصوصة مسماة بأسماء المتَوَجِّه تعالى، موصوفة بأوصافه، لها ذات يصح نسبة ذلك إليها، ولها أفعالٌ[3] كما لهُ أفعالٌ، ولها أحكام منها[4] على غيرها كما له أحكام كذلك، فكذلك نقش[5] الذات والصفات والأسماء والأفعال والأحكام ظهر بظهور آدمَ وبنيه، ولكنْ منْ بنيه مَنْ محا بعض ذلك النقش بغلبة الحيوانية عليه وضعف الإنَسانية الكامَلة فيهَ، ومنهم مَنْ كمُلَ نقشه فيسمى نقشبند أي: لازمُ النقش ومربوط النقش وهذه الكلمة صالحة لغير ذلك أيضاً. ا.هـ.

---

(١) قوله: (صفات الله): وذلك أنَّ الله خلق آدم على صورته، أي صفته، والمراد صفات المعاني وهي: القدرة والإرادة والحياة والعلم والسمع والبصر والكلام. فإمداد هذه الصفات قائم بآدم عليه الصلاة والسلام وذريته، ثم الأسماء الإلهية لابدَّ لها من متعلقات، إذْ الأسماء لا تتعطل، فكل دائرة إمكانية من الممكنات تعلقت بها الأسماء، فهي تتجاذبها بين الجلال والجمال، والقبض والبسط، والعطاء والمنع، والعز والذل، وهكذا. (ع)

(٢) قوله (حيث لا كيف ولا أين): هذا التوجه الذاتي هو تعلق صفة العلم تعلقاً تنجيزياً قديماً بالدوائر الإمكانية، وكذلك تعلق صفة الإرادة التنجيزي القديم بتخصيص كل ممكن ببعض ما يجوز عليه، والحال أنَّ تلك الممكنات التي تعلقت بها صفة العلم وصفة الإرادة، لم تكن مشاركة لله سبحانه في الوجود والقدم، بل كان الله ولاشيء معه، فهي ـ أي الممكنات ـ أعيان علمية ثبوتية، وبعد تعلق القدرة التعلق التنجيزي الحادث، صارت أعياناً وجودية، على وفق ما كانت عليه في ثبوتها بصفتي العلم والإرادة. (ع)

(٣) قوله: (ولها أفعال): من حيث الكسب والبروز والظهور، لا أنها مستقلة بخلق فعل وإيجاده، بل وحدانية الأفعال تقتضي أنْ ليس لغيره تعالى فعل من الأفعال، قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ وقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾. (ع)

(٤) قوله: (ولها أحكام) من حيث تسخير الأشياء كلها لآدم وذريته، وسيادته عليها. (ع)

(٥) قوله: (فكذلك نقش): وهذا هو العلم المودع في الفطرة من حيث العلم بالله، فالحقائق كلها علوم مودعة ممتزجة بكل روح مولود يولد على الفطرة. (ع)

ومنه إلى حضرة مجمع الأسرار والمعاني، قطب الطرائق، وغوث الخلائق، الإمام الرباني، مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد الفاروقي السهرندي ـ قدّس الله سرّه العزيز ـ تسمى: نقشبندية وأحرارية.

ومنه إلى جناب المُعلّى المُزكّى المُصفّى المُطهّر شمس الدين حبيب الله جان جانان المظهر تسمى: مجددية.

ومنه إلى شيخنا يعني حضرة مولانا خالد قدّس الله سرّه العزيز تسمى مجددية ومظهرية، ووقع الاصطلاح بين إخوان الطريقة والفلاح على تسميتها منه: خالدية.

إلى أن تتصل من محض فضل الله وكرمه، وجزيل إحسانه ونعمه، بتوفيقه النجيح على حسب ما بشَّرَ وبشَّرَ به بعض مشايخ هذه السلسلة بالكشف الصحيح، بحضرة المهدي صاحب الزمان عليه الرحمة والرضوان، لأن هذه الطريقة هي الملائمة المناسبة لما سيكون عليه من الصحو الصدّيقي، والرجوع إلى البقاء الأتم الحقيقي، بدعوة الخلق وهدايتهم إلى الحق برياستي الظاهر والباطن، وفتح القلاع والمواطن، وهي متصلة بحبل الله المتين، إلى يوم الدين، حشرنا الله وإخواننا وأحبابنا تحت لوائهم المنشور إلى يوم النشور آمين. اهـ.

فصل في وصل

اعلم أنَّ الإمام بهاء الدين الشاه نقشبند أخذ الذكر الخفي عن روحانية الشيخ عبد الخالق الغجدواني، ولم يجتمع معه في عالم الأجسام، لأن بين الإمام بهاء الدين والإمام عبد الخالق الغجدواني ـ قدّس الله سرّهما العزيز ـ خمس وسائط من رجال السلسلة العليّة كما مرَّ آنفاً.

وكذلك الشيخ أبو الحسن الخرقاني المتقدم ذكره أخذ الطريقة المرضية عن روحانية الإمام أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي قدّس الله سرّه

العزيز، وذلك في ظهوره له في عالم السير إلى الله تعالى، فإن الروحانيات[١] تجتمع في ذلك كاجتماعهم في المنام وبعد الممات، وهو عالم اللاهوت الخارج عن عالم الأجسام والأرواح. والخلق كلهم الأحياء والأموات في ذلك العالم منهم من يدبّر الله له جسماً في عالم الأجسام وهم الأحياء[٢]، ومنهم من لا يدبّر الله له شيئاً من الأجسام وهم الأموات، ومن لم ينفخ فيه الروح مما لم يُسَوَّ جسمه. ولما كان هذا الأخذ عن الروحانيات نبهنا عليه لأن أبا الحسن الخرقاني لم يجتمع بجسمانية أبي يزيد البسطامي قدّس الله سرّهما العزيز، لأن بينه وبينه زماناً بعيداً، فإنَّ أبا يزيد توفي سنة إحدى وستين ومائتين - وقيل: أربع وستين ومائتين - وأبو الحسن ولد بعده بكثير، وأبو يزيد - قدّس الله سرّه العزيز - أيضاً لبس خرقة الطريق ظاهراً وباطناً من روحانية الإمام جعفر الصادق - رضي الله عنه - كما تقدم في الشيخ أبي الحسن، وما اشتهر بين بعض أهل الطريق من خدمة الشيخ أبي يزيد - قدّس الله سرّه العزيز - للإمام جعفر عليه السلام وصحبته له غير صحيح لأن وفاة الإمام جعفر الصّادق - رضي الله عنه - قبل ولادة الشيخ أبي يزيد قدّس الله سرّه العزيز.

وكل من أخذ عن الروحانيات يسمى: «أويسياً»[٣] في اصطلاح ساداتنا النقشبندية قدّس الله أسرارهم العليّة.

---

(١) قوله (فإنَّ الروحانيات): وذلك لأنَّ الله سبحانه أعطى الروح قدرة على التشكل فلها عالم المثال، كما للملائكة المكرمين، وتارة تتشكل ببرزخ النوم، وتارة إذا تمَّ تجردها عن الماديات والكثائف تتشكل في عالم اليقظة، وتُرى، وقد ثبت في الحديث: «من رآني في النوم فسيراني في اليقظة فإنَّ الشيطان لا يتمثل بي». (ع)

(٢) قوله (وهم الأحياء): أي حياة دنيوية أو برزخية، فتروح أرواحهم بأجسادهم اللطيفة حيث شاؤوا كالشهداء والأنبياء وورائهم، قال تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.
وقال: ﴿فأما إنْ كان من المقربين فروح وريحان وجنَّت نعيم﴾ قوله: فروح، قال الإمام مالك: بلغنا أنَّ أرواح المقربين تروح حيث شاءت. (ع)

(٣) قوله: (يسمى أويسياً): نسبة إلى سيدنا أويس القَرني الذي تم له التلقي من روحانية النبي - ﷺ - في حياته ولم يجتمع به. (ع)

ثم اعلم أنَّ هذه النسبة الروحانية عند العارفين بالله ـ تعالى ـ أقوى اتصالاً من الجسمانية، إذ هي من علامة كرامة الحقِّ عزَّ وجلَّ لعبده، فإنَّ مَنْ اصطنعه لنفسه تعالى أذنَ لروحانية أحد أحبابه بتربيته، كما وقع لأكابر أهل الله تعالى، فإن ختم الأولياء المحمديين الشيخ الأكبر محيي الدين، والعارف الكبير الشيخ عبيد الله أحرار ممن ربّته روحانية عيسى عليه السلام.

والغوث النقشبند ربّته روحانية الإمام عبد الخالق الغجدواني.

والإمام الرَّبَّاني ممن ربّته روحانية أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه.

فاتصال يدهم بهم اتصال روحاني، وهو أقوى من الجسماني، ولذلك كانت السَّادة النقشبندية تخص هذه السلسلة بالذكر في التَّلقين دون بقية السلاسل، علماً بأنَّ اتصال الأرواح أشد من اتصال الأشباح، وعليه يدندن كل عارف ذائق، وكما أنَّ للسادة النقشبندية اتصالاً [روحانياً][1] بواسطة قطب الأولياء أبي الحسن الخرقاني بسلطان العارفين أبي يزيد البسطامي، وبواسطة أبي يزيد بأشرف الأئمة جعفر الصَّادق، كذلك لهم اتصالان جسمانيان بالسلسلتين السالفتين فَيَدُ نسبتهم ـ ولله الحمدُ ـ متصلة، وعروة سلسلتهم لا انفصام لها روحاً وجسماً حساً ومعنى، ولقدْ سَهَا بعض المؤلفين بقوله: إن سلسلة النقشبندية منفصلة ويد نسبتهم غير متسلسلة. فإنَّه منه غرور بقصوره من عدم الاطلاع على سلاسلهم المنظمة، ولو وقف على ما في «الفتوحات المكية» و«طبقات الأولياء» للعارفَيْن الشعراني والمناوي في كثرة من ربّتهم روحانية الأولياء الكرام ـ بل الأنبياء العظام ـ من كبار أهل الله لتوقف وما تعسَّف، وسأتلو عليك عند ترجمة كل منهم ما فيه زيادة تفصيل لذلك إنْ شاء الله تعالى، وقد آن الشروع في المرام، والله المستعان في البدء والختام.

---

(١) زيادة من المطبوعة.

السلسلة الأولى

وهي المسماة بسلسلة الذّهب لاتصالها بآل بيت النبوّة الطّاهريّ النسب، الطّاهري الحسب، ومعدنها الأصفى، حضرة المصطفى المعظم ﷺ التعين الأول[1]، والإنسان الأكمل محمد خاتم الرسل الكرام، عليه أفضل الصّلاة وأتمّ السّلام.

ماذا يقول هذا العبد في مقام سيد المرسلين، الذي لولاه لما عُرِفَ ربُّ العالمين، ولا نُسجت نسخة العالم على منوال التكوين.

وإنَّ قميصاً خِيْطَ مِنْ نسجِ تسعة وعشرين حرفاً عن علاه قصير

ولكن تَيَمّناً بذكر نبذة من سيرته الشريفة، وأحواله وأقواله المنيفة، التي هي أكبر من أنْ تُحصى أو تُحصر في كتاب، أوردت ما قاله العارف المناوي في ذلك مرتباً على ثمانية أبواب:

---

(١) قوله (التعين الأول): في عالم الظهور باعتبار نورانيته عليه الصلاة والسلام. وقوله (والإنسان الأكمل): الذي جمع الله فيه ما تفرق في العوالم من الكمالات، فمن أراد أن تكمل إنسانيته فليشهده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عموم أحواله الظاهرة والباطنة، وليتحقق بما كان عليه، وليتخلق بأخلاقه، حتى يصبح نسخة عنه. (ع)

الباب الأول

في نسبه الأقدس وسيرته من ولادته إلى وفاته ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وهذا مجمع عليه، ورفع نسبه إلى آدم كرهه الإمام مالك وغيره لعدم ثبوته.

ولد ﷺ بمكة المكرمة في شهر ربيع الأول يوم الإثنين عام الفيل، ورأَتْ أُمُّه السيدة آمنة إذْ وضعته نوراً خرج منها أَضاءتْ له قصور بصرى، ووَقَعَ وبصرُه مرتفع إلى السماء.

وتوفي والده المكرم وعمره الشريف عامان وثلث، وقيل: كان حملاً.

وأرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب، وبعدها حليمة السعدية، فأقام عندها في بني سعد أربعة أعوام، فأتاه جبريل عليهما الصَّلاة والسَّلام فشقَّ صدره، فخافت عليه فردته إلى أُمِّه فخرجت به إلى المدينة المنوّرة لزيارة أخواله فمرضت وهي راجعة به فتوفيت ودفنت بالأبواء وعمره نحو ست سنين، فحملته أُمُّ أيمن إلى جدّه عبد المطلب في مكة المكرمة زادها الله شرفاً.

فكفله إلى تمام ثمان سنين، ثمَّ تُوفي وقد أوصى به إلى عمّه أبي طالب، فافتخر بشرف كفالته وتربيته، وأمر الله سبحانه وتعالى إسرافيل عليه السلام أنْ يقوم بملازمته فكان قرينه إلى أنْ تمَّ له إحدى عشرة سنة.

ثمَّ أمر جبريل عليه السلام بملازمته بطريق المرافقة والمقارنة والحفظ، لكن لم يظهر له، ولم يكلّمه.

وسافر مع عمّه إلى الشام حتى وصل بُصرى، فرأى بحيرا الراهب منه علامات النبوّة، فقال لعمّه: ارجعْ به لئلا يقتله اليهود.

وكان سنّه الشريف ثنتي عشرة سنة، ثمَّ سافر إلى الشّام مع ميسرة غلام السيدة خديجة الكبرى - رضي الله عنها - في تجارة لها فباع واشترى، فرأى ميسرة منه العجائب وما خُصَّ به من المواهب، فأخبر السيدة خديجة فخطبته فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين، وصار يُدعى بالأمين.

فلمّا تمَّ له خمس وثلاثون سنة بنت قريش الكعبة المطهّرة، واختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود محلّه، وتنازعوا ثمَّ رضوا بأنَّه هو الذي يضعه، فوضعه بيده المباركة وصار من يومئذ يسمع صوتاً أحياناً ولا يَرى شخصاً، ثمَّ صار يرى نوراً.

ولما قربت أيام الوحي أحبَّ الخلوة والانفراد فكان يختلي في جبل حراء بالذكر وزَعم أنه بالفكر لا التفات إليه لأنَّ خلوة طلّاب طريق الحق عَلى أنواع:

الأول: أنْ تكون لطلب مزيد علم من الحق لا بطريق النظر والفكر، وهذا غاية مقاصد أهل الحق؛ لأن من خاطب في خلوته كوناً من الأكوان أو فكَّر فيه فليس في خلوة(١).

قال رجل لبعض الأكابر: اذكرني عند ربك في خلوتك قال: إذا

(١) قوله (فليس في خلوة): وفي هذا يقول ابن عطاء الله في حكمه: ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها، إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلبه أمامك، ولا تبرجت له ظواهر المكوّنات، إلاّ ونادته حقائقها: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾. (ع)

ذكرتك فلست معه في خلوة. وشرط هذه الخلوة أن يذكر بنفسه وروحه لا بنفسه ولسانه.

الثاني: أنْ تكون خلوتهم لصفاء الفكر ليصح نظرهم في طلب المعلومات، وهذه لقوم يطلبون العلم من ميزان العقل، وذلك الميزان في غاية اللَّطافة، وهو بأدنى هوى يخرج عن الاستقامة، وطلاب طريق الحق لا يدخلون هذه الخلوة، بل خلوتهم بالذكر وليس للفكر عليهم سلطان، ومهما وَجَدَ الفكر طريقاً إلى صاحب هذه الخلوة فليعلم أنَّه ليس من أهلها فيخرج منها، وأنَّه ليس من أهل العلم الصحيح الإلهي، إذ لو كان من أهله حالت العناية الإلهية بينه وبين دوران رأسه بالفكر(١).

الثالث: خلوة لدفع الوحشة من مخالطة غير الجنس والشغل بما لا يعني.

الرابع: خلوة تطلبُ زيادة توجد فيها.

وخلوة حضرة الرسالة من النوع الأول، فكان بعيداً من المخالطات حتى من الأهل والمال، واستغرق في بحر الأذكار القلبية فانقطع عن الأضداد بالكلية، وظهر له الأنس والجلوة بتذكر من له الخلوة، ولم يزل في ذلك الأنس، ومرآة الوحي تزداد من الصفا والصقال حتى بلغ أقصى درجات الكمال والمراد، فظهرت تباشير صبح الدجا وأشرقت وانتشرت

---

(١) قوله (بالفكر): وذلك لأنَّ العقل آلة كالبصر في المحسوسات، وكما ثبت خطأ البصر في إدراكه للموجود المحسوس، لحكمه بصغر النجم، ووقوف الظل، وسكونه، فمن باب أولى إثبات الخطأ للعقل في المدركات المعنوية التي لا تخضع لسلطان الحواس، لأنَّ من المسلَّم أنَّ ما لا يخضع لسلطان الحواس لا مجال للعقل في إدراكه وتصور ماهيته على ما هو عليه كالروح مثلاً، بل تحتاج إلى مصدر غيبي يكشف حقيقتها وهو الوحي.

ثم العقول تتفاوت في الإدراك، فتحتاج إلى ضابط يضبط ثمراتها والحكم عليها بالصحة أو الخطأ، وهذا الضابط والميزان الذي تحتكم إليه العقول إنما هو الشرع الموحى به إلى رسول الله ﷺ.

تــركَ العقــلَ فــي هــواكَ رجــالُ ... مــا لعقــلٍ فــي سنــاكَ مجــالُ. (ع)

بروق السعادة وتألّقت، فصار لا يمرُّ بشجر ولا حجر إلاّ قال بلسان فصيح: السَّلام عليك يا رسول الله! فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شبحاً ولا خيالاً.

فبينما هو كذلك ـ وذلك عند مضي أربعين عاماً من عمره ـ قائم على جبل حراء إذ ظهر له شخص فقال له: أَبْشِرْ يا محمد! أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمّة، ثم أخرج له قطعة َعط من حرير مرصعة بجوهر فوضعها في يده، وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فضمّه وغطّه حتى بلغ منه الجهد، ثمَّ قال له: اقرأ فقال: ما أنا بقارىء فغطّه كذلك ثلاثاً، ثم قال له: ﴿اقرأ باسم ربِّك﴾ إلى قوله: ﴿ما لم يعلم﴾.

ثم قال: انزل من على الجبل، فنزل معه إلى الأرض فأجلسه على درنوك أبيض وعليه ثوبان أخضران، ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عينُ ماء فتوضأ جبريل وأمره أن يفعل كفعله، ثم أخذ كفاً من ماء فرشَّ به وجه الرسول، ثم صلى به ركعتين، وقال: الصلاة هكذا. وغاب، فرجع إلى مكة وقصَّ على خديجة ذلك، وقال: قد خشيت على نفسي، فثبّتته وصدقته، فكانت أول من آمن به، ثم أتت به ورقة بن نوفل[1] فقصَّ عليه ما رأى فصدقه، فكان أول رجل آمن به، وقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك. قال: أوَ مخرجيَّ هم؟! قال: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي.

ثم أسلم سيدنا أبو بكر وسيدنا عليّ رضي الله عنهما، ثم أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى الدين، وكان يستقبل في صلاته بيت المقدس، ثم بعد الهجرة حُوّلت القبلة للكعبة.

ولما كثر المسلمون اتخذ دار الأرقم فاختفوا فيها ثلاث سنين، ثم أُمر

(١) ورقة بن نوفل بن أسد (٠٠٠ ـ نحو ١٢ ق. هـ) من قريش: حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وتنصَّر وقرأ كتب الأديان، لم يدرك الدعوة، وعمي آخر حياته، أخذت السيدة خديجة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليه عند ابتداء الوحي. «الأعلام» (٨/ ١١٤).

بإظهار الدين فدعا إلى الإسلام جهراً، وأنزل الله القرآن فتحداهم بسورة منه فلم يقدروا فمن قائل: هذا سحر، ومن قائل: في أُذُنيَّ وقر، وأقر الوليد بن المغيرة والنضر وعقبة والأخنس وأبو جهل بأنه غير مفترى، وأنه ليس من كلام البشر لكن غلبت عليهم الشقوة، واستهزأ به جماعة فأهلكوا وكفاه الله شرهم.

ولما فشا الإسلام مشى كفار قريش إلى عمه أبي طالب وشكوا ما سمعوا منه من سبِّ آلهتهم، وذمِّ دينهم، وتكرر ذلك وهو يذبُّ عنه، وفي آخر المرار قالوا: أعطنا محمداً نقتله، وخذ بدله عمارة بن الوليد فتبنّه؛ فقال: أكفل ابنكم وأعطيكم ابني ليقتل! هذا لا يكون، فمضى يجهر بالتوحيد فأجمعت قريش أن يقولوا: ساحر، وقعدوا بالطريق أيام الموسم يحذِّرون منه الناس، فافترقوا وقد شاع أمره، وسار ذكره، فأخذوا في إيذائه وتعذيب من أسلم، وطلبوا منه آية فأراهم انشقاق القمر، فزاد الذين آمنوا إيماناً والكفار طغياناً.

ولما اشتد على المسلمين البلاء هاجر جمع منهم للحبشة فأقاموا بها خمس سنين، ثم بلغهم إسلام قريش فعادوا فوجدوه باطلاً، فرجعوا فعظمت معاداة قريش له ولصحبه، فكتبوا كتاباً أن لا يُناكحوا بني هاشم ولا يوالوهم ولا يبايعوهم ولا ولا، وعلقوه بالكعبة، وحصروهم بالشعب ثلاث سنين حتى اشتد بهم البلاء وسمعت أصوات صبيانهم يتضورون من الجوع، وأطلع الله نبيه على أن الأرضة أكلت ما في الصحيفة من جور وظلم وبقي ذكر الله، فأخبرهم فأخرجوها، فوجدت كذلك، وشُلّت يد كاتبها فقام رجال من الكفار في نقضها، فلبسوا السلاح وأخرجوهم.

ثم مات عمه أبو طالب، ثم خديجة فحزن لذلك، ثم بعد عام ونصف أُسريَ به من مكة للقدس على ظهر البراق، ثم علا إلى السماء ومعه جبريل، فأتى الأنبياء كل واحد في سماء ففرحوا به، ثم علا إلى مستوى سمع فيه صريفَ الأقلام بالأقدار، ثم دنا فتدلى، ففرض الله عليه وعلى

أصحابه خمسين صلاة، فلم يزل يراجعه ويسأله التخفيف بإشارة موسى عليهما الصلاة والسلام حتى جعلها خمساً، فلما رجع أخبرهم فصدّقه الصدّيق وكذّبه الكفار، وسألوه عن صفة بيت المقدس؛ ولم يكن رآه قبل فرفعه إليه جبريل، حتى وصفه لهم فلم يمكنهم تكذيبه لكن جحدوا عناداً.

ولما اشتد الأذى للمصطفى ﷺ عرض نفسه على القبائل يطلب من يؤويه ويحميه ليبلغ رسالة ربه، فكلٌ منهم يعرض ويهزأ به، حتى أتاح الله له الأنصار فصار الواحد منهم يسلم فيسلم جميع عشيرته، ففشا الإسلام بالمدينة فهاجر إليها المسلمون.

وأراد أبو بكر أن يهاجر فمنعه حتى هاجرا معاً فخرجا إلى غار ثور، ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما، وابن أريقط يدل على الطريق، فسلكوا طريق الساحل وأعمى الله عنهم العدوّ، فرآهم سراقة[1] فتبعهم يريد قتلهم، فدعا عليه المصطفى ﷺ فساخت فرسه في الأرض، فناداه: الأمان يا محمد! فدعا له فخلص وحلف أن لا يدل عليه أحد، فرجع فلقيه الكفار يطلبونه، فقال: ارجعوا فقد استبرأت لكم، ثم مرّوا بخيمة أم معبد فاستسقوها لبناً، فقالت: ما عندي. فنظر النبي ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه؟ قالت: شاة أضرٌ بها الجهد وما بها لبن، فمسح ضرعَها فحلبَت وشربوا.

وسافر حتى وصل إلى قباء يوم الإثنين من ربيع الأول فأقام بها أربعاً وعشرين ليلة.

ثم رحل يوم الجمعة فأدركته صلاتها في الطريق فصلاها بالمسجد المشهور، وهي أول جمعة صلاها.

ثم ارتحل للمدينة فبركت ناقته بمحل مسجده الآن، فنزل بدار أبي

---

(١) سراقة بن مالك بن جعشم (٠٠٠ ـ ٢٤ هـ) المدلجي الكناني: صحابي، له شعر، له ١٩ حديثاً، أسلم بعد غزوة الطائف سنة (٨هـ).

أيوب حتى بنى مسجده ومنازل زوجاته، وبنى صحبه حوله، وكانت المدينة كثيرة الوباء فزال بدعائه، ونقل الله منها الحمّى إلى الجحفة[1]، فأقام بها شهراً ثم نزل عليه إتمام الصلاة أربعاً، وأقام من ربيع الأول إلى صفر يبني مسجده، وفي هذا العام كان ابتداء الأمر بالأذان، وفي الثاني فُرِضَ الصوم وزكاة الفطر والمال وحوّلت القبلة للكعبة وغزا بدراً، وفي الثالث أحداً، وفي الرابع بني النضير وقصرت الصلاة وحُرِّم الخمر وشُرِع التيمم وصلاة الخوف، والخامس الخندق وبني قريظة والمصطلق، والسادس عمرة الحديبية وبيعة الرضوان وفُرِض الحج، والسابع خيبر وعمرة القضاء، والثامن وقعة مؤتة وفتح مكة وحُنين، والتاسع تبوك وحجة الصديق ويسمى: عام الوفود، والعاشر حجة الوداع والحادي عشر وفاته ﷺ.

* * *

---

(١) الجحفة: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة، من مكة على أربع مراحل. وهي الآن خراب. «معجم البلدان» (٢/ ١١١).

الباب الثاني

في صفاته الظاهرة ﷺ

كان ﷺ رَبْعة لا بالطويل ولا بالقصير لكنه إلى الطول أقرب، بعيد ما بين المنكبين، أزهر اللون، عظيم الهامة، واسع الجبين، أزج[1] الحاجبين، أبلج[2] ما بينهما كأن ما بينهما الفضة المخلصة، أدعج[3] العينين فيهما تموج من حمرة، مفلج[4] الأسنان يفتر عن مثل حبِّ الغمام، شعره غير جعد ولا قطط[5] بل وسط، أحسن الناس عُنُقاً لا يُنسب إلى طول ولا قصر، ما ظهر من عنقه للشمس والريح كأنه بريق فضة مشرَّبٌ ذهباً، عريض الصدر، لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً، كالقمر في بياضه، موصول ما بين لبَّته وسرَّته بشعر كالقضيب ليس في صدره ولا بطنه غيره، وله عُكَنٌ ثلاث يغطي الإزار منها واحدة وتظهر اثنتان.

وكان عظيم المنكبين أشعرَهما، ضخم رؤوس العظام، واسع الظهر، بين كتفيه خاتم النبوة مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامة سوداء تضرب إلى صفرة، وحولها شعرات متوالية كأنها عرف فرس، عَبْل[6] العضدين والذراعين، طويل الزندين، رَحْبَ الرَّاحة، سايل الأطراف، كأن أصابعه قضبان فضة، كفُّه ألين من الحرير كأنه كفُّ عطار، يضع يده على رأس

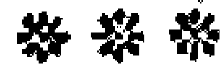
---

(١) أزج: التزجج هو استقواس الحاجبين مع طول، أو دقة الحاجبين مع سبوغهما.
(٢) أبلج: أي ليس مقروناً بين الحاجبين.
(٣) أدعج: شديد سواد العين.
(٤) مفلج: الفلج: انفراج ما بين الثنايا.
(٥) قطط: بفتحتين: شدة الجعودة.
(٦) عَبْل: أي ضخم.

الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه، عَبْل ما تحت الإزار من الفخذ والساق، معتدل الخلق في السمَن، بَدن في آخر عمره.

وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السِّن.

وكان يمشي كأنما يتقلّع من صخر، وينحط من صَبَب، يخطو تكفياً، ويمشي هَوْناً بغير تبختر، إذا التفت التفت جميعاً، ولا يلوي عنقه، عَرَقُه كاللؤلؤ في البياض، والمسك في الريح، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله.



الباب الثالث

في صفاته الباطنة وأخلاقه الظاهرة وآدابه الباهرة ﷺ

قد زيّنه الله تعالى بالخلق الكريم، ثم أضاف ذلك إليه فقال سبحانه: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

فمن مكارم أخلاقه ومحاسن آدابه: أنه كان أحلم الناس وأشجعهم وأعدلهم وأعفهم وأجودهم، لا يبيت عنده درهم ولا دينار، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ولجأه الليل لا يأوي منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاجه، وما سئل قط فقال: لا، وأصدقهم لهجة، وأشدهم تواضعاً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، وأعظمهم حياء، لا يُثَبِّت بصره في وجه أحد، أسكت الناس في غير كِبْر، وأفصحهم وأبلغهم في غير تطويل، يقبل الهدية ولو جرعة لبن ويكافيءَ عليها بأكثر ويأكلها ولا يأكل الصدقة، يغضب لربه لا لنفسه، ينفذ الحق وإن عاد بالضرر عليه، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، خافض الطرف، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، رقيق البشرة، لطيف الظاهر والباطن، يُعرف في وجهه غضبه ورضاه، وإذا أهمّه أمر أكثر من مسِّ لحيته، يتكلم بكلام بيّنٍ فصلٍ يحفظه من سمعه، ويعيد الكلمة ثلاثاً أحياناً ليُعْقَل عنه.

وكان متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، كثير البكاء والضراعة، يمشي مع المسكين والأرملة لقضاء حوائجهما، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم أهله، ويمشي منتعلاً وحافياً، ويعود المرضى حتى بعض الكفار وأهل النفاق، ويشهد الجنائز، ويزور قبورَ المؤمنين، ويسلّم عليهم ويستغفر لهم،

ويركب الفرس والبعير والحمار بإكاف[1] وعُرياً لكن أكثر ركوبه للأولَيْن، وأما البغل فكان قليلاً في بلاد العرب، لكن أُهدي له فركبه، ويركب منفرداً، ويردف أحياناً خلفه عبده وزوجته وغيرهما، ويجالس الفقير، ويؤاكل المسكين، ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف، فكان يتواضع لأكابر الكفار للتألف ولكونهم مظاهر العزة الإلهية[2]، ويقول: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»، ولا يواجه أحداً بما يكرهه، ويمزح ولا يقول إلاّ حقّاً، ويُوَرِّي ولا يقول في توريته[3] إلاّ صدقاً، ويجلس للأكل مع العبيد، ويأتي إلى بساتين إخوانه إكراماً لهم، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس، لا يهوله شيء من أمر الدنيا، لا يحقر مسكيناً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحداً، وقيل له ادع على الكفار فقال: «إنما بُعثت رحمة اللّهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، لم يكن فحّاشاً ولا لعّاناً ولا بخيلاً ولا جباناً ولا صَخّاباً في الأسواق، يختار أيسر الأمور، ولا يضحك إلاّ تبسماً، يعجب مما يعجب منه جلساؤه، ويضحك مما يضحكون، ويذكرون ما كان منهم في الجاهلية فيتبسم، قد وسع الناس خُلُقه، فهم في الحق عنده سواء، وما انتهر خادماً، ولا قال له في شيء صنعه، لمَ صنعته؟ ولا في شيء تركه: لمَ تركته، بل كان يقول: «لو قُدِّرَ كان»[4]، ولا ضرب بيده أحداً إلاّ في الجهاد، مجلسه مجلس حلم وصبر وحياء، من فاوضه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد

---

(١) إكاف: البرذعة وهي الحلس الذي يلقى تحت الرَّحل. «مختار».

(٢) قوله (مظاهر العزة الإلَهية): وذلك لأن العزة بمعنى المنعة، ظهرت في امتناع هؤلاء عن الإيمان والاتباع، وذلك بإضلال اسمه تعالى المُضل، فظهر ذلك بتعززهم وتكبرهم، فلكل اسم إلهي حقيقة تسري إلى الدوائر الإمكانية فتكون مظاهر لتلك الأسماء. (ع)

(٣) التورية: هي أن يريد المتكلم بكلامه خلاف ظاهره، مثل أن يقول في الحرب: مات إمامكم، وهو ينوي به أحداً من المتقدمين. «التعريفات / ص٤٩».

(٤) قوله (لو قدر كان): هذا دليل القوم على ما يسمّونه الفناء في الأفعال أن يشهد ـ أنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه قدَّر الله وما شاء فعل ـ عند جميع الأشياء المدركة. (ع)

بيده فيرسلها حتى يرسلها الآخر، ولا يجلس إلاّ على ذكر الله، وكان أكثر جلوسه مستقبلاً محتبياً بيديه.

وكان حسنَ العشرة لأزواجه ويُسوّي بينهم في الإيواء والنفقة، وأما المحبة فيقول: «اللّهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1] يعني المحبة والجماع.

وكان يبدأ من لقيه بالسّلام حتى الصبيان، ويؤثر الداخل بوسادته، ويبسط له ثوبه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل، ولا يقول في الرضا والغضب إلاّ الحق، وإذا وعظ احمرّت عيناه، وعلا صوته كأنه منذر جيش، وإذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر.

وكان يُقدِّم أصحابه أمامه، ويمنع أن يمشي أحد خلفه، ويقول: «خلّوا ظهري للملائكة»[2]، ولا يجزي سيئة بمثلها بل يعفو ويصفح، جمع الله له السيرة الفاضلة، والسياسة التّامّة الكاملة، وهو أمّيٌّ لا يكتب ولا يقرأ، نشأ ببلاد الجهل فعلّمه الله مكارم الأخلاق، وأدّبه فأحسن تأديبه.

(فصل) وكان خُلُقه في الطعام أنه يأكل ما وجد، ولا يتكلّف ما فقد، وإذا حضر طعام لا يردّه، وما عاب طعاماً قط، بل إن أعجبه أكله وإلاّ تركه، وأكل لحم الإبل والغنم والدجاج والسمك والرطب والتمر، وشرب اللبن حليباً وممزوجاً، وأكل الخبز بتمر والخبز بخل والخبز بشحم، وكبد الغنم مشوياً، والقديد والدبّاء[3] وكان يحبها ويتتبّعها من جوانب القصعة،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١٤٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧)، والنسائي في «السنن» (٧/ ٦٤)، وأبو داود (رقم ٥١٣٤)، وابن ماجه (رقم ١٩٧١)، والدارمي (٢/ ١١٤)، والحاكم (٢/ ١٨٧)، والترمذي (رقم ١١٤٠)، وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٢) (خلوا ظهري للملائكة): أخرجه البيهقي والحاكم عن جابر بلفظ قريب. «كنز العمال» (٧/ ١٨٤٢٢).

(٣) الدّبّاء: القرع.

والجبن والثريد والخبز بزيت والخبز بزبد، وإذا لم يجد شيئاً صبر حتى شدَّ الحجر على بطنه، وكان أحياناً لا يجد من الدقل[1] ما يملأ بطنه، وكان يأكل لحم الطير الذي يصادفه ولا يتبعه ولا يصيده.

وكان إذا أتى طعامه بسط السُفْرَة على الأرض ووضعه عليها، ولم يأكل على خِوَان[2]، ولا في سكرجة[3].

ويأكل في ثلاثة أصابع، وربّما استعان بالرابعة، وينهى عن الأكل بأصبع وقال: «أكل الشيطان». وباثنين وقال: «أكل الجبابرة»[4].

ويأكل اللقمة الساقطة ويقول: «لا تدعها للشيطان»[5].

ويتبع ما سقط من السفرة، ويقول: «مَنْ فعله غُفر له»[6].

ويُسمِّي الله أول طعامه وإذا فرغ حمده، ولا يأكل متكئاً بل مقعياً، ويقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[7]، ويحب اللحم ويعجبه الذراع ـ وسُمَّ فيه ـ والعجوة والعسل والحلوى، وأحب الفاكهة إليه العنب والفاكهة.

قال الغزالي[8]: وكان يأكل البطيخ بخبز ويستعين بيديه جميعاً، وربما

---

(١) الدقل: أردأ التمر.

(٢) خوان: الذي يؤكل عليه. مُعرَّب. «مختار».

(٣) سُكُرُّجَة: هي ـ بضم السين والكاف والراء والتشديد ـ إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأُدْم. «لسان العرب / سكرج».

(٤) حديث: (أكل الجبابرة): انظر «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» (٣/ ٢٤١).

(٥) حديث (يأكل اللقمة الساقطة): وردت عدة روايات في صحيح مسلم وغيره.

(٦) حديث (ويتبع ما سقط): أخرجه الحاكم في الكنى. «كنز العمال» (٤٠٧٥٠).

(٧) حديث (آكل كما): أخرجه أبو يعلى في «المسند». «كنز العمال» (١٥/ ٤٠٧٠٧).

(٨) الغزالي: محمد بن محمد بن محمد (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) الغزالي الطوسي حجة الإسلام: له نحو مئتي مصنف، مولده ووفاته في الطابران بخراسان. من كتبه: إحياء علوم الدين. «الأعلام» (٧/ ٢٢).

أكل العنب خرطاً[1]، وكان أكثر طعامه التمر والماء، وكان يحب الهِنْدبا والبقْلة الحمقاء وهي الرِّجْلة، وكان يعاف الضبَّ والطحال ولا يُحَرِّمُهما.

وأُتي بلبن وعسل في إناء فردّه وقال: «ادمان في إناء لا آكله ولا أُحرِّمه لكنِّي أكره الفخر»[2].

وكان في بيته يقوم ويأخذ ما يأكل بنفسه، وما اشتهى على أهل بيته طعاماً ولا اقترحه، وكان لا يأكل وحده، ولا يجمع بين سمك ولبن، ولا بين لبن وشيء من الحوامض، ولا بين غذاءين حارّين ولا باردين، ولا قابضين ولا مسهلين ولا غليظين، ولا بين لحم مشوي ومطبوخ، وقديد ورطب، وحليب ولحم، ولا يأكل طعاماً حاراً ولا يابساً ولا ما فيه عفونة كالملوحات.

وكان يدفع ضرر بعض الأطعمة ببعض كتمر بزبد، وبطيخ أو قثاء برطب، وينقع التمر ويشرب ماءه لهضم الطعام.

وأمر أن يؤكل ما تيسر قبل النوم، وأن لا يؤكل الخبزُ وحده، ونهى عن النوم عقبِ الأكل، وقال: «أذيبوا طعامكم بذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم»[3].

---

(١) خَرْطاً: يقال: خرط الرجل العنقود إذا وضعه في فيه، ثم يأخذ حبه، ويخرج عرجونه عارياً منه. «لسان العرب / خرط».

(٢) حديث: «إدمان في إناء»: أخرجه الحاكم في «المستدرك» وردّه الذهبي، وأخرجه الطبراني في «الأوسط». «كنز العمال» (١٥/ ٤٠٧٢٩).

(٣) حديث «أذيبوا» موضوع، أخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (ص٥٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٩)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٥٦)، وابن السنّي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٤٨٢)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ١٣٠). كلهم من طريق بزيع بن حسان، حدثنا هشام بن عروة وهو من وضع بزيع بن حسان كان يروي الموضوعات، ويأتي عن هشام بالبواطيل. انظر «لسان الميزان» (٢/ ١٦).

وكان يشرب في ثلاث أنفاس، ويمصُّ الماء مصّاً ولا يعبُّ ويقول: «الكباد من العب»[1].

ولا يتنفس في الإناء ويشرب قاعداً غالباً، ويشرب قائماً لعذر، وكان يحب شرب البارد ويكره الحار، وإذا شرب دفع البقية لمن عن يمينه، وإن كان من على يساره أشرف أو أسنَّ قال لصاحب اليمين: «الشربة لك فإن شئت آثرته»[2].

(فصل) وأما خُلُقه في اللباس:

فكان يلبس ما وجد كتاناً أو صوفاً أو قطناً والغالب القطن قميصاً أو رداءً أو إزاراً أو غيرهما، ويحب الثياب الخُضر ولبس البُردَة والحبَرة والجُبة والحُلة الحمراء والقَبَاء والثوب السادج والأسود والفرو المُعلَّم عَلى أطرافه بسندس[3].

وكان أحب الثياب إليه القميص، وفي خبر ضعيف: أنه لبس السروال، ولبس جبة خسروانية مفرجة عليها سجف من ديباج، والطيلسان حالَ الحرِّ كما في اليوم الذي أُمر بالهجرة فيه، وكان له ثوبان للجمعة، وبُرْد أخضر للعيد.

ويلبس العمامة البيضاء والسوداء والأكثر البيضاء بغير قَلَنْسوة، وبها، وقَلَنْسوة بغير عمامة، ويجعل لها غالباً عَذَبَة بين كَتفيه، ولم تكن عمامة كبيرة تؤذي الرأس ولا صغيرة تقصر عن وقاية الحرِّ والبرد.

ولم يتحرر في طولها وعرضها شيء، وما وقع للطبري أنَّ طولها سبعة أذرع في عرض ذراع وأنها من صوف لم يثبت.

---

(١) حديث «الكباد من العب»: أخرجه سعيد بن منصور في سننه، وابن السني، وأبو نعيم في الطب، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي حسين مرسلاً. «كنز العمال» (١٥/ ٤١٠٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٠)، والترمذي (٥/ ٥٠٦) (رقم ٣٤٥٥) وقال: حديث حسن. وقريب من لفظه في البخاري (رقم ٥٦١٩ ـ ٥٦٢٠).

(٣) سندس: هو رقيق الديباج ورفيعه. «لسان العرب / سندس».

وكان له عمامة تسمى السحاب فوهبها لعلي فكان إذا قدم فيها يقول: «أتاكم عليّ في السحاب»[١].

وكانت ثيابه كلها فوق الكعبين، وربما جعلها لنصف الساق، ويلبسُ ثوبه من ميامنه وينزعه بالعكس، ويقول عند لُبْسِه: «الحمد لله الذي كساني ما أستر به عورتي وأتجمل به».

وإذا لبس جديداً أعطى الخَلَق[٢] مسكيناً.

وكان له ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس.

وكان له خاتم من فضة وفَصُّه منه ونقشُه محمد رسول الله.

وكان يتختم في خنصر يمينه ويساره لكن اليمين أكثر.

ويلبس النعال السبتية[٣] والتاسومة[٤] والخف.

وكان فرشُه من أُدُم[٥] حشْوُه ليفٌ، طوله ذراعان وشيء، وعرضه ذراع ونحو شبر، وكان له عباءة تفرش له حيثما ينتقل يثنى طاقة تحته، وربما نام على حصير وعلى الأرض جرداً.

وما عاب مضطجعاً قطّ إن فُرش له اضطجع وإلاّ نام على الأرض، وكان يحب الطيب وإذا عُرض عليه لا يردّه، ويكره الريح الكريه ويتطيب بغالية ومسك وسك، ويتبخر بكافور وعود ويكتحل بالإثمد ثلاثاً في كل عين.

وكان له جوارٍ وعبيد وعتقاؤهم من الغلمان أكثر.

---

(١) (أتاكم علي): أخرجه ابن عدي، وأبو الشيخ مرسلاً، قال الحافظ العراقي في «المغني» (٢/ ٣٧٦): ضعيف جداً.

(٢) الخلق: البالي. «مختار».

(٣) السبتية ـ بكسر السين نسبة إلى السبت ـ: هو كل جلد مدبوغ، ونعال سبتية لا شعر عليها «لسان العرب / سبت».

(٤) التاسومة: هي النعل التي تلبس في المشي «لسان العرب / نعل».

(٥) أدم: جلد.

وكان يبيع ويشتري لكن الشراء بعد البعث أغلب، وبعد الهجرة لم يحفظ البيع إلاّ في ثلاث صور، والشراء كثير، وآجر واستأجر والاستئجار أغلب، وآجر نفسه قبل النبوة لرعي الغنم، ولخديجة للاتجار، وشارك ووكّل والتوكيل أكثر، وأُهدي له وقَبِل وعوّض، ووُهب له وقَبِل واستعار، واشترى بنقد ونسيئة.

وضمن عن الله ضماناً خاصاً وعاماً، وشفع وشُفع إليه، وشفع لعبد عند امرأة فلم تقبل ولم يغضب.

وكان يكثر القسم بالله والثابت منه يزيد على ثمانين موضعاً، وكان أكثر دعائه: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»[1].

وكان يسمع الشعر من الشعراء ويعطيهم ويهبهم الخلَع، لأن كل ما قالوه ويقولونه إلى يوم القيامة قطرة من بحر كماله فعطاؤهُ لهم على قول حق، وأما مدح غيره فغالباً زور وبهتان وكذب صراح ولا جرم، قال: «احثوا في وجوه المداحين التراب»[2] فزعم التدافع غلط.

وسابق على قدميه، وصارع وطلّق وآلى[3]، وزَعْم أنه ظاهر[4] غلط قبيح، وضاف[5] وأضاف، وداوى وتداوى بأدوية مفردة ومركبة، ورَقى واسترقى، وحذّر من التُّخَمَة وكثرة الأكل، وعالج الأمراض بالأدوية الطبيعية والإلهية.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى»، كما في «تحفة الأشراف» (٩/ ٦١). والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٥) وصححه، وأقره الذهبي، وابن ماجه برقم (١٩٩) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٣٩)، وأبو داود (رقم ٤٨٠٤)، والترمذي (٢٣٩٣) وغيرهم بألفاظ متقاربة.

(٣) آلى: حلف لا يدخل عليهنَّ شهراً. «النهاية في غريب الحديث / (١/ ٦٢)».

(٤) ظاهر: هو قول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي. «مختار».

(٥) ضاف: إذا نزل ضيفاً. «مختار».

الباب الرابع

في معجزاته وهي كثيرة

منها أنه انشق له القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، فشرب العسكر كلهم، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن بسط يده فيه.

وحنَّ إليه الجذع الذي كان يخطب عليه لما فارقه للمنبر حتى سمع منه الناس كصوت الإبل فضمه إليه فسكن. وزويت[1] له الأرض. وسبّح الحصى في كفه والطعام بحضرته. وكلّمه الذراع. وشكا إليه البعير، وسلّمت عليه الغزالة، وشهد له الذئب بالنبوّة. وسعت إليه الشجر من مغارسها.

وندرت عين قتادة فردّها فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين عليّ وهو أرمد فبرئت ولم يرمد بعد، ومسح رجل ابن أبي عتيك لما انكسرت فصحت.

وأخبر أنه يقتل أبيّ بن خلف فخدشه يوم أحد خدشاً يسيراً جداً فمات.

وعدّ في بدر مصارع الكفار قبل الوقعة فقتل كل منهم فيما عيّنه.

وقال في عثمان تصيبه بلوى عظيمة فكان ما كان.

وأخبر بمقتل الأسود العنسي في صنعاء ليلة قتله، وبأن كسرى قتل بفارس في يوم قتله.

ودعا لعليّ بذهاب الحرّ والبرد فلم يحسّ بهما بعد، ولابن عباس بالفقه في الدين وعلم التأويل فصار بحراً، ولأنس بكثرة المال والولد وطول العمر فرُزق مائة ولد وعاش مائة سنة وصارت نخله تحمل في العام مرتين.

---

(١) زويت: أي جمعت وقبضت. «مختار».

ودعا على عتبة بن أبي لهب فقال: «اللّهم سلّط عليه كلباً من كلابك» فأكله الأسد[1].

وأطعم ألفاً في غزوة الخندق من أقل من صاع، ورمى الكفار يوم حنين بقبضة من تراب فامتلأت أعينهم منها وانهزموا، وأخبر بأن عماراً تقتله الفئة الباغية فقتله جيش معاوية، وخرج على مائة من قريش ينتظرونه ووضع على رؤوسهم تراباً فلم يروه، وقال لنفر من صحبه مجتمعين: أحدكم في النار فماتوا كلهم مسلمين إلا واحداً ارتد.

وأُطعم السمَّ فمات الذي أكل معه وعاش هو أربع سنين، وأنذر بأن طوائف من أمته يغزون البحر فوقع.

وأخبر بأن فاطمة أول أهله لحوقاً به فكان، وبأن أطول نسائه يداً أسرعهنَّ لحوقاً به فكانت زينب أطولهن بالصدقة وأولهنَّ لحوقاً به.

ومسح ضرع شاة حامل فدرّت.

وجاءه الحكم بن أبي العاص[2] مستهزئاً فقال: «كذلك كن» فلم يزل يرتعش حتى مات.

وخطب امرأة فقال أبوها: بها برص امتناعاً من إجابته ولم يكن بها فقال: (فلتكن كذلك)[3] فبرصت حالاً.

---

(١) أخرجه البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر، وأخرجه ابن إسحاق وأبو نعيم من طرق أخرى مرسلة. كذا في «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ١٤٧)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (٢/ ٥٨٥).

(٢) الحكم بن أبي العاص بن أمية (٠٠٠ ـ ٣٢ هـ) الأموي: صحابي، أسلم يوم الفتح وسكن المدينة. فكان فيما قيل يفشي سرَّ رسول الله ﷺ فنفاه إلى الطائف. وأعيد إلى المدينة في خلافة عثمان، فمات فيها، وقد كُفَّ بصره. وهو عم عثمان بن عفان، ووالد مروان. «الأعلام» (٢/ ٢٦٦).

(٣) انظر «أسد الغابة» (٢/ ٣٧).

الباب الخامس

في خصائصه ﷺ

وهي أنواع: الأول: الواجبات عليه: وهي الضحى، والوتر، وراتبة الصبح، والأضحية، والسواك، ومشاورة العقلاء، وتغيير منكر مطلقاً، ومصابرة العدو في الحرب وإن كثر، وقضاء دين ميت مسلم معسراً، وطلاق كارهته[1]، وتخيير زوجاته بين الطلاق والمقام، والتهجد ثم نسخ.

الثاني: المحرمات: وهي الصدقة ولو نفلاً، والكفارة، وتعلم الخط والقراءة، والشعر وروايته، ونزع لأمته[2] إذا لبسها قبل القتال، ومدُّ عينيه لمتاع غيره، والإيماء إلى فعل مباح كقتل وضرب مع إظهار خلافه، وتزوج الكتابية والأمة، والمنُّ ليستكثر.

الثالث: المباحات: وهي التزوج فوق تسع، وتزوجه مُحْرِماً[3] ولو بلا ولي وشهود، وبلفظ الهبة إيجاباً لا قبولاً، ووجوب إجابته على امرأة خليّة رغب فيها، وتزوجه من شاء بما شاء، ومن نفسه متولياً الطرفين، ومكثه بالمسجد جنباً، وإدامة قضاء نافلة وقت الكراهة، والوصال، وأخذ صفيّ المغنم والغنيمة[4]، وخُمس خُمسها مع سهمه كغانم، وشهادته لنفسه ولفرعه وحكمه لهما، وجواز الشهادة له بما ادّعاه مع عدم علم الشاهد، وشهادته كاثنين، وحمى الموات[5] لنفسه وأخذ طعام وشراب احتاجه من مالكه

---

(١) أي يحرم عليه إمساك من كرهت صحبته.

(٢) لأمته: آلة حربه.

(٣) مُحْرِماً: في حالة الإحرام.

(٤) أي: أنَّ له أنْ يصطفي ما شاء من المغنم قبل القسمة من جارية وغيرها.

(٥) الموات: الأرض التي لم تزرع ولم تُعْمَر، ولا جرى عليها ملك أحد. «النهاية» (٤ / ٣٧٠).

المحتاج إليه، ولا ينتقض طهره بالنوم وكذا الأنبياء.

الرابع: الإكرام: فمن ذلك تحريم زوجاته على غيره وسراريه، وأنه خاتم الأنبياء وأفضلهم، وأول من تنشق عنه الأرض، ومن يقرع باب الجنة، ومن يدخلها ثم يدخلها الأنبياء، وأول شافع ومُشفّع، وأُرسل إلى الثقلين، وأقسم الله بحياته، وكان لا ينام قلبه، ويرى من خلفه، ويبصر في الظلمة كما يبصر في الضوء، ولا فيء له في شمس ولا قمر، ولا يقع الذباب على جسده، وأجر تنفله بالصلاة قاعداً كقائم، ويخاطبه المصلي في تشهده، وتلزمه إجابته ولا تبطل، ويحرم رفع الصوت عنده، ونداؤه باسمه ومن وراء الحجرات، والتكني بكنيته[1]، ولا يورث.

* * *

---

(١) أي: بأبي القاسم، وهل هو مختص بحياته، أم هو مطلق؟ فيه خلاف العلماء.

الباب السادس

في كلامه ﷺ

وهو لا يحصيه إلاّ الله تعالى لكن نتبرك بمائة حديث منه بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف يعمل به في الفضائل.

قال عليه الصلاة والسلام: «الأجر على قدر النَّصَب»(١).

وقال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»(٢).

وقال: «اتخذوا عند الفقراء أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة»(٣).

وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعُدَّ نفسك من أهل القبور»(٤).

وقال: «كونوا في الدنيا أضيافاً واتخذوا المساجد بيوتاً وعوِّدوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكر والبكاء»(٥).

---

(١) قال في «تمييز الطيب من الخبيث» (ص٩): متفق عليه عن عائشة.

(٢) حديث قدسي، أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٦٥٠٢) وله شواهد. انظر «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (١١/ ٣٤١).

(٣) حديث «اتخذوا عند الفقراء» أخرجه أبو نعيم في «الحلية».
قال المناوي في «فيض القدير» (١/ ١١٣): قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف جداً.
وقال الحافظ ابن حجر: لا أصل له، وتبعه السخاوي، وسبق إلى ذلك الذهبي وابن تيمية وغيرهما فقالوا: ومن المقطوع بوضعه حديث: «اتخذوا عند الفقراء».

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٩) ما عدا: «وعد نفسك من أهل القبور». وأخرجه أحمد (٢/ ٢٤، ٤١)، والترمذي برقم (٢٣٣٣)، وابن ماجه برقم (٤١١٤)، مع هذه الزيادة.

(٥) حديث: «كونوا في الدنيا»: أخرجه الحسن بن سفيان، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٥٨)، والقضاعي في «المسند» (٢/ ٤٢٦)، والديلمي وغيرهم، كلهم من=

وقال: «كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً لا يبلغه»(١).

وقال: «كما تدين تُدان»(٢).

وقال: «ابن آدم لك ما نويت وعليك ما اكتسبت وأنت مع من أحببت»(٣).

وقال: «قل الحق وإن كان مرّاً»(٤).

وقال: «يسروا ولا تعسروا وبشّروا ولا تنفروا»(٥).

وقال: «كلٌّ مُيَسّرٌ لما خُلِقَ له»(٦).

وقال: «حسن الجوار عمارة الديار وزيادة الأعمار ومن آذى جاره أورثه الله داره»(٧).

وقال: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك»(٨).

= طريق محمد بن المصفى. وهو حديث لا أصل له.

(١) أخرجه في «كنز العمال» (٣/ ٧٥٦١) عن «مسند الفردوس». وضعفه السيوطي والمناوي كما في «فيض القدير» (٥/ ٥٠ ـ ٥١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٢٠٢٦٢)، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٧٩)، وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٠٦).

(٣) حديث «ابن آدم»: أخرجه ابن عساكر عن أبي أمامة. «كنز العمال» (١٥/ ٤٣٥٢٤).

(٤) حديث «قل الحق»: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٢٩) وإسناده لا بأس به.

وأخرجه أحمد أيضاً: (٥/ ١٧٣) وإسناده ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٤٣٤١ و٤٣٤٢ و٤٣٤٤ و٤٣٤٥)، ومسلم (٢٠٠١)، وأحمد (٤/ ٤٠٩).

(٦) حديث «كل ميسر لما خلق له»: أخرجه البخاري برقم (٦٥٩٦ و٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩)، وأحمد (٤/ ٤٣١) وغيرهم.

(٧) حديث «حسن الجوار»: لم أجده.

(٨) حديث «لا تظهر الشماتة لأخيك» أخرجه الترمذي برقم (٢٥٠٨) وقال: حسن غريب. وقال في هامش الكنز (٣/ ٤٨٧) نقلاً عن الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٨/ ٣٠٩) أنه لا أصل له من كلام النبي ﷺ، وكذا قال ابن حبان. وللحافظ ابن حجر كلام حول هذا الموضوع فليراجع.

وقال: «لا يغني حذر من قدر»(١).

وقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أنْ ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(٢).

وقال: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً»(٣).

وقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما بأيدي الناس يحبك الناس»(٤).

وقال: «أتمكم عقلاً أشدّكم لله خوفاً»(٥).

---

(١) حديث «لا يغني حذر»: أخرجه البزار في «المسند» (١/ ١٩٩ / كشف الأستار)، والطبراني في «الأوسط / مجمع البحرين» برقم (٤٦١٥)، وصححه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٢) ورده الذهبي، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣٤) والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٠٣) وإسناده ضعيف، وأخرجه القضاعي في «المسند» برقم (٨٦٠ ـ ٨٦٢) بإسناد ضعيف، والحديث بهذه الطرق حسن إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٧)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٠٠)، وهو حديث صحيح.

(٤) حديث «ازهد في الدنيا»: أخرجه ابن ماجه في «السنن» برقم (٤١٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١٣) وغيرهما. وإسناده ساقط فيه خالد بن عمرو القرشي وهو متروك، قال الإمام النووي في «الأربعين النووية» حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة. ولابن رجب كلام في هذا الموضوع انظر «جامع العلوم والحكم» (٢٧١).

(٥) قال العراقي في «المغني» (١/ ٨٥): هذا الحديث أخرجه داود بن المحبَّر في كتاب «العقل» وعنه الحارث بن أبي أسامة في «المسند».

وداود بن المحبَّر هذا واه أجمعوا على تركه. قال الدارقطني: كتاب «العقل» وضعه ـ أي اختلقه وكذب به على النبي ﷺ ـ ميسرة بن عبد ربه ثم سرقه منه داود بن المحبَّر فركبه =

وقال: «أجملوا في طلب الدنيا، فإن كلاً ميسر لما خلق له»[1].

وقال: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت»[2].

وقال: «اخزن لسانك إلا من خير»[3].

وقال: «أخلص العمل يجزئك منه القليل»[4].

وقال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاهٍ»[5].

وقال: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[6].

وقال: «إذا أحب الله عبداً صب عليه العذاب صباً»[7].

= بأسانيد غير أسانيد ميسرة. انظر «تهذيب الكمال» (٨/ ٤٤٣ ـ ٤٤٩).

(١) حديث «أجملوا في طلب الدنيا» أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣)، وابن ماجه في «سننه» (٢/ ٧٢٤)، وغيرهما. وصححه الحاكم، وأقره الذهبي.

(٢) حديث «احذروا الدنيا»: أخرجه في «كنز العمال» برقم (٦٠٦٥) عن ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا»، وعن البيهقي في «شعب الإيمان».
وقال المناوي في «فيض القدير» (١/ ١٨٨): وهو ضعيف لأن فيه هشام بن كمال.

(٣) حديث «اخزن لسانك»: أخرجه الطبراني في «الصغير» برقم (٩٥٠) ضمن حديث. وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

(٤) حديث «أخلص العمل» أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٦) وصححه، وردَّه الذهبي بقوله: لا، وعزاه العراقي في «المغني» (٤/ ٣٧٦) إلى الديلمي وقال: إسناده منقطع، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص»، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٤).

(٥) حديث «ادعوا الله»: أخرجه الترمذي في السنن (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٣)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٦٢)، والطبراني في «الدعاء» (ص٣٩)، وإسناده واه ضعيف جداً.
انظر «تهذيب الكمّال» (١٣/ ١٦).

(٦) حديث «أد الأمانة» أخرجه أبو داود برقم (٣٥٣٥)، والترمذي برقم (١٢٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٦). وقال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم، وأقرّه الذهبي. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٢٧) بإسناد ضعيف ينجبر بما قبله.

(٧) أخرجه الطبراني في «الكبير» بلفظ قريب «كنز العمال» (رقم ٦٨١١). وأخرجه ابن أبي الدنيا =

وقال: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره»[1].

وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه وفقهه في الدين»[2].

وقال: «إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح»[3].

وقال: «إذا ترك العبد الدعاء للوالدين ينقطع عنه الرزق في الدنيا»[4].

وقال: «إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة»[5].

وقال: «إذا حدثتم العباد عن ربهم فلا تحدثوهم بما يعزب عنهم ويشق عليهم»[6].

وقال: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: أهلاً بشعار الصالحين، وإذا رأيت

= بلفظ قريب «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٨٢).

(١) أخرجه الديلمي، وفيه سعد بن سليمان بن حرب متروك. «أسنى المطالب» (ص٢٨).

(٢) أخرجه في «كنز العمال» (١١/ ٣٠٧٦٢)، و«الجامع الصغير» (رقم ٣٧٨) عن مسند الفردوس عن أم سلمة ـ إلى قوله «من نفسه» بدون الزيادة ـ ورمز له بالضعف. وقال المناوي في «فيض القدير»: وكذا ابن لآل، وقال الحافظ العراقي وغيره: إسناده جيد، كذا جزم به في «المغني».

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦) موقوفاً على عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
وقال العراقي في «المغني» (٤/ ٤٧٣): ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث: «كن في الدنيا كأنك غريب».

(٤) أخرجه الحاكم في «التاريخ»، والديلمي بدون لفظ «في الدنيا». «كنز العمال» (١٦/ ٤٥٥٥٦).

(٥) أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» بهذا اللفظ «كنز العمال» (٣/ ٥٧٢٠). وأخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والدارمي (١/ ٣٩٦)، وابن خزيمة (٢٤٣٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)، والترمذي (٢٠٢٩) بلفظ مقارب.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وابن عدي في «الكامل» والبيهقي في «الشعب» «كنز العمال» (٣/ ٥٣٠٧) بلفظ قريب.

الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته»[1].

وقال: «إذا رأيتم من يزهد في الدنيا فادنوا منه فإنه يلقى الحكمة»[2].

وقال: «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحبه، وهو مقيم على معاصيه، فاعلموا أنه استدراج»[3].

وقال: «إذا سبب الله لأحدكم رزقاً بوجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر»[4].

وقال: «إذا غضبت فاسكت»[5].

وقال: «إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بالحزن حتى يكفرها»[6].

وقال: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[7].

---

(١) قال العراقي في «المغني» (٤/ ١٩١): أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» فذكره بزيادة في أوله، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «السنن» (٢/١٣٧٣) برقم (٤١٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤٠٥) وإسناده ضعيف، والبيهقي في «شعب الإيمان» بلفظ قريب.

(٣) أخرجه أحمد، والطبراني، والبيهقي في «الشعب» وهو حسن، وابن حبان في صحيحه بلفظ قريب.

قال المناوي في «فيض القدير» (١/ ٣٥٥): قال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه الوليد بن العباس، وهو ضعيف. وقال العراقي: إسناده حسن.

(٤) أخرجه أحمد، وابن ماجه، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع الصغير» (رقم ٦٦٨). قال المناوي في «فيض القدير» (١/ ٣٧١):

رمز لحسنه والأمر بخلافه، فالزبير قال الذهبي: لا يُعْرف، وقال العراقي: إسناده فيه جهالة، وقال السخاوي: ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (١٢٣٠)، وأحمد في المسند (١/ ٢٨٣ ـ ٣٥٦)، والبزار في «كشف الأستار» برقم (١٥٢)، وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

(٦) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١٥٧) بلفظ قريب، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٧) أخرجه البخاري برقم (٣٤٨٣ ـ ٣٤٨٤)، وأحمد (٤/ ١٢١ ـ ١٢٢)، وأبو داود (٤٧٩٧)، والطيالسي (٦٢١) وغيرهم.

وقال: «إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتزَّ العرش»[1].

وقال: «إذا وقع القضاء عمي البصر»[2].

وقال: «إذا وقف العباد نادى المنادي: ليقم من أجره على الله! فيقوم العافون عن الناس»[3].

وقال: «ازدد عقلاً تزدد من الله قرباً»[4].

وقال: «سل الله العفو والعافية»[5].

وقال: «استعينوا على أموركم بالكتمان فإنَّ كل ذي نعمة محسود»[6].

وقال: «استعينوا على كل صنعة بأهلها»[7].

وقال: «استفت قلبك وإن أفتوك»[8].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة»، وأبو يعلى في «مسنده»، والبيهقي في «الشعب»، وابن عدي في «الكامل» بلفظ قريب.
قال المناوي في «فيض القدير» (١/ ٤٤١):
قال ابن حجر في «الفتح»: سنده ضعيف، وقال العراقي: وسنده ضعيف، وفي الميزان: خبر منكر.

(٢) أخرجه الحاكم بلفظ «إذا نزل». «أسنى المطالب» (ص٣٦).

(٣) قال العراقي في «المغني» (٣/ ١٧٩):
الطبراني في «مكارم الأخلاق» وفيه الفضل بن يسار، ولا يتابع على حديثه.

(٤) قال العراقي في «المغني» (١/ ٨٦):
أخرجه ابن المحبر في «العقل» ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة، والحكيم في «النوادر».

(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ»، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٦٨).

(٦) لفظه في «الجامع الصغير» (رقم ٩٨٥): «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» رواه الطبراني، وذكره ابن الجوزي في الموضوع، وقال: فيه سعيد بن سلام كذاب، وله طريق آخر فيها كذاب أيضاً، ونوزع ابن الجوزي في وضعه، وسئل عنه الإمام أحمد ويحيى فقالا: موضوع، وقال أبو حاتم: منكر. «أسنى المطالب» (ص٣٩).

(٧) قال البيروتي: لم يرد بهذا اللفظ. «أسنى المطالب» (ص٤٠).

(٨) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، والدارمي في «السنن» (٢/ ٢٤٦)، وغيرهما.

وقال: «اسمح يسمح لك»[1].

وقال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة إمام جائر»[2].

وقال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[3].

وقال: «أشدكم من ملك نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا عند المقدرة»[4].

وقال: «أصب بطعامك من تحب في الله»[5].

وقال: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[6].

وقال: «أعظم الناس خطايا اللسان الكذوب»[7].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٤٨)، والطبراني في «الصغير» (ص٤٨١)، «والأوسط» (٨/ ٢٠٦)، وحسّنه العراقي في «رسالة الرد على الصاغاني» (رقم ٧).

(٢) قال المناوي في «فيض القدير» (١/ ٥١٧):
رمز السيوطي لحسنه لأن فيه محمد بن جحاده، وقد ورد بسند صحيح بأتم من هذا.
وروى أحمد والبزار عن ابن مسعود موقوفاً بلفظ قريب، قال العراقي في شرح الترمذي: إسناده ـ أي الموقوف ـ صحيح.

(٣) (موضوع): أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٦٤) و«الصغير» (ص٢٢٠)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٨٤) وغيرهم من طريق عثمان بن مقسم، وهو كذاب وضاع خبيث، وروي من طرق أخرى مدارها على الكذابين والوضاعين. وروي موقوفاً على أبي الدرداء، وإسناده ضعيف.

(٤) قال العراقي في «المغني» (٣/ ١٧١): أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغضب»، وضعّفه، وذكر له شواهد تقويه.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص١٢٤) قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك مرسلاً. وجويبر متروك، وفيما يرويه عن الضحاك مرفوعاً منكر. انظر «تهذيب الكمال» (٥/ ١٦٧) ومرسل الضحاك لا شيء.

(٦) أخرجه البيهقي في «الزهد» (ص١٥٧). قال العراقي في «المغني» (٣/ ٤): وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

(٧) قال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣):
أخرجه ابن لال، والديلمي، وفيه الحسن بن عمارة الكوفي متروك باتفاق، وابن عدي

وقال: «أعظم الناس خطايا أكثرهم خوضاً في الباطل»[1].

وقال: «مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش، فمَنْ كثّر كُثّر له، ومَنْ قلّل قُلّل له»[2].

وقال: «ارحموا ترحموا»[3].

وقال: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[4].

وقال: «أفضل الأعمال أن يسلم الناس من لسانك ويدك، وما عظمت نعمة الله على عبد إلا عظمت مؤنة الله عليه»[5].

وقال: «ما تنزع الرحمة إلا من شقي»[6].

وقال: «ما من كلمة أفضل من كلمة عدل عند إمام جائر»[7].

= في «الكامل» من طريق أيوب بن سويد الرملي.

(١) حديث «أعظم الناس خطايا»: أخرجه ابن أبي الدنيا عن قتادة مرسلاً، وأخرجه الطبراني عن عبدالله بن مسعود من قوله. وإسناده صحيح.

(٢) حديث «مفاتيح أرزاق العباد»: لم أجده.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والبيهقي في «الشعب». قال العراقي كالمنذري: إسناده جيد.
وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير حبان بن زيد الشرعي، وثقه ابن حبان. ورواه الطبراني كذلك. ورمز السيوطي لصحته. «فيض القدير» (١/ ٤٧٥).

(٤) أخرجه أبو يعلى، والبزار في «مسنده»، والبيهقي في «الشعب» وسنده ضعيف. والطبراني في «الكبير»، والديلمي. قال ابن الجوزي: حديث لا يصح. ورمز السيوطي لضعفه. «فيض القدير» (١/ ٥٠٥).

(٥) حديث «أفضل الأعمال»: لم أجده.

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي في «المسند» برقم (٢٥٢٩)، والترمذي في «السنن» (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ٣٠١ ـ ٤٤٢ ـ ٤٦١)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٣٧٤) وغيرهم. وهو حديث صحيح.

(٧) حديث «ما من كلمة أفضل»: لم أجده بهذا اللفظ. وهناك روايات قريبة بأسانيد صحيحة. «انظر الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٢٥).

وقال: «مطل الغنيّ ظلم»(١).

وقال: «مداراة الناس صدقة»(٢).

وقال: «ملاك الدين الورع»(٣).

وقال: «من سعادة المرء حسن الخلق»(٤).

وقال: «نوم الصبحة تمنع الرزق»(٥).

وقال: «ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله»(٦).

وقال: «لا تحدّثوا أمتي من أحاديثي إلا بما تحتمله عقولهم»(٧).

وقال: «لا تزال لا إله إلا الله ترفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على أخراهم»(٨).

وقال: «لا تكثر همك، ما قدّر يكن، وما ترزق يأتك»(٩).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٧٥ و٦٧٧٢)، ومسلم برقم (٥٧)، والنسائي (٨/ ٣١٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٤٧١)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٦١٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٦)، وغيرهم وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه الديلمي. «كنز العمال» (٣/ ٧٣٠٠).

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وكذا القضاعي، ورواه الخرائطي في «المكارم». قال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ١٤): قال الحافظ العراقي: وسنده ضعيف. وقيل موضوع. انظر «فيض القدير».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥١) ورمز السيوطي لضعفه «الجامع الصغير» (٢٠٤٠). وفي الباب أحاديث لا تقوم بها حجة. انظر «الترغيب والترهيب» (٢/ ٥٣٠).

(٦) قال العراقي في «المغني» (٣/ ٢٩٢): ذكره الديلمي في «الفردوس» بلا سند.

(٧) أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس. «كنز العمال» (١٠/ ٢٩٢٨٤). وأخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٣١٢) من طريق أبي نعيم.

(٨) أخرجه ابن النجار عن زيد بن أرقم بلفظ قريب «كنز العمال» (١/ ٢٢٢).

(٩) أخرجه البيهقي في «الشعب» وفي «القدر»، وأبو نعيم، والديلمي. قال المناوي في «فيض=

وقال: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس»[1].

وقال: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»[2].

وقال: «أيها الناس: لا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون»[3].

وقال: «يا ابن آدم ارض من الدنيا بالقوت، فإنَّ القوت لمن يموت كثير»[4].

وقال: «لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق»[5].

وقال: «أحذرك الدنيا، وحلاوة رضاعها، ومرارة فطامها»[6].

وقال: «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور»[7].

= القدير» (٦/ ٤١٩): قال العلائي: حديث غريب، وفيه مقال لجمع. ورمز السيوطي له بالضعف.

(١) قال العراقي في «المغني» (١/ ١٩): الترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه البزار في «المسند / كشف الأستار» برقم (٣٣٢٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣١٢)، وأبو الشيخ في «الأمثال» برقم (١٥٣) وإسناده صحيح. وروي من طريق أخرى ضعيفة.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير». بلفظ قريب. «كنز العمال» (١٥/ ٤٣٤٠٩).

(٤) أخرجه العسكري، وأبو نعيم. «كنز العمال» (٣/ ٧١٤٨).

(٥) قال في «الجامع الصغير» (٩٩١٠): «لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق» ابن ماجه عن أبي ذر (حسن).
قال في «فيض القدير» (٦/ ٤٣٥):
وكذا ابن حبان، والبيهقي في «الشعب»، وفيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال ابن عدي: حدث عن الثقات بالبواطيل، فمنها هذا الخبر.

(٦) حديث «أحذرك الدنيا»: لم أجده.

(٧) قال العراقي في «المغني» (٣/ ١٩٨): ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلاً.

وقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم»[1].

وقال: «يحشر الجبارون يوم القيامة في صورة الذّر»[2].

وقال: «يقول الله: اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري»[3].

وقال: «اليسر يمن والعسر شؤم»[4].

وقال: «اليوم الرهان، وغداً السباق، والغاية الجنة، والهالك من دخل النار»[5].

وقال: «ما امتلأت دار حَبْرة إلا امتلأت عبرة وما كانت فرحة إلا تبعتها ترحة»[6].

وقال: «ما أوحى الله إليّ أن اجمع المال وكن من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين»[7].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١ ـ ٤٢٤)، وأبو داود في «سننه» برقم (٤٤٨٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٤٧)، وأبو يعلى في «المسند» (٣/ ٢٣٧ و١٣/ ٤١٩)، وغيرهم. وهو حديث صحيح.

(٢) قال العراقي في «المغني» (٣/ ٣٢٩): «يحشر المتكبرون» بدل «الجبارون» البزار، وإسناده حسن.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ١٠٤ مجمع البحرين)، و«الصغير» (ص٤٤)، وفيه الحارث الأعور وقد كذّبه الحفاظ. والحديث باطل لا أصل له.

(٤) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» عن رجل. «كنز العمال» (٥٣٢٧).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وابن عدي في «الكامل»، والخطيب. وفيه أخرم بن حوشب متروك. «كنز العمال» (١٥/ ٤٣١٥٤).

(٦) حديث «ما امتلأت»: أخرجه ابن المبارك عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً. «كنز العمال» (٣/ ٧١٤٥).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣١) رواه جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني مرسلاً «كنز العمال» (٣/ ٦٣٧٥).

وقال: «إنك لن تدع لله شيئاً إلا عوضك الله خيراً منه»[١].

وقال: «ما جعل الله ولياً إلا على السخاء وحسن الخلق»[٢].

وقال: «حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»[٣].

وقال: «ما من أحد ذو غنى ولا فقر إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أوتي من الدنيا قوتاً»[٤].

وقال: «ما هو بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»[٥].

وقال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[٦].

وقال: «مت فقيراً ولا تمت غنياً»[٧].

وقال: «ما يسر الله على عبد في الدنيا إلا يسر عليه في الآخرة»[٨].

---

(١) أخرجه الخطيب في «المتفق والمفترق» عن إسحاق بن سويد عن أبي رفاعة عبدالله بن الحارث العدوي. قال في «كنز العمال» (٣/ ٨٧٩٥):
وقال ـ أي الخطيب ـ: كذا واسم أبي رفاعة تميم بن أسد لا عبد الله بن الحارث، حدث عنه حميد بن هلال، ولا أعلم روى عنه إسحاق بن سويد شيئاً.

(٢) أخرجه ابن عساكر والديلمي مرسلاً عن عائشة بلفظ: «ما جبل الله ولياً له» «كنز العمال» (٦/ ١٦٢٠٤).

(٣) قطعة من حديث أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق. أخرجه البخاري. العراقي في «المغني» (٣/ ٢٠١).

(٤) أخرجه أحمد، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٧) برقم (٤١٤٠)، وأخرجه الخطيب في «تاريخه». «كنز العمال» (٣/ ٧١١٥).

(٥) أخرجه أبو يعلى في «المسند» (٧/ ٢٤٦) وإسناده لين، وله شاهد أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٣٣٤) وإسناده ضعيف.
وفي صحيح البخاري برقم (٦٠١٦) حديث بلفظ قريب.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(٧) حديث «مت فقيراً»: لم أجده.

(٨) حديث «ما يسر الله»: لم أجده.

وقال: «من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه»[1].

وقال: «من سعادة المرء حسن الخلق»[2].

وقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3].

وقال: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة»[4].

وقال: «من آذى جاره فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[5].

وقال: «من آذى مسلماً بغير حق فكأنما هدم بيت الله»[6].

وقال: «من اتقى الله عاش قوياً، وسار في بلاد عدوّه آمناً»[7].

وقال: «من أحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر منزلة الله عنده»[8].

---

(١) أخرجه الخطيب عن ابن عباس، وفيه نوح بن أبي مريم، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات. انظر «كنز العمال» (٣/ ١١٨) رقم (٥٧٤٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» عن جابر. «كنز العمال» (٣/ ٥١٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٣١٧) وحسنه، وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٩١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٥). وهذا باطل ما حدث به مالك ولا من بعده، بل هو من وضع محمد بن سلام المصري.
انظر «ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٦٨)، وأقره الحافظ ابن حجر في «اللسان» (٥/ ٢٠٧).
وأخرج أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٣٣٩) بإسناد ضعيف ليس فيه متروك ولا متهم بكذب، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صيام ولا صلاة ولا حج ولا جهاد إلا الغموم والهموم في طلب العلم».

(٥) أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم عن أنس. «كنز العمال» (٩/ ٢٤٩٢٧).

(٦) حديث «من آذى» لم أجده.

(٧) حديث موضوع، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٧٥)، وفيه إسحاق بن العنبر كذبه الأزدي، وقال: لا تحل الرواية عنه. كما في «الميزان» (١/ ١٩٥)، وأقره الحافظ ابن حجر في «اللسان» (١/ ٤٠٨).

(٨) قال العراقي في «المغني» (٤/ ٣٣٤): أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٤ _ ٤٩٥) بلفظ قريب وصححه.

وقال: «من أحب قوماً حشر معهم»[1].

وقال: «من أحب شيئاً أكثر من ذكره»[2].

وقال: «من أحب دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[3].

وقال: «من اتقى ربه كَلَّ لسانه ولم يَشْفِ غيظه»[4].

وقال: «من أحب أن تسرَّه صحيفته فليكثر من الاستغفار»[5].

وقال: «من أراد أن تستجاب دعوتُه، وتكشف كربته، فليفرج عن مُعْسِر»[6].

وقال: «من أرضى سلطاناً بما يسخط ربه خرج من دين الله»[7].

وقال: «تفرّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنَّ من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله تعالى ضيعته، وجعل فقره بين عينيه؛ ومن كانت الآخرة أكبر همه

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٩) برقم (٢٥١٩)، قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٨١): وفيه من لم أعرفهم. وجاء في الحديث الصحيح: «المرء مع من أحب».

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس»، وأبو نعيم. وهو ضعيف «فيض القدير» (٦/ ٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٢)، والحاكم (٤/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠٣٨)، وغيرهم بإسناد منقطع.

وله طريق آخر يحسن به، أخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» رقم (١٦١). وإسناده حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التقوى». «كنز العمال» (٣/ ٥٦٤٠).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب»، والضياء. «كنز العمال» (١/ ٢٠٦٥).

(٦) أخرجه أحمد عن ابن عمر. «كنز العمال» (٦/ ١٥٣٩٨).

(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٠٤)، وقال: تفرد به عَلّاق بن أبي مسلم، والرواة إليه كلهم ثقات. وأقره الذهبي. ا.هـ.

وفي هذا نظر، لأن الراوي عن عَلّاق عنبسة بن عبد الرحمن وهو ساقط كان يضع الحديث انظر «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٤١٦)، وعلاق مجهول ولا يحتج به إذا انفرد كما قال ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٤٧).

جمع الله تعالى له أمره، وجعل غناه في قلبه، وما أقبل عبد في قلبه على الله إلا جعل قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة»[1].

* * *

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» «مجمع البحرين» (٨/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، و«الكبير». وقال الهيثمي في «المجمع»: وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب ا. هـ.
وأما الشطر الأوسط من قوله: «من كانت الدنيا أكبر همه» إلى: «وجعل غناه في قلبه» فهو حديث صحيح، أخرجه ابن حبان، والترمذي، وابن ماجه.

الباب السابع

في ذكر شيء من أدعيته وهي أحد وأربعون

(الأول) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يرفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع.

(الثاني) اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً.

(الثالث) اللهم توفني فقيراً، ولا توفني غنياً، واحشرني في زمرة المساكين، وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

(الرابع) اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع، ومن صلاة لا تنفع، ومن دعاء لا يسمع، ومن قلب لا يخشع.

(الخامس) اللهم اجعلني شكوراً، واجعلني صبوراً، واجعلني في عيني صغيراً، وفي أعين الناس كبيراً.

(السادس) اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم.

(السابع) اللهم استر عورتي، وآمن روعتي، واقض ديني.

(الثامن) اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. من كان ذلك دعاءه مات قبل أن يصيبه البلاء.

(التاسع) اللهم لا تخزنا يوم القيامة، ولا تفضحنا يوم اللقاء.

(العاشر) اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني، إلى عدوّ يتجهمني، أو إلى صديق ملّكته

أمري، إن لم يكن بك سخط عليّ فلا أبالي، غير أنَّ عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات، وأشرقت الظلمات، وصلح له أمر الدنيا والآخرة، أن تحلّ عليّ غضبك وتنزل عليّ سخطك، لك الحمد حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك.

(الحادي عشر) اللهم طهِّر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

(الثاني عشر) اللهم أغنني بالعلم، وزيِّني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجَمِّلني بالعافية.

(الثالث عشر) اللهم عافني في قدرتك، وأدخلني في رحمتك، واقض أجلي في طاعتك، واختم لي بخير عملي، واجعل ثوابه الجنة.

(الرابع عشر) اللهم إني أعوذ بك من شرّ الريح، ومن ريح الشمال، فإنها الريح العقيم.

(الخامس عشر) اللهم آمن روعتي، واحفظ أمانتي، واقض ديني.

(السادس عشر) اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك، فأعطنا منا ما يرضيك عنا.

(السابع عشر) اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإنَّ جار البادية يتحول.

(الثامن عشر) اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا.

(التاسع عشر) اللهم متعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني.

(العشرون) اللهم اغفر ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي، فسئل عنهنَّ: فقال: «وهل تركن من شيء».

(الحادي والعشرون) اللهم لك الحمد كثيراً طيباً مباركاً فيه.

(الثاني والعشرون) اللهم اجعل لي لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً.

(الثالث والعشرون) اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني.

(الرابع والعشرون) اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى.

(الخامس والعشرون) اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون.

(السادس والعشرون) اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك.

(السابع والعشرون) اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والكسل وعذاب القبر.

(الثامن والعشرون) اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

(التاسع والعشرون) اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء.

(الثلاثون) اللهم انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينفعني، وزدني علماً. الحمد لله على كل حال.

(الحادي والثلاثون) اللهمّ اجعلني أعظّم شكرك، وأكثر ذكرك، وأسمع نصيحتك، وأحفظ وصيتك.

(الثاني والثلاثون) اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من ظلمني، وخذ منه بثأري.

(الثالث والثلاثون) اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين، وغلبة العدوّ، وشماتة الأعداء.

(الرابع والثلاثون) اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل أعوذ بك من النار.

(الخامس والثلاثون) اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه.

(السادس والثلاثون) اللهم إني أسألك الصحة والعفَّة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر.

(السابع والثلاثون) اللهم إني أعوذ بك من الكفر والضلالة والفقر الذي يصيب بني آدم.

(الثامن والثلاثون) اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا وتقبَّل منا، وأدخلنا الجنة ونجّنا من النار، وأصلح لنا شأننا كله؛ قالوا: زدنا، قال: أولسن قد جمعنَ الخير.

(التاسع والثلاثون) اللهم اغفر لي ذنبي وخطئي وعمدي؛ اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وأعوذ بك من شر نفسي.

(الأربعون) اللهم انصرني على مَنْ بغى عليّ، وأرني ثأري على من ظلمني، وعافني في جسدي، ومتعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني.

(الحادي والأربعون) اللهم أعني على الموت وهوّنه عليّ.

* * *

الباب الثامن

في وفاته ﷺ

لما كمل الله تعالى له ولأمّته الدين، وأتمّ عليهم النعمة، نقله إلى دار كرامته شهيداً من أكله من الذراع المسموم الذي أهدي له بخيبر، ليجمع الله له بين شرف النبوّة والشهادة، فابتدأه المرض في العشر الأخير من صفر سنة إحدى عشر في بيت أم المؤمنين سيدتنا ميمونة رضي الله عنها، فلما اشتد وجعه تحوّل لبيت عائشة، وأقام مريضاً نحو اثني عشر يوماً، وتوفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول عند الجمهور، وغسّله سيدنا عليّ وسيدنا العباس وابناه قُثَم والفضل يعينانهما، وأسامة بن زيد وشقران يصبان الماء، وأوس بن خولى الخزرجي ينقلُ الماء من بئر غرس، ولم يجرد من قميصه وجعل عليّ عليه السلام على يده خرقة، وأدخلها تحت قميصه، فغسله ودلكه بماء وسدر ثلاث غسلات، ثم كفن في ثلاثة ثياب ليس فيها قميص ولا عمامة، ثم صلى الرجال عليه فرادى فوجاً بعد فوج، يدخل فوج فيصلون ثم يخرجون ويدخل غيرهم، ثم صلى النساء ثم الصبيان؛

ثم دفن في البقعة التي قبض فيها لكونه كان قال عليه الصلاة والسلام: «ما قبض نبيّ إلا دفن حيث يقبض»[1] فرُفِع فراشه وحُفِر له تحته ودخل القبر الجماعة المذكورون، وقيل: إلا أسامة وأوس؛

وفُرِش له في قبره قطيفة كان يلبسها ويفترشها فقالوا: لا يلبسها أحد بعده ـ وهو كَساء له خمل بجوانبه ـ وقيل: أخرجت قبل الإهالة، واتخذوا له لحداً ـ

---

(١) حديث «ما قبض»: أخرجه ابن المديني، وأبو يعلى. وقال ابن المديني: في إسناده بعض الضعف، وحسين بن عبدالله بن العباس منكر الحديث «كنز العمال» (٧/ ١٨٧٦٣).

أي شقوا له في جانب القبر ـ ونصبت عليه تسع لبنات ثم أطبقت عليه، وجعلوه مسطحاً لا مسنماً ولا لاطئاً[1] بالأرض، ورشوا عليه ماءً بارداً، واشتركت الناس كلهم في العزاء، وطاشت العقول، وخرست الألسن وأظلمت الدنيا.

ودفن ليلة الأربعاء، وقيل: ليلة الثلاثاء، وكانت ليلة ليلاء أي مظلمة لفقد الرسول، وانقطاع الوحي، قال أنس رضي الله عنه: ما نفضنا أيدينا من ترابه حتى أنكرنا قلوبَنا.

وكانت وفاته أعظم المصائب وأفظع الدواهي، وارتد كثير من الناس، بل قالوا: ما بقي مسجد إلا ارتد بعض أهله إلا ثلاثة مساجد، ثم أدرك الله تعالى الأنام بلطفه، وخذل أهل الردة، ونصر الإسلام وأهله والحمد لله. وهذه النبذة يتعين على كل مسلم الإحاطة بها علماً، وهي خلاصة عدة أسفار، وشرحها يحتمل مجلدات، وهي جديرة بأن تفرد وتحفظ انتهى.

وقد أحببت أن أنهي الكلام على هذا المقام بقصيدة نبوية تكون له مسك الختام فقلت متوسلاً به عليه الصلاة والسلام:ـ

يا شفيع الخلق في اليوم العسير ... ومجير الناس من نار السعير
أستميـل النظـر الاكسيـر لـي ... بالتفات يجبر القلب الكسير
أنت رمز الكنز غيب الغيب مَنْ ... لم يحـط خُبـراً بـه كـلُّ خبيـر
أنت ذو المنزلة الزلفى التي ... ما لها في حضرة القدس نظير
أنـت روح الكـون لـولاك لمـا ... خلـق الأفـلاكَ مـولاك القـديـر
أنت مقصود الوجود المصطفى ... أنت بين الرُّسْلِ البدرُ المنير
أنت تلك النعمة الكبرى التي ... شملــت كــل قليــل وكثيــر
أنت فخر العالم المختار من ... آدم المبعـوث بـالـديـن اليسيـر
رحمـة للعـالميـن المـرتضـى ... للــورى خيـرُ بشيـرٍ ونـذيـر
يا أجلَّ الرسل إني قد دها ... ني دهاء الدهر بالخطب الخطير

---

(١) لاطئاً: ملتزقاً.

وعـرانـي مـا عـرانـي مـن عنـا ء عسير زَاد عن صبري اليسير
وأنــا عبــدٌ ضعيــفٌ مــذنــبٌ مستجيـر بحمــاك المستنيـر
وحماك الملجأُ المقصود في كـل حـال مـن صغيـر وكبيـر
فـأغثنـي يـا غيـاثَ الأنبيـا ليـس لـي غيـرُك والله نصيـر
وأعـذنـي مـن بـلاء مخطـر خاطري من خوفه غير قرير
واستجب لي وقِني ما أشتكي وأجـرنـي منـه يـا خيـر مجيـر
يا نبيّ الرحمة العظمى التي وسعـت كـل غنـيّ وفقيـر
لا تخيبنـي فـإنـي سـائـل واقـف بـالبـاب مضطـر حقيـر
يا أبا الزهراء كن لي منقذاً يـوم لا يغنـي كبيـر عـن صغيـر
يــوم لا ينفــع مــال مَلِكــاً فيه أو يـرفـع وزراً عـن وزيـر
من لهذا المذنب العاصي إذا لم يجِره أحمد الهادي البشير
جارت البلوى على جسمي وهل غير مغنى فضله المغني يجير
حاش خير الخلق أن يمنعني رشفـة مـن بِـرّه البحـر النميـر
وهو ذخر العالمين المرتجى عاصم العاصي من الهول المبير
وهــو كــاف للبــرايـا كـافـل للعطـايـا ظـاهـر المجـد ظهيـر
ذو يميـن وهبـت كـل يسـا رِ لمن في قبضة العسر أسير
كيـف لا أُثنـي علـى حضـرتـه بثنـاء يبهـر العقـل نضيـر
كلمـا أدعـو إليـه خـاطـري يـدع الأوطـارَ شـوقـاً ويطيـر
كيـف لا والقمـر انشـق لـه وإليـه قـد شكـا الضـرَّ البعيـر
والحصـى سبَّـح فـي راحتـه وارتوى من فيضها الجم الغفير
ويكـف مـن تـراب كـفَّ يـو م حنين وحده الجيش الكثير
واغتـذى مـن سـره الجمـع الكبيـر بمـا لا يشبـع الطفـل الصغيـر
أيّ سيـف أو يَـراع قبلـه راع كسرى بصليلٍ أو صرير
بشـر القيصـر إذ قصـر فـي بيعة الإسلام بـالعمر القصير
معجـزات إنْ أُحـاولْ وصفهـا صـار فكـري حيرة كـل مصيـر
أو أقلِّبْ بصري في حصرها ينقلب لي خاسئاً وهو حسير

قدست عن حيطة العدّ فمِنْ ... أيـن يحصيهـا نظيـم أو نثيـر
حسبـه القـرآن منهـا فلَكَـم ... أعجزت آياتـه الحَبْر الخبير
عـم عـام الفيـل خيـراً وافـراً ... مولد المختار جار المستجير
وغـدت آمنـةٌ آمنـةً ... مـا يضـر الأم حمـلاً أو يضيـر
ورأت إذ وضعتـه أنهـا ... أبرزت نوراً به الكون استنير
وقصـور الشـام منـه ظهـرت ... ودنـا النجـم سـروراً للسـريـر
ليلـة الاثنيـن ثـانـي عشـر ... من ربيع الأول الشهر الشهير
ليلـةَ أنطقـت البشـرى بـه ... كلَّ وحش أخرست كلَّ أمير
أخمدت للفرس ناراً هي من ... ألـف عـام فـي شهيـق وزفيـر
بـارك الله بهـا مـن ليلـة ... صبحها أسفر عن خير سفير
إذ تجلـى رافعـاً نحـو السمـا ... رأسـه للعـز فـي ذاك يشيـر
النبـيّ العـربـيّ المـدنـي ... أحمد الأخلاق محمود العشير
خاتم الرسل الكرام المجتبى ... سيد الأكوان ذو الفضل الغزير
لـم يَشَـمَّ الكـونُ لـولا فضلـه ... نفسَ الرحمن ذا الروح العطير
خلـق الله لـه الخلـق ومـا ... زاد في الزاد على قرص شعير
وسرى ليلاً من البيت الحرا ... م إلى الأقصى وجبريل السمير
ثـم للسبـع سمـوات إلـى ... حضرة السدرة والقرب الخطير
ودنـا مـن طـورٍ أو أدنـى ونـا ... ل المنى من ذلك الفوز الكبير
جـاء بالـديـن الحنيفي مظهِراً ... للتقـى بـالحـق للحـق ظهيـر
فمَـنْ انقـاد لـه الحسنـى ومـن ... حـاد عنـه فلـه بئس المصيـر
لـم لا أقصـده وهـو لـه ... فيض جود أخجل الغيث المطير
لم لا وهو الذي أغنى الورى ... بنـداه وأنـا العبـد الفقيـر
أنـا عبـد مـن عبيـد البـاب بـل ... أنا في الأعتاب كلب يستمير
بـل أنـا عبـد كـلاب سكنـت ... طيبـةَ الطيبـة النشـر العبيـر(١)

---

(١) قوله (بل أنا عبد كلاب): المراد عبودية الرق، وهذا على سبيل الاستعارة، فلو قُدِّر أن كلاب=

عطف الله علينا قلبه   وجزاه كل خير من نذير
وعليه ثابرت أزكى صلا   ة من الرحمن ما دام ثبير
مع تسليم عظيم كلما   قرع السمع هديل أو هدير
حين قلّت حيلتي قلت له   يا عريض الجاه إني مستجير
فهو عوني وهو غوثي وبه   أتقي اليوم العبوس القمطرير
رضي الله عن القوم الأولى   تبعوه ساعة العيش المرير
سادة لما رأوا شمس الهدى   جاء بالحق وبالصدق جدير
نفروا من ظلمة الشرك إلى   نور ذا التوحيد يا نعم النفير
سيما الصدّيق والفاروق مع   ختنيه منهل الخير الوفير
ثم باقي العشرة السادة والآل والصحب فهم خير عشير
وإلى أعتابه جاءت على   غاية التقصير بالمدح تسير
كلمة تسخر بالأنجم في   نظمها أو تسحر الروض النضير
إن غدت من فضله مقبولة   جرّت الذيل على نظم جرير
كيف أحصي وصف من لولاه ما   كان هذا الكون إلا في الضمير
وتعالى قدره الأعظم أن   يصل الفكر إليه أو يصير
غير أني طامع في عفوه   عن قصوري فهو من باعي القصير
فعسى إحسانه ينظمني   مع حَسّان وإن كنت الأخير

وقلت أيضاً من القافية لا البحر مستغيثاً بجاه هذا النبي البر والسيد المعظم ﷺ

رسول الله لي خطب خطير   أنا منه بجاهك مستجير
رسول الله لي بصر كليل   وأنت بكل أحوالي بصير[1]
رسول الله ما لي من نصير   سواك الدهر يا نعم النصير
وفضلك لي به أمل قصيّ   لساني عن إفادته قصير

= طيبة تسترق أحداً لرضي برقّه عندها لينعم بجوار رسول الله ﷺ والقرب منه (ع).

(١) قوله (وأنت بكل أحوالي بصير): مصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وفي الحديث: «تعرض عليَّ أعمالكم». (ع).

وأنت غياث كل الخلق طراً … وجاهك ذلك الجاه الكبير
لعمرك يا أجل الرسل إني … لما أنزلت من خير فقير[1]
فأنعم بالحنو عليّ مالي … إلى غير الحمى الأسمى مصير[2]
فإن أدركتني بخفيّ لطف … فدهري لا يضرّ ولا يضير
وإن لم ينجبر برضاك كسري … فكيف مآل آمالي يصير
رسول الله إنا قد تولى … علينا ذلك الخطب الخطير
إذا ما كان منك لنا نصير … وقد عظم البلا فلمَن نصير
على كل الأنام لك الأيادي … وفي رتب العلا القَدم الشهير
فما في الكون إلا مستمير … بفضلك أو بنورك مستنير
من البيت الحرام سريت ليلاً … إلى الأقصى وجبريل السمير
إلى السبع الطباق إلى مقام … به قد خصك المولى الخبير
مقام منار أو أدنى المعلّى … بكوكب مجدك الأسنى منير
إلى نظر تبارك في دنو … تعالى أن يكون له نظير
محال أن تحيط به عقول … ويعلم قدره إلا القدير
إذا عطف النبيّ فكل أمر … عسير من عواطفه يسير
بسطت يديّ مفتقراً إليه … وقلبي بالإجابة لي قرير
فحاشا أن يرد يديّ صفراً … ومن أخلاقه الجود الغزير
وهل أرض أقلّت أو سماء … أظلّت مثله أين النظير
هو الداعي إلى الدين الحنيفي … هو الحق المبين هو النذير
فطالعُ من يصدقه سعيد … ومهبط من يكذبه سعير
قصرت على مدائحه لساني … وفكري قصر إفراد ينير

---

(١) قوله (من خير فقير) مصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ (ع).

(٢) قوله (مصير): في حديث الاستسقاء: «

وليس لنا إلا إليك فرارنا … وليس فرار الناس إلا إلى الرسل» (ع)

يطيب بذكره عيشي وقلبي — يكاد لمدحه شوقاً يطير
فثابر يا عبيد على ثناء — له ما دام في الدنيا ثبير
يراعك لا يُراع إذا تغالى — بمدحته نظيم أو نثير
ولا تمدح سواه فكل شخص — له فضل فمنه مستعير
وكل عظيم فخر أو ثناء — فما غير النبيّ به جدير
ومن يمدح سوى الله تعالى — وطه فاته خير كثير
فصلَّى ثم سلَّمَ كلَّ حين — عليه الله والملأ الكبير
وآل ثم أصحاب كرام — بهم يتيسر الأمر العسير
مدى الأيام ما الأقمار تمت — ووالى أولاً منها أخير

وقلت مستغيثاً بحضرته المحمدية عليه أفضل الصلاة وأتم التحية:

يا إلهي إليك محض التجائي — فأجرني ولا تخيب رجائي
وأعني ولا تكلني لنفسي — إنني من عبيدك الضعفاء
رب إني قد مسني الضر فاكشف — عني الضرّ أرحم الرحماء
وأغثني بجاه خير البرايا — خاتم الرسل أول الأنبياء[1]
الوجود الساري بكل الذراري — نقطة الباء حيطة الأبناء[2]
مفخر الكائنات ذو معجزات — معجزات الأنام بالإحصاء
كيف تحصى عداً وتحصر حداً — بلسان الإنشاد والإنشاء
وعقول الفحول قد عقلت عن — فهم أسرار ليلة الإسراء
ليلة من نور النبيّ تجلت — عن صباح ما مسه من مساء
النبيّ الذي هدى الخلق للحق بإهداء الملة السمحاء
والرسول الذي به حصل السو — ل لنا من لآلىء الآلاء

---

(١) قوله (أول الأنبياء): في حديث هاجر «فأغث إن كان عندك غواث». وفي الحديث «إذا كان أحدكم في فلاة وانقطع فليناد: يا عباد الله أعينوني» (ع).

(٢) قوله (الوجود الساري): قال تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ ـ يقول الإمام مالك رحمه الله ـ: من ظنَّ أن رسول الله انتقص بالموت من كمالاته شيء فقد أخطأ. (ع)

آظهر الدينَ بين أظهر قوم　　قاوموا بالذكاء نور ذُكاء
فرأوا أنه هو الحق فانقا　　دوا إليه بمقلة الزرقاء
رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعظمْ بذلك الارتضاء
فعليه صلى وسلم ربي　　وعلَى آله بغير انتهاء

وههنا أقول طمعاً بالقبول:

قصدتك يا خير الورى بقصائد　　ثلاث إلى أعتاب فضلك جائزه
فإن تجزها بالالتفات فحظها　　عظيم وأعظم بالتفاتك جائزه
ولا ريب عندي في القبول فإنه　　لديك سواه حالة غير جائزه

ثم تلقى عنه عليه الصلاة والسلام سرَّ هذه النسبة المعظمة سيدُ هذه السلسلة المنظمة الإمام الجليل سيدنا عليّ بن أبي طالب نضر الله تعالى وجهه وكرّمه.

* * *

حضرة أمير المؤمنين
(سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

هو كما جمع به الإمام أبو حنيفة النعمان[1] جميع الروايات الواردة في بيان من سبق بالإيمان، أول جوهرة من جواهر الصبيان، قد انتظمت في سلك الإيمان بأشرف الأديان، وآخر الخلفاء الأربعة الراشدين ختم الله به الخلافة كما ختم النبوّة بسيد المرسلين، باب مدينة العلم، وعباب القضاء والحكم، بالعدل والفضل، بالقول الفصل. صلى إلى القبلتين، وجمع في ولاية الظاهر والباطن بين الدولتين، فهو إمام العادلين المتقنين، ووليّ العاملين المتقين، ذو اللسان السؤول والقلب العَقُول، والأذن الواعية والعهود الوافية، الأَخَيْشن في دين الله والممسوس في ذات الله[2]، المنبي عن جوامع حقائق التوحيد المشير إلى لوامع بوارق التفريد، (اسمه الكريم علي) وكنيته أبو الحسن وأبو تراب كنّاه بها النبي ﷺ ابن عبد مناف أبي طالب بن شيبة الحمد عبد المطلب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً قد أسلمت وهاجرت، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأخو رسول الله ﷺ بالمؤاخاة، وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها، وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله ﷺ، وعرض عليه أبو الأسود الدؤلي[3] وأبو

(١) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) أحد الأئمة الأربعة، ولد ونشأ في الكوفة، طلب إلى القضاء فامتنع، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. «الأعلام» (٣/ ٢٣٦).

(٢) قوله (الممسوس في ذات الله): الذي أصابه مس القتل شهيداً في ذات الله فقد أخرج الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية: «لا تسبوا علياً فإنه ممسوس في ذات الله تعالى». كذا في «كنز العمال» (١١/ ٣٣٠١٧).

(٣) أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو بن سفيان (١ ق.هـ ـ ٦٩ هـ) الكناني: واضع علم =

عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو أول خليفة من بني هاشم وأبو السبطين.

أخرج أبو يعلى عن علي - رضي الله عنه - قال: بُعثَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وأسلمتُ يوم الثلاثاء. وكان عمره عشر سنين، وقيل: دون ذلك، قال الحسن بن زيد بن الحسن: ولم يعبد الأوثان قط لصغره؛ وشهد مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً وسائر المشاهد إلا تبوك فإن النبي ﷺ استخلفه على المدينة، وقال له: «ألم ترض أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي»[1].

وله في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبي ﷺ اللواء في مواطن كثيرة، وقال سعيد بن المسيب[2]: أصابت علياً يوم أحد ست عشرة ضربة.

وثبت في الصحيحين: أنه ﷺ أعطاه الراية في يوم خيبر، وأخبر أن الفتح يكون على يديه[3].

وأحواله في الشجاعة وآثاره في الحروب شهيرة.

وكان رضي الله عنه شيخاً سميناً، أصلع، كثير الشعر، ربعة إلى القصَر، عظيم البطن، عظيم اللحية جداً قد ملأت ما بين منكبيه بيضاء كأنها قطنَ، آدم شديد الأُدمة.

روي له عن رسول الله ﷺ خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثاً.

وروى بنوه الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية. وابن مسعود

= النحو، من التابعين، سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيام علي. له شعر جيد، مات في البصرة. «الأعلام» (٣/ ٢٣٦)

(١) حديث «ألم ترض»: أخرجه أحمد، ومسلم في فضائل علي برقم (٢٤٠٤)، والبيهقي، والترمذي بلفظ «أما ترضى».

(٢) سعيد بن المسيب بن حَزْن (١٣ - ٩٤ هـ) القرشي: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءاً. توفي بالمدينة. «الأعلام» (٣/ ١٠٢).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٧٨٣ - ٢٨١٢) ومسلم (١٨٠٧ - ٢٤٠٥).

وابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو موسى وأبو سعيد وزيد بن أرقم وجابر بن عبدالله وأبو أمامة وأبو هريرة وخلائق من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

وورد في فضله أحاديث لم تُرْوَ لأحد من الصحابة.

أخرج الترمذي[1] والحاكم[2] عن علي [رضي الله عنه] قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها» هذا حديث حسن على الصواب، لا صحيح كما قال الحاكم، ولا موضوع كما قال جماعة منهم ابن الجوزي[3] والنووي[4].

وأخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال لما نزلت هذه الآية ﴿نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

وقال حذيفة رضي الله عنه: قالوا: يا رسول الله! ألا تستخلف علينا، قال: «إن تولوا علياً ـ وما أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهدياً»[5].

---

(١) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ): من أئمة علماء الحديث وحفاظه، تتلمذ للبخاري، وعمي في آخر عمره، يضرب به المثل في الحفظ، مات بترمذ. «الأعلام» (٦/ ٣٢٢).

(٢) محمد بن عبد الله بن حمدويه (٣٢١ ـ ٤٠٥) النيسابوري، الشهير بالحاكم، مولده ووفاته بنيسابور، وولي قضاءها، كان من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه. «الأعلام» (٦/ ٢٢٧).

(٣) عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ) القرشي البغدادي، علامة عصره في التاريخ والحديث، مولده ووفاته في بغداد. «الأعلام» (٣/ ٣١٦).

(٤) يحيى بن شرف بن مري (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ) النووي، الشافعي، علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوى (من قرى حوران بسورية) تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً، «الأعلام» (٨/ ١٤٩).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» وأبو داود، والحاكم وتعقب بألفاظ متقاربة. «كنز العمال» (١١/ ٣٣٠٧٠).

وسئل ﷺ عنه فقال: «قُسِمَت الحكمةُ عشرةَ أجزاء فأعطي علي تسعة والناس واحداً»[1].

وقدم عليه يوماً فقال: «مرحباً بسيد المسلمين وإمام المتقين»[2].

وقال [ﷺ]: «إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعيَ»[3].

وقال [ﷺ]: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[4].

وقال [ﷺ]: «علي مني وأنا منه»[5].

وقال [ﷺ]: «لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق»[6].

وقال ـ رضي الله عنه ـ: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إن فيك مثلاً من عيسى أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به» ألا وإنه يهلك فيَّ إثنان محبّ مفرط يفرطني بما ليس في ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني[7].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» والأزدي في «الضعفاء» وأبو علي الحسين بن علي البردعي في «معجمه»، وابن النجار، وابن الجوزي في «الواهيات». «كنز العمال» (١١/ ٣٢٩٨٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٦) وفي «كنز العمال» (١١/ ٣٣٠٠٩). وإسناده ساقط ضعيف جداً، وهو حديث منكر.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٧) وأخرجه ابن عساكر بلفظ قريب وقال: هذا إسناد لا يعرف والحديث شاذ. كذا في «كنز العمال» (١٣/ ٣٦٤٢٦).

(٤) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والنسائي وغيرهم وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٤، ١٦٥) والترمذي برقم (٣٧١٩) وابن ماجه برقم (١١٩) والطبراني في «الكبير» برقم (٣٥١١) وقال الترمذي: حسن غريب. «كنز العمال» (١١/ ٣٢٩١٣).

(٦) أخرجه النسائي، وابن ماجه، والترمذي برقم (٣٧٢٠) وقال: حسن غريب. «كنز العمال» (١١/ ٣٢٨٧٨).

(٧) أخرجه ابن عدي في الكامل، وأبو نعيم في فضائل الصحابة، والحاكم بلفظ قريب، وقال =،

وقال [ﷺ]: «من آذى علياً فقد آذاني، ومن سبه فقد سبني، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أحبه فقد أحبني»[1].

وقال [ﷺ]: «علي مع القرآن والقرآن مع علي»[2].

وقال ابن عباس [رضي الله عنهما]: ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي؛ وكان إذا غضب المصطفى لم يجترىء أحد أن يكلمه غيره. وقال: لعلي ثمان عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة.

قال الإمام أحمد: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل ما ورد لعلي. رواه الحاكم وغيره.

وكان رضي الله عنه الاستسلام والانقياد شأنه، والتبرّي من الحول والقوة مكانه، وإذا أردت أن تعلم منزلته من المصطفى ﷺ فتأمل صنيعه في المؤاخاة بين الصحابة جعل يضم الشكل إلى الشكل، والمثل إلى المثل فيؤلف بينهما إلى أن آخى بين أبي بكر وعمر، وادخر علياً لنفسه واختصه بأُخُوَّته، وناهيك بها من فضيلة، وأَعْظِمْ بها من شرف.

وقد قيل: التصوف الارتقاء في الأسباب إلى المقدورات من الأبواب[3].

وكان مزيناً بزينة العُبَّاد، متحققاً بحلية الأبرار والزُّهَّاد، بل في الإحياء عن ابن عيينة[4]: أنه كان أزهد الصحابة؛

= صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي وقال: الحكم وهّاه ابن معين. «كنز العمال» (١١/ ٣٣٠٣٢).

(١) حديث «من آذى علياً» أخرج أحمد بعضه، والبخاري في التاريخ، والحاكم في المستدرك، وسكت عنه الذهبي، انظر «كنز العمال» (١١/ ٣٢٩٠١ و٣٢٩٠٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، والحاكم (٣/ ١٢٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. «كنز العمال» (١١/ ٣٢٩١٢).

(٣) قوله (من الأبواب): وهذا ثمرة علو الهمة والفقه عن الله عزَّ وجلَّ (ع).

(٤) سفيان بن عيينة بن ميمون (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ) الكوفي، محدث الحرم المكي، من الموالي، =

وقد شهد له بكمال الزهد الإمام الشافعي[1] لما قيل له: ما نفر الناس عن عليّ إلا أنه كان لا يبالي بأحد، فقال الشافعي: كان عظيماً في الزهد والزاهد لا يبالي بأحد.

وكان بذات الله عليماً وعُرفان الله في صدره عظيماً، وقد قيل: التصوف البروز من الاحتجاب إلى دفع الحجاب[2].

ومما حفظ من رشيق عباراته ورقيق إشاراته: كونوا لِقَبُول العمل أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل فإنه لن يقِل عمل مع التقوى.

وقال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك بل أن يكثر علمك ويعظم حلمك.

وقال: احفظوا عني لا يرجو عبد إلا ربَّه؛ ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم. وقال: الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب.

قال العارف الشعراني ـ قدس سره ـ قلت: والمراد بالدنيا ما زاد على الحاجة الشرعية بخلاف ما دعت الضرورة إليه، وذلك أن فضول الدنيا شهوات وأهل الشهوات كثير، ولذلك ما رؤي زاهد قط في محل مزاحمة على الدنيا كما هو مشاهد، وإنما سمي طالب الفضول كلباً للدنيا لتعلق قلبه بها، لأن الكلب مأخوذ من التكليب، وكل من عَسُر عليه فراق شهوة فهو كلبها فافهم؛ فما توسع مَنْ توسع في مأكل ولا ملبس إلا لقلة ورعه، والشارع لم يأمر بالتوسع في الشهوات والله أعلم انتهى.

= ولد بالكوفة، وسكن مكة، وتوفي فيها. كان حافظاً ثقة، واسع العلم، كبير القدر. «الأعلام» (٣/ ١٠٥).

(١) محمد بن إدريس بن العباس (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة، ولد في غزة، ونشأ في مكة، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة (١٩٩ هـ) فمات فيها. وقبره معروف في القاهرة. «الأعلام» (٦/ ٢٦).

(٢) قوله (دفع الحجاب): أي لا يحجبك عن الله وجود شيء معه، وإنما يحجبك توهم موجود معه. كما في الحكم العطائية. (ع).

وقال: من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه، ومن ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد، ومن بالغ في الخصومة أَثِم، ومن قَصَّر فيها ظُلِم، ومن كَرُمَت عليه نفسُه هانت عليه شهوتُه.

وقال: من عَظَّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها.

وقال: إذا كان في رجل خَلَّة رائعة فلينتظر أخواتها.

وقال: الغيبة جهدُ العاجز، ورُبَّ مفتونٍ بحسن القول فيه.

وقال: ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه.

وقيل له: ألا نحرسك فقال: حارس كل امرىء أجلُهُ.

وقال: من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خُلُقُه، ومن داومه أربعين يوماً قسا قلبه.

واشترى لحماً بدرهم وحمله فقيل: نحمل عنك، فقال: أبو العيال أحق بحمله.

وقال: الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ، إن الله لم يرها ثواباً لأوليائه، ولا عقاباً لأعدائه[1].

وقال: من صارع الحقّ صرعه.

وقال: القلب مصحف البصر.

وقال: كل مقتصر عليه كاف، ومن لم يُعْطَ قاعداً لم يُعْطَ قائماً.

وقال: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تَبْطَر وإذا كان عليك فلا تضجَر.

---

(١) قوله (عقاباً لأعدائه): وفي الحكم العطائية: إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجلَّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دارٍ لا بقاء لها (ع).

وقال: من طلب شيئاً نالَه أو بعضه.

وقال: الركون إلى الدنيا وما يعاني فيها جهل، والتقصير في حُسْنِ العمل إذا وثقت بالثواب عليه غُبن، والطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبارَ عَجْز، والبخل جامع لمساوىء الأخلاق، من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه.

وقال: الرغبة مفتاح النصب، والحسد مطية التعب.

وقال: إذا أقبلت الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى.

وقيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

وقال لبعض الملحدين المنكرين للمَعَاد: إن كان الذي تظن أنت نجونا نحن وأنت، وإلا نجونا وهلكت أنت.

وقال لعمر: إن أردت اللحوق بصاحبيك فارقع القميص، وقصّر الإزار، واخصف النعل، وكُلْ دون الشِّبَع، فمن تَزَيَّى بقوم فهو منهم.

وكان له سويق في إناء مختوم يشرب منه، فقيل له: تفعل ذا بالعراق مع كثرة طعامهم! فقال: أما إني لا أختمه بُخْلاً بل أنا أكره أن يجعل فيه ما ليس منه فيدخل بطَني غيرُ طيب.

وقال: القبر صندوق العمل، وبعد الموت يأتيك الخبر.

وقال: العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

وقال: السفر ميزان الرجال، والحلم والأناة توأمان نتيجتهما علوّ الهمة.

وقال: ذهب المتقون بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهلها في أخراهم.

وقال: اتق الله بعض التقى وإن قلَّ، واجعل بينك وبين الحرام ستراً وإن رَقَّ، واتق المعاصي في الخلوات فإنَّ الشاهد هو الحاكم.

وقال: القناعة سيف لا ينبو، والصبر مطية لا تكبو، وأفضل عدة صبرٌ على شدة.

وقال: ما هلك امرؤ عرف قدره، وقيمة كل امرىء ما يحسنه، ومن عَذُبَ لسانه كثرت إخوانه، وبالبر يستعبد الحر، وبَشِّر مال البخيل بحادث أو وارث.

وقال: الجزع عند البلاء تمام المحنة.

وقال: لا ظفر مع بغي، ولا ثناء مع كِبْر، ولا صحة مع نَهَم وتخم، ولا شرفَ مع سوء أدب، ولا راحة مع حسد، ولا سؤدد مع انتقام، ولا صواب مع ترك مشورة، ولا مروءة لكذوب، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، ولا داء أعيا من الجهل، والمرء عدوّ ما جهل، رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعد طوره.

وقال: إعادة الاعتذار تَذْكرة بالذنب، والنصح بين الملا تقريع، وأكبر الأعداء أخفاهم مكيدة، والبخلَ جامع لمساوىء العيوب.

وقال: إذا حلت المقادير ضلّت التدابير، وعبد الشهوة أذل من عبد الرق، والحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، والإحسان يقطع اللسان، وأفقر الفقر الحمق، وأغنى الغنى العقل.

وقال: احذروا نَفَار النعم فما شارد بمردود، وأكثر مصارع العقول تحت بروق الأطماع، وإذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكر القدرة عليه.

وقال: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وعلى صفحات وجهه.

وقال: من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه.

وقال: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

وقال: الناس أبناء الدنيا وما يلام الرجل على حب أمه.

وقال: رُدَّ الحجر من حيث جاء، فإن الشر لا يدفعه إلا الشر.

وقال: أعظم الذنوب ما استخف به صاحبه.

وقال: كانت العلماء والأتقياء والحكماء والأولياء يتكاتبون بثلاث ليس لهن رابعة: من أحسن سريرتَه أحسن الله علانيته، ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن كانت الآخرة همه كفاه الله دنياه.

وقال: رأس الدين صحبة اليقين.

وقال: الصبر يناضل الحَدَثان[1]، والجزعُ من أعوان الشيطان.

وقال: لا تعمل الخير رياء، ولا تتركه حياء، وإن لم تكن حليماً فتحلم، فإنه قلَّ من يتشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم.

وقال: رسولك ترجمان عقلك وكتابك أبلغ ما ينطق عنك.

وقال: الأماني تعمي أعين البصائر.

وقال: لو حننتم حنين الواله الثكلان، وجأرتم جُؤار الرهبان، ثم خرجتم من أموالكم وأولادكم في طلب القرب من الله وابتغاء رضوانه ورفع درجة أو غفر سيئة كان قليلاً.

وقال: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك.

وقال: روحوا القلوب فإنها إن أكرهت عميت.

وقال: ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء إلا من عدل وحكم بالحق.

وقال: من أشد الأعمال مواساة الأخ في المال.

وقال: خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم، فإن للمرء ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب.

وقال: التوفيق خير قائد، وحسن الخُلُق خير قرين، والعقل خير صاحب،

---

(١) الحدثان: الصروف والنُّوَب والنوازل. «لسان العرب» (حدث).

والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشد من العجب.

وقال: إن للنكبات نهايات لا بد لأحد إذا نكب أن ينتهي إليها، فينبغي للعاقل إذا نكب أن ينام لها حتى تنقضي مدتها.

وقال: جزاء المعصية الوَهَن في العبادة والضيق في المعيشة.

ولما ضربه ابن ملجم ودخل عليه الحسن يبكي فقال: احفظ عني أربعاً وأربعاً: إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الكرم حسن الخلق؛

والأربع الأخر قال: إياك ومصاحبة الأحمق؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ومصادقة الكذاب، فإنه يقرب عليك البعيد ويبعد القريب، ومصادقة البخيل، فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، والتاجر فإنه يبيعك بالتافه.

وجاءه يهودي فقال: متى كان ربنا؟ فقال: لم يكن فكان هو ولا كينونة، كان بلا كيف، كان ليس له قبل ولا غاية، انقطعت الغايات دونه فهو غاية كل غاية. فأسلم.

وقال: القريب من قربته المودّة وإن بَعُدَ نسبه، والبعيد من بعدته العداوة وإن قَرُبَ نسبه، ولا شيء أقربُ من يد إلى جسد، وإذا فسدتْ قُطعَت، وإذا قطعت حُسمت.

وقال: الفقيه كل الفقيه من لم يُقْنِط الناس من رحمة الله، ولم يُرَخِّصْ لهم في المعاصي، ولم يُؤَمِّنْهُمْ عذابه.

وقال: لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهمَ فيه، ولا قراءة لا تدبّر فيها.

وقال: الدنيا قد تَرَحَّلَت مدبرةً، والآخرة قد ترحلت مُقْبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة لا الدنيا، فإن اليومَ عَمَلٌ وَلا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل.

وقال: كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل خُلْقان الثياب جُدَد القلوب تُعْرَفوا به في السماء وتُذْكَروا به في الأرض.

وقال: طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة.

وقال: للمرائي ثلاثُ علامات، يكسل إذا انفرد، وينشط عند الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم.

وسمع صوت ناقوس فقال: تدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: يقول: سبحان الله حقاً حقاً، إن المولى صمد يبقى.

وقال: إن دين الله بين الغالي[1] والمقصر، فعليكم بالفرقة الوسطى، فإن بها يلحق المقصر، وإليها يرجع الغالي.

قال العسكري[2]: لم يرد في التوسط أحسن من هذا.

وخرج يوماً فإذا قومٌ جلوس قال: من أنتم؟ قالوا: شيعتك، قال: سبحان الله مالي لا أرى عليكم سيما الشيعة، عمشَ العيون من البكاء، خمصَ البطون من الصوم، ذُبُل الشفاه من الدعاء، صُفْر الألوان من السهر، على وجوههم طيرة الخاشعين.

وقال: أوحى الله إلى عيسى: مُرْ بني إسرائيل أن لا يدخلوا بيوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقية، فإني لا أستجيب لأحد منهم ولأحد عنده مظلمة.

وقال: القلوب أوعية، فخيرُها أوعاها.

وقال: الناس على ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق[3] يميلون مع كل ريح.

---

(١) الغالي: المجاوز الحد.

(٢) العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل (٠٠٠ ـ بعد ٣٩٥ هـ) أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. نسبته إلى «عسكر مُكرَم» من كور الأهواز. «الأعلام» (٢/ ١٩٦).

(٣) ناعق: صائح وزاجر «مختار» (٦٦٨).

وقال: لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم وقال:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مُغْبَرٌّ قبيح
تغير كلُّ ذي طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح

أخرجه عنه الطبراني، لكن نوزع بما رواه الثعلبي[1] عن ابن عباس [رضي الله عنهما]: أن سيدنا محمداً والأنبياء كلهم صلى الله عليهم وسلم في النهي عن الشعر سواء.

وأخرج تاج الإسلام بسنده عن شريح[2] قال: اشتريت داراً بالكوفة فبلغ أمير المؤمنين علياً، فقال: يا شريح! اشتريت داراً؟ قلت: نعم، قال: أشهدت عدولاً؟ قلت: نعم، قال: اتق الله فإنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسأل عن بينتك، انظرْ أن لا تكون اشتريت داراً من غير مالك، ووزنت مالاً من غير حل، فتخسر الدارين، ولو كنتَ حين اشتريت صرت إليّ كنت كتبت لك الصك على هذه النسخة إذن ما كنت تشتريها بدرهم! قلت: وما كنت تكتب؟ قال: أكتب: هذا ما اشترى العبد الذليل من ميت أُزعِج بالرحيل، اشترى هذا المفتون بالأمل من المزعَج بالأجل داراً بمحلة الغرور من الجانب الفاني في عسكر الهالكين، لها حدود أربعة: فحد منها ينتهي إلى دواعي الآفات، والثاني إلى دواعي العاهات، والثالث إلى دواعي المصيبات، والرابع إلى الهوى المردي والشيطان المغوي، وفي هذا الحد يشرع باب هذه الدار بالخروج عن عز القنوع والدخول في دار الحرص والفضول، فما أدرك هذا المشتري من درك فعلى مبلي أجساد الملوك، مناكب نفوس الجبابرة ككسرى والقياصرة وتُبَّع وحِمْيَر

---

(١) الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم (٠٠٠ ـ ٤٢٧) النيسابوري: مفسر، مقرىء، واعظ، أديب. «معجم المؤلفين» (٢/ ٦٠).

(٢) شريح بن الحارث بن قيس (٠٠٠ ـ ٧٨ هـ) الكندي، أبو أمية: من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام. أصله من اليمن. ولي قضاء الكوفة، في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية. واستعفى في أيام الحجاج، فأعفاه سنة (٧٧ هـ). وكان ثقة في الحديث، مأموناً في القضاء، وعمر طويلاً، ومات بالكوفة «الأعلام» (٣/ ١٦١).

ومن بني وشيد، شهد على ذلك العقل إذا خَرَجَ من أَسْر الهوى، والمعرفة إذا خلت من قيد المين[1] والسـلام.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: أعلم العلماء بالله أشدهم حُبّاً لله وتعظيماً لأهل لا إله إلا الله.

وكان يقول: موتُ الإنسان بعد أن كبر وعرف ربَّه خيرٌ من موته طفلاً ولو دخل الجنة بغير حساب.

قال العارف الشعراني قدس سره: لأن أقلَّ ما هناك أن العبد يجالسُ ربَّه في الجنة بقدر ما عمل من العبادات والله أعلم. انتهى.

وقال: إذا كان يوم القيامة أتت الدنيا بأحسن زينتها ثم قالت: يا رب هبني لبعض أوليائك! فيقول الله عز وجل لها: اذهبي بما لا شي فلأنت أهونُ من أن أهبك لبعض أوليائي، فتطوى كما يُطْوى الثوب الخَلق فتلقى في النار.

وقال: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى وطولُ الأمل، فأما اتباع الهوى فيضل عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

وقال: هاه هاه إن ههنا علماً ويشيرُ إلى صدره لو أصبت له حملة.

وكان يخاطبُ الدنيا ويقول: قد طلقتك ثلاثاً، عُمرُك قصير، ومجلسُك حقير، وخطؤك كثير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

وقال: لم يرضَ الحقُّ من أهل القرآن الادْهانَ في دينه والسكوتَ عن معاصيه.

وقال: ما نلتَ من دنياك فلا تكترث فيه فرحاً، وما فاتك منها فلا تبتئسْ عليه حزناً، وليكن همك فيها الموت.

وقال: أشد الأعمال ثلاث: إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله على كل حال، ومواساة الإخوان من المال.

---

(١) المَيْن: الكذب. «مختار» (٦٤١).

وقال أبو عبيدة[1] في كتاب «الأمثال»: ارتجل عليّ ـ كرم الله وجهه ـ تسع كلمات قطع الأطماع عن اللحاق بواحدة منهن: ثلاثاً في المناجاة، وثلاثاً في العلم، وثلاثاً في الأدب؛

فأما التي في المناجاة فقوله: كفاني عزاً أن تكون لي رباً، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً، أنت لي كما أحب، فوفقني لما تحب.

وأما التي في العلم فقوله: المرء مخبوء تحت لسانه، تكلموا تُعْرَفوا، ما ضاع امرؤ عرفَ قدره.

وأما التي في الأدب فقوله: أنعِمْ على من شئت تكن أميرَه، واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيرَه.

وخُطَبه وكلامه أفرد بعدة أسفار كبار.

وأما ما نقل عنه من التقلل والتزهد، واشتهر به من الترهب والتعبد فكثير. وقد قيل: التصوف السلو عن الأعراض بالسمو إلى الأغراض.

جاءه ابن التياح[2] فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر! فنادى في الناس ففرق جميع ما فيه وهو يقول: يا صفرا ويا بيضا! غري غيري، ها وها، حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين، وما بنى لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وكان يلبس إزاراً غليظاً أسود بخمسة دراهم.

---

(١) معمر بن المثنى (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ) البصري، أبو عبيدة النحوي: من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. كان إباضياً، شعوبياً، من حفاظ الحديث. «الأعلام» (٧/ ٢٧٢).

(٢) ذكرت هذه القصة في «صفة الصفوة» (١/ ٣١٤) وأسندت إلى مسند الإمام أحمد، وقال محقق «صفة الصفوة»: لعلّ الصواب (ابن النباح) كما في «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢٤). وهو عامر بن النباح مؤذن سيدنا علي بن أبي طالب ويروي عنه ـ انظر هامش «المشتبه في الرجال» للذهبي بتحقيق الجباوي ـ ولا أعلم في الرواة من يسمى (ابن التياح) ولكن يوجد أبو التياح وهو يزيد بن حميد الضبعي. ا. هـ.

وكان يرقع قميصه فقيل له: يا أمير المؤمنين لِمَ هذا؟ قال: يخشع القلب، ويقتدي به المؤمن.

وأتى يوماً السوق فقال: من عنده قميص بثلاثة دراهم؟ فقال له رجل: عندي، فأتاه به فأعطاه فلبسه فإذا به يفضل عن أطراف أصابعه، فأمر به فَقُطِعَ.

وباع سيفه في ثمن إزار وقال: والله لو كان عندي ثمنُه ما بعته فطالما كشفت به الكُرَب عن المصطفى ﷺ.

ودخل سيدنا ضرار[1] على سيدنا معاوية[2] ـ رضي الله عنهما ـ فقال: صف لي علياً. فقال: أوتعفيني؛ قال: لا؛ قال: أما إذْ لا بد فكان والله بعيد المَدَى شديد القُوى، يقول فَصْلاً ويَحْكُم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته، غزيرَ العبرة طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وكان أُتيَ ـ رضي الله عنه ـ بفالوذَج[3] فوضع بين يديه، فقال: إنك طيب الريح حسنَ اللون طيب الطعم غير أني لا أعوّد نفسي ما لم تعتد ورَدّه، ولم يأكل منه شيئاً.

---

(١) ضرار بن مالك (الأزور) بن أوس (٠٠٠ ـ ١١ هـ) الأسدي، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام. وكان شاعراً مطبوعاً. له صحبة. قاتل يوم اليمامة أشد قتال، حتى قطعت ساقاه. مات بعد أيام في اليمامة. وقيل: في غيرها. «الأعلام» (٣/ ٢١٥).

(٢) معاوية بن صخر (أبي سفيان) بن حرب (٢٠ ق.هـ ـ ٦٠ هـ) القرشي الأموي: مؤسس الدولة الأموية في الشام، ولد بمكة وأسلم يوم الفتح، وتعلم الكتابة والحساب، دامت له الخلافة بعد الحسن بن علي إلى أن بلغ سن الشيخوخة. مات في دمشق. له (١٣٠) حديثاً. «الأعلام» (٧/ ٢٦٢).

(٣) الفالوذ: من الحلواء، هو الذي يؤكل، يسوّى من لبِّ الحنطة، فارسي معرب. قال يعقوب: ولا يقال الفالوذج. «لسان العرب» (فلذ).

ولم يأكل طعاماً منذ قتل عثمان ونُهبَت الدار إلا مختوماً حذراً من الشبهة.

وكان قوته وكسوته مما يؤتى به من المدينة، ولم يأكل من طعام العراق إلا قليلاً.

وكان يبرد في الشتاء ترتعد أعضاؤه، فقيل له: ألا تأخذ لك كساء من بيت المال فإنه واسع، فقال: لا ننقص المسلمين من بيت مالهم شيئاً. وكان يحاسب نفسه على كل شيء.

ونختم ترجمة هذا الإمام بخبر رواه بعض الأعلام، وهو ما خرجه الحافظ أبو نعيم[1] بسند قوي جداً عن حذيفة مرفوعاً: «من سره أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويتمسك بالقصبة الياقوتية، التي خلقها الله بيده ثم قال لها: كوني فكانت، فليتول علي بن أبي طالب»[2]. انتهى.

أقول: ورأيت في كلام من «شرح رسالة سلسلة الذهب» للشيخ محمد مراد الأزبكي في الطريقة العلية النقشبندية: أنه ولد في جوف بيت الله الحرام؛ قيل: ولم يتيسر ذلك لأحد قبله ولا بعده، وذلك ليلة الأحد في الثالث والعشرين من شهر رجب بعد ثلاثين سنة من عام الفيل. انتهى.

وقد علم السنة والشهر والليلة التي قتل فيها ولما خرج لصلاة الصبح صاح الاوز في وجهه فطردن عنه، فقال: دعوهن فإنهن نوائح.

قتله ـ رضي الله عنه ـ عبد الرحمن بن ملجم في رمضان سنة أربعين وقد نيف على الستين وقد ذكروا لقتله أسباباً: منها: أن ابن ملجم عشق امرأة من الخوارج يقال لها: قطام فأصدقها ثلاثة آلاف وقتل عليّ. وفي ذلك قال الفرزدق شعراً:

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة   كمهر قطام بين غير معجم

---

(١) أحمد بن عبد الله بن أحمد (٣٣٦ ـ ٤٣٠ هـ) أبو نعيم الأصبهاني: حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية. ولد ومات في أصبهان. «الأعلام» (١/ ١٥٧).

(٢) حديث «من سره أن يحيا» أتت رواياته بتغيير بعض الألفاظ. انظر «كنز العمال» (١١/ ٣٢٩٥٩ـ٣٢٩٦٠).

ثــلاثــة آلاف وعبــد وقينــة ... وضرب عليّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

فخرج عليّ ينادي لصلاة الصبح: أيها الناس! الصلاة، فاعترضه ابن ملجم فضربه بسيف، فأصاب جبهته إلى قرنه، ووصل إلى دماغه، فشد عليه الناس فأمسك وأوثق وذلك في صبح الجمعة، فأقام عليّ الجمعة والسبت ومات ليلة الأحد، ودفن بقصر الإمارة بالكوفة ليلاً على أحد الأقوال، ثم قطعت أطراف ابن ملجم وجعل في قوصرة وأحرق بالنار.

أقول: ونقل العلامة الشيخ محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني في «مجمع الأحباب» عن ابن سعد قال أهل السير:

انتدب ثلاثة من الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادي وهو من حمْيَر وعداده في بني مراد، وهو حليف ابن صلة من كندة، والبرك بن عبدَ الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، فاجتمعوا بمكة وتعاقدوا ليقتلن عليّ بن أبي طالب، ومعاوية، وعمرو بن العاص.

فقال ابن ملجم: أنا لعليّ؛ وقال البرك: أنا لمعاوية؛ وقال الآخر: أنا لعمرو.

وتعاهدوا أن لا يرجع أحد منهمّ حتى يقتله أو يموت دونه.

وتواعدوا ليلة سابع عشر من رمضان فتوجه كل واحد إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يريد قتله، فضرب ابن ملجم علياً - رضي الله عنه - بسيف مسموم في جبهته فأوصله دماغه في الليلة المذكورة ليلة الجمعة، ثم توفي عليّ رضي الله عنه في الكوفة ليلة الأحد تاسع عشر رمضان سنة أربعين. انتهى.

ونقل في «العقد الفريد» عن التميمي بإسناد له قال: لما تواعد ابن ملجم وصاحباه بقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، دخل ابن ملجم المسجد في فروغ الفجر الأول، فدخل في الصلاة تطوّعاً ثم افتتح في القراءة وجعل يكرر هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة: ٢٠٧]

فأقبل عليّ ـ رضي الله عنه ـ بيده مخففة وهو يوقظ الناس للصلاة، ويقول: أيها الناس! الصلاة، الصلاة، فمرَّ بابن ملجم وهو يردد هذه الآية، فظن علي أنه ينسى فيها، ففتح عليّ فقال: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ ثم انصرف عليّ وهو يريد أن يدخل الدار فاتبعه فضربه على قرنه، ووقع السيف في الجدار فأطار فدرة[1] من آخره فابتدره الناس فأخذوه ووقع السيف منه، فجعل يقول: أيها الناس! احذروا السيف فإنه مسموم. قال: فأتي به علي. فقال: احبسوه ثلاثاً وأطعموه واسقوه، فإن أعش أرى فيه رأيي وإن أمت فاقتلوه ولا تمثلوا به، فمات من تلك الضربة فأخذه عبد الله بن جعفر، فقطع يديه ورجليه فلم يفزع، ثم أراد قطع لسانه ففزع، فقيل له: لم لَم تفزع لقطع يديك ورجليك وفزعت لقطع لسانك؟ قال إني أكره أن تمرّ بي ساعة لا أذكر الله فيها ثم قطعوا لسانه، وضربوا عنقه.

وتوجه الخارجي الآخر إلى معاوية فلم يجد إليه سبيلاً.

وتوجه الثالث إلى عمرو فوجده قد أغفل تلك الليلة فلم يخرج إلى الصلاة، وقدم مكانه رجلاً يقال له خارجة فضربه الخارجي بالسيف، وهو يظنه عمرو بن العاص فقتله، فأخذه الناس، فقالوا: قتلت خارجة. قال: أوليس عمراً؟ قالوا له: لا. قال: أردت عمراً؟ وأراد الله خارجة.

قال في «مجمع الأحباب»: رأيت في بعض التصانيف أن أحد الفضلاء نظم قصيدة ذكر فيها جماعة من أعيان الإسلام فمنها:

وخضبت شيب عثمان دماً وخطت إلى الزبير ولم تستحي من عمر
وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

وروينا أنه لما ضربه ابن ملجم، قال: فزت ورب الكعبة، قالوا: ولما فرغ عليّ من وصيته، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم لم يتكلم إلا كلمة الشهادة لا إله إلا الله حتى توفي ودفن بالكوفة.

---

(١) فِدْرة: قطعة. «لسان العرب» (فدر).

قال أبو بكر بن عياش[1]: عُمي قبر عليّ لئلا تنتبشه الخوارج.

وقال شريك[2]: نقله ابنه الحسن إلى المدينة.

وقال المبرد[3]: عن محمد بن حبيب: أول من حوّل من قبر إلى قبر عليّ - رضي الله عنه -. حملوه ليدفنوه مع رسول الله ﷺ، فبينما هم في مسيرهم ليلاً إذ ندّ البعير الذي هو عليه فلم يدر أين ذهب ولم يقدر عليه، قال: فلذلك يقول أهل العراق: هو في السحاب.

وقال غيره: أن البعير وقع في بلاد طيىء فأخذوه فدفنوه، وكان له حين قتل ثلاث أو أربع أو خمس وستون سنة، وقيل: سبع أو ثمان وخمسون سنة؛ وكان له تسع عشرة سرية.

قال ابن قتيبة[4]: ولعليّ من الأولاد الحسن والحسين ومحمد وأم كلثوم وزينب الكبرى من فاطمة، وله من غيرها أولاد كثيرون. انتهى.

وله - رضي الله عنه - نظم كله حكَم وعلم، فمن ذلك ما أخرج عن حمزة بن حبيب الزيات قال: كان عليّ - رضي الله عنه - يقول:

لا تفش سرّك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحاً
فإني رأيت غواة الرجا ... ل لا يدعون أديماً صحيحاً

---

(١) أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي (٩٥ - ١٩٣ هـ) المقرىء، الفقيه، المحدث. وفي اسمه أقوال أشهرها: شعبة «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٩٥).

(٢) شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي (٩٥ - ١٧٧ هـ) عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه، وسرعة بديهته. استقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة (١٥٣ هـ) ثم عزله، وأعاده المهدي، فعزله موسى الهادي. وكان عادلاً في قضائه. مولده في بخارى ووفاته بالكوفة. «الأعلام» (٣/ ١٦٣).

(٣) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (٢١٠ - ٢٨٦ هـ) المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. «الأعلام» (٧/ ١٤٤).

(٤) عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) الدينوري، من أئمة الأدب، ولد ببغداد وسكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها. وتوفي ببغداد. «الأعلام» (٤/ ١٣٧).

وأخرج عن نبيط الأشجعي عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق بهمها الصدر الرحيب
وأوطئت المكاره واطمأنت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضرّ وجه ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يجيء به القريب المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول به الفرج القريب

وأخرج عن المبرد، قال: كان مكتوباً على سيف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

للناس حرص على الدنيا وتدبير وصفوها لك ممزوج بتكدير
لم يرزقوها بعقل بعدما قسمت لكنهم رزقوها بالمقادير
كم من أديب لبيب لا تساعده وأحمق نال دنياه بتقصير
لو كان عن قوة أو عن مغالبة طار البزاة بأرزاق العصافير

وقال رضي الله عنه:

إن أخاك الحقّ من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

ومما يعزى له أيضاً من قصيدة طويلة:

دواؤك فيك ولا تشعر وداؤك منك وتستخبر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه قد طوى المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومنه أيضاً:

حقيق بالتواضع من يموت ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهم السكوت

ولما انتقل إلى الفردوس رثاه أبو الأسود الدؤلي فقال رضي الله عنه:

ألا يا عين ويحك أسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنينا
وتبكي أم كلثوم عليه بعبرتها وقد رأت اليقينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا فلا قرت عيون الحاسدينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئينا
وكل مناقب الخيرات فيه وحب رسول رب العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسباً ودينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر فوق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخير نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الحق لا يرتاب فيه ويعدل في العدا والأقربينا
وليس بكاتم علماً لديه ولم يخلق من المتكبرينا
كأن الناس إذ فقدوا علياً نعام حار في بلد سنينا
فلا تشمت معاوية بن صخر فإن بقية الخلفاء فينا

ثم تلقى سر هذه النسبة الشريفة عنه جم غفير من الصحابة والتابعين أعظمهم سيد هذه السلسلة الجليلة شبله سيدنا الحسين رضي الله عنهم أجمعين.

***

سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب
رضي الله تعالى عنهما

حسب اليراعة[1] في مقام البراعة بالثناء على هذا السيد الجليل والسبط السليل الإمام أن جده فخر العالم ﷺ، قال في حقه عليه السلام: «حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»[2]. رواه الحاكم عن يعلى العامري وصححه.

وجلس ﷺ يوماً في المسجد واحتبى، ثم قال لأبي هريرة: «ادع لي لكاع» فأتى بحسين يشتد حتى وقع في حجره، ثم أدخل يده في لحيته، فجعل المصطفى ﷺ يفتح فم الحسين، ويدخل فاه في فيه، ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه» رواه الحاكم[3].

ولد سنة أربع أو ست أو سبع، وقيل لم يكن بين الحمل بالحسين بعد ولادة الحسن إلا طهر واحد، وكان شجاعاً مقداماً من حين كان طفلاً، أتى عمر وهو يخطب على المنبر فصعد إليه، فقال: انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك، فقال عمر: لم يكن لأبي منبر، وأخذه فأجلسه معه، وقال: من علمك؟ فقال:والله ما علمني أحد.

وكان ابن عمر جالساً في ظل الكعبة إذ رأى الحسين مقبلاً، فقال: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم.

وكانت إقامته بالمدينة، إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة، فشهد معه مشاهده وبقي معه إلى أن قتل، ثم مع أخيه حتى انفصل، فرجع للمدينة واستمر بها حتى توفي معاوية، فأخرج يزيد إليه من يأخذ بيعته فامتنع وخرج إلى مكة؛

---

(١) اليراعة: القصبة. «مختار الصحاح» (٧٤٢).

(٢) حديث «حسين مني»: رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي برقم (٣٧٧٥) وقال: حسن. ورواه البيهقي. «كنز العمال» (١٢/ ٣٤٢٦٤).

(٣) حديث «ادع لي لكاع»: أخرجه ابن عساكر. «كنز العمال» (١٣/ ٣٧٦٤٢).

فأتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه بعد موت معاوية، فأشار عليه ابن الزبير بالخروج، وابن عباس وابن عمر بعدمه، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل فأخذ بيعتهم وأرسل إليه يستقدمه، فخرج الحسين من مكة قاصداً للعراق ولم يعلم بخروجه ابن عمر فخرج خلفه فأدركه على ميلين من مكة، فقال: ارجع، فأبى، فقال: إني محدّثك حديثاً، إن جبريل أتى رسول الله ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة، وإنك بضعة منه، والله لا يليها أحد منكم، فقال: إن معي حملين من كتب أهل العراق ببيعتهم، فقال: ما تصنع بقوم قتلوا أباك وخذلوا أخاك، فأبى إلا المضي فاعتنقه وبكى؛ وقال: أستودعك الله من قتيل؛

ثم سافر فكان ابن عمر يقول: غلبنا حسين بالخروج، ولعمري لقد رأى في أخيه والله عبرة.

وكلمه في ذلك أيضاً من وجوه الصحابة جابر بن عبد الله، وأبو سعيد، وأبو واقد، وغيرهم، فلم يطع أحداً منهم، وصمم على المسير، فقال له ابن عباس: والله إني لأظنك ستقتل بين نسائك وأبناءك وبناتك كما قتل عثمان فلم يقبل فبكى، وقال: أقررت عين ابن الزبير، فلما رأى ابن عباس ابن الزبير قال له: قد جاء ما أحببت، هذا الحسين خرج وتركك والحجاز؛

فعلم يزيد بخروجه فأرسل إلى عبيد الله بن زياد واليه على الكوفة يأمره بطلب مسلم وقتله، فظفر به فقتله، ولم يبلغ حسيناً ذلك حتى صار بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، فلقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال له: ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً وأخبره الخبر، ولقي الفرزدق فسأله، فقال: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء؛ فهمّ أن يرجع، وكان معه إخوة مسلم، فقالوا: لا نرجع حتى نصيب بثأره أو نقتل، فساروا؛ وكان ابن زياد جهز جيشاً أربعة آلاف ـ وقيل: عشرين ألفاً ـ لملاقاته، فوافوه بكربلاء فنزل ومعه خمسة وأربعون فارساً ونحو مائة راجل ولقيه الجيش وأميرهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص، وكان ابن زياد ولاه الري وكتب له بعهده عليها إن حارب الحسين ورجع، فلما التقيا وأرهقه السلاح، قال له الحسين: اختر مني

إحدى ثلاث: إما أن ألحق بثغر من الثغور، وإما أن أرجع إلى المدينة، وإما أن أضع يدي في يد ابن معاوية، فقبل ذلك عمرو منه وكتب به إلى ابن زياد، فكتب إليه لا أقبل منه حتى يضع يده في يدي، فامتنع الحسين فتأهبوا لقتاله وكان أكثر مقاتلته الكاتبين إليه والمبايعين له؛

فلما أيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه قتيلاً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد نزل من الأمر ما ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها وانشمرت، حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء وإلا خَسيسُ عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المرء في لقاء الله فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا حراماً، فقاتلوه فكان آخر الأمر أن قتل، وقتل معه سبعة عشر شاباً من أهل بيته وذلك بكربلاء كما في خبر رواه الطبراني.

فإن قلت: ينافيه ما ورد عن الطبراني أيضاً عن عائشة: أنه عليه الصلاة والسلام، قال: «أخبرني جبريل أن الحسين يقتل بعدي بأرض الطف وجاءني جبريل بهذه التربة وأخبرني أن فيها مضجعه»(١).

وما رواه ابن سعد عن عليّ أمير المؤمنين قال: دخلت على المصطفى ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، فسألته فقال: «أخبرني جبريل: أن حسيناً يقتل بشاطىء الفرات»(٢).

قلت: لا تعارض لأن الفرات يخرج من آخر حدود الروم، ثم يمر بأرض الطف وهي من بلاد كربلاء فالتأم الكلام، واستقام على أحسن نظام.

ولما قتلوه حزوا رأسه، ثم أتوا به إلى ابن زياد فأرسله ومن بقي من أهل

---

(١) حديث «أخبرني جبريل أن الحسين»: أخرجه ابن سعد، والطبراني في «الكبير» عن عائشة. «كنز العمال» (١٢/ ٣٤٢٩٩).

(٢) حديث «أخبرني جبريل أن حسيناً»: أخرجه ابن سعد عن علي «كنز العمال» (١٢/ ٣٤٢٩٨).

بيته إلى يزيد، ومنهم عليّ بن الحسين كان مريضاً، وعمته زينب فلما قدموا على يزيد، سرّ سروراً كبيراً وأوقفهم موقف السبي بباب المسجد، وأهانهم وبالغ، ولما وضعوا الرأس الشريف بين يديه صار يضرب على ثناياه بقضيب كان معه، ويقول: لقيت بغيك يا حسين، وبالغ في الفرح ثم ندم لما مقته المسلمون على ذلك وأبغضه العالم(١).

قال الجلال السيوطي(٢) كغيره: وحق لهم أن يبغضوه.

وقد أخرج أبو يعلى(٣) عن أبي عبيدة مرفوعاً: «لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد»(٤).

وأخرج: الروياني(٥) عن أبي الدرداء مرفوعاً: «أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد»(٦).

وقد صنف جماعة من القدماء في مقتله تصانيف فيها الغث والسمين والصحيح والسقيم، وفي هذه القصة المساقة غنى.

---

(١) قوله (وأبغضه العالم): اقرأ ما يتعلق بهذا الموضوع في كتاب «أغاليط المؤرخين» لفضيلة الشيخ الطبيب محمد أبي اليسر عابدين مفتي الجمهورية العربية السورية سابقاً رحمه الله (ع).

(٢) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) إمام، حافظ، مؤرخ، أديب. له نحو (٦٠٠) مصنف. «الأعلام» (٣/ ٣٠١).

(٣) أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى (٠٠٠ ـ ٣٠٧ هـ) الموصلي: حافظ، من علماء الحديث. ثقة مشهور. عمّر طويلاً ورحل الناس إليه. وتوفي بالموصل. «الأعلام» (١/ ١٧١).

(٤) حديث «لا يزال أمر أمتي»: أخرجه أبو يعلى في «مسنده»، ونعيم بن حماد في «الفتن» عن ابن عمر، وفيه سعيد بن سنان واه. «كنز العمال» (١١/ ٣١٠٧٠).

(٥) الروياني: عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد (٤١٥ ـ ٥٠٢ هـ) من أهل رويان (بنواحي طبرستان)، فقيه شافعي. رحل وبنى بآمل طبرستان مدرسة. توفي شهيداً. «الأعلام» (٤/ ١٧٥).

(٦) حديث «أول من يبدل»: أخرجه أبو يعلى في المسند بلفظ قريب. «كنز العمال» (١٤/ ٣٨٣٦٨).

وقد صح عن إبراهيم النخعي[1] أنه كان يقول: لو كنت ممن قاتل الحسين، ثم أدخلت الجنة لاستحيت أن أنظر إلى وجه المصطفى ﷺ.

وقال ابن عباس: رأيت رسول الله ﷺ فيما يرى النائم نصف النهار أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم، فقلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: دم الحسين وصحبه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم، فكان ذلك اليوم الذي قتل فيه. رواه البيهقي.

وسمعت الجن تنوح عليه كما أخرجه أبو نعيم وغيره. وقتل يوم عاشوراء يوم الجمعة سنة إحدى وستين، وكسفت الشمس وقت قتله كسفة أبدت الكواكب نصف النهار، واحمرت آفاق السماء ستة أشهر يرى فيها كالدم، ومكثت الدنيا سبعة أيام كأنها علقة، والشمس على الحيطان كالملاحف المعصفرة، والكواكب يضرب بعضها بعضاً.

وقيل: إنه لم يقلب حجر ببيت المقدس يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط، وصار الورس الذي في عسكرهم رماداً ونحروا ناقة في عسكرهم فصاروا يرون فيها النيران، وطبخوها فصارت كالعلقم، ولما ساروا إلى ابن معاوية قعدوا في أول مرحلة يشربون الخمر فخرج عليهم قلم حديد من حائط وكتب بدم:

أترجو أمة قتلت حسيناً ... شفاعة جدّه يوم الحساب

ثم إن ابن معاوية أمر برد أهله إلى المدينة، وأن يطاف برأسه الشريف في البلاد.

وروى ابن خالويه عن الأعمش عن منهال بن عمرو الأسدي قال: والله رأيت رأس الحسين حين حمل وأنا بدمشق وبين يديه رجل يقرأ سورة

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس (٤٦ ـ ٩٦ هـ) النخعي، من مذحج: من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية، وحفظاً للحديث. من أهل الكوفة، مات مختفياً من الحجاج «الأعلام» (١/ ٨٠).

الكهف حتى بلغ: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾، فنطق الرأس بلسان عربي فصيح فقال جهاراً: أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي.

وأخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عباس: «أوحى الله إلى محمد ﷺ أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً وإني قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً»[1] صححه الحاكم، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

وقال الحافظ ابن حجر: وورد من طريق واه عن عليّ عن المصطفى ﷺ قال: «قاتل الحسين في تابوت من نار عليه نصف عذاب أهل الدنيا»[2].

واعلم أنهم اختلفوا في رأس الحسين بعد مصيره إلى الشام إلى أين صار، وفي أي موضع استقر.

فذهب طائفة إلى: أنه طيف به في البلاد إلى أن انتهى إلى عسقلان، فدفنه أميره بها فلما غلب الفرنج على عسقلان، افتداها منهم الصالح طلايع وزير الفاطميين بمال جزيل ومشى إلى لقائها من عدة مراحل، ثم بنى عليها المشهد المعروف بالقاهرة، وإلى ذلك أشار القاضي الفاضل في قصيدة مدح بها الصالح.

وصار آخرون منهم الزبير بن بكار[3] والعلاء الهمداني[4] إلى: أنه

---

(١) حديث «أوحى الله إلى محمد»: أخرجه الحاكم عن ابن عباس. «كنز العمال» (١٢/ ٣٤٣٢٠).

(٢) حديث «قاتل الحسين»: قال ابن حجر: قد ورد عن علي رفعه من طريق واهٍ: «تمييز الطيب من الخبيث» (ص١١٤).

(٣) الزبير بن بكار بن عبد الله (١٧٢ ـ ٢٥٦ هـ) القرشي، من أحفاد الزبير بن العوام: عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية، ولد في المدينة، وولي قضاء مكة فتوفي فيها. «الأعلام» (٣/ ٤٢).

(٤) العلاء الهمداني: لعلّ مراده محمد بن سهل العطار أبو العلاء (٤٨٨ ـ ٥٦٩ هـ) محدث، حافظ، مقرىء، نحوي، لغوي. «معجم المؤلفين» (١٠/ ٥٨). =

حمل إلى المدينة مع أصله فكفن ودفن بالبقيع عند قبر أمه وأخيه الحسن.

وذهبت الإمامية إلى: أنه أعيد إلى الجثة ودفن بكربلاء بعد أربعين يوماً من المقتل.

ورجح القرطبي الثاني قائلاً: ما ذكر من أنه في عسقلان في مشهد هناك أو بالقاهرة باطل لا أصل له انتهى.

والذي عليه طائفة من الصوفية أنه بالمشهد القاهري، يقول العارف المناوي[1] قدّس الله سره: لكن ذكر لي بعض أهل الكشف والشهود أنه حصل له اطلاع على أنه دفن مع الرأس بكربلاء، ثم ظهر الرأس بعد ذلك بالمشهد القاهري، لأن حكم باب البرزخ حكم الإنسان الذي تدلى في تيار جار فيطفّ بعد ذلك في مكان آخر، فلما كان الرأس منفصلاً طفّ في هذا المحّل من المشهد الحسيني المصري وذكر أنّه خاطبه منه.

وذكر بعضهم: أن القطب يزوره كل يوم.

ومن كلامه: إنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا من تلك النعم فتعود عليكم نقماً.

وقال: من جاد ساد، ومن بخل رذل، ومن تعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم على ربّه غداً.

والتزم يوماً الركن الأسود وقال: إلهي نعّمتني فلم تجدني شاكراً، وأبليتني فلم تجدني صابراً، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدّة بترك الصبر. إلهي لا يكون من الكريم إلاّ الكرم.

وأخرج ابن عساكر[2]: أن ابن عباس بينما كان يحدث الناس قام إليه

---

(١) تقدمت ترجمته (ص١١).

(٢) علي بن الحسن بن هبة الله (٤٩٩ ـ ٥٧١ هـ) الدمشقي: المؤرخ، الحافظ، الرحالة، محدث الديار الشامية. مولده ووفاته في دمشق. «الأعلام» (٤/ ٢٧٣).

نافع[١] الأزرق، وقال: تفتي الناس في النملة والقملة! صف إلهك الذي تعبد، فأطرق إعظاماً لقوله؛

وكان الحسين جالساً ناحية، فقال: إليَّ يا ابن الأزرق! قال: لست إياك أسأل، قال ابن عباس: إنَّه من بيت النبوَّة وهم ورثة العلم، فأقبل نافع نحو الحسين، فقال: يا نافع! من وضع دينه على القياس، لم يزل الدهر في التباس، سائلاً ناكباً عن المنهاج، طاغياً بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل، أصف لك إلهي بما وصف به نفسه، وأعرفه بما عرف به نفسه، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، بعيد غير منتقص، يوحَّد ولا يبعَّض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال. انتهى.

وحج رضي الله عنه خمساً وعشرين حجة ماشياً والجنائب تقاد بين يديه.

وفي «العقد»: عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنهما قال: بايع رسول الله ﷺ الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وهم صغار، ولم يبايع قط صغيراً إلا هم.

وقيل لعلي بن الحسين: ما كان أقل ولد أبيك، قال: العجب كيف ولدت له، كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرَّغ للنساء؟!

وقتل وهو ابن ست وخمسين سنة، وهو صابغ بالسواد قتله سنان ابن أبي أنس، وأجهز عليه خولة بن يزيد الأصبحي من حمير، وحزَّ رأسه وأتى به عبيد الله بن زياد وهو يقول:

إملأ ركابي فضةً وذهبا إنّي قتلت الملك المحجبا

---

(١) نافع بن الأزرق بن قيس (٠٠٠ ـ ٦٥ هـ) البكري الوائلي، الحروري، رأس الأزارقة، وإليه نسبتهم. كان أمير قومه وفقيههم. من أهل البصرة. صحب في أول أمره ابن عباس، ثم تركه وكان من الخوارج على علي، قتل يوم «دولاب» على مقربة من الأهواز «الأعلام» (٧/ ٣٥٢).

قتلتُ خير الناس أماً وأبا وخيرهم إذ يُذكَرون نسبا

فقال له عبد الله بن زياد: إذا كان خير الناس أماً وأباً، وخير عباد الله لِمَ قتلته؟ قدّموه فاضربوا عنقه، فضُربت عنقه.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج[١] عن أبي معشر[٢]، قال: قُتل الحسين بن علي، وقُتل معه عثمان بن علي، وأبو بكر بن علي، وجعفر بن علي، وعلي والعباس، وكانت أمهم أم البنين بنت حرام الكلابية. وإبراهيم بن علي لأم ولد له، وعبد الله بن حسن، وخمسة من بني عقيل بن أبي طالب، وعون ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وثلاثة من بني هاشم، فجميعهم سبعة عشر رجلاً وأسر اثنا عشر غلاماً من بني هاشم فيهم محمد بن الحسين وفاطمة بنت الحسين، فلم تقم لبني حَرْب قائمة حتى سلبهم الله ملكهم.

وقالت بنت عقيل بن أبي طالب ترثي الحسين ومن أصيب معه:

عيني ابكي بعبرة وعويل واندبي إن ندبت آلَ الرسول
ستة كلهم لِصُلْب عليٍّ قد أصيبوا وخمسة لعقيل

وأنشدت أخته زينب ـ المدفونة في قناطر السباع من مصر العتيق ـ ورأسها خارجة من الخباء[٣]:

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

---

(١) حجاج بن أرطاة بن ثور النخعي (٠٠٠ ـ ١٤٥ هـ) قاض من أهل الكوفة، كان من رواة الحديث وحفاظه، استفتي وهو ابن ست عشرة سنة، وولي قضاء البصرة. وتوفي بخراسان أو بالري. وكان تياهاً معجباً يعاب بتغيير الألفاظ في الحديث. «الأعلام» (٢/ ١٦٨).

(٢) نجيح بن عبد الرحمن السندي (٠٠٠ ـ ١٧٠ هـ) أبو معشر: فقيه، له معرفة بالتاريخ، أصله من السند. كان ألكناً يقلب الكاف قافاً. أقام في المدينة إلى أن اصطحبه المهدي العباسي معه إلى العراق سنة (١٦٠ هـ) وأمر له بألف دينار. مات ببغداد فصلى عليه هارون الرشيد. له كتاب «المغازي». «الأعلام» (٨/ ١٤).

(٣) الخباء: واحد الأخبية من وبر أو صوف، ولا يكون من شعر وهو على عامودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت. «مختار الصحاح» (١٦٩).

بعتـرتـي وبـأهلـي بعـد مفتقـدي منهم أُسارى ومنهم ضمّخوا[1] بدم
ما كـان هـذا جـزائـي إذ نصحتكُـم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

قلت: وقوله: المدفونة في قناطر السباع. نقل هذه القصة العارف الشعراني، وأمر الإمام المناوي قُدِّس سرُّهما بأن تحرر فلتحرر.

ورُزق من الأولاد خمسةً: عليّ الأكبر، وعليّ الأصغر وله العقب، وجعفر، وفاطمة، وسكينة المدفونة بالمراغة بقرب سيدتنا نفيسة رضي الله عنهم.

ثم سرى سرُّ هذه النسبة الشريفة عنه إلى ولده سيدنا زين العابدين عليّ الأصغر رضي الله عنه:

***

(1) ضمخوا: لطّخوا بالطيب.

سيدنا زين العابدين
رضي الله عنه

مظهر شمس النبوّة الخاتمية، ومظهر أسرار الصفة العالمية، وكوثر زلال المكارم الهاشمية، سيدنا علي زين العابدين المعروف بالأصغر للفرق بينه وبين أخيه عليّ الأكبر الذي سقاه أهل المكر والبلاء كأس الشهادة مع أبيه في كربلاء، ولم يُقتل يومئذ ـ ولله الحمد ـ هذا الإمام الجليل، إذ كان عمره ثلاثة عشر عاماً وهو عليل، وكنيته رضي الله عنه أبو الحسن أو أبو محمد أو أبو عبد الله.

كان كبير القدر، رَحب الساحة والصدر، مهاباً كريماً، عالماً عظيماً، ثقة ثبتاً قويماً.

قال الزهري[1] وابن عيينة[2]: ما رأينا قرشياً أفضل منه.

روى عن أبيه وعائشة وأبي هريرة وجمع، وعنه بنوه محمد وزيد وعمر، والزهري وأبو الزناد وغيرهم.

قال الزهري: ما رأينا أحداً أفقه منه. وقال ابن المسيب: ما رأيت أورع منه.

وقد جاء عنه مناقب من خشوعه في وضوئه وصلاته ونسكه ما يدهش السامع.

وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة حتى مات. وقال مالك: وسُمِّي زين العابدين لكثرة عبادته.

وكان إذا هاجت الريح سقط مغمى عليه. ووقع حريق في بيته وهو ساجد

---

(١) الزهري: محمد بن مسلم بن عبد الله (٥٨ ـ ١٢٤ هـ) القرشي: أول من دوّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، مات بشَغْب، آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين. «الأعلام» (٧/ ٩٧).

(٢) تقدمت ترجمته ص٨٩.

فجعلوا يقولون له: النار! ! فما رفع رأسه حتى طُفئت، فقيل له: أشعرت؟ قال: ألهتني عنها النار الكبرى.

وكان إذا نقصه أحد، قال: اللهم إن كان صادقاً فاغفر لي، وإن كان كاذباً فاغفر له.

ولما مات وجدوه يقوت أهل مائة بيت. ودخل على محمد بن أسامة بن زيد في مرض موته فبكى، فقال له عليّ: ما يبكيك؟ فقال: عليَّ دين خمسة عشر ألف دينار، فقال: هي عليَّ، ووفاها.

ومن كراماته: أنَّ زيداً ابنه استشاره في الخروج فنهاه، وقال: أخشى أن تكون المقتول المصلوب، أما علمت أنه لا يخرج أحد من ولد فاطمة قبل خروج السفياني إلاّ قُتل، فكان كما قال. خرج زيد في خمسة عشر ألفاً فطُلب، فتفرقوا عنه، . فقتله الحجاج وصلبه مكشوف العورة، فأكرمه الله بأن نسَجت العنكبوت عليها فلم تُرَ بعد ذلك.

ومن كرامات زين العابدين رضي الله عنه: أنَّ عبد الملك بن مروان حمله من المدينة مقيداً مغلولاً في أثقل قيود وأغلال، فدخل عليه الزهري لوداعه فبكى، وقال: وددت أنّي مكانك، فقال: أتظنُّ أنَّ ذلك يكربني لو شئت لما كان، وإنه ليُذكِّرني عذاب الله، ثم أخرج رجليه من القيود ويديه من الغل ورماهما ثم أعادهما.

وكان يُضرب به المثل في الحلم، وله فيه حكايات عجيبة، وأخبار غريبة.

وكان شديد الخوف من الله بحيث إذا توضأ اصفر لونه وارتعد، فيقال له: ما هذا! فيقول: تدرون بين يدي من أقوم.

وكان لا يعينه على طهوره أحد، ولا يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً، وقُرِّب إليه طهوره مرة في وقت ورده فوضع يده في الإناء ليتوضأ، ثم رفع رأسه فنظر إلى السماء والقمر والكواكب فجعل يتفكر في خلقها حتى أصبح وأذَّن المؤذن ويده في الإناء فلم يشعر.

ومن كلامه: إذا نصح العبد لله في سرّه أطلعه على مساوىء عمله فتشاغل بذنوبه عن معائب الناس.

وقال: فقد الأحبة غربة، وعبادة الأحرار[1] لا تكون إلا شكراً لله، لا خوفاً ولا رغبة.

وقال: كيف يكون صاحبك من إذا فتحت كيسه فأخذت منه حاجتك لم ينشرح لذلك.

وقال: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب.

وقال: إنَّ قوماً عبدوه رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرون رغبة فتلك عبادة التجار، وقوماً عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار.

وقال: عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة، وغداً جيفة، وعجبت كلَّ العجب لمن شكَّ في الله وهو يرى خلقه، ولمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى الأولى، ولمن عمل لدار الفنا وترك دار البقا.

وقال لابنه الباقر: لا تصحبنَّ خمسة ولا ترافقهم في طريقهم: الفاسق فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، قيل: فما دونها؟ قال يطمع فيها ثم لا ينالها؛ والبخيل لأنه يطمع بك أحوج ما تكون إليه؛ والكذاب[2] فإنه كالنسوان يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد؛ وقاطع الرحم فإنَّه ملعون في ثلاث آيات من كتاب الله.

وكان ينشد:

ومـا شـيء أحـبُّ إلـى لئيـم ... إذا شتَمَ الكريمَ من الجوابِ

---

(١) الأحرار: هم الذين تحرروا مما سوى الله فعبد الله هو الحر مما سواه.
قال ابن عطاء الله في الحكم: أنت حرٌ مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع. (ع)

(٢) في «صفة الصفوة» (٢/ ١٠١): لا تصحبن كذاباً فإنه بمنزلة السراب يُبعد منك القريب، ويقرِّب منك البعيد.
قال: قلت: يا أبة! ومن الرابع؟ قال: لا تصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك.

وكان عاملاً على كتمان أسرار الله في العالم، كما أشار إليه بقوله:

يا رُبَّ جوهر[1] علمٍ لو أبوح به   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجال مسلمون دمي   يرون أقبحَ ما يأتونه حسنا

ومن مبالغات حلمه: أنَّه خرج يوماً من المسجد فلقيه رجل فسبه وبالغ وأفرط، فبادر إليه العبيد والموالي فكفَّهم، وأقبل عليه، فقال: ما سُتر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك؟ فاستحى الرجل، فألقى له خميصة، وأمر له بخمسة آلاف درهم، فقال: أشهد أنك من أولاد المصطفى ﷺ.

ولقيه رجل فسبه، فقال: يا هذا بيني وبين جهنم عقبة! إنْ أنا جزتها فما أنا أبالي بما قلت، وإن لم أجزها فأنا أكثر مما تقول، ألك حاجة؟ فخجل.

وسبه رجل فقال له: ما لا تعرفه مني أكثر مما تعرفه، فإن كان لك حاجة فاذكرها.

قال في «مجمع الأحباب»: وكان عنده ضيف، فاستعجل الخادم في الشواء الذي كان في التنور، فأقبل به مسرعاً فسقط السفود[2] من يده على ابن له صغير في أسفل الدرجة فأصاب رأسه فقتله، فقال عليٌّ للغلام الذي قتله: أنت حر لوجه الله عزَّ وجلَّ فإنَّك لم تتعمده، وأخذ في جهاز ابنه.

وحج هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة فاجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يمكنه، وجاء عليّ بن الحسين فوقف له الناس، وتنحوا حتى استلم، فقال الناس لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه، فقال له الفرزدق: لكني أعرفه، هذا عليّ بن الحسين وأنشد:

هـذا ابـن خيـرِ عبـادِ الله كلِّهـم   هـذا التقـيُّ النقـيُّ الطـاهـر العَلَـم

---

(1) هذا من العلم الذي قال فيه أبو هريرة رضي الله عنه: «ورثت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم» أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم (ع).

(2) السَّفُّود: بوزن التَّنُّور: الحديدة التي يشوى بها اللحم. «مختار» (٣٠٠).

هـذا الـذي تعرفُ البطحاءُ وطأته ... والبيتُ يعـرفـه والحِـلُّ والحـرم
يكـاد يمسكـه عِـرفـان راحتـه ... رُكـنُ الحطيـمِ إذا مـا جاء يَستلـم
إذا رأتـهُ قـريـشٌ قـال قـائلهـا ... إلـى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
إن عُـدَّ أهـلُ التُّقـى كـانـوا أئمتهـم ... أو قيل مَنْ خيرُ أهل الأرض قيل هم
هـذا ابـن فـاطمـة إنْ كنـت جـاهلـه ... بجـدِّه أنبيـاءُ اللهِ قـد خُتمـوا
وليـس قـولـك مـن هـذا بضـائـره ... العُربُ تعرفُ مَنْ أنكرتَ والعجم
يُغضـي حيـاء ويُغضـى مـن مهـابتـه ... فـلا يُكلَّـم إلا حيـن يبتسـم
مِـنْ معشـر حبّهـم ديـن وبغضُهُـمُ ... كفـر وقـربهـم ملجـأ ومعتَصَـم
لا يستطيـع جـواد بُعـد غـايتهـم ... ولا يُـدانيهـم قـوم وإن كـرمـوا
مَنْ يعرف الدين يعرف أولوية ذا ... الـديـن مـن بيـت هـذا نـالـه الأمـم

وكان يقول: اللهم إنّي أعوذ بك أن تحسن في لوامع العيون علانيتي، وتقبح في خفيات الغيوب سريرتي، اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ فإذا عدتُ فعُد عليّ.

وفي «وفيات الأعيان» لابن خلكان: أنه كان يقال لزين العابدين: ابن الخيرتين، لقوله ﷺ: «لله تعالى من عباده خيرتان فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس»[1].

وذكر أبو القاسم الزمخشري[2] في كتاب «ربيع الأبرار»:

أن الصحابة رضي الله عنهم لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً، فقال له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّ بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة، فقال: كيف الطريق

---

(١) حديث «لله تعالى من عباده»: أخرجه الديلمي. «كنز العمال» (١٢/ ٣٤١٣٦).

(٢) محمود بن عمر بن محمد (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) الزمخشري الخوارزمي، جار الله: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. كان معتزلي المذهب، مجاهراً، شديد الإنكار على المتصوفة. «الأعلام» (٧/ ١٧٨).

إلى العمل معهن؟ فقال: يُقوَّمنَ ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن، فقومن، فأخذهُنَّ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فدفع واحدة لعبدالله بن عمر، وأخرى لولده الحسين، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصدِّيق، فأولد عبدالله أمته سالماً، وأولد الحسين زين العابدين، وأولد محمد ولده القاسم، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة وأمهاتهم بنات يزدجرد.

وذكر أن أمَّ زين العابدين اسمها سلافة. قلت: وقيل غزالة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس. وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب الناس في السراري. وفضائله ومناقبه أكثر من أن تحصر.

قال الأصمعي[1]: لم يكن للحسين بن عليّ عقب إلا من ابنه علي بن الحسين زين العابدين، ولم يكن لعلي زين العابدين ولد إلا من أم عبدالله بنت عمه الحسن بن عليّ بن أبي طالب فهو أب الحسنيين كلهم.

قال: ونسل الحسين كله من قبل علي الأصغر زين العابدين. يعني: فهو أب الحسينيين كلهم أيضاً.

وكانت ولادته يوم الجمعة في بعض شهور سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وتوفي سنة أربع وتسعين، وقيل اثنين وتسعين للهجرة في المدينة المنوّرة، ودفن في البقيع في قبر عمه الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في القبة التي فيها قبر العباس رضي الله عنهم أجمعين. انتهى.

قال العارف المناوي قُدِّس سرُّه: كذا رأيته بخط جماعة أعيان منهم ابن رسلان[2].

---

(١) عبد الملك بن قُرَيب بن علي (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ) الأصمعي الباهلي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. مولده ووفاته في البصرة. أخباره كثيرة جداً «الأعلام» (٤/١٦٢).

(٢) أحمد بن حسين بن حسن (٧٧٣ ـ ٨٤٤ هـ) الرملي، الشافعي يعرف بابن رسلان: عالم مشارك في بعض العلوم. ولد برملة فلسطين، ونشأ بها، وتوفي في القدس. برع في الفقه، =

والمشهد الذي بالقرب من مجراة القلعة بقرب مصر القديمة بُني على رأس زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قُدِمَ برأسه سنة اثنتين وعشرين ومائة وبنوا عليه هذا المشهد.

قال بعضهم: والدعاء عنده مستجاب، والأنوار تُرى عليه رضي الله عنه.

قلت: وزيدٌ هذا هو الذي تقدم أنَّه قتله الحجاج وصلبه. وما وقع للعارف الشعراني قُدِّس سرُّه في «طبقاته» من أنَّه أُتيَ برأس زين العابدين إلى مصر، ودفنت بالقرب من مجراة الماء إلى القلعة بمصر العتيقة، وأنَّه توفي سنة تسع وتسعين سبق قلم، والله أعلم.

ثم سرى سرُّ هذه النسبة الشريفة عنه إلى شبله سيد هذه السلسلة المبجلة الإمام محمد الباقر رضي الله عنهما:

❊ ❊ ❊

= وصنف في القراءات والتفسير، والحديث، والعربية وغيرها. «معجم المؤلفين» (١/ ٢٠٤).

سيدنا الإمام الباقر
رضي الله عنه

الإمام التابعي الجليل المجمع على جلالته وإمامته، المعدود من فقهاء المدينة وأئمتهم، سمع جابراً وأنساً وسمع جماعات من كبار التابعين كابن المسيب وابن الحنفية وغيرهم، وروى عنه أبو إسحق السبيعي وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والزهري وربيعة وخلائق آخرون من التابعين وكبار الأئمة، وروى له البخاري ومسلم.

سُمي بالباقر لأنه بقر العلم أي شقَّه فعرف أصله وخفيه، وأثار مخبآته ومكامنه القدسية، فلذلك أظهر من كنوز المعارف، ودقائق الأحكام واللطائف، ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل فيه: باقر العلم وجامعه، وشاهر المجد ورافعه، صفا قلبه، وزكى علمه ولبّه، وعمرت بطاعة الله أوقاته، وظهرت خوارقه وكراماته، وله من الرسوخ في مقام العارفين ما تكلّ عنه ألسن الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف.

فمن كلامه: الصواعق تصيب المؤمن وغيره، ولا تصيب ذاكر الله عزّ وجلّ.

وقال: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخل منه أو أكثر.

وقال: ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج.

وقال: إعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك.

وبلغه عن جماعة من أهل العراق أنهم يبغضون أبا بكر وعمر، ويزعمون أنهم يحبون آل البيت، فكتب إليهم: إني بريء ممن يبغض أبا بكر وعمر، ولو أني وليت لتقربت بدماء من يكرههما.

وكان إذا ضحك قال: اللهم لا تمقتني.

وقال لابنه: يا بنيّ إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً، وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

وسأله رجل عن تحلية السيوف، فقال: لا بأس بها قد حَلّى أبو بكر الصديق، فقيل: وتقول الصديق! فغضب ووثب وثبة واستقبل القبلة، ثم قال: نعم الصديق، نعم الصديق، نعم الصديق، ومن لم يقل له الصديق لا صدّق الله له قولاً في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال: الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل جعلاه وطناً.

وقال جابر الجعفي: قال لي محمد بن علي: إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب. قلت: ما شغل قلبك، وما حزنك؟ قال: يا جابر إنَّ من دخل قلبه صافي خالص دين الله عزَّ وجلَّ شغله عما سواه، يا جابر! ما الدنيا وما عسى أن تكون؟ هل هو إلا مركب ركبته أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها، يا جابر! إن المؤمنين أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة، وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكروك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله، فأنزلِ الدنيا منزلاً نزلتَ فيه وارتحلتَ عنه، أو كخيال أصبتَه في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته.

وقال: ما اغرورقت عينٌ بمائها إلا حرَّم الله عزَّ وجلَّ صاحبها على النار، وإن سالت على خده لم يَرَ وجهُه قتراً[1] ولا ذلة، وما من شيء إلا له أجر إلا الدمعة، فإنَّ الله تعالى يُكفِّر بها بحور الخطايا، ولو أنَّ باكياً بكى في أمَّة لحرَّم الله تلك الأمة على النار.

وعن أفلح مولاه قال: خرجت مع محمد بن عليّ حاجّاً، فلما دخل المسجد الحرام نظر إلى البيت فبكى حتى علا صوته، فقلت: بأبي أنت وأمي!

---

(١) قتراً: جمع قترة، وهي: الغبار. «مختار» (٥٢١).

إن الناس ينظرون إليك فلو رققت صوتك قليلاً، فقال: ويحك يا أفلح! ولم لا أبكي؟! لعل الله تعالى ينظر إليَّ برحمته فأفوز بها عنده غداً، قال: ثم طاف بالبيت ثم جاء حتى ركع عند المقام، فرفع رأسه من سجوده فإذا موضع سجوده مبتل من دموع عينيه.

وعن عبد الله بن عطاء قال: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر محمد، فقد رأيت الحكم عنده كأنه متعلم.

وقال: كان لي أخ في عيني عظيم، والذي عظَّمه في عيني صغرُ الدنيا في عينه.

وكان يقول في جوف الليل: اللهم إنك أمرتني فلم أئتمر، وزجرتني فلم أنزجر، وهذا عبدك بين يديك فبم أعتذر.

وقال: ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج، وما من شيء أحب إلى الله تعالى من أن يُسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء، وإن أسرع الخير ثواباً البر، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يرى من الناس ما يعمى عنه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحوّل عنه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه.

وعن سلمى مولاة أبي جعفر قالت: كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يُطعمهم الطيب، ويكسوهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم، فأقول له: بعض ما تصنع، فيقول: يا سلمى ما يؤمل في الدنيا بعد المعارف والإخوان؟!.. وكلامه من هذا المنزع كثير.

وكفاه شرفاً أنَّ ابن المديني[1] روى عن جابر أنه قال له وهو صغير: إن رسول الله يسلم عليك! قال: كيف؟ قال: كنت جالساً عنده والحسين في حجره

---

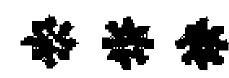
(١) علي بن عبد الله بن جعفر (١٦١ ـ ٢٣٤ هـ) المديني البصري: محدث، حافظ، أصولي، أخباري، مؤرخ، نسابة، لغوي. أصله من المدينة، وولد بالبصرة، وتوفي بسرّ من رأى، ودفن بالعسكر. «معجم المؤلفين» (٧/ ١٣٢).

وهو يداعبه، فقال: «يا جابر يولد له مولود اسمه عليّ إذا كان يوم القيامة يقال: ليقام العُبَّاد فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد فإذا أدركته فأقره مني السلام»[1].

ومولده بالمدينة يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة سبع وخمسين للهجرة. وكان عمره يوم قتل جده الحسين - رضي الله عنه - ثلاث سنين. وأمه أم عبدالله بنت الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وتوفي في شهر ربيع الأول - وقيل: في صفر [سنة] - سبع عشرة ومئة، وقيل: أقل، وقيل: أكثر - بالحميمة - والحميمة بحاء مهملة وميمين بينهما ياء تحتية مصغرة: قرية في أطراف البلقاء من بلاد الشام كانت لعلي بن عبدالله بن العباس وأولاده في أيام بني أمية، وفيها ولد السفاح والمنصور، وبها تربيا ومنها انتقلا إلى الكوفة، وبويع السفاح بالخلافة فيها كما هو مشهور - ونقل إلى المدينة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن علي - رضي الله عنهم - في القبة التي فيها قبر العباس رضي الله عنه، ثم مات مسموماً كأبيه، وأوصى أن يُكفَّن في القميص الذي كان يصلي فيه رضي الله عنه.

ثم سرى سر هذه النسبة الشريفة إلى شبله سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه.



(١) حديث «يا جابر يولد له»: لم أجده.

الإمام جعفر الصادق
رضي الله عنه

ناهيك بإمام ورث مقام النبوة والصديقية، فازدهرت في طلعته أنوار العلوم والمعارف الحقيقية، لأنَّ جدَّه سيد الشهداء الإمام الحسين، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أخذ الحديث عن أبيه وجدِّه لأمه وعروة وعطاء ونافع والزهري، وعنه: السفيانان[1] ومالك والقطان[2]، خرّج له الجماعة سوى البخاري، قال أبو حاتم[3]: ثقة لا يسأل عن مثله.

وله كرامات كثيرة، ومكاشفات شهيرة، منها: أنَّه سُعي به عند المنصور، فلما حجَّ أُحضر الساعي وأحضروه، فقال للساعي: أتحلف؟ فقال: نعم، فحلف، فقال جعفر للمنصور: حلِّفه بما أراه، فقال: حلِّفه، فقال: قل: برئت من حول الله وقوته والتجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا، فامتنع الرجل ثم حلف، فما تمَّ حتى مات مكانه.

ومنها: أنَّ الطُغاة قتل مولاه، فلم يزل ليلته يصلي ثم دعا عليه عند السحر، فسُمعت الضجة بموته.

ومنها: أنَّه لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي في عمه زيد:

---

(١) سفيان الثوري وسفيان بن عيينة.

(٢) يحيى بن سعيد بن فروخ (١٢٠ ـ ١٩٨ هـ) القطان التميمي: من حفاظ الحديث، ثقة، حجة. من أقران مالك وشعبة، من أهل البصرة. «الأعلام» (٨/ ١٤٧).

(٣) محمد بن حبان بن أحمد (٢٧٠ ـ ٣٥٤) البستي، الشافعي (أبو حاتم): محدث، حافظ، مؤرخ، فقيه، لغوي، واعظ، مشارك في الطب والنجوم وغيرهما. ولد في بست (من بلاد سجستان) وسمع الحديث في كثير من البلدان، وفقه الناس في سمرقند، وولي قضاءها، وقدم نيسابور، ثم خرج إلى وطنه سجستان، وتوفي في مدينة بست. «معجم المؤلفين» (٩/ ١٧٣).

صلبنا لكم زيداً على جذعِ نخلةٍ ولم نرَ مهدياً على الجذع يُصلبُ

قال: اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك فافترسه الأسد.

ومنها: ما خرَّجه الطبري من طريق وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول: حججت سنة ثلاث عشرة ومئة فلما صليت العصر رقيت أبا قبيس[1]، فإذا رجل جالس يدعو، فقال: يا رب! يا رب! يا رب! حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا حي! يا حي! حتى انقطع نفسه، ثم قال: إلهي إني اشتهيت العنب فأطعمنيه، وإنَّ بُرديَّ قد خلِقا فاكسني، قال الليث: فما تمَّ كلامه حتى نظرت إلى سلَّة مملوءة عنباً وليس على وجه الأرض يومئذ عِنَب، وإذا بِبُردين لم أرَ مثلهما، فأراد الأكل، فقلت: أنا شريكك لأنك دعوت وأنا أؤمِّن، فقال: كُل ولا تُخبأ ولا تدخر، ثم دفع إليَّ أحد البردين، فقلت: لي عنه غنى، فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أخذ الخلِقين ونزل، فلقيه رجل، فقال: ألبسني يا ابن رسول الله، فدفعهما إليه، فقلت: من هذا؟ قال: جعفر الصادق؛ قال الليث: فطلبته لأسمع منه فلم أجده.

ومنها: أنَّ ابن عمه عبد الله بن المحصي كان شيخ بني هاشم، وهو والد محمد وأخيه أرسلوا لجعفر ليبايعهما، فامتنع، وقال: ليست لي ولا لهما إنها لصاحب القباء الأصفر، يلعب بها صبيانه، وكان المنصور العباسي حاضراً، وعليه قباء أصفر فكان كذلك.

وكان مجاب الدعوة فإذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلاّ وهو بين يديه.

ومن كلامه: لا يتم المعروف إلا بثلاث، أن تصغره في عينك، وتستره، وتعجله.

وقال: إذا أقبلت الدنيا على إنسان أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه.

وقال: لا مال أعوز من العقل، ولا مصيبة أعظم من الجهل، ولا مظاهرة

---

(١) أبو قبيس: هو الجبل المشرف على مكة، وهو أحد الأخشبين. «معجم البلدان» (١/ ٨٠).

كالمشاورة، ألا وإن الله يقول: «إنّي جواد كريم، ولا يجاورني لئيم»[1].

وقال: من زعم أنَّ الله في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك لأنه لو كان على شيء كان محمولاً، أو في شيء كان محصوراً، أو من شيء كان محدثاً.

وقيل له: ما بالنا ندعو فلا يجاب لنا؟ قال: لأنكم تدعون من لا تعرفون.

وكان يلبس الجبّة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده، والحلّة من الخزِّ على ظاهره، ويقول: نلبس الجبّة لله والخزَّ لكم، فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه.

وقال لأبي حنيفة: إنك تقيس في الدين، وإن أول من قاس إبليس، قال: إنما أقيس فيما لم أجد فيه نصاً.

وقال: لا تأكلوا من يد جاعت ثم شبعت.

وقال: إذا أذنبت فاستغفر، فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال قبل أن يُخلقوا، وإياك والإصرار.

وقال: أوحى الله إلى الدنيا: «من خدمني فاخدميه، ومن لم يخدمني فاستخدميه»[2].

وقال: لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا خلة لبخيل، ولا إخاء لملول، ولا سؤدد لسيء الخلق.

وقال: كُفَّ عن محارم الله وامتثل أوامره تكن عابداً، وارض بما قسم الله تكن مسلماً، واصحب الناس على ما تحب أن يصحبوك تكن مؤمناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره.

---

(١) حديث قدسي «إني جواد كريم»: لم أجده.

(٢) حديث «أوحى الله»: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٩٤) عن جعفر بن محمد بلفظ قريب.

وقال: من أراد عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل المعصية إلى عزِّ الطاعة.

وقال: من يصحب صاحب السوء لا يَسلم، ومن يدخل مدخل السوء يتَّهم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال: حكمة تحريم الرِبا أن لا يتمانع الناس المعروف.

وقال: مودة[1] يوم صلة، ومودة شهر قرابة، ومودة سنة رحم ثابتة من قطعها قطعه الله.

وقال: عزَّت السلامة حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكُ في شيء فيوشك أن تكون في الخمول[2]، فإن لم توجد فيه ففي التخلي، وليس كالخمول، فإن لم تكن فيه ففي الصمت، فإن لم تكن فيه ففي كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد في نفسه خلوة.

وقال: من استبطأ رزقه فليكثر من الاستغفار.

وقال: من أُعجب بشيء من أمواله وأراد إبقاءه فليقل: ما شاء الله لا قوّة إلا بالله[3].

وقال: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين.

ومن دعائه: اللهم أعزَّني بطاعتك، ولا تذلَّني بمعصيتك، اللهم ارزقني مواساة من قترت[4] عليه رزقك بما وسعت عليّ من فضلك.

---

(١) ومن هذا قول الإمام الشافعي رحمه الله: الحرُّ من لم ينس وداد لحظة، وانتمى لمن أفاده لفظة. (ع)

(٢) وفي الحكم العطائية: ادفن نفسك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لم يتمّ نتاجه. (ع)

(٣) روى ابن السني، والبزار، والديلمي: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٩/٥): وهو ضعيف جداً.

(٤) قتّرت: أي ضيقت عليه في النفقة. وأفقرته.

وقال: لا زاد كالتقوى.

وقال مضر بن كثير[1]: دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر الصادق، فقلت: إني أريد البيت الحرام، فعلمني شيئاً أدعو به، فقال: إذا بلغت الحرم فضع يدك على الحائط، وقل: يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت، ثم ادع بما شئت.

وقال: إذا بلغك من أخيك أنه قال فيك ما تكره فلا تغتم لذلك، إن كانت حقاً كانت عقوبة عجلت، وإن كان غير ذلك فحسنة لم تعملها.

وقال: رُوي عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال: يا رب أسألك أن لا يذكرني أحد إلا بخير، قال الله عزَّ وجلَّ: ما فعلت ذلك لنفسي.

وقال: أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منها: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على دابته ولو أن له مائة عبد، وخدمته لمن يتعلم منه.

وكان يقول: إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل له عذراً لا أعرفه.

وقال لرجل من قبيلة: من سيد هذه القبيلة؟ فقال الرجل: أنا، فقال: لو كنت سيدهم ما قلت: أنا.

ودخل سفيان الثوري ـ رضي الله عنه ـ فرأى عليه جبّة من خز، فقال له: إنكم من بيت النبوّة تلبسون هذا؟ فقال: ما تدري؟! أدخلْ يدك، فإذا تحته مسح[2] من شعر خشن، ثم قال: يا ثوريّ! أرني ما تحت جبّتك فوجد تحتها قميصاً أرق من بياض البيض، فخجل سفيان، ثم قال: يا ثوري! لا تكثر الدخول علينا تضرنا ونضرك.

---

(١) لم أهتد إلى رجل بهذا الاسم ووجدت محمد بن كثير العبدي ممن حدث عن سفيان الثوري فلعله المراد. انظر «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٣٨٣).

(٢) مِسْح: ـ بوزن المِلْح ـ البِلاس ـ بكسر الموحدة وتفتح ـ ثوب من الشعر غليظ. «مختار الصحاح» (٦٢٤).

وكان يطعم المساكين حتى لا يبقي لعائلته شيء.

وقال: إذا سمعتم عن مسلم كلمة فاحملوها على أحسن ما تجدون حتى لا تجدوا لها محملاً فلوموا أنفسكم.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما طُعن عمر رضي الله عنه بعث إلى حلقة من أهل بدر كانوا يجلسون بين القبر والمنبر، فقال: يقول لكم عمر: أنشدتكم بالله أكان هذا عن رضا منكم؟ فقام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: لا والله وددنا أنّا زدنا في عمره من أعمارنا.

وقال ابن أبي حازم(1): كنت عند جعفر إذ جاء آذنه فقال: سفيان الثوري بالباب، فقال: إئذن له، فدخل، فقال جعفر: يا سفيان! إنك رجل يطلبك السلطان وإنّي أتّقي السلطان، اخرج عني غير إيثار لذلك، فقال سفيان: حدثني حتى أسمع وأقوم؛ قال: حدثني أبي عن جدي أن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزبه أمر فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله»(2).

وقال أرباب السير: وقع الذباب على وجه المنصور فذبَّه حتى أعجزه وأضجره، فدخل جعفر، فقال له: يا أبا عبد الله! ما الحكمة في خلق الذباب؟ قال: ليذل به الجبابرة.

وكان رجل من أهل السواد يؤم جعفراً فغاب عنه، فقال له رجل: إنه يطيء ـ يريد أن يضع منه عنده ـ فقال جعفر: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه، والناس في آدم مستوون.

---

(1) عبد العزيز بن أبي حازم سلمة بن دينار المخزومي مولاهم المدني، روى عنه إسماعيل بن أويس. قال أحمد: لم يكن يعرف بطلب الحديث، ولم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه. قال ابن معين: صدوق. مات سنة (١٨٤) وقيل (١٨٥) فجأة يوم الجمعة وهو ساجد. انظر «التاريخ الصغير» (١/ ٢٢٧) (٢/ ٢٢٨ ـ ٢٣٦)، «طبقات الحفاظ / للسيوطي» (١١٤).

(2) حديث «من أنعم الله عليه نعمة»: لم أجده.

وحج المنصور سنة سبع وأربعين ومائة فقدم المدينة، فقال: عليَّ بجعفر بن محمد عليهما السلام، قتلني الله إن لم أقتله فتغافل عنه الربيع لينساه، ثم أعاد ذكره فتغافل عنه، فأعاد ذكره ثالثاً برسالة قبيحة للربيع، فلما جيء به، قال له الربيع: العذر إليك قد شدَّد في طلبك، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما دخل عليه، قال: يا عدوَّ الله! اتخذك أهل العراق إماماً يحملون إليك زكاة أموالهم وتلحد في سلطاني وبيعتي؟ قتلني الله إن لم أقتلك، فقال جعفر: يا أمير المؤمنين! إن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُعطي فشكر، وإن أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُبتُلي فصبر، وإن يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ ظُلم فغفر، وأنت من ذلك العنصر، فقال له المنصور: إلى عندي أبا عبد الله البريء الساحة! جزاك الله من ذي رحم أفضل ما جازى به ذوي الأرحام عن أرحامهم؛ ثم تناول يده وأجلسه معه على فراشه وطيبه بيده حتى جعل لحيته قاطرة طيباً؛ ثم أمر له بجائزة وكسوة، وقال: انصرف في حفظ الله وكنفه فانصرف، فقال له الربيع: إني رأيت عجباً، فما قلت يا أبا عبد الله حين دخلت؟ قال: قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، واحفظني بقدرتك عليّ لا أهلك وأنت رجائي، اللهم إنك أعظم وأجلّ مما أخاف وأحذر، اللهم بك أدفع في نحره، وبك أستعيذ من شره.

وقال: عجبت لمن أُعجِبَ بأمر لنفسه كيف لا يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، والله تعالى يقول: ﴿ولولا إذْ دخلتَ جنَّتَكَ قُلتَ ما شاءَ الله لا قوةَ إلاّ بالله﴾ [الكهف: ٣٩].

وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، والله تعالى يقول: ﴿الذين قالَ لهم الناسُ إنَّ الناسَ قَد جَمعوا لَكُم فاخشَوهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حسبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل، فانقلبوا بِنعمة مِنَ الله وفضلٍ لَمْ يَمسَسهُمْ سوءٌ واتَّبعوا رضوانَ الله والله ذو فضلٍ عَظيم﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وعجبت لمن مُكِرَ به كيف لا يقول: ﴿وأفوِّض أمري إلى الله إنَّ الله بصيرٌ بالعباد﴾ إلى قوله ﴿فوقاه الله سيئاتُ ما مكروا﴾ [غافر: ٤٤ـ٤٥].

وعجبت لمن أصابه غمٌّ كيف لا يقول: ﴿لا إله إلاّ أنتَ سُبحانَكَ إنّي كُنتُ من الظَّالمين﴾ إلى قوله: ﴿ونجَّيناهُ مِنَ الغَم﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

وحكى كشاجم[1] في كتاب «المصائد والمطارد»: أنَّ جعفراً سأل أبا حنيفة رضي الله عنهما فقال: ما تقول في محرِمٍ كسرَ رباعية ظبي؟ فقال: يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه! فقال له: أنت تتداهى، ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني أبداً.

وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفال.

وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان[2] الصوفي الطرسوسي قد ألَّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمسمائة رسالة.

كانت ولادته سنة ثمانين للهجرة، وهي سنة سيل الجحاف[3]، وقيل: بل ولد يوم الثلاثاء قبل طلوع الشمس ثامن شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين.

وتوفي في شوّال سنة ثمان وأربعين ومائة بالمدينة، ودفن بالبقيع في قبرٍ فيه أبوه محمد الباقر، وجدّه علي زين العابدين، وعمُّ جدِّه الحسن بن عليّ رضي الله عنهم أجمعين. فللّه درّه من قبرٍ ما أكرمه وأشرفه.

ثم ولد له ولد اسمه القاسم، وللقاسم بنت اسمها أم كلثوم، وهما المدفونان

---

(١) كشاجم: محمود بن الحسين (أو ابن محمد بن الحسين) ابن السندي (٠٠٠ ـ ٣٦٠ هـ) شاعر، متفنن، أديب، من كتّاب الإنشاء. من أهل «الرملة» بفلسطين. فارسي الأصل، كان أسلافه الأقربون في العراق. تنقل في البلدان واستقر في حلب. «الأعلام» (٧/ ١٦٨).

(٢) جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي (٠٠٠ ـ ٢٠٠ هـ) أبو موسى: فيلسوف كيميائي، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، اتصل بالبرامكة وانقطع إلى أحدهم جعفر بن يحيى. وتوفي بطوس. «الأعلام» (٢/ ١٠٣).

(٣) سيل الجُحاف: هو السيل الذي يجرف كل شيء ويذهب به. «لسان العرب» (جحف). قلت: وهو سيل كان في سنة (٨٠) فسميت به.

بالقرافة بقرب الإمام الليث بن سعد[1] على يسار الداخل من الدرب المتوصل منه إليه.

ثم انتقل سرُّ هذه النسبة الشريفة إلى شبله سيد هذه السلسلة المبجلة الإمام موسى الكاظم رضي الله عنهما.

* * *

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن (٩٤ ـ ١٧٥ هـ) إمام أهل مصر في عصره، حديثاً وفقهاً. أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة، ووفاته في القاهرة. وكان من الكرماء الأجواد. «الأعلام» (٥/٢٤٨).

الإمام موسى الكاظم

رضي الله عنه

تبارك من أنتج مبارك هذه الثمرة، من تلك الشجرة النبوية المطهرة، ما أقدره، فهو إمام الصبر على التقوى والعبادة، الحائز لقصب السبق في ميدان سيادة الولاية وولاية السيادة، سُميَ بالكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله وبالعبد الصالح من كثرة عبادته واجتهاده وقيامه الليل فإنه كان أعبد أهل زمانه.

روي أنه دخل مسجد رسول الله ﷺ فسجد سجدة في أول الليل وسُمِع وهو يقول في سجوده: عظم الذنب عندي، فليحسن العفو من عندك، يا أهل التقوى! ويا أهل المغفرة. فجعل يرددها حتى أصبح.

وكان من أكابر العلماء الأسخياء؛ وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار؛ وكان يصر الصرر ثلاثمائة دينار، وأربعمائة دينار، ومائتي دينار، ثم يقسمها بالمدينة.

وكان يسكن المدينة فأقدمه المهدي بغداد فحبسه، فرأى في النوم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو يقول: يا محمد ﴿فهل عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُم أنْ تُفسِدوا في الأرضِ وتقطَعوا أرحامكُم﴾ [محمد: ٢٢]، قال الربيع: فأرسل إليَّ ليلاً فراعني ذلك فجئته فإذا هو يقرأ الآية، وكان أحسن الناس صوتاً، وقال: عَليَّ بموسى بن جعفر فجئته به فعانقه، وأجلسه إلى جنبه، وقال: يا أبا الحسن! إني رأيت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في النوم يقرأ عليَّ كذا فتؤمنني أن تخرج عليّ أو على أحد من أولادي، فقال: والله لا فعلت ذلك ولا هو من شأني، قال: صدقت، أعطه ثلاثة آلاف دينار، وردّه إلى أهله إلى المدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلاّ وهو في الطريق خوف العوائق.

وأقام بالمدينة إلى أيام هرون الرشيد، ولما حجَّ الرشيد سُعي به إليه، وقيل له: إنَّ الأموال تحمل إليه من كل جانب حتى اشترى ضيعة بثلاثين ألف دينار، فقال له الرشيد حين رآه جالساً عند الكعبة: أنت الذي يبايعك الناس سرّاً؟ قال: أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم.

وسأله الرشيد: كيف تقولون نحن أبناء المصطفى، وأنتم أبناء عليّ، فقرأ ﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسُليمانَ﴾ إلى أن قال ﴿وعيسى﴾ [الأنعام: ٨٤] وليس له أب.

ومن كلامه: إذا صحِبتَ رجلاً وكان موافقاً لك، ثم غاب عنك فلقيته فاضطرب قلبك عليه فارجع إلى نفسك فانظر، فإن كنت اعوججت فتب، وإن كنت مستقيماً فاعلم أنه ترك الطريق، وقفْ عند ذلك ولا تقطع منه، حتى يستبين لك إن شاء الله تعالى.

ومن بديع كراماته ما حكاه ابن الجوزي والرامهرمزي[1] عن شقيق[2] البلخي: أنَّه خرج حاجّاً فرآه بالقادسية منفرداً عن الناس، فقال في نفسه: هذا فتى من الصوفية يريد أن يكون كَلاًّ على الناس لأوبخنَّه فمضى إليه، فقال: يا شقيق ﴿اجتَنِبوا كثيراً مِنَ الظَّنّ إنَّ بَعضَ الظَّنِّ إثم﴾ [الحجرات: ١٢]، فأراد أن يعانقه فغاب عن عينه، ثم رآه بعدُ على بئر فسقطت ركوته فيها فدعا فطفَّ الماء حتى أخذها فتوضَّأ وصلَّى، ثم مال إلى كثيب من الرمل فطرح منه فيها وشرب، فقلت له: أطعمني مما رزقك الله، فقال: يا شقيق! لم تزل أنعُم الله علينا ظاهرة وباطنة، فأحسِن ظنك بربك، فناولنيها فشربتُ، فإذا هو سويق

---

(١) الحسن بن عبد الرحمن بن خلّاد (٠٠٠ ـ نحو ٣٦٠ هـ) الرامهرمزي الفارسي: محدث العجم في زمانه. من أدباء القضاة. أول سماعه بفارس سنة (٢٩٠ هـ) وله شعر. «الأعلام» (١٩٤/٢).

(٢) شقيق بن إبراهيم بن علي (٠٠٠ ـ ١٩٤ هـ) الأزدي: زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان. كان من كبار المجاهدين. استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر). «الأعلام» (١٧١/٣)

وسكر، فأقمت أياماً لا أشتهي شراباً ولا طعاماً، ثم لم أره إلاّ بمَكَّة وهو بغلمانه وغاشيته.

ولما أتى هرون الرشيد قبر النبي ﷺ زائراً وحوله قريش وأفناء[1] القبائل ومعه موسى بن جعفر، فقال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم! افتخاراً على من حوله، قال موسى: السلام عليك يا أبت! فتغير وجه هرون الرشيد، وقال: هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقاً، ولم يحتملها وحمله إلى بغداد مقيداً وحبسه فلم يخرج من حبسه إلا مقيداً ميتاً مسموماً.

وذكر أنه بعث إلى الرشيد برسالة من الحبس، كان منها: إنه لم ينقض عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك معه يوم من الرخاء، ثم نمضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون.

ولد رضي الله عنه بالمدينة يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر سنة ثمان وعشرين ومائة، وتوفي لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة ببغداد في الحبس، ودفن في مقابر الشونيزية[2] خارج القبة، وقبره هناك مشهور يزار، وعليه مشهد عظيم فيه من قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما لا يُحدّ، وهو في الجانب الغربي رضي الله عنه.

ثم تلقّى سرّ هذه النسبة الشريفة عنه سيد هذه السلسلة المبجلة، ولده الإمام عليّ الرضا رضي الله عنهما:

***

---

(١) أفناء القبائل: أي أخلاط من ههنا وههنا لم يعلم ممن هم، الواحد فِنْو. «لسان العرب» (فني).

(٢) الشُونيزِيّة: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي دفن فيها جماعة من الصالحين. «معجم البلدان» (٣/ ٣٧٤).

الإمام علي الرضا

رضي الله عنه

عِقد جيد جلالة الرسالة، ووشاح عطف سلالة الشرف وشرف السلالة، جعل الله تعالى وجوده العزيز على قدرته أعظم دلالة، فلا يسع ساعياً في إطرائه براعة عبارة، ولا يدرك مدارك عرفانه إلا بلسان الإشارة.

كان عظيم الشأن والقدر، مشهور الفضل حميد الذكر، أحله المأمون محل مهجته، وأشركه في مملكته وعقد له على ابنته، وعهد إليه بالخلافة من بعده بعدما أراد أن يخلع نفسه ويفوضها في حياته إليه، فمنعه بنو العباس فمات قبله، فأسف كل الأسف عليه.

وله كرامات كثيرة منها: أنَّه أخبر أنَّه يأكل عنباً ورماناً فيموت فيريد المأمون دفنه خلف الرشيد فلا يمكنه فكان كذلك.

ومنها أنه قال لرجل صحيح سليم: استعد لِما لا بُدَّ منه فمات بعد ثلاثة أيام. رواه الحاكم.

ومنها ما رواه الحاكم أيضاً عن محمد بن عيسى عن أبي حبيب قال: رأيت المصطفى ﷺ في النوم في المنزل الذي ينزله الحاج ببلدنا، فوجدت عنده طبقاً من خوص فيه تمر صيحاني، فناولني ثمان عشرة تمرة، فبعد عشرين يوماً قدم عليّ الرضا من المدينة ونزل في ذلك المنزل، وهرع الناس للسلام عليه ومضيت نحوه فإذا هو جالس بالموضع الذي رأيت المصطفى ﷺ قاعداً فيه، وبين يديه تمر صيحاني، فناولني قبضةً فإذا عدَّتها بعدد ما ناولني المصطفى ﷺ، فقلت: زدني، فقال: لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك.

وقال المأمون لعليّ بن موسى الرضا: ما يقول بنو أبيك في جدنا العبَّاس بن عبد المطَّلب؟ فقال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعة بنيه على

خلقه، وفرض طاعته على بنيه، فأمر له بألف ألف درهم.

وكان قد خرج أخوه زيد بن موسى بالبصرة على المأمون وفتك بأهلها، فأرسل إليه المأمون أخاه علياً المنوَّه به يرده عن ذلك، فجاءه، وقال له: ويلك يا زيد فعلت بالمسلمين بالبصرة ما فعلت وتزعم أنَّك ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، والله لأشدّ الناس عليك رسول الله ﷺ، يا زيد! ينبغي لمن أخذ برسول الله ﷺ أن يُعطي به، فبلغ كلامه المأمون فبكى، وقال: هكذا ينبغي أن يكون أهل بيت رسول الله ﷺ.

قال ابن خلكان: وآخر هذا الكلام مأخوذ من كلام عليّ زين العابدين المقدَّم ذكره، فقد قيل: إنه كان إذا سافر كتم نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله ما لا أعطي.

وقال بعض أصحاب أبي نواس[1]: ما رأيت أوقح منك ما تركت خمراً ولا طرباً ولا معنى إلاّ قلت فيه شيئاً، وهذا علي بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئاً، فقال: والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله، ثم أنشد بعد ساعة:

قِيل لي أنتَ أحسنُ الناسِ طُرّاً ... في فنون من الكلام النبيه
لك من جيِّد القريض مديح ... يثمر الدُّر في يَدَي مجتنيه
فعلامَ تركتَ مدح ابن موسى ... والخصال التي تجمعن فيه
قلت لا أستطيعُ مدحَ إمامٍ ... كان جبريلُ خادماً لأبيه

وقال فيه أيضاً:

مطهَّرون نقيَّات جيوبهم ... تجري الصلاةُ عليهم أينما ذُكِروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه ... فما لهُ في قديم الدَّهر مفتَخَرُ

(١) الحسن بن هانىء بن عبد الأول (١٤٦ ـ ١٩٨ هـ) أبو نواس: شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وعاد إلى بغداد إلى أن توفي فيها. «الأعلام» (٢/ ٢٢٥).

اللهُ لمّنا بــرا خلقــاً فــأتقنــهُ صَفَاكم واصطفاكم أيُّها البشر
فأنتمُ الملأ الأعلى وعِنْدَكُمُ علمُ الكتابِ وما جاءت بهِ السورُ

قلت: ومن هذا الجواب يُلتمس العذر لأبي نُوَاس وأمثاله من كبار الشعراء المجيدين عن عدم جرأتهم على مدح الحضرة المحمدية، لا كما يتوهمه بعض القاصرين، لا يقال: كيف مدحه المتأخرون إذاً؟ لأنّا نقول: إنّما قصد المتأخرون من ذلك مجرد التبرك لا أداء حقه، والمتقدمون علموا أن أداء حقه للبشر مستحيل فتوقفوا ولكل وجهة.

وكانت ولادته رضي الله عنه يوم الجمعة سنة ثلاث وخمسين ومائة بالمدينة، وتوفي آخر يوم من صفر سنة اثنين ومائتين بمدينة طوس[1]، وصلى عليه المأمون، ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد.

قيل: سبب موته أنّه أكل عنباً فأكثر منه، وقيل: بل كان مسموماً فاعتلّ منه فمات رضي الله عنه.

ثم تلقى سر هذه النسبة الشريفة عن شيخ هذه السلسلة المبجلة مولاه أبو محفوظ سيدنا معروف بن فيروز الكرخي رضي الله تعالى عنه:

* * *

---

(١) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، فتحت في أيام عثمان رضي الله عنه، وبها آثار أبنية إسلامية جليلة. «معجم البلدان» (٤/ ٤٩).

سيدنا معروف الكرخي

رضي الله عنه

المولى الذي مَلَكَ ما ملك من خيار الأحرار، بما سلك من أحوال الأبرار وأدرك من غوامض الأسرار، أنطقه الله تعالى بالحكمة، وعلّمه من المعارف الجمّة ما لم يعلم أحد علمه، وجعله حياً وميتاً للعباد رحمة، وطهّر سرَّه من الدنيا وجهره، مع ما أنعم به عليه من الولاية العظمى وتلك الشهرة.

وقد قيل: التصوّف: التوقّي من الأكدار، والتنقي من الأقذار.

وكان شيخَ السلسلة وهو أستاذ السري السقطي، ولم يكن في العراق في زمنه من يربي المريدين مثله، حتى كان جميع المشايخ يعترفون له بذلك.

قال الغزالي: كان أحمد بن حنبل[1] وابن معين[2] يختلفان إليه ويسألانه، ولم يكن في علم الظاهر مثلهما، فيقال لهما: مثلكما يفعل ذلك؟ فيقولان: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسوله، وقد قال المصطفى ﷺ: «سلوا الصالحين»[3].

وكان مجاب الدعوة، ويقول أهل بغداد: قبر معروف ترياق مجرَّب.

وكان أبواه نصرانيين فسلماه للمعلم طفلاً، فصار يقول له: قل: ثالث ثلاثة، فيقول: بل إله واحد فضربه ضرباً مبرحاً فهرب منه، وكان أبواه يقولان:

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) الشيباني: أحد الأئمة الأربعة. «الأعلام» (١/ ٢٠٣)

(٢) يحيى بن معين بن عون (١٥٨ ـ ٢٣٣ هـ) البغدادي: من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله. نعته الذهبي بسيد الحفاظ، أصله من سرخس، ومولده في قرية (نقيا) قرب الأنبار. خلف له أبوه ثروة كبيرة فأنفقها في طلب الحديث. عاش ببغداد. وتوفي في المدينة حاجاً. «الأعلام» (٨/ ١٧٢).

(٣) حديث «سلوا الصالحين»: لم أجده.

ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه، ثم إنَّه أسلم على يد عليّ بن موسى الرضا ورجع إلى أبويه فدقَّ الباب، فقيل له: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل له: على أي دين؟ فقال: على الإسلام، فأسلم أبواه.

ومن كراماته ما قال خليل الصياد: غاب أبي فتألمت، فجئت إلى معروف، فقلت: غاب أبي، فقال: ما تريد؟ قلت: رجوعه، فقال: اللهم إنَّ السماء سماؤك، والأرض أرضك، وما بينهما لك، إئت بمحمد، فأتيت باب الشام فإذا هو واقف، فقلت: أين كنت؟ قال: كنت الساعة بالأنبار، ولا أعلم ما صار.

ومن كلامه: كلام الرجل فيما لا يعنيه مقت من الله. وقال: حقيقة الوفاء إفاقة السرّ من رقدة الغفلات، وفراغ الهم من فضول الآفات.

وقال: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل بما علم، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد به شراً فعكسه.

وقال: توكَّل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسَك وموضع شكواك، وليكن ذكرُ الموت جليسك لا يفارقك.

وكان من دعائه: اللهم لا تجعلنا بثناء الناس مغرورين، ولا بالستر مفتونين.

وقال: طول الأمل يمنع خير العمل.

وقال: كيف يكون تقياً من لا يدري ما يتَّقي.

وقال: من قال كل يوم عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرِّج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، كتب من الأبدال.

وقال: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، ورجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقال: السخاء إيثار ما تحتاج إليه عند الإعسار.

وقال: ما أكثر الصالحين وما أقلَّ الصادقين منهم.

وقال: لولا خروج الدنيا من قلوب العارفين ما قدروا على فعل الطاعات، ولو بقي من حبها ذرَّة في قلوبهم ما سلمت لهم سجدة واحدة.

وقال: العارف يرجع إلى الدنيا اضطراراً والمفتون اختياراً.

وقال: إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين، فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض.

وقال: إذا أراد الله بعبد خيراً زوَى[1] الخذلان عنه وأسكنه بين الفقراء الصادقين، وإذا أراد به شرّاً عطَّله عن العمل الصالح وأسكنه بين الأغنياء.

وقال: شفاء كل بلاء نزل بالعبد كتمانه، فإن الناس لا ينفعونه ولا يضرونه، ولا يعطونه ولا يمنعونه.

وقال: ليست المحبة من تعليم الخلق، بل من مواهب الله.

وقال: إنما الدنيا قدر تُغْلَىْ، وكنيف يُمْلَى.

وقال: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

وقال: التصوُّف الأخذ بالحقائق، واليأس مما بأيدي الخلائق.

ومرَّ بسقَّاء يقول: رحم الله من شرب، فشرب فقيل: ألم تكن صائماً؟ قال: نعم، لكن رجوت دعاءه.

ونزل الدجلة ليتوضّأ ووضع مصحفه وملحفته فأخذتهما امرأة فتبعها، فقال: يا أختي! لا بأس عليك، ألك ابن يقرأ أو زوج؟ قالت: لا، قال: هات المصحف، وخذي الثوب.

ولما مرض قال: تصدَّقوا بقميصي، فإني أريد أن أخرج من الدنيا عُرياناً.

صحب داود الطائي. وقال لتلميذه السري السقطي يوماً: إذا كانت حاجة إلى الله تعالى فأقسم عليه بي.

---

(١) زَوَى: نحّى وصرف عنه. «لسان العرب» (زوي).

وقال سري السقطي: رأيت معروفاً الكرخي في النوم كأنّه تحت العرش، والباري جلّت قدرته يقول لملائكته: من هذا؟ وهم يقولون: أنت أعلم يا ربنا منا، فقال: هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي.

وقال معروف: قال لي بعض أصحاب داود الطائي: إياك أن تترك العمل! فإن ذلك الذي يقربك إلى رضاه مولاك، فقلت: وما ذاك العمل؟ قال: دوام الطاعة لمولاك، وحرمة المسلمين والنصيحة لهم.

وقال محمد بن الحسن: سمعت أبي يقول: رأيت معروفاً الكرخي في النوم بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقلت: بزهدك وورعك؟ فقال: لا، بل بقبول موعظة ابن السماك، ولزومي الفقر، ومحبتي للفقراء.

وكانت موعظة ابن السماك ما رواه معروف، قال: كنت ماراً بالكوفة، فوقفت على رجل يقال له: ابن السماك، وهو يعظ الناس، فقال في خلال كلامه: من أعرض عن الله بكلّيته أعرض عنه جملة، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله تعالى برحمته عليه، وأقبل بوجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله تعالى يرحمه وقتاً ما. فوقع كلامه في قلبي وأقبلت على الله تعالى، وتركت جميع ما كنت عليه، إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا، وذكرت هذا الكلام لمولاي، فقال: يكفيك هذه موعظة إن اتعظت.

وكان يُهدى إليه طيبات الطعام فيأكل، فيقال له: إنَّ أخاك بشراً لا يأكله، فيقول: أخي قبضه الورع، وأنا بسطتني المعرفة، إنما أنا ضيف في دار مولاي مهما أطعمني أكلت.

وقيل له: كلٌّ من دعاك تمرُّ[1] إليه قال: إنما أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني.

وكان يقول: يا نفس! أخلصي تتخلصي. ولم يزل على حاله إلى أن دنا من

(١) تمرُّ: أي تذهب.

قبره فتدلَّى، وأعرض عن الدنيا وولَّى، سنة إحدى ومائتين ببغداد، وقبره مشهور بها يزار رضي الله عنه.

ثم تلقَّى سرّ هذه النسبة الشريفة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة: السريّ السقطي ابن المغلس رضي الله عنه:

* * *

الإمام [أبو] الحسن السري السقطي ابن المغلس

خال الجنيد وأستاذه، إمام أزهرت رياض رياسته، واشتهرت أخبار تربيته وسياسته، وانتهت إليه مشيخة الصوفية، وتفجَّرت عيون موارده في المعارف الإلهية، ومع ذلك كان وجيهاً عند الملوك والأكابر، معظَّماً بين أرباب السيوف والمحابر.

أخذ عن الكرخي وغيره، وأسند الحديث عن الفضيل(1) وهشيم(2) وأبي بكر بن عياش وعلي بن غراب ويزيد بن هرون.

وروى عنه الجنيد وأبو العباس بن مسروق وإبراهيم المخزومي وغيرهم.

قال السلمي(3): وهو أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد، وتكلم في الحقائق والإشارات، وكان أوحَدَ أهل زمانه وَرَعاً وزهداً، ذا أحوال ومقامات.

وسبب توبته أنَّه مرَّ بجارية سقط منها شيء فانكسر فارتابت(4) فأعطاها بدله، والكرخي(5) مار فنظر إليه فأعجبه صنعه، فقال: بغَّض الله إليك الدنيا

---

(1) الفضيل بن عياض بن مسعود (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ) التميمي اليربوعي، شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي. ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها. ثم سكن مكة وتوفي فيها. «الأعلام» (٥/ ١٥٣).

(2) هشيم بن بشير بن أبي خازم قاسم (١٠٤ ـ ١٨٣ هـ) الواسطي، نزيل بغداد: مفسر، من ثقات المحدثين، قيل: أصله من بخارى، كان محدث بغداد. ولزمه الإمام أحمد ابن حنبل أربع سنين. «الأعلام» (٨/ ٨٩).

(3) محمد بن الحسين بن محمد (٣٢٥ ـ ٤١٢ هـ) السلمي النيسابوري، من علماء المتصوفة. مولده ووفاته في نيسابور. من كتبه: «طبقات الصوفية». «الأعلام» (٦/ ٩٩).

(4) ارتابت: أصابها خوف. «لسان العرب» (ريب).

(5) معروف بن فيروز (٠٠٠ ـ ٢٠٠ هـ) أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي في بغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به، حتى كان الإمام أحمد ابن=

وأراحك مما أنت فيه، فترك حانوته وقام وهام.

ومن فوائده: عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضلَّ نفسه، وعجبت لمن سافر في طلب الربح ولم يربح تاجر مثل نفسه.

وقال للجنيد: يا غلام احفظ عنّي: المعرفة ترفرف على القلب فإن كان فيه حياء، وإلا ارتحلت.

وقال: القلوب ثلاثة: قلب كالجبل لا يزعزعه شيء، وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة يميلها الريح يميناً وشمالا

وقال: علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، والاطلاع على عيوب الناس.

وقال: من أحبَّ أن يَسلَم له دينه ويقلَّ غمُّه وهمُّه فليعتزل الناس.

وقال: أقوى القوة أن يَغلبَ النفس على شهواتها، ومن عجز عن أدب نفسه فهو عن أدب غيره أعجز.

وقال: من تزيَّن للناس(١) بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقال: اللهم مهما عذَّبتني بشيء فلا تعذِّبني بذُلِّ الحجاب.

وقال: لي منذ أربعين سنة تطالبني نفسي بغمس جزرة في دبس فما أطعتها.

وقال: آهٍ على لقمة ليس لله فيها تبعة، ولا لمخلوق فيها منة.

وقال: انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء، وقُلت لنفسي: إن أكلت يوماً حلالاً فهذا، فهتف بي هاتف: القوّة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي؟ فرجعت وندمت.

وذكر عنده الوجد الحادُّ الغالب فقال: أن يُضرب وجهه بالسيف وهو

= حنبل في جملة من يختلف إليه. «الأعلام» (٧/ ٢٦٩).

(١) وفي هذا يقول النبي ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور» (ع).

لا يدري، فروجع فيه واستبعد فلم يرجع.

وقال: عجباً لضعيفٍ كيف يعصي قوياً.

وقال: أهل الحقائق مَنْ أكلهُ أكلُ المرضى، ونومه نوم الغرقى.

وقال: لو دخل رجل بستاناً فيه من كلِّ ما خلق الله من الأشجار، وعليه كل ما خلق الله من الأطيار، فخاطبه كلُّ طائرٍ منها بلغته: السلام عليك يا وليَّ الله! فسكنت نفسه لذلك كان في يديها أسيراً.

وقال: إنَّ في النَّفس لشغلاً عن الناس.

وقال: المغبون[1] من فنيت أيامه بالتسويف، والمغبوط[2] من تمنى الصالحون مقامه.

وقال: سئل حكيم: متى يكون العالم مسيئاً؟ قال: إذا كثرت بقبقته[3] وانتشرت كتبه، وغضب أن يردَّ عليه شيء من كلامه.

وقال: احذر أن تكون ثناءً منشوراً، وعيباً مستوراً.

وقال: جاءني أبو جعفر السماك وكان شديد الوله، فوجد حولي جمعاً فوقف ولم يقعد، ثم نظر إليَّ فقال: صرت مناجياً للبطالين، فكره اجتماعهم حولي.

وقال: الشكر أنْ لا يُعصى الله في نعمه.

وقال: من ذكرني بسوءٍ فهو في حِل إلا رجلاً تعمدني بشيء يعلم مني خلافه.

وقال: من الناس من لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم.

---

(١) المغبون: المخدوع.

(٢) المغبوط: من الغبطة، وهي حُسْن الحال. «مختار» (٤٦٨).

(٣) بقبقته: كثرة كلامه. «مختار» (٦٠).

وقال: يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حدٍّ لو ضُرب وجهه بالسيف لم يشعر به.

وقال: الشوقُ والأُنس يرفرفان على القلب فإن وجدا فيه هيبة وإجلالاً أقاما وإلا ارتحلا.

وقال: لولا الجمعة والجماعات سددت على نفسي الباب.

وقال: كيف يستنير قلب فقير يأكل من طعام قاضٍ ومَنْ غشَّ في معاملته.

وقال: من صغى إلى قول الناس عنه إنه وليّ فهو أسير في يد نفسه ما برح.

وقال: ثلاثة من علامة سخط الله على العبد: كثرة الغفلة، والاستهزاء بالناس، والغيبة.

وقيل له: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: إن أردت العبادة فعليك بالصيام والقيام، وإن أردته فاترك كل ما سواه تصل إليه، وليس إلا المساجد والخراب.

وقال: لا تَكمُل محبةٌ بين اثنين حتى يقول كل للآخر: يا أنا!

وقال: ما رأيت شيئاً أحبط للعمل، ولا أفسد للقلب، ولا أسرع لهلاك العبد، ولا أدوم للاضرار، ولا أقرب للمقت، ولا ألزم لطريق الرياء والعجب والرياسة، من قلة معرفة العبد لنفسه، ونظره في عيوب الناس.

وقال: الدنيا أفاعي العلماء، وسحَّارة قلوب الفقراء والقُرَّاء.

وقال: كم مَنْ أطبق أهل بلده على اعتقاده وهو من الهالكين.

وقال: قد توعرت طريق الصالحين، وقلَّ فيها السالكون، وهُجرت فيها الأعمال، وقل فيها الراغبون، ورُفِضَ الحق، ودُرس هذا الأمر، فلا أراه إلا في لسان كل بطال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال، قد افترش الرُّخَص وتمهد التأويلات، واقتدى بذلك الهالكون.

وقال: من قام بين يدي الله في الظلام نشرت له يوم القيامة الأعلام.

وقال الغزالي: وأرسل السري إلى أحمد بن حنبل شيئاً فردَّه، فقال له:

إحذر آفة الرَّد فإنها أشدُّ من آفة الأخذ، فقال: أعد عليَّ ما قلت فأعاده، فقال: ما رددت إلاّ لأنَّ عندي قوت شهر فاحبسه عندك وأرسله بعد شهر.

ودخل عليه الجنيد، فقال: يا جنيد! عصفور يجيء كل يوم أفتُّ له الخبز فيأكل من يدي، فنزل الساعة ولم يسقط على يدي، فذكرت أنّي أكلت ملحاً بأبزار فآليت أن لا آكله بعدها فعاد كما كان.

وقال: قلوب المقرَّبين معلَّقة بالسوابق[1]، وقلوب الأبرار بالخواتيم، هؤلاء يقولون: بماذا يختم لنا، وأولئك: بماذا سَبَق من الله لنا.

وقال: من اشتغل بمناجاة الله أورثه حلاوة ذكره، ومرارة ما يأتي به الشيطان.

وقال: من استعمل التسويف طالت حسرته يوم القيامة.

وقال: الأدب ترجمان العقل، واللسان ترجمان القلب، والوجه مرآة القلب ليتبين على الوجه ما تضمره القلوب.

وقال: من أطاع من فوقه أطاعه من دونه.

وقال له الجنيد وهو محتضر: أوصني! فقال: لا تصحب الأشرار، ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأخيار.

وقال: التوكُّل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال: رأس الأعمال الرضا عن الله، وعمود الدين الورع، ومخ العبادة الجوع، وضبط اللسان حصن حصين، ومن شكر الله جرى في ميدان الزيادة.

وقال: صحبت شيخاً فأقمت سنة لا أسأله عن شيء، ثم قلت: ما المعرفة التي ما فوقها معرفة؟ قال: أن تجد الله أقربَ إليك من كل شيء، وأن ينمحي

---

(١) قوله (بالسوابق): اللاحقة هي عين السابقة، والمقربون يكونون على ما هم عليه في علم الله المغيَّب عنهم (ع).

من سرّك كل شيء، قلت: وما يوصل إلى هذا؟ قال: زهدك[١] فيك ورغبتك فيه، فكان كلامه سبب نفعي.

وقال: سمعت برجل مجاب الدعوة فطلبته، فإذا بخلق كثير من المرضى والعميان ينتظرون خروجه كلَّ سنة مرة ليدعو لهم فيُشفون، فخرج فدعا لهم ورجع، فتعلقت به وقلت: بي علَّة باطنة، قال: خلِّ عنّي - يا سري - فإنه غيور، لا يراك تسأل غيره فتسقط من عينه.

وقال: اطلب حياة قلبك بمجالسة أهل الفكر، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وألحَّ في المسألة عند وجل القلوب، وإياك والتسويف.

ولمّا مرض لم يُرَ عليه تغير، فأخذ الجنيد بوله فذهب لطبيب نصراني فتأمله، وقال: بول عاشق، فصعق الجنيد وأغمي عليه، ثم أخبر السري فقال: قاتله الله ما أخبره، ما كنت أظنُّ أنَّ الحبَّ يظهر في هذا.

وكان رضي الله عنه ينشد كثيراً، ويقول:

لا في النهار ولا في الليل لي فرح فما أبالي أطالَ الليلُ أم قصُرا
لأنني طول ليلي هائمٌ دَنِف وبالنهار أعاني الهمَّ والفكرا

وقال: خصلتان تُبعدان العبد من الله تعالى: أداء نافلة[٢] بتضييع فريضة، وعمل بالجوارح من غير صدق بالقلب.

وقال عليّ بن الحسين بن حرب: بعثني أبي إلى السري - رضي الله عنه - بشيء من حَبِّ السُعال، لسُعال كان به، فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت له: لم يخبرني بشيء، فقال: اقرأ عليه السلام وقل له: نحن نعلِّم الناس منذ خمسين

---

(١) قوله (زهدك فيك): أي فناؤك عنك حتى لا تبقى لك منك بقية، فتفنى عن أعمالك بشهود خالقها فيك، وتفنى عن أوصافك بشهود أوصافه، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل. (ع).

(٢) قوله (أداء نافلة): في الحكم العطائية: من علامة موت القلب المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات (ع).

سنة أن لا يأكلوا بأديانهم، أفتراني اليوم آكل بديني، ثمّ ردَّه ولم يأخذ منه شيئاً.

وقال رضي الله عنه: أرقت ذات ليلة فلم أطق القميص مع خدمته من التهجد وكثرة التفكر، فلما صلّيت الفجر خرجتُ لا يقرُّ لي قرار، فقلت: أمضي لبعض الوعّاظ لعلّي أجد لقلبي راحة، فلما وقفت عليه وجدت قلبي لا يزداد إلاّ قساوة، فقلت: أمضي إلى الشرطة لعلّي أعتبر بمن يعاقب في الدنيا، فلما مضيت وجدت قلبي على حاله، فقلت: أمضي إلى المارستان لعلّي أعتبر بمن قد ابتلي، فلما دخلت المارستان وجدت قلبي قد انفتح وارتاح، فرأيت جارية جالسة على سرير، من أحسن الناس وجهاً، وعليها أطمار حسنة، وشممت منها رائحة طيبة وهي غضيضة النظر، مقيدة الرجلين مغلولة اليدين، فلما رأتني تغرغرت[١] عيناها بالدموع وأنشدت:

أعيـــذكَ أنْ تغـــلَّ يـــدي ... بغيـــر جـــريمـــة سبقـــت
تغـــلُّ يـــدي إلـــى عنقـــي ... ولا خـــانـــت ولا ســـرَقَـــت
وبيـــن جـــوانحـــي كبـــد ... أحِـــسُّ بهـــا قـــد احتـــرقـــت
فلـــو قطَّعتهـــا قطعـــاً ... وحقـــك عنـــك مـــا بـــرحـــت[٢]

قال السري: فلما سمعت كلامها قلت للقيم: ما هذه الجارية؟ فقال: جارية مجنونة حبسها مولاها لكي تصحو، قال: فأردت الدنو منها، فقال لي القيم: لا تقرب منها فإنَّ الذي بها عظيم، فلما سمعَت كلام القيم تغرغرت[١] عيناها بالدموع وأنشدت:

معشر النَّاس ما جُننت ولكن ... أنـا سكـرانـةٌ وقلبـي صـاحـي
أنـا مجنـونـةٌ بحـبِّ حبيـبٍ ... لستُ أبغي عن بابه مِنْ براح
وصلاحي الذي رأيتم فسادي ... وفسادي الذي رأيتم صلاحي
ما على من أحبَّ مولى الموالي ... وارتضـاه لنفسـهِ مِـنْ جُنـاحِ

---

(١) في المخطوط في الموضعين: تغرغت.
(٢) على هامش المخطوط: لعله ما افترقت.

فلما سمعتُ ذلك منها أقلقني وأبكاني، فلما رأتني على تلك الحالة، قالت: يا سري! هذا بكاؤك على ذكر صفته فكيف لو عرفته حقَّ معرفته، ثم بكت وأنشدت:

ألبستني ثوبَ وجدٍ طابَ ملبسه ... فأنت مولى الورى حقاً ومولائي
كانت بقلبي أهواءٌ مفرَّقةٌ ... فاستجمعت مذ رأتكَ العينُ أهوائي
فصار يحسدني مَنْ كنتُ أحسدهُ ... وصرتُ مولى الورى إذ صرتَ مولائي
تركتُ للناسِ دُنياهم ودينَهُمُ ... شغلاً بحبكَ يا ديني ودنيائي
مَنْ غصَّ داوى بشرب الماءِ غصَّتَه ... فكيفَ يصنعُ من قد غصَّ بالماءِ
والشوقُ في خاطري مني وفي كبدي ... والحبُّ مني مقيمٌ بين أحشائي

قلت: يا جارية! قالت: لبيك يا سري، قلت: ومن أين عرفت اسمي، وما رأيتك قبل هذا؟ فقالت: عرَّف بيني وبينك علاّم الغيوب، قلت لها: ومن حبسك؟ وما سبب حبسك، وأنت على هذه المعرفة، والإخلاص في الحب؟ قالت: يا سري! زعموا أني مجنونة وهم أولى باسم الجنون مني، ثم بكت طويلاً، ثم قلت لها: ما اسمك؟ قالت: تحفة، فقلت لقيّم المارستان: حُلَّ عنها قيدها، وانزع الغلَّ من عنقها ففعل، ثم تحادثنا ساعة وإذا مولاها قد أقبل، فلما رآني سلَّم عليَّ وأعظمني، فقلت له: يا فتى! إنها بالإعظام أولى منّي، فما الذي تنكر من هذه الجارية؟ قال: كثرة بكائها وأنينها، وهي ذاهلة العقل طول ليلها، قائمة لا تنام ولا تدعنا ننام، وهي والله بضاعتي شريتها بخمسمائة دينار لحسن صنعتها، قلت: ما صنعتها، قال: عوّادة تضرب بالعود، قلت: سبب ذلك، قال: بينا هي تغني وعودها في حجرها وهي تقول:

ملأت جوانحي والقلبَ وجداً ... فكيفَ أقرُّ أو أسلى وأهدا
وحَقِّكَ لا نقضتُ الدَّهر عهدا ... ولا كدَّرتُ بعد الصَّفوِ وِردا
فيا من ليسَ لي مولىً سواه ... تراكَ رضيتني في الناسِ عبدا

إذ رمَت العود فكسرَته، فهذا كان سبب جنونها، فلما سمعت الجارية ذلك أنشدت:

خاطبني الحقُّ من جَناني فكان وعظي على لساني
قرّبني منهُ بعدَ بُعدٍ وخصّني منهُ واصطفاني
أجبتُ لمَّا دُعيت طوعاً ملبياً داعياً دعاني

فقلت لمولاها: أطلق سبيلها وعليَّ خمسمائة دينار، أدفعها لك في غدٍ إن شاء الله تعالى، فقال: تكون مقيمة في موضعها هذا حتى تُحضرَ المال أو تفيق من الجنون، قال السري: فانصرفت وأنا باكي العين حزين القلب على الجارية، فلما كان جوف الليل وإذا بالباب يُطرق، فخرجت فوجدت خمسة من الرجال، فقلت: ما حاجتكم؟ فقال أحدهم: أخ في الله تعالى جاء لسبب من الأسباب، بإذن الملك الوهّاب، ففتحت، فقال: أتأذن في الدخول؟ فقلت: نعم! فدخل ومن معه وعلى أكتافهم أربع بدر[1] دنانير، وبيد الغلام شمعة، فقال: أتعرفني؟ قلت: لا! قال: أنا أحمد بن المثنى، بينا أنا نائم وإذا هاتف يقول: يا ابن المثنى! هل لك في معاملة المولى جلَّ جلاله؟ فقلت: يا فرحي إن كنتُ للرِّق أصلُح، فقال: احمل من مالك أربع بدر إلى سري السقطي يشتري بها تحفة فإنَّ لنا بها عناية، وقد جعلناها من أهل الولاية، وأعلِم مولاها أنَّ الله سيفتح عليه من حيث لا يحتسب، فقمت وسارعت إلى ما أُمِرت، وهذا المال قد جئت به، قال السري: فسجدت شكراً لله تعالى على هذه النعمة الجديدة، ولم يزل إلى أن طلع الفجر، فلما صلينا الصبح أتينا المارستان، وإذا قيّم المارستان على الباب، فلما رآني قال: جئت من أجل تحفة؟ قلت: نعم، وحكيت له ما قال ابن المثنى من كلام الهاتف، ثم دخلنا المارستان ومعنا القيّم، فلمّا رأتنا تغرغرت[2] عيناها بالدموع، وأنشدت تقول:

قد تصَبَّرتُ إلى أنْ عِيلَ في حُبّكَ صبري
ليس يخفى عنكَ أمري يا مُنى قصدي وذُخري

---

(١) بدر: جمع بِدرة وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. «القاموس المحيط» (بدر).

(٢) في المخطوط: تغرغت.

أتُـــرى تَعتِـــقُ رِقّـــي أو تفُـــكُّ اليـــومَ أســـري

فبينا نحن جلوس وأنا أقول لها: قد أُجيبت الدَّعوة، إذ دخل مولاها حزيناً متغيِّر اللون باكياً، فقلت: لا تبكِ قد فرَّج الله عزَّ وجلَّ، وقد حصل المال مثل ما أردت، وإذا طلبت ربحاً أعطيناك، ولو أنَّه خمسة آلاف دينار، فقال: والله لا فعلت ولو كان ملء الأرض ذهباً وفضة، فقلت: يا فتى! ما هكذا كان كلامك بالأمس، فقال: هيهات يا سيدي! لو تعلم ما جرى عليَّ من التوبيخ البارحة وما هتف بي الهاتف، اعلموا أنَّ هذه الجارية حرَّة لوجه الله تعالى، وجميع ما أملكه صدقة لله تعالى، فالتفتُّ فإذا ابن المثنى يبكي بكاءً شديداً، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يرضَني، فقلت له: قد وقع الأجر، وحصلت النيّة، ونيّة المرء خير من عمله، ولم أزل أسكِّنه حتى سكن ما به، ثم قال لي: يا سريِ هذا المال خرجتُ عنه لله عزَّ وجلَّ، ولا سبيل إلى الرجوع به، وإنما هو وباقي مالي صدقة، وكل ريع[1] لي فهو حبس في سبيل الله تعالى، وكل مملوك لي فهو حرٌّ لله تعالى، وأنا هارب إلى الله تعالى، تائب إليه من جميع ذنوبي، فقامت الجارية فنزعت ما كان عليها ولبست مدرعة[2] من الشعر وخماراً من الصوف، وقامت تمشي معنا وهي تبكي، وتقول:

يا سرور القلوبِ أنتَ سروري ووصـالـي وأنـتَ نـورُ النّـورِ
كم ترى يصبرُ المُحبُّ عن الحـ ـبِّ وكم يلبثُ الهوى في الصدورِ

ثم قالت: واطول حُزناه، ثم فارقتنا ومضت وهي تقول:

بكيـــتُ منـــهُ عليـــهِ هـــربـــتُ منـــه إليـــهِ[3]
وحقِّـــهِ وهـــوَ ســـؤلـــي لا زِلـــتُ بيـــنَ يـــديـــهِ

---

(١) رِيع ـ بكسر الراء ـ: المرتفع من الأرض، وقيل: الجبل. «مختار الصحاح» (٢٦٦).
(٢) مِدْرعة: ضرب من الثياب التي تلبس، ولا تكون إلا من الصوف خاصة. «لسان العرب» (درع).
(٣) قوله (هربت منه إليه): ومن هذا قول النبي ﷺ: «وأعوذ بك منك». وقوله: «لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك». (ع).

حتّـــى أنـــال وأحظـــى   بمـــا اتكلـــتُ عليــهِ

قال السري: ثم غابت عنا، فلما كان في بعض السنين حججت أنا ومولاها، فبينا نحن في الطواف مع جماعة إذ سمعت صوتاً حزيناً من امرأة تنادي بالبكاء: يا سيدي! فلما رأتنا أنشدت:

محـبُّ الله فـي الـدُّنيـا سقيـمٌ   تطـاولَ سُقمـه فـدواه داهُ
يهيـمُ بحبِّـه شـوقـاً إليـهِ   فليـسَ يـريـدُ محبـوبـاً سـواهُ
كذلك كلُّ من يُدعى مُحِبّاً   يهيـمُ بحبِّـهِ حتـى يـراهُ

ثم سقطت مغشيّاً عليها، فلما أفاقت أنشدت:

أموتُ وما ماتت لديكَ صبابتي   ولا رويَتْ مِنْ فَرطِ حُبِّكَ أوطاري[1]
مُنايَ المنى كلُّ المنى أنت لي المنى   وموضعُ أشواقي ومكنونُ أسراري
ألستَ دليـلَ القـومِ إن هـم تحيَّروا   ومنقذَ مَنْ أشفى على جُرفٍ هارِ[2]

فتقدمت إليها فإذا هي تحفة، فقلت لها: ما وهبك الله بانقطاعك عن الخلق؟ فقالت: آنسني بقربه، وأوحشني من خلقه، فقلت: يا تحفة! إنَّ ابن المثنى قد مات، فقالت: رحمه الله وغفر له، إنّي لأرجو له من الله تعالى كلَّ خير ونعيم وزُلفى، وسيجزيه الله عزَّ وجلَّ بكلِّ درهم أنفقه في سبيل الله سبعمائة ضعف إلى أضعاف مضاعفة، ثم قالت: إلهي وسيدي ومولاي! أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تقبضني إليك، إلى كم أبقى في دار الدنيا محزونة؟ إلهي قد طال شوقي إليك فعجِّل ربي قبضَ روحي إليك، يا أرحم الراحمين! ومجيب دعوة المضطرين، ثم استقبلت القبلة وتشهَّدت فماتت رحمها الله تعالى؛ فما أعظم بركة هذه الجارية على الجميع.

وقال رضي الله عنه: لو أحسست بإنسان يريد أن يدخل عليَّ فقلت بلحيتي

---

(١) أوطاري: جمع وطر: وهي الحاجة. «القاموس المحيط» (وطر).
(٢) أشفى: أشرف على الشيء. «لسان العرب» (شفي).

كذا ـ وأمرَّ يده على لحيته كأنَّه يريد تسويتها من أجل دخول ذلك الداخل ـ لخفت أن يعذبني الله عزَّ وجلَّ على ذلك بالنار[1].

وكان يقول: إني لأنظر إلى أنفي مراراً مخافة أن يكون وجهي قد اسودَّ.

وقال: ما أحبُّ أن أموت حيث أعرف، فقيل له: ولِمَ ذاك؟ قال: أخاف أن لا يقبلني قبري فأفتضح.

وقال رجل له رضي الله عنه: كيف أنت؟ فأنشأ يقول:

مَنْ لم يَبُت والحبُّ حشوَ فؤادِهِ لم يدرِ كيفَ تفتَّتُ الأكبادُ

وقال الجنيد رضي الله عنه: رفع السري إليَّ يوماً رقعة، قال: انظر ما فيها:

إذا ما شكوتُ الحُبَّ قالت كَذَبتني فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حبَّ حتى يلصقَ الجلدُ بالحشا وتذبُلَ حتى لا تجيب المناديا

وقال: معنى الصبر أن تكون مثل الأرض تحمل الجبال وبني آدم وكلَّ ما عليها لا تأبى ذلك، كذلك الصابر يحتمل كلَّ ما كرهته النفوس، لا يأبى ذلك ولا يسميه بلاء، بل يسميه نعمة وموهبة من الله سبحانه وتعالى.

وقال: صليتُ وردي ليلةً ومددت رجلي في المحراب، فنوديت: يا سري! كذا تجالس الملوك؟ فقبضت رجلي، ثم قلت: وعزَّتك وجلالك لا مددت رجلي أبداً!

وكان يقول: إذا فاتني جزء من وردي لا يمكنني أن أقضيه أبداً؟ قال الجنيد: لأن السري كان متصل التنفل.

وقال: أصفى ما يكون ذكري إذا كنت مشغول القلب بالله تعالى.

وقال: من لم يعرف قدر النعم سُلِبها من حيث لا يعلم، ومن هانت عليه المصائب أحرز ثوابها.

---

(١) قوله (بالنار): خشية أن يكون من التصنع والمراءاة إن لم يصحبه استحضار الحضرة الإلهية. (ع).

وسئل عن الصَّبر فجعل يتكلم فيه فدبَّت على رجله عقرب وهي تضربه بإبرتها وهو ساكن، فقيل له: لِمَ لَمْ تُنحِّها عنك؟ فقال: إني استحييت من الله تعالى أن أتكلم في الصبر ولا أصبر.

وقال: التوكُّل والتعفف يمنعان من الذِّلَّة، والإحسان والكرم يمنعان من دناءة الأخلاق، والزهد يمنع من التعب.

وقال الجنيد: دخلت يوماً على السري فقال لي: ما أوائل أحوال الصِّدِّيقين؟ قلت: لا أدري، قال: ثلاثة: أن يكونوا بما في أيديهم مع إخوانهم سواء، ويطالبون نفوسهم بما للناس عليهم، وإذا عُرض أمران لله عزَّ وجلَّ فيهما رضاً حملوا نفوسهم على أصعبهما وأشدهما وإن كان فيه تلف نفوسهم[١].

وقال الجنيد: سمعت سرياً يقول: كنت ماراً في البرية فآواني الليل إلى جبل لا أنفس فيه، فبينا أنا في جوف الليل ناداني منادٍ، فقال: لا تدور القلوب في الغيوب، حتى تذوب النفوس من مخافة فوت المحبوب[٢]، فتعجَّبت وقلت: أجنِّيٌّ يناديني أم إنسيّ؟ فقال: بل جنّي مؤمن بالله سبحانه وتعالى ومعي أخوان، فقلت: وهل عندهم ما عندك؟ فقال: نعم وزيادة، فناداني الثاني منهم: لا تذهب من البدن القوّة إلاّ بدوام الفتوّة، فقلت في نفسي: ما أبلغ كلامهم! فناداني الثالث: مَنْ أَنِسَ به في الظلام نُشرَ له غداً الأعلام، قال: فصعقت فما أفقت إلا برائحة الطيب، وإذا نرجسة على صدري فشممتها فأفقت فقلت: وصية وحكم لله، فقالوا جميعاً: أبى الله عز وجل أنْ تحيى به إلاّ قلوب المتَّقين، فمن طمع في غير ذلك فقد طمع في غير مطمع، وفقنا الله وإياك،

---

(١) قوله (تلف نفوسهم): وفي الحكم العطائية: إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً. (ع)

(٢) قوله (فوت المحبوب): ومن هذا قول أبي سليمان الداراني رحمه الله: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً. (ع)

وودعوني ومضوا، وقد أتى عليَّ حينٌ ولا أزال أرى بركة كلامهم موجودة في خاطري.

وقال رضي الله عنه: لا يطيب عيش الزاهد إلاّ إذا اشتغل عن نفسه[1]، ولا عيشُ العارف إلاّ إذا اشتغل بنفسه.

وقال: لن يكمل الرجل حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

وقال: للمريد عشر مقامات: التحبب إلى الله عزَّ وجلَّ، والتزيُّن عنده بالصدق، ونصيحة الأمة، والأنس بكلام الله عزَّ وجلَّ، والصبر على أحكامه، والأثرة لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في مرضاته، والرضا بالقلَّة، والقناعة بالخمول.

وقال: رأيت الفوائد ترد في ظلام الليل.

وقال: تخليص العمل حتى يخلص أشد من العمل، والإبقاء على العمل بعدما يخلص أشد من تخليص العمل.

وقال: لو شفقت هذه النفوس على أبدانها شفقتها على أولادها للاقت السرور في معادها.

وقال: وددت أنَّ أحزان الخلق كلّهم عليَّ.

وقال الجنيد: بعثني السري يوماً في حاجة فأبطأت عليه، فقال: إذا بعثك رجل يتكلم في موارد القلوب في حاجة فلا تبطىء عليه فإنَّك تشغل قلبه.

وقال السري: إنّي أعرف طريقاً يؤدّي إلى الجنَّة قصدا، فقيل: وما هي؟ فقال: أن تشتغل بالعبادة، وتقبل عليها وحدها، حتى لا يكون فيك فضل.

وقال: أعرف طريقاً مختصراً يؤدي إلى الله سبحانه وتعالى، فقيل:

---

(١) قوله (اشتغل): الزاهد اشتغل عن نفسه بمخالفتها، والعارف اشتغل بنفسه في السير بها وترقيتها. وفي الحكم العطائية: لولا ميادين النفوس لما تحقق سير السائرين. (ع).

وما هو؟ قال: لا تأخذ من أحد شيئاً، ولا تسأل أحداً شيئاً، ولا يكن معك ما تعطي أحداً شيئاً.

وقال: لا يقوى على ترك الشهوات إلاّ من ترك الشبهات.

وقال الجنيد: كان السري يقول لنا ونحن حوله: أما لكم غيرة يا معشر الشباب! اعملوا فإنَّ العمل في الشبيبة.

وحكي أنَّه لما ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من غزلها، فأبطأتْ عليه يوماً فسألها عن ذلك، فقالت: لأن غزلي لم يُشْترَ اليوم، وذكروا أنَّه مختلط وأنَّ ما ظهر منه جيد وما خَفِيَ منه رديء، فامتنع السري من طعامها، ونوديَ أنْ لا يأكلَ من عندها شيئاً، ثم إنَّ أخته دخلت عليه ذات يوم فإذا عنده عجوز تكنس بيته وكانت تأتيه كل يوم بقرصين، فاغتمت أخته وأتت أحمد بن حنبل فشكت إليه أخاها، فقال له أحمد بن حنبل في ذلك، فقال: إني لما امتنعت من طعامها قيّض الله عزّ وجلّ إليّ الدنيا تخدمني وتأتيني بقُوْتي.

وقال ابن أبي الورد[1]: دخلت يوماً على السري وهو يبكي ودورقه[2] مكسور، فقلت له: مالك؟ فقال: انكسر الدورق، فقلت: أنا أشتري لك بدله، فقال: من أين تشتري بدله، وأنا أعرف الدانق الذي أُشْتُرِيَ به الدورق، ومَنْ عمِله، ومِنْ أين أخذ طِينه، وأي شيء أكل عامله، حتى فرغ من عمله.

وقال حسن البرخي: دفَع إليّ السري قطعة، وقال: اشتر لي بها باقلاء من رجل قِدرُه داخل الحانوت، فطفت الكرخ كله فلم أجد إلا من قدره خارج الحانوت.

---

(١) وهيب بن الورد بن أبي الورد (٠٠٠ ـ ١٥٣ هـ) المخزومي بالولاء: من العبّاد الحكماء. من أهل مكة. وفاته بها. كان من أقران إبراهيم بن أدهم.
«الأعلام» (٨/ ١٢٦).

(٢) دورق: قال في المعجم: هو مكيال للشراب فارسي معرب. قال الخفاجي: وأهل مكة يطلقونه على جرة للماء. «شفاء الغليل» للخفاجي (ص١٢٠).

وقال: ثلاث من لم يكنَّ فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وقال: وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لم يكن له وقت ينام فيه، وكان ينعس وهو قاعد، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا تنام؟ فقال: كيف أنام؟ إنْ نمت بالنهار ضيعت أمور الناس، وإن نمت بالليل ضيعت حظي من الله عزّ وجلّ.

وقال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت.

وقال الجنيد: كنت نائماً عند السري فنبهني، وقال لي: يا جنيد! الساعة رأيت كأني أوقفت بين يدي الله عزّ وجلّ، فقال لي: يا سري! فقلت: لبيك ربنا وسعديك، فقال لي: خلقت الخلق فكلهم ادَّعوا بمحبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء، فهرب منهم تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا للدنيا أردتم، ولا للجنة أخذتم، ولا من البلاء هربتم، فماذا تريدون؟ فقالوا: إنك لتعلم ما نريد، فقلت: إني سلطت عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي، أتصبرون؟ قالوا: إذا كنت أنت المبتلي لنا فافعل ما شئت فهؤلاء عبادي حقاً.

أقول: وهذا داخل تحت قوله ﷺ: «أول من يدعى يوم القيامة آدمُ، فيقول الله له: أخرج بعث النار، فيقول: يا رب! وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون»(١).

وقال مظفر بن سهل: سمعت ابن علان الخياط وكان قد جرى بيني وبينه ذكر مناقب السري، يقول: كنت يوماً جالساً مع السري، فجاءته امرأة،

---

(١) حديث «أول من يدعى»: أخرجه البخاري برقم (٣١٧٠، ٦١٦٤) ومسلم برقم (٣٧٩).

وقالت: يا أبا الحسن! أنا من جيرانك، وأخَذ ابني الطائفُ، وأخشى أنْ يؤذيه، فإنْ أردت أن تجيء معي، أو تبعث إليه، قال علان: فتوقعت أنْ يبعث إليه، فقام وكبر وطوّل صلاته، فقالت له المرأة: يا أبا الحسن! الله الله فيَّ، أخشى أنْ يؤذى ولدي، فسَلَّم وقال لها: أنا في حاجتك، فلم يكن إلاَّ أنْ جاءت امرأة أخرى، وقالت لها: قد أفْرجَ عن ولدك، اذهبي إليه، فتعجب رجل من سرعة إجابة دعائه، فقال له علان: لأي شيء تتعجب، اشترى كرّ لوز بستين ديناراً وكتب على العِدْل الذي هو فيه: ربحه ثلاثة دنانير، فارتفع السعر حتى صار الكر بتسعين ديناراً، فأتاه الدلال وقال: أريد ذلك اللوز، فقال: خذه، فقال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين ديناراً، فقال له الدلال: إنَّ اللوز قد صار بتسعين ديناراً، فقال: عقدت بيني وبين الله تعالى عزّ وجلّ عقداً لا أحله، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً، فقال له الدلال: إنّي عقدت بيني وبين الله تعالى عقداً أنْ لا أغش مسلماً، لست آخذه منك إلاّ بتسعين، فلا الدلال اشتراه منه ولا هو باعه، فكيف لا يستجاب دعاء من هذا فعله.

وقال أحمد بن خلف[1]: دخلت يوماً على السري فرأيت في غرفته كوزاً جديداً مكسوراً، فقال: أردت ماء بارداً في كوز جديد، فوضعته على هذا الرواق ونمت، فرأيت في منامي جارية مدنية[2]، فقالت لي: يا سري من يخطب مثلي يبرد الماء؟ ثم رمته برجلها، فاستيقظت من نومي فإذا هو مطروح مكسور. قال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يمسسه ولم يرفعه حتى عفا عليه التراب، وعلمت أنَّ مخالفة النفس وقمع الشهوات واللذات من دواعي الوصول، وشواهد المشاهد.

---

(١) أحمد بن خلف بن الحسين البرساني ـ نسبة إلى برسان: قرية من نواحي سمرقند ـ روى عن أحمد بن شاهديه البلخي، وروى عنه أبو عبدالله محمد بن الفضل بن سليمان العدوي. «اللباب» (١/ ١١٢). «هامش طبقات الصوفية» (ص١١١).

(٢) في «الحلية» (١٠/ ١٢٠): مزينة بدل مدنية.

وقال السري: لا تركن إلى الدنيا فتنقطع من الله حبلُك، ولا تمش في الأرض مرحاً فإنَّها عن قريب قبرك.

وقال: لو علمت أنَّ جلوسي في البيت أفضلُ من خروجي إلى المجلس ما خرجتُ، ولو علمت أنَّ انفرادي عن الناس أفضل ما جالستهم.

وقال: كنت مريضاً بطرسوس[1] فدخل عليَّ ثقلاء يعودونني وأطالوا، ثم قالوا: إنْ رأيت أنْ تدعو لنا، فقلت: اللهم علمنا أدبَ العيادة.

وقال: العارف هو الذي لا يطفىء نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلم في باطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله عزّ وجلّ.

وقال: ثلاثة أشياء لا يسكن معها في القلب غيرها: الخوف من الله تعالى وحده، والحياء من الله وحده، والأنس بالله وحده.

وقال: أربع من أخلاق الأبدال: استقصاء الورع، وتصحيح الإرادة، وسلامة الصدر للخلق، والنصيحة لهم.

وأربع يرفع الله بها العبد: العلم والأدب والدين والأمانة.

وثلاث من أخلاق المؤمنين: القيام بالفرائض، واجتناب المحارم، وترك الغفلة.

وثلاث من أخلاق الأبرار: كثرة الاستغفار، وخفض الجناح، ومداومة الصدق.

وثلاث من أبواب سخط الله عزّ وجلّ: اللعب، والاستهزاء، والغيبة. وأما عمود الدين وذروة سنامه فحسن الظن بالله تعالى.

وقال: اطلب حياة قلبك بمجالسة أهل الذكر، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، والتمس وجود الفكر في مواطن الخوف، وألح في المسئلة عند وَجَل

---

(١) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. «معجم البلدان» (٤/ ٢٨).

القلوب، وتزين لله تعالى بالصدق، وتحبب إليه بمحبة تعجيل الانتقال، وإياك والتسويف، ونافس الأبرار في إقامة الفرض، ونافس المقربين في إخلاص النوافل، وترك فضول الحلال، واطلب حلاوة المناجاة بفراغ القلب وجمع الهمّ، واستجلب زيادة النعم بكثرة الشكر.

وقال رضي الله عنه: استوصيت بشر بن الحارث[1] بوصية، فقال: أخاف أن أوصيك بوصية يكون وبالها عليّ وعليك، فقلت: عليَّ ذلك، فقال: انظر بأيِّ بدن توافي القيامة، وانظر من يحاسبك، وبين يدي من تقف، واعلم أنك مسؤول لا محالة، فأعدّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، والزَم بيتك، وحاسب نفسك، فإذا قدمت القيامة تقول: يا رب! ما زلت ملازماً لبيتي، محاسباً لنفسي، فيقول الله عزَّ وجلَّ: صدقت، ثم قال: هيهات أنَّى يقول صدقت إلا للصديقين، وانظر كل خطرة تخطر ببالك تستحيي منها أنْ يعلم بها جليسك فالله عزَّ وجلَّ أحق وأحرى أن يستحيا منه.

وقال الجنيد: كنت أسمع السري يقول: يبلغ العبد من الهيبة والأُنس إلى حدّ لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر. وكان في قلبي منه شيء حتى بان لي الأمر كذلك، وذلك لأنَّ الهيبة والأُنس حالتان فوق القبض والبسط، والقبض والبسط فوق الخوف والرجاء، فالهيبة مقتضاها الغَيْبَة والدهشة، فكل هائب غائب حتى لو قُطِّع قِطَعاً لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه، والأُنس مقتضاه الصحو والإفاقة. ثم إنَّهم يتفاوتون في الهيبة والأُنس؛ وقيل: أدنى مرتبة في الأُنس أنَّه لو أُلقِيَ في النار ما تكدّر أنسُه، ألا ترى إلى قول السري: يبلغ العبد من الهيبة والأُنس إلى حدٍّ لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر؛ وذلك لأنَّ الأنس يتولد من السرور بالله، ومن صحَّ له الأُنس بالله تعالى استوحش مما سواه.

---

(١) بشر بن الحارث بن علي (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ) أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل مرو، سكن بغداد وتوفي فيها. «الأعلام» (٢/ ٥٤).

وقيل لبعضهم: يذوق العبد حلاوة الأنس؟ فقال: نعم، إذا قطع العلائق، ورفض الخلائق، وغاص في الحقائق، مطلعاً على الدقائق.

وقال الشبلي[1]: من استأنس بالله عزَّ وجلَّ استوحش من خلقه، ومن استوحش من خلقه صار فرداً بين يديه جلَّ جلاله، وحالتا الهيبة والأنس وإنْ جَلَّتا فأهل الحقيقة يعدّونها نقصاً لتضمنها تغير العبد، فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغير، فلهم كمال في المحو[2]، ووجود في العين، فلا هيبة لهم، ولا أنس، ولا عِلم، ولا حس.

وقال السري رضي الله عنه: عمل قليل في سُنَّة[3] خير من كثير من بدعة، كيف بعمل مع هوى.

وقال: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

وقال: كنت يوماً أتكلم بجامع بغداد، فوقف عليّ شاب حسن الشباب فاخر الثياب، ومعه أصحابه، فسمعني أقول في وعظي: عجباً لضعيف يعصي قوياً، فتغير لونه فانصرف، فلما كان من الغد جلست في مجلسي وإذا بالفتى قد أقبل، فسلم وصلى ركعتين، وقال: يا سري! سمعتك بالأمس تقول: عجباً لضعيف يعصي قوياً، فما معناه؟ قلت: لا أقوى من الله عزَّ وجلَّ، ولا أضعف من العبد وهو يعصيه. فنهض وخرج. ثم أقبل عليّ من الغد، وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد، فقال: يا سري! كيف الطريق إلى الله عزَّ وجلَّ؟ فقلت: إنْ أردت العبادة، فعليك بصيام النهار وقيام الليل، وإن أردت الله

---

(١) الشبلي: دُلَف بن جَحْدَر (٢٤٧ ـ ٣٣٤ هـ) خراساني الأصل، بغدادي المنشأ والمولد. تاب في مجلس خير النسّاج. وصحب الجنيد. وكان عالماً فقيهاً على مذهب مالك. دفن في مقبرة الخيرزان. وقبره ظاهر. «طبقات الصوفية» (٣٣٧).

(٢) قوله (كمال في المحو): ومن ذلك أن الإمام الجنيد حضر مجلس سماع، فتواجد القوم وبكوا وصاحوا، والجنيد مغمض عينيه، فقيل له في ذلك. فقال: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ (ع).

(٣) قوله (في سُنَّة): ومن هذا قولهم: الاقتصاد في السُّنَّة خير من الاجتهاد في البدعة (ع).

عزَّ وجلَّ فاترك كلَّ ما سواه تصلْ إليه وليس إلا المساجد والخراب. فقام وهو يقول: والله لا سلكت إلا أصعب الطرق؛ وولّى خارجاً، فلما كان بعد أيام جاءني غلمان جماعته، فقالوا: ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب؟ فقلت: لا أعرفه، إلا أنَّ رجلاً جاءني صفته كذا وكذا وأخبرتهم بما جرى لي معه، ولا أعلم حاله، فقالوا: نقسم عليك بالله متى عَرَفْتَ خَبَرَه عَرِّفنا، ودلونا على داره، فبقيت سنة لا أعرف خبره، فبينا أنا ذات ليلة بعد العشاء الآخرة في بيتي إذا بطارق يطرق الباب فأذنت له بالدخول، فإذا بالفتى عليه قطعة من كساء في وسطه وأخرى على عاتقه، ومعه زنبيل فيه نوى، فقبلني بين عيني، وقال: يا سري أعتقك الله عزَّ وجلَّ من النار كما أعتقتني من الدنيا، فأومأت إلى صاحبي أنِ امض إلى أهله فأخبرهم فمضى، فإذا بزوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه، فدخلت وألقت ولده في حجره وعليه حلى وحلل، وقالت له: يا سيدي! أرملتني وأنت حيّ، وأيتمت ولدك وأنت حيّ. فنظر إليّ، وقال: يا سري ما هذا؟ ثم أقبل عليها فقال: واللهِ إنَّكِ لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي، وإنَّ هذا ولدي لأعزُّ الخلق عليّ، غير أنَّ هذا السري أخبرني أنَّ مَنْ أراد الله سبحانه وتعالى قطع كلَّ ما سواه، ثم نزع ما على الصبي وقال: ينبغي أنْ يكون هذا في الأكباد الجياع والأجساد العارية، وخرق قطعة من كسائه فلفَّ بها الصبي، فقالت المرأة: لا أرى ولدي في هذه الحالة وانتزعته منه، فحين رآها قد اشتغلت به نهض، وقال: ضيعتم عليّ ليلتي، بيني وبينكم الله، وولّى خارجاً فضجت الدار بالبكاء. فلما كان بعد مدة أتت عجوز فقالت: يا سري! بالشونيزية غلام يسألك الحضور، فقمت معها إليه، فإذا به مطروح تحت رأسه لبنة، فسلَّمت عليه ففتح عينه فقال: يا سري! وعليك السلام، أترى يغفر الله لي تلك الجنايات؟ فقلت: نعم، فقال: يغفر لمثلي؟ أنا غريق، قلت: هو سبحانه منجي الغرقى، فقال: عليّ مظالم، فقلت: في الخبر «إنَّه يؤتى بالتائب يوم القيامة ومعه خصومه، فيقال لهم: خلوا عنه فإنَّ الله تعالى يعوضكم»[1]. فقال:

---

(١) في الخبر «إنه يؤتى بالتائب»: لم أجده.

يا سري! معي دراهم من لقطة النوى، إذا أنا متُّ فجهزني بها، ولا تُعْلِم أهلي لئلا يغيروا كفني بغيره من مالهم، فجلستُ عنده قليلاً ففتح عينيه، وقال: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات: ٦١]. ثم مات رحمه الله فجهزته بتلك الدراهم، فرأيت النَّاس يُهْرعون، فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: مات وليّ من أولياء الله نريد أن نصلي عليه فصلينا عليه ودفناه، فلمَّا كان بعد مدة أرسل أهله يستعلمون خبره، فأخبرتهم بموته، فأقبلتِ امرأته باكية فأخبرتها بحاله، فسألتني أنْ أريها قبره، فقلت: أخاف أنْ تغيروا أكفانه، قالت: لا والله، فأريتها القبر فبكت، وأمرت بإحضار شاهدين، وأعتقت جميع الرقيق من الرجال والنساء، ووقفت جميع عقارها وتصدّقت بمال كثير، ولزمت عبادة الله تعالى إلى أن ماتت رحمها الله تعالى.

وقال رضي الله عنه: اتق الإخوان ولا تأمنهم على سرك، واحذر إخوان السوء، واتهم صديقك كما تتهم عدوك.

قلت: وما أحسن ما قيل من هذا القبيل:

احذرْ عدوَّك مرَّةً   واحذرْ صديقك ألف مرَّه
فلربما انقلب الصديق   فكان أعرفَ بالمضرَّه

وقال رضي الله عنه: خرجنا يوماً من مكة نريد بعض المواطن، فلما أصحرنا رأيت في مجرى السيل باقة بقل، فمددت يدي فأخذتها، وقلت: الحمد لله رب العالمين، ورجوت أنْ تكون حلالاً ليس لمخلوق فيها منة، فقال لي بعض من رآني: يا أبا الحسن! التفتْ، فالتفتُّ فإذا مثل الباقة كثير، فقال: خذ هذا، فقلت: الباقة الأولى ليست لأحد فيها منَّة، وهذا بدلالتك فيه منة.

وقال علي بن عبد الحميد الغضايري: دققت الباب على السري، فسمعته من وراء الباب وهو يقول: اللهم أشغلْ مَنْ شغلني عنك بك. فكان من بركة دعائه أنِّي حججت أربعين حجة من حلب ماشياً ذاهباً وآيباً.

وقال: خير الرزق ما سلم من الآثام في الاكتساب والمذلة والخضوع، وكان سليماً من الغش في الصناعة، ومعاملة الظلمة.

وقال: أقوى الناس من ملك غضبه.

ويحكى أنَّه قال: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي مرة: الحمد لله، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني واحد وقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله! فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً من الناس.

ونُقِل عن أحمد بن عمرو أنَّه قال: خرجت مع السري يوم العيد من المسجد، فلقي رجلاً جليلاً فسلَّم عليه سلاماً ناقصاً، فقلت له: إنَّ هذا فلان، قال: قد عرفته، قلت: فلم نقصته في السلام، قال: لأنَّه يروى عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إذا التقى المسلمان قسمت بينهما مائة رحمة تسعون لأبشهما بصاحبه»[1] فأردت أن يكون معه الأكثر.

قال في «مجمع الأحباب»: اعلم أنَّ هذا فضل جليل جميل منشؤه الورع، وقد تضمن القربة ومطلق الإيثار بها ولا بأس ببيانهما، أما القربة فهي كل عبادة لا يُراد بها إلا الله عزَّ وجلَّ وابتغاء رضوانه، وأما مطلق الإيثار بالقربة فتارة تكون للنفس، وتارة تكون للغير، وكل منهما يقع على أنواع.

الأول: الإيثار بالأنفس والأرواح والأموال، كما فعل الصحابة من المهاجرين والأنصار في بذلهم أنفسهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ لتكون كلمة الله هي العليا، فأقام الله بهم هذا الدين، واختارهم لصحبة سيد المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد تضمنت أقوالُهم مع قصدهم له كل القصد أيضاً فداء النبي ﷺ ونصره، فيا حبذا الفداء وما أعظم هذه السعادة، وما أكبر هذه السيادة التي امتازوا بها عن سائر الأمّة، فإنَّها سعادة ليس فوقها سعادة بالنسبة للمؤمنين، فإنَّ كلَّ من جاء بعدهم من المؤمنين في ميزانهم، فالسعادة التي حصلت لهم برسول الله

---

(١) حديث «إذا التقى المسلمان»: أخرجه الحكيم، وأبو الشيخ عن عمر. «كنز العمال» (٩/٢٥٢٤٥).

ﷺ، ما نالها غيرهم فهنيئاً لهم رضي الله عنهم ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ [الفتح: ٢٦] وجميع ما فعلوا هو نيّة كل مؤمن وسبيله لو وجد إلى ذلك سبيلاً، قال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ الآية [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الآية [الأحزاب: ٦]، وقال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ الآية [الأنفال: ٦٢].

ومن نظر إلى الآيات الكريمة، وفي سيرة النبي ﷺ، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، علم أنَّهم قد أخذوا من ذلك بالحظِّ الأوفى، وأنَّ استيفاء ذلك يستدعي مجلدات كثيرة.

فمن ذلك: خبر الغار وهو مشهور، ومبيت عليّ على فراش رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة، وما صنعه طلحة بن عبد الله أحد العشرة رضوان الله عليهم يوم أحد، حتى أنَّ خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا ذُكر عنده يوم أحدٍ قال: ذاك يوم كان كله لطلحة، وما كان يفعله أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه حين كان ينسل كنانته[1] ويقول: وجهي لوجهك يا رسول الله الفداء، ونفسي لنفسك يا رسول الله الفداء. وما قاله خبيب بن عدي لما أخذه المشركون وهم يقطعون لحمه، ويقولون له: أتحبُّ أنَّك في أهلك ومالك وأنَّ محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحبُّ أني في أهلي ولا مالي وأنَّ محمداً ﷺ يشاكُ بشوكة؛

وما قاله عبد الله بن جحش رضي الله عنه على ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال لي عبد الله بن جحش رضي الله عنه يوم أحد: ألا ندعو الله! فخَلَوا في ناحية، فدعا عبد الله بن جحش، فقال: يا رب إذا لقيتُ العدو فلقِّني رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حردُه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم

---

(١) ينسل كنانته: يخرج سهامها بسرعة.

يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلتك يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط. والنفرُ الذين قتلوا واحداً بعد واحد، وكان آخرهم يزيد أو عمارة وقد أثخن بالجراح، فقال رسول الله ﷺ: «أدنوه مني» فأدنوه حتى وضع خده على قدم رسول الله ﷺ ومات كذلك.

والمرأة التي مرَّت على القتلى بأحد لما نَعَوا أهلها لها وصاروا يقولون: هذا أبوك وأخوك وزوجك، وهي تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان فهو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأُشير إليه حتى إذا رأته أسرعت إليه وأخذت بناحية ثوبه، وهي تقول: بأبي وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمتَ عن عطب. زاد في رواية: وكل مصيبة بعدك جلل. أي: قليل.

وأما الذين قتلوا وعذبوا في الغزوات وغيرها فخلائق كثيرون، وما سار ﷺ في غزاة ولا غيرها إلا وكانوا عن يمينه ويساره، ومن بين يديه ومن خلفه، يفدونه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم إلى غير ذلك مما هو مشهور معروف.

والإيثار في هذا النوع واجبٌ على كل مؤمن بالإجماع، لوقوعه فرضُ عين بالنسبة إلى الجهاد، وفرض كفاية بالنسبة إلى فداء النبي ﷺ.

الثاني: من الإيثار أيضاً بالأنفس والأموال:

الجهاد في سبيل الله من بعد رسول الله ﷺ كما فعل الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم من المؤمنين مِنْ إدامة الجهاد وفتح البلاد، وحالهم في ذلك ينقسم إلى: فرض عين، وفرض كفاية. لأنَّ الكفار إنْ دخلوا بلاد الإسلام لأخذها كان الجهاد فرض عين، وإلاَّ فهو فرض كفاية. وقد قام المؤمنون والحمد لله بالقسمين أتمَّ القيام ولن يزالوا على ذلك إلى أن تقوم الساعة ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الجمعة: ٤].

الثالث: من الإيثار بالأنفس والأموال على سبيل المخاطرةِ مع ظن السلامة:

القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلفاء والأمراء والسلاطين وغيرهم وهذا فرض كفاية، ولم تزل الأمة سلفاً وخلفاً قائمين بذلك مهما وجدوا إليه سبيلاً، كسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن أبي ذئب، وغيرهم.

الرابع: من الإيثار أيضاً بالأنفس:

القيام لنصرة الدين، وقد فعل جماعات من الأئمة امتُحِنوا في الدين يعني في مسألة خلق القرآن، فآثروا بأنفسهم حفظاً له كالإمام أحمد بن حنبل وأحمد بن نصر الخزاعي وأبي يعقوب البويطي[1] وغيرهم، فبعضهم ضُرِب وبعضهم قتل، وبعضهم سلم.

قال أحمد بن حنبل عن أحمد بن نصر الخزاعي: رحمه الله ما كان أسخاه لقد جادَ بنفسه. وقال أبو يعقوب البويطي لما حُمِل من مِصر إلى بغداد مقيداً بقيد فيه سلسلة من رجله إلى عنقه نحو أربعين رطلاً: لئنْ دخلت عليه لأصْدُقَنَّه وأموت في حديدي هذا، حتى يأتي قوم فيعلمون أنَّه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم.

وهكذا وقع فإنه رضي الله عنه لمّا دخل على الواثق صَدَقه ولم تأخذه لومة لائم، فأمر بحبسه إلى أن مات محبوساً في حديده. وهذا من كرامات الشافعي ومناقب البويطي رضي الله عنهما.

الخامس: الإيثار الواقع بين المؤمنين بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وهو كثير:

---

(١) يوسف بن يحيى (٠٠٠ ـ ٢٣١ هـ) البُوَيْطي: صاحب الإمام الشافعي، قام مقامه في الدرس والإفتاء بعد وفاته. وهو من أهل مصر، نسبة إلى بويط (من أعمال الصعيد الأدنى)، مات في سجن الواثق ببغداد «الأعلام» (٨/ ٢٥٧).

فمن ذلك النفر الثلاثة الذين ماتوا عطشاً في واقعة اليرموك في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سنة خمس عشرة، وهي أنَّ بعض الصحابة رضي الله عنهم قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شربة ماء، وأنا أقول: إنْ كان فيه رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أتشرب؟ فأشار إليّ أنْ نعم، فإذا رجل يقول: آه العطش! آه العطش، فأشار إليّ ابن عمي أنْ اسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فمضيت إليه وقلت له: أتشرب؟ فأشار إليّ أنْ نعم، فسمع هشام شخصاً يقول: آه العطش، فأشار إليّ أنْ اسقه، فانتهيت إليه لأسقيه فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام فإذا به قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمي فإذا به قد مات، فتعجبت من هذا الإيثار مع شدة الاضطرار.

ومن ذلك ما حكاه الإمام أبو القاسم الكلاباذي ـ قدس الله سره ـ قال: سمعت بعض الفقراء يقول: كنت سنة الهرير مع الناس، فانقلبت ثم رجعت، وكنت أطوف بين الجرحى، فرأيت أبا محمد الجريري[1] ـ رضي الله عنه ـ وكان قد نيف على المائة، فقلت: يا شيخ! ألا تدعو فيكشف ما ترى! فقال: قد دعوت، فقال سبحانه وتعالى: إني فعَّال لما أشاء، فأعدت عليه فقال: يا أخي! ليس هذا وقت الدعاء! هذا وقت الرضا والتسليم، فقلت: هل لك من حاجة؟ فقال: أنا عطشان، فجئت بماء فأخذه وأراد أن يشرب، فنظر إلى قوم ينظرون إلى الماء، فقال: هؤلاء عطاش وأنا أشرب، لا، هذا شره، فردَّه علي ومات من ساعته رضي الله عنه.

ومن ذلك واقعة إبراهيم التيمي[2] ـ رضي الله عنه ـ مع الحجاج لما طلب

---

(١) أحمد بن محمد بن الحسين (٠٠٠ ـ ٣١١ هـ) الجَريري: من كبار أصحاب الجنيد، وصحب أيضاً سهلاً التستري، وهو من علماء مشايخ القوم. أقعد بعد الجنيد في مجلسه، لتمام حاله، وصحة علمه. «طبقات الصوفية» (٢٥٩).

(٢) إبراهيم بن يزيد التيمي: يروي عن عمر وأبي ذر والكبار، كان شاباً صالحاً قانتاً لله عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً. يقال: قتله الحجاج. وقيل: بل مات في حبسه سنة (٩٢). وقيل: (٩٤).=

إبراهيمَ النخعي غلط رسوله فظنَّ أنَّ المطلوب إبراهيم التيمي، فجاء وأخذه إلى الحجاج، فأمر بحبسه فمات في السجن، وكان قد علم إبراهيم التيمي أنَّ المطلوب إنما هو إبراهيم النخعي فلم يستجز[1] أنْ يدل عليه وفداه بنفسه رضي الله عنهما.

ومن ذلك ما حكاه في «بهجة الأسرار» قال: حدثنا أبو بكر محمد بن داود، قال: سمعت أبا بكر البويطي وأبا عمرو بن الأزدي يقولان ـ وكانا متواخيين في الله عزَّ وجلَّ ـ: خرجنا من بغداد نريد الكوفة، فلما صرنا ببعض الطريق إذا نحن بسبُعين رابضين في الطريق، فقال أبو بكر لأبي عمرو: أنا أكبر سناً منك دعني حتى أتقدمك، فإنْ كانت حادثة اشتغلوا بي عنك ونجوت أنت، فقال أبو عمرو: إنَّ نفسي ما تسامحني بهذا، ولكن نكون جميعاً في مكانٍ واحد فإنْ كانت حادثة كنا جميعاً، فجازا جميعاً في وسط السبعين، فلم يتحركا ومرا سالمين. قال الشيخ أبو بكر: هذا ميراث الموافقة في المحبة لله عزَّ وجلَّ.

ومن ذلك واقعة أبي الحسين النوري[2] ـ رضي الله عنه ـ لما سُعِيَ به إلى الخليفة في جماعة وأمر بضرب أعناقهم، فسَبَق النوري إلى السياف، فقال له: أتدري إلى ماذا تسارع؟ قال: نعم إلى القتل، قال له: وماذا دعاك إلى هذا؟ قال: أوثر أصحابي بحياة لحظة. فتحير السياف من هذا الكلام، وأوصل الخبر إلى الخليفة، وكان ذلك سبب نجاته ونجاة أصحابه.

ومن ذلك ما حكاه ابن سعد[3] في «الطبقات» عن محمد بن عمر بن واقد

= لم يبلغ إبراهيم أربعين سنة. «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٦٠).

(١) في المخطوطة: فلم يستخسر. وما أثبتناه من المطبوعة.

(٢) أحمد بن محمد (٠٠٠ ـ ٢٩٥ هـ) أبو الحسين النوري: بغدادي المنشأ والمولد، خراساني الأصل، من أجلّ مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن في وقته أحسن طريقة منه، ولا ألطف كلاماً. أسند الحديث. «طبقات الصوفية» (١٤٦).

(٣) محمد بن سعد بن منيع (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ) مؤرخ، ثقة، من حفاظ الحديث. ولد في البصرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها. وصحب الواقدي المؤرخ زماناً. «الأعلام» (٦/ ١٣٦).

الأسلمي قال: تضيقت مرة في يوم عيد بحيث إنَّ الجارية قالت: ليس في البيت ما نفطر عليه، فقصدت بعض أصحابي من التجار في الاستقراض منه، فقال لي: والله ما عندي غير هذا الكيس فيه ألف دينار ومائتا درهم، فخذه، قال: فلما جئت إلى منزلي جاءني صديق لي هاشمي، وذكر حاجة وسألني القرض، فدخلت إلى الزوجة وأخبرتها خبر الهاشمي، فقالت لي: على أي شيء عزمت؟ قلت لها: أدفع إليه البعض وأترك البعض لحاجتنا، فقالت: لا والله ما هذا إنصاف، أنت جئت إلى سُوقي فأعطاك جميع ما عنده، وقد أتاك هاشمي ابن عم رسول الله ﷺ تدفع إليه بعض ما عندك، ادفع إليه الكيس على حاله، قال: فدفعت إليه الكيس على حاله، فلما ذهب به الهاشمي إلى منزله وجد ذلك التاجر الذي أقرضني جالساً على باب داره، فقام إليه وسأله القرض، فأخرج له الهاشمي ذلك الكيس بعينه فعرفه، فوصل الخبر إليّ فمضيت إلى دار يحيى بن خالد البرمكي وأخبرته الخبر، فقال: يا غلام هات ذلك الكيس، فأخرج كيساً فيه عشرة آلاف دينار، فقال: ألفا دينار لك، وألفا دينار للهاشمي، وألفا دينار للتاجر، وأربعة آلاف دينار لزوجتك لأنها أكرمكم.

ومن ذلك ما حكاه الإمام أبو الفرج ابن الجوزي قال: قال عبد الله ابن أخت مسلم: أردت الحجَّ، فدفع إليّ خالي مسلم عشرة آلاف درهم، وقال: إذا قدمت المدينة فانظر أفقر أهل بيت بها وادفعها إليه، قال: فلما دخلت المدينة سألت عن أفقر بيت بها فدللت على أهل بيت فطرقت الباب، فأجابتني امرأة: من أنت؟ فقلت: رجل من بغداد أودعت عشرة آلاف درهم وأمرت أن أسلمها إلى أفقر أهل بيت في المدينة، وقد دللت عليكم فخذوا هذا المال، فقالت: يا عبد الله! إنَّ صاحبك اشترط أنْ تدفعها إلى أفقر أهل بيت في المدينة، وهؤلاء الذين هم جيراننا بإزائنا أفقر منا، قال: فتركتهم وأتيت أولئك فطرقت الباب، فأجابتني امرأة: من أنت؟ فقلت لها مثل ما قلت لتلك، فقالت: يا عبد الله! نحن وجيراننا في الفقر سواء فقسمتها بينهم.

ومن ذلك أنَّ الأستاذ أبا حفص النيسابوري[(١)] ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى منزل الجنيد، فقام إليه وعانقه، فقال له أبو حفص: دعنا من هذا، عندك شيء تطعمنا؟ قال: أي شيء يشاء الشيخ؟ قال: أريد بطيخاً، فأمر الجنيد بعض أصحابه بإحضار ما قال، فلما حضر البطيخ قال: يا أخي! أحببت أن أوثر به لله عزَّ وجلَّ، فقال: إنّي أحبُّ ما تحبّ، ثم قال الجنيد لبعض أصحابه: احمل هذا مع الشيخ إلى أين عزم، فقام معه إلى أنْ وصل داراً فدقَّ الباب، فإذا بشخص من داخل الباب يقول: ادخل إنْ كان معك بطيخ، فدخلنا فإذا بشيخ قاعدٍ وخيش مرسل على باب، فقال أبو حفص: فوضعت البطيخ وصرفت الذي حمله، ثم قلت للشيخ: أخبرني عن أمر هذا البطيخ، فقال: وراء هذه الخيشة صبيان وبنات سألوني البطيخ منذ مدة ولم تسامحني نفسي أنْ أسأل الله تعالى لهم في ذلك، ثم وجدت البارحة مسامحةً أنْ أسأل الله تعالى فسألته وعلمت إجابة الدعاء بوجود المسامحة بالسؤال، فلما وقفتَ على الباب علمت ما معك.

السادس: الإيثار بالحقوق إذا تضمن ذلك الإيثار مصلحة راجحة لا مانع منها، خاصة كانت أو عامة، فمما تضمن مصلحة راجحة عامة: ما فعله سيدي وابن سيدي أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ حيث ترك الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين. فقد تضمن هذا الإيثار حفظ مُهَجٍ[(٢)] لا يحصيهم إلا الله تعالى، وقد صرح بذلك الحسن رضي الله عنه، فإنَّه لمَّا سأله معاوية أنْ يعلم الناس بتسليم الأمر إليه، قام على المنبر وقال بعد أنْ خطب: إنَّ الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وظهرت المعجزة النبوية حيث قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من

---

(١) أبو حفص النيسابوري: عمرو بن سلمة (٠٠٠ ـ ٢٧٠ هـ) من أهل قرية يقال لها: كوردابازذ على باب مدينة نيسابور إذا خرجت إلى بخارى. «طبقات الصوفية» (١١٥).

(٢) مُهَج: المُهجة: الدم، وقيل: دم القلب خاصة. وخرجت مهجته: أي روحه. «مختار الصحاح» (٦٣٧).

المسلمين»[1] فانظر إلى هذا الإيثار ما أعظمه وإلى نفسه الكريمة ما أسخاها وأكثر تقواها، فسبحان من أعطاها، قال تعالى: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وأفراد هذا النوع كثيرة وضابطه حصول المصلحة الراجحة حيث لا مانع منها خاصة كانت أو عامة.

السابع: الإيثار بالقُرَب البدنية: كمن مات وعليه صوم، فإنَّ وليه يصوم عنه على القديم الصحيح الذي يفتى به. والإيثار بهذا النوع وأمثاله من أعظم القُرَب وأحسنها لما فيه من تأدية الفرض عن الغير مع تضمنه للبرّ وصلة الرحم. وأفراد هذا النوع كثيرة منها: الدعاء للوالدين والأقربين والمشايخ وسائر السلف الصالحين الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة والترضي عنهم والترحم عليهم والاستغفار لهم.

ومنها أيضاً: قراءة القرآن وإهداء الثواب لهم عند من يرى وصوله وقد اختاره وأفتى به جماعة من الأئمة من أصحابنا وغير أصحابنا وقد تضمن هذا البرّ وصلة الرحم والمعروف.

والثامن: الإيثار بالقُرَب الجامعة بين البدنية والمالية كالحج مثلاً فقد قال الأئمة رحمة الله عليهم: إذا حجَّ عن أحد أبويه أو قريبه أو أجنبي تبرعاً أنَّه أفضل مما إذا حجَّ عن نفسه تطوعاً، اتفق الأصحاب على ذلك لما فيه من تأدية الفرض عن الغير مع تضمنه البرّ أو صلة الرحم أو المعروف بسبب المحجوج عنه، والإيثار بهذا النوع مستحب مؤكد.

التاسع: الإيثار بالقُرَب المالية فقط، وأفراد هذا النوع كثيرة: كالصدقة عن الأموات من الوالدين والأقارب والأجانب بالطعام والشراب والفاكهة والثياب والخبز وغير ذلك. ولم يزل المؤمنون يعتادون ذلك، وهو أيضاً من أفضل

---

(١) حديث: «إن ابني هذا سيد» أخرجه البخاري برقم (٢٧٠٤) و(٣٦٢٩)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والنسائي (٣/ ١٠٧)، والترمذي (٣٧٧٣)، وغيرهم.

أنواع القرب وأعظمها لما فيه من البرّ وصلة الرحم والمعروف وسد الخلة بحسب المتصدق عنه، ولا يخفى استحباب ذلك والله أعلم.

العاشر: من الإيثار أيضاً بالقُرَب المالية: صدقة التطوع على الفقراء والمساكين من الأقارب والأجانب، وأقسام هذا النوع وتفصيل مسائله وتحريرها تعرف من محالِّها، وأفراده كثيرة: منها وهو أعمها نفعاً: الوقف والعتق والتدبير والكتابة وفكُّ الأسارى، وإقراض المحتاجين وإنظار المعسرين والوضع عنهم، وإعانة المكاتبين، ووفاء دين الغارمين، وتجهيز جيش المسلمين للجهاد في سبيل الله تعالى، إلى غير ذلك.

والإيثار بهذا وأمثاله من أعظم القُرَب وأحسنها وأعمها نفعاً لما فيه من الصدقة الجارية الدائمة، وتفريج الكربات والبرّ وصلة الرحم، وحفظ دار الإسلام، وإسداء المعروف، وسد خلة المسلمين، وتحرير الرقاب لا سيما إنْ كان والداً أو قريباً مع إنَّ الوالد يعتق بمجرد الشراء، ولهذا قال ﷺ: «لن يجزي ولد عن والده إلا أنْ يجده مملوكاً فيشتريه فيعتق عليه»[1]، إلى غير ذلك.

الحادي عشر: الإيثار بالسبق في القربة، ليحوز السابق بها فضيلة السبق، وإنما كان ذلك قصداً صالحاً لرجوعه إلى النصيحة للمؤمنين والشفقة عليهم، كما حكاه الإمام أبو القاسم الكلاباذي ـ قدس الله روحه ـ عن أبي عثمان الحيري[2] ـ رضي الله عنه ـ أنَّه استأذن شيخه الأستاذ أبا حفص النيسابوري ـ رضي الله عنه ـ في الكلام على الناس، فقال له: وما يدعوك إلى هذا؟ قال: النصيحة لهم والشفقة عليهم، فقال: وما بلغتَ من شفقتك؟ قال: لو علمت أنَّ الله تعالى يعذبني بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة لوجدت من قلبي رضاً

---

(١) حديث: «لن يجزي» أخرجه مسلم برقم (١٥١٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (١٠). وغيرهم.

(٢) الحيري: سعيد بن إسماعيل بن سعيد (٠٠٠ ـ ٢٩٨ هـ) أبو عثمان النيسابوري: أصله من الرّي. رحل إلى نيسابور إلى أبي حفص وأخذ عنه طريقته. أسند الحديث. مات بنيسابور. «طبقات الصوفية» (١٧٠).

بذلك، فأذن له، ثم إنَّ الأستاذ أبا حفص شهد مجلسه من حيث لا يشعر، فلما قضى أبو عثمان كلامَه قام سائل فسبق أبو عثمان فأعطاه ثوباً كان عليه، فقال الأستاذ: ما وفيتَ بقولك، فإياك أنْ تتكلم على الناس وفيك هذا الشره، فقال أبو عثمان: وما ذاك يا أستاذ؟ فقال: أما كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أنْ تؤثرهم على نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم، فطالبه بتحقيق الصدق واستواء السريرة والعلانية لتحقيق قوله بفعله، فلمَّا لم ير منه الوفاء بذلك نهاه عن الكلام على الناس.

وهذا الذي قاله الأستاذ أبو حفص ـ رضي الله عنه ـ يرجع في الحقيقة إلى ما قصده الإمام أبو الحسن السري ـ رضي الله عنه ـ حيث أراد أنْ يكون حظ ذلك الرجل أكبر، فقد اتفقا على مشرب واحد بين النصيحة للمسلمين والشفقة عليهم، إذْ كل واحد منهما أراد أنْ يكون حظ أخيه المسلم من الآخر أكثر وأوفر وهذا بمجرده قصد جليل جميل كما سيأتي بيانه إنْ شاء الله تعالى.

واعلم أنَّ مطلق السبق بالقربة لا تقتضي الرجحان على المسبوق، لاحتمال أنْ يأتي المسبوق بمرجح آخر ينغمر فيه ذلك السبق، اللهم إلا إذا تساوى الفعلان من كل وجه وكان أحدهما أسبق، فمن هنا يحصل الرجحان للسابق لحيازته فضيلة السبق والله أعلم.

الثاني عشر: الإيثار بالصف الأول من الصلاة وهو خلاف الأولى، أطلق الأصحاب ذلك، ويحتمل أنْ يقال: إنْ كان المُؤْثِر هو الفاضل فإيثاره خلاف الأولى وقد ينتهي إلى الكراهة، وإنْ كان المؤثر هو المفضول فلا يكون إيثاره خلاف الأولى.

ويستدل على ذلك بما فعله أبو أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مع ابن أبي مُليكة، قال ابن أبي مليكة: كنت في الصلاة في الصف الأول، فلم أشعر إلا وشخص من ورائي قد اقتلعني من مكاني وأخرجني منه وثبت فيه، فلما فرغت من الصلاة نظرت فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال: لا يسؤك

الله يا هذا! إنَّ هذا عَهِد النبي ﷺ به إلينا، قال ﷺ: «ليلني منكم أولوا الأحلام والنهى»(١).

ومن هذا النوع: الإيثار بالإمامة في الصلاة، حيث صحَّ الاقتداء بها وكان المؤثر أفضل فإنَّ إيثاره بها خلاف الأولى.

ومسائل هذا النوع كثيرة مشهورة والتقدم فيها إنما هو بالفضائل.

ومنه: إذا وقع تهاجر بين اثنين وكان أحدهما أفضل فإنَّ الأولى أنَّ الفاضل هو الذي يبتدىء بالسلام وإزالة الوحشة، فلو أراد الفاضل إيثار المفضول بذلك كان ذلك خلاف الأولى ألا ترى إلى ما رُوِيَ عن محمد بن الحنفية ـ رضي الله عنه ـ لما كان بينه وبين أخيه الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ نوع تهاجر كيف أرسل محمد ابن الحنفية يقول له: يا أخي لولا أنَّك أحق بالفضل مني لأتيتك وبدأتك بالسلام، فعرف الحسين ـ رضي الله عنه ـ ذلك فجاء إليه وبدأه بالسلام. وقد قال أرباب السير: إنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ لما كان بالبصرة جلس على سرير وأجلس الحسن عن يمينه والحسين عن يساره، وجلس محمد ابن الحنفية دون السرير، فخاف علي ـ رضي الله عنه ـ أنْ يجد ذلك فقال: يا بُني! أنت ابني، وهذان ابنا رسول الله ﷺ.

الثالث عشر: طلاقة الوجه، والبش في وجه أخيك المسلم، وزيادة الاستبشار به والابتهاج له، والزيادة في حسن التحية مطلوب، وكلما كان أكثر طلاقة وأحسن تحية واستبشاراً وابتهاجاً بأخيه المسلم كان أفضل، وأجره أكثر، فلو أراد الإيثار ببعض ذلك ليكون أجر أخيه المسلم أكثر كما قصد سيدي أبو الحسن السري ـ رضي الله عنه ـ كان ذلك قصداً صالحاً، وإيثاراً جميلاً، حيث أراد لأخيه المسلم أكثر مما أراد لنفسه وآثره بزيادة الأجر فهو إيثار بمجرد حظ نفسه لا تعلق للغير فيه مع مشاركته في الأجر، وحصول الفضيلة، وإنما اختص

---

(١) حديث: «ليلني منكم»: أخرجه مسلم برقم (٤٣٢)، وأحمد (٤/ ١٢٢)، وابن خزيمة (١٥٤٢)، والطيالسي (٦١٢)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ٨٧)، وغيرهم.

ذلك بزيادة الأجر، وإذا علم الله عزَّ وجلَّ من عبده الصدق في قصده فإنَّه يثيبه ثواباً آخر، ويضاعف أجره بحيث انَّه قد يربو على ذلك الأجر الذي آثر به، فيثابان جميعاً ثواباً وافياً، ذاك لزيادة الاستبشار وطلاقة الوجه، وهذا لحسن قصده الصالح الجميل لأخيه المسلم.

ومن هنا يظهر لك حسن قصد سيدي السري رضي الله عنه، وأنَّه جليل جميل منشؤه الورع لرجوعه إلى الشفقة والنصيحة للمسلمين.

ويتضمن قصده ـ رضي الله عنه ـ أموراً أخر يقصر فهمي عنها، وغاية ما أقول: إنَّه غامض دقيق، قد أخذ محاسن الأمور واشتمل على الكمال والتكمل بحصول الأجر الوافر مع المحافظة على العمل بقوله ﷺ: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1]. فرحمه الله ورضي عنه، ما أكثر عرفانه، وأغمض أفعاله، وأحسن مقاصده، وأظهر برهانه، وهذه الأسرار التي ذكرناها كلها من بركة قصده الصالح أيضاً لأنَّ النظر فيه أوجب ذلك، وهي مجامع أنواع القربات، ومعظم مسائلها مع كثرتها راجعة إليها والله أعلم اهـ.

تنبيه نبيه: اعلم أنَّ ما فعل سيدي السري ـ رضي الله عنه ـ مع ذلك الرجل الجليل من كونه نقصه في السلام إيثاراً له بزيادة الأجر إنما يكون حَسَناً ومطلوباً بالنسبة إلى من كان عارفاً عالماً، أما من ليس كذلك فلا، لا سيما في زماننا هذا، فإنَّه قد يؤدي ذلك إلى عكس المقصود من وقوع بغضاء أو شحناء، وموضوع السلام الألفة والمحبة، فالصواب الآن عدم استعمال ذلك إلا لعارف أو لعالم. والله أعلم.

توفي رضي الله عنه في بغداد يوم الثلاثاء لست خلون من رمضان سنة ثلاث وخمسين ومئتين. وقال الأئمة منهم أبو الفرج وغيره: قال أبو عبيد بن

---

(١) حديث: «الدين النصيحة»: رواه مسلم برقم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والترمذي (١٩٢٦)، والنسائي (٧/١٥٦).

خرمويه: حضرت جنازة السري فلما كان في بعض الليالي رأيته في النوم، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: غفر لي، ولمن حضر جنازتي، وصلّى علي. فقلت: فإنّي ممن حضر جنازتك وصلّى عليك، قال: فأخرج درجاً فنظر فيه فلم ير فيه اسمي، فقلت: بلى قد حضرت! قال: فنظر، فإذا اسمي في الحاشية.

ودفن في المقبرة الشونيزية، وقبره ظاهر معروف، وإلى جنبه قبر الجنيد رضي الله عنهما.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة سيدنا أبو القاسم الجنيد البغدادي نضّر الله وجههما:

* * *

أبو القاسم الجنيد بن محمد
الزجاج البغدادي رضي الله عنه

هو الحبر المزين بفنون العلم، المتوشح بجلابيب التقوى والحلم، المنور بخالص الإيقان، المؤيد بثابت الإيمان، العالم بمودَع الكتاب، العامل بمحكم الخطاب، الموفق للبيان والصواب، كان كلامه بالنصوص مربوطاً، وبيانه بالأدلة مبسوطاً، وهو نهاوندي الأصل، بغدادي المنشأ، الزجّاج والقواريري نسبة لحرفة أبيه، سيد الطائفة ومقدم الجماعة، وإمام أهل الخِرقة، وشيخ طريق التصوف، بهلوان العارفين، مرجع أهل السلوك في زمنه فمَنْ بعده، رُزِق من القبول وصواب القول ما لم يقع لغيره، بحيث كان إذا مرَّ بشارع بغداد وقف الناس له صفوفاً كالملوك، ولم يُرَ في عصره من اجتمع له علم وحال غيرُهُ، وكنت إذا رأيت علمه رجّحته على حاله، وإذا رأيت حاله رجّحته على علمه، وناهيك بإمام من العقائد الدينية والأصول الإسلامية أنْ تعتقد أنَّ طريقه وصحبه طريق مقوَّم.

قال خاتم الأولياء المحمديين الشيخ الأكبر سيدنا محيي الدين[1] في «الفتوحات»: هو سيد هذه الطائفة.

وكان من الفقهاء المتعبدين الشافعية تفقه على أبي ثور[2] صاحب الإمام الشافعي، وكان يفتي بحضرته وهو ابن عشرين سنة، ولم تزل أعناق الفريقين له خاضعين، وعلى تبجيله في كل عصر مجتمعين. وقد نقل شيخ الشافعية الإمام

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ) الحاتمي الطائي الأندلسي: من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية بالأندلس، وانتقل إلى إشبيلية، وقام برحلة، واستقر في دمشق، فتوفي فيها. «الأعلام» (٦/ ٢٨١).

(٢) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان (... ـ ٢٤٠ هـ) الكلبي البغدادي: الفقيه صاحب الإمام الشافعي. كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً، وورعاً وفضلاً. مات ببغداد شيخاً. «الأعلام» (١/ ٣٧).

النووي في «الروضة» قبيل الصيام عنه: أنَّ أخذَ المحتاج من صدقة التطوّع أفضل من أخذه من الزكاة.

أخذ التصوف عن خاله السري والحارث المحاسبي.

قال: قال لي السري شيخي: إذا قمت من عندي فمَنْ تجالس؟ قلت: المحاسبي. قال: نعم! خذ من علمه وأدبه، ودع عنه تشقيقه للكلام، وردَّه على المتكلمين، ثمَّ لما ولَّيتُ سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث!.

قال الغزالي رضي الله عنه: أشار إلى أنَّ من حَصَّل الحديث والعلم ثم تصوّف أفلح، ومن تصوّف قبل العلم خاطر بنفسه. انتهى.

وكان يقول: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

قال الشيخ الأكبر قدَّس الله سره العزيز: يريد أنَّه نتيجة عن العمل عليهما، وهما الشاهدان العدلان.

وصحب من هذه الطائفة أربع طبقات، كل طبقة ثلاثون رجلاً، وانتهت إليه الرياسة.

وقال: ما أخرج الله علماً إلى الأرض وجعل للخلق إليه سبيلاً، إلا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً.

وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع، ووِرْده كلَّ يوم ثلثمائة ركعة، وكانت الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، والمتكلمون لتحقيقه، والصوفية لإشاراته وحقائقه.

ومن فوائده وحكمه: لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض لحظة، كان ما فاته أعظم مما ناله.

وقال: من لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه من المتأدبين، أفسد من اتبعه.

وقيل له: ما العارف؟ قال: من نطق عن سرك وأنت ساكت.

وقال: ما أخذنا التصوّف عن القيل والقال، بل عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوف. وقيل له: ما الفرق بين المريد والمراد؟ فقال: المريد تولية سياسة العلم، والمراد تولية رعاية الحق، فإنَّ المريد يسير والمراد يطير، وأين السائر من الطائر؟.

وقال: الإخلاص بين الله وعبده، ولا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيهلكه.

وقال: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة[1]، والمرائي يثبت على حاله أربعين سنة.

وقال: الاستئناس بالناس حجاب عن الله، والطمع فيهم فقر الدارين.

وقال: لا يسمى عبد عاقلاً حتى لا يظهر على جوارحه شيء ذمَّه ربه.

وقال: بُنِيَ الطريق على أربع: لا تتكلم إلا عن وجود[2]، ولا تأكل إلا عن فاقة، ولا تنم إلا عن غلبة، ولا تسكت إلا عن خشية.

وقال: صفاء القلوب على حسب صفاء الذكر وخلوصه عن الشوائب.

وقال: كلام الأنبياء عن حضور[3]، وكلام الصدّيقين عن مشاهدة.

وقال: من زعم أنَّه يعرف الله وهو كاذب ابتلاه بالمحن، وحَجَبَ ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإنْ تنبه وانقطع إليه وحده كشف عنه المحن، وإنْ داوم السكون إلى الحق[4] نزعت من قلوبهم الرحمة عليه، وأُلبس لباس الطمع فيهم، فتصير حياته عجزاً وموته كمداً وآخرته أسفاً، نعوذ بالله من الركون إلى غيره.

---

(١) قوله (الصادق يتقلب): تقلب التلون في الطاعات والعبادات حسب مراد الله في الأوقات حتى لا يشهر بنوع واحد من أنواع التعبد بين الخلق فتكون فيه شائبة رياء (ع).

(٢) قوله (لا تتكلم إلا): وفي الحكم: عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد (ع).

(٣) قوله (عن حضور): أي دائم مع رفع الحجاب عن بصائرهم وأبصارهم، أما كلام الصديقين فعن مشاهدة قلبية غيبية مع الحجاب، وربما يرفع لهم في وقتٍ ما. (ع).

(٤) ظاهر العبارة يقتضي: وإن داوم السكون إلى الخلق. فلعلَّ ما ذكره سهو من المؤلف. (ع).

وسئل عن العارف فقال: لون الماء لون إنائه، أي: هو بحكم وقته[1].

وقال: مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة.

وقال: التصديق بعلمنا هذا ولاية، إذا فاتتك المئنة في نفسك، فلا تفتك أنْ تصدق بها في غيرك، فإن لم يصبها وابل فطلٌّ.

وقال: يجعل أحدهم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام، ويريد أنْ يجد حلاوة المناجاة.

وقال: كنت بين يدي السَّري ألعب وأنا ابن سبع، والجماعة يتكلمون في الشكر، فقال يا غلام: ما الشكر؟ قلت: أنْ لا يُعْصَى الله بِنِعَمِه، فقال: أخشى أنْ يكون حظك من الله لسانك، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة.

وسُئِل: ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون ولا يتحركون، بخلاف ما إذا سمعوا الرباعيات؟ قال: القرآن كلام الله وهو صعب الإدراك، والرباعيات كلام المحبين المخلوقين.

وقال: أقل ما في الكلام سقوط هيبة الربِّ جلَّ جلاله من القلب، والقلب إذا عَرَى من الهيبة عَرَى من الإيمان.

وقال: ما دام الشاكر يطلب المزيد بشكره فهو غريق في حظِّ نفسه، إنما الشكر أنْ يَرى العبد أنَّه ليس بأهل أنْ تناله الرحمة لشهوده كثرة معاصيه.

وقال: إذا صدق المريد أغناه الله عن حفظ المنقول بنورٍ يجعله في قلبه يفرق به بين الحق والباطل.

وقال: الطريق مسدود إلا على المقتفين آثار المصطفى ﷺ.

---

(١) قوله (بحكم وقته): فهو متلون بألوان الطاعات المفرقة في الأوقات، فمع العُبّاد عابد، ومع العلماء عالم، ومع الزهاد زاهد، فهو مع أهل كل مقام كأحدهم، وربما يسودهم فيه، فيكون قد جمع في إنائه ما تفرق في أواني غيره من أهل الأحوال والمقامات (ع).

وقال: طريق التصوّف عنوة(١) لا صلح فيه. وقال: التوحيد الخالص أنْ يرجع آخر العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أنْ يكون(٢).

وقال: التوحيد الذي انفرد به الصوفية إفراد القدم من الحدوث، والخروج عن كل محبوب يقطعهم عن الله، وترك الاعتماد على كل ما عُلِم وجُهِل، وأنْ يكون الحق مكان الكل لا يُعوَّل إلا عليه.

وقال: قد طُوِيَ علم التوحيد منذ زمان، وإنّما الناس يتكلمون في حواشيه.

وقال: سبب اضطراب القلب والجوارح عند السماع، أنَّه تعالى لما خاطب الذَّر في الميثاق الأول، بقوله: ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢]. استقرعت عذوبةُ سماع كلامه الأرواحَ، فإذا سمعوا نغماً طيباً حرَّكهم لذكره.

وقال: تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع والطعام ومجاراة العلم.

وقيل له: ممن استفدت هذا العلم الذي لم يُسْمَع من مشايخنا؟ قال: من قعودي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة(٣)، وأومأ إلى درجةٍ في داره.

[و]قال: لا يصفو قلب لعمل الآخرة، إلا إنْ تجرد عن حب الدنيا.

وقال: حقيقة المشاهدة وجود الحق مع فقدانك.

وقال: المشاهدة إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلب من الدَّنس، وخلوصه من الأضداد والأغيار، فهو في مراقبة الجبار، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء سترٍ رقيق، من صفاء ستر المعرفة وبرد اليقين.

---

(١) قوله (عنوة): أي كله جدّ لا هزل فيه، ولا صلح مع النفس والهوى. (ع)

(٢) قوله (قبل أن يكون): فيفنى من لم يكن من مشهد العارف، ويبقى من لم يزل فلا يشهد إلا إياه (ع).

(٣) قوله (ثلاثين سنة): هذه العزلة التي استوفت الشروط كانت تحت إشراف شيوخه، ولم يكن بنفسه لنفسه، كما عليه بعض جهلة الصوفية اليوم (ع).

وقال: إنما لم يطرب الفقراء لسماع القرآن، لأنَّه كله أحكام ومواعظ كُلِّفُوا بها، ومن كُلِّفَ بشيء لا يطرب به، وإنما طربوا بالقصائد لأنها كلام جنسهم، ومما عملته أيديهم، بخلاف القرآن فإنَّه حقٌّ صدر من حقّ لا مجانسة بيننا وبينه.

وقال: العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك.

وقال: لولا أنَّه رُوِي أنَّه: «يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم»[1] ما تكلمت عليكم.

وقال: إنْ بدت ذَرَّة من عين الكرم والجود ألحقت المسيء بالمحسن وبقيت أعمالهم فضلاً لهم، فقال ابن عطاء[2]: حتى تبدو، فقال: هي بادية، قال تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»[3].

وقال: لو كان العلم الذي أتكلم به من عندي لفني، لكن من حقٍّ بدا، وإلى حقٍّ يعود.

وقال: من الأعمال مالا يطلع عليه الحفظة، وهو ذكر الله بالقلب، وما طُويت عليه الضمائر من الهيبة والتعظيم، واعتقاد الخوف، وإجلال أوامره ونواهيه.

قلت: وهذا الذكر هو الذي فازت به هذه الطائفة النقشبندية ـ قدّس الله أسرارهم الزكية ـ دون بقية الطرق وحسبها بذلك شرفاً وفوزاً عظيماً.

وقال: الخشوع تذلل القلوب لعلاّم الغيوب.

وقال: التواضع خفض الجناح ولين الجانب.

---

(١) حديث «يكون زعيم القوم أرذلهم»: جزء حديث رواه الترمذي رقم (٢٢١١) وقال: حديث غريب.

(٢) أحمد بن عطاء بن أحمد أبو عبد الله الروذباري، شيخ الشام في وقته، يرجع إلى أحوال يختص به وأنواع من العلوم. مات بصور في ذي الحجة سنة (٣٦٩ هـ). وأسند الحديث. «طبقات الصوفية» (٤٩٧).

(٣) حديث «سبقت رحمتي غضبي»: قدسي، أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٥١).

وقال: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله في ميدان فكر التوحيد.

وقال: احفظوا ساعاتكم! فإنها زائلة غير راجعة، والحسرة على الغفلة في وقتها واقعة، وصلوا أورادكم تجدوا نفعها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدنيا، فإنَّ قليلها يشغل عن كثير الآخرة.

وقال: حكايات الصالحين جند من جنود الله، يقوم بها أحوال المريدين ويحيي معالم أسرار العارفين، وحجة ذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وكلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود: ١٢٠].

وقال: كن في باطنك مع الله عزَّ وجلَّ، وكن في ظاهرك مع الخلق، لأنَّ من فارق الخلق بجسمه فارق الجماعة، ومن فارق الجماعة وقع في الضلال، ومن خالط النَّاس بسره افتتن بهم، ومن افتتن حُجِبَ عن الحق بالطمع في الخلق.

وقال: أول مقام التوحيد قول المصطفى ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه»(١).

وقال: مؤاكلة الإخوان رضاع فانظروا من تؤاكلون.

وقال: لا يصلح السؤال إلا لمن العطاء عنده أحبُّ إليه من الأخذ.

وقال: الشفقة على الناس أنْ تعطيهم من نفسك ما يطلبون، ولا تحمِّلهم إلاّ ما يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

وقال: قد يُنْقَل العبد من حالٍ إلى أرفع منها وقد بقي عليه من التي نُقِل عنها بقية، فيشرف عليها من الحالة الثانية فيصححها.

قلت: وهذا مأخذ ما قيل في معنى قوله ﷺ: «إنَّه ليغان على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله منه في اليوم والليلة سبعين مرة»(٢) من أنَّه ﷺ كان إذا ترقى إلى مقام يَرى ما قبله غيناً فيستغفر منه.

---

(١) حديث «أن تعبد الله» هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٨).

(٢) حديث (إنه ليغان على قلبي): أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢)، وأحمد (٤/ ٢٦٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٤٤٢)، وغيرهم.

وكان إذا سأله سائل عن مسألة يجيبه، ثم يسأله آخر عنها فيجيبه بجواب آخر، ويقول: على قدر السائل يكون الجواب.

وقال: من شارك السلطان في عزِّ الدنيا شاركه في ذلِّ الآخرة.

وقال: إذا أراد الله عبداً للمحبة كشف له عن قدر إنعامه عليه وبرِّه إليه وكثرة الأيادي القديمة عنده.

وقال: تنتهي عبادة أهل المعرفة إلى الظَّفَر بنفوسهم.

وقال: على العاقل أنْ لا يفقد نفسه من ثلاثة مواطن: موطنٍ يعرف فيه حاله أفي زيادة أم نقص، وموطن يستحضر فيه عقله لرؤية مجاري التدبير وكيف تغلب عليه الأحكام، وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه وإلزامها ما لزمها.

وقال: إنَّ الله كشف لعباده معايبهم في ذكر الطين لهم، وعرَّفهم مقاديرهم بذكر النطفة، وأشهدهم عجزهم في تقلبهم، ليعرفوا فاقتهم إليه في كل حال.

وقال لابن شريح: طريقنا أقربُ إلى الحق من طريقكم، فطالبه بالبرهان، فقال الجنيد لرجل: ارم حجراً في حلقة الفقراء، فرماه فصاحوا كلهم: الله، ثم قال: ألقه في حلقة الفقهاء، فألقاه فقالوا: حرام عليك أزعجتنا؛ فقبَّل رأسه واعتذر.

وقال: لا يرتقي في الدرجات مَنْ لم يُحْكِم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات، وهي الفروض الواجبة، ثم الأوراد الراتبة ومطايا الفضل وعزائم الأمر، فمَنْ أحكمها منَّ الله عليه بما بعدها.

وقال: التصوف تجنب كل خلق دَنِي، واستعمال كل خلق سني، وأنْ تعمل[1] لله من غير رؤية العمل.

وقال: مَنْ سكن أو شكا لغير الله ابتلاه الله بحجب سرِّه عنه.

---

(١) قوله (وأن تعمل لله): فتكون الأعمال في ظواهرهم موجودة، وفي بواطنهم غير مشهودة. (ع).

وقال: أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفة.

وقال: مَنْ عرف الله أطاعه، ومن عرف نفسه ساء بها ظنه، وخاف على حسناته أنْ لا تقبل.

وزاره أبو محمد الجريري فوجده يصلي، فأطال فلامه، وقال: قد كبرتَ ووهن عظمك ورق جلدك، فلو اقتصرت على بعض صلاتك! فقال: طريق عرفنا بها ربنا لا نقتصر على بعضها، فالنفس ما حملتها تتحمل، والصلاة صلة، والسجود قربة، ولهذا قال تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [العلق: ١٩] ومن ترك طريق القرب يوشك أنْ يُسْلَك به طريق البعد.

وقال: لا تيأس من نفسك ما دمت تخاف من ذنبك وتندم عليه.

وقال: الورع في الكلام أشد منه في الكسب.

وقال: العلم يوجب لك استعماله، فإنْ لم تستعمله في مراتبه كان عليك لا لك.

وقال: المرء لا يعاب بما في طبعه.

وسُئِل: العناية قبل أم البداية؟ فقال: العناية قبل الطين والماء.

وقال: أعلى درجة الكبر وأشدها أنْ ترى نفسك، وأدناه في الشر أنْ تخطر نفسك في بالك.

وقال: إنَّ الله يعطي القلوب من بِرِّه بحسب ما أخلصت له في ذكره.

وقال: رأيت في النوم كأني أتكلم على الناس، فجاءني ملك فقال: ما أقرب ما يتقرب به المتقربون؟ قلت: عملٌ خفيٌّ بميزانٍ وفيٍّ، فتولى وهو يقول: كلام موفق والله.

وقال: لقد مشى رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً.

وقيل له: متى يستوي عند العبد حامده وذامه؟ فقال: إذا تحقق أنَّه عبد مخلوق.

وقال: الغفلة عن الله أشد من دخول النار.

وقال: بلغني أنَّ يونس عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أُقْعِد، ثم قال: وعزتك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته شوقاً إليك.

وقال: لا تقوم بما عليك حتى تترك جميع مالك، وليس شيء أعز من الدنيا.

وقال: اليقين استقرار العلم الذي لا يحول ولا يتغير في القلب.

وقال: إذا صدقت الله فاصدقه في سرِّك، فإنه تعالى جعل لإبليس على كل شيء طريقاً إلا على صدق الإسرار.

وقال: ما رأيت مَنْ عَظَّمَ الدنيا فَقَرَّت عينه بها، وما حَقَّرَها أحد إلا أتته وهي صاغرة.

وقال: التواضع عند أهل التوحيد[1] تكبر، قال الغزالي: ولعلَّ مراده: أنَّ المتواضع يثبت نفسه أولاً ثم يضعها، والموحِّد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها.

وقال: أتيت مسجد الشونيزية فوجدت جمعاً من الفقراء يتكلمون في الآيات، فقال فقير: أعرف رجلاً لو قال لهذه الاسطوانة كوني ذهباً كانت كذلك فصارت كذلك.

وقال: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب.

وسأله الشبلي فقال له: ما حسنات الأبرار؟ قال: سيئات المقربين. ثم أنشد:

طوارقُ أنوار تلوح إذا بدت فتُظْهِر كتماناً وتُخْبِرُ عن جمع

---

(١) قوله (عند أهل التوحيد): وفي الحكم: التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته. (ع).

وسُئِل عن العشق؟ فقال: لا أدري ما هو، ولكنْ رأيت رجلاً أعمى عشق صبياً وكان الصبي لا ينقاد له، فقال له الأعمى: يا حبيبي! إيش تريد مني؟ قال: روحك! ففارق روحه حالاً.

ومرَّ ببعض دروب بغداد، فسمع قائلاً يقول:

منازل كنتَ تهواها وتألفها ... أيام كنت على الأيام منصورا

فبكى، وقال: ما أطيب منازل الألفة والسرور! وأوحش مقامات المخالفة! لا أزال أحنّ إلى بدايتي، وجدة سعيي وركوبي الأهوال طمعاً في الوصول، وأنا في أيام الفترة أتأسف على أوقاتي الماضية.

وسُئِل: على ماذا يتأسف المحب من أوقاته؟ قال: على زمان بسطٍ أورث قبضاً، أو زمان أنس أورث وحشةً، وأنشأ يقول:

قد كان لي مشربٌ يصفو برؤيتكم ... فكدّرته يدُ الأيام حينَ صفا

وقال: من لم يصل علمه باليقين، ويقينه بالخوف، وخوفه بالعمل، وعمله بالإخلاص، وإخلاصه بالمجاهدة، فهو من الهالكين.

وقال: اليقين أنْ لا تهتم لرزقك الذي كُفِيتَه، وتقبل على عملك الذي كُلِّفْتَه، فإنَّ اليقين يسوق إليكِ الرزق سوقاً حثيثاً.

وقال: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هيّن على المؤمن، وهجر الخلق في جنب الحق شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد.

وقال: الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس، والرضا دفع الاختيار.

وقال: الفتوة كفُّ الأذى وبذل الندى.

وقال: الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب.

وسأله جمع: أنطلب الرزق؟ فقال: إنْ علمتم أيَّ محل هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله فيه؟ قال: إنْ علمتم أنّه ينساكم فذكِّروه، قالوا: فندخل البيت

ونتوكل؟ قال: التجربة شك، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة[1].

وقال: اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب[2].

وسئل عن التوحيد فأجاب بكلام لم يُفْهَم، فقيل له: أعدِ الجواب، فإنَّا ما فهمناه، فقال جواباً آخر، فقيل له: هذا أغمض، فأمله علينا حتى ننظر فيه ونعلمه، فقال: إنْ كنت أجريه فأنا أمليه.

قال سيدنا الشيخ الأكبر: أشار إلى أنَّه لا تَعَمُّل له فيه، وإنما هو بحسب ما يلقي الله مما يقتضيه وقته، ويختلف الإلقاء باختلاف الأوقات، والقوم إنما يُورِدون ما يعطيه الكشف ويمليه الحق.

وقيل له: أبو يزيد يقول: سبحاني! فقال: الرجل استُهلِك فنطق بما هلك به، لذهوله في الحق عن رؤيته إياه، فلم يشهد في الحق إلا الحق.

وقال: صحبت قوماً بالبصرة فأكرموني، فقلت مرة: أين إزاري؟ فسقطتُ من أعينهم.

ودخل عليه الشبلي متواجداً، فقال: إنْ كنت ترى نفسك في حضرة الله فهذا سوء أدب، وإنْ كنت خارجها فماذا حصلت حتى تتواجد، فقال: التوبة يا إمام.

وقال: أرقت ليلة فقمت لوردي فلم أجدْ ما أجدُ من الحلاوة، فأردت النوم فلم أقدر، فأردت القعود فلم أطق، ثم ارتج البيت للسقوط، فخرجت فإذا برجلٍ مطروحٍ بالطريق، فرفع رأسه وقال: إلى الساعة يا أبا القاسم؟ قلت: بغير موعدٍ يا سيدي! قال: بلى! سألت محرك القلوب أن يحرك قلبك للخروج،

---

(١) قوله (ترك الحيلة): أي ترك الاعتماد على السبب ومنه الدعاء، واعتقاد أنه ليس موجباً على الله، وفي الحكم: لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه، وَلْيَكن طلبك لإظهار العبودية. (ع).

(٢) قوله (في مشهد الغيب): ومن هذا قول سيدنا علي: لو كشف عني الغطاء ما ازددت يقيناً. فصاحب اليقين الغيب في حقه كأنه مشهود. (ع).

متى يصير داء النفس دواءها؟ قلت: إذا خالفت هواها، فقال: اسمعي يا نفس! قد أجبتك بهذا سبعاً فأبيتِ إلا أنْ تسمعيه من الجنيد، ثم انصرف فلم أعرفه.

وقال: لا أستبشع ما يرد عليَّ من العالم، فإنِّي أصَّلت أصلاً، هو أنَّ الدار دار غمٍّ وبلاء وفتنة، والعالم كل شر، فحكمه أن يلقاني بكل ما أكره، فإنْ تَلَقَّاني بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل الأوَّل.

وقال: من فَتَح على نفسه باب نيةٍ حسنة، فتح الله عليه سبعين باباً من التوفيق؛ ومن فتح على نفسه باب نيةٍ سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان.

وقال: الدنيا لحظة إنْ صدمتها ذهبتَ بها، وإنْ هي صَدَمَتْك أعمتك.

قال موسى بن علي[1] رضي الله عنه: مشيت يوماً مع الجنيد، فلما بلغنا مسجد الشونيزي التفت إلينا ووقف، وقال: يا معاشر الشباب! جدُّوا قبل أَنْ تعجزوا، واجتهدوا قبل أنْ تُطْلَبُوا أثراً بعد عين، فإني تذكرت مجاهداتٍ كانت لنا في هذا المسجد تقبح في عيني بطالتي اليوم، قال موسى بن علي: وكانت حالته إذْ ذاك من أعظم أنواع المجاهدات. وأنشدوا في المعنى:

أتهجرُ من تحبُّ وأنت جارُ ... وتطلبهم وقد بَعُدَ المزار
وتبكي بعد نأيهمُ اشتياقاً ... وتسألُ في المنازلِ أينَ ساروا
تركتَ سؤالهمْ وهُمُ حضورٌ ... وترجو أنْ تخبركَ الديارُ
فأنت كطالبٍ أثراً لعينٍ ... وقلبُكَ بالبطالة مستعارُ
فنفسَك لُمْ ولا تَلُمِ المطايا ... ومُتْ أَسَفاً فقدْ خانَ الحذار
سمعتَ بنَأْيِهِمْ فظللتَ حيا ... فديتُك كيف يهنيك القرار

وقال: التصوّف جامع لعشر خصال: التقلل من كل شيء في الدنيا مع القدرة عليه، واعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى مع عدم السكون إلى الأسباب، والرغبة في الطاعة بما استطاع منها، والصبر عند فقد الدنيا على المسألة والشكوى، والتميز في الشبهات والحلال، والشغل بالله تعالى عمَّن

---

(١) لم أجد ترجمته فيما لديَّ من المراجع.

سواه، ودوام الذكر له بالقلب واللسان، وتحقيق الإخلاص مع الصدق، واستواء السريرة والعلانية، ودوام المراقبة لله مع السكون إليه في جميع الأحوال، فإذا اجتمعت هذه الخصال كان الصوفي في أول مراتب المحبة، ثم يرقى إلى حالة المشاهدة، فيؤخذ منه إليه، ويبقى معه في ميدان المحبة والدهشة. انتهى.

ولم يزد أحد في بيان حقيقة المشاهدة على ما قاله عمرو بن عثمان المكي[1] ـ رضي الله عنه ـ وهي: أنَّ تتوالى أنوار التجلي على قلب العارف من غير أن يتخللها ستر وانقطاع، كما لو فرض اتصال البروق في الليلة المظلمة، حتى تصير كالنهار لاتصال البروق بها، فكذلك قلب العارف باتصال أنوار التجلي، حتى يصير دائم النهار غائب الليل، وأنشدوا:

ليلـــي بـــوجهـــكِ مشـــرقٌ وظـلامُـهُ فـي النـاس سـاري
فـالنـاسُ فـي سـدف[2] الظَّـلا م ونحـــنُ فـــي ضـــوء النهـــار

وسُئِل: متى يكمل المحبُّ أحوال العبودية؟ فقال: إذا رأى أنَّ الأشياء كلها لله تعالى، وأنَّه هو المنفرد بالتدبير والخَلْق والملك، ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ [يس: ٨٣].

وقال: إذا صَحَّتِ المودة سقطت شروط الأدب.

قال في «مجمع الأحباب»: اعلم أنَّ هذا يستدعي إشارة لطيفة إلى أحوالٍ فاز بها العارفون ـ رضي الله عنهم ـ في الصحبة، وهي:

مع المشايخ بالاحترام والخدمة والتوقير والقيام بأشغالهم.

ومع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة والإحسان والكون معهم على حكم الوقت.

---

(١) عمرو بن عثمان بن كُرَب (... ـ ٢٩١ هـ) ينتسب إلى الجنيد في الصحبة، عالم بعلوم الأصول، وله كلام حسن. روى الحديث. مات ببغداد. «طبقات الصوفية» (٢٠٠).

(٢) سَدَف: سواد الليل. «القاموس المحيط» (سدف).

ومع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب.

ومع الأُستاذين باتباعهم أمرهم ونهيهم، وهي في الحقيقة خدمة لا صحبة.

ومع الجهال بتحمل الصبر وحسن الخلق والمداراة والنظر إليهم بعين الرحمة، ومن كان جهله أقوى كان العفو والحلم عنه أولى.

ومع الأهل والولد بالشفقة وحسن التأديب، وحثهم على أنواع الطاعات.

ومع الإخوة بكل ما يقدر عليه من الموافقة وترك المخالفة ما لم تكن معصية.

ومع السلطان بالسمع والطاعة إلا في معصية، والإمساك عما فيه قدح عليهم.

وأما الدخول عليهم: فمن كان عادلاً فهو من السبعة الذين في الحديث المشهور[1]، والنظر إليه عبادة، وينبغي أن يدعو له بما قاله سعيد بن المسيب ـ رضي الله عنه ـ لما ولي عمر بن عبد العزيز للعلماء: اجعلوا نصف دعائكم لأمير المؤمنين ليسلم عليكم دينكم ودنياكم.

ومن كان ظالماً فالبعد عنه واجب، إلا إذا تعين كإرشاد واضطرار، فيدخل عليه بحسب ذلك، وإذا دخل عليه أَمَرَه ونهاه ودعا له بالتوفيق والإعانة، إذا علم من حاله أنه يَسْلَم عند القرب منه.

ومع الكافة كصحبة أبي ضمضم[2] ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أصبح وأمسى يقول: اللهمَّ إنِّي وهبت نفسي وعرضي لك، اللهمَّ إنِّي قد تصدّقت بعرضي على عبادك، فمن شتمني لا أشتمه، ومن ظلمني فلا أظلمه.

---

(١) حديث (سبعة): أخرجه البخاري برقم (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١)، وأحمد (٢/ ٤٣٩)، والطيالسي (٢٤٦٢)، والنسائي (٨/ ٢٢٢)، وغيرهم.

(٢) أبو ضمضم: صحابي غير منسوب، أخرج حديثه أبو عمر. «أسد الغابة» (٦/ ١٧٧).

ثم إنَّ على كل جارحة أدباً تختص به، قال تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦] وحقيقة هذه الآداب راجعة إلى المراقبة، قال بعض المشايخ: الأدب مع الله عزَّ وجلَّ أنْ لا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضا الله سبحانه وتعالى.

حُكِيَ عن بعضهم أنَّه قال: نظرت إلى شخص نظر شهوة، فرأيت في المنام قائلاً يقول: إنَّ الله تعالى يقول: الدنيا داري، والخلائق فيها عبيدي وإمائي، فمن نظر إلى احدٍ منهم بغير حق فقد خانني، فانتبهت وآليت على نفسي أنْ لا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا على حدِّ الأمانة.

وسُئِل أبو عثمان الحيري - رضي الله عنه - عن الصحبة، فقال: تُوَسِّعُ إخوانك بمالك ولا تَطْعَم من مالهم، وتنصفهم من نفسك ولا تطلب الإنصاف منهم، وتكون تبعاً لهم ولا تطلب أن يكونوا أتباعاً لك، وتستكثر ما إليك منهم وتستقل ما منهم إليك[1].

وقيل: الشرف في ثلاث: إجلال الكبير، ومداراة النظير، ورفع النفس عن الحقير.

وقال أبو بكر الكتاني[2] رضي الله عنه: جرت مسألة المحبة بمكة في الموسم، وكان الجنيد - رضي الله عنه - أصغرهم سناً، فتكلم فيها المشايخ، ثم قالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهل عن نفسه، متصل بربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، قد أحرق قلبَه الأنوارُ الإلهية، وصفا شربه من كأس وِرْدِهِ، وانكشف له الحق من أستار عينه، فإنْ تكلم فبالله، وإنْ نطق فمن الله، وإنْ تحرك فبأمر الله، وإنْ سكنَ فمع الله، فهو

---

(١) قوله (وتستكثر): لعلَّ في العبارة قلباً تصحيحه هكذا: وتستقل ما إليك منهم وتستكثر ما منهم إليك (ع).

(٢) محمد بن علي بن جعفر (٠٠٠ _ ٣٢٢ هـ) الكتاني، أبو بكر: أصله من بغداد، صحب الجنيد، وأقام بمكة مجاوراً بها، إلى أن مات. وكان أحد الأئمة. «طبقات الصوفية» (٣٧٣).

بالله ومع الله. فبكى المشايخ، وقالوا: ما على هذا من مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

وقال أبو القاسم القشيري[1] قدس الله روحه: كان الجنيد ـ رضي الله عنه ـ جالساً مع رُوَيْم[2] والجريري وابن عطاء[3] فقال الجنيد: ما نجا مَنْ نجا إلا بصدق الالتجاء، قال الله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، وقال رُوَيْم: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ [الزمر: ٦١]، وقال الجريري: ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفا، قال الله تعالى: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ [الرعد: ٢٠]، وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء، قال الله تعالى: ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ [العلق: ١٤]، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: ما نجا من نجا إلا بمعرفة الحكم والرضا، قال الله تعالى: ﴿الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وسأله أبو محمد الجريري ـ رضي الله عنهما ـ فقال: ما بال الإنسان يخف عليه بعض الأعمال ويثقل عليه بعضها؟ فقال: ربما كان ذلك اختياراً من الحقّ جلَّ جلاله، يهب لعبده شيئاً من الأحوال العالية عليه، لينظر كيف حفظه لها، وكيف تمسكه بها فإنْ صار مراعياً مستمسكاً بها دائم أوقاته زاده وفتح له في غيرها ونقله إلى ما هو أعلى منها، وإنْ كان مضيعاً لها سلبه إياها إذْ لا يعرف قدر الموهبة.

---

(١) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (٣٧٦ ـ ٤٦٥ هـ) النيسابوري القشيري الشافعي أبو القاسم، صوفي، مفسر، فقيه، أصولي، محدث، متكلم، واعظ، أديب، ناثر، ناظم، تعانى الفروسية والعمل بالسلاح حتى برع في ذلك، ثم تعلم الكتابة والعربية ثم سمع الحديث، وتوفي بنيسابور. «معجم المؤلفين» (٦/ ٦).

(٢) رويم بن أحمد بن يزيد (٠٠٠ ـ ٣٠٣ هـ) من أهل بغداد، من جلّة مشايخهم. كان مقرئاً. «طبقات الصوفية» (١٨٠).

(٣) ابن عطاء تقدم ص(١٨٩).

وقال لبعض أصحابه: إذا صدقت الله فاصدقه في سرِّك، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل لإبليس على كل شيء طريقاً إلا على صدق الاسرار[1].

وقال: كان للسري رضي الله عنه تلميذة، وكان لها ولد عند المؤدِّب، فبعث به معلم المكتب إلى الشط فغرق، فجاء المعلِّم إلى السري وأخبره بذلك، فقال له السري: قوموا بنا إلى أمه نعزِّيها ونسلِّيها، فلما جلسنا عندها أخذ السري يتكلم في الصبر، ثم تكلم في الرضا، فقالت له: يا أستاذ! إيش تريد؟ فقال لها: إنَّ ابنك غرق! فقالت: إنَّ ربي - عزَّ وجلَّ - ما فعل هذا إلى الآن، فأعاد السَّري الكلام في الصبر والرضا، فقالت أمه: قوموا بنا إلى الشط، فقمنا معها، فلما انتهينا إلى الشط، قالت لنا: أين غرق ابني؟ قلنا: ههنا، فقالت: يا ابني محمد! فأجابها: لبيك يا أمَّاه، فنزلتْ وأخذتْ بيده ومضت إلى منزلها، قال الجنيد: فالتفت السري إليّ، وقال: كيف هذا؟ فقلت: أقول؟ قال: قل، فقلت: إنَّ المرأة مراعية لما لله عليها من الحقوق، وحكم من كان مراعياً لأوامر الله عزَّ وجلَّ ونواهيه من الاجتناب والامتثال أنْ لا يحدث حادثة تتعلق به إلا أعلمه بها فلما لم تكن حادثة لم يُعلمها، فلما قيل لها: إنَّ ابنك غرق أنكرَت ذلك، وقالت: إنَّ ربي ما فعل هذا إلى الآن.

وسُئِل عن الحياء فقال: رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء.

وسئل عن معنى قول النبي ﷺ: «حبك للشيء يعمي ويصم»[2] فقال: حبك للدنيا يعمي ويصم عن الآخرة.

---

(١) تقدمت هذه العبارة قبل صفحات.

(٢) حديث (حبك للشيء): أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٤) و(٦/ ٤٥٠)، وأبو داود في سننه برقم (٥١٣٠)، والبخاري في التاريخ (٣/ ١/ ١٧٢)، والفسوي في المعرفة (٢/ ٣٢٨). قال العلائي الحافظ: هذا الحديث ضعيف لا ينتهي إلى درجة الحسن، ولا يقال فيه: موضوع.

وقال رضي الله عنه: إذا رأيت الفقير فابتدئه بالرفق، ولا تبتدئه بالعلم، فإنَّ العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

وقال: دخلت يوماً على السري فرأيت عليه همّاً فسألته؟ فقال لي: الساعة استأذن عليّ شاب ودخل، فسألني عن التوبة وشروطها فأنبأته، ثم قال لي: ما حقيقة التوبة؟ قلت: هو أنْ لا يَنْسَى ما من أجله كانت التوبة، فقال: ليس كذلك عندنا، فقلت: فكيف هي عندكم؟ قال: أنْ لا تذكر ما من أجله كانت التوبة. ففي هذا أنا مفكر، فقلت: ما أحسن ما قال! ثم قلت: يا أستاذ! إذا كنت معك في حال الجفاء، ونقلتني إلى حال الصفاء، فذكري للجفاء في حال الصفاء غفلة.

وقال: دخلت على السري يوماً فقال لي: كنت أمشي في الجامع، فقال لي شاب: هل يعلم العبد أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قَبِله؟ فقلت له: لا، فقال: بلى، إذا رأى أنَّ الله تعالى عصمه من المعاصي، ووفَّقه لطاعته، علم أنَّ الله قد قَبِله.

وقال: دخلت على السري أعوده، فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي　　　والذي قد أصابني من طبيبي

قال: فأخذت المروحة أروحه، فقال: يجد روح المروحة مَنْ قلبه وجوفه يحترق من داخل. ثم أنشأ يقول:

القلبُ منحرقٌ والدمعُ مستبق　　　والكربُ مجتمعٌ والصبرُ مفترقُ
كيفَ القرارُ على مَنْ لا قرارَ له　　　مما جناه الهوى والشوق والقلقُ
يا ربِّ إنْ كانَ شيء فيه لي فرجٌ　　　فامنن عليَّ به ما دامَ بي رمقُ

وحكي: أنه ورد عليه في وقت السماع وارد فغيبه، فسقط طرف ردائه فوطئه، ثم مدّ يده فرفعه، فقيل له في ذلك، فقال: غبت ثم حضرت، فاستحييت من الله عزَّ وجلَّ من أنْ أدعي الغيبة في حال الحضور.

وقال: الخوف يقبضني، والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرِّقني[1].

قال أبو بكر الرازي[2]: القبض والبسط حالتان فوق الخوف والرجاء، فإنَّ القبض للعارف من ثمرات الخوف، والبسط له من ثمرات الرجاء، والخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه ومحبوب، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب على قلب العارف من واردٍ غيبي، ثم إنَّ كلاًّ منهما قد يكون كاملاً وقد يكون ناقصاً، فالقبض الكامل وارد غيبي، كأنه يعاتب على تقصير وسوء أدب، فيستغرق العارف في ذلك حتى ينسدَّ عليه أبواب التنفس، والقبض الناقص واردٍ غيبي ضعيف، كأنه يخاطب العارف بما تتحمله قوته.

وأما البسط التام فهو وارد غيبي قوي، كأنه يخصه بتشريف وإقبال ولطف وسرور، فيجذبه بالكلية حتى يبقى مدهوشاً في بسطه، كأنَّه قد حُلَّ عنه عقال الموانع، وأطلق في ميادين الاتصاف، وكوشف في رياض الجمال والجلال لقوّة الوارد.

وأما البسط الناقص فهو وارد غيبي ضعيف، يؤثر في العارف سروراً ونشاطاً وارتياحاً تأثيراً يبقى معه فيه بقية يتصرف بها في نفسه وغيره، فلا يؤثر فيه البسط تأثيراً كلياً لنقصه، بخلاف الأول فإنَّه يؤثر فيه تأثيراً كلياً لقوّته واستيلاء سلطان العناية الأزلية على قلبه.

وبسط كل شخص على حسب قبضه، وقبضه على حسب بسطه، وقد يحدث قبض لا يعرف سببه وعلاجه التسليم حتى يذهب ذلك الوقت، لأنَّ تكلف دفعه يخلّ بالأدب، ويزيد في ذلك القبض، وبالتسليم يزول عن قريب،

---

(١) قوله (والحق يفرقني): المراد بالحق هنا الشرع المحمدي المعبَّر عنه بلسان القوم الفرق النوراني قال تعالى: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (ع).

(٢) محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان (٠٠٠ ـ ٣٧٦ هـ) أبو بكر الرازي: له اعتناء زائد بعبارات القوم، وجمع منها الكثير، ولقي الكبار، وله جلالة وافرة بين الصوفية. قال الذهبي: يروي عنه أبو عبد الرحمن السلمي بلايا وحكايات منكرة. «السير» (١٦/ ٣٦٥).

قال تعالى: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقد يحدث بسط بغتة لا يعرف سببه، فيهز صاحبه ويستفزه، وسبيل صاحبه السكون والمراقبة وحفظ الأدب، فإنَّ حالة البسط لها خطر عظيم، فليحذر صاحبها مكراً خفياً يحجبه عن مقامه، كما قال بعض العارفين: فُتِحَ عليّ باب من البسط فزللت زلّة فحجبت عن مقامي.

ولهذا قالوا: قف على البساط وإياك والانبساط.

وقد استعاذ أهل التحقيق من حالتي القبض والبسط لأنهما بالنسبة إلى ما فوقهما من الأحوال فقر وضرّ، ألا ترى إلى قول الجنيد رضي الله عنه: الخوف يقبضني، والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني اهـ.

وقال رضي الله عنه: كل مريد لا يعوّد نفسه صيام النهار، وقيام الليل، وخدمة الإخوان، فكأنه تمنى ما لا يصلح له.

وقال الجريري: دخلت على الجنيد وهو مهتم، فقلت: مالك؟ فقال: فاتني شيء من أورادي، فقلت له: أعده، فقال: كيف! وهي أوقات معدودة.

وسئل عن قوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ [البقرة: ٢٧٣]، قال: تمنعهم علومهم عن رفع حوائجهم إلا إلى مولاهم سبحانه وتعالى.

وقال في قوله تعالى: ﴿وإنْ يمسسك الله بضرّ﴾ الآية [الأنعام: ١٧]، قال: إذا نزل بالعبد ضر أو حاجة فأنزلها بالله عزَّ وجلَّ ولجأ إليه في كشف ضره قضيت حاجته وارتفع ضره، والله عزَّ وجلَّ معبودُهُ فإنَّ النظر في الإعطاء والمنع إلى غير الله شرك، وهذا ـ والله أعلم ـ هو معنى النفي والإثبات المذكور في الآية الكريمة.

وقال: الليل سراج العارفين، ويقظة المريدين، وهلاك الغافلين.

وقال: ليس في اجتماع الإخوان أنس لوحشة الفراق.

وقال رضي الله عنه: ما انتفعت في بدايتي كانتفاعي بأبيات سمعتها وأنا مارّ في درب القراطيس من جارية وهي:

إذا قلتُ أهدىٰ الهجرُ لي حُلَلَ الضنا تقولينَ لولا الهجرُ لم يطِبِ الحبُّ
فإنْ قلتُ هذا القلبُ أحرقَهُ الهوىٰ تقولي بنيران الهوى شَرُفَ القلبُ
وإنْ قلتُ ما أذنبتُ قلتِ مجيبةً حياتُكَ ذنبٌ لا يقاسُ بهِ ذَنْبُ

قلت: والذي في حفظي بدل هذا البيت:

وإنْ قلت ما ذنبي تقولي مجيبة حياتُكَ ذنبٌ لا يقاسُ بهِ ذَنْبُ

وهو بطريقة الأبيات أليق والله أعلم.

قال: فصحت وصعقت فلم أفق إلا وصاحب الدار قد خرج، فقال: ممَّ ذا يا سيدي؟ فقلت: مما سمعت من جاريتك، فقال: أشهدك أنَّها هبة مني إليك! فقلت: قد قبلتها وهي حرة! ثم زوجتها لبعض أصحابنا فولدت له ابناً نبيلاً نشأ وحج على قدميه نحو ثلاثين حجة.

وقال رضي الله عنه: اشتد البلاء برجلٍ من العارفين حتى جُرَّ برجله إلى المزبلة، فرفع طرفه إلى السماء، وقال: أنا بعينيك كما ترى فافعل ما شئت وحسبي ما تشاء، ثم قال:

إذا المستهامُ شكى شجوَه فقدْ زالَ عن سَنَنِ المستهام
فأين الكُلُوم التي في الحشا وأين تبرمه بالكِلَام[1]

ومرض فوصف علته للطبيب، فقيل له: أليس هذا شكوى؟ فقال: لا، وإنما هذا إخبار عن قدرة القادر جلَّ جلاله.

وسئل عن الرجل يكون له عند السلطان جاه ويقصده الضعيف المظلوم في أمرٍ قد يجري عليه في الظلم، فقال: لا أحبُّ أنْ أتكلم فيه بشيء، وذلك أنَّ أقواماً من السلف ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يسارعون إلى مثل هذه الحالة، وآخرون من السلف كانوا يتثاقلون عنها مخافة أنْ لا يَسْلَموا، والذي عندي أنَّ الرجل إذا قصدهم يرى عندهم من المنكرات أعظم مما قَصَدَ له، وربما لا يبلغ

(١) الكِلَام والكُلُوم: جمعٌ، مفردة: الكَلْم، وهي: الجراحة. «مختار الصحاح» (٥٧٧).

وُسْعه أنْ ينكر هذا فيقع فيه ما يقع، وأنا لا أحبُّ أنْ أتكلم في الجهات كلها، لأنَّ الرجل ربَّما رغب في الأجر وحملته نية على السعي فيه فإنْ تكلمتُ لا أدري كيف أسلم منه.

وجاءت امرأة ومعها زوجها إليه، فوقفت بباب المسجد وسألت الوقوف بين يدي الجنيد لتسأله عن مسألة، فلما علم بذلك خرج إليها، فقالت: يا سيدي! إنَّ زوجي هذا يريد أنْ يتزوج عليَّ، فقال الجنيد: إنْ لم يكن له أربع زوجات يجوز له أن يتزوج عليك، فقالت: يا سيدي! لو كان يجوز النظر إلى الأجانب لكشفت لك عن وجهي لتنظر إلى حسني وجمالي فتعلم أنَّ من كان عنده مثلي لا ينبغي أنْ يتزوج عليها، فلما سمع الجنيد هذا الكلام صاح وخرَّ مغشياً عليه، فلما أفاق سُئِلَ عن ذلك، فقال: نظرت كأنَّ الجبار جلَّ جلاله يقول: لو كان يجوز لأحد أنْ يراني في الدنيا بعين بصرهِ لَكشفت له عن حجابي حتى يراني ليعلم أنَّ من كان له رب مثلي لا ينبغي له أن يحل في قلبه سواي.

وعن علي بن أبي منصور الدينوري[1] قال: خرجت إلى بغداد ومعي شيء من الدنيا أريد تفرقته إلى أصحاب الجنيد وسائر الفقراء، فوافينا بغداد، ونزلنا في مكان، وقصدت الجنيد لأقضي من حقه، فدخلت عليه في منزله، فسرَّني وقرَّبني بكلامه، وحسن لقيه، وكنت أختلف إليه دائماً وأذاكره، فلما كان ذات ليلة رأيت في منامي كأنَّ الخليفة قد جاء يدعوني إلى ضيافته، فانتبهت وحدثت صاحبي بما رأيت، قال: ننظر ما يكون من تأويل رؤياك هذه، فلما كان بعد الفجر إذا بالباب يطرق، ففتحت الباب فإذا الجنيد، فقمنا إليه وفرحنا بقدومه، فسَلَّم علينا، وجلس ساعة يحادثنا ويذاكرنا في العلم، ثم دعانا إلى دعوة في منزله، قال: فتبسمت إلى صاحبي، فقال لي الجنيد: مم تتبسم، فقلت له صورة المنام الذي رأيته، وإني جلست أنتظر ما يكون من تأويل رؤياي حتى دقَّ الشيخ الباب، فلما دعوتنا إلى منزلك تبسمت، فقال الجنيد: إنِّي رأيت البارحة رسول الله ﷺ في

---

(١) علي بن محمد بن سهل (٠٠٠ ـ ٣٣٠ هـ) أبو الحسن بن الصائغ الدينوري: من كبار المشايخ، أقام بمصر ومات بها. وأسند الحديث. «طبقات الصوفية» (٣١٢).

المنام، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعليٌ بين يديه رضي الله عنهم. فجلست بين يديه ﷺ، فإذا برجلين قد جلسا بين يديه وادعى أحدهما على الآخر دعوى في مطالبة بحق، فالتفت إليّ النبي ﷺ وقال لي: يا أبا القاسم احكم بينهما، فسكت إعظاماً لرسول الله ﷺ واحتشاماً من أصحابه رضي الله عنهم، فأعاد القول ثانياً وثالثاً وأنا أسكت هيبةً له واعظاماً له وإجلالاً، فقال في الرابعة: احكم بينهما فقد وليتك الحكم بين الخلق فانتبهت وأنا مذعور، فجئت إليكم أتسلى.

وقال جعفر الخلدي[1]: دفع إليّ الجنيد درهماً وأمرني أن أشتري له التين الوزيري، فاشتريته وجئت به إليه ووضعته بين يديه، فوضع منه تينة في فمه على أنْ يُفْطر عليها، ثم وقع عليه البكاء فأخرجها من فيه وأخذ الماء فغسل فمه، فقلت له: ما هذا؟ فقال: كنت أشتهيه منذ ثلاثين سنة فما أكلته، فلما كان اليوم غلبتني نفسي بشهوتها، فلما وضعته في فمي إذا هاتف يهتف بي، ويقول: أما تستحي! تركت أكلةً لله تعالى ثم تعود إليها فأخرجتها من فمي ورأيت أنَّ ترك العهد خيانة، وأنَّ الخؤون لا يكون محبوباً.

وقال له أبو عمرو الزجاج: أريد الحج فأعطاه درهماً صحيحاً فشدَّه على مئزره، فما زال في سعة حتى رجع والدرهم معه، فمدَّ الجنيد يده وتناول منه الدرهم.

وقال: صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة كل طبقة ثلاثون رجلاً الحارث المحاسبي وطبقته، والسري السقطي وطبقته، وحسن المسوحي[2] وطبقته،

---

(١) جعفر بن محمد بن نصير (٠٠٠ ـ ٣٤٨ هـ) الخلدي: بغدادي المنشأ والمولد، صحب الجنيد وعرف بصحبته. كان من أفتى المشايخ وأجلهم، وأحسنهم قولاً. حج قريباً من ستين حجة. أسند الحديث ورواه. توفي ببغداد. «طبقات الصوفية» (٤٣٤).

(٢) الحسن بن علي أبو علي المسوحي أحد الكبراء من شيوخ الصوفية، حكى عن بشر بن الحارث وروى عنه الجنيد بن محمد، وهو أستاذ أكثر البغداديين مثل أبي حمزة وأبي محمد الجريري وغيرهما، وكان من كبار أصحاب سري السقطي، وأول من عقدت له الحلقة ببغداد يتكلم في هذه العلوم، ولما قعد حضره جماعة أصحاب السري، ولم يكن له منزل يأوي إليه وإنما كان يأوي إلى مسجد بباب الكناس «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٦٦) «اللباب» (٣/ ١٤١).

وابن الكربتي وطبقته فما تواخى اثنان في الله عزَّ وجلَّ.

وجاء رجل للجنيد فقال له: عرِّفني في هذا الزمان أخاً لله عزَّ وجلَّ، فأعرض الجنيد عنه حتى أعاد ذلك ثلاثاً، فلما أكثر قال له الجنيد: إنْ رأيت أخاً يكفيك مؤنتك، ويتحمل أذاك، فهذا لعمري قليلٌ، وإنْ أردت أخاً في الله تحمل أنت مؤنته، وتصبر على أذاه، فعندي جماعة أعرِّفهم لك. فسكت الرجل.

وسأله أبو محمد الجريري عن رجل حلَّ به أمر من الأمور، فهو يكتم سره ولا يسأل ربه عزَّ وجلَّ كشفه، وآخر إذا وقع له شيء من ذلك لجأ إلى الله عزَّ وجل بالدعاء والتضرع، أيهما عندك أعلى؟ قال: الذي يكتم سره في نفسه ولا يبديه، يعلم أنَّ علاَّم الغيوب والسرائر عالم بما هو فيه لا يخفى عليه خافية، فيوافق بذلك علمه.

وقال رضي الله عنه: ما نمت على فراش منذ أربعين سنة.

وقال خير النساج[1] رضي الله عنه: كنت جالساً في بيتي، فخطر لي أنَّ أبا القاسم الجنيد في الباب أخرج إليه، فنفيت ذلك عن قلبي وقلت: وسوسة، فوقع خاطر ثانٍ كذلك فنفيت ذلك عن سرّي، فوقع خاطر ثالث كذلك، فقلت: إنَّ خاطر حق وليس بوسوسة؛ ففتحت الباب فإذا الجنيد قائم فسلَّم عليَّ؛ وقال: يا خير! لِمَ لا خرجت مع الخاطر الأول؟

وقال ابن علوان[2]: خرجت يوماً إلى سوق الرَّحْبة[3] في حاجة، فرأيت

---

(١) خير النساج: محمد بن إسماعيل (٠٠٠ ـ ٣٢٢ هـ) السامريّ، أبو الحسن: أصله من سامراء، وأقام ببغداد. صحب أبا حمزة البغدادي، وسأل السريّ السقطي عن مسائل. تاب في مجلسه إبراهيم الخواص والشبلي. عمر طويلاً، وكان من أقران النوري وطبقته. عاش مائة وعشرين سنة. «طبقات الصوفية» (٣٢٢).

(٢) حاتم بن علوان ويقال: حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان وقدمائهم، من أهل بلخ، وكان تلميذ شقيق وأستاذ أحمد بن خضرويه، مات بواشجرد (من قرى ما وراء النهر نحو ترمذ) سنة (٢٣٧ هـ) وأسند الحديث «طبقات الصوفية» (٩١) «الرسالة القشيرية» (٢٦).

(٣) هناك عدة أماكن بهذا الاسم ولعل المراد: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على=

جنازة فتبعتها لأصلّي عليها، ووقفت حتى يدفن الميت، فوقعت عيني على امرأة مسفرة من غير تعمّد، فألمحت بالنظر إليها فاسترجعت واستغفرت الله تعالى وعُدْت إلى منزلي، فقالت لي عجوز: مالي أرى وجهك قد اسودَّ؟ فأخذتُ المرأة فنظرتُ فإذا وجهي أسود، فرجعت إلى سرّي أنظر من أين دُهيت؟ فقلت: من النظرة، فانفردت في موضع أستغفر الله تعالى وأسأله الإقالة أربعين يوماً، فخطر في قلبي أنْ أزور شيخي الجنيد، فانحدرت إلى بغداد، فلما جئت منزله طرقت الباب، فقال لي: ادخل يا أبا عمرو، تذنب بالرّحبة ونستغفر لك ببغداد.

وقال الجنيد رضي الله عنه: دخلت على السري يوماً فوجدت بين يديه رجلاً قد غُشِيَ عليه، فقال لي: هذا رجل سمع آية من كتاب الله فغُشِيَ عليه، فقلت: اقرأ عليه تلك الآية، فقرأ فأفاق، فقال: من أين قلت هذا؟ فقلت له: إنَّ نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام كان ضَعْف بصره في قميص يوسف، وكان رجوع بصره في قميص يوسف. فاستحسن السري مني ذلك.

وسُئِل عن من لم يبق عليه من الدّنيا إلا مقدار مصِّ نواة، فقال: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم»[1]

وقال أيضاً: إنَّك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية.

وقال: الفتوة بالشام، واللسان بالعراق، والصدق بخراسان.

وقال: كنت واقفاً في مسجد الشونيزي أنتظر جنازة أصلّي عليها، وهناك جمع كثير ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسألُ الناس شيئاً، فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل، فلمّا انصرفت إلى منزلي، وكان لي أوراد من الليل، فلم أقدر على شيء منها، فسهرت قاعداً

= يسار الحجاج إذا أرادوا مكة وقد خربت الآن. «معجم البلدان» (٣/ ٣٣).

(١) حديث «المكاتب عبد» أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٣٩٢٦) بإسناد حسن.

أفكر في سبب ذلك، فغلبتني عيناي فنمت، فرأيت ذلك الفقير كأنَّه على خِوان ممدود، وقالوا لي: كُلْ لحمه فإنك قد اغتبته، فكُشِفَ لي عن الحال، فقلت: إني ما اغتبته، وإنما قلت شيئاً في نفسي، فقالوا: هذه غيبة، وإنَّا لا نرضى منك بهذا، اذهب فاستحلَّ منه، فلمَّا أصبحت قصدت ذلك الموضع مراراً حتى رأيته يلتقط من جانب النهر أوراقاً من البقل الذي يسقط، فسلَّمت عليه فردَّ عليّ السلام، وقال لي: يا أبا القاسم! تعود؟ فقلت: لا أعود: فقال: غفر الله لنا ولك.

وقال: كان السري يقول لي: تكلم على الناس. وكنت أجد في قلبي حشمة من الكلام على النَّاس، لأني كنت أتهم نفسي في استحقاقي لذلك، فرأيت ليلة جمعة في منامي النبيَّ ﷺ فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت وأتيت السري قبل أنْ أصبح فدققت عليه الباب، فقال لي: أنت لم تصدقنا حتى رأيت رسول الله ﷺ وأمرك بالكلام، فلمَّا كان النهار قعدت في الجامع وانتشر في الناس أنَّ الجنيد جلس يتكلم، فكان أول مجلس أن وقف عليّ غلام نصراني متنكراً، وقال: أيها الشيخ! ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله»؟[1] فأطرقت ثم رفعت رأسي، وقلت له: معناه أنَّك تسلم فقد جاء وقت إسلامك. فأسلم الغلام.

وقال الجريري: قدمت من مكة فبدأت بالجنيد لئلا يتعنى[2] إليَّ، فسلمت عليه ثم أتيت إلى المنزل، فلمَّا صليت الصبح إذا به خلفي في الصف، فقلت له: إنَّما جئتك في الأمس لئلا تتعنى، فقال: يا أبا محمد! ذاك فضلك، وهذا حقك.

---

(١) حديث «اتقوا فراسة»: أخرجه الترمذي في السنن برقم (٣١٢٥)، والبخاري في التاريخ (٧/ ٣٥٤)، وابن جرير في التفسير (١٤/ ٣١، ٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٨١)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ١٢٩)، وأبو الشيخ في الأمثال (ص٧٨)، وغيرهم. وله طرق أخرى تصحح الحديث.

(٢) يتعنى: يتعب نفسه. «مختار الصحاح» (عني).

وكان يقول: التصوف هو صفاء المعاملة مع الله عزَّ وجلَّ وأصله العزوف عن الدنيا، كما قال حارثة رضي الله عنه: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري[1].

وقال: رأيت إبليس في المنام عُرياناً، فقلت: يا ملعون! أما تستحي من الناس؟ فقال: يا أبا القاسم! هؤلاء ناس ما بقي مَنْ يستحيى منهم، قومٌ في مسجد الشونيزي قد أضنوا جسدي، وأحرقوا كبدي. قال: فلما انتبهت جئت إلى المسجد فإذا فيه جماعة منهم النُّوري والدقاق والحيري وقد وضعوا رؤوسهم على ركبهم، فلما رأوني قد أقبلت، رفعوا رؤوسهم إليّ، وقالوا: يا أبا القاسم! لا يغرنَّك حديث الخبيث.

وسُئِل رضي الله عنه عن العارف؟ فقال: إنَّ لون الماء لون إنائه، أي: هو بحكم وقته.

وكان يقول: إذا رأيت الصوفي يعبأ بظاهره، فاعلم أنَّ باطنه خراب.

ومن دعائه: اللهمَّ يا مَنْ هو كل يوم هو في شأن، اجعلني من بعض شأنك، يا أرحم الراحمين.

ومنه أيضاً: اللهمَّ إني أسألك أنْ تعطيني عملاً يكون لك خالصاً، وأعوذ بك من كل أمر يسخطك. اللهمَّ اجعلني ممن يذكرك ذكراً لا يريد بذكره إلا ابتغاء مرضاتك وما هو لك. اللهمَّ اجعلني ممن يُعطي لك ويمنع لك وبك يستعين وإليك يلجأ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً دائماً لا انقطاع له ولا زوال كما ينبغي لكرم وجهك وعزِّ جلالك.

اللهمَّ واجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين محمد ﷺ كلَّما ذكره الذاكرون، وكلما سها عن ذكره الغافلون، وعلى

---

(١) حديث «عزفت نفسي»: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٦٦، ٢٦٧)، وابن أبي شيبة في الإيمان برقم (١١٤)، وابن المبارك في «الزهد» (ص١٠٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٢٩) والبيهقي في الزهد برقم (٩٧٣). «كنز العمال» (١٣/ ٣٦٩٨٨).

جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى يوم الدين، وصلِّ على جبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان وعزرائيل، وسلِّم اللهمَّ وصلِّ على الكروبيين[1] والروحانيين وسائر الملائكة والمقربين والحفظة والسَّفَرة وجميع الملائكة والمؤمنين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين صلاة ترضاها وتزكيها وتحبها وكما هم أهل لذلك.

اللهم [وأدِّ][2] مظالمنا عنا في تبعاتنا جوداً وفضلاً وكرماً يا أرحم الراحمين. اللهمَّ وبارك لنا في الموت وما بعد الموت، إذا نزل بنا اجعله يوم حبٍّ وكرامةٍ وزلفى وسرور واغتباط، وأوردنا من قبورنا على سرورٍ وفرحٍ وقرةِ أعين، واجعلها رياضاً من رياض جنّتك ولقنَّا فيها الحجج، وآمنا فيها من الرَّوعات آمنين مطمئنين إلى يوم تبعثنا، يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه آمِنَّا من روعات ذلك اليوم، وخلِّصنا من شدائده، واكشف عنا عظيم كربه، واسقنا في ظمئه واحشرنا في زمرة سيد المرسلين محمد ﷺ الشافع المشفَّع لأوليائك، المقدَّم على جميع أصفيائك، ونسألك أنْ لا تحاسبنا، فإنْ حاسبتنا فحاسبنا حساباً يسيراً بلا مناقشة. وعاملنا بجودك وكرمك يا أرحم الراحمين، واجعلنا من المغبوطين، وأعطنا كتابنا بالأيمان، وأجزنا السراط مع السرعان، وثَقِّل موازيننا، ولا تُسْمِعنا لنار جهنم حسيساً ولا زفيراً، وأجرنا منها ومن كل ما قَرَّب منها، ومن كل ما قرَّب إليها من قولٍ وعمل ونية، واجعلنا بجودك ومجدك وكرمك في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً، واجمع بيننا وبين آبائنا وأمهاتنا وأقاربنا وذرياتنا في دار قُدُسك على أفضلِ حال وأسرّها، وضمَّ إلينا إخواننا الذين هم على إلفتنا من كل ذكر وأنثى، وبلِّغهم ما أمّلوه، واجمع بيننا وبينهم على أفضل حال وأسرّها، وعُمَّ المؤمنين والمؤمنات جميعاً برأفتك ورحمتك،

---

(١) الكروبيون: ـ مخففة الراء ـ سادة الملائكة. «القاموس المحيط» (كرب). وهم المقربون.
(٢) زيادة من «الحلية» ليصح المعنى (١٠/ ٢٨٥).

الذين فارقوا الدنيا على توحيدكَ كن لنا ولهم ولياً وكالئاً[1] يا أرحم الراحمين، تقبل من محسنهم وتب على مسيئهم، واغفر لهم وتقبل توبتهم، وتجاوز عن المسرف منهم وانصر مظلومهم واشف مريضهم، وتب علينا وعليهم توبة نصوحاً ترضاها فإنَّك الجواد الكريم على كل شيء قدير، وكن للمجاهدين ولياً وكالئاً وكافياً وناصراً وانصرهم على عدوهم نصراً عزيزاً واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً، واجعل اللهمَّ دائرة السَّوء على أعدائك وأعدائنا، اسفك اللهمَّ دمائهم، واجعلهم فيئاً[2] لإخواننا المؤمنين، وأصلح اللهمَّ الراعي والرعية وكلَّ من وليته شيئاً من أمور المسلمين صلاحاً باقياً دائماً، اللهمَّ أصلحهم في أنفسهم، وأصلحهم لمن وليته عليهم، وهب لهم العطف والرأفة والرحمة بهم[3]، وأدم ذلك لنا فيهم ولهم في أنفسهم. اللهمَّ اجعل لنا الكلمة، وأحقن الدماء، وأزلْ عنا الفتنة، وأعذنا من البلاء كله، تولَّ ذلك بفضلك من حيث أنت أعلم به، ولا ترنا في أهل الإسلام سيفين مختلفين، ولا ترنا بينهم خلافاً، واجعلنا على طاعتك وعلى ما يقرب إليك فإنَّك أهل التقوى وأهل المغفرة، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة.

اللهمّ إنَّا نسألك أنْ تعزّنا ولا تُذلّنا، وترفعنا ولا تضعنا، وتكون لنا ولا تكون علينا، وتجمع لنا سبيل الخيرات كلها، أمور الدنيا التي هي بلاغ لنا إلى طاعتك، ومعونة لنا على موافقتك، وأمور الآخرة التي فيها أعظم رغبتنا وإليها منقلبنا، ولا تجعل معوّلنا إلا عليك فإنَّ ذلك لا يتم لنا ولا يصلح[4] لنا إلا بتوفيقك.

اللهمّ وهبْ لنا هيبتك وإجلالك وتعظيمك وما وهبته لخاصتك مِنْ صفوة خلقك من حقيقة العلم والمعرفة بك. ومُنَّ علينا بما مننت به عليهم مِنْ آلائك

---

(١) كالئاً: حافظاً. «مختار الصحاح» (٥٧٥).

(٢) فيئاً: غنيمة «مختار» (٥١٦).

(٣) في الأصل: لهم، والتصحيح من «الحلية» (١٠/ ٢٨٧).

(٤) في الأصل: لا يتم لك ولا يصح. والتصحيح من «الحلية» (١٠/ ٢٨٧).

وكراماتك، واجعل ذلك دائماً لنا يا من له ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

اللهمَّ وهَبْ لنا العافية الكاملة في جميع الأحوال، وفي جمع الإخوان والذريّات والقرابات، وعُمَّ بذلك جميع المؤمنين والمؤمنات. أجرِ علينا من أحكامك أرضاها وأحبها وأعونها على كل مقرِّب من قولٍ وعملٍ ونية.

يا سامع الأصوات! يا عالم الخفيات! ويا جابر الأرض والسموات، صلِّ على محمد سيد المرسلين، وعلى آل محمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وسلِّم تسليماً كثيراً، وأجبنا اللهمّ كما وعدتنا، وقد دعوناك كما أمرتنا، وافعلْ بنا ما أنت أهله يا أكرم الأكرمين! ويا أرحم الراحمين! ويا رب العالمين!.

قال الحافظ أبو نعيم في «الحلية»: كان الجنيد.. قدس الله سرَّهما ـ يدعو بهذا الدعاء على ممرِّ الأيام.

ومنه: يا ذاكر الذاكرين بما به ذَكَرُوه، ويا بادىء العارفين بما به عَرَفوه، ويا موفق العابدين بصالح ما تحملوه، مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، مَنْ ذا الذي يذكره إلا بفضله.

وقيل له عند النزع قل: لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته، فأذكره.

وقال أبو محمد الجريري: كنت واقفاً عند رأس الجنيد عند وفاته، وكان يوم جمعة وهو يقرأ القرآن، فقلت له: يا أبا القاسم! ارفق بنفسك، فقال: يا أبا محمد! ما كنت أحوج إليه مني في هذا الوقت، وقد قَرُبَ أنْ تطوى صحيفتي. وفي رواية أخرى: حضرتُ عنده قبل وفاته بساعتين فلم يزل تالياً وراكعاً وساجداً حتى فارق الدنيا.

توفي ببغداد يوم السبت سنة ثمان وتسعين ومائتين وصلّى عليه ولده وحُزِرَ الذين صَلّوا عليه فكانوا قريباً من ستين ألفاً.

ورآه جعفر بن محمد في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم،

وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار.

قال الإمام الرازي: فكل أحد يظن أنَّ ما معه من العلوم والأعمال وسيلة إلى وجدان مِلْك الجنة، والوصول إلى عتبة حضرة الحق تعالى، فإذا جاء وقت الموت بطلت تلك الأوهام، وزالت تلك الأفكار، وبقي المسكين على تراب الحرمان، وموضع الذلة والعجز. انتهى.

ورؤي رضي الله عنه أيضاً في المنام، فقيل له: ما فعل الله - عزَّ وجلَّ - بك؟ فقال: عاتبني على كلمة سبقت مني، وذلك أنّ سنةً من السنين احتبس عنا فيها المطر، فقلت مع الناس: ما أحوج الناس إلى المطر! فقال الحق جل جلاله: أتنبئني بأرضي؟ وتقول: محتاجة إلى المطر، وأنا العليم الخبير، وما ننزله إلا بقدر معلوم.

وقال الجريري: كان في جوار الجنيد رجل مصاب في خَرِبَة، فلما رجعنا من جنازة الجنيد تقدم ذلك المصاب فصعد موضعاً عالياً وقال: يا أبا محمد! تراني أرجع إلى تلك الخَرِبَة، وقد فقدت ذلك السيد العارف؟ ثم أنشأ يقول:

وا أسفي مِن فراقِ قومٍ ... هم المصابيحُ والعيونُ
والمدنُ والمزنُ والرواسي ... والخيرُ والأمرُ والسكونُ
لم تتغيرْ لنا الليالي ... حتى توفتهم المَنُونُ
فكلُّ جمرٍ لنا قلوبٌ ... وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

ثم غاب عنا فكان هذا آخر العهد به رضي الله عنهم.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة الشريفة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة سيدنا الشيخ أبو علي الروذباري رضي الله عنهما:

***

سيدنا الشيخ أبو علي أحمد الروذباري

رضي الله عنه

العارف كل العارف، كان من أئمة الصوفية وعلماء الشافعية، ساد أهل ذلك المذهب في زمنه، حتى أصبح أمثلهم طوع مرامه، وقوساً في يده يرمي بها إلى غرضه بسهامه، وهو بغدادي الأصل من أبناء الرؤساء والوزراء ونسبه متصل بكسرى.

وكان عالماً محدّثاً صوفياً صحب في التصوف الجنيد، والفقه ابن سُرَيج، والحديث إبراهيم الحربي[1]، والنحو جماعة منهم ثعلب[2]. وكان يفتخر بذلك.

أقام بمصر وصار فقيهها ومحدّثها وصوفيها يُقْصَدُ للأخذ عنه من جميع الآفاق.

أتاه جمع من الفقراء فاعتلّ منهم واحد، فأمر أصحابه بخدمته فملّوا فحلف أنْ لا يخدمه غيره، فخدمه بنفسه حتى مات فدفنه، فلما أراد فتح رأس كفنه ليضجعه[3] مستوياً فتح عينيه وقال: يا أبا علي! لأنصرنَّك بجاهي إلى يوم القيامة كما نصرتني بمخالفة نفسك.

وقال: دخلت مصر فرأيت الناس مجتمعين، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: في جنازة فتى سمع قائلاً يقول:

---

(١) إبراهيم الحربي: إبراهيم بن إسحاق بن بشير (١٩٨ - ٢٨٥ هـ) البغدادي: من أعلام المحدثين. أصله من مرو، واشتهر وتوفي في بغداد، ونسبته إلى محلة فيها. كان حافظاً للحديث، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، قيماً بالأدب، زاهداً، تفقه على الإمام أحمد. «الأعلام» (١/ ٣٢).

(٢) ثعلب: أحمد بن يحيى بن زيد (٢٠٠ - ٢٩١ هـ) إمام الكوفيين في النحو واللغة. كان راوية للشعر، محدثاً، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة، حجة، ولد ومات في بغداد. «الأعلام» (١/ ٢٦٧).

(٣) كأن العبارة تنقص [جلس] ليصح المعنى: ليضجعه جلس مستوياً.

كَبُــــرتْ همّــــةُ عيـــنٍ   طمعـــتْ فــي أنْ تــراكــا

فشهق فمات.

وقال: اتخذ رجل ضيافة، فأوقد فيها ألف سراج، فقال له رجل: أسرفت! قال: ادخل، فكلُّ ما أوقدته لغير الله فأطفئه، فدخل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع.

ومرَّ يوماً على الفرات فعرضت لنفسه شهوة السمك، فقذف الماء سمكة نحوه، وإذا برجل يعدو ويقول: أشويها لك؟ فشواها له وأكلها.

ومن فوائده: الإشارة: الإبانة عما تضمنه الوجد من المشار إليه. وفي الحقيقة: الإشارة تصحبها العلل[1] والعلل بعيدة من الحقائق.

وقال: لو تكلم أهل التوحيد بلسان التجريد[2] لم يبق محبٌّ إلا مات حالاً.

وقال: والاهم قبل أفعالهم، وعاداهم قبل أفعالهم، ثم جازاهم بأفعالهم[3].

وقال: المريد من لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله[4] له، والمريد لا يريد من الكونين شيئاً غيره.

وقال: المشتاقون إلى الله يجدون حلاوة الوقت حين وروده لِمَا كُشِفَ لهم

---

(١) قوله (الإشارة تصحبها العلل): لشهود وجود المشير وإشارته. وفي الحكم: ما العارف من إذا أشار رأى الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له (ع).

(٢) قوله (التجريد): تجريد التوحيد هو تخليصه من إثبات مشاركة الممكنات لله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله. ومن لم يصل إلى هذا المقام ففيه من الشرك الخفي بقية. وفي الحكم: الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته (ع).

(٣) قوله (بأفعالهم): فكان عالم الشهادة عين، ومثال عالم الغيب، واللاحقة عين السابقة. ومن أدعية القرآن: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ (ع).

(٤) قوله (إلا ما أراد الله له) أي ومنه: إرادةً شرعيةً مصحوبة بالإرادة الكونية. ومن كلام الشيخ الأكبر في رسالته «روح القدس»: لا يطلق عليك اسم المريد حتى تجد في الكتاب والسنة كل ما تريد. أي فيكون فيهما غنىً وكفاية عن الزيادات الاجتهادية. وفي كلام للإمام الشعراني رحمه الله: العارف بالله لا يقدم على الأمر الاجتهادي حتى يستأذن رسول الله ﷺ فيه، فإن أذن فعل وإلا ترك (ع).

من روح الوصول إلى قربه أحلى من الشهد.

وقال: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائعٌ فألزِموه السوقَ وامُروه بالكسب.

وقال: دخلت الآفة في القوم من ثلاثة: سقم الطبيعة[1]، وملازمة العادة، وفساد الصحبة.

قال: اكتساب الدنيا مذلة، واكتساب الآخرة عزٌّ، فواعجباً لمن يختار الذل على العز.

وقال: سبحان من لا يَشْهده شيءٌ ولا يَغيب عنه شيء.

وقال: لما تشوفت القلوب إلى مشاهدة ذات الحق ألقى إليها الأسماء فسكنت وركنت إليها، والذات مستترة إلى التجلي الأخروي.

وقال: المشاهدة للقلوب[2]، والمكاشفة للأسرار، والمعاينة للبصائر، والمرئيات للأبصار.

وقال: من نظر إلى كمال نفسه مرة عمي قلبه عن النظر إلى شيء من الأكوان على وجه الاعتبار.

وقال: ما ادعى أحد دعوى إلاّ لخُلوّه عن الحقائق، إذ لو تحقق بشيء نطقت عنه الحقيقة وأغنته عن الدعاوى.

وقال: التصوف: الإناخة على باب الحق وإنْ طردوه.

وقال: من علامة مقت الله للعبد أنْ يضجر من طول مجالس الذكر. فإنّه لو

---

(١) قوله (سقم الطبيعة): المراد بها طبائع النفوس وعللها وأمراضها الدفينة مثل أن تتزكى على يد المزكي رسول الله وورّاثه من بعده. وفي الحكم: ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح (ع).

(٢) قوله (المشاهدة للقلوب): التي تقلب الكثائف لطائف فمشاهدها ملكوتية، أما المكاشفة فهي للأسرار وهي أخص من القلوب، وبينهما الروح، فالأسرار تكاشف مشاهد الأحدية، والأرواح تكاشف الجبروت عالم الصفات، فالقلب يشاهد فعله، والروح تشاهد وصفه، والسر يشاهد ذاته. (ع).

أحب الحقَّ تعالى كانت مجالسته له ألف سنة كلمحة.

وقال: لا ينبغي أنْ يتصدى لتربية الأحداث إلا الكُمَّل الذين استولت عليهم هيبة الله تعالى لِعظَم سياستهم لأنَّ الشباب شعبة من الجنون، وقد كان أحدهم يربي الحدث حتى تطلع لحيته لا يعلم بذلك إلا من الناس.

وسُئِل عمن يسمع الملاهي، ويقول: هي لي حلال لأني وصلت إلى درجة لا يؤثر فيّ الاختلاف؟! فقال: نعم! قد وصل ولكن إلى سقر.

قال السبكي[1]: وقد يُتَوصل بهذا إلى زعم أنه كان لا يرى السماع، والذي يظهر من كلامه أنَّه إنَّما أنكر مِنْ هذا القائل إظهاره الوصول إلى هذه الدرجة، فإنَّ الواصل إليها لا يتظاهر بذلك إلا بأدب، وليس مراده تحريم السماع ولا إنكار أنَّ بعض الناس لا يؤثر فيه اختلاف الأحوال، كيف؟ ومن كلامه أيضاً: السماع مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب.

وقال: أعظم اليقين ما عَظَّمَ الحق في عينك، وصَغَّرَ ما دونه عندك، وأثبت الرجاء والخوف في قلبك.

وقال: من الاغترار أنْ تسيء، فيحسن إليك فتترك الإنابة توهماً أنك تُسامح من الهفوات، وترى أنَّ ذلك من بسط الحق.

وقال: الصول[2] على من دونك ضعف، وعلى من فوقك حجة.

وسئل عن التصوف؟ فقال: هو صفوة القرب بعد كدورة البعد.

وكان يقول: أدركنا الناس وكانوا يجتمعون لا عن مواعدة، ويفترقون لا عن مشورة.

---

(١) السبكي: علي بن عبد الكافي بن علي (٦٨٣ ـ ٧٥٦ هـ) الأنصاري، الخزرجي، تقي الدين: شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين. ولد في سبك (من أعمال المنوفية بمصر) وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام وولي قضاء الشام سنة (٧٣٩ هـ) واعتل فعاد إلى القاهرة فتوفي فيها. «الأعلام» (٤/ ٣٠٢).

(٢) الصول: صال عليه: استطال ووثب. «مختار» (٣٧٣).

وقال: أظهر الحق الأسامي وأبداها للخلق، ليسكن لها قلوب المحبين، ويؤنس بها قلوب العارفين.

وقال: كيف تشهده الأشياء وبه فنيت بذواتها عن ذواتها؟! أم كيف غابت الأشياء عنه وبه ظهرت بصفاتها؟! فسبحان من لا يشهده شيء ولا يغيب عنه شيء سبحانه وتعالى.

وقال: التفكر على أربعة أوجه: فكرة في آيات الله، وعلامتها تولد المحبة؛ وفكرة في وعده بالثواب، وعلامتها تولد الرغبة؛ وفكرة في وعيده بالعذاب، وعلامتها تولد الحياء من الله[1].

ومن نظمه:

روحي إليك بكلها قد أجمعتْ ... لو أنَّ فيك هلاكها ما أقلعتْ
تبكي إليك بكلها عن كلها ... حتى يقالَ مِنَ البكاء تقطعتْ
فانظرْ إليها نظرةً فلطالما ... متعتها مِنْ نعمةٍ فتمتعت

وقال:

إنَّ الحقيقة غيرُ ما يُتَوهم ... فانظرْ لنفسكَ أيَّ حالٍ تَغْرمُ
أتكونُ في القومِ الذين تأخروا ... عن حقِّهم أو في الذين تقدّموا
لا تُخْدَعَنْ فتلوم نفسك حين لا ... يُجْدِي إليك تأسفٌ وتندّمُ

وقال:

ولو مضى الكلُّ مني لم يكنْ عجبٌ ... وإنما عجبي للبعضِ كيفَ بقي
أدركْ بقيةَ روحٍ فيكَ قد تلفتْ ... قبلَ الفراقِ فهذا آخرُ الرمقِ

وكان ببغداد عشرة فتيان معهم عشرة أحداث، واجتمعوا بمحل فوجّهوا واحداً من أحداثهم لحاجةٍ فأبطأ فغضبوا ثم أقبل وهو يضحك وبيده بطيخة

---

(١) قوله (والفكرة الرابعة): هي فكرة في أسماء الله وصفاته، وعلامتها تولد الجلال والهيبة حتى تذوب كليته وتنمحق في الحق (ع).

يقبّلها ويشمها، فقالوا: ما شأنك؟ قال: جئت بفائدة، رأيت بشراً الحافي وضع يده على هذه البطيخة فلم أزل واقفاً حتى اشتريتها بعشرين درهماً أتبرك بموضع يده، فأخذ كلٌّ منهم البطيخة فقبّلها ووضعها على عينيه، فقال أحدهم: ما بلغ بشر هذا؟ قالوا: التقوى والعمل الصالح، قال: إني تبت وأنا على طريقة بشر، وقال كل منهم مثله، وخرجوا فغزوا طرسوس فاستشهدوا، فقال فيهم أبو علي الروذباري صاحب الترجمة:

فلاذوا بهِ من بعدِ كلِّ نهايةٍ ... لياذَ مقرٍّ بالخضوعِ مع الجهد

لعجزٍ وتقصيرٍ عن الواجب الذي ... به عرفوه للورودِ مع الوِرد

فكان لهم بالغزو في غاية المنى ... شكوراً لما أولاه مِنْ رُتَبِ الحمد

وكان يطعم الفقراء الحلواء، واتخَذ مرّة أحمالاً من السكَّر الأبيض، ودعا جماعة من الحلوانيين حتى عملوا من ذلك السكر جداراً وعليه شرافات ومحاريب على أعمدة منقوشة كلها من السكر، ثم دعا الصوفية فهدموها وكسروها وانتهبوها وهو يتبسم.

وكان أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة، توفي سنة عشرين أو اثنين وعشرين وثلثمائة، ودفن بالقرافة بقرب ضريح سيدنا ذي النون المصري(١).

والروذباري: بضم الراء المهملة، وسكون الواو، ودال مهملة، وموحدة مفتوحة، آخره راء مهملة. كذا ضبطه العارف المناوي قدس الله روحه.

قلت: وهو نسبة إلى روذبار، قال في «البيان النافع شرح البرهان القاطع»: روذبار: بلدة بين جيلان وقزوين، سميت باسم نهر هنالك اسمه رودوبار بالفارسية: عظيم، فهو مركب مما ذكر.

---

(١) ذو النون المصري: ثوبان بن إبراهيم (٠٠٠ ـ ٢٤٥ هـ) الإخميمي المصري، أحد الزهاد العُبّاد المشهورين، من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. توفي بجيزة مصر. «الأعلام» (٢/ ١٠٢).

فما تراه في أكثر الكتب من إيرادها تارة روز بادي، وآونة روذبارى[1]، أو غير ذلك فهو تصحيف.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة الشريفة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة سيدنا أبو علي الكاتب رضي الله عنه:

* * *

(١) في الأصل (روذباري) ولعل الصواب ما أثبته لأنه هو الذي قال عنه المؤلف أنه مصحّف.

سيدنا أبو علي
الحسن بن أحمد الكاتب المصري
رضي الله عنه

إمام قَدْرُه عَلِيٌّ، وبرهانٌ مِنهاجُهُ حَسَنٌ، واضح جليٌّ، كان من كبار مشايخ مصر والشام، ومن أعاظم أهل الحقائق الأعلام، وافر العرفَان، مثمر الأفنان، أخذ عن أبي علي الروذباري وأبي بكر المصري وغيرهما.

ومن كلامه: إذا انقطع العبد إلى الله بكلِّيَّته فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس.

وقال: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإنْ كتموها، وتظهر عليهم وإنْ أخفوها، وتدل عليهم وإنْ ستروها.

وقال: المعتزلة نزَّهوا الله من حيث العقل فأخطؤوا، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا.

وقال: من سمع الحكمة ولم يعمل بها فهو منافق.

وقال: صحبة الفساق داء، ودواؤها مفارقتهم.

وقال: يقول الله عز وجل: «من صبر علينا وصل إلينا»[1].

وقال: إنَّ الله يرزق العبد حلاوة ذكره، فإنْ فرح به وشكر آنسه بقربه، وإنْ لم يشكره أجرى الذكر على لسانه وسلبه حلاوته.

وقال: إذا سكن الخوف القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه.

وقال: الهمَّة مقدمة الأشياء فَمنْ صحح همَّته أتت عليه توابعه على الصدق،

---

(١) حديث قدسي «من صبر علينا وصل إلينا»: لم أجده.

والصحة فإنَّ الفروع تتبع الأحوال، ومَنْ أهمل همَّته أتت عليه توابعه مهملة، والمهمل من الأحوال والأفعال لا يصلح لبساط الحق تعالى.

توفي سنة نيّف وأربعين وثلثمائة، ولم أر من ذكر ولادته رضي الله عنه.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة الشريفة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة سيدنا أبو عثمان المغربي رضي الله عنه:

***

سيدنا أبو عثمان سعيد بن سلام

المغربي الزجاجي الصوري القيرواني (رضي الله عنه)

صوفي جليل كبير عارف، عَرْف صيته أطيب من العبير، له الأحوال المأثورة، والكرامات المذكورة، والورع الوثيق، والقلب الرقيق، والصفاء التام عن الكدورات والأوهام.

وقد قيل: التصوّف صفاء لا وصف له، وعلامة لا نهاية لها.

صحب الزجاجي[1]، والنهر جوري[2]، والدينوري، وغيرهم. ولم يُرَ مثله في علوّ الحال، وصون الوقت، وصحة الحكم بالفراسة، وعظم الهيبة، وجموم الأسرار، وطرح الاختيار.

وقد قيل: التصوف سير السّرّ مع الله تعالى. كيف وهو الإمام الذي شهدت بخوارقه أرباب العلوم الأعلام، والصوفي الذي لم تشاهد العيون مثله في اليقظة والأحلام.

ومن كلامه: الاعتكاف حفظ الجوارح تحت الأوامر[3].

وقال: أبى الملك الجبار إلا أن يختبر أولياءه بتسليط عدوّهم عليهم.

وقال: من آثر صحبة الأغنياء على الفقراء ابتلاه الله بموت القلب.

---

(١) الزجاجي: محمد بن إبراهيم بن يوسف (٠٠٠ ـ ٣٤٨ هـ) أبو عمرو: نيسابوري الأصل. صحب أبا عثمان، والجنيد، والنوري، ورويماً. دخل مكة، وأقام بها، وصار شيخها، والمنظور إليه فيها. حج قريباً من ستين حجة. توفي في مكة. «طبقات الصوفية» (٤٣١).

(٢) النهرجوري: إسحاق بن محمد (٠٠٠ ـ ٣٣٠ هـ) أبو يعقوب: صحب الجنيد، وعمرو بن عثمان المكي. وجاور مدة، ومات بمكة. «طبقات الصوفية» (٣٧٨).

(٣) قوله (الأوامر): ومن هذا قولهم: التصوف ضبط الحواس، ومراعاة الأنفاس، واختيار الجُلاّس. (ع).

وقال: من اشتغل بأحوال الناس ضيع حاله، ومَنْ مدَّ يده إلى طعام غني بشهوة لا يفلح أبداً.

وقال: عاص نادم خير من طائع مدع، لأنَّ العاصي يطلب طريق توبته ويعترف بنقصه، والمدعي يتخبط في خيال دعواه.

وقال: أفواه العارفين لم تزل فاغرة لمناجاة القدرة.

وقال: من لم يسمع[1] من نهيق الحمار ما يسمع من صوت العود ودواخل المغنين فسماعه معلول.

وقال: لا يصح لمخلص معرفة إخلاصه إلا بعد معرفته الرياء ومفارقته إذْ لا يَعْرف الشيء من لا يعرف ضدَّه.

وقال: التقوى الوقوف مع الحدود.

وقال: الصوفي من لا يملك الأشياء اختياراً، ولا يملكه شيء اقتهاراً.

وقال: لا تصحب إلا أميناً أو معيناً، فإن الأمين يحملك على الصدق، والمعين يعينك على الطاعة.

وقال: للعارف وقت تضيء له أنوار العلم فتبصره عجائب الغيب.

وقال: إذا صحت المحبة تأكد على المحب ملازمة الأدب.

وقال: مَنْ لم يذقْ وحشة الغفلة لم يجد طعم أُنس الذكر.

وقال: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وقال: من ادَّعى السماع ولم يستمع من صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح فهو مفترٍ مُدَّعٍ.

---

(١) قوله (من لم يسمع): أي ما يُذَكِّره بالله سبحانه، ويدلُّه على طريق تجلياته بالأدب معه وعدم نسبة نقصٍ إليه ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾. (ع).

وقال: قلوب أهل الحق قلوب حاضرة، وأسماعهم أسماع مفتوحة.

وسُئِلَ عن الخلق؟ فقال: قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة.

ودخل عليه بعض صحبه قريب احتضارِهِ، فقال له: كيف تجدك؟ قال: أجد مولى كريماً رحيماً إلا أنَّ القدوم عليه شديد.

وقال: إنَّ الله جعل أنس عباده في رؤية أوليائه.

وقال في معنى حديث «أكثر أهل الجنة البله»[1]: الأبْلَه في دنياه الفقيه في دينه.

وكان أولاً مقيماً بمكة فسعيَ به إلى العلوية فأخرجوه، فعاد إلى بغداد ثم نيسابورَ فمات بها سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة.

ودخل رجل على الخطابي فأخبره بموته، فقال: قال رسول الله ﷺ: «كان في الأمم ناس محدثون، فإنْ يكن في أمتي فَعُمَر»[2] وأنا أقول: فإن كان في هذا العصر أحد فأبو عثمان المغربي. رواه الخطيب البغدادي.

وأوصى بأن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك[3] رضي الله عنه.

وقال الإمام القشيري: سمعت الأستاذ الإمام أبا بكر بن فورك يقول: كنت

---

(١) حديث (أكثر أهل الجنة): أخرجه البزار في «المسند»، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣١٣)، وتفرد به سلامة بن روح الأيلي وهو ضعيف. وقال ابن عدي: هذا حديث منكر بهذا الإسناد.
وقال ابن الجوزي في «العلل»: حديث لا يصح، يعني أنه موضوع.
والبُلْه: المطبوعون على الخير، والذين غلبت عليهم سلامة الصدر، الصلحاء، الهينون، الليّنون.

(٢) حديث «كان في الأمم»: رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٦٨٩)، ومسلم برقم (٢٣٩٨)، والترمذي برقم (٣٦٩٣)، والإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٥٥)، وغيرهم.

(٣) ابن فُوْرَك: محمد بن الحسن (٠٠٠ ـ ٤٠٦ هـ) الأنصاري الأصبهاني. واعظ، عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية، سمع بالبصرة وبغداد، وحدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة، وتوفي على مقربة منها فنقل إليها، وله كتب كثيرة. «الأعلام» (٦/ ٨٣).

عند أبي عثمان المغربي حين قَرُب أجله وعليّ القوال يقول شيئاً، فلما تغير عليه الحال أشرنا على عليّ بالسكوت، ففتح الشيخ أبو عثمان عينه، وقال: لم لا تقول عليّ شيئاً؟ فقلت لبعض الحاضرين: سلوه وقولوا: على ما يسمع المستمع؟ فإني أحتشمه في تلك الحالة، فسألوه فقال: إنما يسمع من حيث يستمع. ثم توفي رضي الله عنه.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة علي بن عبدالواحد الكركاني رضي الله عنه:

❊ ❊ ❊

سيدنا أبو القاسم علي الكركاني

رضي الله عنه

صاحب الصفات الكاملة، والنفس العالمة العاملة، والهمم الجليلة، والمعارف الجزيلة، والطريقة المرضية المتبعة، والأقوال والأفعال التي لا يخشى منها تبعة، زهت به الدنيا براريها وبحارها، وأشرق منه ليلها ونهارها، وتوجه الناس لعتبته الطاهرة، لتحصيل سعادة الدنيا والآخرة. عَطّر سيدنا الجامي ـ قدّس سرّه السامي ـ باسمه الشريف روضة نفحاته، ونضّر وجه جمالها بذكر كراماته، وبالغ بالثناء عليه، ولعمري ما بلغ واجب كمالاته، فقال: كان ـ قدَّس الله سرَّه ـ مفرد زمانه، لا نظير له في أيامه وأقرانه.

وكان آية جليّة جليلة في معرفة أسرار التربية للمريدين، والاطلاع على خواطرهم. وله في ذلك وقائع كثيرة:

منها ما ذكره صاحب كتاب «كشف المحجوب» قال:

حدثت لي يوماً حادثة أشكل عَلَيَّ حلُّها فقصدت زيارة الشيخ أبي القاسم ـ قدَّس الله سره ـ فوجدته في مسجدٍ أمام دارِه وحده، فلما دنوت منه سمعته يخاطب اسطوانة في المسجد بكلام يحلُّ إشكالي، فاستفدت منه الجواب قبل أنْ أسأله، ثم لمَّا جلست بين يديه، قلت له: يا سيدي! هذا الذي تتكلم به مع الاسطوانة جواب واقعتي التي جئت أسألك عنها فكيف ذلك؟! قال: يا ولدي إنَّ الله أنطق هذه الاسطوانة بالسؤال عن هذه الحادثة مني فأجبتها بما سمعت.

واجتمع الشيخ أبو القاسم والشيخ أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير في محل ببلدة طوس وجلسا على تخت واحد، وجماعة من المريدين وقوف بين أيديهما، فوقع في سرِّ أحد المريدين: إنَّه ـ ليت شعري ـ ما منزلة هذين السيدين؟ فالتفت إليه أبو سعيد: وقال له: مَنْ شاء أنْ ينظر إلى مَلِكين جالسين على تخت واحد في وقت واحد فلينظر إلينا، فلما سمع المريد هذا الكلام رفع

الله عنه حجابه، وأطلعه على صدق كلام الشيخ وشاهد علوّ منزلتهما عنده تعالى، وقال هذا المريد في نفسه أيضاً:ليت شعري هل يوجد اليوم على وجه الأرض أعظم من هذين الشيخين؟ فتوجه إليه أبو سعيد، وقال له: لو لم يجيء كل يوم ويذهب سبعون ألفاً مثل أبي سعيد وأبي القاسم لما كان هذا الملك كاملاً رضي الله عنهما.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة الشريفة عنه شيخ هذه السلسلة المبجلة سيدنا أبو علي الفارمدي رضي الله عنه:

* * *

سيدنا أبو علي
الفضل بن محمد الفارمدي الطوسي
رضي الله عنه

وهو العارف الرحماني والمربي الرباني، كان نضَّر الله وجهه عالماً شافعياً، عارفاً صمدانياً، متضلعاً بمذهب السلف ذا خبرة بمناهج الخلف، وأما التصوف فذاك عشُّه الذي منه درج، وغابه الذي أَلِفَه ليثه ودخله وخرج، تفقه على الغزالي الكبير(١) وأبي عثمان الصابوني(٢) وغيرهما.

قال المولى عبد الغافر رحمه الله: كان شيخ عصره، متفرداً بطريق في التذكير، لم يُسبَق إليها في عبارته وتهذيبه وحسن تأديته وتأديبه، ومليح استعارته، ودقيق إشارته، ورقيق ألفاظه، ووقع كلامه في القلوب.

صحب القشيري، وأخذ عنه حجة الإسلام الغزاليُّ، وجدَّ واجتهد، وكان ملحوظاً من القشيري بعين العناية، موفراً عليه منه طريق الهداية، حتى فتح عليه لوامع من أنوار المجاهدة، وصار من مذكوري الزمان ومشهوري المشايخ.

قال السمعاني(٣): كان لسان خراسان وشيخها، وصاحب الطريقة الحسنة

---

(١) لم أهتد إلى المقصود بالغزالي الكبير ولعله: عبد الوهاب بن الحسين بن برهان (٣٦٣ ـ ٤٤٧ هـ) أبو الفرج البغدادي الغزّال، روى عن أبي عبد الله العسكري وإسحاق بن سعد وخلق، وسكن صور، وبها مات في شوال عن (٨٥) سنة. «شذرات الذهب» (٣/ ٢٧٦)، و«العبر» (٣/ ٢١٦).

(٢) أبو عثمان الصابوني: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد (٣٧٣ ـ ٤٤٩ هـ) الإمام العلامة، القدوة، المفسر، المحدث، المذكر. النيسابوري. وعظ المسلمين سبعين سنة. كان حريصاً على العلم، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٠).

(٣) السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور (٥٠٦ ـ ٥٦٢ هـ) مؤرخ رحالة، من حفاظ الحديث. مولده ووفاته في مرو. رحل إلى أقاصي البلاد، ولقي العلماء والمحدثين. نسبته=

في تربية المريدين. وكان مجلس وعظه روضة ذات أنواع من الأزهار، تلمذ لأبي القاسم القشيري في الموعظة والتذكير، ولأبي القاسم الكركاني وأبي الحسن الخرقاني ـ الآتي في السلسلة الثالثة ترجمته ـ في التصوف.

ونقل العارف الجامي ـ قُدِّس سرُّه السامي ـ نبذة من أحوال بداية هدايته فقال:

ـ ومن كلامه: كنت في حال الشبوبية مشغولاً بطلب العلم في نيسابور، فسمعت أنَّ الشيخ أبا سعيد بن أبي الخير ـ قَدَّس الله سرَّه ـ جاء من بلدة ميهنة[1] وعقد مجلس وعظ فذهبت إليه، فلمَّا وقع بصري على نور وجهه عشقته ووقع في قلبي محبة طائفة الصوفية العلية.

وقال: كنت يوماً في المدرسة فالتهف قلبي لرؤية جمال الشيخ قدس الله سرهُ، ولم يكن للشيخ عادة أنْ يخرج في ذلك الوقت، فتربصت وتصبرت على ذلك، فلم أقدرْ على الصبر لحظة، فقمت أقصد محل الشيخ، فلما وصلت إلى أول السوق رأيت الشيخ ومعه جماعة كثيرة ذاهبين، فتبعتهم وأنا غائب عن شعوري، حتى دخلوا محلاً فدخلت معهم، وجلست في زاوية من زوايا المحل مستتراً عن عين الشيخ، فلما اشتغلوا بالسماع طرب الشيخ وتواجد وشق جبته الشريفة، حتى إذا فرغوا من السماع ألقى الشيخ الجبة في الأرض فأخذها المريدون، وقطعوها إرباً إرباً ووضعوها بين يديه فحمل الشيخ كُمَّاً متصلاً بنيقة[2]، ووضعه على حده، ونادى: يا أبا علي الطوسي! فما أجبته ظناً مني أنَّ في مريديه أبا علي الطوسي غيري لأنه لم يكن يراني ثم نادى ثانية وثالثة كذلك فما أجبته، فأتاني واحد من جماعته، وقال: إنَّ الشيخ يناديك، فحينئذ قمت ووقفت أمام الشيخ فأعطاني ذلك الكم مع البنيقة، وقال: أنت منَّا بمنزلة البنيقة من الكم فأخذتها وعظمتها وحفظتها في مكان عزيز واتصلت بخدمة

= إلى سمعان (بطن من تميم). «الأعلام» (٤/ ٥٥).

(١) ميهنة: من قرى خابران، وهي ناحية بين أبيورد وسرخس. «معجم البلدان» (٥/ ٢٤٧).

(٢) بَنيقة: رقعة تزاد في نحر القميص ـ طوقه ـ لتوسيعه. «مختار الصحاح» (٦٥).

الشيخ وحصل لي منه فائدة فائقة، وتجليات وأحوال وافرة صادقة.

ولما سافر الشيخ من نيسابور رجعت إلى خدمة الشيخ أبي القاسم القشيري ـ قدس الله سره ـ وكنت كلما حصلت لي حال من الأحوال أذكرها له، فيقول لي: اذهب يا ولدي واشتغل بتعلم العلم، ولم يزل ذلك الحال يزداد معي يوماً فيوماً، وأنا مشتغل بتحصيل العلم مدة ثلاث سنين، فاتفق لي أني رفعت مرّة القلم من الدواة فخرج أبيض فقمت حتى وقفت أمام الإمام القشيري، وذكرت له ذلك الأمر، فقال لي قدس سره: حيث نَزَعَ العلم يده منك فانزع يدك منه، والتفت للحال الذي أنت فيه، واسلك طريق القوم، فنقلت أمتعتي من المدرسة إلى الخانقاه، واشتغلت بخدمة هذا الأستاذ الإمام قدس الله سره.

وقال: ودخل الأستاذ يوماً إلى الحمَّام، فذهبت وحدي إلى الحمَّام وأخرجت عدة دِلاء من ماء البئر وملأته، فلمَّا خرج الأستاذ القشيري منه قال: من الذي ملأ الحمام ماءً؟ فسكتُّ، وقلت في نفسي: إني فعلت قلة أدب، فسأل مرة ثانية فما أجبته أيضاً، فلما سأل الثالثة قلت له: أنا ملأته، فقال: يا أبا علي: أبشرك بأنَّ ما حصَّلتُهُ أنا في مدة سبعين سنة فقد حصَّلتَه أنت بدلو واحد.

وقال: واستولى عليَّ مدةُ المجاهدة عند الأستاذ القشيري يوماً حال لم أكن معها شيئاً مذكوراً، فذكرت له ذلك، فقال: يا أبا علي! ذوقي ما هو أعلى من هذا! يمكن أن يكون ذلك المقام أرفع من مقامي، وأنا لا أدري طريقه، فلم أزل متشوفاً إلى شيخ يوصلني إلى أعلى من هذا مدة مديدة، وذلك الحال يزيد، وقد كنت سمعت بالشيخ أبي القاسم الكركاني، فتوجهت إلى طوس ولم أكن أعرف محله، فلما وصلت إلى البلدة سألت عنه فوجدته جالساً في المسجد مع جماعة من مريديه، فصليت تحية المسجد وجلست أمامه، وكان مطرقاً رأسه فرفع رأسه، وقال: تعال أبا علي! فقمت وسلَّمت عليه، ثم قعدت فذكرت له أحوالي، فقال: نعم! بارك الله لك في بدايتك، فإنك الآن واصل إلى أول درجة من السلوك، أما إذا حصل لك تربية فإنك تصل إلى درجة عالية، فقلت في نفسي: هذا أستاذي، ثم أقمت عنده فبعدما أمرني بأنواع الرياضات

والمجاهدات مدة مديدة، عقد لي على ابنته، وأذن لي بالكلام على الناس.

وقال قدّس الله سرّه: كان قد حضر الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير من ميهنة إلى طوس قبل أن يأذن لي الشيخ أبو القاسم بالكلام، فذهبت إلى زيارته، فقال لي: يا أبا علي استعد فإنَّه سيفتح عليك فتتكلم بلسانهم كثيراً كالبلبل، فما مرَّ على هذه البشارة زمان حتى أمرني الشيخ بعقد المجلس وفتح لي باب الكلام.

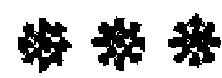
وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي قدَّس الله روحه: لقد سمعت الشيخ أبا علي الفارمدي يحدّث عن شيخه أبي القاسم الكركاني أنّه قال: التسعة والتسعون اسماً تصير أوصافاً للسالك[1] وهو بعدُ لم يصل.

توفي قدّس الله سرّه سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

والفارْمَدي ـ بسكون الراء المهملة وفتح الميم ودال مهملة ـ نسبة إلى (فارْمَد) قرية من قرى طوس.

وبواسطة هذا السيد الجليل تتصل كما قدمناه هذه السلسلة العلوية الأولى المعروفة بسلسلة الذهب بالسلسلة الثالثة الصدّيقية المشهورة الآتية.

وقد آن لنا الآن أنْ نلوي عنان جواد القلم إلى ترجمة أحوال رجال السلسلة العلوية الثانية مستمدين من روحانيتهم المباركة العناية الكافية.



---

(١) قوله (تصير أوصافاً للسالك): وفي الحديث: «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ولساناً». (ع).

السلسلة الثانية العلوية

للطريقة العليّة النقشبندية

قدّس الله أسرار ساداتها الزكية

تقدم أنّ تقديم هذه السلسلة الثانية العلوية كالأولى على السلسلة الثالثة الصدّيقية العلية، إنما هو لقرب اتصالها بها، وقلة رجالها وتفرغاً للكلام على رجال الثالثة، لامتدادهم إلى زماننا، فيكون الختم بها أليق بحالها، وإذْ كان كلٌّ خير منهل، فخير الكل له منهل، وجب ترصيع الكلام باسمه الأعلى، وإنْ سبق تكليل السلسلة الأولى به وهو الأولى:

المبدأ الفيَّاض الأعظم
صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم

قد سلف تشريف السلسلة الأولى العلوية، بذكر نبذة من أحواله وأقواله المقدسة المصطفوية، ولكن تتميماً لنظام هذه السلسلة المبجَّلة، وتعميماً للبركة بإعادة بعض أوصافه مجملة كما مرت مفصلة، زينت هذه الأسفار باسفار أنوار شمس اسمه الكريم، توسلاً لخدمته، وتوصلاً لمدحته، بهذا النظيم مؤنساً أرباب الألباب بأنس جام انسجام ثنائه العظيم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. فقلت:

يمِّمْ مكاناً في الجلال مكينا ... فيه غدا خيرُ الأنام دفينا
فيه النبيُّ المصطفى الهادي الذي ... لولا وجود سعوده لَشَقِيْنا
فيه الرسولُ أبو البتول وعزَّ من ... أمسى له صرفُ الزمانِ مهينا
فيه شفيعُ الخلقِ مَنْ بظهورِهِ ... للحقِّ مِنْ بعدِ الضلال هُدِينا
فانظرْ لهُ وانثرْ على أعتابِهِ ... دراً مِنَ الدمعِ الغزيرِ ثَميناً
واخفضْ جناحَ الذلِّ واخضعْ هيبةً ... منه وعفِّرْ بالترابِ جَبينا
وأطِلْ وقوفكَ في رحابِ جنابِهِ ... تُلْفيه في كشف الكروب ضمينا
إنْ عَمَّ غَمٌّ ليسَ غيرُ قِبابِه ... حصناً مِنَ الدهرِ الخؤونِ حصينا
فإذا التجأتَ لبابِهِ تلقى غَفُوْ ... راً للذنوبِ على الخطوبِ مُعيناً
تلقى المراحمَ والمكارمَ والهُدى ... والعلمَ والخُلُقَ العظيمَ رَهينا
لو تطلبُ الدنيا وما فيها لَمَا ... تلقاهُ مِنْ فَرطِ السَّخاء ضنينا
فاقبضْ يديك على عواطفِ يُمْنِه ... يبسطْ إليكَ مِنَ اليسارِ يمينا
واعرضْ على أعتابِهِ ما تشتكي ... منهُ تجدْ ما تشتهيهِ يقينا
واذكرْ له قلباً تقلَّبَ في العنا ... حيناً بهِ قعدَ الزمانُ حزينا
فهو الرؤوفُ بنا الرحيمُ لنا تعا ... لى أنْ يصدَّ السائلَ المسكينا

وهُوَ المحيطُ[١] بكلِّ شيءٍ رحمةً ... منـهُ وعلمـاً بـالأمـور مبينـا
يـا مـنْ تشـرّفـت السمـواتُ العـلا ... بعـروجـه وتـزيّنـت تـزيينـا
بـل سـادَ كـلَّ الأنبيـاء بـالارتقـا ... ء لطـورٍ او أدنـى السنـي لا سينـا
ارحـمْ بـربِّـك ذلتـي مِـنْ زلتـي ... وابـدلْ بفضلـكَ خيفتـي تطمينـا
وأعـذْ بـرأفتِـكَ المحيطـةِ بـالـورى ... عبـداً غـريقـاً بـالـذنـوبِ مهينـا
وأغثـهُ يـا غـوثَ الصريـخِ فَطَـالمـا ... قـد لـوّنـت لأواؤه تلـوينـا
هـذا مقـامُ العـائـذِ الـراجـي وقـدْ ... صعبـتْ عليـه أمـورُهُ تهـوينـا
نفسـي الفـداءُ لمـن بخـدمـة بـابـهِ ... كـم غـارَ إسـرافيـلُ مِـنْ جبـرينـا
أعظمْ بهِ مِنْ مرسلٍ أضحى على ... أسـرارِ عَـلّامِ الغيـوبِ أميتـا
وغـدا نبيـاً لـلأنـام وآدم ... قـد كـان مـاءً فـي العَمـاء وطينـا
وبـهِ الـوحـوشُ تباشـرتْ لمـا غـدا ... فـي بطـن آمنـة الطهـور جنينـا
والضـبُّ سَلَّـم والبعيـرُ شكـا لـه ... والجـذعُ أظهـرَ مِـنْ نـواه حنينـا[٢]
وسعـتْ لـه الأشجـارُ والأحجـارُ لا ... نـتْ والظِبـا نـالَـتْ بـهِ تـأمينـا
وأفـاضَ مـنْ بيـنِ الأصـابـعِ مـاءةً ... أروتْ مِـنَ القـومِ الظمـاء مئينـا
واختـارَ ربُّ النـاسِ فـي الـدنيـا لـهُ ... مِـنْ خيـر أديـانِ البـريـةِ دينـا
فظـلامُ ظلـمِ الشـركِ زالَ بنـورهِ ... والـديـنُ بـالتـوحيـد صـارَ متينـا
لـو لـم يكـنْ مِـنْ معجـزاتِ نبينـا ... إلا الكتـابُ كفـى بـهِ تبيينـا
قـد جـاء قـرآنـاً عظيمـاً لـم نجـدْ ... لـه فـي كـلامِ العـالميـن قـرينـا
لا يُعْـرِبُ الإيجـازُ عـنْ إعجـازه ... إذْ فـاقَ كـلَّ بـلاغـةٍ تحسينـا
لا فخـرَ إلا والنبـيُّ محمـدٌ ... قـد زادَ فـوقَ سنـامِـهِ تمكينـا
هُـوَ سيـدُ الأكـوانِ سـرُّ ظهـورِهـا ... مِـنْ كنـزهـا خيـر الـورى تكـوينـا
وأعمُّهـم فضـلاً وأطهـرُهُـم بصَـو ... نِ اللهِ آبـاءً لـهُ وبنينـا
سـارى الـوجـود لكـلِّ مـوجـودٍ امـا ... م الجـودِ أول قـابـلٍ تعيينـا

---

(١) قوله (وهو المحيط): قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (ع).
(٢) أي من فراقه والبعد عنه. (ع).

لـم تقـدرِ البلغـاءُ قَـدْرَ مقـامِـهِ   بـلْ كـانَ أقصـى علمهـم تخمينـا
حـلَّ المـدينـةَ فـاغتـدتْ لجنـابـهِ   حـرمـاً وللـديـن القـويـم عـرينـا
مَـنْ سـامَ سـامـي بـرِّه بثنـائِـهِ   حـاشـا عُـلاهُ أنْ يعـودَ غبينـا
بشـرى لكـلِّ العـالميـنَ بـأحمـد   الصـاحـبِ الجـاهِ العظيـمِ نبينـا
فـإذا تـوسلـت الأنـامُ بجـاهِـهِ   قـالـتْ مـلائكـةُ السمـا آمِينـا
هـو غـوثُ كـلِّ العـالميـنَ وفضلُـهُ   قـد فُتِّنَـتْ آلاؤُهُ تفنينـا
ولأجلـهِ المـولـى لقـد رفـعَ العـذا   بَ فـلا يعـذبنـا وأحمـدُ فينـا
فـإذا الشَّـدائـدُ أقصـدتْـكَ سهـامُهـا   فـاقصِـدْ لهـا كهـفَ الـورى يـاسينـا
والجـأْ لـهُ متـذلـلاً وبجـاهِـهِ   متـوسـلاً وعلـى حمـاهُ رهينـا
وانظـمْ وقلبـكَ واثـقٌ بقبـولِـهِ   عِقْـداً مِـنَ المـدحِ البـديـعِ حسينـا
فتعـودَ مـن إحسـانـه الضـافـي علـى   حسـانـه طلـقَ اللسـانِ فطينـا
وتـؤلـف الآلاف مـدحـاً فيـهِ لا   خمسيـنَ أو ستيـنَ أو سبعينـا
صلَّـى وسلَّـم ذو الجـلالِ عليـهِ مـا   أفنـى وأحيـا أشهـراً وسنينـا
والآلِ والأصحـابِ أقمـارِ الهـدا   يـةِ كلمـا حيـنٌ تعقَّـبَ حينـا

ثم سرى سرّ هذه النسبة العلية من فخر العالم عليه أفضل الصلاة وأتم التحية إلى سيدنا الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

***

كنز المواهب والمطالب

أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب

كرَّم الله تعالى وَجهَه وأمدّنا بنوره من كل وجهه

هو لهذه السلسلة الممدُّ الأعظم، وواسطة عقد جوهرها الأنظم، وقد تشرَّف هذا السفْر في أوائله بذكر نبذة من فضائله وشمائله، وقد تلقَّى هذه النسبة عنه عالم كثير من كبار التابعين، وأعظم من سرى إليهم سرُّها شيخ هذه السلسلة السنية سيدنا الحسن البصري رضوان الله عليهم أجمعين.

***

سيدنا الحسن البصري

رضي الله عنه

سيد التابعين الكبار، وإمام العُبَّاد والأخيار، أتقن كل فن من علمٍ وعباده، وبلغ أعلى مبلغ في الورع والزهاده، فصلى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان أكثر مشيه حافياً، ومع ذلك له هيبة عظيمة، وكان أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولاً بفعل، إنْ أمرَ بأمرٍ كان أول عامل به، أو نهى عن شيء كان أتركَ الناس له، وكان كثير البكاء والحزن، ما رآه أحدٌ إلاَّ ظنَّ أنَّه حديث عهد بمصيبةٍ.

قال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: كان أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، اتفق العلماء في حقِّه على ذلك.

وقال الجاحظ: يستثنى من كل غاية، فيقال: فلان أزهد الناس إلا الحسن، وأفصحهم إلا الحسن.

ونظر إليه راهبان فقال أحدهما لصاحبه: مِلْ بنا إلى هذا الذي سَمْتُه سَمْتُ المسيح فعدلا إليه فألفياه مفترشاً لذقنه ظاهر كفه، وهو يقول: يا عجباً لقوم أُمِروا بالزاد وأُذِنوا بالرحيل! ما الذي ينتظرون؟.

وقال: يحق لمن علم أنَّ الموت مورِده، والساعة موعده، والقيامة مشهده، أن يطول حزنه.

وقال: لا يؤمن أحد بهذا القرآن إلا حَزِنَ وذَبُلَ.

وقال: أدركت سبعين بدرياً لباسهم الصوف، لو رأيتموهم قلتم: مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا: ما لهؤلاء من خلاق[1]، ولو رأوا شراركم قالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب.

---

(١) من خلاق: من نصيب. «مختار» (١٨٧).

وقال: التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشرِّ يدعو إلى تركِه، وليس ما يفنى وإنْ كَثُرَ يعدل ما يبقى، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة التي قد تزينت بخدعها وغَرَّتْ بغرورها.

وقال: عقوبة العلماء موت القلوب، وموتها طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وقال: هجران الأحمق قربة إلى الله.

وقال: ابن آدم! نفسَك نفسَك إنما هي نفس واحدة، إنْ نجتْ نجوت، وإن هلكتْ هلكت، لن ينفعك مَنْ نجا، كلُّ نعيم دون الجنَّة حقير، وكل بلاء دون النار يسير.

وقال: إذا أراد الله بعبدٍ سوءاً ختم الله له بأسوء عمله ثم توفاه عليه.

وقال: جرَّبنا وجرَّب المجرِّبون، فلم نر شيئاً أنفع وجداناً ولا أضر فقداً من الصبر، يداوي الأمور ولا يداوى هو بغيره.

وسئل: أينام إبليس؟ فتبسم، وقال: لو نام لوجدنا راحة.

وقال: الدنيا دار عملٍ، من صحبها بالبغض لها والزهد فيها سعد بها ونفعته صحبتها، ومن صحبها برغبةٍ ومحبةٍ شقي بها وسلَّمته إلى مالا صبر له عليه.

وقال: غدا كلُّ امرىء بما يهمُّه، ومن همَّ بشيءٍ أكثر مِنْ ذكره، ومن آثر دنياه على آخرته فلا دنيا له ولا آخرة.

وقال: لو كنت ممن رضي بقتل الحسين، وعرضت عليّ الجنة، ما قبلتها حياء من المصطفى ﷺ.

وقال: عجباً! أُمِروا بالزاد، ونُودِي فيهم بالرَّحيل، وحُبِسَ أولاهم على آخراهم، وهم قعود يلعبون. ابنَ آدم السكين تُحَدُّ، والتنور يُسْجر، والكبش يُعْلَف، كفَى بالتجارب وبتقلب الأيام عظة، وبذكر الموت زاجراً عن المعصية، ذهبت الأيام وبقيت الآثامُ قلائد في الأعناق.

وقال: ما أُعطي رجل شيئاً من الدنيا إلا قيل له: خذه ومثله من الحرص.

وقال: أشد الناس صراخاً يوم القيامة رجل سنَّ ضلالة فاتُّبع عليها، ورجل يسيء الملكة، ورجل فارغ استعان بنعم الله على معاصيه.

وقال: المؤمن كالعنيزة يكفيه كفّ من حشف، وقبضة من سويق، وجرعة من ماء. والمنافق كالسبع الضاري، بلعاً بلعاً، وشرطاً شرطاً، لا يطوي بطنه لجاره، ولا يُؤثر أخاه بفضله، وجهوا هذه الفضول أمامكم.

وقال: بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود.

وقال: خفق النعال حول الرجال قلما يثبت له قلوب الحمقى.

وقال: عجباً لابن آدم! يغسل الخرا بيده مرّة أو مرّتين ثم يتكبر، يعارض جبار السماء وقد قال: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١].

وقال: لا يغرّنَّك قول من يقول: المرء مع من أحب، فإنَّك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإنَّ اليهود والنَّصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم.

وقال الغزالي قدّس الله سره: هذه إشارة إلى أنَّ ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع.

ورأى ناساً في يوم عيد يضحكون ويلعبون، فقال: إنَّ الله جعل الصوم مضماراً لعباده ليسبقوا إلى طاعته، ولو كشف الغطا لشُغِلَ مُحْسِنٌ بإحسانه ومسيء بإساءته عن تجديد ثوب أو ترجيل شعر.

وقال: ما رأيت يقيناً لا شكَّ فيه[1] أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت.

وقال وقد عوتب على تخويفه الناس بموعظته: إنَّ مَنْ خوَّفك حتى تلقى الأمن خير ممَّنْ أمَّنك حتى تلحق الخوف.

وقال له رجل: بنيتُ داراً أحبُّ أنْ تدخلها وتدعو، فدخل فنظرها، ثم

---

(١) قوله (لا شك فيه): الموت يقين لا شك فيه، ولكن الناس الغافلين عن الاستعداد له هو عندهم كشك لا يقين فيه. (ع).

قال: خرَّبت دارك وعمَّرت دار غيرك، غرَّك مَنْ في الأرض ومَقَتَك مَنْ في السماء.

ومرَّ بدار المهالبة[1] فقال: رُفِعَ الطينُ ووُضِع الدِّين.

وقال: أدركت أقواماً ما يطوى لأحدهم في بيته ثوب قطّ، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط.

وقال: ما الدنيا كلها من أولها إلى آخرها إلا كرجل نام نومة، فرأى في نومه ما يحب ثم انتبه.

وقال رجل: الفقهاء يقولون كذا، فقال: هل رأيت فقيهاً؟ إنَّما الفقيه الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه[2].

وقال: بلغنا أنَّ الله يقول: يا ابن آدم! خلقتك وتعبد غيري، وأذكرك وتنساني، إنَّ هذا لأظلَمُ ظُلْمٍ في الأرض.

وقال: إنما أنت أيامٌ كلّما ذهب يوم ذهب بعضك.

وقال: فضح الموتُ الدنيا فلم يترك فيها لذي لبٍّ فرحاً.

وقال: والله ما أعزَّ أحدٌ الدرهمَ إلا أذلّه الله.

وقال له رجل: أريد سفراً فأوصني: فقال: حيث ما كنت فأَعِزَّ أمرَ الله يُعِزَّك.

وقال: ضحك المؤمن غفلة من قلبه.

وقال: الإسلام أن يُسْلم قَلبك لله، ويَسْلم منك كلُّ مسلم وكلُّ ذي عهد.

وقال: إياك وما شغل من الدّنيا! فإنّها كثيرة الأشطان[3]، لا يفتح الرجل

---

(١) المهالبة: نسبة إلى المُهلَّب بن أبي صُفْرة. «لسان العرب» (هلب).

(٢) قوله (على عبادة ربه): وفي لفظ زيادة: الشفوق على المسلمين، الكافُّ عن أعراضهم، العفيفُ عن أموالهم، الناصح لهم. (ع).

(٣) الأشطان: جمع شَطَن، وهو الحبل الطويل. «مختار» (٣٣٨).

على نفسه باب شغل، إلا يوشك ذلك الباب أَنْ يفتح عليه عشراً.

وقال: رحم الله رجلاً لا يغره ما يرى من كثرة مخالفات الناس. ابن آدم! تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، أنت المعنيُّ وإياك يُرَاد.

وقال: بئس الرفيقان: الدنيا والدرهم، ولا ينفعانك حتى يفارقاك.

وقال: ابن آدم! طإ الأرض بقدمك، فإنّها عن قليل قبرك، إنَّك لم تزل في هدم عمرك، منذ سقطت من بطن أمك.

وقال: لا تخالفوا الله عن أمره، فإنَّ خلافك عنه عمارةُ دارٍ قضى الله عليها بالخراب.

وقال: هانوا على الله فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم.

وسئل عن حديث: «الإيمان الصبر والسماحة»[1]؟ فقال: الصبر عن معصية الله، والسماحة بأداء فرائضه.

وقال: فضلُ الفعال على المقال مَكْرُمَة، وفضلُ المقال على الفعال منقصة.

وقال لو نادى منادٍ بالمسجد: ليخرج أفسق الناس وأقلهم حياءً من الله! ما سبقني للخروج أحد.

وقال: مَنْ أقبل بقلبه على الله أقبل بقلوب خلقه إليه.

وقال: يستعان على دفع وسوسة إبليس بالذكر والقراءة، والنفس بالصوم والصلاة والمجاهدة والرياضة.

وقال: إذا أذنب عبد ثم تاب، لم يزدد من الله إلا قرباً، وهكذا كلَّما أذنَب، لأنَّه دائم السير بذنبٍ وبغيره حتى يصل للآخرة.

---

(١) حديث «الإيمان الصبر والسماحة»: أخرجه أبو يعلى في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» في «مكارم الأخلاق» «كنز العمال» (١/ ٥٧).

وشكا له رجل قسوة قلبه، فقال: عليك بمجالس الذكر، والإحسان لليتيم.

وقال: أدركت قوماً كانوا فيما أحلَّ الله لهم أزهد منكم فيما حرم.

وقال: طمع العالم في الدنيا يشينه، ويذهب بحرمته من القلوب.

وقال: ذمُّ الرجل نفسه مدح لها.

وقال: ليس بأخيك مَنْ تحتاج إلى مداراته.

وكان إذا قعد بين الناس يقعد ذليلاً، وإذا تكلم تكلم كرجل أُمِر به إلى النار، كأنَّها لم تُخْلق إلا له.

وقال: عَبَدَ بنو إسرائيل الأوثان بعد عبادة الرحمن بحبِّهم الدنيا.

وقال: أرى رجالاً ولا أرى عقولاً، وأسمع أصواتاً ولا أرى أنيساً.

وقال: خصلتان إذا صلحتا صلح ما سواهما، وإذا فسدتا فسد: الركون إلى الظَّلمة، والطغيان في النعمة.

وقال: جمع الله الخير والشرَّ كله في آية واحدة: ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية [النحل: ٩٠].

وقال: لو يعلم العابدون أنَّهم لا يرون ربهم يوم القيامة لماتوا.

وكان يقول: لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، فدسَّ إليه عمرو بن عبيدة رجلاً وقال: قل له: لا يخلو من أنْ يكون مؤمناً أو كافراً أو فاسقاً، فإنْ كان مؤمناً، فإنَّ الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا﴾ الآية [التحريم: ٨]، وإنْ كان كافراً فإنَّه يقول: ﴿قل للذين كفروا إنْ ينتهوا﴾ الآية [الأنفال: ٣٨]، وإن كان فاسقاً فإنه يقول: ﴿أولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا﴾ الآية [النور: ٤ ، ٥]، فقال للرجل: من أين لك هذا؟ قال: اختلج في صدري، قال: محال، اصدقني، فقال: عمرو، فقال الحسن: عمرو وما عمرو إذا قام بأمر قعد به، وإذا قعد بأمر قام به ورجع.

وقال: من لبس الصوف تواضعاً زاده نوراً في بصره وقلبه، ومن لبسه إظهاراً للزهد وتكبراً كُوِّر[1] في جهنم مع الشياطين.

وقال: ما كل الناس يصلح للبس الصوف، لأنه يطلب صفاءً ومراقبة.

وقيل له: ما سبب لبسك الصوف؟ فسكت، فقيل: ألا تجيب؟ فقال: إنْ قلتُ زهداً زكَّيتُ نفسي، أو فقراً أو ضيقاً شكوت ربي.

ولما بلغه موت الحجاج سجد، وقال: اللهم عَقِيرك وأنت قتلته، فأمتْ سنته وأرحنا من عمله الخبيث.

وقال: ذهبت المعارف وبقيت المناكر، ومن بقي من المسلمين فهو مغموم.

وقال: إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد.

وقال: من شرط المتواضع أنْ يخرج من بيته فلا يلقى أحداً إلا رأى له الفضل عليه.

وقال: شرُّ الناس للميت أهله، يبكون عليه، ولا يهون عليهم قضاء دينه.

وقال: لا تشتر مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

وقيل له: هل في البصرة منافق؟ فقال: لو خرج المنافقون منها لاستوحشت.

وقال: أكرمْ إخوانك يدم لك ودُّهم.

وقال: لو نظرت يا ابن آدم إلى سير أجلك لأبغضت غرور أَمَلِك.

وكان ينشد:

لیس مَنْ مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنَّما الميِّت ميِّت الأحياءِ

---

(١) كُوِّر: جمع «مختار» (٥٨٢).

وقال: وَددت أن أكلتُ أكلةً تصير في جوفي مثل الآجرة، فإنَّه بلغنا أنَّها تبقى في الماء ثلثمائة سنة.

وكان إذا استأذن عليه أحد من إخوانه، فإنْ كان عنده طعام أذن له وإلاَّ خرج إليه، ولا يتكلف فيما حضر.

وقال: كانوا يقولون: لسان الحكيم من وراء قلبه، إنْ أراد أن يقول يرجع إلى قلبه، فإنْ كان له قال وإلا أمسك، وإنَّ الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه، ما أتى على لسانه تكلّم به.

وقال: الناس ينظرون الله يوم القيامة كما شاء بلا إحاطة.

وقال: الدنيا مطيّتك إنْ ركبتها حملتك، وإن ركبتك قتلتك.

وقال: ورع العلماء في الدنيا والأموال.

وقال: إذا رأيت في ولدك ما تكره فاعلم أنَّه شيءٌ تُراد به أنت فأحسنْ.

وقال: إذا أردت عداوة رجل، فإنْ كان مطيعاً فإياك وإياه، فإنَّ الله تعالى لا يُسْلِمه إليك ولا يخلّي بينك وبينه، وإنْ كان عاصياً فقد كُفِيتَ مؤنته، فلا تتعب نفسك بعداوته.

وقال: كل مَنْ اتبع طاعة الله لزمتك مودته، ومَنْ أحبَّ رجلاً صالحاً فكأنما أحبَّ الله.

وقال: ما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدرك الآخرة بها أبداً بخلاف العكس.

وقال: يبعث الله أقواماً يطلبون هذا العلم حسبة وليس لهم فيه نية، فيتعبهم بطلبه كي لا يضيع العلم وتبقى عليهم تبعته.

وقال: الإسلام أنْ تُسْلِم قلبك لله فيَسْلم منك كلُّ مسلم(١).

وقال: المحبُّ سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه.

---

(١) تقدمت هذه العبارة.

وقال يوسف بن أسباط[1]: مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك، وأربعين سنة لم يمزح.

ودخل مكة فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس، فوقف عليه الحسن - رضي الله عنه - ثم قال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، فقال: ما آفة الدين؟ قال: الطمع. فتعجب الحسن من حُسْن جوابه مع صِغَر سنه.

وقال: لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيبَ الناس بما هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح هذا العيب من نفسك فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصَّة نفسك، وأحبُّ العباد إلى الله مَنْ كان كذلك.

وقال: يا ابنَ آدم! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

وقال: في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦]: أي يذكر المصائب وينسى النعم.

وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[2]: خَفْ مما خوفك الله منه، واحذر مما حذَّرك الله منه، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك اليقين والسلام.

---

(١) يوسف بن أسباط الزاهد من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم. روى عن الثوري وغيره. نزل الثغور مرابطاً. «السير» (٩/ ١٦٩).

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ - ١٠١ هـ) الأموي، القرشي: الخليفة الصالح، من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ في المدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان وعهد إليه بالخلافة، مدة خلافته سنتان ونصف. توفي بدير سمعان من أرض المعرة. «الأعلام» (٥/ ٥٠).

وعن الغزالي قدّس الله سره: قال الحسن: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء.

وقال: إنَّ المؤمن يصبح حزيناً ولا يسعه إلا ذلك، لأنّه بين مخافتين: بين ذنبٍ قد مضى ما يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي ما يدري ما يصنع فيه من المهالك.

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنهما ـ: اعلم أنَّ التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندمُ على الشرّ يدعو إلى تركه، فاحذر الدنيا الصارعة الخادعة التي تزينت بخدعها، وغرّتْ بغرورها وقتلت بأملها، وتشوفت لخُطّابها، فهي كالعروس المجلية، العيونُ إليها ناظرة، والنفوس لها عاشقة، والقلوب إليها والهة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فما للباقي بالماضي معتَبر، ولا للآخِرِ بما رأى من الأوَّل مزدَجَر، والنّاس فيها قسمان:

قسم قد ظفر بها فاغترَّ وطغى، ونسي بها المعاد والمبدأ، واشتغل فيها لبُّه وذهل عقله، حتى زلَّتْ قدمه، وجاءته أسرع شيء كان منيته، فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واشتدت كربته، مع ما عالج من سكرات الموت.

وقسم مات قبل أنْ يظفر منها بحاجته، فذهب بكربه وغمه، فلم يدرك منها [ما][1] طلب، ولم يرح نفسه من النصب، خرجا جميعاً بغير زاد، وقدما على غير مهاد، فاحذرها الحذر كلَّه، فإنَّها مثل الحية لين مسُّها وسمُّها يقتل، وأعرضْ عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها، وضَعْ عنك همومها لما عاينت من فجائعها، وأيقنت به من فراقها، وكن أسرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإنَّ صاحبها كلَّما اطمأنَّ إلى سرورها أعقبته بمكروه، وكلَّما ظفر منها بشيء انقلب به، فالسارُّ فيها غارٌّ، والباقي فيها غداً ضارٌّ، وُصِلَ الرجا منها بالبلا، وجُعِلَ البقا فيها إلى الفنا، سرورها مشرّب بالحزن، وآخر الحياة فيها الضعف والوهن، فانظر إليها نظر الزاهد المفارق، أمانيها كاذبة وآمالها باطلة، وعيشها

(١) زيادة من «الحلية» (٢/ ١٣٥).

نكد، وصفوها كَدَر، وأنت منها على خَطَر، إمَّا نعمة زائلة، وإمَّا بلية نازلة، وإمَّا منية قاضية، ولو كان الخالق لم يخبر عنها بخبر، ولم يضرب لها مثلاً، ولم يأمر فيها بزهد لكان حالها قد أيقظ النائم، ونبَّه الغافل، وكيف وقد جاء عن الله عز وجل زاجر وواعظ، فما لها عند الله قَدْر ولا وزن، وكيف لها وزن وهي لا تزن مقدار حصاة من الحصا، ولا قدر ثراة[1] من جميع الثرى، ولا خلق خلقاً فيما بلغني أبغض إليه منها، ولا نظر إليها منذ خلقها مقتاً لها، ولقد عُرِضتْ على نبينا محمّد ﷺ سيد الأولين والآخرين بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك مما لَه عند الله جناح بعوضة، فأبى أنْ يقبلها، وما منعه من القبول لها مع كونها لا تنقصه مما له عند الله تعالى شيئاً إلاّ أنه علم ـ ﷺ ـ أنّها أبغض الأشياء إلى الله، فأبغضها لبغض مولاه إيَّاها، وصَغَّر شيئاً صَغَّره الله، ووضع شيئاً وضعه الله، ولو قبلها كان دليلاً على حبه إيَّاها، ولكنه ـ ﷺ ـ كَرِهَ أنْ يحب ما أبغض خالقه، وأنْ يرفع ما وضع مالكه.

ومما يدل على شرِّ هذه الدنيا أنَّ الله تعالى قبضها عن أنبيائه وأحبابه اختياراً، وبسطها لغيرهم اعتباراً واغتراراً، فيظنُّ المغرور بها أنَّه أُكرِمَ بها، ونسي المغرور المغبون ما صنع الله تعالى بأنبيائه وأحبابه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أمَّا محمد سيد الخلق ﷺ فقد شدَّ الحجر على بطنه من الجوع.

وأمَّا موسى الكليم عليه الصلاة والسلام فرُئي خضرة البقل من صفاق[2] بطنه من هزاله، وما سأل الله تعالى يوم أوى إلى الظلِّ طعاماً يأكله من جوعه.

ولقد جاءت الروايات عنه: أنَّ الله تعالى أوحى إليه أنْ: يا موسى! إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عُجِّلت عقوبته.

---

(١) ثراة: واحدة الثرى، وهو: التراب النَّدِيّ. «مختار» (٨٣).

(٢) صفاق البطن: جلدة رقيقة تحت الجلد الأعلى وفوق اللحم. «لسان العرب» (صفق).

وأما عيسى عليه الصلاة والسلام روح الله وكلمته ففي أمره عجيبة: كان يقول: أُدمي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، ودابتي رجلي، وسراجي بالليل القمر، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، وفاكهتي وريحاني ما أنبتت الأرض للسباع والأنعام، أبِيْتُ وليس لي شيء وليس أحد أغنى مني.

وأمّا سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فكان مع ملكه يأكل خبز الشعير في خاصته، ويطعم أهله الخشكار[1]، ويطعم الناس الدرمك[2]، فإذا جَنَّ الليل لبس المسوح وغَلَّ اليد إلى العنق وبات باكياً حتى يصبح، ويأكل الخشن من الطعام.

يفعلون ذلك قربةً إلى الله تعالى ويبغضون ما أبغض الله عز وجلَّ، ويصغِّرون ما صغَّره الله تعالى.

ثم جاء الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم مِنَ الأئمة الصالحين فسلكوا منهاجهم، وألزموا أنفسهم الفكر والعِبَر، ونظروا إلى آخر الدنيا وباطنها، ولم ينظروا إلى أولها وظاهرها. ونظروا إلى عاقبة مرارتها، ولم ينظروا إلى حلاوتها، وألزموا أنفسهم الصبر عنها، أنزَلوا الدنيا بمنزلة الميتة التي لا يحل الشبع منها في حال الضرورة إليها، فأكلوا منها قدر ما ردَّ النَفَس وأبقى الروح ومَكَّن النوم، وجعلوها بمنزلة الجيفة التي اشتدَّ نتن ريحها، فكلٌّ من مرَّ بها أمسك على أنفه منها، هذه منزلتها عندهم فهم يعجبون من الأكل منها شبعاً، والتلذذ بها أشراً، ويقولون في أنفسهم: أترى هؤلاء لا يخافون من هذا الأكل، أمَا يجدون ريح النتن؟ هي والله يا أخي في العاقبة والعاجلة أنتن من الجيفة الموصوفة، غير أنَّ أقواماً استحلوا الصبر على أكلها، ولا يجدون ريح النتن،

---

(١) الخشكار: هو الرديء من كل شيء. والمقصود هنا: ما لا لبّ له من الشعير. «هامش المخطوط» (ص١١٧).

(٢) الدرمك: هو كجعفر وزناً: دقيق الحوّاريّ، والحواري: هو لباب الدقيق. «هامش المخطوط» (ص١١٧).

والذي نشأ في ريح الإهاب[1] لا يجد نتنه.

ويكفي العاقل منها أنَّ مَنْ مات وترك مالاً سَرَّه أنْ كان فقيراً، أو شريفاً أنْ كان فيها وضيعاً، أو كان فيها معافىً سرَّهُ أنْ كان فيها مبتلى، أو سلطاناً سرَّهُ أنْ كان فيها سوقة.

والله لو كانت الدنيا مَنْ أراد منها شيئاً وجده في وقته من غير تعب، غير أنَّه إذا أخذ منها شيئاً لزمه حقوق الله تعالى فيه، وسأله عنه وأوقفه على حسابه، لكان ينبغي للعاقل أنْ لا يأخذ إلا قدر قوته حذراً من السؤال والحساب.

وإنّما الدنيا إذا فكرت فيها ثلاثة أيام يوم لا ترجوه[2]، ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويوم يأتي لا تدري أأنت من أهله أم لا، ولا تدري لعلك تموت قبله.

فأمَّا أمس فحكيم مؤدِّب، وأمَّا اليوم فصديق، غير أنَّ أمس وإنْ كان قد فجعك بنفسه فقد أبقى في يديك حِكْمةً، وإنْ كنت قد أضعته فقد جاءك خَلَفٌ منه قد كان عنك طويل الغيبة، وهو الآن منك سريع الرحلة.

وغداً في يديك منه أملُه فخذْ في العمل، وترك الغرور بالأمل قبل حلول الأجل.

وإيّاك أنْ تدخل على اليوم هَمَّ غَدِه وهَمَّ ما بعدَهُ، يكفي اليوم هَمُّهُ، وغداً إذا دخل عليك دخل بشغله، فإنَّك إذا أدخلت على اليوم هَمَّ ما بعده زدتَ في حزنك وتعبك، وأردت أن يُجْمع لك في يومك ما يكفيك أيامك، هيهات! كثُر الشُّغُلُ وزادَ الحزنُ وعَظُمَ التعبُ، وأضاع العبد العمل بالأمل، ولو كان الأمل في غدك خرج من قلبك لأحسنتَ اليوم في عملك واقتصرت.

فلأصفنَّ لك الدنيا ساعة بين ساعتين[3]، ساعة ماضية وساعة باقية،

---

(١) الإهاب: الجلد ما لم يدبغ. «مختار» (٣١).

(٢) قوله (يوم لا ترجوه): أي انقطع أملك منه لذهابه، وهو أَمْسُك. (ع).

(٣) قوله (ساعة بين ساعتين): قال الشاعر:

ما فات مات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها. (ع)

فالماضية والباقية لا تجد لراحتهما لذة ولا لبلائهما ألماً، وإنَّما الدنيا ساعة أنت فيها، فالأسف إنْ صرفتك تلك الساعة عن الجنَّة، وصيرتك غداً إلى النار.

وإنما اليوم إنْ عقلت ضيفٌ نزل، بل هو مرتحل عنك، فإنْ أحسنت نُزُلَه وقِراه شهد لك وأثنى عليك بذلك، وصَدَق فيك، وإنْ أسأت ضيافته، ولم تحسن قِراه جاءك في عينيك.

وهما يومان بمنزلة الأخوين، نزل بك أحدهما فأسأت إليه، ولم تحسن فيما بينك وبينه فجاءك الآخر بعده، فقال: إني قد جئتك بعد أخي، وإنْ إحسانك يمحو سيئاتك، ويغفر لك ما قد صنعت، فدونك قد جئتك بعد أخي المرتحل عنك، فقد ظفرت بخَلَفٍ منه إنْ عقلت، فتدارك ما قد صنعت، وإنْ ألحقت الآخِر بالأول فما أخلقك أنْ تهلك بشهادتهما عليك.

وإنَّ الذي قد بقي من العمر[1] لا ثمن له ولا عدل، فلو اجتمعت الدنيا كلها ما عدلت يوماً ولا ساعةً بقي من عمر صاحبه، فلا تَبِع اليوم بغير ثمنه، ولا يكون المقبور المدفون أعظم تعظيماً لما في يديك منكَ، فلعمري لو أنَّ مدفوناً في قبره قيل له: هذه الدنيا من أولها إلى آخرها نجعلها لولدك من بعدك، يتنعمون فيها من ورائك، فقد كنت ليس لك همٌّ غيرَهم أحبُّ إليك أم يومٌ نؤثرك فيه بعمل لنفسك؟ لاختار ذلك اليوم، بل ولو اقتُصِر على ساعة لاختارها، بل لو اقتُصِر على كلمة واحدة يقولها لاختار الكلمة الواحدة.

فانتقد اليوم لنفسك وأبصر الساعة، وأعظِم الكلمة، واحذر الحسرة عند نزول السكرة، ولا تأمنْ أنْ يكون هذا الكلام حجة عليك. نفعنا الله وإيَّاكَ بالموعظة، ورزقنا خير العواقب، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ووعظ ـ رضي الله عنه ـ أصحابه فقال: إنَّ الدنيا دارُ عمل، مَنْ صحبها بالبغض لها والزهادة فيها سعد بها، ونفعته صحبتها، ومَنْ صحبها على الرغبة

---

(١) قوله (من العمر): وفي الحكم: ما فات من عمرك لا عوض له، وما بقي لك منه لا قيمة له. أي لا يُقوَّم بشيء لنفاسته. (ع).

فيها والمحبة لها شقي فيها، وأجحف بحظه من الله عز وجل، ثم أسلمتْه إلى ما لا صبر له عليه، ولا طاقة له من عذاب الله، فأمرها صغير، ومتاعها قليل، والفناء عليها مكتوب، وأهلها يتحولون عنها إلى منازل لا تبلى، ولا يغيرها طول الزمن، لا العمر فيها يفنى فيموتون، ولا وإنْ طال الثوى[1] منها يخرجون، فاحذروا ـ ولا قوة إلا بالله ـ ذلك الموطن، وأكثروا ذكر ذلك المنقلب، واقطعوا من الدنيا أكبر همومكم، فإنَّها ـ والله ـ مفضية بأهلها إلى ندامة طويلة وعذاب شديد، فلا تكونن يا ابن آدم مغتراً، ولا تأمنْ ما لم يأتك الأمان فيه، فإنَّ الهول الأعظم و مفظعات الأمور أمامك، ويحك يا ابن آدم ما يضرُّك ما أصابك من شدائد الدنيا إذا خلص لك خير الآخرة، فضح القومَ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ [التكاثر: ١].

وقال: إنَّ لأهل التقوى علامات يُعْرَفون بها: صدق الحديث، ووفاء العهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس. وحُسْنُ الخُلُق مما يقرب إلى الله.

وقال: في قوله تعالى: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ [الحاقة: ١٩] إنَّ المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسنَ العمل، وإنَّ المنافق أساء الظنَّ فأساء العمل.

وقال: من كان فيه أربع خلال أعاذه الله من الشيطان: أنْ يملك نفسه عند الرغبة[2]، والرهبة، والشهوة، والغضب.

وقال: إنَّ أعظم الحسرات غداً أنْ يرى الرجل ماله في ميزان غيره، أتدرون كيف هذا؟ رجل آتاه الله مالاً فأمره بإنفاقه في صنوف حقوق الله فبخل به، فورثه

---

(١) الثوى: الإقامة. «مختار» (٩٠).

(٢) قوله (عند الرغبة): ملك النفس عند الرغبة أن لا يعتديَ في الدعاء فيطلب ما فيه هلاكه، أو انشغاله عن الله، وأن لا يوجب على الله ثواباً لما يراه من عمله. وملكها عند الرهبة أن لا يذكر ذنبه بحيث يقنطه من رحمة الله، ويسيء الظن به (ع).

الوارث ففعل ما أمره الله تعالى فهو يرى ماله في ميزان غيره. فيالها حسرة لا تقال[1]، وتوبة لا تنال.

وقال: إنَّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه[2]، وكانت المحاسبة من همه.

وقال: أبى الله أنْ يعصيه عبد إلا أذلّه الله.

وقال: ما من رجل يعرف نعمة الله عليه فيقول: الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات. إلا أغناه الله وزاده.

وقال: رحم الله رجلاً لبس خَلَقاً، وأكل كسرة، ولزق بالأرض، وبكى على الخطيئة، ودأب على العبادة.

وقال: أصبحتَ بين مطيتين، الليل والنهار يعرجان بك حتى تقدم الآخرة، فإمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النار، فمن أعظم خطراً منك.

وسُئِل عن صفة أصحاب رسول الله ﷺ؟ فبكى ثم قال: ظهرت منهم علامات الخير في السيماء[3] والسمت[4] والصدق، وحَسُنَتْ ملابسهم بالاقتصاد، وملامسهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيِّب من الرِّزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، وانقيادهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطائهم الحق من نفسهم، ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق،لم يفرطوا في غضب، ولم يحيفوا في جود، ولم يجاوزوا حكم الله، متمسكين بالكتاب والسنة، قد شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا لله تعالى دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا لله تعالى

---

(١) تقال: من الإقالة أي تفسخ. «مختار» (٥٦٠).

(٢) قوله (واعظ من نفسه): وفي الأثر: «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه». ومن كلام الإمام الرفاعي رحمه الله: من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ. (ع).

(٣) السيماء: العلامة في الوجه.

(٤) السمت: الهيئة.

أموالهم حين استقرضهم، لم يكن خوفهم من المخلوقين، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم.

وقال: المؤمن مَنْ يعلم أنَّ ما قال الله عزَّ وجلَّ[1] كما قال، ويكون من أحسن الناس عملاً، وأشدهم خوفاً، لو أنفق جبلاً من مالٍ ما أمن دون أنْ يعاين. كلما ازداد صلاحاً وعبادةً ازداد خوفاً، يقول: لعلي لا أنجو، والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغْفَرَ لي، ولا بأس عليَّ، فينسى العمل ويتمنى على الله عز وجل.

وكان إذا تلا قوله تعالى: ﴿لا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ الآية [لقمان: ٣٣] يقول: مَنْ قال ذا؟ قاله مَنْ خلقها، وهو سبحانه وتعالى أعلم بها.

وقال: الرجاء والخوف مطيتا المؤمن.

وقال: ما من عبد قُسِمَ له رزق يوم بيوم، فلم يعلم أنَّه قد خِيرَ له إلا عاجز أو غبي الرأي.

وعن الأعمش[2] قال: كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نعدّ الدنيا شيئاً.

وقال: إنَّ المؤمن ليعمل الذنب فلا يزال به كئيباً[3].

وروى الغزالي عنه أنَّه قال: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ويا ليتني أنا ذلك الرجل، قال الغزالي قدس الله سرّه: وإنما قال ذلك لخوفه الخلود بسوء الخاتمة.

---

(١) قوله (الله عز وجل): من أصول العقائد: أن نؤمن بما جاءنا من عند الله على مراد الله، وبما جاءنا من عند رسول الله على مراد رسول الله. (ع).

(٢) الأعمش: سليمان بن مهران (٦١ ـ ١٤٨ هـ) الأسدي بالولاء: تابعي مشهور. أصله من بلاد الريّ، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض. «الأعلام» (٣/ ١٣٥).

(٣) قوله (به كئيباً): وفي الحديث: «إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن». (ع).

وقال: إذا حمد المريض الله وشكره، ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى[1].

ولمَّا ولي ابن هبيرة[2] الفزاري العراق، وأضيفت إليه خراسان أرسل إلى الحسن وابن سيرين[3] والشعبي[4] وذلك سنة ثلاث ومائة، أيام يزيد بن عبد الملك[5]، فقال لهم: إنَّ يزيد بن عبد الملك يكتب إليّ كتاباً في أمورٍ أعلم أنَّ في إنفاذها الهلكة، فإنْ أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية، فقال ابن هبيرة: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: يا ابن هبيرة! خفِ الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، إنَّ الله يمنعك من يزيد، وإنَّ يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أنْ يرسل إليك مَلَكاً فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك.

يا عمر! لا تأمن أنْ ينظر الله إليك وأنت على أقبح ما تعمل في طاعة

---

(١) قوله (ذلك شكوى): مرَّ في ترجمة الإمام الجنيد رحمه الله قوله: ليس هذا شكوى وإنما إخبار عن قدرة القادر. (ع).

(٢) عمر بن هبيرة بن سعد (٠٠٠ ـ نحو ١١٠ هـ) أمير، من الدهاة الشجعان. كان رجل أهل الشام. ولاه عمر بن عبد العزيز الجزيرة، ثم ولاه يزيد بن عبد الملك العراق وخراسان فأقام في الكوفة، ثم عزله هشام بن عبد الملك سنة (١٠٥ هـ). «الأعلام» (٥/ ٦٨).

(٣) محمد بن سيرين (٣٣ ـ ١١٠ هـ) البصري، إمام وقته في علوم الدين في البصرة، تابعي. من أشراف الكتّاب. مولده ووفاته في البصرة. اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. «الأعلام» (٦/ ١٥٤).

(٤) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار (١٩ ـ ١٠٣ هـ) الشعبي الحميري، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه. ولد ونشأ ومات فجأة في الكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان. وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز. وكان فقيهاً شاعراً. نسبته إلى شعب (بطن من همدان). «الأعلام» (٣/ ٢٥١).

(٥) يزيد بن عبد الملك بن مروان (٧١ ـ ١٠٥ هـ) من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق، وولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز. مات في إربد (من بلاد الأردن) وحمل على الأعناق إلى دمشق فدفن فيها. مدة خلافته أربع سنين وشهراً. «الأعلام» (٨/ ١٨٥).

يزيد بن عبد الملك نظر مقت، فيغلق باب التوبة دونك.

يا ابن هبيرة! إنْ تعصِ الله فإنّما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده، فلا تركبنْ دين الله وعباده بسلطان الله، فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فبكى ابن هبيرة وقام بعبرته، وأجازهم، وأضعف جائزة الحسن، فقال الشعبي لابن سيرين: سفسفنا له فسفسف لنا.

ورأى الحسن يوماً رجلاً وسيماً حسن الهيئة، فسأل عنه فقيل: إنَّه يسخر للملوك ويحبونه[1]، فقال: لله أبوه! ما رأيت أحداً طلب الدنيا بما يشبهها إلا هذا.

وكانت أمه تقص للنساء، ودخل عليها يوماً وفي يدها كراثة تأكلها، فقال لها: يا أماه! ألق هذه البقلة الخبيثة من يدك، فقالت: يا بني! إنَّك شيخ قد كبرت وخرفت، فقال: يا أماه! أينا أكبر.

ولد رضي الله عنه في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لسنتين بقيتا من خلافته بالمدينة، وحنكه بيده. وكان أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. وهو من سبي ميسان - بفتح الميم وسكون الياء التحتية وفتح السين المهملة وبعد الألف نون - بليدة بأسفل البصرة، واسمه يسار، ويلقب بأبي الحسن.

وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ، وربما غابت في حاجة، فيبكي فتعطيه أم سلمة - رضي الله عنها - ثديها تعلله به إلى أنْ تجيء أمُّه، فدرَّ عليه ثديها فشربه، فيرون أنَّ تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي، فقيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

روى عن الربيع بن أنس قال: اختلفنا إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله ما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله.

---

(١) ويحبونه: يعطونه.

ونشأ بوادي القرى، وكان من أجمل أهل البصرة.

رأى طلحة بن عبد الله، وعائشة، ولقي علي بن أبي طالب، وسمع ابن عمر وأنساً وأبا بكرة وجماعة من الصحابة، وسمع خلائق من كبار التابعين.

روى الفضيل بن عياض قال: سألت هشام بن حسان: كم أدرك الحسن من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: مائة وثلاثين، قلت: فابن سيرين؟ قال: ثلاثين.

وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة، وكانت جنازته مشهودة، قال حميد الطويل[1]: توفي الحسن عشية الخميس، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنَّها تركت منذ كان الإسلام.

وأغمي عليه عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون، ومقام كريم.

وقال رجل قبل موت الحسن لابن سيرين: رأيت كأنَّ طائراً أخذ أحسن حصاة بالمسجد، فقال: إنْ صدقتْ رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلاَّ قليلاً حتى مات الحسن، ولم يحضر ابن سيرين جنازته لشيء كان بينهما، ثم توفي بعده بمائة يوم.

وكان الحكم بن حجل صديقاً لابن سيرين، فلمَّا مات حزن عليه الحكم حتى جعل يعاد كالمريض، ثم رآه في المنام في قصر على أفضل حال، قال: فقلت له: يا أخي! أراك في حالٍ يسرني، فما صنع الحسن؟ قال: رُفِع فوقي بسبعين درجة، قلت: بماذا؟ قال: بطول حزنه.

ورأى بعض الأولياء ليلة موته أبواب السماء مفتَّحة وكأنَّ منادياً ينادي: ألا إنَّ الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راضٍ. رضي الله عنه.

ثمَّ تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة عنه سيدنا حبيب العجمي رضي الله عنه:

---

(١) حميد بن أبي حميد الطويل (٦٨ ـ ١٤٢ هـ)، أبو عبيدة الخزاعي البصري: تابعي، من أهل الحديث. مات وهو قائم يصلي. «الأعلام» (٢/ ٢٨٣).

الإمام أبو محمد حبيب الفارسي

المعروف بالعجمي رضي الله عنه

كان حسن التربية والسياسة، وافر الهمة والرياسة، مجاب الدعوة، محافظاً على الخلوة لاكتساب الجلوة، وكان من التجار ساكني البصرة.

وسبب إقباله على الآجلة وانتقاله عن العاجلة: أنَّه حضر مجلس البصري فالتفت إليه فوعظه، فوقعت موعظته من قلبه، فخرج عما كان يملك وفرَّقه في سبيل الله حتى لم يبق معه شيء، فجعل يستقرض على الله عزَّ وجل إلى أنْ كان منه ما كان، وجدَّ واجتهد.

واشترى نفسه أولاً من الله عز وجل بأربعين ألف دينار في أربع دفعات، تصدّق بعشرة آلافٍ في أول النهار وقال: يا رب! اشتريت نفسي منك بهذا، ثم أتبعها بعشرة آلافٍ أخرى، فقال: هذا شكراً لما وفقتني له، ثم أخرج عشرة آلاف أخرى، فقال: يا رب! إنْ لم تقبل مني الأولى والثانية فاقبل هذه، ثم تصدّق بعشرة آلاف أخرى، فقال: يا رب! إنْ قبلت مني الثالثة فهذه شكراً لها.

وكان يبكي الليل كلَّه، فتقوله له أمُّه: ما هذا البكاء؟ فيقول: دعيني، فإنّي أريد أسلك طريقاً لم أسلكه قبل.

ومن كلامه: إنَّ الشيطان ليلعب بالقُرّاء كما يلعب الصبيان بالجوز.

وقال: لا تقعدوا فراغاً فإنَّ الموت يليكم.

وقال: إنَّ من سعادة المرء إذا مات ماتت معه ذنوبه.

وكان يخلو في بيته ويقول: لا قُرَّة عين لمن لم تُقَرَّ عينه بك، ولا فرح لمن لم يفرح بك، وعزتك وجلالك إنَّك تعلم أنِّي أحبُّك، وأنت فعلت ذلك بي.

ومن كراماته: أنَّ رجلاً شكى إليه ديناً فقال: اقترض وأنا ضامن[1]، فأتى رجلاً فأقرضه خمسمائة درهم وضمنها أبو محمد، فطولب عند الاستحقاق، فقال لرب الدين: غداً إن شاء الله تعالى تصل إليك، فتوضأ أبو محمد ودخل المسجد ودعا الله تعالى، وجاء الرجل، فقال له حبيب: اذهب فإنْ وجدت في المسجد شيئاً فخذه، فذهب فإذا في المسجد صرة فيها خمسمائة درهم فوزنها فوجدها زائدة، فأخبره بذلك، فقال: اذهب هي لك، الذي وزنها وزنها راجحة.

وعجنت أمُّه فذهبت تجيءُ بنارٍ لتخبزه، فأتاه سائل فأعطاه العجين، فجاءت فقالت: أين العجين؟ فقال: ذهبوا يخبزونه، فأكثرت عليه، فأخبرها، فقالت: لا بدَّ من شيء نأكله، فإذا برجل لا يُعْرَف جاء بجفنة عظيمة مملوءة خبزاً ولحماً، فقالت: ما أسرع ما ردُّوه عليك وقد خبزوه وجعلوا معه لحماً.

وكان يأخذ متاعاً من التجار فيتصدّق به، فأخذ مرَّة فلم يجد ما يوفيه، فقال: يا ربّ! إنَّ الناس يحسنون ظنهم بي، وأنت فعلت بي ذلك من سترك عليّ، فلا تخلف ظنهم بي فينكسر وجهي عندهم، ثمَّ دخل داره، فإذا هو بجوالق[2] من الأرض إلى سقف البيت مملوءة دراهم، فقال: يا ربّ ليس أريد هذا، فأخذ حاجته وترك البقية.

وقال له رجل: لي عليك ثلثمائة، قال: من أين؟ قال: لي عليك، قال: اذهب إلى غد، ثم قال: اللهمَّ إنْ كان صادقاً فأدِّ إليه، وإلاَّ فابتليه في بدنه، فجيء به محمولاً مفلوجاً، فقال: التوبة، قال: اللهم إنْ كان صادقاً فعافه، فكأنَّما نشط من عقال.

وآذاه رجل وأغلظ عليه فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهمَّ إنَّ هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه فخرَّ ميتاً[3].

---

(١) في المخطوط: ضامن مني.
(٢) جوالق: وعاء. «مختار» (١٠٦).
(٣) قوله (فخر ميتاً): اشترط بعض العارفين لمن أعطي مقام ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ =

وأصاب الناس مجاعة فاشترى دقيقاً وسويقاً بنسيئةٍ، وعمد إلى خرائط[1] فخاطها ووضعها تحت فراشه، ثم دعا الله عزّ وجلّ، فجاء أرباب الديون بعد مدّة يطلبون الثمن، فأخرج تلك الخرائط وقد امتلأت، فقال لهم: زنوا فوزنوا حقوقهم[2].

وقدم رجل من أهل خراسان، وكان قد باع ما كان له بها وعزم على سكنى البصرة، فلما قدمها كان معه عشرة آلاف درهم، فأراد الخروج إلى مكة هو وامرأته، فسأل الناس: لمن يودع العشرة آلاف درهم؟ فقيل: لأبي محمد، فأتاه فقال: إني قاصدٌ وامرأتي إلى مكة وهذه عشرة آلاف أريد أنْ أشتري بها منزلاً بالبصرة، فإن وجدت منزلاً، ويخف عليك أن تشتري لنا بها فافعل، ثم سافر الرجل إلى مكة، فأصابت الناس بالبصرة مجاعة فشاور حبيبٌ أصحابه أن يشتري بالعشرة آلاف دقيقاً ويتصدّق به، فقالوا: إنما وضعها لمشترَى منزل، فقال: أنا أتصدّق بها فأشتري له بها من ربي منزلاً في الجنة[3]، فإن رضيَ وإلا دفعتُ إليه دراهمه، فاشترى بها دقيقاً وخبزه وتصدّق به، فلما قدم الخراساني من مكة أتى حبيباً فقال: يا أبا محمد! أشتريت لنا منزلاً أو تردها عليَّ فأشتري

= و«كنت لسانه الذي ينطق به» فتصرف أن لا يدعو على أحد وهو الأسلم، إلا أنه يحتمل أن الشيخ ألهمه الله انتهاء الأجل، فوافق الدعاء منه قدر الله سبحانه من غير تأثير له فيه لأن الأجل واحد لا يقدم ولا يؤخر. (ع).

(١) خرائط: جمع خريطة، وهي: وعاء من أدَم وغيره تشرج على ما فيها. «مختار» (١٧٣).

(٢) قوله (فوزنوا حقوقهم): إعطاء الله سبحانه خواص عباده وهباً من غير سبب ثابت في الكتاب والسنة. قال تعالى حكاية عن السيدة مريم: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لكِ هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾. وفي الحديث الصحيح: «بينما أيوب يغتسل عرياناً إذ خرّ عليه جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه» الحديث. (ع).

(٣) قوله (منزلاً في الجنة): تصرف حبيب العجمي في مخالفة شرط المودع لهذا المال أن يشتري له بيتاً في البصرة فاشترى له في الجنة تصرف موقوف على رضا صاحب المال، لأنه يدخل في بيع الفضولي وشرائه فإن أجازه جاز وإلا كان ضامناً. ولذلك قال لأصحابه: فإن رضي وإلا دفعت إليه دراهمه. (ع).

أنا بها، فقال: قد اشتريت لك منزلاً فيه قصور وأشجار وأثمار وأنهار، فانصرف إلى امرأته فرحاً مسروراً، فقال: قد اشترى لنا حبيب منزلاً أراه كان لبعض الملوك، فإنه قد عظَّم أمرَه وما فيه من أشجار وأثمار وأنهار، ثم أقام الخراساني يومين أو ثلاثة وجاء إلى حبيب، فقال: يا أبا محمد! أين المنزل الذي اشتريت لي؟ فقال: اشتريت لك من ربي منزلاً في الجنة بقصوره وأثماره وأشجاره وصفاته، فانصرف الرجل إلى امرأته أشدَّ فرحاً من الأول، وقال لها: إنَّ حبيباً اشترى المنزل من ربه عز وجل في الجنة.فقالت امرأته: يا فلان أرجو أن يكون قد وَفَّق الله حبيباً، وما قَدْر ما يكون لبثنا في الدنيا؟! فارجع إليه فليكتب لنا كتاباً بعهدة المنزل، فأتاه فقال: نعم، فدعى من يكتب له الكتاب، فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشترى أبو محمد حبيب من ربه ـ عزَّ وجل ـ لفلان الخراساني، إني اشتريت له منزلاً في الجنة بقصوره وأنهاره وأشجاره وصفاته، بعشرة آلاف درهم فعلى ربه سبحانه وتعالى أنْ يدفع هذا المنزل إلى فلان الخراساني، ويبرىء حبيباً من عهدته فأخذ الخراساني الكتاب، وانطلق به إلى منزله وامرأته فدفعه إليها، وأقام الخراساني نحواً من أربعين يوماً ثم حضرته الوفاة، فأوصى امرأته: إذا أنا غسلتموني وكفنتموني فاجعلوا هذا الكتاب في أكفاني، ففعلوا ذلك فلما دفنوا الرجل وجدوا على ظهر قبره رقّاً[1] مطوياً فيه مكتوب ليس يشبه مكاتيب الدنيا، فنشروه فإذا فيه:

براءة لحبيب أبي محمد من المنزل الذي اشتراه لفلان الخراساني بعشرة آلاف درهم، فقد دفع ربُّه إلى الخراساني كما شرط له حبيب وأبرأه منه. فأُتي حبيب بالكتاب فجعل يقرؤه ويقبّله ويبكي، ويروح إلى أصحابه ويقول: هذه براءتي من ربي عز وجل.

وجاءه رجل فاشتكى وجعاً في رجله وسأله أنْ يدعو له، وكان في مجلسه،

---

(١) رَقّاً: هو ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق. «مختاره (٢٥٣).

فلما تفرّق الناس أخذ المصحف وعلّقه في عنقه، وقال: يا الله! لا تسوّد وجه حبيب، ثم قال: اللهمّ عافه حتى ينصرف ولا يدري في أي رجليه كان الوجع، فوجد الرجل العافية في الحال، فسألوه: في أي رجليك كان الوجع؟ فقال: لا أدري.

وكان يُرَى بالبصرة يوم التروية ويُرَى بعرفة عشية عرفة[1].

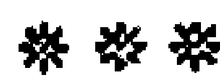
وجزع عند الموت جزعاً شديداً وقال: أريد أن أسافر سفراً ما سافرته قطُّ، وأسلك طريقاً ما سلكته قطّ، وأريد أدخل تحت التراب فأبقى تحته إلى يوم القيامة، ثم أُوْقَف بين يدي الله فماذا أقول؟!

وكان مشغولاً بالتعبُّد فلم يعرف له رواية رضي الله عنه، وإنَّما نسب إلى العجم لبقاء لُكْنَةٍ لسانه حتى لم يقدر على تجويد القرآن، نقل أنَّه كان يقرأ الحاء هاء في الحمد لله رب العالمين.

وكان يقول: إني وإنْ كان لساني عجمياً لكنَّ قلبي عربي.

توفي سنة خمس وعشرين ومائة في البصرة، ودفن بها رضي الله عنه.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة الشريفة منه سيدنا داود الطائي رضي الله عنه:



(١) قوله (عشية عرفة): طيّ الأرض ثابت في القرآن في قصة جليس سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام الذي أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه.

وثابت في الحديث: «فإن الأرض تطوى بالليل». والله سبحانه أعطى عدوّه إبليس هذا الطي الزماني والمكاني فيخطو من المشرق إلى المغرب بلحظة، فلا عجب أن يعطي الله ذلك لبعض أوليائه. (ع).

سيدنا أبو سليمان داود بن نصير

الطائي الكوفي رضي الله عنه

الفقيه الواعي، البصير الراوي، العابد الطاوي، أبصر معتبراً، وسبق مبتدراً، وتشمَّر منتصباً، وانتظر مرتقباً، أضناه الفَرَق، وأفناه القلق.

وقد قيل: إنَّ التصوّف تشمُّر لاستباق، وتضمُّر للحاق.

وقد أثنى عليه كثير من الأعيان، فقالوا: كان رفيع المقدار، كثير المريدين والأنصار، فسيح الأركان، عظيم الشأن، واضح المنهاج، بحرُ علمه متراكم الأمواج.

أسند الحديث عن عبد الملك بن عمير، وعروة بن هشام، والأعمش.

وعنه ابن عُلَيَّة[1] وإسحاق السلولي[2] وأبو نُعَيم ومصعب بن المقدام وجماعة.

قال الذهبي[3]: وكان إماماً فقيهاً ذا فنون عديدة، ثم تعبَّد وآثر الوحدة، وأقبل على شأنه، وساد أهل زمانه.

وقال غيره: كان يحضر مجلس أبي حنيفة، فقال له أبو حنيفة يوماً في تقريره: أما الآلات فقد أحكمناها، فقال له داود: فما بقي؟ قال: العمل بما

---

(١) ابن علية: إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم (١١٠ ـ ١٩٣ هـ) البصري: من أكابر حفاظ الحديث. كوفي الأصل، تاجر. كان حجة في الحديث، ثقة مأموناً. وولي صدقات البصرة، ثم المظالم ببغداد في آخر خلافة هارون الرشيد، وتوفي فيها. «الأعلام» (١/ ٣٠٧).

(٢) إسحاق بن منصور السَّلولي. انظر «طبقات ابن سعد» (٦/ ٢٨٣).

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ) الذهبي: حافظ، مؤرخ، علامة محقق، تركماني الأصل، مولده ووفاته بدمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، وكف بصره سنة (٧٤١ هـ). «الأعلام» (٥/ ٣٢٦).

علمناه؟ فاعتزله وتزهَّد وتعبَّد وانقطع لذلك، حتى صار في المجاهدة فحلاً من الفحول، هجر الوطن ووقف المواقف التي تهول، وثبت حيث الأقدام تزل، والأحوال تحول.

وقال محمد بن بشر: قدم علينا داود الطائي من السواد فكنا نضحك منه، فما مات حتى سادنا.

وقيل: إنما سبب توبته أنَّ امرأة جاءت إلى أبي حنيفة تسأله عن مسألة، فأجابها فأُعجِبت بجوابه، ثم قالت: هذا العلم فأين العمل، فأثَّر كلامها في قلب داود، فاعتزل وتعبَّد، فصار عظيم الشأن عِلماً وعملاً وزهداً وورعاً.

وأتاه بعض رفقائه في الدرس، فقال: يا أبا سليمان جفوتنا! فقال: ليس مجلسكم ذاك من أمر الآخرة في شيء، أستغفر الله، ثم قام وتركه.

وكان إذا خرج مشى في الطرق المهجورة البعيدة، فيقال له: الطريق من ههنا أقرب، فيقول: فرَّ من الناس فرارك من الأسد[1].

ومكث أربعاً وستين سنة أعزب، قال أبو سليمان الداراني[2] رضي الله عنه: فقيل له: كيف صبرت على النساء؟ قال: قاسيت شهوتهنَّ عند إدراكي سنة، ثم ذهبت شهوتهنَّ من قلبي، قال أبو سليمان الداراني: فمن صبر عنهنَّ عند إدراكه سنة لم يعرفهنَّ حلالاً ولا حراماً[3].

---

(١) قوله (فرارك من الأسد): قال الإمام الغزالي في «بداية الهداية»: من فاتته الغنيمة فليطلب السلامة في الهزيمة، فإذا كمل حاله وتزكت نفسه أمر بالخروج إلى الناس والتكلم عليهم. (ع).

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية (٠٠٠ ـ ٢١٥ هـ) العنسي المذحجي، أبو سليمان: زاهد مشهور، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. «الأعلام» (٣/ ٢٩٣).

(٣) قوله (ولا حراماً): تركه للزواج لاحتمال أنه لم تكمل شروط الباءة عنده، أو خشي على نفسه من عدم قيامه بحقوق زوجته وأولاده من السعي والتكسب، وكفى بذلك إثماً، فترك تلك المصلحة الكمالية في حقه خشية وقوعه في المفسدة. (ع).

وقال أحمد بن ضرار العجلي: أتيت داود فوجدته في دار واسعة خربة ما فيها إلا بيت، ليس له باب، فقلت: يا أبا سليمان: أنت في دار وحشة، لو اتخذت لبيتك هذا باباً ما تستوحش، فقال: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا وأهلها[1].

وكان قد ورث من أمه أربعمائة درهم، فمكث يتقوّت بها ثلاثين عاماً، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة فيبيعها، حتى باع الخشب والبَواري[2] واللَّبِن إلى أنْ بقي نصف سقف، وكان باب داره مرقوعاً قصيراً لو أنَّ غلاماً وثب سقط إلى الدار[3].

وكان الغالبَ عليه الحزن، فكان يقول بالليل: إلهي! همُّك عطَّل عليّ الهموم، وحال بيني وبين الرقاد، وشوّقني إلى النظر، ومنعني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم.

وكان يترنم في السّحر بشيءٍ من القرآن، فيرى أنَّ جميع نعيم الدنيا في ترنمه تلك الساعة.

وكان لا يسرج سراجاً أبداً. وكان يخبز له ستين رغيفاً يعلقها بشريط يفطر كلَّ ليلة على رغيفين بملح وماء فجاءت ليلة من الليالي مولاة له بتمر على طبق فأفطر ثم أحيا ليله، فلما جاء وقت الإفطار، قال جارٌ له: سمعته يحدّث نفسه

---

(١) قوله (وحشة الدنيا وأهلها): ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم كما ورد. ولكنَّ وحدته في قبره هوّنت عليه انفراده عن الناس. ورحم الله ابن عطاء إذ يقول: إنما استوحش العُبَّاد والزُّهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء. (ع).

(٢) البواري: جمع بوريّ وباريّ وباريّة وهي: الحصير المنسوج من القصب. معرّب. «مختار» (١٣٧).

(٣) قوله (إلى الدار): أفسد دنياه ليصلح آخرته وليس مطالباً بحقٍ من قبل أحد من الخلق، فحاله له يُسلَّم ولا يكون قدوة حتى لا تُعطل الخلافة في الأرض من حيث عمارتها واستمرارية الحياة فيها. (ع).

ويقول: اشتهيت البارحة تمراً فأطعمتك واشتهيت الليلة تمراً، لا ذاق داود تمراً ما دام في دار الدنيا، فما ذاقه حتى مات[1].

وقالت له مولاته: لو طبخت لك دسماً، قال: فافعلي، فطبخت له شحماً، ثم جاءت به فقال: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، قالت له: فديتك، إنما تأكل هذا الخبز بالماء، فقال: إني إذا أكلته كان في الحش[2]، فإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله عزّ وجل مذخوراً.

وقال أبو أسامة: جئت أنا وابن عيينة إلى داود الطائي، فقال: قد جئتماني مرة فلا تعودا إلي.

وكان لا يخرج من منزله حتى يقول المؤذن: قد قامت الصلاة، فيخرج فيصلي فإذا سلم الإمام أخذ نعله ودخل منزله[3].

وقال أبو الربيع: كنت أحبُّ أنْ أجتمع معه، فكان ذلك دأبه فلمّا طال ذلك عليّ أدركته يوماً، فقلت: أبا سليمان! على رسلك، فوقف، فقلت: أوصني، قال: اتق الله، وإنْ كان لك والدان فبرّهما، ثلاث مرات، ثم قال في الرابعة: ويحك صُم عن الدنيا ثم اجعل الفطر موتك، واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم.

وجاء صديق له فقال له: يا أبا سليمان! لو أعطيتني هذه الدنانير فأبضعتها لك لعلها تربح، فما زال به حتى دفعها إليه ثم فكّر فيها، فلقيه بعد العشاء

---

(١) قوله (حتى مات): لأن إعطاء النفس شهوتها من المباح قنطرة الشهوة المكروهة ثم المحرمة، فلو قطع شهوتها المباحة وقطع طمعها في ذلك كان أقطع لما سوى ذلك من المحرم والمشبوه، وثبت عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قولهم: كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام. وفي الحديث: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس». (ع).

(٢) الحَشُّ: المخرج، ويقال للبستان لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين. «مختار» (١٣٧).

(٣) قوله (ودخل منزله): لأن واجب التعليم والوعظ لم يكن متعيناً عليه لكثرة من يقوم بهذا الواجب في زمنه، أما لو انفرد لوجب عليه ذلك. (ع).

الآخرة، فقال: ارددها عليّ، فقال: ولِمَ يا أخي؟ قال: أخاف أنْ يدخل فيها شيء غير طيِّب فأخذها.

وأتاه ابن أخيه فقال: يا عم هل تكره التجارة؟ قال: لا، فقال: أعطني شيئاً أتّجر به، فأعطاه ستين درهماً، فمكث شهراً ثم جاءه بعشرين ومائة درهم، فقال: هذه ربحها، فقال: أنت كل شهر تربح الدرهم درهماً، ينبغي أنْ يكون عندك بيت مال، أردت أنْ تخدعني، ثمَّ رمى بها إليه وقال: ردَّ عليَّ رأس مالي.

وقال عبد الرحمن بن عمرو: استشارني محمد بن عامر في ترك التجارة، فأشرت عليه أنا ومحمد بن النعمان أنْ لا يترك، فكتب إلى أخ له ببغداد ما أشرنا به عليه، فكتب إليه أنَّ أخويك لم ينصحاك، إنَّ داود الطائي باع عقدة له فقيل له: لو جعلتها في التجارة يدخل عليك منها شيء، فقال: لا إمَّا أنْ تسبقني وإمَّا أن أسبقها، فجعل ينفق منها ديناراً ديناراً فمات وقد بقي منها دينار فكُفِّن به.

وعن صالح بن مسلم العجلي قال: دخلت على داود الطائي في مرض موته وليس في بيته إلا دَنٌّ مقير[1] يكون فيه خبز يابس، ومطهرة، ولَبِنَة كبيرة يجعلها وسادة وهو على التراب، وليس في بيته بارية ـ يعني الحصير ـ، ولا قليل ولا كثير.

وكان من جيران داود امرأة كبيرة أخته من الرضاع، فصنعت يوماً ثريدةً بسمن، ثم بعثت بها إليه حين إفطاره مع جارية لها، قالت الجارية: فأتيته بالقصعة فوضعها بين يديه فسعى ليأكل منها، فوقف سائل على الباب فقام ودفع إليه القصعة وجلس معه على الباب حتى أكلها، ثم دخل فغسل القصعة، ثم عمد إلى تمر كان بين يديه ظننت أنَّه كان أعدَّه لعشائه فوضعه في القصعة ودفعها

---

(١) مقير: مطلي بالقار، قيل: هو صُعُد يذاب فيستخرج منه القار، وهو شيء أسود تطلى به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل، وقيل: هو الزفت. «لسان العرب» (قير).

إليّ، وقال: أقرئيها السلام، فأعطى السائل ما جئنا به، وأعطاني ما أراد أن يفطر عليه، وأظنّه ما بات إلا طاوياً وكان قد نحل جداً.

وكان في ليلة مقمرة فقام يمشي على السطح وهو شاخص، حتى وقع في دار جارٍ له، قال: فوثب صاحب الدار عرياناً من الفراش، وأخذ السيف وظنّ أنّه لص، فلما رأى داود رجع ولبس ثيابه ووضع السيف، وأخذ بيد داود حتى ردَّه إلى داره، فقيل له ذلك فقال: ما دريت وما شعرت.

وقال أبو خالد: مررت أنا وسفيان الثوري بمنزل داود، فقال لي سفيان: ادخل بنا إليه نسلم عليه، فدخل علينا، فما احتفل بسفيان ولا انبسط له، فلما خرجنا قلت له: يا أبا عبد الله! غاظني ما صنع بك، قال: أي شيء صنع بي؟ قلت: لم يحتفل بك ولم يتبسم إليك، قال: إنَّ أبا سليمان لا يُتَّهم في مودته، أما رأيت غيبته عن نفسه، هذا في شيء غير ما نحن فيه.

وقال حماد بن أبي حنيفة[1]: جئت أنا والحسن بن زياد[2] إلى داود فقرعت الباب، فخرجت عجوز ثم ردَّت الباب ورجعت تستأذن، فسمعته يقول من داخل الدار: ما أنا والناس؟! وما أنا حتى يأتيني الناس؟! ثم أذن لنا، فلما دخلنا عليه، قلت له: بلغني يا أبا سليمان أنّك تقول: إذا صلَّى العبد وهو جنب بقوم أعاد ولم يعيدوا، قال: كذا أقول، قلت: إنَّ أبي وأصحابنا يقولون: إنَّ عليهم الإعادة، قال داود: إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يعيد ولا يعيدون، وما أبالي إذا وافقت عمر بن الخطاب بمن خالفت من أهل الأرض بعده.

---

(١) حماد بن أبي حنيفة (٠٠٠ ـ ١٧٦) الفقيه: كان ذا علم ودين وصلاح وورع تام. توفي كهلاً. له رواية عن أبيه وغيره، حدث عنه ولده الإمام إسماعيل بن حماد قاضي البصرة. «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٤٠٣).

(٢) الحسن بن زياد (٠٠٠ ـ ٢٠٤هـ) اللؤلؤي الكوفي: قاض، فقيه، من أصحاب أبي حنيفة، أخذ عنه وسمع منه، وكان عالماً بمذهبه بالرأي. ولي القضاء بالكوفة ثم استعفى. نسبته إلى بيع اللؤلؤ. وهو من أهل الكوفة، نزل ببغداد. «الأعلام» (٢/ ١٩١).

ومرَّ داود يوماً بموضع فلما وقع نظره عليه خرّ مغشياً عليه، فحُمِل إلى منزله، فلما أفاق سئل عن ذلك؟ فقال: تذكرت أنّي كنت اغتبت رجلاً في هذا الموضع، فذكرت مطالبته إياي بين يدي الله عز وجل، فلم أملك نفسي لأجل ذلك.

وقدم محمد بن قحطبة[1] الكوفة وهو ابن عم داود، فطلب مؤدباً يؤدب أولاده، حافظاً للقرآن، عارفاً بالسنن والآثار والفقه والنحو والتفسير والأصول والشعر وأيام الناس فقيل له: ما يجمع هذه العلوم إلا داود الطائي، فأرسل إليه يعرض عليه ذلك، ويسني له الأرزاق فلم يقبل، فأرسل إليه بدرة عشرة آلاف درهم صلة فلم يقبلها، فأرسل إليه بدرتين مع مملوكين وقال لهما: إنْ قبلهما فأنتما حران، فلم يقبلهما، فقالا له: إنَّ في قبولهما عتقنا، فقال: لكنْ في قبولهما رقي ورهن رقبتي في النار، ارجعا إليه وقولا له يردهما إلى مَنْ أخذهما منه.

وصام أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازاً، وكان يحمل غداءه معه ويتصدّق به في الطريق، ويرجع إلى أهله ويفطر عندهم عشاء.

ولقيه رجل فسأله عن حديث، فقال له: دعني فإني أبادر خروج نفسي.

وكان سفيان الثوري إذا ذكر داود عَظَّم أمره.

وقال عبد الله بن المبارك[2]: وهل الأمر إلاّ ما كان عليه داود.

وكان يقول: سبقني العابدون وقُطِعَ بي والهفاه.

---

(١) محمد بن قحطبة: لم أجده فيما توفر عندي من المراجع.

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضح (١١٨ ـ ١٨١ هـ) التميمي المروزي: الحافظ، المجاهد، التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره في الأسفار، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، مات بهيت (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم. «الأعلام» (٤/ ١١٥).

وقال: إنما شُرِع تعلم العلم ليعمل به الطالب أولاً فأولاً فإذا قطع عمره في تحصيله فمتى يعمل؟!

وقال: علامة كمال الزهد في الدنيا ترك مجالسة أهلها وعيادتهم إذا مرضوا إلا بنية خالصة عن العلل.

وكان لا يتجرأ أن يسأل الله الجنة، ويقول: وددت أني أنجو من النار، وأصير تراباً.

وقال له رجل: أوصني، فقال: عسكر الموت ينتظرك.

وقال له آخر: أوصني، قال: أقللْ من معرفة الناس، قال: زدني، قال: ارضَ بالقليل من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بها مع فساد الدين.

وقال: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلةً حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإنْ استطعت أنْ تقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فتزوّد لسفرك، واقض ما أنت قاض، فإنّك بالأمر قد بغتك والسلام.

وقال: لا تمهر الدنيا دينك، فمن أمهرها دينه زفّت إليه الندم.

وقال رجل: أريد تعلم الرمي، فقال: الرمي حسن، لكنها أيامك فانظر بما تقطعها.

وقال: إن كان لك بدينك حاجة ففرَّ من الناس فرارك من الأسد، صغيرهم لا يوقرك، وكبيرهم يحصي عليك عيوبك.

وقال: مسكين ابن آدم، قطع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار.

وقال: اصحب أهل التقوى، فإنّهم أيسر أهل الدنيا مؤنة عليك، وأكثرهم معونة لك.

وقال لسفيان الثوري رضي الله عنهما: إذا كنت تشرب الماء المبرد، وتأكل

اللذيذ المطيب، وتمشي في الظل، فمتى تحب الموت والقدوم على الله؟ فبكى سفيان.

وقال الغزالي قدس الله روحه: دخل رجل على داود فقال له: ما حاجتك؟ قال: جئت لزيارتك، قال: أمَّا أنت فقد عملت خيراً حين زرت، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي: من أنت فتزار؟ أمن الزهاد أنت؟ لا والله، أمن العُبّاد أنت؟ لا والله، أمن الصالحين أنت؟ لا والله، ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنتَ في الشبيبة فاسقاً فلمَّا كبرت صرت مرائياً، والله للمرائي أشرُّ من الفاسق.

وقال: إنّي أستحي من الله أنْ يراني أخطو خطوة ألتمس فيها راحة نفسي في الدنيا حتى يخرجني الله منها.

وقيل له: لو أصلحت سقف هذا البيت!! قال: أما علمت أنَّهم كانوا يكرهون فضول النظر، وقد كان في سقف مجاهد خشبة مكسورة لم يشعر بها مدة ستين سنة.

ودخل أحد أصحابه مع صديق له على داود ـ رضي الله عنه ـ وهو على التراب، فقال لصاحبه: هذا رجل زاهد، فقال داود: إنما الزاهد من قدر فترك.

وقال: ما خرج عبد من ذل المعاصي إلى عزِّ التقوى إلا أغناه الله بلا مال، وأعزَّه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس.

وقال: كل نفس ترد على همِّها، فمهموم بخير، ومهموم بشر.

وقال له رجل: دلني على رجل أجلسْ إليه، قال: تلك ضالة لا توجد.

ورئي يوماً بشاطىء الفرات واقفاً مبهوتاً، فقيل له: ما يوقفك هنا؟ قال: أنظر إلى الفلك تجري في البحر مسخراتٍ بأمره.

وكان يقول: ما نقول إلا على حسن الظنّ بالله لاستيلاء التفريط على الأبدان.

وقال حماد له ـ رضي الله عنهما ـ: يا أبا سليمان! لقد رضيت من الدنيا

باليسير، قال: أفلا أدلك على من رضي بأقلَّ مما رضيت؟ مَنْ رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة.

وقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل آتٍ قريب، وكل ما شغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم.

وقال: إنَّ أهل الدنيا جميعاً مِنْ أهل القبور، وإنما يفرحون بما يُقدِّمون، ويندمون على ما يخلِّفون، فما عليه أهل القبور ندموا عليه أهل الدنيا يقتتلون، وفيه يتنافسون.

وقيل له: ما تقول في رجل دخل على هؤلاء الأمراء، فأمرهم بمعروفٍ ونهاهم عن منكر، قال: أخاف عليه السوء، قيل: إنَّه يقوى، قال: أخاف عليه السيف، قيل: إنه يقوى، قال: أخاف عليه الداء الدفين: العجب.

وكانت النملة تدور في وجهه طولاً وعرضاً فلا يفطن لها من الهم والتفكر.

وقال له أبو يوسف[1] صاحب أبي حنيفة ـ رضي الله عنهم ـ: ما رأيت أحداً رضي منَ الله بمثل ما رضيت به، قال: من رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة فقد رضي بأدون مما رضيت.

وقال محمد بن الحسن[2]: كنت إذا جئت أسأله عن المسألة، فإنْ وقع في قلبه أنَّها مما أحتاجه في أمر ديني أجابني، وإنْ وقع في قلبه أنَّها من مسائلنا هذه تبسم في وجهي، وقال: إنَّ لنا شغلاً عن ذلك.

---

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب (١١٣ ـ ١٨٢ هـ) الأنصاري الكوفي البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهاً، علّامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، ومات في خلافته ببغداد، وهو على القضاء. «الأعلام» (٨/ ١٩٣).

(٢) محمد بن الحسن بن فرقد (١٣١ ـ ١٨٩ هـ) الشيباني، إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم الإمام أبي حنيفة. أصله من قرية (حرستا) في غوطة دمشق. ولد بواسط، ونشأ بالكوفة، ولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله، وخرج في صحبة الرشيد إلى خراسان فمات في الرَّيّ. «الأعلام» (٦/ ٨٠).

وقيل له بعدما انقطع وانعزل: كنت تلازم أبا حنيفة وصحبه ثم اعتزلتهم، قال: إذا كنا دهرنا في جمع الآلات فمتى يكون البناء؟!

وقال: إنما بغية الأكياس ملك لا زوال له، وعيش لا موت فيه.

وقال: صُمْ عن الدنيا وأفطرْ على الموت، حتى إذا كان عند المعاينة أتاك خازن الجنان بشربةٍ من ماء الجنة تشربها على فراشك، فتخرج من الدنيا وأنت ريّان، وتنزل القبر وأنت ريّان، وتخرج منه وأنت ريّان، ويمكث الناس يترددون في ظلمة القيامة جياعاً عطاشاً ما شاء الله وأنت ريّان.

وقال إبراهيم بن أدهم[1] رضي الله عنه: عَزَّيت داود الطائي في أخٍ له فقلت له: ألهمك الله الصبر والإحسان، ووهب لك المغفرة والرحمة والهدى، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقال: سبيل الناس كلهم إلى الموت، فمن أبغض الدنيا تبعته، ومن أحبها قلّته[2]، ومن وثق بها خذلته، فاتق الدنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت.

وقال: لو أمَّلت أنْ أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمِّل ذلك، وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار.

وبلغه أنه ذكر عند بعض الأمراء فأثنى عليه، فقال: إنما نبتغي ستره بين خلقه، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذَلَّ لنا لسانٌ بذكر خير أبداً.

وقال له شعيب بن طلحة[3]: أريد أن أشتري داراً بقربك ليكثر لقائي لك، فقال: إنَّ مودةً يغيرها قلة اللقاء لمودةٌ مدخولة.

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور (٠٠٠ ـ ١٦١ هـ) التميمي البلخي: زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد وغيرها، وأخذ عن كثيرٍ من العلماء، وكان يعيش من العمل بالحصاد، وحفظ البساتين والحمل والطحن. ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. أخباره كثيرة. «الأعلام» (١/ ٣١).

(٢) قَلَتْهُ: أي أبغضته، من القِلَى وهو البغض. «مختار» (٥٥٠).

(٣) شعيب بن طلحة. انظر «طبقات ابن سعد» (٤٦٠).

وقال: ماتت امرأة بجواري، ولم تكن لها كثير طاعة في الظاهر، فرأيت في النوم كأنَّ قائلاً يقول: يا داود اطَّلع في قبرها، فاطَّلعت فرأيت فيه نوراً عظيماً وفرشاً وطيئةً وسرراً عالية، فقلت: يا ربِّ! بماذا استوجبت هذه المنزلة؟ فنوديت: يا داود! استأنست بنا في سجدتها فآنسناها في وحدتها.

وجاءه بعض أصحابه بألفي درهم فقال: يا أبا سليمان! هذا شيء جاءك الله به لم تطلبه، وهو كما علمت حلال، قال: إنَّه لمِنْ أمثل ما تأخذون، قال: فما يمنعك منه؟ قال: لعل تركه أنْ يكون أنجى.

وجاءه الفضيل بن عياض يوماً فلم يفتح له وجلس خارج الباب، وداود داخله يبكي، فقيل لمحمد بن بشر: كيف لم يفتح له الباب؟ قال: قد كان يفتح لهم فكثروا عليه فغمُّوه فحجبهم كلهم، فمن جاء كلَّمه من وراء الباب.

واحتجم يوماً فأعطى الحجام أجرته ديناراً فقال الحجام: هذا إسراف، فقال: لا عبادة لمن لا مروءة له.

وقال: رأيت ولياً من أولياء الله تعالى، فقلت له: ما غاية بلوغ محبة الله من قلبك؟ فقال: لو جعل حساب الخلائق كلهم معي لسرني ذلك، ورغبت فيه، فقلت: ولمَ ذاك؟ قال: يا داود! وهل للعبد مقام أشرف من وقوفه بين يدي الله عز وجل وهو يشاهده ويخاطبه، والله العظيم إنَّ ذلك عندي أشرف الدرجات.

وقال: إياكم أنْ يتّخذ أحدكم في داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة.

ورأى بعضهم في المنام كأنَّ قائلاً يقول: من يحضر؟ من يحضر؟ قال: فأتيته، فقال: ما تريد؟ قلت: سمعتك تقول: من يحضر؟ من يحضر؟ فأتيتك أسألك عن معنى كلامك؟ فقال لي: أما ترى القائم الذي يخطب على الناس ويخبرهم عن أعلى مراتب الأولياء فأدركه، فلعلك تلحقه وتسمع كلامه قبل انصرافه، فأتيته فإذا الناس حوله وهو يقول:

ما نالَ عبدٌ منَ الرحمنِ منزلةً ... أعلى منَ الشوق إنَّ الشوقَ محمودُ

قال: ثم سلَّم ونزل، فقلت لرجل إلى جنبي: مَن هذا؟ قال: أما تعرفه؟ قلت: لا، قال: هذا داود الطائي. فتعجبت من منامي ومما رأيت منه.

وكان يقول: كفى باليقين زهداً، وكفى بالعلم عبادةً، وكفى بالعبادة شغلاً.

وقالته له مولاته: يا سيدي! أما تشتهي الخبز؟ فقال لها: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

وسبب مرض موته أنَّه مرَّ بآية فيها ذكر النار، فكررها فأصبح مريضاً، فدخل إخوانه وهو بيت على التراب وتحت رأسه لَبِنة، فلمَّا مات خرج في جنازته ألوف حتى ذوات الخدور، وحُمِل على سريرين أو ثلاثة فإنَّ السرير كان يتكسر من زحام الناس فيغير، وصُلِّي عليه مراراً عديدة.

وقال محمد بن عيسى الواني[1]: رأيت الناس يأتون ثلاث ليال مخافة أن تفوتهم جنازة داود، ورأيت الناس كلهم يبكون عليه، ما شبهته إلا بيوم الخروج.

توفي سنة اثنتين وستين ومائة في السنة التي توفي فيها إبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما. ولمَّا وصلت جنازته إلى القبر قال ابن السماك: يا داود! ما أعجب شأنك فإنك ألزمت نفسك الصمت، حتى قويتها على العدل، وأهنتها وإنما تريد كرامتها، وأذللتها وإنما تريد عزَّها، ووضعتها وإنما تريد تشريفها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، وأجعتها وإنما تريد شبعها، وأظمأتها وإنما تريد ريّها، وخشنت الملبس وإنما تريد تليينه، وأمتَّ نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تُقبر، وعذبتها قبل أن تُعذَّب، وغيبتها عن الناس لكي لا تذكر، ورغبت بنفسك عن الدنيا، فلم تر لها قدراً ولا خطراً، فقُهت في دينك، ثم تركت الناس جالساً، ما أحسبك إلا قد اتبعت العابدين، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت، في جنب ما أمَّلت وطلبت، أمَّا أنت فقد ظفرت بروح

---

(١) محمد بن عيسى الواني: لم أجده فيما توفر لي من المراجع.

العاجل، وسعدت بعبادة الله عزَّ وجلَّ في الآجل، فلما متَّ شهدك ربك وألبسك رداء عملك، لأنَّك لم تفش ما عملت في سرّك، فأظهر الله عزَّ وجلَّ اليوم ذلك، فلو رأيت كثرة من تبعك عرفت أنَّ ربك سبحانه وتعالى قد أكرمك وشرَّفك، فقل لعشيرتك اليوم تتكلم بألسنتها، فقد أظهر الله عز وجل اليوم فضلها، إنَّ ربك تعالى لا يضيع مطيعها ولا ينسى صنيعها، شكر لخلقه ما صنع هو بهم فيما أنعم عليهم من شكرهم إياه، فسبحانه شاكراً ومجازياً ومثيباً.

ولما فرغ ابن السماك قام أبو بكر بن عياش[1] على شفير القبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا ربِّ إنَّ الناس قد قالوا مبلغ ما عندهم مما عَلِموا، اللهمَّ اغفر له برحمتك، ولا تَكِلْه إلى عمله. فأعجب الناسَ ما قال أبو بكر.

وقال محارب بن دثار[2]: لو كان داود في الأمم الماضية لقصَّ الله علينا شيئاً من خبره رضي الله عنه.

ثم تلقى سرَّ هذه النسبة الشريفة منه سيدنا معروف الكرخي رضي الله عنه:

* * *

---

(١) أبو بكر بن عياش: تقدمت ترجمته (ص١٠٤).

(٢) محارب بن دثار بن كردوس (٠٠٠ ـ ١١٦ هـ) السدوسي الشيباني الكوفي، أبو المطرّف: قاضي الكوفة، كان فقيهاً فاضلاً، حسن السيرة، زاهداً شجاعاً، من أفرس الناس. عزل عن القضاء، وأعيد، وتوفي وهو قاض. «الأعلام» (٥/ ٢٨١).

سيدنا معروف الكرخي

رضي الله عنه

هذا السيد المولى من رجال السلسلة العلوية الأولى، وبواسطته تلتقي بها هذه السلسلة، وقد حصل لهذا السِفر بركة ذكر جملةٍ من مآثره غير مجملة فيما تقدّم، فلنصرف وجه القلم إلى الكلام على رجال السلسلة الثالثة الصدّيقية الأعلام.

* * *

السلسلة الثالثة الصديقية

للطريقة العلية النقشبندية

قدس الله أسرار سراتها السنية

تقرر في المقدمة أوله باعث إرجاء هذه السلسلة من أنَّه لاتساع مجال الكلام على ترجمة أحوال رجالها السادة العظام، بسبب كثرتهم واتصالهم بهذه الأيام، وتنظيماً لحسنها، وتعظيماً من شأنها، جَوْهَرتها بذكر اسم جوهرة كنز الثقلين، وخلاصة الكونين كما صنعت ذلك في السلسلتين السابقتين.

أول التعينات

عليه أشرف الصلوات وأكمل التسليمات

قدمت الآن موجب تكرار ذكر اسمه المرفع الشأن، راجياً عود بركته الوفية، وراغباً بذلك إلى درج قصيدة في هذا الدرج محمدية، تشتمل على مدحه والاستغاثة به، والالتجاء إلى أبوابه، والتحدّث برؤياه في حضرة منامه.

لم أمدحنَّ محمداً بقصيدتي ... لكن مدحتُ قصيدتي بمحمدِ

لعلي أنْ أشرف على شرف خدمته، وأنظم في سلك مداح رفيع عتبته، والوصول إلى القبول مأمول من رحمة الرسول، عليه من الصلوات أعمّها ومن التسليمات أتمها فقلت:

إلهي بجاهِ المصطفى أتوسلُ ... إليك لعلي للمنى أتوصلُ
بجاهِ رداءِ الكبرياءِ الذي به ... تجمّل بالتفصيل ما هوَ مُجْملُ
حبيبكَ جار المستجير الذي غدا ... جميعُ الورى في ظلّه تتظللُ
رسولٌ تعالى أنْ تحيطَ بوصفِهِ ... عقولٌ عن العلم اللدني تَعْقِلُ
له معجزاتٌ لا تعدُّ فتنتهي ... وبحرُ علومٍ لا يحدُّ فيعقلُ
وجاهٌ عريضٌ لا يردُّ مرادهُ ... وفضلٌ عميمٌ لا يقلُّ فيبخلُ
وخُلْقٌ عظيمٌ لا نظيرَ له كما ... عليه أتى يثني الكتابُ المُنْزَلُ
فسبحانَ مَنْ أسرى بهِ وأنالهُ ... مقاماً عليّاً لم ينلهُ التخيلُ
وما منْ رسولٍ قبلَه جاءَ داعياً ... إلى الله إلا وهو عنهُ موكّلُ
فرُوحيَ رُوحيْ لافتداءِ جلالِهِ ... وأَعْظِمْ بروحٍ للفدا تتوصلُ
وسرّبيَ سرٌ بيْ للنبيّ محمدٍ ... فؤادي فؤادي بالبلاءِ مبلبلُ
ودعني أقفْ في بابهِ متذللاً ... فما خابَ مَنْ في بابهِ يتذللُ
لعلَّ رسولَ الله يقبلني إذا ... رفعتُ إليه عَرْضَ حالي ويقبلُ
ويصرفُ صَرْفَ الدهر عني فإنني ... على غير خير الأنبيا لا أعولُ
ولي أملٌ في فضلهِ مثلَ ما له ... عظيمُ مقَامٍ في العلا لا يمثّلُ
وهل غيرُ بابِ الله وهو محمدٌ ... يؤَمُّ إذا عمَّ البلا ويُؤمَّلُ

وإنْ سوّدَ العصيانُ وجهَ صحيفتي بتبييضها استغفارُهُ يتكفلُ
نعمْ أنعمَ المختارُ مِنْ محضِ فضله على العبدِ بالبشرى ونعمَ التفضلُ
وشرّفَ قدري شرّف الله قَدْرَهُ بتقبيل نعلٍ طاب منهُ المقبَّلُ
بتقبيلِ نعلٍ سدرةُ المنتهى غدتْ كحضرة أو أدنى بهِ تتجملُ
بتقبيل نعلِ الهاشميّ الذي لهُ ملائكةُ الرحمنِ تحمي وتحملُ
وحُوّل عني ذلكَ الهولُ بالتي تليقُ ولولا فضلُهُ لا يحوّلُ
فأشكرُهُ شكراً يليقُ بفضلِهِ وأشكو لهُ ما قلَّ عنه التحمُّلُ
وأحمدُهُ ما دمتُ حياً وكيفَ لا وأحمدُ نِعمَ المنعمِ المتفضلُ
وأستغفرُ الله إليه مِنَ الذي حملتُ مِنَ الوِزْرِ العظيمِ وأحملُ
صلاةُ صلاةِ الله ثمَّ سلامُهُ عليهِ بهِ منهُ إليه تَنَزَّلُ
مع الآلِ والأصحابِ والتابعينَ مَنْ بدورُ الهدى مِنْ نورهم تتكملُ

ثم سرى هذا السرُّ، وتحول من إمام الأمم رسول الله ﷺ إلى خليفته الأوّل، ومَنْ عليه في الدين والدنيا المعوّل، سيد سادات الطريق الإمام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه:

سيدنا الإمام أبو بكر الصديق
رضي الله عنه

ماذا يقول أقلُّ العبيد في تنويه مَنْ أُنزِل فيه من القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾ [الليل: ١٦ ـ ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فأمَّا مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

وقوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذْ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ [الأحقاف: ١٥].

ولمّا نزل قوله تعالى: ﴿إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال رضي الله عنه: يا رسول الله ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه، فنزل: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] فيه وفي عمر رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً﴾ [الحجر: ٤٧] فيه وفي عمر وعلي رضي الله عنهم إلى غير ذلك.

وورد في شأنه من الأحاديث الشريفة قوله ﷺ: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أنْ يكون نبي»(١).

وقوله ﷺ: «حُبُّ أبي بكر وشكره واجب على أمتي»(٢).

---

(١) حديث (ما طلعت الشمس): موضوع.

(٢) حديث (حب أبي بكر وشكره): باطل لا أصل له. أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» =

وقوله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[1].

وقوله ﷺ: «إنَّ روح القدس جبريل أخبرني أنَّ خير أمتك بعدك أبو بكر»[2].

وقوله ﷺ: «إنَّ الله يكره في السماء أن يُخَطَّأ أبو بكر في الأرض»[3].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا كافأناه إلاَّ أبا بكر فإنَّ له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قطُّ ما نفعني مال أبي بكر»[4].

وقوله عليه السلام: «إنَّ مِنْ أمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوَّةَ الإسلام»[5].

ومثل ذلك مما مُلئت به كتب الحديث والآثار.

وهو رضي الله عنه أول من أسلم، وأول من سُمِّي خليفة، وأول من جمع

= (٥/ ٤٢٥). ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل» (١/ ١٨٩) قال ابن الجوزي: وفيه عمر بن إبراهيم الكردي، قال الدارقطني: كان كذاباً يضع الحديث. وقال الدارقطني أيضاً: كذاب خبيث. نقله الحافظ في «اللسان» (٤/ ٣٢٣). وقال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٨٠): هذا الحديث منكر جداً. أي موضوع. وأقره الحافظ في «اللسان».

(١) حديث (أرحم أمتي): أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٨٤) و(٣/ ٢٨١)، والطيالسي في «المسند» برقم (٢٠٩٦)، والنسائي في فضائل الصحابة (١٣٨ و١٨٢)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٥٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٣٥٠ و٣٥١)، والترمذي في «السنن» برقم (٣٧٩٠) وغيرهم بأسانيد صحيحة.

(٢) حديث (إن روح القدس جبريل): أخرجه الديلمي بلفظ قريب. «كنز العمال» (١١/ ٣٢٥٨٨).

(٣) حديث (إن الله يكره): أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «اللآلىء» (١/ ٣٠٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢١٩) من طريق نصر بن حماد أبو الحارث وهو كذاب، وفيه أيضاً محمد بن سعيد المصلوب وهو زنديق وكذاب ووضاع. انظر «اللآلىء» (١/ ٣٠٠) و«اللسان» (٢/ ١٢٦ و١٢٧).

(٤) حديث «ما لأحد عندنا»: أخرجه الترمذي برقم (٣٦٦١) وقال: حسن غريب. «كنز العمال» (١١/ ٣٢٥٦٥).

(٥) حديث (إن من أمنّ): أخرجه البخاري برقم (٤٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، وغيرهما.

القرآن، وأول من سمّاه مصحفاً، وأول خليفة فرضَ له رعيتُهُ العطاء، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من لُقِّب في الإسلام بالعتيق، وأولُ من نافح عن رسول الله ﷺ من المسلمين، وأول من أنفق أمواله الجمَّاء الغفير من المسلمين عليه ﷺ، وأول من وليَ الخلافة وأبوه حي، وأول من عَهِد بها، وأول من تسمى بالصدّيق، وأول خليفة ورثه أبوه.

وهو ثاني رسول الله ﷺ في الإسلام، وثانيه في الهجرة، وثانيه في الغار، وثانيه في العريش، وثانيه في القبر.

وله رضي الله عنه في الإسلام المواقف العالية، وعلى الأمة المحمدية الأيادي المتوالية، منها قصة صبيحة يوم الإسراء، وثباته وجوابه للكفار في ذلك، وهجرته مع النبي ﷺ تاركاً للمال والعيال والأطفال، وفداؤه بنفسه في الغار، ثم كلامه يوم بدر والحديبية، وثباته حين اشتبه الأمر على غيره في تأخير دخوله مكة، ثم فهمه وبكاؤه بشدة حينما قال المصطفى ﷺ: «إنّ عبداً خيَّره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ما عنده»(١).

ثم ثباته عند المصيبة العظمى بانتقال رسول الله ﷺ التي خرس عندها فحول الرجال، ولذلك قال بعض أهل الكمال: إنَّه أشجع الصحابة في الأقوال والأفعال. وقتاله لأهل الردة، وبعث جيش أسامة في تلك الشدة، وقتله مسيلمة الكذاب، واستخلافه عمر بن الخطاب، وكم له رضي الله عنه من موقفٍ وأثرٍ ومناقب لا تحصى ولا تحصر.

وكان يقال له: الأوّاه، لشدة رأفته وكمال تقواه، فأعظِمْ به من رفيقٍ صدّيق توحَّد في الأحوال بالتحقيق، مختار الاختيار مَنْ دعاه إلى أقوم طريق، حتى صار للمحنة هدفاً، وللبلاء غرضاً، وزهد فيما عَنَّ(٢) له جوهراً وعرضاً، تفرد

---

(١) حديث (إن عبداً خيّره): أخرجه البخاري برقم (٤٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٠)، وغيرهم.

(٢) عنَّ: عَرَضَ. «مختار» (٤٥٨).

بالحقِّ عن الالتفات للخلق، حتى جمع بين الجمع والفرق.

وقد قيل: التصوف: الاعتصام بالحقائق عند تباين الطرائق، وقيل: أحوال قاهرة، وأخلاق طاهرة، وحقائق ظاهرة.

وأُكْرِم بسماعه مناجاة جبريل لرسول الله صلى الله عليهما وسلم ولكن لم يره، وإرسال السلام من الحقِّ تعالى له مع جبريل عليه السلام، وقول الله تعالى له على لسان جبريل: (هل أنت راض عني بفقرك)[1] واختصاصه باسم الصحبة في القرآن المجيد والمعية الخاصة.

وكان رضي الله عنه يتوصل بعد الوفا إلى أربع مواقف الصفا[2].

وقد قيل: التصوف: تفرُّد العبد بالواحد الصمد الفرد.

وكان من أخلاقه الكاملة وأحواله الشريفة الفاضلة: العزوف عن العاجلة، للأزوف[3] من الآجلة.

وقد قيل: التصوف: تطليق الدنيا بتاتاً، والإعراض عن منالها ثباتاً.

استسقى يوماً فأتي بإناءٍ فيه ماء وعسل فبكى وأبكى من حوله، فسكت وسكتوا، ثم عاد فبكى حتى علا النحيب، وتواجد البعيد والقريب، ثم أفاق من غشيته، ومسح وجهه ببردته، فقالوا له: ما هاجك على ذلك؟ حتى ظنَّ كلٌّ منا أنَّه هالك، قال: كنت مع المصطفى ﷺ فجعل يدفع عنه شيئاً، ويقول: إليك عني! إليك عني! ولم أر معه أحداً، فسألته فقال: هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها فزجرتها فتنحت، وقالت: أما والله لأنْ انفَلَتَّ مني لا ينفلت مني مَنْ بعدك، فخشيت أنْ تكون لحقتني، فذلك الذي أبكاني.

---

(١) حديث «هل أنت راض»: أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٢٥٠).

(٢) قوله (أربع مواقف الصفا): لعلّ مراده بأربع مواقف الصفا هي حضرات الأسماء الأربعة: الأول والآخر والظاهر والباطن. (ع).

وفي هامش المخطوطة: هي حضرات التعين الأول كما في الاصطلاحات (منه).

(٣) أزف: دنا. «مختار» (١٥).

وكان لا يفارق الجد، ولا يجاوز الحد. وقد قيل: التصوف: الجدُّ في السلوك، إلى ملك الملوك.

وكان يُقْدِم على المضارّ لما يؤمل من المسار. وقد قيل: التصوف: السكون إلى اللهيب، في الحنين إلى الحبيب.

وكان يقدم الحقير معتاضاً للخطير.

وقد قيل: التصوف: وقف الهمم على مُولي النعم.

أتى المصطفى ﷺ بصدقته فأخفاها، وقال: هذه صدقتي ولله عندي معاد، وجاء عمر رضي الله عنه بصدقته فأفشاها، وقال: لي عند الله معاد، فقال المصطفى عليه الصلاة والسلام: «يا عمر وترت قوسك بغير وتر، ما بين صدقتيكما كما بين كلمتيكما»[1].

وكان في المصافاة صافياً، وفي الموافاة وافياً. وقد قيل: التصوف: استنفاد الطوق في معاناة الشوق، وترجئة الأمور على تصفية الصدور.

وكان رضي الله عنه أحزم الناس رأياً، وأعلمهم بتعبير الرؤيا، وأكمل الصحابة عقلاً، وأكثرهم صواباً قولاً وفعلاً، وكفاه شرفاً وفضلاً قول إمام المرسلين: «إنَّ الله يكره فوق سمائه أن يُخَطَّأَ أبو بكر الصديق»[2].

وكان أعلم الناس بالله وأخوفهم له، حتى كان يخرج من جوفه ريح الكبد المشوية، وكان يحتاط في مأكله ومشربه أشدَّ احتياط، وإذا أكل أو شرب ما فيه شبهة ثم علمه استقاء بإفراط، شرب لبناً من كسب عبده، ثم سأله فقال: تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصبعه في فيه وتقايأ حتى ظنَّ أنَّ نفسه ستخرج، ثم قال: اللهمَّ إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٢) وإسناده ضعيف.

(٢) تقدم هذا الحديث وتخريجه: حكم عليه ابن الجوزي بالوضع، وأقره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٣٧٣).

(٣) حديث (شرب لبناً ثم استقاءه): أخرجه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» =

قال في «الإحياء»: وكان يطوي ستة أيام. وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد[1].

ومن كلامه رضي الله عنه: لا خير في قولٍ لا يُرَاد به وجه الله، ولا في مال لا يُنْفق منه في سبيل الله، ولا فيمن يغلب جهله حلمه، ولا فيمن يخاف في الله لومة لائم.

ومنه: إذا دخل العبد العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة.

ومنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع.

ومنه: مَنْ ذاق مِنْ خالص المعرفة شيئاً شغله ذلك عما سوى الله، واستوحش مِنْ جميع البشر.

ومنه: مَنْ مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته.

ومنه: إياكم والفخر! وما فَخْرُ من خُلِق من ترابٍ ثم إليه يعود، ثم يأكله الدود.

ومنه: لا خيرَ في خير بعده النار، ولا شرّ في شرّ بعده الجنة.

ودخل رضي الله عنه حائطاً فإذا بطير في ظلِّ شجرة، فتنفس الصعداء، وقال: طوبى لك يا طير! تأكل وتستظل بالشجر وتصير إلى غير حساب، يا ليت أبا بكر مثلك!.

وكان رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهمَّ أنت أعلم مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

= (١/ ٣١). قال ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٢٥٣): وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث عائشة طرفاً من هذا الحديث.

(١) «كان يأخذ»: أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٢٥٣).

وكان رضي الله عنه إذا قام إلى الصلاة كأنّه عود مقطوع، لما يعتريه من الخشوع.

وقال رضي الله عنه: وددت أنّي شجرة تؤكل وتعضد[1].

ولما مرض قيل: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: قد رآني، قالوا: ما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد. ثم دعا عمر رضي الله عنه فوعظه حتى أبكاه، ثم قال: إن حفظت وصيتي فلا يك غائبٌ أحبّ إليك من الموت، وهو آتيك، وإن أنت ضيعتها فلا يك غائب أبغض إليك منه، ولست بمعجزه، ثم قال لمن حضر: أوصيكم بالله لفقركم وفاقتكم أنْ تتقوه، وأنْ تثنوا عليه بما هو أهله، وأنْ تستغفروه إنّه كان غفاراً والسلام.

توفي بين المغرب والعشاء من ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة عن ثلاث وستين سنة على الأصح.

وفي تاريخ ابن عساكر عن الأصمعي قال: قال خفاف بن ندبة السلمي يبكي أبا بكر شعراً ويندبه:

ليس لحيٍّ فاعلمنْهُ بقا ... وكلُّ دنيا أمرها للفنا
والمُلْكُ في الأقوامِ مستودعٌ ... عاريةٌ فالشرط فيه الأدا
والمرءُ يسعى ولهُ راصدٌ ... تندبه العينُ ونارُ الصدا
يهرمُ أو يُقْتَلُ أو يقهره ... يشكوهُ سُقْم ليسَ فيهِ شفا
إنَّ أبا بكر هو الغيثُ إنْ ... لم تزرع الجوزاء بقلاً بما
تالله لا يدركُ أيامَهُ ... ذو مئزرٍ ناشٍ ولا ذو ردا
من يسعَ كي يدركَ أيامَه ... مجتهداً شُذَّ بأرضٍ فضا

وقد أشبع الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى - الكلام على ترجمته مفصلاً في كتابه «تاريخ الخلفاء» فمن أحب الزيادة فليرجع إليه.

---

(١) تعضد: تقطع. «مختار» (٤٣٨).

ولما بلغ بي اليراع إلى هذا المكان غاص في بحر محبته، وصاغ هذه القصيدة في خدمة مِدْحته رضوان الله عليه:

تجلَّى في سمواتِ الكمالِ — وطالعُهُ جلالٌ في جمالِ
وقدْ ضلَّ الورى في ليلِ كفرٍ — ولم يدروا حراماً من حلالِ
فأشرقتِ العوالمُ مِنْ سَنَاهُ — ومزَّق بالهدى بُرْدَ الضلالِ
ختامُ الرسلِ خيرُ الخلقِ طه — شفيعُ الكلِّ في يومِ السؤالِ
فبالإيمان أهدى كلَّ هدي — وبالإحسان حسَّن كلَّ حالِ
ونالَ بهِ الصحابةُ كلَّ فضلٍ — وفضْلُ المصطفى بحرُ النوالِ
دعاهمْ للهدايةِ فاستجابوا — دُعاهُ باحتفاءٍ واحتفالِ
وحنُّوا إذْ حَنَوا قلباً عليه — إلى شرف المعارف والمعالي
فما يقضيهِ يُمْضيه تعالى — ويفضي للتقدمِ والتعالي
فمنهمْ بالشريعةِ ذو اتصافٍ — ومنهمْ بالحقيقةِ ذو اتصالِ
ومنهم مَنْ لهُ قدمٌ عظيمٌ — منَ الأمرينِ فوقَ الكلِّ عالِ
وذلكَ وهو أعلاهمْ مقاماً — وأعلمهمْ بحالٍ أو مقالِ
أبو بكر خليفتُهُ المفدّى — وبعد الأنبياء خيرُ الرجالِ
هو الصدِّيق مَنْ نالَ الأماني — بصدقٍ والمُنَى صعبُ المنالِ
إمامُ الكلِّ أولُ مَنْ تصدّى — لتصديقِ النبيِّ بكلِّ قالِ
وثبَّت جأشهُ وحما حماه — ومالَ إليهِ ينفقُ كلَّ مالِ
وأدنى في فداهُ كلَّ عالٍ — من الدنيا وأرخص كل غالِ
فكم أفنى صياماً مِنْ نهارٍ — وكم أحيا قياماً من ليالِ
وفادى مِنْ أسيرٍ أو رقيقٍ — لوجه الله كالمولى بلالِ
وأوقعَ فيهِ أهلُ الشركِ شراً — تُدَكُّ لهُ الجبالُ فلمْ يبالِ
فقابلَ كلَّ مكروهٍ بما لا — يطاقُ منَ الرضا والاحتمالِ
وناضلَ عن رسولِ الله يعدو — على أعدائه حقَّ النضالِ
وهاجرَ وهو ثاني اثنين معه — ولم تخطرْ لهُ الدنيا ببالِ

وقامَ بنصره لم يألُ جهداً ... ببيضِ الهندِ والسُّمرِ الطوالِ
يكفُّ شرورَ أهلِ الكفرِ عنه ... ويدفعُ باليمينِ وبالشمالِ
وشادَ دعائم الإسلام لما ... دُعِي خيرُ الورى للانتقالِ
فأخمد بالخلافةِ نارَ خُلْفٍ ... وأرضى الكلَّ مِنْ صحبٍ وآلِ
وثقَّفَ بالهدى رمحاً محلَّى ... بحلى كمالِ عدلٍ واعتدالِ
وجرّدَ منْ سيوفِ الله سيفاً ... تجرّد عنْ خلافِ الامتثالِ
رقابُ المشركينَ لهُ قرابٌ ... ورشفُ دمائهم ماءُ الصقالِ
كأنَّ ذبابهُ بالفتكِ فيهمْ ... رضيعٌ لم يروَّع بالفصالِ
سقى الله حساماً هامَ شَوقاً ... إلى هامِ العدا بالاغتيالِ
كأنَّ ظَباهُ صبٌّ والأعادي ... ظِباءٌ فهي في شغفِ الوصالِ
لسطوته الملوكُ الصيدَ ألقَوا ... مقاليدَ البلادِ بلا قتالِ
وكم مُلِؤوا إذا ذكروهُ رُعْبَاً ... فكيفَ إذا دعاهمْ للنزالِ
وكم هجروا المضاجعَ باضطرارٍ ... مخافةَ أن يروهُ في خيالِ
فدمّرَ كلَّ مرتدٍ وأحيا ... زكاةَ المالِ حتى مِنْ عقالِ
وألقى الأسودَ العنسيَّ يقفو ... مسيلمةً إلى أشقى مآلِ
وأنفذ نحو أرضِ الشام جيشاً ... تولاهُ أسامة بارتجالِ
فشتّتَ شملَ قيصرَ وهو ما هو ... وألجأهُ إلى ضيقِ المجالِ
وصالَ بعزِّ عزم الله شرقاً ... وغرباً غيرَ مفلولِ النصالِ
فأيّدَ دولةَ الإسلام منه ... بأيْدٍ لا تميلُ إلى الملالِ
وقلَّد جيْدَ كلَّ محمَّديٍّ ... أيادي أثقلتْ ظهرَ الجبالِ
أياديَ قدْ جَرَتْ بحراً محيطاً ... فكيفَ تقاسُ بالسُّحُبِ الثقالِ
أياديْ لا يكافؤها شكوراً ... عَنِ الإسلام إلا ذو الجلالِ
وأوصى بالخلافة بعدَ هذا ... إلى الفاروقِ حفظاً للمآلِ
محبتُهُ على العقلاءِ فرضٌ ... تُنَالُ بهِ النجاةُ منَ الوبالِ
فطُوبى للأُلى طابتْ لديهمْ ... مواردُ ودّه الصافي الزلالِ
وويلٌ للأُلى انتحلوا عليهِ ... فما أولاهُمُ بالانتحالِ

وكيفَ يصوغ أنْ يُصْغى إلى ما حكى فئةُ الفئام مِنَ المحالِ[1]
وإنّ الله فـي القـرآن أثنـى عليـه بمـا تـلاهُ كـلُّ تـالِ
وبالحبِّ الحقيقي ازدادَ قرباً تحـامتْـهُ المـلائكـةُ العـوالـي
وبـالـذكـر الخفـيِّ لقـدْ تملَّى مِـنَ العلـم اللـدُنّـي الأمـالـي
ولـولاه لصارَ النـاسُ فـوضـى وأحكام الشريعةِ في اختلالِ
جـزاهُ الله عنَّـا كـلَّ خيـرٍ يـؤدي حـقَّ هـاتيـكَ الفعـالِ
ومكَّـنَ جنـدَهُ مِـنْ مبغضيـهِ بصفع بالنِّعال على القذال[2]
ورضـوانٌ مـنَ الله تعـالـى عليـه إليـه منـهُ بـلا انفصـالِ
وصلَّـى بـالسـلامِ على نبـيٍ تجلـى فـي سمـواتِ الكمـالِ

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة منه سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه:

* * *

(١) الفِئام: الجماعة من الناس. «لسان العرب» (فأم).
(٢) القَذَال: جماع مؤخر الرأس «مختار» (٥٢٦).

سيدنا سلمان الفارسي

رضي الله عنه

الإمام، علمُ الأعلام، وابن الإسلام، الحاكمُ الحكيم، والعالمُ العليم، أحدُ الرفقاءِ والنجباءِ، ومَنْ إليه تشتاق الجنَّةُ مِنَ الغرباء، ثَبتَ على القِلّةِ والشدائدِ، لما نال من الصلة والعوائد.

وقد قيل: التصوف: مقاساة القلق[1]، في مراعاة العَلَق.

أصله من قريةٍ من فُرْس أصفهان من ديار العجم، وكان مجوسياً وقد سافر إلى أرض الشام، وصحب بها رهبان النصارى سنيناً عديدة، ثم سافر إلى الروم، ووصل إلى عمورية[2] ـ وهي بروسه ـ وصحب رهبانها، فأخبروه بقرب عهد النبي ﷺ، فسافر يطلب الدِّين مع قومه فغدروا به فباعوه لبني قريظة من اليهود، أسلم عند قدوم رسول الله ﷺ المدينة، ثم كوتب[3] فأدى عنه ﷺ كتابته وأعتقه، وهو عظيم المناقب، ولو لم يكن من مناقبه إلا قوله ﷺ: «السُّبَّاق أربعة»[4] وعدَّهُ منهم.

وقوله: «سلمان منّا أهل البيت»[5].

---

(١) قوله (مقاساة القلق): مقاساة القلق الذي هو دوام الوجد للقاء المحبوب مع مراعاة العلائق الموصلة إليه. (ع).

(٢) بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم وفتحه سنة (٢٢٣ هـ). «معجم البلدان» (٤/ ١٥٨).

(٣) كوتب: المكاتب هو العبد يكاتب على نفسه بثمنه، فإذا سعى وأدّاه عتق. «مختار» (٥٦٢).

(٤) حديث «السُّبّاق أربعة»: أخرجه البزار، والطبراني في «الكبير»، والحاكم، وابن عدي. «كنز العمال» (١١/ ٣١٩٠٩).

(٥) حديث (سلمان منا): أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٨٢ و٨٣) و(٧/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٨)، وفيه كثير بن عبدالله المزني وقد تكلموا فيه. وقد روى عن أبيه عن جده ولكن الحافظ يعقوب بن سفيان الفسوي دافع عنه في «المعرفة والتاريخ» وقوّى أمره بأدلة تؤخذ بعين الاعتبار.

وقوله: «إنّه أحد الذين تشتاق إليهم الجنة»[1].

وقوله: «إنَّ الله يحب من أصحابي أربعة»[2] وذكره منهم.

وكان من أكابر الزهاد، وتزوج امرأة من كندة فدخل بيتها فوجده منجداً، فقال: أمحموم بيتكم أم تحوّلت الكعبة في كندة؟ أوصاني خليلي ﷺ أنْ لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الراكب، فلم يدخل حتى نزع كل ستر في البيت.

وسئل عنه عليّ ـ كرَّم الله وجهه ـ فقال: أدرك العلم الأول والآخر، بحرٌ لا ينزف.

ونزل هو وحذيفة على نبطية[3] فالتمس منها مكاناً يصلي فيه، فقالت: طهِّر قلبك وصلِّ حيث شئت، فبكى وقال لحذيفة: خذها حكمة من قلبِ كافر.

وكان إذا جن الليل صلَّى، فإذا أعيا ذكر الله بلسانه، فإذا أعيا تفكَّر في آيات الله وعظمته، ثم يقول لنفسه: استرحتِ فقومي، فإذا صلَّى زماناً قال للسانه: استرحتَ فاذكر، وهكذا طول الليل.

وكان عطاؤه خمسة آلاف، وكان أميراً بالمدائن على زهاء ثلاثين ألفاً، ومع ذلك يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، ولم يكن له بيت يظله، وإنما يدور مع الظل حيث دار.

وكان إذا خرج عطاؤه فرَّقه، ولا يأكل إلا من كَدِّ يده في عمل الخُوص[4].

وكان يجمع ما عمله بيده، فيشتري به لحماً وسمكاً، ويدعو المجذومين فيأكلون معه.

---

(١) حديث «إنه أحد الذين تشتاق»: لم أهتد إليه.
(٢) حديث «إن الله يحب من أصحابي»: لم أهتد إليه.
(٣) نبطية: النَّبَط والنَّبِيط: قوم ينزلون بالبطائح بين العراقيين. «مختار» (٦٤٣).
(٤) الخُوص: ورق النخل. «مختار» (١٩٢).

وكان غالب الناس يُسَخِّرونه في حمل متاعهم ـ وهو أمير ـ لعدم معرفتهم به لرثاثة حاله، فربَّما عرفوه فيريدون يحملون عنه فيقول: لا، حتى أوصلكم إلى المنزل.

وكان يعمل الخوص ويقول: أشتري خوصاً بدرهم فأعمله، فأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفق درهماً على عيالي، وأتصدّق بدرهم.

وكان لا يأكل من صدقات الناس.

وقال له بعض غلمانه: كاتبني، فقال: ألك شيء؟ قال: لا، قال: فمن أين تؤدي؟ قال: أسأل الناس، قال: أتريد أنْ تطعمني غسالة الناس.

وهو سابق الفُرْس وبلال سابق الحبشة.

وأصاب جارية فارسية، فقال لها: صلِّ، قالت: لا، قال: فاسجدي واحدة، قالت: لا، فقيل له: ما تغني عنها سجدة؟ قال: لو سجدت صلت، وليس من له سهم في الإسلام كمَنْ لا سهم له.

وأرسل أبا الدرداء[1] يخطب له امرأة، فذكر لأهلها فضله وسابقته، فقالوا: أما سلمان فلا نزوجه، لكن نزوجك فتزوجها، فخرج فقال له: قد كان شيء أستحي أنْ أذكره، قال: ما ذاك؟ فأخبره، قال: أنا أحق أنْ أستحي منك أنْ أخطبها وقد كان الله قضاها لك.

وتفاخرت قريش عنده يوماً، فقال: لكنني خُلِقْتُ مِنْ نُطفةٍ مذرة[2]، ثم أعوذ جيفة منتنة، ثم إلى الميزان، فإنْ ثَقُل ميزاني فأنا كريم، وإنْ خَفَّ فأنا لئيم.

---

(١) أبو الدرداء: عويمر بن مالك بن قيس (٠٠٠ ـ ٣٢ هـ) الأنصاري الخزرجي، صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها. كان من حفظة القرآن على عهد النبي ﷺ ومات بالشام. وروى عنه أهل الحديث (١٧٩) حديثاً. «الأعلام» (٥/٩٨).

(٢) مذرة: أي قَذِرة. «القاموس المحيط» (مذر).

وخطب عمر رضي الله عنه فقال: أنصتوا حتى أسمعكم، فقال سلمان: والله لا نسمعك، قال: لِمَ؟ قال: لأنك تفضل نفسك على رعيتك، قال: كيف؟ قال: عليك ثوبان وعلى الحاضرين ثوب واحد، فقال: مهلاً يا أبا عبد الله! ثم نادى: يا عبد الله! فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر! قال: لبيك! فقال: أنشدك الله أما تعلم أنَّ هذا الثوب الثاني ثوبك؟ قال: اللهم نعم! فقال سلمان: الآن نسمع لك ونطيع.

ودخل عليه أبو قلابة[1] حال إمارته فوجده يعجن، فقال: ما هذا؟ قال: بعثت الخادم في عمل فكرهت أنْ أجمع عليه عملين.

ودخل رجلان في حصنٍ بناحية المدائن ـ وهو أميرها ـ فسلما ثم قالا: أنت سلمان؟ قال: نعم! قالا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: لا أدري! فارتابا، وقالا: لعله غير الذي نريد، فقال: أنا الذي تريدان، رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، وإنَّما صاحبه من يدخل معه الجنة.

ودخل على مريض يعوده وهو في النزع، فقال: أيها المَلَك! ارفق به، فقال المريض: إنَّه يقول: بكل مؤمن رفيق.

وكتب إليه أبو الدرداء أنْ هلمَّ إلى الأرض المقدّسة، فكتب إليه: انَّ الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدس المرء عمله. وقد بلغني أنَّك جُعِلْتَ طبيباً، فإنْ كنت تبرأ فنعمّا لك، وإنْ كنت متطبباً فاحذر أنْ تقتل إنساناً فتدخل النار. فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين فأدبرا نظر إليهما، وقال: متطبب والله! ارجعا إليّ، أعيدا قصتكما.

ودخل على أبي الدرداء في يوم جمعة فقيل: هو نائم، فقال: ما له؟ قال: إنَّه يحيي ليلة الجمعة ويصوم نهارها، فأمرهم فصنعوا طعاماً، ثم قال له: كل،

---

(١) أبو قِلابة: عبد الله بن زيد بن عمرو (٠٠٠ ـ ١٠٤ هـ) الجَرْمي البصري: قدم الشام، وانقطع بداريا، كان ثقة كثير الحديث، وكان ديوانه بالشام، وكان رجلاً صالحاً، مات بالشام، وأدرك خلافة عمر بن عبد العزيز. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٦٨).

فقال: إني صائم، فلم يزل به حتى أكل، ثم أتيا رَسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال ﷺ: عويمر! سلمان أعلم منك ـ ثلاث مرات، وهو يضرب بيده على فخذ أبي الدرداء ـ لا تخصَّ ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام.

ولما بنى على أهله قال لها بعدما مسح بناصيتها، ودعا بالبركة: إنَّ رسول الله ﷺ أوصاني إذا اجتمعتُ مع أهلي أنْ أجتمع على طاعة الله، فقام وقامت إلى المسجد فصليا ما بدا لهما، ثم خرج فقضى حاجته.

ومن كراماته: أنَّه خرج من المدائن ومعه ضيف، فإذا بظباء تسير في الصحراء، وطيور في الهواء، فقال: ليأتني منكن طير وظبي، فقد جاءني ضيف أحبُّ إكرامه، فأتياه، فقال الرجل: سبحان الله! فقال له سلمان: أتعجب؟ هل رأيت عبداً أطاع الله فعصاه شيء.

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدّس الله روحه ـ عن الحارث بن عمير قال: انطلقت فأتيت المدائن، فإذا أنا برجل عليه ثياب رثة ومعه أديم أحمر يعركه، فالتفت فرآني فقال: مكانك يا عبد الله! فقلت لمن كان عندي: مَنْ هذا الرجل؟ فقال: سلمان، فدخل بيته فلبس ثياباً بيضاً، ثم أقبل وأخذ بيدي وصافحني وسألني، فقلت: يا أبا عبد الله! ما رأيتني فيما مضى ولا رأيتك، ولا عرفتني ولا عرفتك، فقال: بلى! والذي نفسي بيده لقد عرفتْ روحي روحك حين رأيتك، ألست الحارث بن عمير؟ قلت: بلى! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأرواح جند مجندة، فما تعارف منها ائتلفت، وما تناكر منها اختلفت»[1].

ومن كلامه: العلم كثير، والعمر قصير، فخذ ما تحتاجه لدينك ودع ما سواه.

---

(١) حديث (الأرواح جنود): أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٩٠١)، ومسلم (٢٦٣٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٥ ـ ٥٢٧)، وأبو داود برقم (٤٨٣٤) وغيرهم.

وقال: إنما تهلك هذه الأمة قبيل نقض مواثيقها.

وقال: مثل القلب والجسد مثل أعمى ومقعد، قال المقعد: أرى ثمرة فلا أستطيع أقوم إليها فاحملني، فحمله فأكل وأطعمه.

وقال: لا تكونَنَّ إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنَّها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته. أخرجه مسلم عنه[1].

وقال له عبد الله بن سلام[2]: إنْ متَّ قبلي فأخبرني ما تلقى، وإن متُّ قبلك أخبرتك، فمات سلمان قبله فرآه، فقال: كيف أنت؟ قال: بخير، قال: أي الأعمال وجدت أنفع؟ قال: وجدت التوكل شيئاً عجيباً. وفي رواية: عليك بالتوكل، نِعْمَ الشيء التوكل.

وقال: إنما مثل المؤمن في الدنيا كمثل مريض معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا اشتهى ما يضرُّه منعه وقال: لا تقربه، فإنَّك إنْ أتيته أهلكك، ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه، وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة فيمنعه الله عزَّ وجلَّ ويحجره حتى يتوفاه فيدخله الجنة.

وقال: إذا أسأت ربك سراً فأطعْه سراً، وإذا أسأته علانية فأطعه علانية، لكي تمحو هذه هذه.

وقال: ثلاث أعجبتني حتى ضحكت: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يعلم أساخط عليه ربُّ العالمين أم راض.

وثلاث أحزنتني حتى بكيت: فراق رسول الله ﷺ، وهول المطلع،

---

(١) قوله (لا تكونن إن استطعت): رواه مسلم عنه برقم (٢٤٥١).

(٢) عبد الله بن سَلام بن الحارث (٠٠٠ ـ ٤٣ هـ) صحابي، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان اسمه (الحصين) فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية، اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية، وأقام بالمدينة إلى أن مات. له (٢٥) حديثاً. «الأعلام» (٤/ ٩٠).

والوقوف بين يدي ربي عزَّ وجلَّ لا أدري إلى الجنة أم إلى النار.

وقيل له وقد اشترى وسقاً مِنْ طعام: يا أبا عبد الله، تفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟ فقال: إنَّ النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، وتفرغت لعبادة الله عزَّ وجلَّ، ويئس منها الوسواس.

وعن عطية بن عامر قال: رأيت سلمان رضي الله عنه أُكْرِه على طعام يأكله، فقال: حسبي! حسبي! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة، يا سلمان! إنما الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1].

وروى أبو الفرج[2] ـ رحمه الله ـ بسنده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: حدثني سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت فارسياً من قرية من قرى أصفهان تسمى جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، وكانت لأبي ضيعة عظيمة، [وكان] يشتغل في شأنٍ له يوماً، فأمرني أنْ أذهب إلى ضيعته، وأوصاني ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلّون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لأني محبوس في البيت، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الذي نحن فيه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، وقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغَلْتُهُ عن عمله، فلما جئته، قال: أي بني! أين كنت، ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبت! مررت بأناس يصلّون في كنيسةٍ لهم

---

(١) حديث (أكثر الناس شبعا): أخرجه الترمذي برقم (٢٤٨٠)، وابن ماجه رقم (٣٣٥١)، والبزار (٣٦٧٠) «كشف الأستار»، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٥٦) والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨) وهو حديث ثابت.

(٢) أبو الفرج ابن الجوزي تقدمت ترجمته (ص٨٧).

فأعجبني ما رأيت مِنْ دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني! ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا والله! إنَّه لخير من ديننا، فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته، وبعثتُ إلى النصارى أنَّه إذا قدم عليكم تجار من نصارى الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام فأخبروني بهم، فلما ساروا سرت معهم حتى قدمت الشام، فسألت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته فقلت: إني أحببت أنْ أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك. قال: فادخلْ، فدخلت معه ـ وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغب فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ـ ثم مات فاجتمعت إليه النَّصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إنَّ هذا رجل سوء وأخبرتهم بخبره، قالوا: وما أعلمك بذلك؟ فأريتهم موضع كنزه، فاستخرجوا منه سبع قلال[1] مملوءة ذهباً ووَرِقاً، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً! وصلبوه، ثم رَمَوه بالحجارة، ثم جاؤوا بآخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً أفضل منه صلاة وزهداً في الدنيا، ورغبةً في الآخرة ودأباً ليلاً ونهاراً على عبادته، فأحببته كثيراً، وأقمت عنده زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إني كنت معك وأحببتك حباً عظيماً، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بني! والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدَّلوا، وتركوا أكثر ما أمروا به إلا رجلاً بالموصل، هو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحق به، فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب الموصل، فأخبرته بالوصية، فقال لي: أقم عندي! فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أنْ حَضَرَته الوفاة، فقلت له: إنَّ فلاناً أوصاني إليك وأمرني باللحوق بك، وقد دنا أجلك، فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بني! والله ما أعلم أحداً على مثل ما كنت عليه إلا رجلاً بنصيبين هو فلان، فالحق به فلما مات لحقت بصاحب نصيبين، فجئته

---

(١) قِلال: جمع قُلَّة، وهي إناء للعرب كالجرة الكبيرة. «مختار» (٥٤٩).

فأخبرته خبري، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، خير رجل، فوالله ما لبث أنْ حضرته الوفاة، فقلت له كما قلت للأول والثاني، قال: أي بني! والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا أن تأتيه إلا رجلاً بعمُّورية ـ هي مدينة بروسة ـ فإنْ أحببت فأته، فلما مات ووُرِيَ لحقت بصاحب عمُّوريّة فذكرت له أمري، قال: فأقِم عندي، فأقمت عند رجل على عهد أصحابه، فاكتسبت حتى كانت لي بقرات وغُنَيْمة، ثم حلَّ به أمر الله عزَّ وجلَّ، فلما احتضر قلت له مقالتي المتقدمة، قال: أي بني! والله ما أعلم أصبح على ما كنَّا عليه أحد من الناس آمرك أنْ تأتيه، ولكنه قد أظلَّك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية لا الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أنْ تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات فدفناه، ومكثتُ بعمُّوريّة ما شاء الله أنْ أمكث، ثم مرَّ بي رجال من كلب تجاراً، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي وغُنَيمتي هذه؟ قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني فلما قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من اليهود عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل فرجوت أنْ يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم تحزن نفسي، فبينما أنا عنده إذْ قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أنْ رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث الله تعالى رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرقِّ، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إنِّي لفي رأس عِذقٍ[1] لسيدي، أعمل فيه بعض العمل ـ وسيدي جالس ـ إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان! قاتل الله بني قيلة ـ يعني الأوس والخزرج ـ الآن والله إنَّهم لمجتمعون بقُبَاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعم أنَّه نبي، فلما سمعتُها أخذتني العرواء[2] حتى ظننت كأني ساقط على سيدي، ونزلت عن النخلة، فجعلت

---

(١) عَذق: بالفتح: النخلة بحملها، والعِذق بالكسر: الكباسة. «مختار» (٤٢١).

(٢) العرواء: الرعدة مثل الغُلَواء، وهي قرة الحمى ومسها في أول رعدتها. «القاموس» (عرا).

أقول لابن عمه: ماذا تقول؟ فغضب سيدي ولكمني لكمة، وقال: مالك ولهذا؟ أقبلْ على عملك، قلت: لا شيء إنما أردت أنْ أستثبته عمَّا قال. وكان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُبَاء، فدخلت عليه، فقلت له: إنَّه قد بلغني أنَّك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم وقربته إليه، فقال ﷺ لأصحابه: كلوا. وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه، فجمعت شيأً، وقد تحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به وقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها؛ فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد وقد تبع جنازة مع أصحاب له عليه شملتان، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني ﷺ استدبرته، عرف أني أستثبت في شيء وُصِفَ لي، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي: تحوّل! فتحوّلت فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسولَ الله ﷺ أن يسمع أصحابه، ثم شغلني الرق حتى فاتني معه بدر وأحد، ثم قال لي ﷺ: يا سلمان! كاتبْ، فكاتبت صاحبي على ثلثمائة نخلة أحييها له بالفقير[1] يعني البئر، وبأربعين أوقية. وقال لأصحابه: أعينوا أخاكم! فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين ودية[2] والرجل بعشرين، والرجل بخمسة عشر، والرجل بعشرة، يعينني الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلثمائة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: اذهب يا سلمان! ففقِّر، فإذا فرغت أكون أنا الذي أضعها بيدي، ففقَّرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئت فأخبرته فخرج ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب الودي ورسول الله ﷺ يضعه بيده، فوالذي نفس

---

(١) أي يحفر لها ويغرسها له.

(٢) وديّة: فسيلة النخل وصغيرته. «لسان العرب» (ودي).

سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، وأدّيت فبقي عليَّ المال، فأُتيَ رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة مِنْ ذهب، من بعض المعادن فقال: ما فعل الفارسي المكاتَب؟ فدُعيت له، فقال: خذ هذه فأدِّها بما عليك، فأخذتها فوزنت لهم منها ـ والذي نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية، فأديتهم حقَّهم، وعتقت فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد.

ودخل سعد بن أبي وقاص عليه ليعوده ـ رضي الله عنهما ـ فبكى سلمان، فقال له سعد: ما يبكيك، توفّي رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ، وترد عليه الحوض. فقال سلمان: ما أبكي فزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكنَّ رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً، فقال: «ليكن بلغة أحدكم مثل زاد الراكب»[1]، وحولي هذه الأساودة[2] ـ وإنما حوله إجانة[3] وجفنة[4] ومطهرة[5] ـ فقال له سعد: أوصنا! قال: اذكر ربك عند همّك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت.

ولما مات بيع متاعه كله فبلغ أربعة عشر درهماً.

وقيل له: أوصنا! فقال: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غازياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل، ولا يموتن تاجراً ولا جابياً.

وكان قد أصاب صرة مسك أودعها امرأته، فلما حضرت الوفاة قال: هاتِ

---

(١) حديث «ليكن بلغة أحدكم»: أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/٥٥٣). بلفظ (لتكن).

(٢) الأساودة: قال أبو عبيد: أراد بالأساود الشخوص من المتاع الذي كان عنده. وكل شخص من متاع أو إنسان أو غيره: سواد، قال ابن الأثير: ويجوز أن يريد بالأساود الحيات، جمع أسود، شبهها بها لاستضراره بمكانها. «لسان العرب» (سود).

(٣) إجانة: وعاء تغسل فيه الثياب.

(٤) جفنة: كالقصعة.

(٥) مطهرة: إداوة التطهير.

مسكاً فامرثيه في ماء، ثم انضحيه حولي، فإنه يأتي الآن زوارا ففعلت، فلم يمكث إلا بقية يومه.

ثم توفي رضي الله عنه وذلك سنة ست وثلاثين أو أربع وثلاثين في داء البطن بالمدائن في خلافة عثمان رضي الله عنه وعمره مائتان أو ثلاثمائة وخمسون سنة أما الأول فعليه عند المؤرخين المعوّل.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة منه سيدنا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

***

سيدنا أبو محمد

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق

«رضي الله عنهم أجمعين»

العالم المفتي الفقيه الوَرِع الزاهد الحجة النبيه، كان بغوامض الأحكام فائقاً، وإلى محاسن الأخلاق سابقاً.

وقد قيل: التصوف: الفتق للرتق، والرفؤ للفتق[1].

قال أيوب السختياني[2] رضي الله عنه: ما رأيت أفضل من القاسم لقد ترك مائة ألف وهي له حلال.

وجاءه أعرابي فقال: أنت أعلم أو سالم؟ فقال: ذاك منزل سالم، فلم يزده عليها حتى قام الأعرابي. قال محمد بن إسحق[3]: كره أنْ يقول: هو أعلم مني فيكذب، أو يقول: أنا أعلم منه فيزكي نفسه، وكان القاسم أعلمهما.

---

(١) قوله (الفتق للرتق): أي الفرق النوراني بعد الجمع، أو يقال: البقاء المحمدي بعد الفناء الحقي.
وقوله (الرفؤ للفتق): ردُّ الفرق إلى الجمع في حضرةٍ واحدة، لا يحجبه فرقه عن جمعه، ولا جمعه عن فرقه، فهو في خلوةٍ مع محبوبه بقلبه حال جلوته.
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي (ع)

(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان (٦٦ ـ ١٣١ هـ) السختياني البصري: سيد فقهاء عصره، تابعي، من النساك الزهاد، من حفاظ الحديث. كان ثبتاً ثقة، روي عنه نحو (٨٠٠) حديث. «الأعلام» (٢/ ٣٨).

(٣) محمد بن إسحاق بن يسار (٠٠٠ ـ ١٥١ هـ) المدني: من أقدم مؤرخي العرب. من أهل المدينة. من حفاظ الحديث. زار الإسكندرية، وسكن بغداد فمات فيها. وكان جده من سبي عين التمر. «الأعلام» (٦/ ٢٨).

وقال مالك[1]: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: لو كان لي من الأمر شيء لولَّيت القاسم الخلافة.

وقال سفيان: اجتمعوا إلى القاسم في صدقة قسَّمها، وقام يصلي، فجعلوا يتكلمون، فقال ابنه: إنَّكم اجتمعتم على رجل والله ما نال منها درهماً ولا دانقاً، فأوجز في صلاته، وقال: يا بني! قل فيما علمت. يقول سفيان: وصدق ابنه، ولكن أراد تأديبه في النطق وحفظه.

وعن يحيى بن سعيد قال: ما أدركنا في المدينة أحداً نفضله على القاسم.

وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة وهم: القاسم المشار إليه، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ولد ابن أخي عبد الله بن مسعود الصحابي، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كان الحارث من جملة الصحابة رضي الله عنهم أخو أبي جهل، وسليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبي ﷺ وهو أخو عطاء، وهؤلاء الفقهاء السبعة كانوا بالمدينة في عصر واحد وعنهم انتشر العلم والفتيا في الدنيا.

وقد جمعهم بعض العلماء في بيتين فقال:

ألا كلُّ من لا يقتدي بأئمة ... فقسمتُهُ ضيزى عن الحقِّ خارجهْ

فخذهم عبيدُ اللهِ عروة قاسمٌ ... سعيدٌ سليمانُ أبو بكرٍ خارجهْ

ولولا كثرة حاجة فقهاء زماننا إلى معرفتهم لما ذكرتهم، لأنَّ في شهرتهم غنية عن ذكرهم في هذا السفر. وإنما قيل لهم الفقهاء السبعة، وخُصُّوا بهذه التسمية، لأنَّ الفتوى بعد الصحابة رضوان الله عليهم صارت إليهم، وشهروا بها، وقد كان في عصرهم جماعة من التابعين مثل سالم بن عبد الله بن عمر

---

(١) مالك بن أنس بن مالك (٩٣ ـ ١٧٩ هـ) الأصبحي الحميري: أحد الأئمة الأربعة، مولده ووفاته في المدينة، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك. «الأعلام» (٥/ ٢٥٧).

وأمثاله ولكن الفتوى لم تكن إلا لهؤلاء السبعة. كذا قال الحافظ السِلفي[1].

وقد تقدم في ترجمة زين العابدين علي بن الحسين - رضي الله عنهما - أنَّهما كانا ابني خاله، وأنَّ القاسم والدته ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس، وكذلك زين العابدين، وسالم بن عبد الله بن عمر. والقصة مستوفاة هناك.

ولما مات عبد الملك بن مروان أَسِفَ عليه عمر بن عبد العزيز أسفاً منعه مِنَ العيش، وقد كان ناعماً فلبس مسحاً سبعين ليلة، فقال له القاسم بن محمد: أما علمت أنَّ من مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتحمل، ومواجهة النقم بالتجمل. فراح من يومه في مقطعات من حِبَرِ اليمن شراؤها ثمان مائة دينار، وفارق ما كان يصنع.

وعن حماد بن زيد[2]، عن أيوب قال: سمعت القاسم يُسْأل عن شيء؟ فيقول: لا أدري! لا أعلم! فلما أكثروا عليه، قال: والله ما أعلم ما تسألون عنه ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حلَّ لنا أنْ نكتمكم.

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: ما رأيت أحداً أعلم بالسُنَّةِ من القاسم، وكان الرجل لا يعدُّ رجلاً حتى يعرف السُنَّة.

ومن كلامه: لأنَ يعيش الرجل جاهلاً بعد أنْ يعرف حقَّ الله عليه، خير له من أنْ يقول ما لا يعلم.

وكان يقول في سجوده: اللهمَّ؛ اغفر لأبي ذنبه في عثمان.

---

(١) السلفي: أحمد بن محمد بن سِلَفة (بكسر السين وفتح اللام) (٤٧٨ - ٥٧٦ هـ) الأصبهاني، أبو طاهر: حافظ مكثر، رحل في طلب الحديث، وكتب تعاليق وأمالي كثيرة، وبنى له الأمير العادل (وزير الظافر العبيدي) مدرسة في الإسكندرية سنة (٥٤٦ هـ)، فأقام إلى أن توفي فيها. «الأعلام» (١/ ٢١٥).

(٢) حماد بن زيد بن درهم (٩٨ - ١٧٩ هـ) الأزدي، الجهضمي مولاهم، البصري: شيخ العراق في عصره. من حفاظ الحديث المجوّدين. يعرف بالأزرق. أصله من سبي سجستان، مولده ووفاته في البصرة. طرأ عليه العمى، يحفظ أربعة آلاف حديث. خرّج حديثه الأئمة الستة. «الأعلام» (٢/ ٢٧١).

وعن أيوب قال: رأيت على القاسم ـ رضي الله عنه ـ رداء قد صُبغ بشيء من زعفران، ويدع مائة ألف لا يرى لها قدراً.

أسند الحديث عن عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وغيرهم رضي الله عنهم، وخرَّج له الستة، وعامة مسانيده في المناسك والأحكام، وكان أفضل أهل زمانه.

وقال مالك: كان القاسم من فقهاء هذه الأمة.

ولما احتُضر قال: كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها قميصي وإزاري وردائي، فقال ابنه: يا أبتِ! ألا نزيد ثوبين؟ فقال: هكذا كفن أبو بكر رضي الله عنه في ثلاثة أثواب، والحيُّ أحوج إلى الجديد من الميت.

توفي في قُدَيْد ـ بضم القاف وفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة: منزل بين مكة والمدينة ـ وكان حاجاً أو معتمراً، وذلك سنة ثمان أو تسع ومائة، عن سبعين وقد كُفَّ بصره الكريم، وقال لابنه: شن التراب عليَّ شناً وشقَّ على قبري، والحق بأهلك، وإياك أنْ تقول: كان وكان. عليه من الله الرحمة والرضوان.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة منه سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه:

***

سيدنا الإمام جعفر الصادق

رضي الله عنه

سبط سيدنا القاسم المومى إليه، وقد تقدم في السلسلة العلوية الأولى المعروفة بسلسلة الذهب شذرة من الكلام على فضائله وشمائله رضوان الله عليه.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة بالروحانية منه سيدنا أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي رضي الله عنه:

* * *

سلطان العارفين

سيدنا أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان البسطامي رضي الله عنه

أشهر من أَنْ يذكر، وأعرف من أَنْ يُعرَّف، كان نادرة زمانه حالاً وقالاً، وأنفاساً وورعاً، وعلماً وتقى، ووجداً وزهداً، وناهيك بقول الخوافي: هو سلطان العارفين.

وكان خاتم الأولياء المحمديين سيدنا الشيخ الأكبر محيي الدين يسميه: أبا يزيد الأكبر. وهو القائل:

أريــدك لا أريــدك للثــواب ولكنــي أريــدك للعقــاب[1]

وكـل مـآربـي قـد نلـتُ منهـا سوى ملذوذِ وَجْدي بالعذاب

فانظر إلى هذا النَّفَس ما أسماه، وإلى هذا المقام ما أسناه.

أُسْرِج له السِّراجُ ليلة، فقال لأصحابه: إني أجد وحشة في السراج، فقالوا له: يا سيدنا! استعرنا قارورة من البقّال لنأتي بالدهن فيها مرة، فأتينا فيها مرتين، فقال: عرِّفوا البقال، وأرضوه، ففعلوا فزالت عنه.

قال الشيخ الأكبر: وكان حاله التجريد وعدم الادخار، فقال يوماً لأصحابه: فقدت قلبي، فاطلبوا البيت. فوجدوا فيه قطف عنب، فقال: رجع

---

(١) قوله (ولكني أريدك للعقاب): يحتمل معنيين: - إما أن تظهر فيه جميع الأسماء الإلهية حتى الجلالية منها، ليتم له تذوق تجلي كل اسم، وذلك لأن الجمال الحاصل من الأسماء الجمالية فرع عن الجلالية. كما قال العارف:

بـديـع التجلـي واسـع المجـال يبـدي بـالتحلـي جمـال الجـلال

- وإما من رحمته بالأمة المحمدية طلب أن يكون نصيبها من التجليات الجلالية له خاصة رحمةً بهم (ع).

بيتنا بيت البقالين، فتصدقوا به، فوجد قلبه.

وذكر الشيخ الأكبر أنه كان القطب الغوث في زمانه، حيث قال: من الأقطاب من يكون ظاهر الحكم، ويحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم؛ ومنهم من له الخلافة الباطنة ولا حكم له في الظاهرة كأبي يزيد.

وقال في موضع آخر: كان أبو يزيد على قلب إسرافيل، له الأمر ونقيضه جامع للطرفين، وهذا المنصب لا يكون في الزمان إلا لواحد. انتهى.

وقال الذهبي: نُقِل عنه أشياء كبيرة الشأن، في صحتها نظر، منها: سبحاني! ما أعظم شأني. وما في الجبة إلا الله. ما النار! لأستندنَّ إليها وأقول: اجعلني لأهلها فداء، ولأبلغنها. ما الجنة إلا لعبة الصبيان، هبْ لي هؤلاء اليهود، ما هؤلاء حتى تعذبهم. ومن الناس من يصحح هذا عنه ويقول: قاله في حال سكره[(١)]. ا.هـ.

قال العلامة أحمد بن حجر[(٢)]: بعد حكايته ذلك عنه، قلت: أبو يزيد يسلم له حاله، والله متولي السرائر.

ولما تكلم في علوم الحقائق لم يفهم أهل عصره كلامه، فرموه بالعظائم

---

(١) قوله (في حال سكره): من تعاليم الشرع المطهر أن ندرأ الحدود بالشبهات بعد ثبوتها بالطرق المعتبرة، ومن هذا ما ينسب إلى كثير من علماء الأمة الإسلامية مما يحتمل الثبوت وعدمه، وإذا ثبت عن مسلم كلام كفر بالطريق القطعي ولا تأويل له بوجه من الوجوه، ولا ندري هل بقي معتقداً إياه حتى قُبض على ذلك أم رجع عنه، فالأسلم الإمساك عنه وتفويض أمره إلى ربه. (ع).

(٢) أحمد بن علي بن محمد (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) ابن حجر العسقلاني: من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته في القاهرة. ولع بالأدب والشعر، ثم أقبل على الحديث، ورحل لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس، وأصبح حافظ الإسلام في عصره. ولي قضاء مصر مرات، ثم اعتزل. «الأعلام» (١/١٧٨).

ونفوه من بلده سبع مرات، وهم في كل مرة يختلُّ أمرهم، وينزل بهم البلاء، حتى أذعنوا له، وأجمعوا على تعظيمه.

وكان إذا ذكر الله يبول الدم.

وقال الشيخ الأكبر: قال بعض المحجوبين لأبي يزيد: شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً. فقال أبو يزيد: الرجل مَنْ يشرب البحار ولسانه خارج على صدره من العطش. فأشار إلى أنَّ الحب شرب بلا ري[١].

وقال الشيخ أيضاً ـ قدس الله سره العزيز ـ: جربت المخبرين عن الله إذا ضربوا الأمثال لأمرٍ ما فإنه لا بدَّ من وقوع ذلك المضروب به المثل؛ كان أبو يزيد البسطامي يشير عن نفسه أنَّه قطب الوقت، فقيل له يوماً عن بعض الرجال: إنَّه يقال فيه إنَّه قطب الوقت، فقال: الولاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد، لو أنَّ رجلاً شقَّ العصا وقام ثائراً في هذا الموضع ـ وأشار إلى قلعة هناك ـ وادعى أنَّه خليفة قُتِل ولم يتم له ذلك، وبقي أمير المؤمنين أمير المؤمنين. فما مرت أيام حتى ثار في تلك القلعة ثائر ادعى الخلافة فقتل وما تم له ذلك، فوقع ما ضرب به أبو يزيد المثل عن نفسه.

وكان على قدم المسيح ـ عليه السلام ـ قتل نملة خطأ فنفخ فيها فأحياها خوفاً من المطالبة[٢].

---

(١) قوله (بلا ري): قال أحدهم:

شربت الحبَّ كأساً بعد كأسٍ ... فما نفد الشراب وما رويت

وقال آخر:

كنت تسقيني قُبيلاً ... منها كاسات صغار
أتراني اليوم أرضى ... منك كاسات كبار
لست أرضى غير أني ... أحتسي تلك البحار
ثم لا أدري أأروى ... أم أذوق الاحتضار (ع)

(٢) قوله (من المطالبة): ما كان معجزة لنبي صحَّ أن يكون كرامة لولي، فالأمر الخارق للولي كرامة تمر، وللنبي المتبوع معجزة تستمر. (ع).

وقال: أوقفني الحق بين يديه، وقال: يا أبا يزيد! بأي شيء جئتني؟ قلت: بالزهد في الدنيا، قال: إنما مقدار الدنيا عندي جناح بعوضة، ففيم زهدت؟ قلت: إلهي! أستغفرك من ذلك، جئت بالتوكل عليك، قال: ألم أكن ثقة فيما ضمنت لك؟ قلت: أستغفرك، جئتك بك، أو قال: بالافتقار إليك. فقال عند ذلك: قبلتاك.

وقال: وقفت مع العابدين فلم أرَ لي معهم قَدَماً، فوقفت مع المجاهدين فلم أرَ لي معهم قدماً، فوقفت مع المصلين والصائمين فلم أرَ لي معهم قدماً، فقلت: يا رب! كيف الطريق إليك؟ فقال لي: اترك نفسك وتعال[1].

قال الخوّاص[2]: فاختَصر له الطريق بألطف كلمة وأخصرها، فإنَّه إذا ترك حظَّ نفسه من الدارين قام الحق معه.

ومن فوائده التي لا تكاد تحصى: سرْ في ميدان التوحيد، حتى تصل إلى دار التفريد، وطِرْ في دار التفريد، حتى تلحق وادي الديمومية[3].

وأرسل ذو النون المصري يقول له: إلى متى النوم والراحة وقد جازت القافلة؟! فقال لمن أتاه: قل لأخي: ليس الرجل مَنْ يسير مع القافلة، إنَّما

---

(١) قوله (وتعال): مواهب الحق سبحانه واختصاصاته ليست مقيدة بالأسباب، مع وجوب العمل بها قدر الوسع، فلما قارن نفسه بأهل المجاهدات التي فوق وسعه لم ير له قدماً معهم، فرقّاه الحق إلى مقامات القلوب والتخلي عن نفسه، فكان ذلك سبب وصوله. (ع).

(٢) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل (٠٠٠ ـ ٢٩١ هـ) الخوّاص: هو أحد من سلك طريق التوكل، وكان أوحد المشايخ في وقته، ومن أقران الجنيد والنوري. له في السياحات والرياضات مقامات. ولد في سُرَّ من رأى، ومات في جامع الري. له كتب مصنفة، ونسبته إلى بيع الخوص. «طبقات الصوفية» (ص٢٨٤).

(٣) قوله (الديمومية): السير في التوحيد لا نهاية له لأنه مَشَاهِد وأذواق، فإذا وصل إلى دار التفريد، وهي البرزخ، استمر سيره وترقيه حتى يدخل حضرة الديمومة عند ربه في دار النعيم المقيم. (ع).

الرجل من ينام إلى الصباح، فيصبح أمامها في المنزل[١]، فقال ذو النون: هنيئاً له، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا.

وقال: علامة العارف أن يكون طعامه ما وجد، ومبيته حيث أدرك، وشغله بربه.

وجاء رجل إلى بابه فدقه، فقال: من تطلب؟ قال: أبا يزيد، فقال: ليس في البيت غير الله[٢].

ومشى خلف أبي يزيد رجل من أصحاب ذي النون المصري، فقال له: من تطلب؟ قال: أبا يزيد، فقال: يا بني! أبو يزيد يطلب أبا يزيد من أربعين سنة[٣]؛ فرجع إلى ذي النون وأخبره فغشي عليه.

وفي رواية: قال ذو النون: إنَّ أخي أبا يزيد فَقَد نفسه في حبِّ الله تعالى فصار يطلبها مع الطالبين[٤].

قال العارف المناوي: يشير أبو يزيد عن ذهابه عن الخلق إلى الحق بلا رجوع.

وقال: أمر الله العباد ونهاهم فأطاعوه، فخلع عليهم خلعاً، فاشتغلوا عنه بالخلع، وإني لا أريد من الله إلا الله.

وذكر عنده الزهد، فقال: ما أهونه، زهدت في اليوم الأول في الدنيا وما فيها، وفي الثاني في الآخرة وما فيها، وفي الثالث فيما سوى الله.

---

(١) قوله (في المنزل): لأنه سير قلبي لا يُدرك ولا يُلحَق فكيف يُسبَق. (ع).

(٢) قوله (غير الله): أراد أن يرقي الطارق من الفرق إلى الجمع، ليكون مقصوده ـ حال توجهه إلى الأسباب ـ إلى الله وحده. وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله». ومن كلامهم: إلهي! أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي. (ع).

(٣) قوله (أربعين سنة): يخبر عن فنائه عن نفسه وحسه، ويشير إلى بقائه بربه. (ع).

(٤) قوله (الطالبين): طلبه لها من أجل أن يقوم بحقها الواجب شرعاً، ويعطي الخلافة في الأرض حقها، فنفسه مملوكة لله، وهي أقرب خلق الله إليه، وهو مأمور بالإحسان إلى خلقه، فمن هنا تعين طلبها والإحسان إليها. (ع).

وقرىء عليه: ﴿إنَّ بطش ربك لشديد﴾ [البروج: ١٢]، فقال: بطشي أشد. ووجهه كما قال سيدنا الشيخ الأكبر قدس الله سره: إنَّ بطش العبد بطش معرَّى عن الرحمة، فليس عنده حالَ بطشه من الرحمة شيء، وبطش الحق بكل وجه فيه رحمة بالمبطوش به، فهو الرحيم له في بطشه.

وسئل: من أين تأكل؟ فقال: مولاي يطعم الكلب والخنزير أفلا يطعم أبا يزيد.

وقال: انسلخت من جلدي، فرأيت من أنا. قال العارف السهروردي(١): أشار إلى النفس النَّاطقة.

وصلى خلف إمام الجامع، فلما سَلَّم الإمام قال: يا أبا يزيد! من أين تأكل؟ قال: اصبرْ حتى أعيد صلاتي، فإنَّك شككت في رزق المخلوق، ولا تجوز الصلاة، خلف من لا يعرف الرزاق.

وقال: غلطت في بدايتي في أربعة: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما نظرت رأيت ذكره لي، ومعرفته بي، وحبه لي، وطلبه إياي كان أولاً حتى طلبته.

وقال: قلت يوماً: سبحان الله، فناداني الحق في سري: هل فيَّ عيب تنزهني عنه؟ قلت: لا يا رب! قال: فنفسك نزه عن ارتكاب الرذائل، فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل وتحلت بالفضائل، فصرت أقول: سبحاني، ما أعظم شاني! من باب التحديث بالنعمة.

وقال: ليس العالم، من يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً، بل

---

(١) قوله (الناطقة): وهي النفس الكلية أو الروح الأكبر الساري في الكثائف من غير تجزؤ.

عنصر الأنفاس منا واحد   وكذا الأجسام جسم عَمَّنا

ومثال ذلك الكهرباء الساري في الأسلاك والظاهر في الزجاجات. (ع).

من يأخذ العلم من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس، وهذا هو **العالم الرباني**[1].

وقال: إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذه الطريق فقل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة.

وقال: قال لي الحق: أُخرج إلى خلقي بصفتي، فمن رآك رآني.

قال سيدنا الشيخ الأكبر: هو ظهور صفات الربوبية عليه، ألا ترى خلفاء الحق في العباد لهم الأمر والنهي والحكم والتحكم، وهذه صفة الإله، والسوقة مأمورة بالسمع والطاعة.

وقال: حظوظ كرامات الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم من اسم منها: الأول والآخر والظاهر والباطن، فمن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، أو الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، أو الأول كان شغله بما سبق، أو الآخر كان مرتبطاً بما يستقبله.

وقال: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

قال سيدنا الشيخ الأكبر: فعلماء الرسوم يأخذون خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة فيبعد النسب، والأولياء يأخذون عن الله ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة منه، وعناية سبقت لهم عند ربهم. ا. هـ.

وقال: كنت في حالة توهمت أني وصلت إلى غاية الوصال، ففاجأني شيخ وقال: يا أبا يزيد! نهايتك بداية القوم.

وقيل له: هل بلغت جبل قاف؟ قال: جبل قاف ليس بغريب، بل الشأن

---

(١) قوله (العالم الرباني): وفي كلام للإمام أحمد الرفاعي قدس سره: منبعنا وقتي، وثريدنا طري، لا نأكل القديد. (ع).

جبل كاف وجبل عين وجبل صاد، هذه جبال محيطة بالأرض، حول كل أرض جبل بمنزلة حائطها[1].

وقال: رأيت الحور في النوم، فنظرت إليهن فانتبهت وقد سلب وقتي، ثم رأيتهن فأعرضت عنهن، فأنعم عليَّ بوقتي[2].

وقال: الأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات، كالمشي على الماء والهواء وطي الأرض وركوب الماء، فإنّ أدعية الكفار تجاب، والأرض تطوى للشياطين والدجال، والهواء مسخر للطير، والماء للحوت، فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن المكر.

وقال: ما وجدت المعرفة إلا ببطنٍ جائع وبدنٍ عار.

وقيل له: حدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك. فقال: دعوتها إلى الله فنكلت عليَّ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء ولا أذوق النوم سنة فأذعنتْ.

وقال: إنما نالوا ما نالوا بتضييع ما لَهم[3]، وشهود ما لَه تعالى.

وقال: حركات الظواهر توجب بركات السرائر.

وقال: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، بل من حبك لي وأنت ملك قدير.

وقال: لله عباد لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة، كما يستغيث بالخروج أهل النار من النار.

---

(١) قوله (حائطها): من المعلوم القطعي أن الأرضين سبع، وأن كل طبقة محيطة بالتي تليها فأطلق عليها هذه الأسماء. والمقصود هو مشاهدة ملكوت السموات والأرض. قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾. (ع).

(٢) قوله (بوقتي): في الحكم العطائية: ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلبه أمامك. ولا تبرجت ظواهر المكوّنات إلا ونادته حقائقها: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾. (ع).

(٣) قوله (مالهم): أي بعدم جعله مقصوداً وغاية. (ع).

وقال: لم أزل ثلاثين سنة، كلما أردت أن أذكر الله أغسل فمي ولساني إجلالاً له.

وقال له رجل: بلغني أنك تمر في الهواء، فقال: أي عجب فيه، طير يأكل الميتة يمر في الهواء، المؤمن أشرف من طير.

وقال: طلقت الدنيا ثلاثاً، وسرت إلى ربي وحدي، فناديته: إلهي! أدعوك دعاء من لم يبقَ له غيرك، فعلم صدقي فأنساني نفسي بالكلية، ونصب الخلق بين يدي مع إعراضي عنهم[1].

وقال: إنَّ في الطاعات من الآفات ما لا يحتاج إلى أنْ تطلبوا المعاصي[2].

وقال: ما دام العبد يظن في المسلمين من هو شر منه فهو متكبر.

وسئل: متى يكون الرجل متواضعاً؟ فقال: إذا لم يرَ لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى أنَّ في الخلق من هو شر منه[3].

وكان يقول إذا سئل عن العارف: للخلْق أحوال ولا حال للعارف، لكونه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره[4].

وقال: دعوت نفسي إلى ربي فأبت، فتركتها ومضيت إليه.

وقال: أشد المحجوبين عن الله ثلاثة: الزاهد بزهده، والعابد بعبادته،

---

(١) قوله (مع إعراضي عنهم): الأمور كامنة بأضدادها، فمن أخفى نفسه أظهره الله، ومن أعرض عن الخلق أقبل الحق بقلوبهم إليه، وهكذا. (ع).

(٢) قوله (المعاصي): أرشدهم إلى تكميل طاعاتهم، وجبر نقصها، والاستغفار مما يطرأ على قلوبهم فيها، وهذا هو الذي يحجبهم عن العجب بها، وأن يقتحموا المعاصي ويتجرؤوا عليها (ع).

(٣) قوله (شر منه): في الحكم: ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكنَّ المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع. (ع).

(٤) قوله (بهوية غيره): أحوال الخلق ناتجة عن غيبتهم عن الحق. أما العارف فأحواله أوصاف الحق، يتخلق بالأسماء والأوصاف ويكون مظهر التجليات. (ع).

والعالم بعلمه؛ مسكين الزاهد لو أنَّ الدنيا كلها سماها الله قليلاً ما زهد فيها، مسكين العالم لو علم أنَّ جميع ما أوتيه من العلم بعض سطر واحد من اللوح المحفوظ ما نظر لعلمه.

وقال: طوبى لمن كان همه هماً واحداً، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه.

وقال: أكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه(١).

وقال: أقرب الناس من الله أكثرهم شفقة على خلقه.

وقال: لا يحمل عطاياه إلا مطاياه المذلَّلَة المروضة.

وقال: العارف من لا يفتر عن ذكره، ولا يمل من خلقه، ولا يأنس بغيره.

وقال له رجل: علمني الاسم الأعظم. قال: ليس له حد محدود، وإنما هو فراغ قلبك لوحدانيته، فإذا كنت كذلك، فارجع إلى أي اسم شئت تسير به من المشرق إلى المغرب.

وقال: الجوع سحابٌ، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة.

وقال: إذا وقفت بين يدي ربك، فاجعل نفسك كأنك مجوسي يريد قطع الزنار بين يديه.

وقال: دعوت الناس إلى الله أربعين سنة فما أجابوني، فلما تركتهم ورجعت إليه وجدتهم قد سبقوني.

وقال سيدنا الشيخ الأكبر قدّس الله سرّه: قيل له في هذا المقام: أيعصي العارف؟ فقال: وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً.

قال الشيخ: وهذا غاية الأدب، حيث لم يقل: نعم، ولا: لا. وهذا من كمال حاله وعلمه وأدبه رضي الله عنه.

---

(١) قوله (أبعدهم منه): في الحكم: ليس العارف الذي إذا أشار رأى الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له. (ع).

وكان يقول: الطريق تقتضي أنَّ الشيخ لا ينسى أهل زمانه، فكيف مريده المختص به؟ فإنّ من فتوة أهل الطريق، ومعرفتهم بالنفوس، أنَّه إذا كان يوم القيامة وظهر ما لهم من الجاه عند الله، خاف منهم مَن آذاهم في الدنيا، فأول ما يشفعون فيمن آذاهم.

قال سيدنا الشيخ الأكبر: هذا نصه وهو مذهبه، فإنَّ الذين أحسنوا إليهم يكفيهم عين إحسانهم، فهم بإحسانهم شفعاء أنفسهم عند الله بما قدموه في حق ذلك الولي.

وقال: الناس يفرون من الحساب، وأنا أتمناه لعله يقول لي: يا عبدي! فأقول: لبيك! ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء.

وقال له رجل: دلني على عمل أتقرب به إلى الله، قال: أحبب أولياءه ليحبوك، فإنه ينظر في قلوبهم إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك[1].

وقال: لو أذن لي في الشفاعة لشفعت أولاً فيمن آذاني وجفاني.

وقيل له: شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله مفتاح الجنة، فقال: صحيح، لكن لا يفتح المفتاح إلا مغلاقاً، ومغلاق لا إله إلا الله أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة.

وسمع رجلاً يكبِّر فقال: ما معنى الله أكبر؟ قال: الله أكبر من كل ما سواه، قال أبو يزيد: ليس معه شيء فيكون أكبر منه، قال: فما معناه؟ قال: معناه أكبر من أنْ يقاس بالناس، أو يدخل تحت القياس، أو تدركه الحواس.

وقال: لم أزل أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى ساقتني إليه وهي تضحك.

وقال: خصصت رجالاً فأكرمتهم فأطاعوك، فلم يبلغوا ذلك إلا بك، فكان

---

(١) قوله (فيغفر لك): وهذا معنى قولهم: إن لم تكن صالحاً فكن في قلب رجلٍ صالح. (ع).

رحمتك إياهم قبل طاعتهم، جل جلالك ما أعظم شأنك!

وقال: لا يشكو قلب العارف وإنْ قرض بالمقراض، ولا ييأس منه ولا يأمن مكره وإنْ نودي بالغفران.

وقال: هلاك الخلق في شيئين: ترك الحرمة، ونسيان المنة.

وصلى ليلة فأضاء البيت كأنه نهار، فقال: إنْ كنت شيطاناً فأنا أمنع جانباً من أنْ يطمع بي، وإنْ كان من عند الله فأسأله أنْ يؤخره من دار الخدمة إلى دار الكرامة.

وقال: حسب المؤمن أن يعلم أن الله غني عن عمله.

ورأى رجل أبا يزيد في منامه، فقال له: عظني. فقال:

الناس بحر عميق ... والبعد عنهم سفينة
وقد نصحتك فاختر ... لنفسك السكينة

وقال: ضحكت زماناً وبكيت زماناً، وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي[١].

وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة ولا صفة لي[٢].

وقال: عرفت الله بنور صنعه، وعرفت صنعه بنوره.

وقال: الدنيا للعامة، والآخرة للخاصة، فمن أراد أن يكون من الخاصة فلا يشارك الناس في دنياهم.

وقال: إنما جعلت الدنيا مرآة للآخرة، فمن نظر فيها للآخرة نجا، ومن شغل بها عن الآخرة أظلمت مرآته وهلك.

---

(١) قوله (ولا أبكي): لترقيه عن الأحوال إلى المقامات، ومن التلوين إلى التمكين. (ع).

(٢) قوله (ولا صفة لي): خرج عن شهود المكوّنات وتقلّب الليل والنهار إلى شهودِ ذاتي شهد فيه مقلِّب الليل والنهار. (ع).

وقال: لا عقوبة أشد من الغفلة، لأنَّ الغفلة عن الله طرفة عين أشد من النار.

وقال: لا يكون العبد عاملاً على معنى العبودية حتى تكون إرادته وأمنيته وشهوته تابعة لمحبة الله.

وقال: من نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم.

وقال: الدنيا لأهلها غرور في غرور، والآخرة لأهلها سرور في سرور، ومحبة الله لأهل محبته نور على نور.

وقال: من اختار الدنيا على الآخرة غلب جهله عمله، وفضوله ذكره، وعصيانه طاعته.

ودخل الجامع فوقف على حلقة فقيه، وقد سئل عن رجل مات وخلف كذا، فأخذ يصحح المسئلة ويضرب الأعداد، فصاح به: يا فقيه، ما تقول فيمن مات ولم يخلف إلا الله؟ فنظر إليه القوم وبكوا، فقال أبو يزيد: العبد لا يملك شيئاً فإذا مات لا يخلف إلا مولاه، كما كان أولاً فإنَّ آخره يرجع إلى أوله، لأنَّ أوله فرد ومعه الشهادة، فإذا كان آخره مثل أوله لم ير مع الله سواه، ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال: إنَّ لله عباداً لو بدت لهم الجنة بزينتها مع حجبهم عنه لضجوا منها.

وقال: أقمت عشرين سنة أكافح المجاهدة، وأكابد المراقبة، ولا أجسر أن ألبس مرقعة، ولا أتظاهر بالطريق، ثم بعد ذلك تواقحت ولبست.

وقال: متى وجدت قلبك مستريحاً، ودمعك جامداً، وعقلك حاضراً، فأنت بعيد من المحبة.

وقال: من أراده وفَّقه، ومن أحبه قرَّبه.

وقال: الفائز في محشر الساعة مَنْ قام بأوامره، وتلقاها بالسمع والطاعة.

وقال: معرفة العوام: معرفة العبودية والربوبية، والطاعة والمعصية، والعدو والنفس؛ ومعرفة الخواص: معرفة الإجلال والعظمة، والإحسان والمنة، والتوفيق؛ ومعرفة خواص الخواص: معرفة الأنس والمناجاة والتلطف، ثم معرفة القلب، ثم السر.

وقال: خلق الله الخلق لإظهار قدرته، ورزقهم لإظهار جوده، وأماتهم لإظهار قهره، ويحييهم لإظهار عظمته.

وقال: محال أن تعرفه ثم لا تحبه.

وقال: حاصلهم بعد الغاية رجوعهم إلى شيء واحد وهو العفو.

وقال: التوحيد اليقين، واليقين معرفتك أنَّ حركات الخلق وسكناتهم فعل الله.

وسئل: ما علامة العارف؟ فقال: ﴿إنَّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ [النمل: ٣٤].

وقال: الزاهد يقول: كيف أصنع؟ والعارف يقول: كيف يصنع؟ وأمل الزاهد في الدنيا الكرامات، وفي الآخرة المقامات، وأمل العارف في الدنيا بقاء الإيمان، وفي الآخرة العفو.

وقال: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد عليّ من العلم، ولولا اختلاف العلماء لتفت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد[١].

وقال: لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.

وقال: لله عباد لو حجبهم عنه طرفة عين ثم أعطوا الجنة ما قبلوها.

---

(١) قوله (إلا في تجريد التوحيد): تجريد التوحيد شهود وحدانية الله في الذات والصفات والأفعال، مع طيِّ الأغيار. فاختلاف العلماء فيه حجاب لهم عنه، ويبقون إن لم يجردوا توحيدهم في أوحال الأوهام، وإثبات الرسوم والانحجاب بها عن الله سبحانه. (ع).

وقال: كانت أمي لما حملت بي إذا قُدِّم لها طعام حلال امتدت يدها له. أو حرام انقبضت، فالعناية من الأزل.

ورأى تفاحاً أحمر، فقال: هذا تفاح لطيف، فقيل له: أما استحييت أن تضع اسمي على ثمرة. فنسي الاسم الأعظم أربعين يوماً، ثم قال: إلهي! نذرت أنْ لا آكل من ثمار بسطام ما عشت.

وقال: حسبك من التوكل أنْ لا ترى لك ناصراً غيره، ولا لرزقك رازقاً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره.

وقال: الناس تظن أنَّ الطريق أشهر من الشمس وأبين، وأنا أسأل الله أن يفتح عليَّ منها ولو قدر رأس إبرة.

وقال: النفس تنظر إلى الدنيا، والروح إلى الآخرة، والمعرفة تنظر إلى الله، فمن غلبت نفسه عليه فهو من الهالكين، ومن غلبت روحه عليه فهو من المجتهدين، ومن غلبت معرفته عليه فهو من المتقين.

وقال الغزالي رضي الله عنه: قال أبو يزيد: رأيت الحق في منامي، فقال: سلني، قلت: وعزتك! تعلم أنْ ليس لي لسان يقدر على النطق الآن، فقال له يحيى بن معاذ الرازي[1]: لِمَ لمْ تسأله المعرفة؟ فصاح، وقال: اسكت، المعرفة معرفتان: معرفة حقيقة، ومعرفة حق، فأما معرفة الحق فقد عرفها المؤمنون بنور الإيمان والإيقان، وأما معرفة الحقيقة فلا سبيل لها، قال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: ١١٠].

وكان يعظ نفسه ويقول: يا أمارة بالسوء! المرأة إذا حاضت طهرت بعد ثلاث أو سبع، وأنت منذ ثلاثين سنة ما طهرت، فمتى تطهرين؟ إنَّ وقوفك بين يدي الله عز وجل لا بدَّ منه، فاجتهدي أن تكوني طاهرة.

---

(١) يحيى بن معاذ بن جعفر (... ـ ٢٥٨ هـ) واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الري. أقام ببلخ. ومات في نيسابور. «الأعلام» (٨/ ١٧٢).

وقال: كنت أظن في برّي لأمي أني لا أقوم فيه لهوى نفسي، بل لتعظيم الشارع، حيث أمر ببرّها، فكنت أجد لذة عظيمة أتخيل أنها من تعظيم عندي لا من موافقة نفسي، فقالت لي في ليلة باردة: اسقني، فثقل عليّ وقمت بمجاهدة وجئتها بكوز فوجدتها نامت، فوقفت به حتى انتبهت، فناولتها وقد بقي في أذن الكوز قطعة من جلد أصبعي لشدة البرد انقرضت: فرجعت إلى نفسي فقلت لها: حبط عملك لكونك كنت تدّعي النشاط في عبادتك، ورأيتك تثاقلت عن ذلك، فعلمت أنّ كلّ ما نشطت فيه من عمل البر وفعلتيه لا عن كسل وتثاقل بل لذةٍ فإنما هو لهواك لا لله.

وقال: أوقفني الحق بين يديه مواقف في كلها يعرض عليّ المملكة، فأقول: لا أريدها، فقال: ما تريد؟ قلت: أريد أنْ لا أريد.

وقال: قال لي الحق: تقرب إليّ بما ليس لي: الذلة والافتقار.

وقال: دخلت على أستاذي أبي علي السندي، وبيده جراب فصبها، فإذا هي جواهر، قلت: من أين هذا؟ قال: وافيت وادياً فإذا هو يضيء كالسراج، فملأته منه، قلت: كيف كان وقتك الذي وردت فيه الوادي؟ قال: وقت الفترة عن الحال التي كنت فيها.

وقال: مددت رجلي ليلة في الظلام في محرابي، فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك لا يجالسهم إلا بأدب.

وقال: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله.

وقال: إنما خلع الله النعم على عباده ليرجعوا بها إليه فعكسوا واشتغلوا بها عنه.

وقال: رأيت رب العزة، فقلت: يا رب! كيف أجدك؟ قال: اترك نفسك وتعال.

وقال: صفة العارف صفة أهل النار لا يموت ولا يحيى.

وقال: أولياء الله عرائس في الدنيا والآخرة لا يراهم إلا من كان منهم.

وقال: لو شفعني الله في كل أهل عصري ما كان عندي تكبر، لأنه شفعني في قطعة طين.

وكتب إليه يحيى بن معاذ: إني سكرت من كثرة ما شربت من كأس المحبة، فكتب إليه: هنا رجل - يعني نفسه - شرب بحار السموات والأرض وما رَوِي بعد.

وقال له فقيه: علمك هذا أخذته عمن، وممن، ومن أين؟ قال: علمي من عطاء الله، وعن الله، ومن حيث قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»(١) فسكت الفقيه.

وسئل أبو علي الجوزجاني(٢) رضي الله عنه عن الكلام المنقول عن أبي يزيد مما لا يفهم، فقال: يسلم له حاله، ولعله تكلم به على حد غلبة، أو حال سكر، ومن أراد أنْ يرتقي إلى مقام أبي يزيد، فليجاهد نفسه كما جاهد أبو يزيد، فهناك يفهم كلام أبي يزيد، وأيكم يجاهد نفسه كما جاهد؟! دعا نفسه يوماً إلى عبادة فأبت فمنعها الماء سنة، فجاهدوا تفهموا إشاراته.

قال ابن معاذ: رأيته في بعض مشاهداته كالغريق ضارباً بذقنه على صدره، شاخصاً بعينيه من العشاء إلى الفجر، ثم سجد عند السحر فأطال سجوده، ثم قعد فقال: اللهم طلبوا منك فأعطيتهم طي الأرض، والمشي على الماء، وركوب الهواء وانقلاب الأعيان، وإني أعوذ بك منها، ثم التفت فرآني، فقلت: يا سيدي! حدثني بشيء، قال: أحدثك بما يصلح لك: أدخلني الحق في الفلك الأسفل، فدورني في الملكوت الأسفل فأرانيه، ثم أدخلني في الفلك

---

(١) حديث (من عمل بما علم) أخرجه الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٣). وقال العراقي: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس. وحكم أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥) بوضعه مرفوعا ونص على أنه من كلام عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٢) أبو علي الجوزجاني: الحسن بن علي، من كبار مشايخ خراسان. له التصانيف المشهورة. تكلم في علوم الآفات والرياضات والمجاهدات. صحب محمد بن علي الترمذي، ومحمد بن الفضل، وهو قريب السن منهم. «طبقات الصوفية» (٢٤٦).

العلوي، وطوّف بي السموات، فأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أيّ شيء رأيته حتى أهبه لك؟ قلت: ما رأيت شيئاً حسناً فأسألك إياه، فقال: أنت عبدي حقاً، تعبدني لأجلي صدقاً، لأفعلنَّ بك وأفعلن، وذكر أشياء؛ قال ابن معاذ: فهالني ذلك، وقلت: لِمَ لَمْ تسأله المعرفة؟ قال: غرت عليه مني لا أحب أن يعرفه سواه.

وقال: ركبت مركب الصدق حتى بلغت الهواء، ثم الشوق حتى بلغت السماء، ثم المحبة حتى بلغت سدرة المنتهى، فنوديت: يا أبا يزيد، ما تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد.

وقال الديلمي[1]: سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل؟ فقال: إذا أدخلت يدك في فم التنين لا تخاف مع الله غيره، فخرجت قاصداً أبا يزيد لأسأله عنه، فدققت الباب، فقال: أليس لك في قول عبد الرحمن كفاية؟ ما جئت زائراً وقد أتاك الجواب من وراء الباب، فلبثت سنة ثم قصدته، فقال: مرحباً الآن جئت زائراً.

ودخل مدينة فَهُرِعَ إليه جميع أهلها، فقال: من هؤلاء؟ قيل: قوم رغبوا فيك، فقال: اللهم إني أسألك أن لا تحجب الخلق[2] بك عنك، فكيف تحجبهم عنك بي؟! ثم صلى بهم الفجر والتفت، وقال: إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، فتركوه وقالوا: مجنون مسكين.

وصحبه رجل من الشهود ثلاثين سنة مع صيام أيامها وقيام لياليها، فقال له: يا سيدي! خدمتك وأطعتك، ولم يظهر لي شيء مما يودع الحقُّ قلوبكم، قال: يا ولدي! لو صمت وقمت ثلثمائة سنة ما تجد منها ذرة لأنك محجوب بنفسك، منقطع برؤيتك طاعتك، قال: دلني على دواء. قال: اذهب واحلق

---

(١) الديلمي: شيرويه بن شهردار بن شيرويه (٤٤٥ ـ ٥٠٩ هـ) أبو شجاع الهمذاني: مؤرخ، من العلماء بالحديث. «الأعلام» (٣/ ١٨٣).

(٢) قوله (لا تحجب الخلق): دعا لهم أن لا يحجبهم شهود الحقيقة عن القيام بأسباب مرضاته. ولما قرأ الآية على الحكاية تركوه، لأنه ينطق عن الله بالله، وهم محجوبون عن الله فاتهموه. (ع).

لحيتك، وانزع ثيابك، وعلق بعنقك مخلاة فيها جوز، وقل للصبيان: من صفعني صفعة أعطيته جوزة، ثم در الأسواق كذلك عند من يعرفك، فقال: سبحان الله! لمثلي يقال هذا. قال: قولك سبحان الله في معراض ذلك شرك لأنك رأيت عظمة نفسك. فقال: دلني على غير ذلك. قال: لا دواء لك غيره.

وقيل له: بم وصلت إلى ما وصلت؟ قال: جمعت الأسباب الدنيوية فربطتها بحبل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ورميتها في بحر اليأس فاسترحت.

وأمر تلميذاً له بشيء فخالفه، فلاموه، فقال: دعوه فإنه سقط من عين الله. فسرق فقطعت يده.

وقال أحمد بن خضرويه[1]: رأيت رب العزة في النوم، فقال: يا أحمد! كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني.

وقال أبو يزيد: إلهي! إنك خلقت الخلق بغير علمهم، وقلدتهم أمانة بغير إرادتهم، فإن لم تعنهم فمن يعينهم.

وسئلَ - رضي الله عنه - عن السُّنَّة والفريضة، فقال: السنة ترك الدنيا بأسرها، والفريضة الصحبة مع الله تعالى، وذلك لأنَّ السُّنَّة كلها تدل على ترك الدنيا، والكتاب كله يدل على صحبة المولى، لأنَّ كلامه صفة من صفاته تعالى.

وسئل عن أسباب الوصول، فقال: إمساك حقائق المأمورات، وحفظ الصدق مع الإخلاص في جميع الحالات.

بالله يا سطوات هجرهْ ... لا تعجلي بحلول ضرهْ
لو قال لي مت طاعةً ... ما عشت بعد سماع أمرهْ

---

(1) أحمد بن خضرويه (... - ٢٤٠ هـ) البلخي، أبو حامد: من كبار مشايخ خراسان. صحب أبا تراب النخشبي وغيره. ودخل نيسابور في زيارة أبي حفص النيسابوري «طبقات الصوفية» (١٠٣).

وقال: ظاهر التصديق وباطنه سواء، وقد اشترك الإيمان والحب في العبد، فكلما ازداد الإيمان ازداد الحب لله، قال الله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدّ حباً لله﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال: يا من باع كل شيء بلا شيء[1] ويا من اشترى لا شيء بكل شيء، إنَّ في طاعتك من الآفات ما يشغلك عن السيئات.

وقال لأمه: يا أماه! هل تناولت شيئاً من الحرام بسببي في وقت رضاعي؟ فإني لا آمن أنْ يكون وصل إليَّ شيء وأنا لا أعلم، فحجبني ذلك عن ربي عز وجل، فقالت له أمه: لا أذكر إلا أني دخلت يوماً إلى بعض جيراننا وأنت في حجري، فأخذت قارورة دهنهم فدهنت رأسك ولم أُعْلمهم، ويوماً آخر كحلتك بكحلهم ولم أستأذنهم، فقال: إنّ الله يحاسب عباده على مثقال ذرة، ألا ترين إلى قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. وهذا أعظم من ذرة فأخشى أن يقطعني عن ربي عز وجلّ، ثم قام وسأل عن القوم وطلب ورثتهم، فاستحل منهم لنفسه ولأمه.

وقال لرجل صلى في مسجده: إنْ زعمت أنَّ صلاتك مواصِلة فهي مفاصِلة، إن تركتها كفرت، وإن شاهدتها أشركت. ا. هـ.

وهذا نظير ما قالوه عن الشبلي ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قام يصلي فوقف طويلاً ثم صلى، فلما فرغ قال: يا ويلاه! إنْ صليت جحدت، وإنْ لم أصل كفرت.

وذكر عند أبي يزيد الجاه والنفس والمال، فقال: إنَّ المؤمن بلا نفس ولا مال ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) قوله (بلا شيء): الأول باع كل شيءٍ محمودٍ عند الله مقرِّب إليه بلا شيء له قيمة من أعراض الدنيا. والثاني اشترى بطاعاته وترك الدنيا والتخلي عنها حظوظ نفسه الأخروية، وهي لا شيء في نظر العارفين.
فالأول باع آخرته بدنياه، أو بدنيا غيره. والثاني باع حظه من الله بحظه الأخروي. (ع).

وقال: من نظر إلى الخلق بالخلق أبغضهم، ومن نظر إلى الخلق بالخالق رحمهم. ا.هـ.

وهذا نظير قول العارفين: من نظر إلى الخلق بعينه طالت خصومته، ومن نظر إليهم بعين الحق عذرهم فيما هم فيه.

وجلس في المسجد أربعين سنة.

قيل: وكانت ثيابه للمسجد على حدة، وللبيت على حدة، وللخلاء على حدة، وكذلك نعليه.

وقال: بلغني أنَّ الله ـ عز وجل ـ يقول: من أتاني منقطعاً إليّ جعلت له حياة لا يموت فيها، ومن أتاني منقطعاً إليّ جعلت له ملكاً لا يزول، ومن أتاني منقطعاً إليّ جعلت إرادتي في إرادته.

وسئل عن قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ [الحديد: ٣] فقال: هو الأول بكشف أحوال الدنيا حتى لا يرغبون فيها، والآخر بكشف أحوال الآخرة حتى لا يشكون فيها، والظاهر على قلوب أوليائه حتى يعرفونه، والباطن عن قلوب أعدائه حتى ينكرونه.

وقال: لا يكون العبد محباً لخالقه حتى يبذل نفسه لله تعالى في طلب مرضاته سراً وعلانية، يعلم الله من قلبه أنه لا يريد إلا هو.

وسئل عن الاسم الأعظم قال: في قولك: لا إله إلا الله، وأنت لا تكون هناك.

وكان بقومس رجل مشهور بالورع والزهد، فقال يوماً أبو يزيد لأصحابه: قوموا بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي شهر نفسه بالولاية، فمضوا معه، فلما خرج الرجل من منزله ودخل مسجده رمى ببزاقه نحو القبلة، فقال أبو يزيد: قوموا بنا ننصرف من غير أن نسلِّم، فإنَّ هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب الشريعة التي أُدِّب بها رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه من مقامات الأولياء والصدّيقين؟!.

وقال: إنَّ لله عز وجل عليَّ نعماً، منها: أني رضيت بأنْ أحرق بالنار بدل الخلق شفقة عليهم. ومنها: أني لم أمسك شيئاً قط.

وقال: ليس للعبد خير من أنْ يكون فقيراً ليس معه شيء، ولا التعبد ولا العلم، ولا يجيء إلا بالذل والافتقار إليه تعالى.

وسئل: متى يبلغ الرجل حدَّ الرجال؟ فقال: إذا عرف عيوب نفسه واشتغل بإصلاحها.

وقال: منذ أربعين سنة لم أستند إلى حائط مسجد أو رباط، فقيل له: لمَ لا تستند وفي ذلك رخصة؟ فقال: قال الله عز وجل ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] فهل ترى من رخصة.

وقال: لا شيء أعون على دينكم من تعظيم أخيكم المسلم وحفظ حرمته، ولا شيء أضرّ بكم في دينكم من تهاونكم بإخوانكم وتضييع حرمتهم.

وسئل عن مقام التحير في المحبة، فقال: إن المحب رَوَّح نفسه بمراوح الصفا، وجلَّلها بأردية الوفا، بمنازل التفكر في ميدان التذكر، قائماً بين الدهشة والحيرة، إنْ شاهد الملكوت قصرت نفسه عليه، وإن شاهد ملك الملكوت افتخرت نفسه عليه.

وأقام أياماً لم يتكلم مع مخلوق، فلما خرج إلى حال بسطه سئل عن ذلك؟ فقال: تذكرت ابتداء حالي، وتقلبي في أنواع البطالات والغفلات، فعلمت أني كنت مراداً فصرت مريداً، فإن من أراده وفَّقه، ومن أحبه قرَّبه قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً حبب إليه طاعته، وبغض إليه معاصيه»[(١)].

قال أبو موسى الدبيلي: وصحبته ستين فما رأيته نام مضطجعاً إلا يسيراً وطالما صلى الصبح بوضوء العشاء الآخرة، غير أنه يتحسر على ما مضى من اجتهاده.

---

(١) حديث: «إذا أراد الله»: لم أهتد إليه فيما لدي من المراجع.

وقلت له: بم أستعين على عبادة الله عز وجل؟ فقال: بالله، قلت: فما علامة الصدق؟ قال: طاعة الله عز وجل. واعلم أنه لا حسن أعظم ممن حسن لقاء الله تعالى. ا.هـ. يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال: من لزم العبودية لزمه اثنان، يأخذه الخوف من ذنبه، ويفارقه العجب من عمله.

وقيل له: ما أعظم آيات العارف؟ قال: أنْ تراه يؤاكلك، ويشاربك، ويمازحك، ويبائعك، ويشاريك، وقلبه معلق بالله ليس له همٌّ سواه.

وقال: كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين مرآة قلبي، وكنت سنة أنظر إليها فإذا في وسطي زنار ظاهر، فعملت في قطعه اثنتى عشرة سنة، ثم نظرت فإذا في باطني زنار باطن، فعملت في قطعه خمس سنين، ثم بقيت سنة انظر فكشف لي بعد ذلك عن الخلائق، فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات[1].

وقال: هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك.

وكان يقول: رب افهمني عنك، فإني لا أفهم عنك إلا بك.

وقال: اطلع الله عز وجل على قلوب أوليائه، فرأى منهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً، فشغله بالعبادة.

وقال: من سمع الكلام ليتكلم به مع الناس، رزقه الله فهماً يكلم به الناس، ومن سمع الكلام ليعامل الله به، رزقه الله فهماً يناجي به ربه تعالى.

وقال: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول، والعارف ما فرح

---

(١) قوله (فكبرت عليهم): قال الإمام النووي في «بستان العارفين» (ص١٣٢) بعد ذكره عبارة أبي يزيد رحمه الله: قلت: يكفي في شدة خفاء الرياء، اشتباهه هذا الاشتباه على هذا السيد الذي عز نظيره في هذا الطريق. ثم فسَّر العبارة تفسيراً نفيساً فليراجع.

بشيء قط، ولا خاف من شيء قط، والعارف يلاحظ ربه، والعالم يلاحظ نفسه بعلمه.

وقال: إنَّ الصادق من الزاهدين إذا رأيته هِبْتَه، وإذا فارقته هان عليك أمره، والعارف إذا رأيته هِبْته، وإذا فارقته هبته.

وقال: لأن يقال لي: لِمَ لَمْ تفعل؟ أحب إليّ من أنْ يقال لي: لمَ فعلت[1].

وقال: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل والشرب ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أساله هذا، وهذا شيء لم يسأله رسول الله ﷺ، فلا يجوز لي أن أسأله، فلم أسأله، ثم إن الله عز وجل كفاني مؤنة النساء حتى أني ما أبالي امرأة أتيت أم حائطاً.

وذهب ليلة إلى الرباط ليذكر الله تعالى على سوره، فبقي إلى الصباح لم يذكر، فقيل في ذلك، فقال: تذكرت كلمة جرت على لساني في حال صباي، فاحتشمت أن أذكره بلسان نطق بما نطق.

وقال: ما حصل للأولياء بالنسبة إلى ما حصل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا كمثل زق فيه عسل، يرشح من ذلك الزق قطرة، فتلك القطرة حصلت للأولياء، وما في الظرف للأنبياء..

وقال العباس بن حمزة: صليت خلف أبي يزيد الظهر، فلما أراد أن يرفع يديه ليكبر، لم يقدر أن يقول: الله أكبر، إجلالاً لاسم الله عز وجل، وارتعدت فرائصه، حتى سمعت قعقعة عظامه فهالني ذلك.

---

(١) قوله (لِمَ فعلت): من قواعد التوحيد أنه لا فاعل إلا الله على الحقيقة، فعندما يقال له: لِمَ لم تفعل؟ كان ذلك من أصل عبوديته، أما إذا أسند الفعل إليه بقوله: لِمَ فعلت؟ استحى من الله سبحانه مع شهوده أن الفعل له.

ويحتمل أنه إذا سئل عن تقصيره في الطاعة يكون أحب إليه من أن يُسأل لِمَ فعلت المعصية؟! لما فيها من التجرؤ على الله. ويشير إلى ذلك الحديث: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم». (ع).

وقصد الجامع يوم جمعة، وكان في الطريق وحل، فزلقت رجله، فوضع أصبعه على جدار في الطريق، فأمسك نفسه بسببه، فلما ثبت تفكر في وضع أصبعه على الجدار، وقال: إن الوقت متسع، فنفحص عن صاحب الجدار ليجعلني في حل مما تعاطيت، فانصرف وتعرف عنه، فقيل: إنه مجوسي، فتقدم إلى باب داره وناداه، فخرج إليه فأخبره بالقصة، وطالبه أن يجعله في حل من ذلك، فقال المجوسي: وفي دينكم هذه الدقة، وكل هذا الاحتياط. آمنت بالله ورسوله ﷺ، وآمن كل من في داره ببركة ذلك الفعل.

واجتاز شقيق البلخي رضي الله عنه ببسطام حاجاً، فعقد المجلس في مسجد من مساجدها، فكان الصبيان يلعبون على بابه، وأبو يزيد فيهم فكان يجيء إلى باب المسجد، ويسمع كلام شقيق ثم ينصرف، فوقع عليه بصر شقيق، فقال: سيكون هذا الصبي رجلاً من الرجال، فصار كما قال.

وصلى الجمعة مرة فسمع الخطيب يقرأ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ [مريم: ٨٥] ففرح فطار الدم من عينيه، حتى ضرب المنبر، وقال: يا عجباً كيف يحشر إليه من هو جليسه، أي: فإن الله يقول: «أنا جليس من ذكرني»، والمتقي ذاكر لله ذكر حذر، فلما حشر إلى الرحمن وهو مقام الأمان مما كان فيه الحذر فرح بذلك.

قال الشيخ الأكبر: فكان دمع أبي يزيد دمع فرح، لا دمع ترح، حيث حشر منه إليه، حين حشر غيره إلى الحجاب.

وقال أبو يزيد: لو أن العرش وما حوى في زاوية من زوايا قلب العارف، ما أحس به أبداً.

قلت: وقد ناقشه الإمام الرباني على هذه المقالة في إحدى مكتوباته الفارسية، بما يطول بيانه، فراجعه.

ولد رضي الله عنه سنة مائة وثمان وثمانين ببسطام بكسر الباء الموحدة بلدة مشهورة من أعمال قومس، ويقال: انها أول بلاد خراسان من جهة العراق،

وقومس ـ بضم القاف، وفتح الميم، وسين ـ: صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل.

ثم تقدم أن اسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان، ذكر ابن الجوزي والعارف الجامي ذلك، وقال: إن جده سروشان كان مجوسياً فأسلم، وكان لعيسى ثلاثة أولاد أبو يزيد أوسطهم، وآدم أكبرهم، وعلي أصغرهم، وكانوا كلهم عباداً زهاداً.

وقال ابن خلكان: هو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي، كان جده مجوسياً فأسلم، وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضاً: آدم وعلي، وكان أبو يزيد أجلهم، ا. هـ. والله أعلم بالصواب.

وتوفي سنة إحدى وستين، وقيل: أربع وستين ومائتين، وله ثلاث وسبعون سنة، ولم يثبت محل دفنه، ولكن اشتهرت له مراقد كثيرة، ولعلها مقامات له رضى الله عنه، وهو أويسي التربية، فإنه ربته روحانية سيدنا جعفر الصادق، ووصل إليه هذا السر الجليل منه بالروحانية كما قدمنا، لأن سيدنا جعفر كانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائة، وهي قبل ولادة أبي يزيد بنحو أربعين سنة، كما رأيت، ثم إن كل من ربته روحانية أحد السادات يقال له: أويسي، نسبة لسيدنا أويس القرني سيد التابعين، فإنه على القول بوجوده، وهو الصحيح المؤيد بالأدلة المعتبرة والكشف الصريح، ربته روحانية سيد العالمين بالخصوص، وبشر به أصحابه ونعته لهم، وأمر سيدنا عمر وسيدنا علياً أن يسألاه الاستغفار إذا اجتمعا به، وقصته مشهورة بين العلماء رضي الله عنهم.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة من سيدنا أبي يزيد أيضاً بالروحانية: سيدنا أبو الحسن الخرقاني، قدّس الله أسراره الرحمانية.

***

سيدنا أبو الحسن

علي بن جعفر الخرقاني قدس الله سره الصمداني

كان غوث وقته، وفريداً في مقاماته ونعته، قبلة أهل زمانه، وبحراً يستمد الأولياء من أمواج عرفانه، لم يكن يُرْحَل في أيامه إلا إلى مبارك مقامه، بَشَّر به الشيخ العارف الكبير أبو العباس القصاب، وأخبر أنه سينقلب موسم زيارته والرحلة إليه من بعده إلى الشيخ أبي الحسن، وقد كان كما قال.

ومن كلامه: لا تصحب شخصاً إذا ذكرت الله يذكر غيره.

وقال: أُطلب الغصة لتظهر الدموع، فإن الله يحب الباكين.

وقال: كل شيء يطلب العبد به الله، فالقرآن أحسن منه، فلا تطلب الله إلا به.

وقال: وارث الرسول هو الذي يقتدي بأفعاله، لا الذي يسوّد وجوه الأوراق.

وقال: قول أبي يزيد: أريد أن لا أريد، هو إرادة.

وقال: قول الشبلي: أطلب أن لا أطلب، هو طلب أيضاً.

وقال: اليوم لي أربعون سنة، والله ينظر إلى قلبي، لا يرى فيه غيره: ما بقي فيَّ لغير الله شيء، ولا في صدري لغيره قرار.

وقال: منذ أربعين سنة ونفسي تطلب مني جرعة ماء بارد، أو جرعة لبن مخيض، وأنا لم أمكنها من ذلك إلى الآن.

وقال: العلماء والعُبَّاد في الدنيا كثيرون، ولكن لا يفيدك إلا أن تكون من الصباح إلى المساء في شغل يرضى به الله تعالى، ومن المساء إلى الصباح في عمل يقبله تعالى.

وقال: أنور القلوب ما ليس فيه للخلق وجود، وأحسن الأعمال ما ليس فيه تفكر بمخلوق، وأحل الأرزاق ما بذلت جهدك في اكتسابه، وأحسن الرفقاء من كان حياته مع الله.

وقال مرة لأصحابه: ما أحسن الأشياء؟ قالوا: أخبرنا أنت به، فقال: قلب يذكر الله دائماً.

وسئل عن الصوفي، فقال: لا يكون الصوفي بالسجادة والمرقع ولا بالعادة والرسوم، بل الصوفي هو المحوي الذي لا وجود له.

وقال: الصوفي من إذا كان النهار لا يحتاج إلى شمس، وإذا كان الليل لا يحتاج إلى قمر أو كواكب سيارة، التصوف: هو العدم الذي لا يحتاج إلى وجود.

وسئل عن الصدق، فقال: هو التكلم بما في الضمير.

وقيل له: متى يعلم العبد عدم الغفلة عن الله تعالى؟ فقال: إذا ذكر الله تعالى، وتحقق بجميع أجزائه من فرقه إلى قدمه، أنَّ الله ذاكر له.

وقيل له: لمن يليق التكلم بالفناء والبقاء؟ فقال: يليق لشخص لو عُلِّق بخيط من حرير بين السماء والأرض، ثم هبت ريح عاصفة اقتلعت الأشجار، ونسفت الجبال إلى البحار حتى ملأتها، لم تحركه من محله.

وهو أويسي التربية ربته روحانية سيدنا أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه.

ذكر سيدنا جلال الدين الرومي[1] نضر الله وجهه في «مثنويه»: أنَّ الشيخ أبا يزيد خرج يوماً مع أصحابه إلى الصحراء، ففي أثناء سيره حصل له حال عظيم، بلغ منه ما بلغ، واندهش منه أصحابه، فلما رجع إلى نفسه سألوه عن سبب

---

(١) محمد بن محمد بن الحسين (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) جلال الدين الرومي: عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، متصوف. ولد في بلخ (بفارس)، وانتقل مع أبيه إلى بغداد في الرابعة من عمره، فترعرع بها. ورحل مع أبيه، واستقر في قونية سنة (٦٢٣ هـ)، وتولى التدريس في أربع مدارس. توفي بقونية. وقبره فيها معروف إلى اليوم. «الأعلام» (٧/ ٣٠).

ذلك، فقال: جاءني نَفَسٌ عجيب من خرقان كالنَّفَسِ الذي جاء للنبي ﷺ من قِبَل اليمن يبشرني بظهور رجل فيها من كبار الأولياء؛ فسألوه عن اسمه، فقال: اسمه أبو الحسن، ونَعَتَهُ لهم بحليَته، ومقاماته، وطريقته، وأنه يكون أعلى منه مقاماً، ثم بعد وفاته رضي الله بسنين، جاء رجل من خرقان إلى زاوية أبي يزيد، فسأله أصحابه عن اسمه، فأخبرهم أن اسمه: أبو الحسن الخرقاني، فنظروا إلى حليته فوجدوه كما قال أبو يزيد، فعند ذلك ذكروا له أن الشيخ بشر به، وأنه يكون من مريديه، ويأخذ الطريق من مرقده الشريف، فقال لهم: إني رأيت أبا يزيد في المنام، وأخبرني بمثل ذلك، ثم ذهب أبو الحسن إلى تربة أبي يزيد، وأخذ الطريق من روحانيته، وصار يتردد كل صباح إلى مقامه، ويمرغ وجهه بمبارك ترابه، ويبقى واقفاً مع الحضور إلى وقت الضحى، ويتلقى منه العلوم والمعارف الإلهية.

يقول سيدنا جلال الدين قدس الله سره: وذلك إمَّا بأن تتمثل له روحانية الشيخ، وإما بطريق الإلهام.

وجاء مرة للزيارة على العادة، فرأى الثلج قد غمر المقام فغم لذلك وعزم على الانصراف فحينئذٍ:

جاء صوت من مقام الشيخ حي ... ها أنا أدعوك كي تسعى إليَّ

فعند ذلك حصل ما حصل من عجائب الترقي إلى المقامات العالية، ولم يزل كذلك حتى صار واحد زمانه. انتهى.

وممن أخذ عنه شيخ الإسلام سيدنا عبد الله الانصاري، وقال في حقه: مشايخي في علم الحديث والشريعة كثيرون، وأما شيخي في ا لطريقة فالشيخ أبو الحسن الخرقاني، ولولا أني رأيته ما عرفت الحقيقة.

وروي أن السلطان محمود الغازي[1] ابن سبكتكين - رحمه الله - زار الشيخ

---

(١) محمود بن سبكتكين (٣٦١ - ٤٢١ هـ) الغزنوي، فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطته إلى نيسابور. قبره في غزنة. وهو تركي الأصل، مستعرب. كان حازماً صائب -

أبا الحسن، وجلس عنده ساعة، ومما قال له: ما يقول الشيخ في حق أبي يزيد البسطامي قدس الله سره؟ فقال له: الشيخ هو رجل من اتبعه اهتدى، ومن رآه اتصل بسعادة لا تخفى.

فقال له السلطان: كيف ذلك، وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يخلص من الشقاوة؟

فقال له الشيخ: إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ، وإنما رأى محمد بن عبد الله، ولو أنه رأى رسول الله ﷺ لخرج من الشقاوة، ودخل في السعادة، ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ [الأعراف: ١٩٨] فالنظر بعين الرأس لا يوجب هذه السعادة، بل النظر بعين السرّ والقلب والمتابعة التامة، يورث ذلك.

توفي ليلة الثلاثاء عاشر شهر محرم الحرام، سنة أربعمائة وخمسة وعشرين رضي الله عنه، وخَرْقان كنعسان: قرية من قرى بسطام، وتحريك رائه لحن.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة منه: سيدنا أبو علي الفارمدي رضي الله عنه.

* * *

= الرأي، يجالس العلماء، ويناظرهم. وكان من أعيان الفقهاء، فصيحاً بليغاً. «الأعلام» (٧/ ١٧١).

سيدنا أبو علي
الفضل بن محمد الفارمدي الطوسي
رضي الله عنه

نور حدقة العلماء العارفين، ونور حديقة عظماء المرشدين، شيخ خراسان، وقطب ذلك الزمان، وقد مر من حديث ترجمته في نهاية سلسلة الذهب، ما تحلت به المسامع وقضى له السامع بالعجب، والإعادة من خلاف العادة.

ثم تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة منه سيدنا يوسف الهمداني رضي الله عنه.

***

سيدنا أبو يعقوب
يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين
الهمداني قدس الله سره

هو أوحد الأئمة العارفين، والعلماء الراسخين، والأولياء الكاملين، انتهت إليه في خراسان تربية المريدين، واجتمع عنده في رباطه بمرو من العلماء والصلحاء جماعة كثيرة، وانتفعوا به وبكلامه ووصلوا إلى آمالهم الكبيرة.

ولد قدس الله سره في هَمْدان - بسكون الميم - سنة أربعين وأربعمائة.

ورحل من همدان، وهو ابن ثمان عشرة سنة إلى بغداد.

وتفقه في مذهب الإمام الشافعي على شيخ الدنيا سيدنا الشيخ إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي[1] صاحب «التنبيه»، ولازم مجلس أبي إسحق الشيرازي وقدّمه مع صغر سنه على أقرانه، ورفع قدره حتى برع في الفقه وغيره، لا سيما علم النظر.

وسمع من الخطيب[2] وثقاة كثيرة في بغداد وأصفهان، وبخارى وخراسان، وخوارزم وما وراء النهر، وحصل له القبول التام، ثم انقطع وتزهد وتعبد واشتغل بالمجاهدات والرياضات، حتى صار غوث الزمان، وغيث

---

(١) إبراهيم بن علي بن يوسف (٣٩٣ - ٤٧٦ هـ) الفيروزابادي: العلامة المناظر. ولد في فيروزاباد (بفارس) وانتقل إلى شيراز فقرأ على علمائها. وانصرف إلى البصرة، ومنها إلى بغداد سنة (٤١٥ هـ) فأتم ما بدأ به من الدرس والبحث، وبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية على شاطىء دجلة، عاش فقيراً صابراً. مات ببغداد. «الأعلام» (١/ ٥١)

(٢) أحمد بن علي بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) الخطيب البغدادي: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. مولده في غزية - بصيغة التصغير - منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشأه ووفاته ببغداد. رحل من أجل الحديث. كان فصيح اللهجة، عارفاً بالأدب، يقول الشعر، ولوعاً بالمطالعة والتأليف. «الأعلام» (١/ ١٧٢).

الحقائق والعرفان، وعقد له مجلس الوعظ والتذكير في بغداد، ثم رحل إلى مرو وأقام بها.

وصحب الشيخ عبد الله الجويني، والشيخ حسنا السمناني، والشيخ أبا علي الفارمدي.

وظهر على يديه كرامات لا تحصى ولا تحصر.

منها: أن رجلاً من جماعته خرج عنه وصار يقع فيه بما هو بريء منه، فقال الشيخ: هذا رجل يقتل، فقتل.

ومنها: أنه كان يتكلم على الناس، فقال له فقيهان كانا في مجلسه: اسكت، فإنما أنت مبتدع، فقال لهما: اسكتا لا عشتما، فماتا مكانهما.

ومنها:أنه جاءته امرأة من همدان باكية فقالت له: إن ابني أسره الإفرنج فصبرها، فلم تصبر، فقال: اللهم فك أسره وعجل فرجه، ثم قال لها: اذهبي إلى دارك تجديه بها، فذهبت المرأة فإذا ولدها في الدار، فتعجبت وسألته فقال: إني كنت الساعة في القسطنطينية العظمى، والقيود في رجلي والحرس عليَّ، فأتاني شخص فاحتملني وأتى بي إلى هنا كلمح البصر.

وفي «الفتاوى الحديثية» للعلامة ابن حجر الهيتمي قدس الله سره: وحكى إمام الشافعية في زمنه أبو سعيد عبد الله بن أبي عصرون[1]، قال: دخلت بغداد في طلب العلم، فرافقت ابن السقا[2] في الطلب بالنظامية، وكنا نزور الصالحين، وكان ببغداد رجل يقال له: الغوث، يظهر إذا شاء، ويختفي إذا شاء.

---

(١) عبد الله بن محمد بن هبة الله (٤٩٢ ـ ٥٨٥ هـ) ابن أبي عصرون: فقيه شافعي، ولد بالموصل. وانتقل إلى بغداد، واستقر في دمشق، فتولى بها القضاء سنة (٥٧٣ هـ)، وعمي قبل موته بعشر سنين. وإليه تنسب المدرسة «العصرونية» في دمشق. «الأعلام» (٤/ ١٢٤)

(٢) لم أعثر لابن السقا هذا على ترجمة فيما لدي من المراجع. وبعض الخبر في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٦٧-٦٩).

فقصدنا زيارته أنا وابن السقا والشيخ عبد القادر، وهو يومئذٍ شاب.

فقال ابن السقا ونحن سائرون: لأسألنه مسئلة لا يدري جوابها، وقلت: لأسألنه مسئلة وأنظر ما يقول فيها، وقال الشيخ عبد القادر: معاذ الله أن أسأله شيئاً، أنا بين يديه أنتظر بركة رؤيته، فدخلنا عليه فلم نره إلا بعد ساعة، فنظر الشيخ إلى ابن السقا مغضباً، وقال: ويحك يا ابن السقا تسألني مسئلة لا أدري جوابها، هي كذا وجوابها كذا، إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك.

ثم نظر إليّ وقال: يا عبد الله أتسألني عن مسئلة تنتظر ما أقول فيها، هي كذا وجوابها كذا، لتخرن الدنيا عليك إلى شحمة أذنيك بإساءة أدبك، ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر وأدناه منه وأكرمه، وقال: يا عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بحسن أدبك، كأني أراك ببغداد، وقد صعدت الكرسي متكلماً على الملأ، وقلت: قدمي هذه على رقبة كل ولي، وكأني أرى الأولياء في وقتك وقد حنوا رقابهم إجلالاً لك، ثم غاب عنا فلم نره.

قال: فأما الشيخ عبد القادر فقد ظهرت أمارات قربه من الله وأجمع عليه الخاص والعام، وقال: قدمي إلخ، وأقرت الأولياء في وقته له بذلك.

وأما ابن السقا فإنه اشتغل بالعلوم الشرعية حتى برع فيها، وفاق كثيراً من أهل زمانه، واشتهر بقطع من يناظره في جميع العلوم، وكان ذا لسان فصيح وسمت بهي، فأدناه الخليفة منه وبعثه رسولاً إلى ملك الروم، فرآه ذا فنون وفصاحة وسمت، فأعجب به وجمع له القسيسين والعلماء بالنصرانية، وناظرهم فأفحمهم وعجزوا، فعظم عند الملك فزادت فتنته، فتراءت له بنت الملك فأعجبته وفتن بها، فسأله أن يزوجها له، فقالت: إلا أن يتنصر، فتنصر وتزوجها، ثم مرض فألقوه بالسوق يسأل القوت فلا يجاب، وعلته كآبة وسواد حتى مر عليه من يعرفه، فقال له: ما هذا؟ قال فتنة حلت بي سببها ما ترى، قال له: هل تحفظ شيئاً من القرآن؟ قال: لا، إلا قوله ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ [الحجر: ٢]، قال: ثم جزت عليه يوماً فرأيته كأنه قد حرق، وهو في النزع فقلبته إلى القبلة، فاستدار إلى الشرق، فعدت فعاد وهكذا، إلى

أن خرجت روحه ووجهه إلى الشرق؛ وكان يذكر كلام الغوث، ويعلم أنه أصيب بسببه.

قال ابن أبي عصرون: وأما أنا فجئت إلى دمشق، فأحضرني السلطان الصالح نور الدين الشهيد، وأكرهني على ولاية الأوقاف فوليتها، وأقبلت عليّ الدنيا إقبالاً كثيراً، فقد صدق قول الغوث فينا كلنا. ا. هـ.

وذكر الشيخ الأكبر ـ قدّس الله سره ـ في بعض مصنفاته: أنه سنة ستمائة واثنين، جاء الشيخ أوحد الدين حامد الكرماني إلى منزله في مدينة قونية، وحكى له أن الشيخ يوسف الهمداني أقام في مقام المشيخة والإرشاد في بلادهم أكثر من ستين سنة، وأنه كان يوماً جالساً في زاويته على حسب عادته، فخطر بباله الخروج من الزاوية، ولم يكن يخرج منها إلا لصلاة الجمعة، فثقل هذا الخاطر عليه، ولم يعلم أين يذهب، فركب حماراً وأطلق له العنان، ليتوجه إلى أي جهة أرادها الحق تعالى، فسار الحمار حتى أخرجه ظاهر البلدة، وأوصله إلى مسجد خراب في البادية، ووقف به، فنزل الشيخ ودخل المسجد، فوجد فيه شاباً مطرقاً رأسه، وعليه هيبة وجلالة، فبعد ساعة رفع رأسه، ونظر إلى الشيخ، فقال له: يا يوسف! إنه وقعت له مسئلة مُشْكِلة وذكرها له، فحلها الشيخ له، ثم قال له: بعد ذلك يا غلام، كلما وقع لك مُشْكِل فأتني إلى الزاوية، واسألني عنه، وَلا تكلفني الخروج إليك.

يقول الشيخ قدّس الله سره: فنظر إليّ الغلام وقال: إذا أشكل عليّ شيء فكل حجر من الأحجار هو لي يوسف مثلك.

قال سيدنا الشيخ الأكبر: فعلمت من ذلك أن المريد الصادق يقدر بصدقه على جذب الشيخ إليه.

وذكر الشيخ نجيب الدين علي بن بزغش الشيرازي قدس الله سره: أنه وجد بعض كراريس من كلام المشايخ في علم الحقيقة، قال: فلما طالعتها تلذذت بها، وتطلبت معرفة مؤلفها فلم أعرفه، ولا وجدت بقيتها، فنمت ليلة فرأيت رجلاً أبيض اللحية، وقوراً مهاباً، منوراً للغاية، قد دخل الرباط، وذهب

إلى المتوضأ، وكان لابساً جُبَّةً بيضاء واسعة، كتب عليها بماء الذهب آية الكرسي بخط جسيم محيط بجميع الجبة، فاتبعته، فنزع الجبة عنه ودفعها إليَّ، فظهر من تحتها جبة خضراء أحسن من الأولى، مكتوب عليها آية الكرسي كذلك، فنزعها ودفعها إليّ أيضاً، وقال لي: احفظهما حتى أتوضّأ، فلما أتم وضوءه قال لي: أريد أن أعطيك إحدى هاتين الجبتين، فأيتهما تختار؟ فقلت: أنا لا أختار بل ما تختاره أنت فهو المقبول، فألبسني الجبة الخضراء ولبس هو البيضاء، ثم قال لي: أتعلم من أنا؟ فقلت: لا، قال: أنا يوسف الهمداني مصنف الكراريس الذي كنت تتطلبه، وهي من كتابي المسمى «رتبة الحياة»، ولي مصنفات أخرى أحسن، مثل: «منازل السائرين»، «ومنازل السالكين»، ثم استيقظت من النوم وقد سررت سروراً عظيماً.

ومن كلامه الدال على علو مقامه: السماع سفر إلى الحق ورسول من الحق، وهو لطائف الحق وزوائده، وفوائد الغيب وموارده، وبوادي الفتح وعوائده، ومعاني الكشف وبشارته، فهو للأرواح قوتها، وللأشباح غذاؤها، وللقلوب حياتها، وللأسرار بقاؤها، فطائفة أسمعها الحق بشاهد التنزيه، وطائفة أسمعها بنعت الربوبية، وطائفة أسمعها بنعت الرحمة، وطائفة أسمعها بوصف القدرة، فقام لهم الحق مسمعاً وسامعاً، فالسماع هتك الأستار، وكشف الأسرار، وبرقة لمعت، وشمس طلعت، وسماع الأرواح باستماع القلوب على بساط القرب، بشاهد الحضور من غير نفس تكون هناك، فتراهم في السماع والهين حيارى، رامقين أسارى، خاشعين سكارى.

واعلم أن الله خلق من نور بهائه سبعين ألف ملك من الملائكة المقربين، وأقامهم بين العرش والكرسي في حضرة الانس، لباسهم الصوف الأخضر، ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فقاموا متواجدين والهين حيارى، خاشعين سكارى، منذ خلقوا، مهرولين من ركن العرش إلى ركن الكرسي، لما بهم من شدّة الوله، فهم صوفية أهل السماء، فإسرافيل قائدهم ومرشدهم، وجبرائيل

رائسهم ومتكلمهم، والحق تعالى أنيسهم ومليكهم، فعليهم السلام من الله عز وجل[(١)]. ا. هـ.

ثم بعد أن أقام مدة مديدة في مدينة مَرو[(٢)]، رحل إلى هراة[(٣)]، وأقام بها طويلاً، فسأله أهل مرو العود إليها فذهب حتى إذا وصل إلى باميين ـ بباء موحدة، فألف، فميم، فتحتيتين، فنون ـ بليدة بخراسان بين هراة وبغشور، أدركته الوفاة فدفن بها، ثم بعد حين نقلت جثته الشريفة إلى مرو، وجعلت في الحضرة المنسوبة إليه، وقبره يزار ويتبرك به.

وكانت وفاته في غضون شهر ربيع الأول، سنة خمس وثلاثين وخمسمائة رضي الله عنه.

وللشيخ قدس الله سره مريدون لا يحصون عدداً، وخلفاء أربعة عظام ملؤوا الدنيا علماً وهدىً.

الخليفة الأول: شمس فلك الهداية، ومظهر نهاية العناية، العالم العارف: الشيخ عبد الله البرقي، ولد في خوارزم، وتوفي في بخارى، مرقده المبارك على رأس تل شورشان، قرب ضريح الشيخ أبي بكر إسحق الكلابادي قدس سره.

الخليفة الثاني: عارف الزمان، المتحقق في مقام الإحسان، الشيخ أبو محمد حسن بن حسين الأنداقي، كان شيخ وقته، ومفرداً في نعته، ولد عام أربع وستين وأربعمائة، وتوفي سادس عشر رمضان، سنة اثنين وخمسين

---

(١) قوله (من الله عز وجل): في كلام كثير من الأولياء ما يشير إلى هذا الأمر الغيبي، فإما قد ثبت دليله عندهم ووصل الخبر على ذلك إليهم، او بطريق الكشف الصحيح بشروطه المعتبرة عند العارفين. (ع).

(٢) مرو: العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها. ومعنى المَرْو: الحجارة البيض تقتدح بها النار. «معجم البلدان» (٥/ ١١٢).

(٣) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة. محشوة بالعلماء، جاءها التتر فخربوها. «معجم البلدان» (٥/ ٣٩٦).

وخمسمائة، وقبره الشريف في بخارى، عند مقام الكلابادي قدس سره.

الخليفة الثالث: الإمام الجليل الولوي، الشيخ أحمد اليسوي، نسبة إلى يسى بلدة من بلاد الترك، ولد وتوفي بها، وهو من عظماء مشايخ الترك، وأكثرهم ينسبون إليه ويسمونه اتايسوي. واتا في التركية بمعنى الوالد.

وخلفاؤه لا يحصون عدداً، وأشهرهم أربعة:

أولهم: الشيخ سليمان قدس سره، كان من كبار المشايخ، ومن كلامه بيت مشهور معربه:

وكل امرىءٍ تلقاه فالخضر اعتقد وكل الليالي فاعتقد ليلة القدر

ثانيهم: الشيخ سعيد اتا قدس سره.

ثالثهم: الشيخ منصور اتا، هو من أشبال العارف الكبير باب ارسلان، وكان من أكابر علماء الظاهر والباطن، تخرج على والده العزيز، وتكمل عند الشيخ أحمد، باشارة من أبيه قدس سرهم.

ولما توفي الشيخ منصور قام مقامه نجله المرشد الكبير الشيخ عبد الملك خواجه قدس سره، ثم ناب مناب عبد الملك نجله العالم العارف الشيخ تاج خواجه قدس سره.

رابعهم: الشيخ حكيم أتا، كان من كبار العارفين، توفي في خوارزم، ومرقده في السور الأبيض، يزار ويتبرك به.

واشتهر له خليفتان: الأول: مولانا حبي أتا قدس سره، الثاني: مولانا زنكي اتا بن تاج خواجه، الموصى إليه، كان قدس سره من السادات العظام تربى عند والده، وبعد انتقاله اتصل بخدمة الشيخ، ولم يفارقه حتى توفي قدس سره، وكان أسود اللون.

نقل أن حكيم أتا، كان كذلك، فخطر ببال زوجته عنبر اتا يوماً أنه لو لم يكن أسود لكان أحسن، فكوشف بذلك، فقال لها: قريباً تجدين من هو أشد

سواداً مني، فلما توفي تزوج مولانا زنكي زوجته عنبر اتا بنت براق خان، وأولدها عدة أولاد أجلاء أمجاد.

وله أربع خلفاء عظماء: أوزون حسين اتا، وصدر الدين محمد اتا، والسيد أحمد أتا، وبدر الدين محمد أتا؛

وهم من بخارى، وكانوا قد اتفقوا على طلب العلم، فلما أتموا تحصيلهم خرجوا في طلب المرشد، فلقوا في طريقهم مولانا زنكي أتا، وكان يرعى مواشيه، فسألهم عن مقصدهم، فلما أخبروه، قال: اصبروا حتى أنظر لكم مرشداً، فنظر إلى الجهات الأربع، ثم قال لهم: درت العالم كله فلم أجد أحدا يربيكم غيري، فأما الأولان فسلما إليه أمرهما بلا توقف أصلاً، ففتح عليهما في الحال، وأما الأخيران فقالا في أنفسهما: كيف نتبع رجلاً أسود يرعى البقر، ونحن ما بين سيد وعالم، ولكن لم يسعهما إلا صحبته، فلم ينتفعا به فتشفعا إليه بعنبر اتا، فذكرت ذلك له فقال: إن سبب عدم انتفاعهما ما قالاه في أنفسهما عند لقائي، ومع هذا فقد عفوت عنهما.

ثم توجه إليهما بنظر إرشاده العالي الهمم فلحقا صاحبيهما.

وكان السيد أحمد أتا من معاصري مولانا الشيخ علي الرامتيني، وسيأتي في ترجمته قدس الله سره ما صدر بينهما من المفاوضة.

ومن أشهر خلفاء السيد أحمد أتا: مولانا الشيخ اسمعيل اتا، كان من كبار المرشدين، واستوطن في نواحي خوزيان، وهي قرية بين تاشكند وسيرام، وقد ابتلي بانكار العلماء عليه، فكان يقول: إن هؤلاء العلماء اشناني وصابوني.

وكان سيدنا الشيخ عبيد الله أحرار ينقل ذلك عنه ويستحسنه.

ومن كلامه: كن في الصيف ظلاً، وفي الشتاء ثوباً، ووقت الجوع طعاماً.

وكان يقول للمريد: أنا وأنت أخوان في الطريق، فاقبل مني هذه النصيحة، وهي: أن تتخيل أن الدنيا قبة خضراء ليس فيها إلا الله عز وجل وأنت، واذكر الله حتى يغلب عليك التجلي القهري، ويفنيك عنك ولا يبقى إلا هو.

ولما توفي ناب منابه نجله الإمام الجليل: الشيخ إسحق خواجه، وكان نواحي اسپيجاب قرية بين تاشكند وسيرام وهو من كبار العارفين.

وحكى الشيخ عبدالله الخجندي أحد أصحاب سيدنا شاه نقشبند، قدس الله سرهم العزيز: أنه حصل له جذبة قوية فزار مرقد سيدنا الحكيم الترمذي[1] فأمره في الروحانية أن يرجع إلى بلاده، وأنه سيفتح له بعد اثنتي عشرة سنة، فرجع إلى خوارزم، وأنه بعد ذلك رأى رجلين في المسجد يتذاكران ويبكيان، فمال إليهما وأكرمهما، فقال أحدهما لصاحبه: أرى أن هذا الرجل طالب للحق، فالأليق أن يكون في صحبة شيخنا، فلما سمع ذلك اضطرب وسألهما عن مكان الشيخ، فقالا: في اسبيجاب فقصده، وبقي مدة طويلة عنده ولم يذكر له بشارة الترمذي.

قال: وكان للشيخ ولد صالح، فقال له يوماً: إن هذا الرجل غريب وذو استعداد، فينبغي أن يلتفت إليه، فقال: يا بني نصيبه من الشاه نقشبند، فكيف نتصرف فيه.

ومن أشهر أصحاب الشيخ صدر الدين اتا قدس سره: المرشد الإمام الشيخ أيمن بابا، قام مقامه بعد ارتحاله بإشارته في إرشاد الطالبين، وكان من أكابر المرشدين قدس سره.

ومن أكبر أتباع الشيخ أيمن المربي الكبير: مولانا علي شيخ قدس سره، كان من الأولياء الكاملين، جلس بعد وفاة الشيخ أيمن في مسند الإرشاد.

حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى، تصدر في مقامه أشهر خلفائه الكرام العارف العالم بالله تعالى: مولانا مودود شيخ قدّس سره، فناب منابه في إرشاد الخلق إلى الحق، إلى أن اصطفاه الله تعالى إليه.

---

(١) الحكيم الترمذي: محمد بن علي بن الحسن (... ـ نحو ٣٢٠ هـ) باحث، صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين. من أهل ترمذ، نفي منها فحمل إلى بلخ فأكرمه أهلها، وكان عمره نحو تسعين سنة. «الأعلام» (٦/ ٢٧٢).

وأشهر خلفائه اثنان: الأول: الإمام الجليل كمال شيخ قدس سره كان كبير الشأن، توطن ديار الشاش، وحصل به نفع عام جزيل، وهو ممن لقي سيدنا أحرار قدّس سره.

والثاني: المرشد الكبير خادم شيخ قدس سره، كان من أكبر المربين، هدى الله به كثيراً مما وراء النهر والشاش.

ومن كلامه قدّس سره في قوله تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ [الزمر: ٢٢]: قد يحصل للذاكرين قسوة في قلوبهم عند ذكر الله تعالى، لأنهم يذكرون الله تعالى بالغفلة والسهو، وغلبة الطبع والنفس، فيحتمل أن يكون قوله: ﴿من ذكر الله﴾ إشارة إلى هذا.

ومنه: ما يحصل للمنتهي بعد طي جميع المراتب من الكشف الصوري والنوري، يحتمل أن يحصل للمبتدي، غير أنه لا يثبت له بسبب تنازع الطبع، بخلاف المنتهي، فإنه إنما حصل له بعد طي مسافة الحجب الظلمانية والنورانية، وهو لا يزول.

ومنه: الدليل على صحة الفناء وفناء الفناء اتباع الرسول ﷺ، وعدم التثاقل من العمل، بل يأتي بالأعمال الشرعية بمحبة وسرور.

وسأله أحد العلماء عن حال من يرقصون عند السماع، بأنه لا يخلو إما إن يبقى عليهم شعورهم أو لا، فإن كان الأول فإظهار الوجد مع الشعور به قبيح، أو الثاني فصلاتهم بلا وضوء بعده أقبح؟

فقال قدس سره: إن من نواقض الوضوء الجنون والإغماء، وليس هذا منهما، بل العقل الكلي الإلهي يفيض على العقل الجزئي، ويحكم على وجود السالك، فيكون البدن حينئذٍ في تدبيره وحمايته، وللعقل الكلي قوة أن يحفظ العالم، فكيف لا يضبط بدناً فلا ينتقض الوضوء؟! بل لا نقض وقتئذٍ، إذ الطالب الصادق يخرج من لوازم البشرية وأحكام الطبع، فلا يحتاج إلى تجديد وضوء أصلاً. وله غير ذلك قدس سره.

ومن أكبر أصحابه: المرشد الكامل الشيخ جمال الدين البخاري، كان من كبار المشايخ، وله تمام المعرفة بتربية المريدين، قدم كاشغر[1]، وأقام في رباط سيدنا سعد الدين الكاشغري، وتوفي ودفن قرب ضريحه قدس سره، وهؤلاء السادات كلهم من رجال الرشحات.

الخليفة الرابع: وهو أعظم من تلقى سرّ هذه النسبة الشريفة عن الغوث الهمداني؛ سيدنا الشيخ عبد الخالق الغجدواني قدس الله سره العزيز.

* * *

---

(١) كاشْغَر: مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون. «معجم البلدان» (٤/ ٤٣٠).

سيدنا الشيخ عبد الخالق

ابن الإمام عبد الجميل الغجدواني

قدس الله سره النوراني

هو صاحب الكرامات التي سارت مسير الشمس، والمقامات التي لا يجحد سموها إلا الذي يتخبطه الشيطان من المس، كان عالماً عارفاً صوفياً، وبعهود الزهادة والعبادة وفياً.

أما الإرشاد: فكان ملكه الآخذ بزمامه، وإمامه إذا أتى كل أحد بإمامه، وبدر سمائه الذي لا يعتريه النقصان عند تمامه.

وأما التصوف والزهد والورع المتين وسلوك سبيل المتقين فهو أشهر من أن يذكر، وأكبر من أن ينكر، هو رأس هذه الطريقة الشريفة، ومنبع طريق الخواجكان قدس الله أسرارهم المنيفة.

ولد في غجدوان ـ بضم الغين المعجمة، وسكون الجيم، بعدها دال مهملة مفتوحة، وواو، فألف، فنون ـ قرية عظيمة على ستة فراسخ من بخارى، وبها منشؤه ومدفنه، ونسبه الشريف يتصل بالإمام مالك رضي الله عنه، وكان والده الشيخ عبد الجميل إمام من أكابر علماء ملاطية الروم في الظاهر والباطن، ووالدته من بنات الملوك.

رحل والده إلى ما وراء النهر بأهله لأمور اقتضت ذلك، ثم جاء بلاد بخارى وسكن في قرية غجدوان، وقد رأى الخضر وصَحِبه، وبشره بالخواجة عبد الخالق قدس الله سره، وسماه بهذا الاسم.

وكان تحصيله للعلوم في بخارى عند الشيخ العلامة صدر الدين قدس سره، ولما برع بالعلوم الظاهرة اشتغل بالمجاهدات والرياضات الشاقة، وتحصيل العلوم الباطنة.

ذكر أنه كان يقرأ تفسير القرآن عند الشيخ صدر الدين فوصل إلى قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف: ٥٥]، قال للشيخ: ما حقيقة الذكر الخفي، وكيف طريقه، فإن العبد إذا ذكر بالجهر وبتحريك الأعضاء يطلع الناس عليه، وإن ذكر بالقلب فالشيطان يطلع عليه، لقوله ﷺ: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق»[1]؟ فقال له الشيخ: إن هذا علم لدني، وإن شاء الله تعالى يجمعك الله على أحد من أوليائه فيلقنك الذكر الخفي، فكان الخواجة قدس الله سره ينتظر وقوع هذه البشارة، حتى جاء الخضر ـ عليه السلام ـ إليه، فقال له: أنت ولدي ولقنه الوقوف العددي، وعلمه الذكر الخفي، وهو أنه أمره أن ينغمس في الماء، ويذكر بقلبه لا إله إلا الله محمد رسول الله، ففعل كما أمره وداوم عليه فحصل له الفتح العظيم، والجذبة القيومية، ثم تسلسلت هذه الجذبة بالذكر الخفي عند الخواجكان.

استطراد: الخواجة بتفخيم الخاء المفتوحة، وترسم بالواو ولا تقرأ، وإنما هي علامة التفخيم، وهو فارسي، ومعناه: الشيخ، ويجمع على خواجكان بكاف فارسية وألف ونون، والكاف بدل الهاء التي في المفرد والألف، والنون علامة الجمع، فكان قدس سره أول من اشتغل بالذكر الخفي في هذه الطريقة، ولذلك كان رئيسها، ثم لما قدم الغوث الرباني سيدنا يوسف الهمداني بخارى لزم خدمته مدة إقامته في بخارى، وروي عنه أنه قال: لما بلغت اثنين وعشرين سنة أوصى الخضر عليه السلام الغوث الهمداني بتربيتي، فلما قدم بخارى أتيت إليه، وبقيت بخدمته حتى عاد إلى خراسان، ولم يأمرني إلا أن أبقى على ما لقنني الخضر عليه السلام.

وذكر الشيخ محمد بارسا أحد أجلاء أصحاب سيدنا النقشبند قدس سرهما العزيز في كتابه «فصل الخطاب»: ان طريق الخواجة حجة على جميع الطرق،

---

(١) حديث «إن الشيطان ليجري»: أخرجه البخاري برقم (٢٠٣٥) ومسلم (٢١٧٥).

ومقبولة لديهم لأنه كان سالكاً طريق الصدق والوفاء، ومتابعة الشرع وسنة المصطفى ﷺ، ومجانبة البدع، ومخالفة الهوى، وكان يخفي أحواله عن الناس، ويشتغل بالمجاهدات والرياضات الشاقة، وتحصيل العلوم الباطنية، حتى صار عارف زمانه، والمقدم على أقرانه، وامتدت إليه أعين النظار، وانتشر صيته في البلدان الكبار، ورحل إليه من جميع الأقطار.

ثم سافر إلى الشام وأقام بها مدة أعوام، وبنى ثَمَّ خانقاه ـ كلمة فارسية بسكون النون، بمعنى الزاوية ـ واجتمع عليه من المريدين الصادقين خلق كثير.

وله رسالة كتبها لولده القلبي المبارك الشيخ أوليا الكبير، قد اشتملت من آداب الطريقة، والنصيحة الرفيقة، والتربية الحسنة الرقيقة، على ما يوجب إيرادها هنا، وهي:

يا بني! أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله تعالى، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم السنة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلين، ولازم الصلاة بالجماعة بشرط أن لا تكون إماماً ولا مؤذناً، وإياك والشهرة فإنها آفة، وكن واحداً من الناس، ولا تمل لمنصب ولو كان محموداً كالقضاء والفتوى، ولا تكن كفيلاً ولا وصياً، ولا تصحب الملوك وأبناءهم، والمرد والنساء والمبتدعة والعوام، ولا تبنِ زاوية، ولا تجلس بها، ولا تسمع الأنغام إلا قليلاً، فإن كثرة السماع تولد النفاق وتميت القلب، ولا تنكر على أصحاب السماع لأنهم كثيرون، وقلل الكلام والطعام والمنام، وفرَّ من الناس فرارك من الأسد، والزم الخلوة، وأكل الحلال، واترك الشبهات إلا عند الضرورة، فربما غلب عليك طلب الدنيا، وفي طلبها يذهب دينك وإيمانك، ولا تضحك كثيراً فإن كثرة الضحك تميت القلب، ولا تحتقر أحداً، ولا تزين ظاهرك لأن تزيين الظاهر من علامة إفلاس الباطن، ولا تجادل الخلق، ولا تسأل أحداً شيئاً، ولا تأمر أحداً بخدمتك، واخدم المشايخ بالمال والجاه والبدن، ولا تنكر على أفعالهم، فإن المنكر عليهم لا ينجو، ولا تغتر بالدنياوأهلها، وينبغي أن يكون قلبك محزوناً

ومغموماً، وبدنك مريضاً، وعينك باكية، وعملك خالصاً، ودعاؤك بتضرع، ولباسك خَلِقا، ورفيقك الفقر، وبضاعتك الفقه، وبيتك المسجد، ومؤنسك الحق تعالى.

ومن إرشاداته القدسية، وإشاراته العلية، الكلمات الإحدى عشر الفارسية التي بنى عليها طريق السادات النقشبندية قدّس الله أسرارهم.

الأولى: وقوف زماني أي: الوقوف والشعور المنسوب إلى الزمان، يعني اطلاع السالك على زمانه المستمر عليه، وعلمه بكيفية حاله عند مضيه، من حيث الحضور المستوجب للشكر، والغفلة الموجبة للمعذرة، فالطالب يجتهد كل الاجتهاد في أن لا يمضي عليه زمان، ولا يجري عليه آن إلاّ وهو على توجه إلى المقصود الأصلي، وتنبه إلى أن علم العليم الخبير محيط به، فلا يعمل من عمل إلا يعلم أن الله شهيد عليه إذ يفيض فيه، وعلى أي شان يكون من تحرك وسكون يتيقن أن الله سبحانه مطلع عليه، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وما يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ [غافر: ١٩]، فالسالك يحاسب أعماله وأحواله في كل يوم وليلة، وينظر كيف مرت عليه في ساعتها، بل لحظاتها إن خيراً شكر الله عليه، وإن شراً تداركه بالندامة والإنابة إليه.

قال سيدنا يعقوب الجرخي: أمرني شيخي يعني سيدنا علاء الدين العطار قدّس الله سرهما في حالة القبض بالاستغفار، وفي حالة البسط بالشكر، ثم قال: رعاية هذين الحالين عبارة عن الوقوف الزماني.

وقال سيدنا بهاء الدين شاه نقشبند قدّس الله سره العزيز: هو عبارة عن أن تكون واقفاً على أحوال نفسك، فإن كانت موافقة للشريعة، مرضية لله تعالى فاشكره وإلا فاستغفره، ومبنى طريق السالك فيه على حفظ اللحظة الزمانية، بحيث يكون واقفاً على نفسه انه خرج بالحضور أو بالغفلة.

والوقوف الزماني عند الصوفية كناية عن محاسبة الأحوال، قال سيدنا بهاء الدين قدس الله سره العزيز: وهي أن تحسب كل ساعة مضت بالغفلة

وبالحضور، فإذا فهمت حقيقة الأمر تَعُد أنّ كل الأوقات والأفعال كانت بالغفلة، فترجع إلى عمل المبتدىء.

والثانية: وقوف عددي، يعني: شعور الذاكر عند ذكره بعدد الذكر، وهو عبارة عن الذكر الخفي القلبي مع رعاية العدد لا مجرد العدد في الذكر، وذلك لحفظ الخاطر وحبسه عن التفرقة.

وقال بعض الأكابر من هذه الطائفة العلية: كثرة العدد ليست بشرط في الذكر، وإنما العمدة فيه حضور القلب مع المذكور، ليترتب عليه فائدة الذكر وأثره، وهو انتفاء الوجود عند النفي، وظهور آثار الجذبات الإلهية عند الإثبات، وهذا أول مراتب العلم اللدني.

قال سيدنا بهاء الدين قدس الله سره العزيز: الوقوف العددي أول درجة من درجات العلم اللدني، وهو بالنسبة للمبتدى يحتمل أن يكون معناه ما تقدم، وبالنسبة للواصل أن يقف على سريان الواحد الحقيقي في الأشياء[1] وقوفه على سريان الواحد العددي في جميع الأعداد الحسابية كما قيل:

تعدد هذا الكون والكثرة التي تلوح خيال كالسراب فخلها
وما ثم إلا واحد جل ذكره لنا يتجلى في المظاهر كلها

الثالثة: وقوف قلبي، أي: الوقوف المنسوب إلى القلب، وهذا محمول على معنيين: إما وقوف قلب الذاكر على المذكور عند ذكره، أي: اطلاعه عليه بحيث لا يغيب عن مراقبته، بل مشاهدته بكل حال.

قال سيدنا عبيدالله أحرار قدّس الله سره: الوقوف القلبي كناية عن الحضور

---

(١) قوله (الواحد الحقيقي): هذا المسمى عند العارفين (الواحدية) وهو شهود السّريان الذاتي من الاسم الجامع في سائر الأسماء والصفات التي من سرّ القيومية تعلقها بالدوائر الإمكانية فكانت مظاهر لها.

ومن هذا قول الشاعر:

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحياتكم ما فيه إلا أنتم (ع)

مع الحق تعالى، على وجه لا يكون معه التفات إلى غيره، وهو شرط لازم في الذكر، ويسمى بالحضور والشهود والوصول والوجود.

وإما وقوف الذاكر في أثناء الذكر على قلبه، وهو قطرة دم في وسط قطعة لحم صنوبرية الشكل محاذية للثدي الأيسر، وتسمى قلباً لكونها محل القوّة المتقلبة باختلاف الأفكار والتدبيرات ومداركها، :والوقوف عليه. هو الاطلاع على حاله، وإشغاله بالذكر، وملاحظة مفهومه، وأن لا يخلي عليه سبيلاً للغفلة.

قال سيدنا بهاء الدين قدّس الله سره العزيز: الوقوف القلبي بالمعنيين شرط مهم أكثر من الوقوف العددي.

الرابعة نظر برقدم: بَر - بفتح الباء - بمعنى على، والمعنى المراد بها عندهم أنه ينبغي للسالك أن يكون نظره إلى قدميه عند المشي، لئلا ينظر إلى الآفاق، لأن النظر إليها يورث الحجاب في القلب، لأن أكثر الحجب التي في القلوب هي الصور المرتسمة فيها من طريق النظر، فهي لدفع تفرقة الآفاق، أو لئلا يشتغل عن الذكر بالنظر إلى المبصَرات، لأن الذاكر المبتدىء إذا تعلق نظره بالمبصَرات اشتغل قلبه بالتفرقة الحاصلة من النظر إلى المبصَرات، لعدم قوّته على حفظ القلب على التفرقة الحاصلة بذلك؛

أو لئلا ينظر إلى وجوه الأغيار، لأن النظر في وجوه الأغيار عند الصوفية من المحظورات، لأن القلوب الصافية مثل المرايا الصقيلة ينطبع فيها ما كان في القلوب القاسية من الأخلاق الذميمة، والأفكار الفاسدة، بمجرد النظر إلى وجوه أصحابها؛

أو لئلا يصيب نظره إلى الوجوه الحسان، فيفتتن بذلك لأن النظر سهم من سهام الشيطان، فمن أصابه ذلك افتتن في طريق الله، فأمر السالك أن يغض بصره بالنظر إلى قدميه لئلا يدركه ذلك السهم.

ويجوز أن تكون كناية عن التواضع، لأن أصحاب الكبر والتجبر لا ينظرون إلى أقدامهم.

ويجوز أن تكون إشارة إلى اتباع السنة في المشي، لأن النبي ﷺ: كان إذا مشى لا يلتفت يميناً ولا يساراً، وكان ينظر إلى قدميه، متوجهاً إلى أمامه، مسرعاً في مشيه، كأنما ينحط من صبب.

ويمكن أن تكون كناية عن علو الهمة، لأن صاحب الهمة لا ينظر لسوى الحق سبحانه وتعالى، كصاحب السرعة في المشي لأنه لا ينظر إلا إلى قدميه، لئلا يحبط في مشيه.

ويحتمل أن تكون إشارة إلى سرعة سير السالك في قطع مسافة الوجود الموهوم، يعني كل ما ينتهي نظر السالك إليه يضع قدمه عليه.

كما قال العارف الكبير سيدنا محمد رويم رضي الله عنه: أدب المسافر أن لا يجاوز همه قدمه، وأشار إليه سيدنا عبد الرحمن الجامي قدّس الله سره مادحاً حضرة مولانا بهاء الدين نقشبند بما ترجمته:

لم يخل عن نفس دون الحضور ولم … تسبق نواظره الأقدام في السفر
وذا لسرعة سير فيه قد ركزت … فما تخلف رجلاه عن النظر

ولقد أفصح عن هذا المعنى أحسن إفصاح سيدنا الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي في الخامس والتسعين ومائتين من «مكتوباته العرفانية»، فقال:

ليس المراد من قوله: النظر على القدم، أن لا يجاوز النظر القدم، وأن لا يتعداه إلى فوق، لأن هذا خلاف الواقع، بل المراد أن يكون النظر سابقاً للقدم، وأن يجعل القدم رديفه، لأن العروج إلى الرتب العالية يكون أولاً للنظر، ثم يصعد القدم، وحينما يصل القدم إلى مرتبة النظر يتعلى النظر إلى درجة أعلى منها، فيصعد القدم تبعاً له، ثم يترقى النظر من ذلك المقام أيضاً على هذا المتوال.

ولو قلنا أن المراد من القول المذكور أنه ينبغي أن لا يترقى النظر إلى المقام الذي لا يمكن أن يصل إليه القدم، فهذا أيضاً غير واقع، لأن النظر إذا لم يتجاوز المرتبة التي هي غاية سير القدم، لكان يفوته أكثر مراتب الكمال.

وإيضاح ذلك أن نهاية القدم هي غاية مراتب استعداد السالك، بل نهاية مراتب استعداد النبي الذي هو على قدمه، إلا أن القدم الأول بالأصالة، والثاني بالتبعية لذلك النبي، وليس فوق مراتب هذين الاستعدادين مرتبة قدم، وأما النظر فله ذلك، لأنه يتقوى حينئذٍ فتكون نهايته نهاية مراتب نظر النبي، الذي هو على قدمه، لأن النبي يكون لكمل أتباعه نصيب من جميع كمالاته، فالسالك يترقى قدماً ونظراً أصالة وتبعاً إلى نهاية مراتب استعداده، ثم يقف القدم، ويصعد النظر وحده، ويترقى إلى نهاية مراتب نظر النبي الذي هو على قدمه.

فعلم من هذا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصعد نظرهم إلى مقام فوق مقام قدمهم، وكما أن لكمل أتباعهم نصيب من مراتب قدمهم، فلهم نصيب أيضاً من مقامات أنظارهم، ومقام نظر خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام الذي هو فوق مقام قدمه ﷺ هو مقام الرؤية، وهذا المقام موعود لغيره في الآخرة، فما كان لغيره نسيئة، كان له نقداً، ولكمل تابعيه نصيب من ذلك.

ثم نرجع إلى أصل الكلام، فنقول:

وإن كان المراد عدم تخلف النظر عن القدم، أعني: أن لا يتخلف النظر بوقت من الأوقات عن مقام القدم، فالأخذ بهذا المعنى يمنع السالك عن الترقي، وأما إذا اعتبرنا المعنى المتبادر من ظاهر اللفظ، فهو ممكن ويناسب معنى قوله (هوش دردم) لأن الإنسان إذا لم يجعل نظره فوق قدمه في الطريق أثناء مشيه يتشتت بسبب الألوان المحسوسة، وأما إذا جعله فوق قدمه فإنه يكون للجمع أقرب، ا.هـ، فانظر هذا النَّفَس ما أحلاه وأنْفَسَه قدس الله سره.

الخامسة: هوش دردم، هوش بمعنى العقل، ودر بمعنى في الظرفية، ودم بمعنى النفس، فالمعنى المراد عندهم: أنه ينبغي للسالك العاقل أن يحفظ

النفس عن الغفلة عند دخوله وخروجه، ليكون قلبه حاضراً مع الله تعالى في جميع الأنفاس، لأن حفظ الأنفاس عن الغفلة يؤدي القلب إلى الحضور مع الله تعالى، وحضور القلب معه تعالى في الأنفاس إحياؤها بالطاعات وإيصالها إلى الله تعالى متصفة بالحياة، لأن كل نَفَسٍ يدخل ويخرج بالحضور، فهو حي موصول بالله تعالى، وكل نَفَسٍ يدخل ويخرج بالغفلة، فهو ميت مقطوع عن الله تعالى.

قال سيدنا عبيد الله أحرار: أهم المهمات في هذا الطريق هو حفظ النفس، ومن لم يحفظ نفسه يقال عنه: فلان فقد نفسه.

وقال سيدنا ومرشدنا بهاء الدين شاه نقشبند قدس الله سره العزيز أن مبنى هذا الطريق على النفس، فينبغي لك أن تحفظ النفس وقت الدخول والخروج بل تحفظ ما بين النفسين:

يا واقفاً عند شط البحر منحبساً ... البحر متسع والشين في الطرف
لا تنظرنَّ إلى موج الحوادث بل ... مع الخضم مَدى الأنفاس لا تقف

وقال العارف عبد الرحمن الجامي في أواخر «شرح الرباعيات»: قال الشيخ أبو الجناب نجم الدين الكبرى في رسالته «فواتح الجمال»: إن الذكر جار في نفوس الحيوانات بأنفاسهم الضرورية، لأنه وقت خروج النَّفَس ودخوله يخرج حرف الهاء بلا قصد منها، وهو إشارة إلى غيب الهوية، والهاء التي في لفظ الجلالة هي هذه الهاء، والألف واللام للتعريف، واللام الثاني للمبالغة ا. هـ.

فينبغي لك أن تكون حاضراً مع هذا الذكر، بأن تكون هوية الحق ملحوظة لك وقت ظهور هذا الحرف، حتى يصير ملكاك، فحينئذ لا يزول أبداً، ولو أردت زواله.

وغيب الهوية عند أهل الله، عبارة عن الذات المطلقة عن جميع التعينات(١)، ويجوز أن تكون هذه الكلمة كناية عن انتهاء الذاكر عن سنة الغفلة

---

(١) قوله (التعينات): هذا المقام المعبَّر عنه بالأحدية. وفي الحكم العطائية: الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته. (ع).

في حال الذكر، لأن المقصود من الذكر استمرار ملاحظة معناه، واستمرار ملاحظة معنى الذكر يؤدي إلى تجلي ذلك المعنى، وذلك لا يمكن إلا بحفظ الأنفاس عن الغفلة، لأن حفظها يؤدي إلى الحضور، والحضور سبب شهود تجليات الحق سبحانه وتعالى، لأن لله تعالى تجليات بعدد أنفاس الخلق، فمن حفظ أنفاسه عن الغفلات كان حاضراً مع الله تعالى، فيصيب من تلك التجليات.

ثم اعلم أن حفظ الأنفاس عن الغفلات عسير على السالكين، فإذا تخللتها الغفلة، فلا بد لهم أن يستغفروا الله منها، فالاستغفار يطهرها ويزكيها.

وكما أن في قوله ـ قدس سره ـ نظر برقدم: إشارة لدفع تفرقة الآفاق، كما تقدم كذلك في هذه إشارة لدفع تفرقة الأنفس.

السادسة: سفر دروطن، أي: السفر في الوطن، والمعنى المراد بها عندهم: أنه ينبغي أن يكون سفر السالك من عالم الخلق إلى جناب الحق سبحانه وتعالى، كما أشار إليه خليل الله عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ [الصافات: ٩٩]، ومن حال إلى حال أحسن منه، أو من مقام إلى مقام أعلى منه، كما قال أبو عثمان المغربي قدس سره: يجب على السالك أن يسافر من عند هواه وشهوته، ومراده لا من بلد إلى بلد، وإنما اعتبر أرباب السلوك السفر الظاهري للوصول إلى المرشد المربي، فلما وصل إليه وجب عليه أن يسلم أمره إليه، ويقيم عنده ويترك السفر الظاهري حتى يقدر على السفر الباطني وتتم الإرادة.

وكان الشيخ محمد بن علي الحكيم الترمذي صاحب «نوادر الأصول» قدس سره يمنع السالك عن السفر الظاهري، ويقول: مفتاح كل خير ومفتاح كل بركة الصبر في موضع إرادتك إلى أن تصح لك الإرادة، فإذا صحت لك الإرادة فقد ظهرت لك أوائل البركة، فأنت في سفر إلى الله تعالى سواء سافرت من حيث الظاهر أو لم تسافر.

ثم اعلم أن المشايخ إنما منعوا السالكين عن السفر الظاهري، لأن فيه

المشاق والمحن التي لا يتحملها أهل البدايات، لعدم تمكنهم في مقام العبودية والشهود، فتؤديهم تلك المشاق إلى ارتكاب المخالفة في طريق السلوك، وترك الفرائض والسنن، وتورث في قلوبهم التفرقة، وأما الكاملون فلا تؤثر فيهم تلك المشاق، بل يحصل لهم الترقيات إلى الدرجات العاليات بسبب تحمل مشاق السفر ومحنته، كما كان السلف الصالحون، وإذا استوطنت نفوسهم في محل، وحصل لهم الائتلاف مع الناس، سافروا لرفع العادات وترك الراحات وقطع الألفة واختيار الذلة، ليحصل لهم التجرد التام، حتى يصلوا إلى أعلى مقام.

قال سيدنا الشيخ عبيدالله أحرار: إن السفر لا يورث المبتدي إلا التفرقة، فينبغي للطالب إذا وجد الشيخ أن يلازمه بصدق الهمة في الخدمة، ولا يفارقه إلا بعد التمكن، فإذا حصل له التمكن يكون سفره وحضره على نية صحيحة.

ما أحسن الضحك الجاري بغير فم ورؤية غاب عنها هيكل البصر
كن قاطناً ظاهراً والسر مرتحل فالسير من دون رجل أحسن السفر

وقال العارف الجامي قدس سره: أن قلب الإنسان إذا زالت منه تعلقات الأكوان، وإرادات الطبع البشرية يظهر صفاؤه الأصلي، فلا يحتاج إلى السير والسلوك، لأن المراد منه تصفية القلب، بل ينطبع فيه كل ما قابله من الكمالات، كالمرآة الصقيلة فإنها يظهر فيها صور الأشياء المقابلة لها بلا احتياج إلى حركة، لأن صفاءها أصلي، فما يقابلها ينطبع فيها.

وقال سيدنا الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي: هذه الكلمة المباركة عبارة عن السير الأنفسي، ومنشأ حصول اندراج النهاية في البداية الذي هو من خصائص الطريقة العلية النقشبندية، وهذا السير وإن كان موجوداً عند جميع أهل الطرق، ولكن لا يتيسر لهم إلا في نهايتهم بعد قطع السير الآفاقي، وأما السالك هذا الطريق فابتداؤه يكون من هذا السير، وفي ضمنه يقطع السير الآفاقي، فمنشأ هذا السير في البداية من اندراج النهاية في البداية.

السابعة: خلوة درانجمن:

اعلم أن الخلوة نوعان: الأول خلوة في الظاهر: وهي اختلاء السالك في

بيت خال عن الناس، وقعوده فيه ليحصل له الاطلاع في عالم الملكوت، لأن الحواس الظاهرة متى احتبست عن أحكامها، انطلقت الحواس الباطنة لمطالعة آيات الملكوت.

والنوع الثاني: خلوة في الباطن: وهي التي أشار إليها الشيخ بقوله: خلوة درانجمن، أي الخلوة في الجلوة، لأن معنى انجمن: جمعية الناس، والمراد بها عندهم أنه ينبغي أن يكون قلب السالك حاضراً مع الحق، غائباً عن الخلق مع كونه بينهم، فحينئذٍ تكون هذه الكلمة بمعنى المراقبة.

وقيل: هي كناية عن كون الذاكر مستغرقاً في الذكر القلبي، بحيث إذا دخل السوق لم يسمع أصوات الناس، بسبب استيلاء الذكر على حقيقة القلب.

وقيل: هي كناية عن استيلاء النسبة العلية، بحيث لا ينافيها معية الخلق، ولا يضرها المعاملة معهم، وهذه هي الخلوة الحقيقية، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور: ٣٧]، وهي خاصة بالطريق النقشبندي، لأن أربابها لا يختلون بالخلوة الظاهرة، وإنما خلوتهم من حيث الباطن عند جمعية الناس، كما قال سيدنا ومرشدنا الشيخ بهاء الدين قدس الله سره العزيز: الشهرة في الخلوة، وفي الشهرة الآفة، والخير في الجمعية، والجمعية في الصحبة، بشرط أن تكونوا فانين بينكم.

وقال سيدنا الشيخ عبيدالله أحرار: لو ذكر السالك بجد واهتمام يصل في نحو خمسة أيام إلى أن يسمع جميع الأصوات والحكايات، حتى كلام نفسه ذكر الله تعالى، وإنما اختاروا هذه الخلوة اتباعاً للسنة، لأن النبي ﷺ اختار الجمعية على الخلوة، وقال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لم يخالط الناس»[1].

---

(١) حديث (المؤمن الذي): أخرجه أحمد، والبخاري في الأدب، والترمذي، وابن ماجه. بلفظ قريب. «الجامع الصغير» (رقم ٩١٥٤).

وقال الشيخ أبو سعيد الخراز[1] رضي الله عنه: ليس الكامل من صدر عنه أنواع الكرامات، وإنما الكامل الذي يقعد بين الخلق يبيع ويشتري معهم، ويتزوج ويختلط بالناس، ولا يغفل عن الله لحظة واحدة:

بقلبك كن بالحب منصبغاً وكن بظاهرك المشهود في زي أجنبي
وهذا طريق نادر عز أهله على أنهم فازوا بأعذب مشرب

وقال سيدنا الإمام الرباني قدس سره: قوله: خلوة درانجمن، متفرع عن سفر دروطن، لأنه متى تيسر السفر في الوطن تيسرت الخلوة في الجلوة، فيسافر في تفرقة الجلوة في وطن الخلوة، فلا تجد تفرقة الآفاق إلى حجرة الأنفس سبيلاً، وهذه الخلوة وإن كانت متيسرة لكل مُنْتَهٍ في سائر الطرق أيضاً، لكن لما كانت متيسرة في ابتداء هذا الطريق، صارت من خصائصه.

ومما ينبغي أن يعلم أن الخلوة في الجلوة إنما تحصل إذا كانت أبواب خلوة وطن القلب مغلقة، وطاقاتها مسدودة، يعني لا يلتفت في الجلوة إلى أحد، ولا يكون متكلماً ولا مخاطباً، لا أنه يغمض عينيه ويعطل الحواس بالتكلف، فإنه ينافي هذا الطريق، نعم يا أخي! يحتاج السالك لهذا التكلف والتمحل في الابتداء والوسط، وأما في الانتهاء فلا، بل يكون فرقه جمعاً وغفلته حضوراً، ولا يتوهم من ذلك أن التفرقة وعدمها في نفس جمعية باطنه سيان، هذا ومع ذلك لو جمع الظاهر مع الباطن ودفع التفرقة عن الظاهر أيضاً كان أولى وأنسب، قال تعالى آمراً لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [المزمل: ٨].

وينبغي أن يعلم أنه لا بد من تفرقة الظاهر في بعض الأوقات لأداء حقوق الخلق، وهي مستحسنة في بعض الأحيان، وأما تفرقة الباطن فلا تجوز في

---

(١) أبو سعيد الخراز: أحمد بن عيسى (... ـ ٢٧٩ هـ) من أهل بغداد. صحب ذا النون المصري وغيره. وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم. قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. أسند الحديث. «طبقات الصوفية» (ص٢٢٨).

وقت من الأوقات، إذ الباطن لله خالصاً، فصارت ثلاثة أرباع من العبد المسلم لله تعالى، الباطن بتمامه، والنصف من الظاهر، وبقي النصف الآخر من الظاهر لأداء حقوق الخلق امتثالاً لأمر الحق، لكن إذا كان هذا النصف لأداء حقوق الخلق يصير لله سبحانه إليه يرجع الأمر كله.

الثامنة: يادكرد، ياد بمعنى الذكر، وكرد أصله كردن، وهو مصدر مركب حذفت نونه تخفيفاً، والمراد بها عندهم: أنه ينبغي للسالك أن يذكر النفي والإثبات باللسان، بعد وصوله إلى مرتبة المراقبة كل يوم بعدد معين، مثل خمسة آلاف أو عشرة آلاف، وإنما شرطوا ذكر النفي والإثبات باللسان في هذه المرتبة، لأن القلب بتعلقه بالعناصر يصدأ بصدأ العناصر، فإذا ذكر النفي والإثبات باللسان ينجلي صدؤه، ويترقى في المراقبة، حتى يصل إلى مرتبة المشاهدة.

وقيل: هي عبارة عن تكرار الذكر على الدوام، سواء كان بالقلب أو باللسان باسم الذات، أو النفي والإثبات إلى أن يحصل للذاكر الحضور بالمذكور، ويجوز أن تكون كناية عن ذكر الله مطلقاً، إذا حصل له النسيان عن الذكر أو الغفلة، كما قال الله تعالى ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ [الكهف: ٢٤].

وقيل: المقصود منها ذكر النفي والإثبات بالقلب على الطريقة المعروفة عند السادات النقشبندية، وهي: أن يغمض الذاكر عينيه، ويطبق الفم، ويجعل السن على السن، ويلصق اللسان بعرش الفم، ويحبس النفس، ويذكر بالقلب لا باللسان، بأن يبتدي بكلمة «لا» من تحت السرة ويرفعها إلى الدماغ، وبكلمة «إله» من الدماغ إلى الكتف، ويضرب «إلا الله» مع حركة الراس على القلب الصنوبري الشكل، حتى تتصل حرارته إلى الأعضاء كلها، وينفي بالنفي وجود جميع المحدثات، وينظرها بنظر الفناء، ويثبت بشق الإثبات ذات الحق تعالى ناظراً له بنظر البقاء، ويلاحظ الخطأ الحاصل من الانتقالات، ويقول بعد ذلك في القلب: محمد رسول الله، ويكررها على قدر قوّة النفس، ويطلقه من الفم على الوتر المعروف عندهم بالوقوف العددي.

ويجب أن يكون هذا الذكر بغير تصور المعنى، حتى يقدر السالك أن يأتي بإحدى أو ثلاث وعشرين مرة في نَفَس واحد، فحينئذٍ يتصوّر المعنى، وهو أن «لا» مقصود غير الله، فإن نفي المقصودية أبلغ من نفي المعبودية، لأن كل معبود مقصود ولا عكس.

التاسعة: بازكشت، باز بمعنى الرجوع، وكشت بالكاف الفارسية أصله كشتن، حذفت نونه للتخفيف والمراد بها عندهم: أنه ينبغي للذاكر أن يرجع في النفي والإثبات بعد إطلاقه للنفس إلى تخيل هذه الجملة الشريفة «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي» وتخيلها يؤكد معنى النفي والإثبات، ويورث في قلب الذاكر سرّ التوحيد، حتى يفنى عن نظره وجود جميع الخلق، ويظهر له وجود الواحد المطلق في المظاهر، ولذلك كانت السادات النقشبندية يأمرون بها المريدين ليتصفوا بمضمونها مع المداومة عليها، لأن من خاصية هذه الكلمة ظهور سرّ التوحيد، وانكشاف حقيقة التجريد والتفريد، ولا يجوز للمبتدىء إذا لم يجد في قلبه صدق مضمونها أن يتركها، بل يقولها تقليداً لمرشده إذ المقلد يصير محققاً، وآثار الصدق تظهر بالتدريج.

ذكر الشيخ علاء الدين المكبتدار: أحد أصحاب الشيخ سعد الدين الكاشغري: أن الشيخ لما لقنه الذكر أمره أن يقول هذه الجملة الشريفة، قال: وكنت لا أجد في نفسي صدق مضمونها، فأغضب من ذلك، فذهبت ذات يوم عند الشيخ وأنا متفكر في هذا الأمر، فلما وصلت إليه، قال لي الشيخ: نروح عند الشيخ بهاء الدين عمر، فذهبت معه حتى إذا جلسنا عنده، قال الشيخ بهاء الدين عمر: كان الشيخ علاء الدولة يقول: إن لم يجد الطالب إخلاصاً في الباطن، ينبغي أن يذكر هذه الكلمات المباركة مع الذكر، حتى يظهر الصدق في باطنه ببركة التزام هذا الذكر، فلما سمعت منه هذا الكلام زال عني ذلك الاضطراب، وظهر لي صدق مضمونها ببركة الشيخ قدس سره.

وقيل: بازكشت كناية عن رجوع الذاكر إلى الله تعالى عند الذكر، بإظهار العجز والتقصير فيه، لأنه لا يقدر أحد على حق الذكر إلا بإعانته تعالى فلذلك

ورد: «ما ذكرناك حق ذكرك يا مذكور» وإن الذاكر لا يمكن له الحضور في الذكر، ولا ينكشف له أسرار الذكر، ولا يتيسر له الوصول إلى الله تعالى بالذكر، إلا إذا ذكره به تعالى لا بنفسه، فلذلك كانت كلمة بازكشت إشارة إلى رجوع الذاكر حال ذكره إليه تعالى، كما تقدم ليحصل له الوصول بالذكر إلى المذكور.

العاشرة: نكاه داشت، نكاه بمعنى الحفظ، وداشت أصله، داشتن حذفت نونه للتخفيف، يريدون بها أن يحفظ السالك قلبه على ملاحظة معنى النفي والإثبات عند الذكر، لئلا تدخله الخواطر، فإن دخلت فيه الخواطر لا تحصل فيه نتيجة الذكر التي هي حضور القلب بالمذكور.

أو المراد أن يحفظ قلبه عن دخول الخواطر فيه ساعة أو ساعتين أو أقل أو أكثر، وهذا المعنى يتَّحد بالوقوف القلبي.

واعلم: أن حفظ القلب من دخول الخواطر ولو ربع ساعة أمر عظيم عند الصوفية، فإنَّ من قدر على ذلك فقد تصوف، لأن التصّوف هو القدرة على حفظ القلب عن دخول الخواطر وتعطيله عن الأفكار، فمن قدر على هذين الأمرين فقد عرف حقيقة قلبه، ومن عرف حقيقة قلبه فقد عرف ربه، كما قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].

قال الشيخ قاسم أحد أصحاب الشيخ عبيدالله أحرار: إني لأحفظ قلبي من الخواطر من طلوع الفجر إلى الضحى، بحيث لا يكون للقوة المخيلة أثر.

وقال بعض العارفين: حرست قلبي عشر ليال، فحرسني قلبي عشرين سنة.

وقال الشيخ أبو بكر الكتاني قدس سره: كنت بواباً على باب قلبي أربعين

---

(١) حديث (من عرف نفسه): لا أصل له مرفوعاً، وإنما هو من قول يحيى بن معاذ الرازي. كما نص على ذلك الإمام النووي وغيره. انظر «المقاصد الحسنة» (ص٦٥٧) و«فتاوى الإمام النووي» (ص١٢٠) و«المصنوع» للقاري (١٨٩).

سنة، وما فتحته لغير الله تعالى، حتى صار قلبي لم يعرف غير الله عز وجل.

وقال سيدنا الشيخ أبو الحسن الخرقاني قدس سره: اليوم لي أربعون سنة والله ينظر إلى قلبي لا يرى فيه غيره، ما بقي فيّ لغير الله شيء، ولا في صدري لغيره قرار، أو المراد من حفظ القلب من الخواطر عدم ثباتها عند مرورها عليه.

قال الشيخ عبيدالله أحرار: ليس معنى حفظ الخاطر أن لا يجيء للسالك خاطر أصلاً، بل أن لا يزاحم الخاطر حضوره كالحشيش إذا سقط على الماء الجاري فإنه لا يمنع جريانه.

وقال سألت الشيخ علاء الدين الغجدواني - وهو من كبار أصحاب سيدنا بهاء الدين نقشبند -: هل يمكن أن لا يجي الخاطر قط؟ قال: لا بل تارة يجيء وتارة لا يجيء، كقولك لآخر: لا تكن مغموماً تريد لا تدم على غمك، لا أن لا يجيئك غم.

ويؤيده ما قاله الشيخ علاء الدين العطار: وانتفاء الخواطر متعسر بل متعذر، فإني حرست قلبي من الخواطر عشرين سنة، ثم جاءت ولكن ما استقرت.

وقال بعضهم: لا عبرة للخواطر إذا لم تتمكن وتصير سداً في مجاري الفيض.

الحادية عشر: يادداشت؛ والمراد عندهم: أنه ينبغي للذاكر أن يحفظ قلبه مع الحضور بالمذكور عند ذكر النفي والإثبات بحبس النفس.

وقيل: هي كناية عن حضور القلب مع الله تعالى على الدوام في كل حال، فحينئذٍ تتحد مع المراقبة.

ثم اعلم أن الحضور الحاصل من الذكر والمراقبة والصحبة والرابطة، وكلمة يادداشت متحدة من حيث الحقيقة، لأن الحضور مشاهدة أنوار الذات الأحدية، لكنها مختلفة من حيث الكيف، لا يعرف ذلك الاختلاف إلا الخواص.

هذا والخواطر أربعة: خاطر نفساني، وخاطر شيطاني، وخاطر ملكي، وخاطر حقاني، فيلزم السالك أن ينفي الثلاثة ويثبت الحقاني.

ومعرفة الخواطر وتمييزها عسير، ومما ذكروا في بيانها أن حصول الخاطر النفساني من أرض القلب يعني من تحت القلب، وخاطر الشيطان من القلب، وخاطر الملك من يمين القلب، والخاطر الحقي من فوقه.

وهذه تصح معرفتها لمن تحلى بالتقوى والزهد والورع وأكل الحلال الطيب، وكان دائماً مراقباً خواطره لا يترك الغير يمر بباله.

ثم إن الشيخ ـ قدس الله سره ـ لما قرب انتقاله للدار الآخرة أذن بتربية المرشدين لأربعة خلفاء راشدين.

الخليفة الأول: البحر الحبر العارف، والمرشد الكامل المعارف الشيخ أحمد الصديق ـ قدس سره ـ: كان من كبار المشايخ العظام، وهو بخاري الأصل، صحب الشيخ عبد الخالق ـ قدس سره ـ حتى كمل بدره، ولما رفعه الله تعالى إليه جلس مكانه في دست الإرشاد إلى أن توفي قدس سره.

الخليفة الثاني: كبير الأولياء الشيخ عارف أولياء الكبير ـ قدس سره ـ: أصله من بخارى، وكان مستغرقاً في تحصيل علم الظاهر، فلقي الشيخ مرة في السوق قد اشترى لحماً وحمله، فقال له: أنا أحمله عنك، فأعطاه إياه، فلما وصل إلى بيته التفت إليه، وقال له: تأتي بعد ساعة حتى آكل الطعام معك، فلما انصرف لم يجد في قلبه ميلاً للعلم، بل وجده منصرفاً لخدمة الشيخ، فعاد إليه في الوقت فتقبله، وقال له: أنت ولدي، وعلمه الطريق، فاشتغل به وترك الذهاب إلى أستاذه، فكان كلما رآه أستاذه عنفه وشتمه على ترك العلم، وأمره بالحضور إلى المدرسة، وهو لا يقبل ولا يجيبه بشيء، فاتفق أن اقترف أستاذه ذات ليلة كبيرة من الكبائر، فلما التقيا في النهار أطال لسانه عليه على العادة، فقال له: يا سيدي! كنت في الليل في كذا وكذا من الفسق، والآن تمنعني عن طريق الحق، فخجل الأستاذ خجلاً عظيماً، وعلم علو مراتب الصوفية وأحوالهم، وحضر عند الشيخ عبد الخالق في الحال وتاب وأخذ طريقته،

وصار من المقبولين لديه، وثبت أن مولانا عارف أوليا اعتكف اعتكاف الخواطر في مسجد سرصرافان الكائنة في سوق بخارى أربعين يوماً، وكان سيدنا الشيخ عبيد الله أحرار يستغرب هذا الحال من الشيخ أوليا، حتى كان يعض على أنامله، توفي في بخارى، ودفن قرب برج العيار على تل زير حصار قدس سره.

ومن أشهر خلفائه خمسة:

الأول: زهرة العارفين الشيخ دهقان القلتي ـ قدس سره ـ: كان آية باهرة في تربية الطالبين، وقد قام مقام مرشده من بعده حتى توفي في قِلّت ـ بكسر القاف، وتشديد اللام المفتوحة، والمثناة ـ قرية على فرسخين من شمال بخارى.

والثاني: نخبة العارفين الشيخ ذكي الخدابادي ـ قدس سره ـ: كان من أكابر المربين، ولما توفي الشيخ دهقان قام مقامه، حتى أتم أنفاسه المقدسة في قرية خداباد من أعمال بخارى، على خمس فراسخ منها.

الثالث: صفوة الصالحين الشيخ سوكمان: ناب مناب مرشده أيضاً، وأتم أعمال الطريقة العلية بمدده، وكان من أكابر أهل الإرشاد، توفي في بخارى، وقبره المبارك عند ضريح شيخه عبد الخالق قدس سره.

الرابع: سلالة العارفين وعمدة المرشدين الشيخ غريب، هو نجل الشيخ عبد الخالق ـ رضي الله عنه ـ: ناب مناب والده بعد انتقال خلفائه الثلاث، وحصل له في الطريق شأن عظيم، فلما قدم محبوب القلوب الشيخ حسن البلغاري إلى بخارى، كان على كبر سنه وجلالة قدره يتردد دائماً إلى حضوره، وسئل عنه مرة فقال: رأيت كثيراً من الأولياء والمشايخ، فلم أر مثله.

وللشيخ غريب أصحاب كثيرون من أشهرهم: الشيخ أوليا پارسا، والشيخ حسن الساوري، والشيخ اوكتمان، والشيخ أوليا غريب ـ قدس سرهم ـ.

الخامس: ولي العلماء وعالم الأولياء الشيخ نور الدين ـ قدس سره ـ:

كان في الإرشاد عمدة اقرانه، ولؤلؤة صدفة زمانه.

الخليفة الثالث: العارف الكبير، والبدر المنير الشيخ سليمان الكرميني ـ قدس سره ـ: كان من أكابر المرشدين، واشتهر له ثلاث خلفاء كبراء.

الأول: المرشد الكامل الشيخ محمد شاه ـ قدس سره ـ.

والثاني: الإمام الكامل، والعالم العامل، الشيخ سعدي الغجدواني ـ قدس سره ـ.

والثالث: خلاصة الأولياء المهديين الشيخ أبو سعيد البخاري ـ قدس سره ـ.

وقد تعاقب كل من هؤلاء الخلفاء الثلاثة على مقام الشيخ سليمان، إلى أن توفي أبو سعيد، فناب عنه خليفته العلامة الكبير، والمرشد الشهير، الشيخ محمد البخاري صاحب كتاب «مسلك العارفين» ـ قدس سره ـ.

وهؤلاء السادات من رجال الرشحات، ورأيت في سلسلة نامة للشيخ محمد بن حسين بن عبدالله الغزويني: أن من أصحاب الشيخ عبد الخالق ـ نفعنا الله به ـ إمام الزمان الشيخ ختان البخاري ـ قدس سره ـ.

الخليفة الرابع شيخ هذه السلسلة، وأعظم من سرى إليه سر هذه النسبة المبجلة: سيدنا الشيخ عارف الريوكري ـ قدس الله سره العزيز ـ.

* * *

سيدنا الشيخ عارف الريوكري

قدس الله سره العزيز

عارف ظهرت أنوار صادق فجره، فأشرقت بعد الغروب شمس المعارف في عصره، ولد ـ قدس الله سره ـ سنة . في قرية ريوكر ـ بالراء المهملة، والياء المثناة التحتية، والواو الساكنتين، والكاف الفارسية المكسورة، وقيل: تفتح، والراء المهملة ـ وهي من قرى بخارى على ستة فراسخ منها، وميل من غجدوان، ثم أخذ الطريقة عن حضرة العزيزان، وقام بأعباء خدمته، حتى أذن له بالإرشاد، وشهد له بالكمال على رؤوس الأشهاد، ولما أفضت إليه الخلافة، ناهز بالهمة الجمة أسلافه، فتصدر للإرشاد وتصدى، ولم يخف المريد من ليلي مراده هجراً ولا صداً، فملأ الأقطار بأعطار بركاته، وفتح أبصار الأمصار بأسرار فتوحاته، حتى أصبح نور حديقة الحقيقة، ونور حدقة هذه الطريقة، يقصد بالرحلة من كل الجهات، وهو من أعظم رجال النفحات والرشحات، وكانت وفاته في القرية المذكورة سنة ، وله عدة خلفاء لم أقف لهم على أسماء.

ثم تلقى سر هذه النسبة الشريفة عنه: سيدنا الشيخ محمود الأنجيرفغنوي قدس الله سره العزيز.

***

سيدنا الشيخ محمود الانجيرفغنوي

قدس الله سره العزيز

مرشد تفجرت من بين أصابعه مياه الحكمة، أنعم الله تعالى بوجوده على قلوب هذه الأمة، فصقل مرآتها من كل ظلمة وغمة، ومزق عنها رحمة بها حجب الأغيار، وجعلها بأنواره القدسية من المصطفين الأخيار، فهو أعظم نعمة وأعم رحمة.

كان قدس سره مع جلالة قدره يشتغل بصنعة البناء، فلما أقيم مقام سيدنا الشيخ عارف ـ قدس سره ـ انقطع لهداية الخلق إلى الحق، وقد عدّل إلى الذكر الجهري منذ مرض أستاذه لمقتضى خلق الوقت والخلق، واستمر عليه بعد انتقاله، وكان أكثر إقامته في مسجد وابكني ـ بواو مفتوحة، فألف، فموحدة ساكنة، فكاف، فنون، فياء تحتية ـ قرية من أعمال بخارى، وحضر يوماً مجلس علم، فأشار الشمس الحلواني إلى الشيخ حافظ الدين، وهو من كبار علماء أهل الظاهران يسأل: ماذا ينوي بذكر الجهر؟ فقال له: إيقاظ النائم وتنبيه الغافل ليتوجه إلى الله، ويستقيم على الطريقة، ويخلص التوبة لله التي هي مفتاح الخير وآية السعادة، فقال له: إن نيتك صحيحة، تجيز لك الجهر بالذكر.

وطلب الشيخ حافظ الدين منه أن يبين له حال من يجوز له ذكر الجهر، ليمتاز المحق من المبطل، فقال ـ قدس سره ـ: من وجدتم لسانه مطهراً من الكذب والغيبة، وجوفه منزهاً عن الحرام والشبهة، وقلبه مزكى من الرياء والسمعة، وسره مبرأ من التوجه للأغيار فهو المحق.

وقال سيدنا الشيخ علي الراميتني ـ قدس سره ـ: لقي رجل الخضر عليه السلام، فقال له: أخبرني عمن هو في هذا الزمن على جادة الشريعة

المطهرة، وطريق الاستقامة، حتى أتبعه فقال له: هو الشيخ محمود الأنجيرفغنوي قدس سره.

قال بعض أصحاب الشيخ علي: انه هو الرجل الذي لقي الخضر. وذكر الشيخ علي أيضاً: أن الشيخ محمود كان على قدم الكليم[1] على نبينا وعليه الصلاة والتسليم.

وعاد - قدس سره - حضرة الشيخ دهقان قلتي - نسبة إلى قِلّت بكسر القاف، وتشديد اللام المفتوحة، بعدها مثناة تحتية - قرية على فرسخين من بخارى، وكان من كبار خلفاء الشيخ أولياء الكبير البخاري، وقد احتضر، فلما خرج من عنده سأل الشيخ دهقان الله تعالى أن يغيثه بوليّ من أوليائه في سكرات الموت، فإذا بالشيخ محمود عاد إلى منزل الشيخ دهقان ثانياً، وبقي ثمَّ حتى التحق بالرفيق الأعلى.

ولد قدس سره سنة   في قرية انجيرفغني - وانجير: بكسر الهمزة، وسكون النون، وجيم، فياء ساكنة، فراء مهملة، اسم للتين بالتركية. وفغني: بفاء، فمعجمة، فنون، فمثناه تحتية - قرية من أعمال بخارى.

وله ثلاث خلفاء:

الخليفة الأول: مظهر الفيوضات الربانية، ومصدر الحقائق الإلهية، العارف بالله تعالى مولانا الشيخ حسن الوابكني: المعروف بالأمير كلان، أي: الكبير.

الخليفة الثاني: أخوه أمير المرشدين الكرام الشيخ حسين: - المعروف بأمير خورد، أي: الصغير - الوابكني قدس سره، فإنه شاع ذكره في الآفاق بالولاية والإرشاد، حتى تكمل عنده عدة مرشدين من أشهرهم العارف بالله تعالى مولانا الشيخ علي الأرغنداني، فلقد كان آية في الارشاد، كثير الأصحاب

---

(١) قوله (على قدم الكليم): في كونه مظهر التجليات الإلهامية، وصاحب تحديث في سره مع الهيبة والعظمة، وله دالّة على الله، وجرأة على خلقه في إقامة الشريعة، وسريان الحال. (ع).

أولي الهداية والإمداد، ومن أكبر أصحاب الأرغنداني العارف الكبير الشيخ أحمد شكر، ومولانا الدرويش الأوسكبي قدس سرهم.

الخليفة الثالث شيخ هذه السلسلة العلية، وأعظم من سرى إليه سر هذه النسبة الزكية: الشيخ علي الراميتني المشهور بالعزيزان ـ قدس الله سره العزيز ـ.

* * *

سيدنا الشيخ علي الراميتني

قدس الله سره العزيز

عَلَمُ عِلْمٍ ما أرفَعَه، ومنهلُ فضلٍ ما أنفعه، فتح من كنوز القلوب أقفالها، وأوضح من سنن الغيوب أغفالها، إلى نفس كم جبر بكسر شهوات النفوس أحوالها، ومحا عنها بما أوحى لها أوحالها، ونال في دولة العارفين من الفضائل والمفاخر ما صدق قول القائل: «كم ترك الأوائل للأواخر»، فهو لإرشاد القاصرين إلى المقامات العرفانية أولى ولي، وإذا لم تكن العلماء أولياء فليس لله ولي، علا في سماء الهداية قدره واسمه، فلا يدرك بالعبارة حده ولا رسمه، وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي.

ولد قدس سره في قرية راميتن ـ وهي براء مهملة مفتوحة، فألف، فميم مكسورة، فمثناة تحتية ساكنة، فمثناة فوقية مفتوحة، فنون ـ قرية على فرسخين من بخارى، ونشأ بها واشتغل بتحصيل العلوم الشرعية، حتى تضلع منها، اتصل بحضرة سيدنا الشيخ محمود الانجيرفغنوي، فحصل له من المقامات العالية والفتوحات المتوالية، ما ملأ به الخافقين إمداداً، والفريقين إرشاداً، واشتهر بالعزيزان، وهي أعظم آية على علو الشان.

ومن أنفاسه النفيسة: اعملوا ولا تحسبوا، واعترفوا بالتقصير، واستأنفوا العمل.

ومنها: اجتهد بالحضور على الدوام، لا سيما وقت الطعام، وعند الكلام.

ومنها: أن في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ الآية [التحريم: ٨]: إشارة وبشارة، إشارة إلى التوبة، وبشارة بقبولها، فإن الأمر بها دليل قبولها، إذ لو لم يقبلها لم يأمر بها.

وسئل ـ قدس سره ـ عن المسبوق: متى يقضي ما فاته؟ فقال: قبل طلوع الفجر[1].

وقال ـ قدس سره ـ في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله ينظر إلى قلب المؤمن كل يوم وليلة ستين وثلثمائة مرة»[2]: إن للقلب ستين وثلثمائة منفذ، ولكل عضو ستين وثلثمائة عرق من الأمعاء وغيرها متصلة بالقلب، فإذا تأثر القلب بذكر الله بحيث يصل إلى مرتبة تختص بنظر الله، سرى هذا التأثر إلى جميع الأعضاء، فيشتغل كل عضو بالطاعة اللائقة به، ومن نور طاعة كل عضو يصل الفيض، الذي هو عبارة عن نظر الرحمة إلى القلب.

وسئل ـ قدس سره ـ عن الإيمان؟ فقال: هو القطع والوصل[3] أخذ هذا الجواب من صنعته، فإنه كان نساجاً.

وكان معاصراً للعالم الكبير الشيخ ركن الدين وبينهما مفاوضات ومراسلات كثيرة، منها: أنه أرسل الشيخ ركن الدين إليه رسولاً يسأله ثلاث مسائل:

الأولى: قال له: كلانا نخدم الفقراء والمساكين، ونطعم الطعام، فما بال طعامك لا تكلف فيه، والخلق يشكرونك ويرضون منك، ويشكون مني ولا يرضون، فأجاب قدس سره: بأن كثيراً من أهل العطاء يمنون على المعطى له، ولا يتحمل المنّ إلا قليل من الناس، فاجتهد في عدم المنة لا تجد أحداً منهم شاكياً.

---

(١) قوله (قبل طلوع الفجر): وذلك لأن المسبوق سبقه القوم في مقامات وأحوال قلبية غيبية، فيتعين عليه أن يستدرك ما فاته، وأن يلحق القوم، وذلك في الليل الذي تطوى به الأرض للسائرين، ووقت السَّحر حين يتجلى الله على عباده في الثلث الأخير من الليل. (ع).

(٢) حديث (إن الله ينظر إلى قلب): لم أجده.

(٣) قوله (القطع والوصل): قطع العلائق مع الخلق من القلب، وإزالة العوائق من الشهوات، فيتم له وصل القلب بدوام المراقبة لله، والحياء منه، والأدب معه. (ع).

المسألة الثانية: قال له: سمعت أن الخضر قد تولى تربيتك، فكيف هذا؟ فأجابه بأن الذين يحبهم الله يحبهم الخضر.

المسألة الثالثة: قال له: سمعت أنك تذكر الله جهراً، فمن أين لك ذلك؟ فأجابه: بأني أنا سمعت كذلك أنك تذكر الله خفية، وما سمعه غيرك يكون جهراً.

وسأله مولانا سيف الدين فضة، وكان من أجل العلماء، فقال له: لمَ تجهر بالذكر؟ فقال له: قد اتفق العلماء على جواز الجهر بالذكر عند النفس الأخير من الحياة، لقوله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله»[1]، وعند الصوفية كل نفس هو النفس الأخير.

وسأله مولانا الشيخ بدر الدين الميداني، وكان من أجل أصحاب الشيخ حسن البلغاري، بأن الله تعالى قد أمرنا بكثرة الذكر بقوله جل جلاله ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١]، فهل المراد به ذكر اللسان أو القلب؟ فقال: للمبتدىء ذكر اللسان، وللمنتهي ذكر القلب، لأن المبتدىء يذكر الله تعالى بالتكلف والتعمل، وأما المنتهي فإن القلب إذا تأثر بالذكر صارت جميع أجزائه ذاكرة، فحينئذٍ يتحقق بالذكر الكثير فتكون أعمال يوم واحد منه بمقدار عمل سنة من غيره.

وقال قدس سره: على المرشد أن يعلم أولاً استعداد السالك وقابليته، ثم يلقنه الذكر ويربيه على حسب ذلك، فإن مثل من يتصدى لتربية المريدين وإرشادهم مثل من يربي الطائر، فكما ينبغي له أن يعلم قدر تحمل حوصلته فيطعمه على حسبها، كذلك المرشد.

وقال قدس سره: لو كان أحد على وجه الأرض من أولاد الشيخ عبد الخالق الغجدواني موجوداً ما صلب الحلاج.

---

(١) حديث (لقنوا موتاكم): أخرجه مسلم برقم (٩١٧) بدون لفظ شهادة.

وأنشد بين يديه رجل يوماً:

لكل صب أذاب العشق مهجته ... في كل فرد من الأنفاس عيدان

فقال قدس سره: بل ثلاثة أعياد فسأله بيانها، فقال: هي التوفيق للذكر، والذكر، وقبوله[1].

وقال قدس سره: ينبغي للسالك أن يكثر من المجاهدات والرياضات، ليحصل الأحوال والمقامات، وهنالك طريق آخر: وهو أن يسعى في تحصيل محبة قلوب الأولياء له[2]، فإن قلوب هذه الطائفة العلية موارد الحكمة الإلهية، فيدرك بذلك نصيباً منها وتظهر أحوالهم عليه.

وسأله الشيخ فخر الدين النوري ـ وكان من أكابر القوم ـ: ما السبب في أنه تعالى لما قال في الأزل للذر: ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا: بلى، فأجابوه، ويوم القيامة يقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيبه أحد؟

فقال قدس سره: السبب في ذلك أنه كان يومئذٍ وضع التكاليف الشرعية، والتكلم من ضروريات الشرع، وأما يوم القيامة ففيه ترفع التكاليف، ويبتدأ عالم الحقيقة، وليس في الحقيقة تكلم، فاقتضى أن يجيب الحق تعالى نفسه بقوله: ﴿لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦].

وقال قدس سره: أتى الخضر يوماً لزيارة الشيخ عبد الخالق الغجدواني، فأحضر له الشيخ رغيفين من شعير، فما أكل عليه السلام، فقال له الشيخ: كل

---

(١) قوله (وقبوله): في الحكم: أكرمك بكرامات ثلاث: جعلك ذاكراً له، ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك. وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك. وجعلك مذكوراً عنده فتمم نعمته عليك. (ع).

(٢) قوله (قلوب الأولياء له): في الحديث: «اللهم إني أسألك حبَّك وحبَّ من يحبك». والظاهر عنوان الباطن، وعالم الشهادة هو مظهر عالم الغيب، وأولياء الله وأحبابه شهداء الله في الأرض. (ع).

يا سيدي فإنه حلال، فقال: نعم، غير أن عاجنه لم يكن طاهراً فلا يجوز لي أن آكله.

وله قدس سره ما معربه:

من لم تفدك حضور القلب صحبته وعنك غيم الهوى والنفس ما كشفا
إن لم تفارقه تحصيلاً لجمعك لم تقبلك روح العزيزان الذي عرفا

وله قدس سره ما تعريبه:

إذا رمت قرب الحق دع كل فرقة وفرقة أهل الحق بالصدق فاصحب
وإن رمت إمداد العزيزان فأته على الرأس والعينين سعياً تقرب

ومن خوارقه قدس سره: أنه وقع بينه وبين أحد معاصريه ـ وهو السيد أتى ـ برودةٌ، فصدر منه ذات يوم ما ينافي الأدب بحقه ـ قدس سره ـ، فاتفق أن أغارت طائفة الأتراك ذلك اليوم على البلدة، فنهبوا وأسروا كثيراً من أهلها، ومن جملتهم ولد السيد أتى المشار إليه، فلما بلغه خبر ولده علم أن هذا مجازاة له من الله تعالى على ما وقع منه بحق العزيزان ـ قدس سره ـ، فجاء مسرعاً إلى حضرته، واعتذر منه، ودعا الشيخ ومن كان في مجلسه الشريف من العلماء والمشايخ إلى داره، ففهم ـ قدس سره ـ مراده، فلما حضروا فرش الخادم السفرة وأتى بالطعام، فقال الشيخ قدس سره: لا أمدّ يدي إلى طعامه حتى يحضر ولده ويأكل معنا، ثم سكت والجماعة ينظرون إليه فإذا بالباب يطرق ففتحوه فوجدوا الولد قد جاء ففزع الناس كلهم فزعاً شديداً، وأقبلوا عليه يسألونه عن كيفية خلاصه من الأسر، ووصوله إليهم، فقال: أنا لا أعلم نفسي إلا أني كنت في هذا الوقت عند الترك أسيراً ثم وجدتني عندكم، وكان بين البلدين مسافة عشرة أيام، فأذعن الحاضرون كلهم لفضله وكرامته على الله تعالى.

ومنها: أن أحد السادات جاء يوماً لزيارته ـ قدس سره ـ ولم يكن عنده شيء يكرم به ضيفه أصلاً، فجلس معه وهو مهتم لذلك، فما لبث أن جاءه أحد مريديه ـ وكان أبوه طباخاً ـ بقصعة من ثريد فوضعها بين يدي الشيخ، ثم وقف

بالذل والانكسار، وقال له: إني صنعت هذه على اسمك فأرجوك أن تتقبلها، فتهلل وجه الشيخ ـ قدس سره ـ سروراً بصدق خدمته وانكساره، وأكل هو وضيفه منها، ثم لما انصرف نادى الغلام، وقال له: بارك الله لك في رزقك وتقبل هديتك، اطلب مني ما تحب، فإنه يحصل لك إن شاء الله تعالى، وكانت همة الغلام عالية جداً، فقال له: إن أقصى مرادي أن أكون مثلك صورة وسيرة، فقال الشيخ: هذا أمر صعب لا تطيقه، فقال: لا أريد غيره، فأخذ الشيخ بيده وأدخله إلى خلوته، وتوجه إليه بكليته، وتفضل عليه بعليّ همته، فبعد ساعة خرج الغلام، وقد صار كالشيخ صورة وسيرة لا يقدر أحد أن يميز بينهما، وعاش أربعين يوماً، وقيل: أقل، ثم انتقل إلى رحمة الله عز وجل.

ولما جاءه الأمر الإلهي بالتحول من بخارى إلى خوارزم توجه في الحال إليها، فلما وصلها نزل عند باب سورها، وأرسل رسولاً إلى ملكها يقول له: ان فقيراً نساجاً قد قصد الدخول إلى بلادكم والإقامة بها، فإن أذنتم له دخل وإلا رجع، وأمره إن أذن له بالدخول أن يأخذ منه بذلك كتاباً مختوماً بخاتمه، فلما جاءه الرسول وعرض عليه ما أمر به سخر السلطان وأتباعه من كلامه، وقال على سبيل الاستهزاء: إن هؤلاء من أولي الحمق والبله، فاكتبوا له بما يريد، فلما أخذ الكتاب على الوجه المطلوب وأتى به إلى الشيخ دخل ـ قدس سره ـ المدينة، وطفق يشتغل بطريق السادات قدس الله أسرارهم، وكان يخرج كل يوم إلى أسواق المدينة ويقف عند أرباب الصنائع فيقول لهم: ما أجرتكم في اليوم؟ فيقولون له: كذا وكذا، فيقول لهم: أنا أعطيكم أجرتكم، وتعالوا فتوضؤا واجلسوا معنا اليوم واذكروا الله تعالى إلى الغروب، فكان كل من أجابه لذلك ببركة الشيخ وقوّة تصرفه يحصل له حال تمنعه عن مفارقته وتجذبه إلى صحبته ومتابعته، فما مضت أيام إلا وكثرت أتباعه ومريدوه، فمشى بعض الحساد إلى السلطان، ووشى إليه بأنه قد أتى إلى مدينتكم شيخ قد اجتمع عليه الناس، وكثر تلامذته وأصحابه، ويخشى من ذلك حدوث خلل في ملكك، وفتنة لا يمكن أحداً دفعها، فخاف السلطان وأتباعه من ذلك، وهموا بإخراجه ـ قدس سره ـ،

فلما بلغه أرسل الرسول المذكور بكتاب الإذن إلى السلطان، وقال له: اطلعه عليه، وقل له: إنه ما دخل إلا بإذنكم، فإن شئتم أن تبدلوا حكمكم فإنه يخرج، فلما وصل إلى السلطان أعطاه الكتاب وأخبره بمقالة الشيخ فخجل السلطان خجلاً عظيماً، ثم جاء لزيارة الشيخ واعتذر عما صدر منه إليه وأخلص له المحبة، فحصل له نفع عظيم على يديه.

توفي يوم الإثنين بين الصلاتين، ثامن عشر ذي القعدة الحرام سنة خمسة عشر أو إحدى وعشرين وسبعمائة، وقد عمر مائة وثلاثين سنة.

وكان له ولدان عالمان كاملان بلغا في حياته مبلغ الفضل والعرفان:

أحدهما الشيخ محمد خورد ـ بضم الخاء المعجمة، وسكون الواو، والراء المهملة، والدال المهملة ـ كان عمره حين توفي والده ثمانين سنة.

والثاني: الشيخ إبراهيم، ولما احتضر والده أجاز له الإرشاد من بعده، فخطر على قلب بعض المريدين أنه لِمَ لم يُجز الشيخ لولده الكبير ذلك مع أنه أكمل وأفضل من الصغير، فقال ـ قدس سره ـ من طريق الكشف: إن الشيخ محمد خورد لا يبقى بعدي إلا قليلاً، فمكث بعده تسعة عشر يوماً ثم توفي، وأما الشيخ إبراهيم فإنه عُمِّرَ بعده اثنين أو ستة وخمسين سنة.

وله خلفاء أربعة كانوا في الإرشاد على قدم الخلفاء الأربعة، وكل منهم اسمه محمد.

الأول: الشيخ محمد كلاه دوز.

والثاني: الشيخ محمد البلخي.

والثالث: الشيخ محمد الباوردي.

والرابع: وهو أعظم من سرى إليه سر هذه النسبة المعظمة، وشيخ هذه السلسلة المباركة المنظمة: الشيخ محمد بابا السماسي قدس الله سرهم.

* * *

سيدنا الشيخ محمد بابا السماسي

قدس الله سره العزيز

هو عالم الأولياء، وولي العلماء، تفرد في علمي الظاهر والباطن، وعمت بركاته كل المواطىء والمواطن، طالما أثار بهمته من المعارف كل كامن، كيف لا وهو خلاصة خاصة القرن الثامن، وفي الإسراء بأسرار الغيوب إلى الحرم الأقصى من القلوب، آية لا ينتهي أحد عن هداها، وغاية لا ينتهي أمد مداها، حجت إلى حرم كرمه العارفون، وطافت بكعبة إرشاده الطائفون، إذ كان من أعز خلفاء العزيزان.

ولد قدس سره سنة   في سماس-بسينين مهملتين، أولاهما مفتوحة بينهما ميم مشددة، وألف-قرية من قرى راميتن على ميل منها وثلاثة أميال من بخارى، واشتغل بقراءة العلوم النقلية والعقلية حتى أصبح علامة في كل الفنون، ثم صحب سيدنا العزيزان، ودأب على المجاهدات والرياضات، فامتاز على إخوانه بالفيوضات والكرامات، وبلوغ ختم المقامات، حتى اختاره خليفةً له عند وفاته، وأمر أصحابه بمتابعته وطاعته مدة حياته.

بشر ـ قدس الله سره ـ بظهور سيدنا الشيخ محمد بهاء الدين شاه نقشبند قبل ولادته، وذلك أنه كان كلما مر على قريته وهي قصر العارفان، كما سيأتي يقول لأصحابه: إني لأجد من هذه الأرض رائحة عارف، إلى أن مرّ مرة على تلك القرية، فقال لهم: إني أرى تلك الرائحة قد زادت، وكان هذا بعد ولادته قدس سره بثلاثة أيام، فما لبث أن جاء به جده إليه، فلما رآه قال له: هذا ولدي، ثم التفت نحو أصحابه وقال لهم: هذا العارف الذي طالما كنت أشير إليكم بأني أجد رائحته من هذه القرية وقريباً إن شاء الله تعالى يصير قدوة الخلائق، وأقبل على السيد الأمير كلال وقال له: إن هذا ولدي فلا تقصر في تربيته، ولئن قصرت في ذلك لا تجدني عنك راضياً أبداً، فقام السيد على

قدميه، وقال: قد قبلت خدمته على الرأس والعين لا أقصر إن شاء الله تعالى بها أصلاً.

وكان له بستان من العنب كثيراً ما يأتي إليه ويباشر تربية أشجاره بيديه، فكان كلما قطع غصناً يغيب عن شعوره، ويبقى كذلك ساعة أو ساعتين، حتى يرجع إلى حضوره.

توفي في سماس سنة   وله أربع خلفاء:

الأول: الشيخ صوفي السوخاري.

الثاني: نجله الشيخ محمود السماسي.

الثالث: الشيخ دانشمند علي.

الرابع: وهو واسطة عقد هذه السلسلة، وأعظم من سرى إليه سر هذه النسبة المبجلة: الشيخ السيد أمير كلال ـ قدس الله سره ـ، وبوأه في جنة الرضوان أعلى الأسرة.

* * *

سيدنا الشيخ السيد أمير كلال ابن السيد حمزة
قدس الله سره العزيز

زهرة خمائل الشمائل المحمديه، وسدرة منتهى ما يشتهى من المقامات العلويه، صاحب سدة الإرشاد وساحب أذيال الفيوضات والإمداد، كفء مخدرات الأسرار الغيبية، والمربي بأنفاسه الذكية أوابد النفوس الأبية، فهو للشريعة مجدّدها، وللطريقة سيدها، وللحقيقة مشيدها، وللخليقة مرشدها ومؤيدها، به نالوا ما نالوا من البركات، والعلوم الإلهية والإدراكات، وامتازوا في ديوان العارفين بالسيادة الغراء، ولا غرو فإن أولياء السادات سادات الأولياء.

ولد ـ قدس سره ـ سنة   في قرية سوخار ـ بضم السين المهملة، وسكون الواو، والخاء، والألف والراء المهملة ـ وهي على فرسخين من بخارى، وتوفي فيها سنة

ذكر في مقاماته عن والدته رحمها الله، أنها قالت: لقد كنت وأنا حامل به إذا تناولت لقمة من طعام مشبوه، أجد ألماً في نفسي، فلما تكرر معي هذا الأمر التزمت طريق الاحتياط في طعامي، فلم أجد بعد ذلك شيئاً، وكنت أرجو أن يجعل الله فيه الخير والبركة.

وذكر أنه لما بلغ سن الشباب اشتغل بفن المصارعة، فكان يجتمع عليه أرباب الشجاعة وأولو المعاركة والنظارة، فاتفق ذات يوم أن رجلاً من الواقفين خطر بباله أن هذا سيد شريف فكيف يشتغل بالمصارعة، ويسلك سبيل أهل البطالة، فلم يلبث أن غلب عليه النوم، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وأنه وقع في وحل عظيم فغرق فيه إلى صدره، واضطرب اضطراباً عظيماً، وفزع فزعاً كبيراً، فأتى إليه السيد أمير ـ قدس سره ـ وأنقذه من هذه الورطة، ثم أفاق فالتفت إليه حضرة السيد أمير، وقال له: أرأيت همتي وعلمت ما معنى المصارعة.

ومر سيدنا الشيخ محمد بابا السماسي مرة هو وأصحابه بمعتركه فوقف عنده، فقال بعض أصحابه في نفسه: كيف يقف الشيخ عند أهل هذه البدعة؟ فالتفت الشيخ نحو أصحابه في الحال، وقد كوشف بهذا الخاطر، وقال لهم: إن بين هؤلاء رجل ينتفع ببركة صحبته كثير من النّاس، وينالون أرفع الدرجات، فأنا أريد صيده، فحانت من السيد أمير نظرة إلى سيدنا الشيخ فانجذب في الحال إليه قلبه، فلما انصرف الشيخ تبعه السيد أمير حتى وصل إلى داره، فأدخله معه البيت، ثم لقنه الذكر وعلمه أصول الطريقة العلية، وقال له: الآن أنت ولدي، فلازم صحبته عشرين سنة مع الاشتغال بالذكر والفكر والعبادة والخلوة، حتى لم يره أحد هذه المدّة في سوق، ولا معترك، ولا غيره.

وكان يجيء كل يوم الاثنين والخميس من سوخار إلى سماس لزيارة الشيخ، وكان بينهما مسافة خمسة أميال، ولم يزل يشتغل هذه المدّة كلها بطريق السادات إلى أن بلغ فيه أعلى الدرجات، وعلت نسبته عن أمثاله، فغاب عن أعين قلوبهم في غيب سموات التجليات العاليات.

وولد له أربعة أولاد: السيد الأمير برهان الدين، والسيد الأمير حمزة والسيد الأمير شاه، والسيد الأمير عمر.

وكان له أربع خلفاء: وهم:

سيدنا الغوث الأعظم الشيخ: محمد بهاء الدين شاه نقشبند.

ومولانا الشيخ عارف الديك كراني، وديك كران ـ قرية من قرى بخارى على تسعة فراسخ منها ـ.

والشيخ يادكار الكنسروني: نسبة إلى كنسرون، ـ قرية من قرى بخارى على فرسخين منها ـ.

والشيخ: جمال الدين الدهستاني قدس الله أسرارهم، فأوصى كل خليفة من هؤلاء الأربعة بتربية ولد من أولاده على هذا الترتيب.

أما السيد الأمير برهان الدين ـ قدس سره ـ: فقد بالغ بتربيته سيدنا شاه نقشبند ـ رضي الله عنه ـ حتى أصبح برهاناً في العلوم الإلهية قاطعاً، وكوكباً في فلك السعادة ساطعاً، وكان والده يحبه كثيراً، ويقول: هذا برهاننا، ولكن غلب عليه الانزواء والخلوة والجذبة، فلم يشتغل بالإرشاد حتى توفي ـ قدس سره ـ.

وأما السيد الأمير حمزة ـ قدس سره ـ: فقد كان آية في الإرشاد، وقرة عين والده من بين أنجاله الأمجاد، وكان لا يدعوه إلا بوالدي، ولم يأل مولانا عارف الديك كراني جهداً في تربيته، وترقيته إلى معارج أسرته، حتى أصبح فرد زمانه من بين إخوته، فلما توفي والده السيد الأمير الكبير ـ رضي الله عنه ـ قام مقامه في تربية المريدين، وتحصيلهم أقصى مراد المهتدين، فأفلح على يده خلفاء حنفاء، وأصحاب بلا حساب، توفي مستهل شوال سنة ثمان وثمانمائة.

وأشهر خلفائه أربعة: الأول صفوة الأولياء وعلامة الأتقياء، العارف بالله تعالى: مولانا الشيخ حسام الدين ابن عمدة أكابر علماء بخارى، مولانا الشيخ حميد الدين الشاشي ـ قدس سره ـ فإنه كان بالإرشاد آية باهرة الإمداد، حتى أن مرزا الغ بك أكرهه على قبول القضاء، فوليه مدة شهور، ولم يزده ذلك إلا علو همة، ورفعة مقام في التربية والحضور.

قال سيدنا عبيدالله أحرار رضي الله عنه: وقد كان أصحابه يجلسون بعيداً منه في محل حكمه، ويستمدون منه الأسرار الإلهية، حتى إني حضرت مرة هنالك فجلست قبالة شباك المحل بحيث أراه ولا يراني، فلم أجده غافلاً عن شهود الحق وحضوره ساعة، بل ولا لمحة كأنه منفرد في نفسه، ما عنده أحد مع ما هو فيه من أمور القضاء والأحكام، وكان يبالغ في ستر حاله نفعنا الله به.

الثاني: نخبة المرشدين الشيخ كمال الدين الميداني ـ قدس سره ـ، نسبة إلى ميدان ـ قرية من قرى قصبة كوفين في ولاية سمرقند ـ كان من أكابر العلماء بالله تعالى، أعاد الله علينا من بركاته.

والثالث، والرابع: فرعا الشجرة النبوية وزينتا أولي الهداية المصطفوية، العارفان بالله تعالى: الشيخ السيد الأمير بزرك، والشيخ السيد الأمير خرد، وهما نجلا أخيه سيدنا برهان الدين الأكبر المشار إليه، وكانا من أعيان المربين الكرام.

ومن أشهر أصحاب السيد حمزة المنوه به أحد عشر مرشداً، وهم بالإجمال:

مولانا بابا شيخ مبارك البخاري، ومولانا الشيخ عمر الحداد البخاري - قدس سره -، ومولانا الشيخ أحمد الخوارزمي - قدس سره -، ومولانا الشيخ عطاء الله السمرقندي - قدس سره -، ومولانا الشيخ محمود الحموي - قدس سره -، ومولانا الشيخ حميد الدين - قدس سره -، ومولانا الشيخ نور الدين - قدس سره -، ومولانا السيد أحمد - قدس سره - الكرمانيون.

ومولانا الشيخ حسن - قدس سره -، ومولانا الشيخ تاج - قدس سره -، ومولانا الشيخ علي - قدس سره -، النسفيون.

وأما الأمير السيد شاه: فقد كان غاية في الفضل وعلو الهمة والإرشاد، ومحبة الفقراء وكمال الاستعداد، وقد أحسن تربيته مولانا يادكار - قدس سره - حتى صار من كبار العارفين بالله تعالى.

وأما الأمير السيد عمر - قدس سره -: فقد أجاد في تأهيله لكل كمال مولانا جمال الدين الدهستاني، إلى أن أشرق في سماء الهداية بدراتاما، توفي عام ثلاث وثمانمائة - قدس سره -.

«خلفاؤه الكرام»

الخليفة الأول: الولي الكامل الولايه، عمدة أهل الإرشاد والهدايه، مولانا الشيخ عارف الديك كراني - قدس سره -.

ولد في قرية ديك كران وتوفي بها، وهو إمام كبير الشأن، خدم الميركلال

حق الخدمة فأثنى عليه، وقال: ليس أحد من خلفائي مثل الشيخ بهاء الدين النقشبند ومولانا عارف.

وكان سيدنا النقشبند يبالغ بالثناء عليه، وقد صحبه ثلاثين سنة على غاية من الأدب في الخدمة، حتى كان إذا توضأ مولانا عارف من النهر لا يتوضأ من فوق محله، وإذا مشى لا يضع قدمه مكان قدمه.

وقال سيدنا النقشبند ـ قدس سره ـ: سافرت مرتين إلى الحجاز ودخلت زواياها ومدارسها وخلواتها، فما وجدت أحداً مثل مولانا عارف أو مقدار ذرة منه، ولو وجدت ذلك ما رجعت إلى هذه الديار، فإني أريد أن ألقى من يكون ظاهره مع الخلق، وسره فوق السموات السبع.

ومن كرامات مولانا عارف: أنه جاء يوماً سيل عظيم على قريته، فخاف أهلها من الغرق ففزعوا إليه، فخرج وجلس مكان طغيان الماء، وقال له: إن كان لك قوة فاحملني، فتراجع السيل وسكن.

ولما رجع سيدنا النقشبند من الحجاز، توطن مزواً، فأقبل إليه الناس من كل جانب، حتى اجتمع عنده من المريدين عالم كبير، فما لبث أن بعث إليه مولانا عارف رسولاً يستحثه على الحضور إليه، فسافر مخفاً حتى إذا وصل إليه، صرف أصحابه من عنده، وقال لهم: إن لي معه سراً، فلما انصرفوا قال له: إن أجلي قد قرب ولم يبق منه إلا يومان أو ثلاث، وإني نظرت في أصحابي وأصحابك فلم أجد أحداً فيه قابلية تامة إلا مُريدُك الشيخ محمد پارسا فكل ما أودعنيه الحق تعالى فقد أودعته إياه، فلا تقصر في تربيته فإنه صاحبك، فأمر أصحابه أن يتبعوه، ثم أوصاه إذا مات أن يغسل إناء الماء بيده، ويجلس على هيئة التشهد عند تسخين الماء، ويغسله ويكفنه ويدفنه، وبعد ثلاث يرجع إلى مرو، ففعل كل ما أوصاه به.

ومقامه في ديك كران خارج البلدة على طريق هزارة ـ قدس سره ـ.

وقد أنتج الله على يده خلقاً كثيراً، من أشهرهم:

الشيخ أشرف البخاري، وهو قائم مقامه في رتبة الإرشاد، ومولانا الأمير هشيار الديك كراني.

الخليفة الثاني: إمام أئمة الهدى وجوهرة العارفين: مولانا الشيخ جمال الدين الدهستاني - قدس سره -.

الخليفة الثالث: فذلكة المرشدين الكبار: مولانا الشيخ يادكار الكنسروني - قدس سره -.

ومن أصحاب حضرة الأمير العظام: مولانا الشيخ محمد خليفة، ومولانا الأمير كلان ومولانا الشيخ شمس الدين كلال، ومولانا الشيخ علاء الدين الكنسروني، ومولانا الشيخ الورازوني، نسبة إلى ورازون من ولاية بخارى، ومولانا بابا مبارك الكرميني، ومولانا الشيخ محمد الوابكيني، ومولانا بهاء الدين الطوايسي، ومولانا جلال الدين الطوايسي، ومولانا الشيخ سليمان، ومولانا الشيخ أيمن الكرمينيان، ومولانا الشيخ بدر الدين الميداني، وغيرهم ممن لا يحصون عدداً - قدس الله أسرارهم -.

الخليفة الرابع: سيد هذه الطريقة، وشيخ هذه السلسلة الأنيقة، وأعظم من سرى إليه سر هذه النسبة المطهرة فأحياها وزاد عزها وشرفها وعلاها: سيدنا الشاه نقشبند - قدس الله سره العزيز -.

***

الغوث الأعظم سيدنا الشيخ

محمد بن محمد بن محمد بهاء الدين الشاه نقشبند

الأويسي البخاري قدس الله سره العزيز

بحر من العرفان لا ساحل له، نسجت أمواج أمواه العلوم الربانية حلله، وفاض على العالمين بحر بره، فأروى بأرواح إمداده جميع الكون بحره وبره، كوكب تحلى تاج الإرشاد منه بالدر اليتيم، فلله درّ سحابة الأيام من أم أنجبت إذ انجابت عن هذا الإمام، ثم عادت وهي عن مثله عقيم، والشمس وضحاها، والأرض وما طحاها، لم يدع نفساً إلا بأنفاسه القدسية زكاها، ولا نار همة إلا بأسراره المحمدية أذكاها، ولا ظلمة جهل إلا بأنواره البهائية أخفاها، ولا شبهة خاطر إلا ببراهينه الجلية نفاها، إلى كرامات كريمات، وآيات عظيمات، طالما أحيت من القلوب مواتها، وآتت الأرواح أقواتها، ارتضع ثدي التصرفات الغوثية وهو في المهد صبياً، وتضلع من رحيق مختوم العلوم الختمية بأكواب الإرثية، فلو لم تختم النبوّة لكان نبياً[1]، فأعظم به من مجدّد، خفق قلب الخافقين فرحاً به، وأصبحت أكاسرة الملوك وقوفاً في رحابه، وملأ صيت إرشاده الملا، فلا وربك لم يبقَ أحد إلا استمد من إمداده حتى وحوش الفلا، فهو الغوث الأعظم، وعقد جيد المعارف الأنظم، انزاحت بأنوار هدايته أغيان الأغيار، وعادت الأشرار ببركة أسراره من أخيار الأعيان، وأعيان الأخيار.

ولد ـ قدس الله سره ـ في شهر محرم الحرام، سنة سبع عشرة وسبعمائة في قصر العارفان ـ قرية من قرى بخارى على فرسخ منها ـ والألف والنون في

---

(١) قوله (لكان نبيا): في الحديث: «لو كان نبي بعدي لكان عمر». فلما قيست أحواله وأخلاقه بأحوال عمر وأخلاقه، انطبق عليه معنى هذا الحديث فأطلق عليه. ولا تنس معنى لو في اللغة. (ع).

العارفان علامة الجمع في اللغة الفارسية، وكانت مخائل الولاية في غرته الطاهرة ظاهرة، وعلائم السعادة على كرائم أحواله بادية بادرة، أتحفه الله تعالى منذ كان طفلاً بالكرامات الزاهية الزاهرة.

تلقى هذه الطريقة العلية في الظاهر من سيدنا الشيخ محمد بابا السماسي، ثم من بعده صحب السيد أمير كلال، وفي الحقيقة كان أويسياً ربته روحانية مولانا الشيخ عبد الخالق الغجدواني ـ قدس الله سرهم ـ.

بداية هدايته وهداية بدايته

قال ـ قدس الله سره ـ: أرسلني جدي وكان سني وقتئذٍ نحو ثمان عشرة سنة إلى سماس، لخدمة العارف الكبير، والمرشد الشهير الشيخ محمد بابا السماسي باستدعاء منه لي، فلما نلت الحصول إليه لم يأت وقت الغروب إلا وقد وجدت ببركته بنفسي سكينة وخشوعاً، وتضرعاً ورجوعاً، ثم إني قمت وقت السحر فتوضأت، وأتيت المسجد الذي فيه أصحابه فأحرمت بالصلاة، فلما سجدت دعوت الله تعالى وتضرعت إليه كثيراً، فمر على لساني في أثناء دعائي: إلهي أعطني قوة على تحمل البلاء ومحنة المحبة، ثم إني صليت الفجر مع الشيخ ـ قدس سره ـ فلما انصرف من الصلاة: التفت إليّ وذكر لي كل ما صدر مني على طريق الكشف، ثم قال لي: يا ولدي! ينبغي أن تقول في دعائك: إلهي أعطِ هذا العبد الضعيف ما فيه رضاك، فإنه تعالى لا يرضى أن يكون عبده في بلاء، وإن ابتلى حبيبه على مقتضى حكمته يعطه قوّة على تحمله، ويطلعه على حكمته، فلا ينبغي للعبد أن يختار البلاء فإنه ينافي مقام الأدب.

وقال ـ قدس سره ـ: لما توفي حضرة الشيخ محمد بابا السماسي، أخذني الجد إلى سمرقند، فكان كلما سمع برجل صالح من أهل الله حملني إليه، وسأله الدعاء لي فكانت تنالني بركتهم، ثم أتى بي إلى بخارى وزوجني بها، وكانت إقامتي في قصر العارفان، ومن العناية الإلهية بي أنه وصلت إليّ قلنسوة

العزيزان في تلك الأوقات، فتحسنت أحوالي، وقويت آمالي، إلى أن حظيت بصحبة السيد أمير كلال ـ قدس سره ـ، وأخبرني بأن حضرة الشيخ محمد بابا السماسي ـ قدس سره ـ أوصاه بي، وقال له: لا تأل جهداً بتربية ولدي محمد بهاء الدين، ولا بالشفقة عليه ولست مني في حل إن قصرت في ذلك، فقال له ـ قدس سره ـ: إن أنا قصرت في هذه الوصية فلست برجل، ثم وفّى وعده.

وقال ـ قدس سره ـ: مبتدأ يقظتي وتوبتي أني كنت جالساً مع صاحب لي في خلوة، فبينما أنا ملتفت إليه أكلمه، إذ سمعت قائلاً يقول لي: أما آن لك أن تعرض عن الكل، وتتوجه إلى حضرتنا! فحصل لي من سماع هذا الكلام حال عظيم، وخرجت مسرعاً من ذلك البيت لا يقر لي قرار، وكان قريباً منه ماء فاغتسلت منه وغسلت ثيابي، وفي تلك الحالة من الإنابة صليت ركعتين، طالما مضت عليّ أعوام وأنا أتمنى أن أصلي مثلهما، فلم أتمكن من ذلك.

وقال ـ قدس سره ـ: قيل لي في بداية الجذبة: كيف تدخل في هذا الطريق؟ فقلت: على أن يكون كل ما أقوله وأريده، فقيل لي: كل ما نحن نقوله يجب أن يفعل، فقلت: لا أطيق ذلك، بل إن كان كل ما أقوله يصير أضع قدمي في هذا الطريق وإلا فلا، وتكرر ذلك مرتين، ثم تركوني ونفسي خمسة عشر يوماً، فحصل لي يأس عظيم، ثم بعد ذلك قيل لي: إن الذي تريده يكون، فقلت: أريد طريقة كل من دخلها تشرف بمقام الوصول.

اجتهاداته ومجاهداته

قال ـ قدس الله سره ـ: خرجت يوماً في حال غلبة الجذبة والغيبة هائماً على وجهي أذهب كل مذهب، ولطالما تجرحت قدماي من الشوك، حتى إذا دنا الليل جذبتني زيارة السيد أمير كلال ـ قدس سره ـ، وذلك في فصل

الشتاء وشدة البرد وليس على ظهري إلا فروة عتيقة، فلما وصلت إلى منزله وجدته جالساً بين أصحابه، فحينما أبصرني سأل عني فعرفوه بي، فقال: أخرجوه من هذا المنزل، فلما خرجت أوشك أن تنفر نفسي وتطغى وتجذب مني عنان الانقياد والتسليم، ولكن تداركتني عناية الله ورحمته فقلت: إني لأتحمل كل مذلة في ابتغاء مرضات الله تعالى، وهذا هو الباب فلا مندوحة لي عنه، ثم وضعت رأس التواضع والانكسار على عتبة العز، وقلت لنفسي: إني لا أرفع عن هذه العتبة رأسي ولو حصل لي مهما حصل، ذلك والثلج ينزل شيئاً فشيئاً عليّ، والهواء شديد البرودة جداً، ولم أزل كذلك حتى قرب وقت الفجر، فخرج السيد ـ قدس سره ـ فوقع قدمه الشريف على رأسي، فلما أحس بي رفع رأسي عن العتبة، وأدخلني المنزل وبشرني، فقال لي: يا ولدي! إن ثوب هذه السعادة على قدر ذاتك، ثم جعل يخرج بيده الشريفة ما في قدمي من الشوك، ويمسح ما أصابهما من الجراحة ويمدّني بفيوضاته الوافرة، وألطافه الباهرة قدس الله سره.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كنت في بخارى والسيد كلال في نسف، فوجدت في نفسي داعية لزيارته، فبادرت لذلك في الحال، فلما وصلت إلى مقامه وسلمت عليه، قال لي: يا ولدي! لقد جئت في وقت الحاجة، فإنّا هيأنا المطبخ، ونريد من يحتطب لنا، فشكرته على هذه الإشارة، وذهبت وأتيت بالحطب أحمله على ظهري، وفيه من الشوك ما فيه وأنا أنشد ـ وأنشد بيتاً بالفارسية معربه ـ:

جمـال كعبـة مقصـودي ينشطنـي فالشوك كالخز عندي حين أحمله

وقال ـ قدس الله سره ـ: توجهت يوماً وأنا في حال غلبة الجذبة إلى زيارة السيد كلال في نسف، فلما أن وصلت إلى رباط الجغرائي، إذا أنا بفارس في يده عصا جسيمة، وعلى رأسه لبدة، فدنا مني وضربني بتلك العصا، وقال لي بالتركية: هل رأيت الخيل؟ فلم أجبه بشيء، فجعل يعترضني في الطريق ويشوش عليّ مسيري، فقلت له: إني أعلم من أنت،

فتبعني إلى رباط قراول، ثم دعاني إلى صحبته فلم ألتفت إليه ولم أكلمه ومضيت، فلما أتيت إلى حضرة الشيخ، قال لي: إن الخضر عليه السلام قد لقيك في الطريق، فلِمَ لَمْ تلتفت إليه، فقلت له: لأني لما كنت متوجهاً إليكم لم أشتغل بسواكم.

وقال ـ نضر الله وجهه ـ: كنت أوائل السلوك وغلبة الأحوال عديم القرار، أدور الليل في نواحي بخارى وأزور القبور، فزرت ليلة ضريح الشيخ محمد بن واسع[1] ـ قدس سره ـ فوجدت عنده سراجاً، وفيه دهن واف، وفتيلة طويلة، غير أن الفتيلة تحتاج إلى تحريك قليل حتى يخرج الدهن ويتجدد نورها، فما لبثت أن وقعت الإشارة إليّ بالتوجه إلى زيارة ضريح الشيخ أحمد الأجغريوي ـ قدس سره ـ، فلما وصلت إليه إذا بسراج هنالك مسرج كذلك، وإذا أنا برجلين قد أتيا فربطا على وسطي سيفين، وأركباني حماراً ووجهاه إلى جهة ضريح الشيخ مزداخن ـ قدس سره ـ، فلما وصلناه رأيت ثَمَّ سراجاً كاللذين قبله، فنزلت وجلست متوجهاً إلى نحو القبلة، فوقع لي في ذلك التوجه غيبة، فرأيت في تلك الغيبة أن الجدار القبلي قد انصدع، وظهرت دكة عالية عليها رجل عظيم المقدار، قد أسبل أمامه ستر، وحول الدكة جماعة فيهم: الشيخ محمد بابا السماسي ـ قدس سره ـ؛

فقلت في نفسي: ليت شعري من هذا الرجل العظيم؟ ومن حوله؟

فقال لي أحدهم: أما الرجل العظيم فهو: الشيخ عبد الخالق الغجدواني، وأما الجماعة: فهم خلفاؤه، وجعل يشير إلى كل واحد منهم، ويقول: هذا الشيخ أحمد الصديق، وهذا الشيخ أوليا الكبير، وهذا الشيخ عارف الريوكري، وهذا الشيخ محمود الانجيرفغنوي، وهذا الشيخ علي

---

(١) محمد بن واسع بن جابر (٠٠٠ ـ ١٢٣ هـ) الأزدي: فقيه، ورع، من الزهاد. من أهل البصرة، عرض عليه قضاؤها فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث. «الأعلام» (٧/ ١٣٣).

الراميتني، ولما بلغ إلى الشيخ محمد بابا السماسي، قال: وهذا قد رأيته في حال حياته، وهو شيخك وقد أعطاك قلنسوة أفتعرفه؟ فقلت: نعم، وكان قد أتى على قصة القلنسوة حين من الدهر فنسيتها، ثم قال: وهي في بيتك وقد رفع الله عنك ببركتها بلاء عظيماً قد كان حل بك، فقال لي الجماعة: اصغ بسمعك فإن حضرة الشيخ الكبير ـ قدس الله سره ـ يريد أن يتلو عليك ما ليس لك عنه غنى في سلوك طريق الحق، فسألتهم: أن أسلم عليه، فأزاحوا ذلك الستر فسلمت عليه فبدا يتكلم على ما يتعلق بأحوال السلوك أوله ووسطه ومنتهاه، إلى أن قال: وأما تلك السرج التي رأيتها على تلك الكيفية، فإنما هي لك بشارة وإشارة إلى أن لك استعداداً تاماً وقابلية لهذا الطريق، غير أنه ينبغي تحريك فتيلة الاستعداد، حتى تقوى الأنوار وتظهر الأسرار، فأدِّ القابلية حقها تبلغ الأوطار، وعليك بالاستقامة والثبات على جادةالشريعة المطهرة في جميع الأحوال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ بالعزيمة والبعد عن الرخصة والبدعة، وأن تجعل قبلتك أحاديث المصطفى ﷺ، وتفحص عن أخباره وآثاره وأحوال أصحابه الكرام، ثم بالغ بالتحريض والحث على ذلك.

ولما أن أتم كلامه ـ قدس الله سره ـ قال لي خليفة الشيخ ـ قدس سره ـ: وآية صدق هذه الواقعة أن تذهب غداً عند مولانا شمس الدين الانبيكوتي، وتخبره بأن ما يدعيه فلان التركي على السقا هو صحيح، والحق مع التركي وأنت تساعد السقا، فإن أنكر السقا صحة هذه الدعوى فقل له: عندي شاهدان، الأول: أنك يا سقا عطشـان، فهو يعرف معنى هذه الكلمة، والثاني: أنك أتيت امرأة أجنبية فحملت منك فسعيت بإسقاط الحمل، ودفنته في الموضع الفلاني تحت كرمة.

ثم قال: فإذا بلغت هذه الرسالة لمولانا شمس الدين فخذ في اليوم الثاني ثلاث حبات من زبيب واذهب إلى نسف لخدمة السيد كلال، وستجد في المحل الفلاني من الطريق شيخاً يعطيك رغيفاً حاراً فخذه منه ولا تكلمه وامضِ في طريقك، فتمر على قافلة إذا جاوزتها استقبلك فارس فانصحه، فإنه ستكون

توبته على يديك، وخذ معك قلنسوة العزيزان إلى السيد كلال، ثم بعد ذلك حركوني فرجعت إلى نفسي.

يقول ـ قدس الله سره ـ: فلما أصبحت ذهبت إلى منزلي في زيورتون، وسألت أهلي عن القلنسوة: فأتوني بها، وقالوا: إن لها في ذلك الموضع مدة مديدة، فلما رأيتها أتاني حال عظيم وبكاء شديد، فأخذتها وتوجهت ساعتئذٍ إلى انبيكتة ـ قرية من قرى بخارى ـ فأتيت مسجد مولانا شمس الدين، وصليت معه الصبح، ثم بلغته ما أرسلت به إليه، فتحير وكان السقا ثَمَّ حاضراً، فأنكر صحة دعوى التركي، فأقمت عليه البينة السابقة فكذب أمر الفاحشة، فذهب جماعة ممن في المسجد إلى ذلك الموضع فحفروه، فوجدوا السقط مدفوناً فيه، فطفق السقا يعتذر، وبكى مولانا شمس الدين وجماعة المسجد، وحصل لهم أحوال عظيمة.

يقول ـ قدس سره ـ: ثم عَزمتُ في اليوم الثاني على التوجه إلى نسف، من الطريق الذي عينوه لي في الواقعة، وأخذت معي ثلاث حبات من زبيب، فبلغ مولانا توجهي فأرسل إليّ، ولاطفني كثيراً، وقال: إني أرى آلام الطلب قد استولت عليك، وأثرت بك لوعة الحصول على الوصول، وشفاؤك عندنا، فأقم لنؤدي حق تربيتك، ونبلغك أقصى بغيتك، على مقتضى علوّ همتك، فرأيتني أقول له: أنا ولد غيركم، ولو جعلتم ثدي التربية في فيّ لا أقبله فسكت، وأذن لي بالسفر، فتحزمت بحزام لي، وأمرت شخصين أن يشداه من الطرفين ليكون في غاية الإحكام، وسرت، فلما وصلت المكان الذي ذكر لي، لقيت فيه شيخاً فأعطاني رغيفاً حاراً، فأخذته ولم أكلمه، ومضيت فإذا أنا بقافلة، فسألني أهلها: من أين أتيت؟ فقلت لهم: من انبيكتة، قالوا: متى خرجت منها؟ فقلت لهم: وقت طلوع الشمس، وكان ذلك عند الضحى، فعجبوا من ذلك، وقالوا: إن بين القرية وهذا المحل أربعة فراسخ، ونحن خرجنا أول الليل، ثم بارحتهم وسرت، فما نشبت أن استقبلني فارس، فحينما وصلت إليه سلمت عليه، فقال لي: من أنت؟ فإني أجدني خائفاً منك، فقلت

له: أنا الذي تكون توبتك على يديه، فتحوّل بالحال عن فرسه، وأظهر كمال التواضع والتضرع وتاب، وكان معه أحمال من خمر فأهرقها كلها، ثم جاوزته وقد دخلت حدود نسف، فقصدت مقام السيد أمير كلال، فلما تشرفت برؤيته وضعت القلنسوة بين يديه فسكت برهة طويلة، ثم قال: هذه قلنسوة العزيزان، فقلت له: نعم! فقال: صدر الأمر بأن تحفظ ضمن عشرة أغشية، فأخذتها وفعلت كما أمر، وبعد ذلك لقنني الذكر بالنفي والإثبات خفية، وأمرني بالاشتغال به فتابعته على ذلك، ولكوني أمرت في الواقعة بالأخذ بالعزيمة لم أذكر بالجهر، ثم لازمت العلماء لاقتباس أنوار العلوم الشرعية منهم، واقتفاء آثار رسول الله ﷺ، وقراءة أحاديثه الشريفة، والبحث عن أخلاقه، وأحوال أصحابه الكرام، والعمل بها كما أمرت، فوجدت لذلك تأثيراً تاماً، ونفعاً عظيماً، وكل ما تكلم به حضرة الشيخ عبد الخالق ـ قدس سره ـ مرّ عليّ، وظهرت لي نتيجة كل أمر في وقته. ا. هـ. وبهذا يتبين لك ما تقدم من أنه ـ قدس سره ـ كان أويسياً ربته روحانية سيدنا عبد الخالق ـ قدس الله سرهما ـ.

إفصاح

قال سيدي الجد ـ قدس سره ـ في «البهجة السنية» من فصل ترجمته سيدنا البهاء ـ قدس الله سره ـ ما ملخصه:

اعلم أن من زمن الشيخ محمد الانجيرفغنوي إلى زمن السيد أمير كلال، كانوا يجتمعون للذكر بالجهر، أي: وكانوا إذا انفردوا يذكرون خفية، فلما تلقى سيدنا البهاء ـ قدس سره ـ هذه الطريقة العلية اقتصر على الذكر الخفي أخذاً بالعزيمة، حتى كان إذا اجتمع أصحاب الأمير كلال ـ قدس سره ـ وشرعوا بالذكر يقوم من بينهم، فكان يشق ذلك عليهم، ويسيء بعضهم به الظن وهو لا يلتفت إليهم، ولا ينظر إلى مراعاة خواطرهم، مع تمام محافظته على خدمة الأمير ـ قدس سره ـ، ورعاية الآداب الواجبة في حقه، وكمال الاستسلام

والانقياد لأوامره، والأمير ـ قدس سره ـ يزداد كل يوم التفاتاً إليه، واعتناء بشأنه، واهتماماً بتربيته.

ولم يزل في صحبته حتى اجتمع ذات يوم أصحاب الأمير ـ قدس سره ـ لعمارة مسجده، وكانوا زهاء خمسمائة، فبعد فراغهم جلسوا كلهم عنده، فالتفت إلى من كان يسيء الظن بحضرة البهاء، وينسبون إليه النقص والتقصير عند الأمير، وقال لهم: كل ما تظنونه بالشيخ بهاء الدين إنما هو غلط وغير صحيح، فإن الله تعالى قد قبله، ولكن ما عرفتموه، ونظري والتفاتي إليه كان تابعاً لقبوله تعالى، ثم دعا به ولم يكن حينئذٍ حاضراً، بل كان ينقل لبن المسجد، فلما حضر قال له: يا ولدي إني قد وفيت حق وصية الشيخ محمد بابا السماسي ـ قدس سره ـ في شأنك، ثم أشار إلى ثديه، وقال له: إنك قد ارتضعت ثدي التربية حتى نضب، ولم تزل قابليتك في علو واستعدادك في قوّة، فقد أجزت لك أن تسعى في طلب المشايخ فتستفيد منهم، وتستفيض على مقتضى عظمة همتك.

قال سيدنا البهاء: فكانت هذه الإشارة من السيد ـ قدس سره ـ سبب ابتلائي.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ثم صحبت مولانا عارف الديك كراني سبع سنين، ثم مولانا قثم شيخ.

ونمت ليلة فرأيت الحكيم اتا ـ قدس سره ـ، وكان من أكابر مشايخ الترك وهو يوصي بي درويشاً، فلما انتبهت بقيت صورة الدرويش في مخيلتي، وكانت لي جدة صالحة، فقصصت عليها هذه الرؤيا، فقالت: سيكون لك يا ولدي من مشايخ الترك نصيب، فلم أزل أتوخى لقاء هذا الدرويش، حتى لقيته في بخارى فعرفته، وكان اسمه خليل غير أني لم أتمكن ساعتئذٍ من صحبته، فذهبت إلى البيت وأنا مشغول البال، فلما كان وقت المغرب أتاني شخص فقال لي: إن الدرويش خليل يريدك، فأخذت في الحال هدية الزيارة وأسرعت بالذهاب إليه، فلما تشرفت بلقائه أردت أن أخبره بتلك الرؤيا، فقال

بالتركي: إني أعلم ما رأيت فلا حاجة إلى البيان، فمال قلبي إليه وحصل لي تأثير عظيم من كلامه، ونلت بصحبته أحوالاً عالية، حتى أن أهل ما وراء النهر قد ولوه بعد مدة عليهم سلطاناً، فما تركت ملازمته، بل كنت أشاهد منه في أيام سلطنته أحوالاً عظيمة، فيزداد قلبي حباً به، ويزداد هو تربية لي، وترقية لأحوالي، ورأفة بي؛ ولطالما علمني من آداب الخدمة ما نفعني كل النفع في معرفة آداب السير والسلوك.

وأقمت في صحبته ست سنين مدة سلطنته، فكنت في الجلوة مراعياً لآداب خدمته، وفي الخلوة محرم خاصة صحبته.

وكثيراً ما كان يقول لي حضرة خواص أصحابه: كل من يخدمني ابتغاء مرضاة الله تعالى يصير عند الناس عظيماً.

وكنت أعلم ماذا أراد بهذا الكلام ومن أراد، فإنه يشير إليّ بأن تعظيم الملوك وإجلالهم لا ينبغي أن يكون لعظمتهم وسطوتهم الظاهرة، بل لأنهم مظهر لجلال مالك الملك سبحانه وتعالى.

ثم بعد حين آل ملكه إلى الزوال، وتحوّلت بانتقاله الأحوال، وأصبح في لحظة ذلك العز والخدم والحشم هباء منثوراً، فزادني ذلك في الدنيا زهداً وعن أعمالها فتوراً، ورجعت إلى بخارى، وأقمت في زيورتون.

وقال ـ قدس الله سره ـ: لقيت أوائل الطلب والجذبة رجلاً من أحباب الله، فقال لي: الظاهر أنك من الأصحاب، فقلت: أرجو من بركة نظر الأحباب أن أكون من الأصحاب.

فقال لي: كيف تعامل الوقت؟ فقلت له: إن وجدت شكرت، وإلا صبرت.

فتبسم وقال: هذا سهل، وإنما الأهم أن تكلف نفسك انها إذا فقدت الطعام والشراب أسبوعاً لا تعصك.

فتواضعت له، وأقبلت عليه، وطلبت منه الإمداد. فأمرني بالاشتغال بجبر

الخواطر، وخدمة العاجزين، والضعفاء المنكسرين، الذين لا يكترث بهم أحد من الناس مع المحافظة على تمام المسكنة، والتواضع والانكسار، فامتثلت أمره وصرفت في ذلك أياماً كثيرة.

ثم بعد ذلك أمرني بخدمة الحيوانات، ومداواة أمراضهم، ومداراة جروحهم وقروحهم بنفسي مع الإخلاص في ذلك والتذلل.

فنهضت بأعباء هذه الخدمة كما أمرني، حتى كنت إذا لاقاني في الطريق كلب وقفت حتى يمر هو أولاً لئلا أتقدّم عليه، ولم أزل كذلك سبع سنين.

ثم بعد ذلك أمرني أن أشتغل بخدمة كلاب هذه الحضرة بالصدق والخضوع، وأطلب منهم الإمداد[1]. وقال لي: إنك ستصل إلى كلب منهم تنال بخدمته سعادة عظيمة، فاغتنمت نعمة هذه الخدمة، ولم آل جهداً بأدائها حسب إشارته ورغبة ببشارته، حتى وصلت مرة إلى كلب فحصل لي من لقائه أعظم حال فوقفت بين يديه، واستولى عليّ بكاء شديد، فاستلقى في الحال على ظهره ورفع قوائمه الأربع نحو السماء، فسمعت له صوتاً حزيناً وتأوهاً وحنيناً، فرفعت يدي تواضعاً وانكساراً، وجعلت أقول: آمين، حتى سكت وانقلب.

وخرجت يوماً من تلك الأيام إلى بعض الجهات، فوجدت حرباء قد استغرقت في رؤية جمال الشمس، فاعتراني من مشاهدتها وجد، وخطر لي أن أطلب الشفاعة منها وهي في هذا المقام، فوقفت على أتم هيئة من الأدب والاحترام، ورفعت يدي فرجعت من استغراقها، واستلقت على ظهرها، وتوجهت إلى السماء، وأنا أقول: آمين.

---

(١) قوله (منهم الإمداد): قال تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ فالممدُّ هو الله، وعلى يد خلقه يكون الإمداد. وقد قال عليه الصلاة والسلام عن ناقته: «حبسها حابس الفيل». وقال: «دعوها فإنها مأمورة» ودعا على ابن أبي لهب بقوله: «اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك» ويحتمل أن تلك الكلاب من عالم الجن المتشكل، ولهم مقامات في العلم والصلاح. (ع).

ثم بعد ذلك أمرني بإماطة الأذى عن الطريق، فثابرت على ذلك سبع سنين بحيث لا يُرى أبداً كمي أو ذيلي خالياً من تراب السبل أو أحجارها.

هذا وكل ما أمرني به ذلك العزيز فعلته بصدق طوية وإخلاص نية، ووجدت منه النتائج النفيسة في نفسي والترقي التام في أحوالي.

وقال - قدس الله سره -: بت ليلة مع الأصحاب في منزل بزيورتون فاحتلمت، فخرجت ليلاً لأغتسل، وكان ذلك في فصل الشتاء، والمياه كلها قد جمدت، فكنت كلما أتيت ماء أجده جامداً من شدة البرد، ولم أجد ما أكسر به الجليد، ولا أخبرت بذلك أحداً من أصحابي، لئلا أشق عليهم، وما معي إلا فروة عتيقة، فلما يئست ذهبت من زيورتون إلى منزلي في قصر العارفان، وصرت أفتش على ما أكسر به الجليد، وما أطلعت أحداً من أهلي على ذلك، فبعد استيعاب المنزل وما حوله، وجدت على حافة حوض قرب المسجد إناء يغترفون به الماء، فجعلت أكسر به الجليد، وأصابني مشقة تامة من ذلك، حتى تجرحت يدي، ثم أخذت به الماء واغتسلت، فبردت برداً شديداً، فلبست تلك الفروة، وفي تلك الساعة مع هذا البرد الشديد رجعت من قصر العارفان إلى زيورتون.

وقال - قدس الله سره -: كنت يوماً من أيام الأحوال في ذلك البستان - وأشار إلى البستان الذي هو الآن محل ضريحه الأنور - أنا وجماعة من المتعلقين بي، فغلبت عليّ الجذبات الإلهية، ولطف العنايات الربانية، واضطربت اضطراباً عظيماً لم أطق معه الثبات ولا الاشتغال، وأنا مستريح، فقمت مسلوب القرار وجلست مستقبل القبلة، فحصل لي وقتئذ غيبة، اتصلت بالفناء الحقيقي وحقيقة الفناء في الله عز وجل، ورأيت أني في صورة نجم في بحر من نور بلا نهاية، واني انمحيت فيه ولم يبق بي من الحياة الظاهرة أثر، ففزع الحاضرون وبكوا في تلك الحالة عليّ، ثم بعد ست ساعات ردت إليّ بشريتي شيئاً فشيئاً.

ونقل أنه لما حاصر عسكر القبجاق مدينة بخارى اتخذ أهلها السطوح مبارز

من فرط الازدحام، فكان ـ قدس الله سره ـ يوماً جالساً مع أصحابه على سطح أعدّه للصلاة، إذ دخل عليه رجلان من طلبة العلم مخلصان لجنابه، فأمرهم أن ينظفوا السطوح التي حول سطحه من الأقذار، وقال: إني طالما نظفت مبارز مدارس بخارى.

وقال ـ قدس الله سره ـ: لا ينفع سالك هذا الطريق إلا البذل والمسكنة وعلوّ الهمة، فإني أنا ما أدخلوني إلا من هذا الباب، وما نلت ما نلت إلا من ذلك.

وقال ـ قدس الله سره، ورفع في الملأ الأعلى قدره ـ: نفي الوجود[(١)] وعدم رؤية النفس في هذا الطريق هو رأس مال دولة القبول والوصول، وإني في هذا المقام نسبت نفسي إلى كل طبقة من طبقات الموجودات، فوجدت كل فرد منها في الحقيقة أحسن مني.

حتى أني وصلت إلى طبقة الفضلات[(٢)] فرأيت لها منفعة ولم أرَ لي منفعة.

ثم وصلت إلى فضلة الكلب فقلت: ما لها نفع، فحكمت على نفسي بأنها مثلها، ثم تبين لي بعدُ، أنّ لتلك الفضلة نفعاً، فحينئذٍ تحققت أنه ليس لي نفع أصلاً.

وقال ـ قدس الله سره ـ: طفت ليلة جول زيورتون فوصلت إلى أكمة هنالك، فورد عليّ حال عجيب فقيل لي: اطلب من حضرتنا ما أردت، فقلت مع التواضع والخضوع: إلهي! هب لي قطرة من بحار رحمتك وعنايتك فقيل لي: تطلب من كرم حضرتنا قطرة. فأخذني حال أعظم، وهزتني الأريحية وعلو الهمة، فلطمت وجهي لطمة قوية وجدت ألمها أياماً، وقلت: يا كريم! هب لي

---

(١) قوله (نفي الوجود): نفي الوجود الممكن عبارة عن الفناء عنه في الشهود، لا في الوجود الخارجي، لأنه واجب عرضي بعد بروزه، فأعمال العارفين ومقاماتهم في الظاهر موجودة وفي الباطن غير مشهودة (ع).

(٢) قوله (الفضلات): من حيث استحالتها إلى سماد طبيعي تنتفع به الأراضي. (ع).

بحار رحمتك وعنايتك مع القوّة على تحملها. فظهر لي على الفور أثر الموهبة والعناية وببركة ذلك بلغت ما بلغت.

وقال ـ قدس الله سره، وشرف في الدارين قدره ـ يوماً لأصحابه يعلمهم علو الهمة: لستم في حل مني إن لم تكن همتكم في طلب المقصود أن تضعوا أقدامكم على رأسي وترتقوا.

وقال ـ قدس الله سره ـ في بيان أحوال سلوكه، وآثار تأثير الاستمداد من روحانية السادة الأمجاد: إن التوجه لروحانية سيدنا أويس القرني له أعظم تأثير في الانقطاع التام، والتجرد الكلي عن العلائق الباطنة والظاهرة، والتوجه لروحانية الإمام محمد بن علي الحكيم الترمذي يوجب محو الصفة[1].

وقال جامع مناقبه مولانا صلاح ـ قدس سره ـ: كنت عند الشيخ سنة تسع وثمانين وسبعمائة، فسمعته يقول: إن لي اثنين وعشرين سنة وأنا على قدم الحكيم الترمذي، فإنه كان لا صفة له وأنا الآن لا صفة لي،عرف ذلك من عرف.

وقال ـ قدس الله سره ـ: وضعنا القدم في هذا الطريق ونحن مائتا شخص، فاجتهدت أن أسبق الجميع، فأدركتني عناية الله تعالى فسبقتهم، ووصلت إلى المقصود.

وله اجتهادات قوية، ومجاهدات غير هذه كلية، تعلم من الوقوف على مقاماته، نفعنا الله والمسلمين ببركاته.

وقد حج ثلاث مرات، ومر أخيراً بمرو فأقام بها مدّة، ثم انتقل إلى بخاري وأقام في قصبر العارفان، وكان يعرف قبل بقصر الهندوان، فطار صيت إرشاده كل مطار، وقصدت رحابه بالرحلة من كافة الأقطار، واشتعل به الكون نورا، وتبدلت غيوم القلوب بعلوم الغيوب، وشرور النفوس سروراً، وأصبح يبث من العلوم الغيبية، والأسرار الوهبية، والمعارف الأحدية، والفيوضات المحمدية،

---

(١) قوله (محو الصفة): وفي الحكم: تحقق بوصفك يمدّك بأوصافه. (ع).

ما لا يحيط به محيط، وكيف يحاط بالبحر المحيط.

وله آيات بينات هنّ على جلالته بينات:

بينات آياته وآيات بيناته

قال ـ قدس الله سره ـ: في قوله في الحديث القدسي: «نفسك مطيتك فارفق بها»: إشارة إلى النفس المطمئنة المتشرفة بخلعة ﴿إلا ما رحم ربي﴾ وقد يحصل لبعض الأولياء حال بحيث يصلون في الانقياد إلى مقام إذا أمروا بشيء لا تمكنهم المخالفة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: في معنى قوله ﷺ: «أمط الأذى عن الطريق»[1]، المراد من الأذى النفس، ومن الطريق طريق الحق، كما قيل لأبي يزيد ـ رضي الله عنه ـ: خل نفسك وتعال.

وسئل ـ قدس الله سره ـ عن اختلاف أقوال الخلفاء الأربعة الراشدين رضوان الله عليهم:

فقد قال الصديق الأكبر: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، وقال سيدنا عمر: بعده، وقال سيدنا عثمان: معه، وقال سيدنا علي: فيه.

وكان ذلك في بغداد في مجلس غاص بالعلماء وكبار المشايخ، فقال ـ قدس الله سره ـ ما حاصله: اختلاف الأقوال بسبب اختلاف الأحوال.

وسئل ـ قدس الله سره ـ عن المقصود من السلوك فقال: المعرفة التفصيلية، فقيل له: وما المعرفة التفصيلية؟ قال: من علم وقبل من المخبر الصادق ـ ﷺ ـ إجمالاً يعلم ذلك بالسلوك تفصيلاً، ويترقى من مرتبة الدليل والبرهان، إلى مرتبة الكشف والعيان.

---

(١) حديث «أمط الأذى»: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٣، ٤٢٤). والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٢٢٨). وأخرج نحوه البخاري في «صحيحه» برقم (٢٧٠٧)، ومسلم (١٠٠٩).

وقال ـ قدس الله سره ـ: من طلب الحق تعالى فقد طلب البلاء، ورد في الأحاديث القدسية: «من أحبني ابتليته»، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحبك فقال: «استعدّ للفقر»[1]، وأتاه آخر فقال له: يا رسول الله! إني أحب الله، فقال: «استعد للبلاء».

وقيل له ـ قدس الله سره ـ: بماذا يطلع أهل الله على الخواطر والأعمال الخفية والأحوال، فقال: بنور الفراسة التي أكرمهم الله تعالى بها، كما ورد في الحديث الصحيح: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

وطلب منه ـ قدس الله سره ـ إظهار الكرامات فقال: مشينا على وجه الأرض مع وجود هذه الذنوب أظهر الكرامات.

وسئل ـ قدس الله سره ـ عن معنى قول بعض السادات: (الصوفي غير مخلوق)[2] فأجاب: بأن للصوفي في بعض الأوقات حالاً لا يكون فيها هو، فهذا الكلام بالنسبة إلى ذلك الوقت، وإلا فالصوفي مخلوق.

وسئل ـ قدس الله سره ـ عن قول الجنيد: (اقطع القارئين وصِل الصوفيين) فمن القارىء؟ ومن الصوفي؟ فأجاب: بأن القارىء هو المشغول بالاسم، والصوفي هو المشغول بالمسمى.

وسئل ـ قدس الله سره ـ عن قولهم: (الفقير هو الذي لا يحتاج إلى الله)، فقال: المراد منه نفي الاحتياج إلى السؤال، كما قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

---

(١) حديث: «استعد للفقر»: لم أجده بهذا اللفظ بل وجدت بمعناه ما أخرجه الترمذي في «السنن» (٤/ ٥٧٦) رقم (٢٣٥٠). وقال: حديث حسن غريب.

(٢) قوله (غير مخلوق): هذا عندما ينزل الحق نفسه منزلة عبده كقوله تعالى: ﴿إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ ويد الله ليست مخلوقة. وكقوله في الحديث القدسي: «كنت سمعه وبصره ويده ورجله». وسمع الله وبصره وجميع صفاته ليست مخلوقة. (ع).

وسئل عن قوله: (إذا تم الفقر فهو الله)، فقال: هذه إشارة إلى الفناء ومحو الصفات، وأنشد بالفارسية ما معربه:

من كان حين لم تكن لـــم يـــك إلا الله
وإذ فنيــت مــن بقــي لـــم يبـــق إلا الله

وقال ـ قدس الله سره ـ: إن الأحوال من الشيخ كرامات للمريد.

وذكر عنده ـ قدس الله سره ـ أنه قيل للشيخ أبي سعيد بن أبي الخير ـ قدس سره ـ عند احتضاره: أية آية نقرأ أمام جنازتكم؟ فقال: اقرؤوا هذا البيت، وأنشد بالفارسية ما معربه:

وأحسن ما في الكون من عين أصله سـرور محـب مـن حبيـب بـوصلـه

فقال سيدنا البهاء ـ قدس الله سره ـ: هذا عمل عظيم ليقرؤوا أمام جنازتي هذا البيت، وأنشد بالفارسية ما مضمونه، وهو من تعريب صاحب الرشحات:

أتينـاك بـالفقـر لا بـالغنـا وأنت الذي لم تزل محسنا

وقال ـ قدس الله سره ـ: المراد من قولهم: (المجاز قنطرة الحقيقة): أن جميع العبادات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية مجاز، فما لم يجاوزها السالك لا يصل إلى الحقيقة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كان الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير ـ قدس سره ـ يقول: غِبٌّ الزيارة مع حضور القلب خير من دوامها بلا حضور.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ينبغي للمريد إن حصل له في شيخه إشكال أن يصبر على قدر تحمله، ولا يسيء اعتقاده فيه، ثم إن كان مبتدئاً يجوز له السؤال، أو متوسط الحال قالوا: لا يسأل.

وخرج يوماً غلام من المكتب ومعه مصحفه، فسلم على سيدنا البهاء ـ قدس الله سره ـ ففتحوا مصحفه، فخرج قوله تعالى: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ [الكهف: ١٨]، فقال: أرجو أن أكون ذلك.

وقال ـ قدس الله سره ـ: الفقراء أهل نقد لا يحيلون أمورهم إلى غد، ولذلك قيل: الصوفي ابن وقته، وأنشد بالفارسية ما معربه:

من كان ذا عقل تبرأ من فتى يؤخر فعل اليوم منه إلى غد

وقال ـ قدس الله سره ـ: تصحيح أمور النية مهم للغاية، لأن النية من عالم الغيب، لا من عالم الكسب، ولذلك لم يُصَلِّ أحد كبراء الإسلام ـ يعني ابن سيرين ـ على جنازة الحسن البصري رحمهما الله تعالى، وقال: لم تحضرني النية.

وروى عن الشيخ سهل التستري[1] أنه قال: النية نور، لأن النون نور الله، والياء يد الله، والهاء هداية الله، وأن النية نسيم الروح.

وقال ـ قدس الله سره ـ يوماً لأصحابه: ما الفقير؟ فما أجابه أحد، فقال: مَنْ باطنه حرب، وظاهره سلم.

وقال ـ قدس الله سره ـ: للسالك أن يترك النوافل في بعض الأوقات، وذلك إذا أنست الطبيعة بها، لئلا تصير له عادة مألوفة، فإن المقصود أن يكون أنس السالك بمولاه لا بالأعمال، ولذلك قال ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2] ولم يقل بالصلاة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: إذا تكلم المريد بحال ليس فيه حرّم الله عليه شرف الوصول إلى ذلك الحال.

وأنشد مجنون بيتاً بالفارسية في حضرته معناه:

كـل الـورى تهـوى المـلاح وإنمـا يرقى العلا من كان يهوى غيرها

---

(١) سهل التُسْتَري: سهل بن عبد الله بن يونس (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال. «الأعلام» (٣/ ١٤٣)

(٢) حديث «وجعلت قرة»: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٩ و٢٨٥)، والحاكم (ج٢/ ١٦٠)، والنسائي (ج٧/ ٦).

فقال ـ قدس الله سره ـ: إنا قد استفدنا الطريق من هذا القائل، ثم أمر المريدين بحفظه.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كل من أراد نفسه ما أراد نفسه، ومن أراد غيره فقد أراد نفسه(١).

وقال ـ قدس الله سره ـ: إن الله خلقني لخراب الدنيا، والناس يطلبون مني عمارها.

وقال ـ قدس الله سره ـ: إن أهل الله يتحملون ثقل الخلق ليتهذب منهم الخلق، ويتشرفوا بالقرب من أولياء الله تعالى، فإنه ما من وليّ إلا ولله نظر إلى قلبه، علم ذلك أم لا، فكل من لقيه نال بركة ذلك النظر الإلهي.

وقال ـ قدس الله سره ـ: مرآة كل المشايخ لها جهتان، ومرآتنا لها ست جهات(٢).

وقال: أربعون سنة وأنا في ملاحظة مرآتي والعمل بها فلم تغلط مرآة وجودي أصلاً.

وقال ـ قدس الله سره ـ: من عرف الله لم يخف عليه شيء.

وقال ـ قدس الله سره ـ: حقيقة الأدب ترك الأدب(٣).

---

(١) قوله (أراد نفسه): أي من أراد نفسه أن تُخدم وتُعظَّم، ما أراد نفسه أن تنجو، وأن ترتقي وأن يفتح لها. ومن أراد غيره بأن ترك حظوظ نفسه من غيره، وآثر غيره على نفسه بالخدمة والنصيحة، فقد أراد نفسه الأخروية بأن تنجو وترتقي. والله أعلم. (ع).

(٢) قوله (ست جهات): مرآة المشايخ لها ظهر وبطن أو فوق وتحت، فما كشف لهم من هاتين الجهتين علموه. أما هو ـ قُدس سرّه ـ فله الجهات الست: فوق وتحت، وأمام وخلف، ويمين وشمال. فيعلم ما يأتي من الإمدادات عن طريق هذه الجهات، وهذه إشارة منه إلى مقام الغوثية العظمى. (ع).

(٣) قوله (ترك الأدب): ترك الأدب الكسبي لما فيه من التصنع والتكلف، بل تصبح حقيقة الأدب نابعة من ذاته طبعاً لا تطبعاً (ع).

وقال ـ قدس الله سره ـ: إذا أردت مقام الأبدال، فعليك بتبديل الأحوال، وأنشد بيتاً بالفارسية معربه:

من بُدلت أوصافه فهو البدل بخِلَّة الله غدا خمره خل[1]

وقال ـ قدس الله سره ـ: في العبادة[2] طلب الوجود، وفي العبودية تلف الوجود، ولا ينتج العمل ما دام الوجود باقياً.

وقال ـ قدس الله سره ـ: الطريق الذي يصل بها العارفون إلى معروفهم، ويجدونه دون غيرهم، مبنية على ثلاث أمور: المراقبة، والمشاهدة، والمحاسبة.

فالمراقبة: نسيان المخلوق بدوام النظر إلى الخالق.

والمشاهدة: واردات غيبية ترد على القلب، ولما كان الزمان لا بقاء له لا يمكننا إدراك ذلك الوارد بصفة تقوم بنا، وإنما ندركه من القبض والبسط، ففي القبض نشاهد الجلال، وفي البسط نشاهد الجمال.

والمحاسبة هي: أن نحاسب أنفسنا عن كل ساعة تمرّ بنا، هل مرت بحضور أو تفرقة فنعد الكل نقصا، ثم نستأنف العمل من أوله.

وقال ـ قدس الله سره ـ: إنما ربطوا المحاسبة بالساعة، ليمكن تحصيل مقام أهل النَّفَس في كونه مر بحضور أو لا، ولو ربطوها بالنفس لم يمكن إدراك هاتين الصفتين.

---

(١) قوله (خمره خل): خِلة الله اصطفاؤه، وبها يغدو الخمر ـ وهو كناية عن النجاسات المعنوية، والرعونات النفسية ـ خلاً طاهراً تصلح به الأطعمة. قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾.

وفي كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله: واقذف بي على الباطل بأنواعه في جميع بقاعه، فأدمغه بالحق على الوجه الأحق (ع).

(٢) قوله (في العبادة): لأن العبادة فرق نوراني، وهو يقتضي عابداً ومعبوداً وعبادة، فهذا تثليث، أما عبادة صاحب مقام العبودية جمع، فالعبادة في ظاهره موجودة، وفي باطنه غير مشهودة. (ع).

وقال ـ قدس الله سره ـ: السالكون في دفع الخواطر الشيطانية والنفسانية متفاوتون: فمنهم من يراها فيدفعها عنه قبل أن تصل إليه، ومنهم من يطردها بعد وصولها إليه، ولكن قبل أن تستقر وتستحكم، ومنهم بعد أن تصل إليه وتتمكن يسعى في صرفها، وهذا لا يجدي نفعاً تاماً، غير أنه إذا عرف السالك منشأ ذلك وسبب الانتقالات إليه لا يخلو من فائدة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: معرفة كيفية التحول والانتقال من حال إلى حال في غاية الإشكال.

وقال ـ قدس الله سره ـ: الوقوف الزماني الذي هو وظيفة السالك أن يكون ناظراً إلى أحواله، فيعلم ما يجب لكل زمان من الشكر أو العذر، ويعامله بما يليق به.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ينبغي أن يكون تلقين الذكر من الكامل المكمل، ليؤثر وتظهر نتيجته، فإن السهم إذا كان من كنانة السلطان يصلح للحماية.

وقال ـ قدس الله سره ـ لحضرة العزيزان: وهو سيدنا الشيخ علي الراميتني طريقان في الذكر: سرّ وجهر، فاخترت منهما السر، لأنه أقوى وأولى.

وقال ـ قدس الله سره ـ الوقوف العددي أول مراتب العلم اللدني.

وقال ـ قدس الله سره ـ: لا يتمكن من الوصول إلى حب أهل الله إلا من خرج عن نفسه.

وقال: مثل أهل الله مثل الصياد الحاذق الذي يدخل الحيوان الوحشي في شبكته، ثم يوصله بحكمته إلى مقام الاستئناس.

وقال ـ قدس الله سره ـ: لهذه الطريقة ثلاثة آداب:

أدب مع الله سبحانه وتعالى وهو: أن يكون المريد في الظاهر والباطن مستكملاً للعبودية بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، معرضاً عن سواه بالكلية.

وأدب مع رسوله ﷺ وهو: أن يستغرق في مقام فاتبعوني، ويراعي ذلك

في جميع الأحوال وجوباً، ويعلم أنه ﷺ واسطة بين الحق والخلق، وان كل شيء تحت تصرف أمره العالي.

وأدب مع المشايخ وهو لازم للطالبين، لأنهم سبب في متابعته ﷺ وصلوا إلى مقام الدعوة إلى الحق، فينبغي للمريد حضوراً أو غيبة أن يكون مراعياً لأحوالهم مقتدياً بهم، متمسكاً بأذيالهم.

وقال ـ قدس الله سره ـ: على المرشد أن يعلم أحوال المريد في الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال، حتى يمكنه أن يربيه، وعلى السالك أن يكون عند اجتماعه بأحد من أحباب الله حافظاً حال نفسه، ثم يزن زمن صحبته وزمنه السابق، فإن وجد في حاله انتقالاً من نقص إلى كمال على حد قوله: أصبت فالزم، فليجعل صحبة هذا العزيز فرض عين عليه.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كل من مال إلينا أو انتسب إلى محبتنا بعيداً كان أو قريباً، لا بد أن نلحظ نسبته كل يوم وليلة، ونمده من منبع عين الشفقة والتربية بالإمداد الدائم إن كان حافظاً لأحواله، منقياً لطريق الإمداد من أدناس التعلقات وأوساخها.

وقال ـ قدس الله سره ـ: في قوله في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني»[1] إشارة إلى بيان حال أهل الباطن، وفي قوله فيه أيضاً: «الصوم لي وأنا أجزي به»[2] إشارة إلى الصوم الحقيقي، وهو الإمساك عن السوى بالكلية.

وقال ـ قدس الله سره ـ: المراد من الأمة في قوله ﷺ: «نصيب أمتي من نار

---

(١) حديث «أنا جليس»: لا أصل له مرفوعاً، وإنما هو موقوف على سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. أخرجه البيهقي في «الشعب».
ويغني عنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني...». رواه مسلم برقم (٢٦٧٥). ورواية البخاري بلفظ: «.... وأنا معه إذا ذكرني...». وفي رواية لابن حبان: «.... وأنا معه حيث يذكرني».

(٢) حديث «الصوم لي»: أخرجه البخاري برقم (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، والنسائي (٤/ ١٦٣، ١٦٤)، وأحمد (٢/ ٢٧٣) وغيرهم.

جهنم كنصيب إبراهيم من نار نمرود»[1] وفي قوله ﷺ: «لا تجتمع أمّتي على ضلالة»[2]، إنما هي أمّة المتابعة فإن الأمّة على ثلاثة أقسام: أمة الدعوة، وأمّة الإجابة، وأمّة المتابعة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: قوله ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»[3]: فيه إشارة إلى درجات الصلاة الحقيقية، وهي أن تكون أكبرية حضرة الحق حالاً للمصلي عند تحرمه، ويظهر الخضوع والخشوع على قلبه، حتى يصل إلى مرتبة الاستغراق، وقد كانت هذه صفة رسول الله ﷺ.

روي أنه كان يظهر لصدره الشريف صوت يسمع من خارج المدينة، وانه كان له أزيز كأزيز المرجل.

وسأله ـ قدس الله سره ـ أحد علماء بخارى عما يحصل به الحضور للعبد في الصلاة، فقال له: بأكل الحلال، ومراقبة الحق تعالى خارج الصلاة، وعند الوضوء، وتكبيرة الإحرام.

وقال ـ قدس الله سره ـ: في قوله في الحديث «ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله إذا خلوت»[4]: إشارة إلى أنه ينبغي للسالك أن يكون الخلاء له ملأ، وأن ما يفعله في الجلوة رعاية لنظر الخلق إليه يفعله بالخلوة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ورد في الأخبار والآثار، وكلام المشايخ الكبار: (إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب) ومعناه: أن العبد المحبوب إذا عرف العذر عن الذنب، واعتذر به لم يضره.

---

(١) حديث «نصيب أمتي» لم أجده.
(٢) حديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة»: ثبت بألفاظ متقاربة. روى نحوه أبو داود في «السنن» (٤/ ٩٨) رقم (٤٢٥٣)، والترمذي في «السنن» (٤/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) رقم (٢١٦٧)، وابن ماجه في «السنن» (٢/ ١٣٠٣) رقم (٣٩٥٠)، وغيرهم.
(٣) حديث «الصلاة معراج المؤمن»: لم أجده.
(٤) حديث «ما كرهت أن يراه الناس»: أخرجه ابن حبان. «كنز العمال» (٣/ ٥٢٧٠).

وقال ـ قدس الله سره ـ:الصلاة والصيام والمجاهدة هي طريق الوصول إلى الله تعالى، ولكن نفي الوجود عندنا أقرب، وهذا وإن كان لا بد منه مع العبادة والمجاهدة أيضاً، إلا أنه لا يحصل إلا بترك الاختيار، وعدم رؤية الأعمال.

وقال الشيخ صلاح جامع مناقبه ـ قدس سره ـ: كان سيدنا البهاء ـ قدس الله سره ـ يوماً مع أصحابه فقال: إن التعلق بالسوى حجاب عظيم للسالك، ثم أنشد بالفارسية بيتاً ومعناه بالعربية:

إن التعلق بالسوى أقوى حجا ... ب والتخلص منه فاتحة الوصول

فخطر ببالي ساعتئذٍ أن التعلق بالإيمان والإسلام أيضاً كذلك، فالتفت بالحال إليّ وتبسم، ثم قال: أما سمعت قول الحلاج ـ قدس الله روحه ـ:

كفرت بدين الله والكفر واجب ... لديّ وعند المسلمين قبيح[1]

وكذلك قالوا: المعتبر هو الإيمان الحقيقي، وعرَّف أهل الحقيقة الإيمان بأنه ربط القلب بنفي جميع ما تولهت به القلوب من المضارّ والمنافع سوى الله عز وجل. ا. هـ.

قلت: لا يخفى أن الإيمان يرد لمعان:

منها الجزاء، قال تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ وإن أهل الله لا ينظرون في أعمالهم إلا إلى الله، قالت رابعة العدوية ـ رضي الله عنها ـ: ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن لوجهك الكريم، فصرف العبادة لغيره تعالى شرك خفي، كما قال سيدنا الشيخ أرسلان الدمشقي[2]: كلك شرك

---

(١) قوله (كفرت): أحد معاني الكفر: السّتر والزراعة، قال تعالى: ﴿يعجب الكفار نباته﴾. فهو قد ستر بدين الله جميع قبائحه وعيوبه، وستر بأوصاف محبوبه أوصاف نفسه، وزرع بدين الله زراعة مستورة عن المسلمين المحجوبين بإسلامهم والتعلق به، وهذا واجب عليه لأن من حدّث قوماً بحديث لا تحتمله عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة. وفي الحديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً». الحديث. (ع).

(٢) أرسلان بن يعقوب بن عبد الله (٠٠٠ ـ ٦٩٩ هـ) الجعبري الدمشقي: أحد الزهاد الصالحين. من أهل دمشق، وقبره فيها معروف. «الأعلام» (١/ ٢٨٨).

خفي، والكفر به على المخلصين واجب، لأن من عبده لأجل الجنة والنار، فقد عبد الجنة والنار، وهو طاغوت، وقد قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومما يؤكد ذلك ما نقل أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي[1] ـ قدس الله سره ـ سأله شيخه: بماذا تلقى الله تعالى؟ فقال له: بفقري، قال له: إذاً تلقاه بالصنم الأعظم.

فعبادتهم عبودة محضة لا يشوبها شيء غير الله، بل لا يرون لهم فيها دخلاً حتى يطلبوا الجزاء عليها، لتحققهم بقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٦] على أن ما نافية.

وأما أهل الظاهر فقد تمسكوا بالأعمال ورتبوا عليها الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وإن العبد ينفعه عمله ويضره، ومشى الحق تعالى ذلك لهم فقال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ [الزمر: ٣٥]، فعدم النظر إلى الأعمال عندهم قبيح، ولعل هذا أحسن مما كتبه الشيخ صلاح هنا، والله أعلم.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كل من وُفق لمخالفة نفسه وإن كان هو في حد ذاته عملاً قليلاً يجب عليه أن يراه عظيماً، ويشكر الله تعالى على توفيقه له، فإن من قال: إذا أردت مقام الإبدال، فعليك بتبديل الأحوال، مراده مخالفة النفس.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كنا في أوائل الحال نرى أنفسنا مطلوبين والغير طالب، والآن قد عدلنا عن ذلك، فإن المرشد على الإطلاق هو الله تعالى،

---

(١) أبو الحسن الشاذلي: علي بن عبد الله بن عبد الجبار (٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ) المغربي: شيخ الطريقة الشاذلية، من المتصوفة. ولد في بلاد «غمارة» بريف المغرب، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن «شاذلة» قرب تونس فنسب إليها. رحل إلى بلاد المشرق فحج ودخل العراق. ثم سكن الإسكندرية. وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. وكان ضريراً.
«الأعلام» (٤/ ٣٠٥)

فكل من أوجد فيه داعية هذا الطريق وأرسله إلينا يصل إليه منا ما له فيه نصيب.

وذكر ـ قدس الله سره ـ أنه سلم عليه أحد مريديه، فلم يرد عليه السلام فاغبر خاطره، فقال: اعتذروا له بأني كنت وقتئذٍ متوجهاً بكليتي لسماع كلام الحق تعالى لي، فشغلني كلام الحق عن سلام الخلق.

وقال ـ قدس الله سره ـ: قوله ﷺ «الكاسب حبيب الله»[1] إشارة إلى كسب الرِّضا، لا كسب الدنيا.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كل من سلم نفسه للحق تعالى، وفوّض أمره إليه، فالتجاؤه لغيره شرك، يعفى عنه للعامة دون الخاصة.

وقال ـ قدس الله سره ـ: الوصول إلى سرّ التوحيد ممكن في بعض الأحيان، وأما الوصول إلى سرّ المعرفة فمشكل[2].

وقال ـ قدس الله سره ـ: إذا شاكت رجل الفقير شوكة، فعليه أن يعلم من أي وجه وصلت إليه.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ينبغي للطالب أن يصحب أصحابنا أولاً مدةً، حتى تحصل له قابلية صحبتنا.

وقال ـ قدس الله سره ـ: إن طريقنا من النوادر، وهي العروة الوثقى، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية، واقتفاء آثار الصحابة الكرام، ولقد أدخلوني في هذا الطريق من باب الفضل، فإنّي لم أشهد أولاً وآخراً إلا فضل الحق تعالى، والعمل فيه يحصل منه فتوح كثير، لأن رعاية السنة السنية من أعظم الأعمال. اهـ.

---

(١) حديث «الكاسب حبيب الله»: لم أجده.

(٢) قوله (فمشكل): سرُّ التوحيد مقام الأحدية، أو شهود وحدانية الله بالمظاهر ـ وليست تنال الذات إلا بمظهر ـ. أما سر المعرفة فهو معرفة كنه الذات، وهذا لا وصول إليه، لأنه لا يعرف الله إلا الله، لأنه من عرف الله كان مقدوراً عليه، وهذا مستحيل. (ع).

وبه يعلم معنى قوله ـ قدس الله سره ـ: كل من أعرض عن طريقنا فهو على خطر من دينه.

وسئل ـ قدس الله سره ـ: بماذا يصل العبد إلى طريقكم؟ فقال: بمتابعة سنة رسول الله ﷺ.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ينبغي للمتوكل أن لا يرى نفسه متوكلاً، وأن يخفي توكله في الكسب.

وقال ـ قدس الله سره ـ: إن نظرنا إلى عيب الصاحب بقينا بلا صاحب، فإن أحداً لا يخلو من الصفات البشرية.

وقال ـ قدس الله سره ـ: إنا تحملنا في هذا الطريق الذلة، فتفضل الحق علينا من محض إحسانه بالعزة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

وبلغه أن بعض الناس نسب إليه التكبر، فقال: كبرياؤنا من كبريائه.

ويشير ـ قدس الله سره ـ إلى ما أجاب به الجنيد حين سئل عن العارف؟ فقال: لون الماء لون إنائه.

وقال ـ قدس الله سره ـ: كل من جرى أخذ الإناء، وأخذ الإناء كل من جرى.

وآياته ـ قدس الله سره ـ بحر إن اغترفنا منه إلا قطرة، وبستان ما اقتطفنا منه غير زهرة.

أحوال كماله وكمال أحواله

كان ـ قدس الله سره ـ على أعظم قدم من تمام التجرد عن الدنيا وعلائقها، ومحض الزهد، وفرط الورع في أموره كلها، خصوصاً في طعامه، فإنه كان يحتاط له احتياطاً عظيماً، لا يأكل إلا من شعير وماش[1] يزرعه، ويتحرى في

---

(١) ماش: حب كالعدس إلا أنه أشدُّ استدارة منه. وهو بالفارسية. «المعرب» للجواليقي (٣٦٥)

بذره وحرثه وسقيه وجوه الحل، حتى صارت كبار العلماء والعباد يقصدون زيارته للتبرك بطعامه.

ولقد بلغ بالتقشف عن الدنيا، أنه كان يفرش منزله في الشتاء بأحلاس بالية، وفي الصيف بخصفة قديمة.

وكان يحب الفقراء والفقر، ويحض أصحابه عليه، وعلى كسب الحلال، ويستدل بقوله عليه الصلاة والسلام: «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال وواحد سائر العبادات»[1]، وكان يقول: كل ما حصل لي فهو من ذلك.

وكان يصنع الطعام للفقراء بيده المباركة، ويخدم مائدتهم بنفسه الشريفة، وإذا اجتمعوا للطعام يوصيهم بالمحافظة على الحضور، ويؤكد عليهم في ذلك أشدّ التأكيد، وكلما أراد أحدهم أن يتناول لقمة مع الغفلة ينبهه من طريق الكشف عليها، ويمنعه من أكلها، ويقول: صدور الأعمال الصالحة إنما هو من الطعام الحلال إذا أكل مع الحضور، ولا يحصِّل العبد الحضور في جميع الأوقات، لا سيما أوقات الصلوات إلا بهذا.

وكان إذا قدم إليه طعام صنع في حال غضب، أو كراهية، أو حصل فيه أدنى مشقة، بل لو كان وضع فيه أحد ملعقة على هذه الحالة لا يمدّ يده إليه، ولا يدع أحداً ممن معه أن يتناول منه شيئاً.

روى أنه ذهب مرة إلى غزيوت، فقدم إليه أحد مريديه طعاماً، فقال له: كان صانعه منذ عجن عجينه إلى أن أتم طبخه في حالة غضب، فلا يليق بنا أن

---

(1) حديث «العبادة عشرة أجزاء»: أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» برقم (٤٢٢٢). وفيه محمد بن أحمد بن سعيد الرازي. قال الذهبي في «الميزان» (٣/ ٤٥٧): لا أعرفه لكن أتى بخبر باطل، وهو آفته، ثم ذكر له حديثاً.
وفيه أيضاً الحسين بن داود البلخي؛ وليس بثقة، وحديثه موضوع. انظر «الميزان» (١/ ٥٣٤).

نأكل منه، فإن كل ما جعل في مثل هذه الأحوال لا خير فيه ولا بركة، بل يجد الشيطان فيه سبيلاً فكيف ينتج.

ولما توجه إلى هراة صنع الملك حسين ـ رحمه الله ـ وليمة عظيمة دعا إليها أعيان مملكته، ومشايخ حضرته وعلمائها احتفاء به ـ قدس الله سره ـ، ووقف بنفسه على المائدة، وقال: كلوا من هذا الطعام، فإنه حلال اتخذته من ميراثي من أبي، وأنا ضمين عهدته يوم القيامة، فابتدروا يأكلون والشيخ لم يمدّ يده، فالتفت إليه شيخ الإسلام قطب الدين رحمه الله، وكان قدوة أهل زمانه، وقال له: لِمَ لَمْ تأكلوا، فقال له: إن لي حاكماً عرضت عليه هذه القضية، فقال: لك فيها وجهان! إن لم تأكل وسألوك تقل: حضرت سفرة الملك، ولم آكل، وإن أكلت وسألوك:لِمَ أكلت، فماذا تقول؟ فتأثر شيخ الإسلام من هذا الكلام تأثراً عظيماً، وحصل له حال غريب، وأمسك عن الطعام، وطلب من السلطان أن يسامحه منه، فتحير الملك، وقال له: وما نصنع بهذه الأطعمة؟ قال: حتى نسأل حضرة البهاء، فقال ـ قدس الله سره ـ: إن كان فيه شبهة فمصرفه الفقراء، وإن كان حلالاً فلا شك أن في هراة كثيراً ممن له أشد الاحتياج إلى لقمة واحدة منه، فينبغي أن يصرف إليهم، فعجب الحاضرون منه ـ قدس الله سره ـ.

وكان في سرخس[1] فأرسل الملك حسين ـ رحمه الله ـ إليه رسولاً ومعه كتاب فيه: إنا مشتاقون لصحبة الفقراء فماذا تأمرون؟ ـ وكانت عادته لا يذهب إلى الملوك ـ ولكن رأى أنه يحصل بمجيء الملك إلى سرخس وطوس زحمة عظيمة على الناس، فرحمة بهم توجه إلى هراة، فلما وصل إليها نزل في زاوية سيدنا الشيخ عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، فوجد الملك والخدم والحشم والأعيان والعلماء جميعاً ينتظرونه، فاستقبلوه أعظم استقبال، وأدخله الملك إلى داره وجلس بين يديه، وبعد برهة وضعوا مائدة عظيمة جامعة لأفخر

---

(١) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة، وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق. «معجم البلدان» (٣/ ٢٠٨).

الأطعمة وأثمنها، فأخذ الحاضرون يأكلون والشيخ لم يأكل، فقال له العلماء: إن في هذه الأطعمة لحم صيد ـ وهو لا شبهة فيه ـ فكلوا منه، فقال: لا يليق بي أن آكل على موائد الملوك، وأنا معتقد جماعة، وهذا واحد منهم حاضر، فإن مددت يدي لا يدرون من أي طعام أكلت، فقالوا: إن صفة الفقر موروثة لكم قال: لا، بل أدركتني جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين، فتشرفت بهذه السعادة، فقال له الملك: طريقكم فيه ذكر الجهر والخلوة والسماع، قال: لا، قال: فماذا طريقكم؟ قال: هو كما قال سيدنا الشيخ عبد الخالق الغجدواني ـ قدس الله سره العزيز ـ: الخلوة في الجلوة، قال: ما معناه؟ قال: هو أن يكون العبد في الظاهر مع الخلق، وفي الباطن مع الحق، وأنشد بالفارسية بيتاً عربه في المناقب فقال:

ففي باطن كن صاحياً غير غافل وفي ظاهر خالط كبعض الأجانب

قال الملك: أويمكن هذا؟ قال: نعم! فإن الله تعالى يقول: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور: ٣٧]، فقال له الملك: إن بعض السادات يقول: الولاية أفضل من النبوّة، فأي ولاية أفضل من النبوّة، قال: ولاية النبي أفضل من نبوته(١).

ثم ودع الملك ورجع إلى الزاوية، فما لبث أن أرسل إليه الملك مع نفر من خواصه أطباقاً عليها أنواع التحف، والتمسوا منه أن يقبلها، فردها، وقال لهم: إني منذ منّ الله عليّ بعنايته لم يقدر أحد في هذا الحال أن يجعل ظهر يدي إلى الأرض، فانصحوه أن لا يحدّث نفسه بمثل هذا.

ثم بعد قطع من الليل جاءه عبيد زوجة الملك بهدية مشتملة على قميص

---

(١) قوله (من نبوته): ولاية النبي أفضل من نبوته باعتبار أن الولاية عامة وتورث من بعده تحققاً وتخلقاً. فالفضل عائد باعتبار تعديها إلى الأمة لا باعتبار ذاتها، أما بالنسبة إلى النبي فإن نبوته أفضل من ولايته، لما فيها من تجليات خاصة لا تورث، فلا نصيب لأحد من الأولياء في مقام من مقامات نبوته تحققاً وتخلقاً، وربما يقع لبعضهم إشراف دون الوصول إليها. (ع).

ومنديل وغير ذلك، وذكروا له أن سيدتهم قد خاطت القميص بيدها احتفاء به ورجاء قبوله فردها، فكرروا عليه الاسترحام بقبولها وألحوا في ذلك، فما قبل منها شيئاً، ولم يكن لابساً يومئذٍ إلا ثوباً من صوف وعمامة وكوشاً قديماً، فكانت هيئته هذه سبباً لرسوخ محبة الملك وأهل هراة لجنابه.

وكان ـ قدس الله سره ـ يصوم أكثر أيامه، فإذا جاءه ضيف وكان عنده ما يكرمه به يأكل معه، ويقول سراً لأصحابه: إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا لا يتفرقون إلا عن ذواق.

وقال الشيخ أبو الحسن الخرقاني: في كتابه «أصول الطريقة ووصول الحقيقة»: إن فضل موافقة الإخوان فيما ليس بمعصية ليس أقل ثواباً من صوم النفل، ومن آداب الصوم إخفاؤه.

وأهديت إليه سمكة مطبوخة والفقراء حاضرون، وفيهم شاب عابد زاهد كان صائماً، فقال له: وافق إخوانك وأفطر، فلم يقبل، فقال له: أفطر وأنا أهبك صوم يوم من شهر رمضان فأبى، فقال له: أفطر وأنا أهبك صيام أيام شهر رمضان فأبى، فقال: وقع نظير ذلك مع سلطان العارفين أبي يزيد رضي الله عنه، فاتركوه فإنه من المبعدين، فنظرا لاستخفافه بأوامر أهل الله تعالى، ابتلاه الله تعالى بعد ذلك بالانهماك في الدنيا، والإعراض عما كان فيه من سعادة العبادة.

والذي وقع لأبي يزيد: هو أنه زاره سيدنا الشيخ أبو تراب النخشبي[1] فقدم له الخادم طعاماً، فقال له أبو تراب: اجلس وكل معي، فقال: إني صائم، فقال: كل ولك ثواب صيام سنة فأبى، فقال: كل ولك صيام ستين فأبى، فقال

---

(١) أبو تراب: عسكر بن الحصين (٠٠٠ ـ ٢٤٥ هـ) النخشبي، نسبة إلى نخشب من نواحي بلخ، تسمى أيضاً نَسَف. صحب حاتماً الأصم. وحدث وكتب العلم، وتفقه، ثم تأله وتعبد، وساح وتجرد. مات بطريق الحج. «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٥٤٥).

أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله، فانقطع بعد مدة يسيرة وساءت أحواله، حتى سرق سرقة قطعت بها يمينه.

وكان ـ قدس الله سره ـ إذا زاره أحد أحبابه تولى خدمته بنفسه، واعتنى به كل الاعتناء، وخدم دابته أحسن خدمة، وقدّم لها الماء والعلف بيده المباركة، لكيلا يكون في قلب الضيف همّ منها، لقوله ﷺ: «همّ المؤمن دابته وهم المنافق بطنه»[1] ويقول: نقل عن العزيزان ـ قدس الله سره ـ أنه كان يبتدىء أولاً بخدمة دابة ضيفه، ويقول: إنها كانت سبباً لوصوله إليّ، وتشرفي به.

وكان ـ قدس الله سره ـ إذا أتى الفقراء إلى منزله يأتي بالأحجار، فيمسح بها وجهه النضير، ثم يهيئها لهم للاستنجاء، ويقول: إن لهؤلاء منة على روحي.

وكان ـ قدس الله سره ـ إذا زار أحداً من أصحابه يسأل عن أهله وأولاده، ويلاطف كل واحد منهم بما يناسبه، ويبحث عن متعلقاته ودوابه، حتى دجاجاته ويظهر الشفقة على كلٍ بحسبه، ويقول: كان أبو يزيد ـ رضي الله عنه ـ إذا رجع من الاستغراق يفعل هكذا.

وكان ـ قدس الله سره ـ مع كمال تجرده وزهده دأبه البذل والإيثار، فإذا أهدى إليه أحد شيئاً على شرطه قبله، وقابله بأضعافه تأسياً به ﷺ، وببركته سرت هذه الأخلاق الكريمة إلى أصحابه ـ قدس الله أرواحهم ـ.

كراماته وإكراماته

قال ـ قدس الله سره ـ: خرجت يوماً أنا ومحمد زاهد إلى الصحراء ـ وكان مريداً صادقاً ـ ومعنا المعاول نشتغل بها، فمرت بنا حالة أوجبت أن نلقي المعاول ونتذاكر في المعارف، فما زلنا كذلك حتى انجر الكلام بنا إلى العبودية، فقال لي: إلى أيّ حد تنتهي العبودية، فقلت له: تنتهي إلى درجة إذا

---

(١) حديث: «هم المؤمن دابته»: لم أجده.

قال صاحبها لأحد: مت مات في الحال، قال: ثم وقع لي أني قلت له ساعتئذٍ: مت، فمات حالاً، واستمر ميتاً من وقت الضحى إلى نصف النهار، وكان الوقت حاراً فانزعجت لذلك، وتحيرت كثيراً، ثم أويت إلى ظل قريب منه، فجلست وأنا في حيرة تامة، ثم رجعت عنده فنظرت إليه، فوجدته قد تغير من فرط الحر، فازددت قلقاً، فألقي إليّ وقتئذٍ أن قل له: يا محمد احيَ، فقلت له ذلك ثلاث مرات، فأخذت تسري به الحياة شيئاً فشيئاً، وأنا أنظر إليه، حتى عاد إلى حاله الأول.

فأتيت حضرة السيد أمير كلال فقصصت عليه القصص، فلما ذكرت له أنه مات وتحيرت من ذلك، قال لي: يا ولدي لِمَ لَمْ تقل له: احيَ، فقلت له: لما ألهمت ذلك قلته له فعاد حياً[1].

ونقل الشيخ علاء الدين العطار: أنه لما قدم ملك ما وراء النهر السلطان عبدالله قزغن إلى بخارى، عزم أن يخرج إلى الصيد في نواحي بخارى، وأن يخرج الناس معه، وكان الشيخ في قرية من قرى بخارى، فلما خرج أهل تلك القرية خرج معهم، فابتدروا الصيد.

وأما الشيخ ـ قدس الله سره ـ فقد طلع إلى ربوة قريبة منهم، وأخذ يرقع ثوبه، فخطر بباله وقتئذٍ أن الأولياء عزتهم بالله، فلذلك وضعت السلاطين رؤسها على أعتابهم، فما تمّ هذا الخاطر إلا وأقبل عليه فارس متزين بزينة الملوك، فلما وصل عنده ترجل، وجاء مع التعظيم التام والخضوع الوافر، فسلم على الشيخ ـ قدس الله سره ـ ووقف متأدباً في ضح الشمس نحو ساعة، فرفع الشيخ إليه رأسه، وقال له: بماذا كنت تشتغل؟ قال: كنت مشغولاً بالصيد، فوجدتني قد جذبت إلى هذا الجانب بغير اختياري، فلما وصلت إلى هذا الموضع رأيتكم، فمال قلبي إليكم ميلاً تاماً، ثم جعل يتذلل له، ويتواضع

---

(١) قوله (فعاد حياً): ما كان معجزة لنبي صح أن يكون كرامة لولي. قال تعالى: ﴿ويحيي الموتى بإذن الله﴾. (ع).

إليه ويطلب الإمداد منه، فقال له الشيخ ـ قدس الله سره ـ: اتركني فإني فقير كنت في هذه القرية، فأخرج عبدالله قزغن الناس للصيد فرافقتهم، فلما لم أكن أصلح لذلك جئت إلى هنا، فقال له: لكن يا سيدي أنتم قد صِدتموني، فقام الشيخ ولبس ثوبه وتوجه إلى جهة الصحراء، فتبعه الرجل، ولم يزل يمشي والرجل يمشي خلفه بتمام الانكسار، حتى نظر إليه الشيخ نظرة هيبة وجلال، فوقف مكانه ولم يستطع أن يتبعه بعد أبداً(١).

وروي عن بعض أصحابه أنه قال: كنت في خدمته وهو في بلدة مَرو، فاشتقت لرؤية أهلي في بخارى، وكان بلغني أن أخي شمس الدين قد مات، ولم أجسر على الاستئذان منه، فالتمست من الأمير حسين ـ لعله أمير هراة السالف الذكر، وكان وقتئذٍ معه ـ أن يستأذن لي منه، فخرج لصلاة الجمعة يوماً، فلما رجع من المسجد ذكر له الأمير موت أخي، فقال له: كيف هذا الخبر؟ وهو حي وهذه رائحته تفوح، بل أجد رائحته قريبة جداً(٢).

فما تم كلامهم، إلا وقد وصل أخي من بخارى، وجاء فسلم على الشيخ ـ قدس الله سره ـ، فقال: يا أمير حسين! هذا شمس الدين، فحصل للحاضرين حال عظيم.

وقال سيدنا الشيخ علاء الدين العطار: كان ـ قدس الله سره ـ في بخارى، وكان المولى عارف أحد أعزاء أحبابه في خوارزم، فكان يتكلم يوماً على صفة البصر مع أصحابه، فقال في أثناء كلامه:

الآن خرج المولى عارف من خوارزم إلى جهة السراي، ووصل إلى الموضع الفلاني من طريق السراي.

---

(١) قوله (أبداً): لأن الشيخ كان في حالة السلوك ولم يؤذن له بالتسليك بعد، ورأى أن صحبة هذه الرجل له ستشوش عليه خاطره، فكان الأولى أن يصرفه. (ع).

(٢) قوله (قريبة جداً): قال تعالى حكاية: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ والأرواح تتشام وتتعارف. (ع).

ثم بعد لحظة قال: خطر في بال المولى عارف أن لا يذهب إلى السراي، وها هو قد رجع إلى جهة خوارزم.

فقيد أصحابه هذه القصة بتاريخها، فبعد مدة قدم المولى عارف من خوارزم إلى بخارى، فأخبروه بما ذكره الشيخ ـ قدس الله سره ـ، فقال لهم: هذا هو الذي وقع لي بعينه، فتعجب أصحابه من ذلك غاية العجب[1].

قال مولانا الشيخ عبدالله الخجندي: كان سبب صحبتي له ـ قدس الله سره ـ أنه حصلت لي قبل ذلك بسنين لوعة محرقة ـ وأنا في خجند ـ سلبت قراري، وتعطشت للدخول في هذا الطريق، فخرجت من خجند هائماً على وجهي، حتى وصلت إلى ترمذ، فذهبت إلى زيارة ضريح العارف الكبير محمد بن علي الحكيم الترمذي ـ قدس الله سره ـ وأنا في غاية الاضطراب، ثم أتيت مسجداً على جانب نهر جيحون ونمت فيه، فرأيت شيخين مهابين، فقال لي أحدهما: هل تعرفنا؟ أنا محمد بن علي الترمذي، وهذا الخضر عليه السلام، لا تتعب نفسك ولا تضطرب، فإنه ما آن أوان ما تريد، ولكن ستصل إليه بعد اثنى عشرة سنة في بخارى على يد الشيخ بهاء الدين، الذي هو قطب الزمان وقتئذٍ.

ثم أفقت وقد سكن ما بي، فرجعت إلى خجند، ثم إني كنت يوماً ماشياً في السوق فإذا أنا بتركيين دخلا المسجد، فتبعتهما فجلسا يتحدثان، فأصغيت لحديثهما، فسمعتهما يتكلمان على أحوال الطريق، فمال قلبي إليهما، فأسرعت فأتيتهما بطعام. فقال أحدهما للآخر: هذا فيه لوعة يليق أن يكون في خدمة ولد سلطاننا الشيخ إسحق، فلما سمعت ذلك استفسرت منهما عن ذلك الشيخ فأخبراني أنه في نواحي خجند، فذهبت إليه في الحال، فلاطفني ملاطفة تامة، وكان له ولد عليه آثار النجابة والإخلاص، فقال لوالده يوماً: إن هذا

---

(١) قوله (غاية العجب): لا عجب في ذلك ولا غرابة، وكلنا يعلم قول الله عز وجل في الحديث القدسي: «فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به فبي يبصر» (ع).

المريد منكسر، فينبغي أن تصطفوه وتتخذوه صاحباً، فبكى الشيخ، وقال له: يا ولدي هذا من أولاد الشيخ بهاء الدين ليس لي عليه حكم، فعند ذلك رجعت إلى خجند أنتظر زمان ظهور هذه الإشارة، فما مضت مدة إلا ورأيت قلبي قد انجذب إلى جهة بخارى، فلم أقدر أن أتأخر لحظة، فسافرت إليها، فعندما وصلت قصدت تواً حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ، فلما تشرفت برؤيته قال لي: آنست يا عبد الله الخجندي، بقي ثلاثة أيام حتى تتم مدة الاثنتى عشرة سنة، فأخذني من هذه الإشارة حال غريب، وطلع صبح سعادة محبته في أفق قلبي، ولم يفهم الحاضرون ما أشار إليه، فسألوني عنه، فلما أذقتهم الخبر امتلؤوا نضرة وسروراً.

ثم أقبل بالعناية التامة عليّ، وقبلني أن أكون عبداً له[1] ـ قدس الله سره ـ.

وقال سيدنا الشيخ علاء الدين العطار: كنت عند حضرته في يوم غيم، فقال لي: هل دخل وقت الظهر، فقلت له: لا، فقال: انظر إلى السماء، فنظرت فلم أجد حجاباً أصلاً، ورأيت جميع ملائكة السموات مشتغلون بصلاة الظهر، فقال: ما تقول هل صار وقت الظهر؟ فخجلت مما صدر مني، واستغفرت منه[2]، وبقيت مدة وأنا أجد لذلك في نفسي ثقلاً عظيماً.

وروي عن بعض أصحابه أنه قال: أرسلني ـ قدس الله سره ـ يوماً في حاجة، فلما رجعت رأيت المريدين وقوفاً في البستان الذي فيه مرقده الشريف الآن، وبأيديهم المعاول والمكاتل، فداخلني أشد الخوف، وأخذتني حمى نافض، ثم بعد ساعة جاء الشيخ ـ قدس الله سره ـ من منزله، فقال لي: أراك

---

(١) قوله (أن أكون عبدا): أي عبد رقٍ لا عبد عبودية. ولأحدهم:

لو رضوني عبد رقٍ ... كنت لا أرضى بعتقي
غبت عن جمع وفرقٍ ... عندما الداعي دعاني. (ع)

(٢) قوله (واستغفرت منه): طلبت المغفرة منه. قال تعالى حكاية: ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ أي اطلب لنا المغفرة لذنوبنا. ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (ع).

متغيراً! فقلت له: منذ وصلت إلى هنا اعتراني خوف شديد، وما علمت ما سببه، فقال: سل الأمير حسين عنه. فسألته، فقال: سبب ذلك أن المريدين أتوا من الصباح لنقل التراب، ولم تكن معهم.

قال: ثم عاد ـ قدس الله سره ـ إلى المنزل لإصلاح طعام المريدين، فلم نلبث أن رأينا رجلاً شاباً جاء من جهة منزله إلى جهتنا وهو يطير في الهواء، ويثب من محل إلى محل، كالطائر، فلما دنا منا مر من فوق رؤسنا كذلك، فطفقنا جميعاً ننظر إليه، وعزمنا أن ندع ما نحن فيه من العمل ونتأثره، فبينما نحن كذلك إذا بحضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ قد خرج من المنزل، وأشار إلينا أن على رسلكم حتى أجيء إليكم، فحصل لنا رعب عظيم من كلامه، فلما أن جاء ورأى حالنا التفت إليّ، وقال: هذه حالك التي اعترتك أولاً قد انعكست عليهم.

ثم قال: وأما الشاب الذي كان يطير، فهو شخص كنت رأيته وأنا ذاهب من نسف إلى بخارى يطير، فلما دنوت منه، قلت له: كيف تركت صحبة رجال الغيب، ووقعت في الألم والحسرة؟ فقال: أنا من البلد الفلاني وقد أدخلوني في صحبتهم، فكنا ذات يوم جلوساً على جبل، فمر بخاطري ذكر الزوجة والولد فكوشفوا بهذا الخاطر، فقصدوا أن يذهبوا ويتركوني، فتمسكت في الحال بذيل واحد منهم، وسألتهم أن يوصلوني إلى محل معمور، فأتوا بي إلى هذا المكان.

قال ـ قدس الله سره ـ: فجئت به من نسف إلى بخارى منذ ستة أيام، ووضعته في منزلي، فلما ذهبت لأهيىء لكم الطعام استأذنني بالذهاب، فأذنت له، ثم أردت أن آتيكم بالطعام، فرأيت ما حل بكم من التفرقة، وتشتيت الخاطر، فخرجت مسرعاً، وأشرت إليكم بما أشرت.

ثم قال: وقد ظهر عليه تجلي الجلال: ينبغي للمريد أن يكون راسخ القدم لا يزيحه كل شيء عما هو فيه، ولا يتبدّل اعتقاده في شيخه بوجه من الوجوه أصلاً، حتى لو رأى الخضر ـ عليه السلام ـ لا يلتفت إليه.

وقال وقد غلبت عليه الهيبة والسطوة: مرتبة الطيران سهلة، فإن الذباب ليطير في الهواء أيضاً.

ثم أمر الأمير حسين ـ رحمه الله ـ وبقية المريدين أن يملؤوا المكتل تراباً ويتركوه ففعلوا، فأشار الشيخ إلى المكتل، فمشى بنفسه، وأفرغ التراب، ورجع إلينا بنفسه، وفعل ذلك مراراً، فقال ـ قدس الله سره ـ: هذه الأمور وأمثالها، لا اعتبار لها عند خواص أهل الله تعالى.

وحكى سيدنا علاء الدين أن الشيخ تاج الدين ـ أحد أصحاب الحضرة البهائية ـ كان إذا أرسله الشيخ إلى حاجة من قصر العارفان إلى بخارى يعود ببرهة قليلة، وذلك أنه كان إذا غاب عن أعين المريدين يطير في الهواء، قال: وأرسلني يوماً في أمر إلى بخارى، فذهبت على هذه الكيفية، فوجدت الشيخ في طريقي، فرآني على هذه الحالة فسلبها مني، فلم أقدر بعد ذلك أن أفعلها أبداً[١].

وقال الشيخ خسرو ـ وهو من أجلاء أصحابه، قدس الله سره ـ: قصدت يوماً زيارة الشيخ ـ قدس الله سره ـ، فوجدته واقفاً في البستان على حافة الحوض يتكلم معه شيخ لم أعرفه، فلما سلمت عليه انصرف ذلك الشيخ إلى ناحية من نواحي البستان، فقال لي ـ قدس الله سره ـ: هذا الخضر مرتين، فلم أتكلم، بل سكتُّ وبعون الله تعالى لم أجد في نفسي ميلاً إليه لا ظاهراً ولا باطناً، ثم بعد يومين أو ثلاثة رأيته أيضاً في بستان الخانقاه يتحدث مع الشيخ ـ قدس الله سره ـ، وبعد مضي شهرين لقيته أيضاً في سوق بخارى، فتبسم لي فسلمت عليه فعانقني وباسطني وسألني عن أحوالي، فلما رجعت إلى قصر العارفان وتمثلت في أعتاب الشيخ ـ قدس الله سره ـ، قال لي: إنك اجتمعت بالخضر في سوق بخارى.

---

(١) قوله (أبداً): قال تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾. (ع).

وسافر بعض العلماء مع جماعة من مريدي الشيخ ـ قدس الله سره ـ إلى العراق قال: فلما وصلنا إلى سمنان سمعنا أن هناك رجلاً مباركاً اسمه السيد محمود من مخلصي الشيخ، فقصدنا زيارته جميعاً، وسألناه عن سبب اتصاله بالشيخ، فقال: كنت رأيت في المنام رسول الله ﷺ، أو رجلاً جليلاً من الأكابر، وهو في مكان جميل، وإلى جانبه رجل مهاب، فقلت للنبيّ ﷺ، أو لذلك الرجل الجليل مع التواضع والأدب: إني لم أتشرف بصحبتكم، ولم أحظ ببركة زمنكم والاجتماع بكم، وفاتتني هذه السعادة، فماذا أصنع؟ فقال لي: إن أردت أن تنال بركتي، وفضل رؤيتي، فعليك بمتابعة بهاء الدين، وأشار إلى ذلك الرجل الذي إلى جانبه، وما كنت رأيت الشيخ قبل ذلك، فلما أفقت قيدت اسمه وحليته على ظهر كتاب.

ثم بعد مدة مديدة كنت جالساً على دكان بزاز[1] فرأيت رجلاً عليه نور وهيبة قد جاء وجلس على الدكان، فلما رأيت وجهه تذكرت تلك الحلية، فحصل لي حال عظيم، فلما سرى عني سألته أن يشرّف منزلي، فأجاب إلى ذلك، وقام يمشي أمامي وأنا خلفه، فلم يلتفت حتى وصل إلى منزلي، وهذه أول كرامة شاهدتها منه، فإنه لم ير منزلي قبل أصلاً، ثم لما دخل قصد حجرة خاصة بي، وكان فيها خزانة كتب لي، فمد يده الشريفة واستخرج من بينها كتاباً وأعطاني إياه، وقال: ماذا كتبت على ظهره؟ فإذا هو الكتاب الذي كتبت على ظهره الرؤيا وتاريخها، وإذا له سبع سنين، فصار لي من اطلاعه على ذلك حال أعظم من الأول، حتى إذا انجلى عني ما أجده قابلني باللطف، وقبلني أن أكون من زمرة أصحابه، وشرّفني بسعادة خدمة بابه.

ودعاه بعض أصحابه في بخارى، فلما أذن المغرب قال للمولى نجم الدين دادَك: أتمتثل كل ما آمرك به؟ قال: نعم، قال: فإن أمرتك بالسرقة تفعلها؟ قال: لا، قال: ولِمَ؟ قال: لأن حقوق الله تكفرها التوبة، وهذه من حقوق

---

(١) بزاز: بائع الثياب.

العباد، فقال: إن لم تمتثل أمرنا فلا تصحبنا! ففزع المولى نجم الدين فزعاً شديداً، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأظهر التوبة والندم، وعزم على أن لا يعصي له أمراً، فرحمه الحاضرون وشفعوا له عنده، وسألوه العفو عنه، فعفا عنه.

ثم خرج سيدنا الشيخ ـ قدس الله سره ـ وفي خدمته المولى نجم الدين، ونفر من أصحابه، وسار إلى محلة باب سمرقند، فأشار الشيخ إلى بيت، وقال: اخرقوا جداره وادخلوا، تجدوا في الموضع الفلاني منه كيساً مملوءاً أمتعة فأتوا بها، ففعلوا، ثم ساروا إلى زاوية هنالك وجلسوا، فبعد ساعة سمعوا نبح الكلاب، فأرسل المولى نجم الدين، وبعض أصحابه إلى ذلك البيت، فوجدوا السرّاق قد خرقوا جداراً آخر ودخلوا، فلم يجدوا شيئاً، فقالوا لبعضهم: جاء قبلنا سرّاق وأخذوا ما فيه، فعجب أصحاب الشيخ ـ قدس الله سره ـ من ذلك الأمر، وكان صاحب البيت في بستان له، فأرسل الشيخ صباحاً إليه الأمتعة مع مريد، وأمره أن يخبره أن الفقراء مروا على بيتك، فاطلعوا على هذه القضية، فخلصوا الثياب من السارقين، ثم نظر إلى المولى نجم الدين، وقال له: لو امتثلت الأمر ابتداء لوجدت حكماً جمة[1].

وروي عن بعض أصحابه أنه قال: زارني الشيخ ـ قدس الله سره ـ يوماً، فخجلت خجلاً عظيماً، إذ لم يكن وقتئذٍ عندي دقيق، فأتيت بحمل دقيق، فقال لي: اخبز من هذا الدقيق، ولا تخبر أحداً بقلته أو كثرته، فأقام عندي عشرة أشهر، والمريدون والأحباب يتواردون إلى منزلي لزيارته دائماً، ونحن نخبز لهم من هذا الدقيق كل ذلك وهو بحاله، ثم أني بعد ذلك أخبرت أهلي وخالفت أمر الشيخ فزالت البركة، وانتهى الدقيق بأقرب وقت، فكان ذلك أعظم سبب لقوّة يقيني بكمال ولايته، وعظيم كرامته[2].

---

(١) قوله (حكماً جمة): يتعين على من خشي وقوع سرقةٍ لمال غيره أن يحفظه له، وقد قرّر الفقهاء مثل ذلك في أحكام الفقه. (ع).

(٢) قوله (وعظيم كرامته): ورد في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها ما يدل على مثل هذا. (ع).

وقال الشيخ محمد زاهد ـ قدس سره ـ: كنت إبان السلوك جالساً معه ـ قدس الله سره ـ، وكان ذلك في فصل الربيع، فاشتهت نفسي البطيخ فطلبته منه، وفي القرب منا ماء جار، فقال: اذهب إلى ذلك الماء، فذهبت، فوجدت فيه بطيخة قطف ساعتها، فحصل لي تمام الاعتقاد بحضرته نفعنا الله ببركته.

ونقل عن بعض أصحابه أنه قال: لما تشرفت بصحبته ـ قدس الله سره ـ كان الشيخ شادي أحد أجلاء أصحابه كثيراً ما يعظني، وينصحني، ويؤدبني، فمما أمرني به أن لا يمدّ أحد منا رجله إلى جهة يكون فيها الشيخ ـ قدس الله سره ـ، فأتيت يوماً من غزيوت إلى قصر العارفان في وقت شدة الحر لزيارته، فآويت إلى ظل شجرة في الطريق واضطجعت، فجاء حيوان فلدغني في رجلي مرتين، فقمت وقد تألمت ألماً شديداً، ثم اضطجعت فعاد مرة ثالثة كذلك، فجلست أتفكر في سبب ذلك مدّة، حتى تذكرت نصيحة الشيخ شادي، ووجدت أني قد مددت رجلي إلى ناحية قصر العارفان، وكان الشيخ وقتئذٍ ثَمَّ، فعلمت أن ذلك تأديب لي على ما فرط مني.

وذكر الشيخ علاء الدين أنه ـ قدس الله سره ـ أمر الأمير حسيناً أن يجمع حطباً كثيراً، وذلك في فصل الشتاء، فلما تم ما أمره به أرسل الله في اليوم الثاني منه ثلجاً عظيماً بحيث نزل أربعين مرة، ثم إن الشيخ ـ قدس الله سره ـ سافر وقتئذٍ إلى خوارزم، وفي خدمته الشيخ شادي، فلما بلغا نهر حرام أمره أن يمشي على الماء، فخاف الشيخ شادي، فأمره غير مرة فلم يفعل، فنظر إليه نظرة عظيمة غاب بها عن نفسه برهة، فلما أفاق وضع قدمه على وجه الماء ومشى والشيخ خلفه، فلما جاوزاه قال: انظر هل ابتل شيء من خفك أو لا؟ فنظر، فلم يجد فيه بللاً أصلاً بقدرة الله تعالى[١].

وقال بعض أصحابه: سبب محبتي له وصحبتي معه ـ قدس الله سره ـ أني كنت يوماً في سوق بخارى في دكان لي، فأتى ـ قدس الله سره ـ وجلس إلى

---

(١) قوله (تعالى): وقع مع جيش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه مثل هذا. (ع).

دكاني، وشرع يذكر بعض مناقب أبي يزيد إلى أن قال:

ومما ذُكِر في مناقبه أنه قال: لو مس طرف ثوبي أحداً صار محباً لي، ومشغوفاً بي، ومشى خلفي.

وأنا أقول: لو حركت كمي لجعلت جميع أهل بخارى كبيرهم وصغيرهم والهين بي هائمين بحبي، يذرون البيت والدكان ويتبعوني، ووضع يده المباركة على كمه، فوقع بصري حالتئذٍ على كمه، فاعتراني حال غبت فيه عن نفسي، ولبثت زمناً طويلاً كذلك، فلما أفقت استولت عليّ سلطنة محبته، وتركت البيت والدكان ولزمت خدمته.

وعن بعض أصحابه أنه قال: سألته ـ قدس الله سره ـ يوماً أن يدعو الله لي بأن يأتيني غلام، فدعا لي، فولد لي ولد ببركة دعائه، ثم مات، فذكرت ذلك له، فقال: إنك طلبت منا أن يأتيك ولد، وقد أعطاك الله ذلك وأخذه، ولكن نرجوه تعالى أن يعطيك الله تعالى ببركة دعاء الفقراء ولدين يعمران مدّة طويلة، فبعد أيام جاءني غلامان، فمرض أحدهما، فأخبرته فقال ـ قدس الله سره ـ: هو ولدي، فما لك والاشتغال به، فإنه يمرض كثيراً، ثم يشفى، وكان كما ذكر ـ رضي الله عنه ـ.

وعن الشيخ عارف الديك كراني ـ أحد أجلاء خلفاء السيد أمير كلال، قدس الله سره ـ أنه قال:

ذهبنا يوماً لزيارة الشيخ بهاء الدين في قصر العارفان، فلما رجعنا إلى بخارى كان معنا زمرة من فقرائها، فتكلم شخص منهم على الشيخ ـ رضي الله عنه ـ فنهيناه، وقلنا له: إنك لا تعرفه، ولا يجوز لك أن تسيء الظن والأدب مع أولياء الله تعالى، فلم يتقه، فجاء زنبور ودخل فمه حالاً ولدغه، فتألم ألماً شديداً لم يستطع معه صبراً، فقلنا له: هذا من سوء أدبك مع الشيخ، فبكى بكاء كثيراً، ثم تاب وأناب، فبرأ في الحال.

• حاصر عسكر صحراء قبجاق مدينة بخارى مرة، فاشتد البلاء على أهلها،

وهلك منهم خلق كثير، فأرسل أميرها إليه - قدس الله سره - نفراً من خاصته بأنا عجزنا عن مقاومة الأعداء بالكلية، وفسد كل ما دبرناه، وتقطعت بنا الأسباب، ولم يبق ملجأ نلتجىء إليه من هؤلاء الظلمة إلا أنتم، فتضرعوا إلى الله تعالى أن يخلص المسلمين من أيديهم، فهذا وقت المساعدة والأخذ باليد، فقال لهم: نتضرع إليه تعالى الليلة، وننظر ما يفعل رب العزة جل جلاله، فلما طلع الفجر أخبرهم بأني بشرت بانجلاء البلاء بعد ستة أيام، فبشروا أميركم بذلك، فسرّ أهل بخارى سروراً تاماً، وكان كما ذكر فإنه بعد ستة أيام رفع عسكر الأعداء الحصار عن البلدة، وانجلوا عن آخرهم.

وعن بعض أصحابه أنه قال: تمثلت مرة بين يدي حضرته - قدس الله سره -، فما مضت لمحة إلا وقد فقدت الحال التي كنت أجدها من قبل، فقلت في سري: لعل الشيخ - رضي الله عنه - سلبها مني، فما تم هذا الخاطر إلا والتفت إلى أحد أصحابه، وقال: كل ما عندنا فهو حل لكم، وأما صيد الكلب غير المعلم فهو حرام، لا يجوز أكله.

وقال الشيخ شادي: لما سعدت بمحبة الشيخ - قدس الله سره - سهل عليّ البذل والإيثار، فاجتمع عندي يوماً مائة دينار، فتقدم إليّ أهلي في ادخارها، فلضعف اليقين وافقتهم، ثم ذهبت إلى بخارى، فاشتريت خفاً كيمختياً وغيره، ثم رجعت قاصداً زيارته - قدس الله سره - في قصر العارفان، فلما تمثلت بين يديه قال: لم ذهبت إلى بخارى؟ فقلت: لمصلحة عرضت لي هناك، فقال: ائتني بذلك الخف الكيمختي، وبقية ما اشتريته، فأتيت بها سريعاً، فقال: وأحضر بقية المائة دينار، فجئته بها فنظر إليّ، وقال: لو شئت لجعلت لك الجبل بحول الله عز وجل ذهباً، ولكن لا ينبغي لنا الالتفات في عالم الفناء إلى مثل هذه الأشياء، فإن نظر هذه الطائفة من وراء هذا العالم، فكيف تدخر وأنت تعلم أن ما كان لك لا ينقص منه شيء؛ إني أعظك أن تعود لمثل هذا.

ولقد أحببنا الاقتصار على التيمن بهذا المقدار من كراماته الكبار، ومن أحب الزيادة على ذلك، فعليه بالمناقب فإنه يرى العجائب هنالك.

ندارة حاله عند ارتحاله

قال المولى محمد مسكين وكان من أكابر أصحابه: توفي أحد الصالحين في بخارى، فذهب الشيخ ـ قدس الله سره ـ لتعزية أهله، فأظهروا هم وأصحابهم جزعاً عظيماً، وأفعالاً كرهها الحاضرون، ونهوهم عنها، وعابوها عليهم، فقال ـ قدس الله سره ـ وقتئذٍ: متى حضرني الموت، أنا أعلِّم الفقراء كيف يموتون!!

فلم يزل هذا الكلام في مخيلتي، حتى مرض الشيخ مرضه الأخير، فخرج إلى الرباط ودخل خلوته، وطفق أصحابه يتواردون عليه ويلازمونه، وهو يوصي كلاً منهم بما يناسبه، ثم رفع يديه بالدعاء فدعا، ثم مسح بها وجهه، ثم لقي ربه.

وقال الشيخ علي الداماد وكان من خدمة الشيخ ـ قدس الله سره ـ: أمرني الشيخ بحفر قبره الأنور، فلما أن أتممته، وقد خطر لي أنه مَنْ يخلفه في قومه، فرفع رأسه المبارك، وقال: لم يزل الأمر على ما ذكرنا في طريق الحجاز أن من أحب متابعتي فليتبع محمد بارسا، ثم انتقل ـ رضي الله عنه ـ في اليوم الثاني منه.

وقال الشيخ علاء الدين العطار: كنا نقرأ عند احتضار حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ «سورة يس» فلما بلغنا نصفها شرعت الأنوار تسطع، فاشتغلنا بالكلمة الطيبة، فتوفي ـ قدس الله سره ـ.

وذلك ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وسنة أربع وسبعون سنة.

ودفن في بستانه في الموضع الذي أمر به، وبنى عليه أتباعه قبة عظيمة، ودحوا البستان وجعلوه مسجداً فسيحاً، وأجرى الملوك عليه أوقافاً جمة وبالغوا بالاعتناء به، وترفيع شأنه، ولم يزل كذلك إلى يومنا هذا يستغاث بجنابه،

ويكتحل بتراب أعتابه، ويلتجأ إلى أبوابه، نفعنا الله به.

قال قطب أهل العزلة بركة أهل الزمان الشيخ عبد الوهاب - قدس الله سره -:

لما دفن حضرة الشيخ - رضي الله عنه - فتح من جهة وجهه المبارك له طاقة إلى الجنة كما ورد: «القبر روضة من رياض الجنة»[1] فدخلت عليه حوريتان، وسلمتا عليه، وقالتا له: نحن منذ خلقنا أكرم الكرماء لك ننتظر خدمتك.

فقال - قدس الله سره -: إني عاهدت الله تعالى أن لا ألتفت إلى شيء ما من الأشياء ما لم أتشرف برؤيته التي بلا كيف ولا مثال وأشفع بجميع من اتصل بي، وسمع مني القول الحق وعمل به.

وعن أحد فضلاء أصحابه أنه قال: بلغني وأنا في بلاد الكش خبر وفاته - قدس الله سره -، فحزنت حزناً عظيماً، وأضمرت في نفسي أن أعود إلى المدرسة، ففي تلك الليلة رأيته - رضي الله عنه - في المنام وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿أفإنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ [آل عمران: ١٤٤] ويقول: قال زيد بن حارث.

ثم انتبهت وقد فهمت ما أشار إليه بالآية الكريمة من أنه - قدس الله سره -: لا فرق في إمداده لأصحابه بين حياته ومماته، ولم أفهم معنى قوله: قال زيد بن حارث.

ولم أزل أتفكر في ذلك مدة، حتى رأيته - قدس الله سره - مرة ثانية في المنام، فقال: قال زيد بن حارث: الدين واحد.

فعلمت من ذلك أن ما كان عليه - قدس الله سره - هو الحق، وأن أهل الله لا يدلون في حياتهم، وبعد مماتهم إلا على الطريق المستقيم، وكل ما يظهرونه

---

(١) حديث «القبر روضة»: أخرجه الترمذي في «سننه» (٥/٦٣٩، ٦٤٠) برقم (٢٤٦٠). وحسّنه. وعزاه السخاوي في «المقاصد» (ص٤٨٤) إلى الترمذي والطبراني وضعفه.

فمن الكتاب والسنة، وآثار الصحابة الكرام، وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وله ـ قدس الله سره ـ خلفاء حنفاء كثيرو العدد يضيق عن حصرهم نطاق هذا المجلد، من أعظمهم ذكراً، وأشرفهم قدراً، فخر الأولياء، ونخبة الأصفياء سيدنا الشيخ محمد بن محمد بن محمود الحافظي البخاري المشهور بپارسا ـ قدس سره ـ:

كان في العلم والهداية آية، وأي آية! لم تدرك لها غاية.

ولقب بپارسا لأنه جاء أيام الرياضة لزيارة الشيخ ـ قدس الله سره العزيز ـ ووقف عند الباب ينتظر نظره الإبريز.

فخرجت جارية فرأته فرجعت، فقال لها الشيخ: من بالباب؟ قالت: شاب بصورة پارسا ـ وهو بمعنى المتعبد ـ فخرج الشيخ، وقال له: أنت كنت پارسا، فاشتهر به، وبشره بأنه من المرادين، وأن كل ما يقوله يقبله الحق تعالى، وكان يعبر عن نفسه في جانب حضرة الشيخ بالمحب المخلص.

وقال له عند مرض موته: كل ما اكتسبته في الطريقة أودعته إياك، كما أودعه إياك الشيخ عارف الديك كراني.

وقال في شأنه: المقصود من وجودي ظهوره، وحضر أحد أحفاده لخدمة الشيخ عبيدالله الأحرار، فأقبل عليه وعظمه، ووقره غاية التوقير، وقال له: رأى رجل في المنام سيدنا النقشبند بعد وفاته، فقال له: ماذا أعمل حتى أُحَصِّل النجاة، قال: كن مشتغلاً بحالة ينبغي أن يكون العبد عليها عند آخر نفس من أنفاسه، يعني: بالحضور التام، ثم قال له: إن جدك محمد پارسا كان على حالة بحيث دخل سيدنا النقشبند يوماً يتنزه في بستانه، فرآه جالساً على ضفة الحوض مستغرقاً وفانياً في الله عز وجل ورجلاه في الماء، فنزل حضرة الشيخ في الماء، وقبل رجله، وقال: اللهم ارحمني بحرمة هذه الرجل.

كـرامـاتـه

اعلم أن مرتبته ودرجته فوق أن توصف بكرامة، ومقامه أرفع من أن يثنى عليه بخوارق العادة، لأن وجوده الشريف أعظم كرامة.

وقد قيل: إنه كان ـ قدس سره ـ كثيراً ما يبالغ في إخفاء تصرفاته، غير أنه اضطر مرة لإظهار كرامة، لو لم يفعلها لوقع على مشايخ سلسلته إهانة عظيمة، وهي:

أن الشيخ محمد بن محمد بن محمد شمس الدين الجزري قدم في عهد مرزاالغ بك إلى سمرقند، لتصحيح أسانيد المحدثين فيما وراء النهر، فقال له بعض الحساد من أهل الفساد: إن الشيخ محمد پارسا في بخارى يحدّث أحاديث لا يعرف أحد سندها، فإن حققت ذلك نلت ثواباً جزيلاً، فالتمس من السلطان حضوره، فلما وصل عقد له مجلساً عظيماً، مؤلفاً من شيخ الإسلام يومئذٍ الشيخ عصام الدين النحوي المشهور والعلماء، وسأله عن حديث فرواه بإسناده، فقال له الجزري: لا كلام في صحة هذا الحديث، لكن هذا السند لم يثبت عندي، ففرح بذلك حساده، ثم ذكر سنداً آخر لذلك الحديث، فأجابه بما أجابه به أولاً، ففهم ـ قدس سره ـ أن كل سند نقله لا يقبله، فسكت لحظة، ثم التفت إلى الشيخ العصام، وقال له: هل المسند الفلاني صحيح عندكم، وإسناده معتمد عليه، فقال الشيخ: نعم، هو كتاب معتبر عند المحدثين، وما تكلم أحد في أسانيده، فإن كان سندك فيه، فلا كلام لنا فيه، فقال ـ قدس الله سره ـ: هذا المسند هو في خزانتكم في محل كذا، تحت كتاب كذا، وحجمه وجلده كذا وكذا، وهذا الحديث الذي ذكرته الآن بهذا السندموجود فيه، في الصحيفة الفلانية، فاطلبوه، وكان العصام متردداً في وجود هذا الكتاب في خزانته، فلما حضر وجدوا الحديث بإسناده فيه، فتعجب الحاضرون، ولا سيما العصام إذ لم يكن الشيخ دخل إلى بيته، ولا رأى كتبه. وخجلوا منه.

وبلغ ذلك السلطان فاستحى من إشخاصه، وصار ذلك سبب شهرة مقامه،

واعتقاد أكثر العلماء به، وكف ألسنتهم عنه.

وكان ـ قدس سره ـ يشفع، وهو في بخارى عند ملك خراسان مرزاشاه رخ كثيراً، فعظم ذلك على ملك سمرقند خليل مرزا سليل السلطان تيمور، وأرسل إليه أن اذهب إلى وادي كولك، عسى أن يسعد من بركتك جماعة بشرف الإسلام، فأجابه لذلك على أن يزور مقابر الأولياء أولاً، فزار مقام سيدنا النقشبند، فلما فرغ من زيارته ظهر عليه أثر الهيبة والعظمة، ثم زار الأمير كلال، ومكث ملياً، ثم ركب وضرب فرسه بسوط، وصعد على مكان مرتفع، وتوجه نحو خراسان، وأنشد ما معربه:

الكل فاقلبه لا فوقاً تقر ولا تحتاً ليعلم من في حلبة الشرف

ثم رجع إلى منزله، وإذا برسول من قبل مرزاشاه رخ قد جاء بكتاب، فقرىء في المسجد الجامع، فإذا فيه: إني قاصدك فاستعد للقتال، وأرسل إلى خليل مرزا في سمرقند، ثم جاء شاه رخ ووقعت الحرب بينهما، فقتل خليل مرزا.

ولو لم يكن منها إلا ما رواه مولانا الشيخ محمد الفغانزي أحد أجلاء أصحاب سيدنا النقشبند، أنه: كان يخرج من المسجد بعد صلاة العشاء، ويقف على الباب متكئاً على عصاه، ويتكلم مع أصحابه، ثم يسكت، فيغيب عن نفسه، حتى يؤذن الفجر، فيدخل المسجد لكفى.

وفاته

خرج حاجاً سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة من بخارى على طريق نسف، فلما وصل نيسابور حصل بأصحابه فتور من خوف الطريق، وشدة الحر، ففتح ديوان مولانا جلال الدين الرومي ـ رضي الله عنه ـ متفائلاً، فخرج هذان البيتان:

سيروا بتوفيق الإله توجهوا سير البدور إلى بروج سعودها
كل البلاد مبارك في حقكم لا ضير في أغوارها ونجودها

فذهب قاصداً مكة المكرمة، حتى إذا أتم الحج والعمرة لله توجه إلى المدينة المنورة متوعكاً، فلم يزل يزداد مرضه، حتى وصل إليها.

ثم توفي ثاني يوم من وصوله عن ثلاث وسبعين سنة، وذلك يوم الخميس رابع عشر ذي الحجة من العام المذكور وحضر جنازته أهل المدينة، وكان يومئذٍ ثَمَّ الشيخ شمس الدين الفناري الرومي رحمه الله تعالى، وركب الحاج.

ودفن ليلة الجمعة في البقيع عند قبة سيدنا العباس رضي الله عنه بمشهد عظيم.

وكان له اليد الطولى في كافة العلوم، لا سيما في علم التصوّف، فإن له فيه تآليف عديدة مفيدة فارسية وعربية، منها: كتاب «منطق الطير»، وكتاب «فصل الخطاب».

لطيفة: قد استخرج بعض أدباء عصره تاريخ وفاته من اسم هذا الكتاب، ولكن على طريقة القدماء، من وضع التاريخ خلال البيت، فنظمته على اصطلاح المتأخرين فقلت:

أيها الراجي جوابي حينما زاد الجوى بي
عند طه المستطاب أرخوا فصل خطابي
وهو بالحب ثوى بي في علا دار الثواب

وقد أعقب أنجب العلماء، وأعلم النجباء، الولي الكامل، والملامي الفاضل الشيخ حافظ الدين أبو نصر پارسا ـ قدس سره ـ:

بلغ في علوم الشريعة والطريقة مبلغ والده العزيز، بل كان في نفي الوجود وستر الحال وبذل الموجود أقوى منه، حتى لو سئل عن أقل مسئلة يقول للسائل: راجع الكتاب، فإذا فتح السائل الكتاب تخرج المسئلة من أول وهلة.

توفي عام خمسة وستين وثمانمائة، وله خلفاء كثيرون من أشهرهم ثلاثة، الأول:

الشيخ سليمان الفركتي ـ قدس سره ـ.

والثاني: الشيخ عبد الرحيم النيستاني قدّس سره، وكان أخا الشيخ أبي نصر من الرضاع ورفيق درسه.

والثالث: الشيخ بير خلط ـ قدس سره ـ. روي عنه أنه كان في جماعة يذكر شمائل شيخه، فأذن بالظهر، فقام أكثرهم قبل تمام كلامه، فقال: سمعت من الشيخ محمد پارسا هذا البيت:

يكون قضاء للصلاة ولا قضا لصحبتنا فالخسر فوت زمانها(١)

ومن أجلّ أصحاب سيدنا النقشبند:

بحر المعارف والعارف كل العارف: الشيخ خسرو الكرميني ـ قدس سره ـ.

وشيخ الإسلام، الإمام العلام: الشيخ عبد العزيز ـ قدس سره ـ.

والحبر الكامل، والولي الواصل: الشيخ عبدالله الخجندي ـ قدس سره ـ.

والحجة الإيمانية الباهرة، والمحجة العرفانية الظاهرة: الشيخ سيف الدين البخاري ـ قدس سره ـ.

والمرشد كل المرشد، مؤيد طريق الحق وأي مؤيد: الشيخ لطف الله ـ قدس سره ـ.

ومظهر الفضائل الغيبية، ومركز الشمائل القطبية: الشيخ عزيز البخاري ـ قدس سره ـ.

ونخبة المرشدين، المشيدين دعائم الدين: الشيخ مسافر الخوارزمي

---

(١) قوله (فوت زمانها): الصلاة تقضى إذا فاتت لعذر أو تعمداً، أما الصحبة فلا تقضى إذا فاتت لعذر لأنها لا خلف لها.

ويحتمل أن كلمة القضاء استعملت بمعنى الأداء، فيصير معنى البيت: يكون أداء للصلاة بأوقاتها وحقوقها، ولا أداء لحقوق صحبة الأولياء لأنَّ أكثر أهل عصرهم يخسرونها إما بعدم مجالستهم أو لسوء أدبهم. (ع).

ـ قدس سره ـ كان بركة وقته، ومفرداً في نعته.

روي عنه أنه قال: كنت مشغوفاً بحب السماع، وأنا في صحبة الشيخ ـ قدس الله سره العزيز ـ، فاتفقت يوماً مع أصحابه على إحضار القوال، ومعه الدف والناي إلى مجلس الشيخ، فلما حضر استمع له، ولم يمنعنا غير أنه قال: انكارنيست وأين كارنيست أي: لا أفعل هذا، ولا أنكره[١].

ومن أجلهم الغريق في بحار الشهود، الذائق أعلى مقامات وحدة الوجود[٢]: الشيخ أبو بكر الافسيحي ـ قدس سره ـ.

والمحقق الصمداني، والمربي الرباني: الشيخ محمد الطوايسي الخياط ـ قدس سره ـ.

والمظهر الأظهر الرحماني: الشيخ علاء الدين الغجدواني ـ قدس سره ـ كان إمام دهره، وعارف عصره.

ومن كلامه: صحبة مشايخ الوقت مغتنم، ولو لم يكونوا برتبة القدماء، فقد قال سيدنا النقشبند: قال الأكابر: السنور الحي، أحسن وأنفع من الأسد الميت[٣].

ولما توفي خطب الشيخ أبو نصر پارسا خطبة قال في آخرها: كنا ونحن في جوار الشيخ علاء الدين ببركة توجهه وحمايته آمنين، فأصبحنا في خوف النفس بعده[٤].

---

(١) قوله (ولا أنكره): ما فعله الشيخ يدل على ورعه واحتياطه خروجاً من الخلاف في الدف والناي الجاري بين الفقهاء من مبيح ومحرّم، وممن ذهب إلى الإباحة الشيخ عبد الغني النابلسي. وهذا بشرط الخلو عن المحرم واللهو. (ع).

(٢) قوله (وحدة الوجود): وحدة الوجود الواجب الذاتي وهي كونه تعالى واحداً في ذاته وصفاته وأفعاله. (ع).

(٣) قوله (الميت): وذلك لأن إمدادات القدماء تسري إلى خلفاءهم الأحياء، والولي في البرزخ مجاله في شهود المواكب الإلهية، وظهره لبرزخ الدنيا، وإن أذن له بالتصرف في بعض الأوقات فهو مشغوف بشهوده الملكوتي والجبروتي (ع).

(٤) قوله (بعده): وجود المؤمنين أمان لأهل الأرض، فكيف بالأولياء والعارفين. قال تعالى: =

وللشيخ علاء الدين أصحاب بلا حساب من أشهرهم:

الشيخ بدر الدين الصرافاني ـ قدس سره ـ نسبة إلى صرافان ـ بصاد، فراء مهملتين، فألف، ففاء، فألف، فنون ـ محلة في بخارى.

ومن أجلّ أصحاب سيدنا النقشبند: العالم بالله تعالى المعرض عمن سواه: الشيخ محمد الفغانزي ـ قدس سره ـ.

والظاهر بأعلى مظاهر السعود: مولانا الشيخ أمير محمود القصر مغاني ـ قدس سره ـ.

وقبلة توجه المرشدين: الشيخ قطب الدين ـ قدس سره ـ.

وكوكب سماء الإرشاد الأكمل الشيخ: أفضل الخالدي ـ قدس سره ـ.

وافتخار الأبرار، وزينة العارفين الأخيار: الشيخ شادي ـ قدس سره ـ.

وبركة العموم، المتحلي بأشرف العلوم: الشيخ درويش نيكروز ـ قدس سره ـ.

وملجأ إفادة المريدين، ووسيلة سعادة المسترشدين: الشيخ يوسف ـ قدس سره ـ.

والعارف الكامل، بحر المعارف والفضائل: الشيخ سراج الدين كلال البيرمسي ـ قدس سره ـ نسبة إلى بيرمس ـ وهي قصبة من أعمال بخارى ـ كان من مشايخ سيدنا عبيد الله أحرار.

يقول ـ قدس سره ـ: وسمعت أن الشيخ سعد الدين الكاشغري صحبه أولاً، فلقنه الذكر بالنفي والإثبات هكذا: وهو أن يبتدىء رأس ألف: (لا) من تحت السرة، وكرسي (لا) على صدره محاذي الثدي الأيمن، ورأس ألف (لا) الثاني على القلب الصنوبري، و(إله) تتصل بكرسي (لا) محاذي الثدي الأيمن،

---

* ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ الآية إلى قوله: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا﴾. (ع).

(إلا الله محمد رسول الله) تعتبر متصلة بالقلب، ويحفظ الكلمة الطيبة على هذا الشكل، ويكون مشتغلاً على الدوام.

ويقول: كان من عادته أنه متى قام يكنس داره، جاءه ضيف، وربما جاء والمكنسة في يده، فسألته عن سرّ ذلك فقال: إن لي محباً من الجان يخبرني بمن أراد زيارتي.

ولكل من هؤلاء الأولياء خلفاء كبراء، وأصحاب أتقياء، وللخلفاء خلفاء لا يحصون عدداً، ولا يدركون مدداً.

وأعظم من سرى إليه سرّ هذه النسبة العلية من سيدنا النقشبند شيخ هذه السلسلة الشريفة: سيدنا الشيخ علاء الدين العطار - رضي الله عنه وعنهم -.

* * *

سيدنا الشيخ محمد بن محمد
علاء الدين البخاري الخوارزمي العطار
قدس الله سره

تاج هام الأولياء الكاملين، ونتاج أعقام العلماء العاملين، ثمرة شجرة العلم الرباني، ونضرة وجه العالم الإنساني، محيي رفات العرفان، وماحي آفات الاغيان[1]، مظهر الإرشاد الخاص والعام، ومنهل إمداد الخاص والعام، أدل دالّ على الحق للخلق، وأول ذالٍّ لشوكة الباطن بالحق، تصدر في دست دولة القطبانية، ونهض بأعباء الخلافة الروحانية، فأربى بما ربّى نفوس أحبار إخوانه على كبار أخدانه، حتى لهج بذكره الكون أرضه وسماؤه، وابتهج في عصره الدين، ولا غرو! فهو في الحقيقة علاؤه .

ولد ـ قدس سره ـ سنة ونشأ في حجر والده على أجمل الأحوال، ثم لما توفي والده ـ رضي الله عنه ـ ترك ثلاثة أنجال، فخرج من ميراثه لأخويه، واختار التجرد لتحصيل العلوم في مدارس بخارى، حتى نبغ في جميع الفنون، وبلغ منها فوق ما تتعلق به الظنون.

وكان لسيدنا شاه نقشبند ـ قدس الله سره العزيز ـ بنت صغيرة، فقال لأمها: إذا بلغت فآذنيني، فلما بلغت أخبرته، فتوجه من قصر العارفان إلى بخارى إلى المدرسة التي فيها الشيخ علاء الدين ـ قدس الله سره ـ، فلما أن دخل حجرته لم يجد بها غير خلق حصير ينام عليه، وآجرة يتوسدها وإبريقاً مكسوراً يتوضأ منه، فلما أبصر الشيخ سيدنا شاه نقشبند ـ قدّس الله سرهما ـ أكب على قدميه فقبلهما، وجعل رأسه عليهما فقال له: إن لي بنتاً قد بلغت

---

(١) قوله (الأغيان): جمع غين وهو ما يطرأ على قلب العارف من رؤيته للأغيار فيذهب حضوره أو شهوده. (ع).

اليوم والله تبارك وتعالى قد أمرني أن أنكحك إياها، قال له: إن هذه لسعادة عظيمة أسعدني الله ـ عز وجل ـ بها، غير أني لا أملك ما أنفق في ذلك، وحالي كما رأيتم، فقال له: ما كتب الله لكم من الرزق يأتيكم إن شاء الله تعالى، فلا تتفكر في ذلك، ثم عقد له عليها، فلما بنى بها أمره بالخروج من المدرسة، وأعطاه طبقاً مملوءاً تفاحاً، وأمره أن يحمله على رأسه، ويجوب الأسواق والأماكن كلها حافي القدم ينادي بأعلى صوته: يا تفاح! حتى يبيعه، فوضع الطبق على رأسه، ودخل السوق وهو يقول: يا تفاح! فلما رآه أخواه ـ وكانا من أولي المكانة والاحترام ـ غضبا لذلك أشد الغضب، فبلغ سيدنا شاه نقشبند ـ قدّس الله سره العزيز ـ خبر غضبهما، فأمره أن يذهب بطبق التفاح فيضعه قريباً من محل أخويه ويبيعه، ففعل كما أمره، وأقام على ذلك مدّة حتى لقنه الذكر الخفي.

وكان ـ قدّس الله سره ـ يقربه في بداية حاله إليه، فسأله بعض خواص أصحابه عن ذلك، فقال: حذراً من أن يأكله الذئب[١]، ورجاء أن يصير مظهراً عظيماً[٢].

وقال ـ قدّس الله سره ـ: قال لي الشيخ محمد راهين يوماً: كيف قلبك؟ فقلت له: لا أعرف كيفيته، فقال: أما أنا فإني أراه كالقمر ليلة ثلاثة. فذكرت ذلك لسيدنا شاه نقشبند ـ قدّس الله سره ـ، فقال: هذا بالنظر إلى قلبه[٣]، وكان وقتئذٍ واقفاً فوضع قدمه على قدمي فغبت عن نفسي، فرأيت جميع الموجودات منطوية في قلبي[٤]، فلما أفقت قال: إذا كان القلب هكذا فكيف يتسنى لأحد

---

١) قوله (الذئب): ذئب الإنسان شيطانه كما ورد في رواية: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». (ع).

٢) قوله (مظهراً عظيماً): أي من مظاهر الوراثة المحمدية القائمين بآداب العبودية وأحكامها (ع).

٣) قوله (إلى قلبه): لأن المؤمن مرآة أخيه، والعين التي ترى بها تُرى بها. (ع).

٤) قوله (في قلبي): من أقوالهم:

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر.

إدراكه، ولهذا قال في الحديث القدسي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[1]، وهذا من الأسرار الغامضة فهم من فهم.

وذكر سيدنا الشيخ عبيد الله أحرار: أن الشيخ محمد بارسا ـ قدّس الله سره ـ، كثيراً ما كان يحصل له الغيبة وقت المراقبة والاستحضار، بخلاف الشيخ علاء الدين ـ قدس الله سره ـ، فإنه كان من أهل الصحو، وهو أتم من الغيبة وأكمل.

ثم إن سيدنا شاه نقشبند ـ قدس الله سره ـ أخذ يربيه أولى تربية، ويرقيه أعلى ترقية، ويهيئه للدخول إلى حضرة القرب والوصول، والعروج في بروج العرفان، والخروج من الفرق إلى مقام الفرقان[2]، إلى أن صار فرداً في بابه، من بين سائر خاصة أصحابه،الوارثين لأذواقه العالية، وأحواله الحالية، وقد أمره في حياته بتربية بعض مريديه.

وقال ـ قدس الله سره ـ في حقه: إنه خفف أثقالي، وظهر لي ما ظهر ببركة صحبته، وحسن تربيته.

= أنت نسخة الأكوان.

وفي الحكم: إنما وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولا يسعك من حيث روحانيتك.

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾. (ع).

(1) حديث «ما وسعني»: باطل مرفوعاً، ليس له إسناد إلى رسول الله ﷺ. ممن نص على بطلانه العلامة الزركشي في «اللآلىء» (ص١٣٥)، والعراقي في «المغني» (٣/ ١٥)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٥٨٩)، والسيوطي في «الدرر المنتثرة» (ص١٣٥)، والقاري في «الأسرار المرفوعة» (ص٣٠١)، و«المصنوع» (ص١٦٤) وغيرهم.

وهو من الأحاديث المتفق على كذبها ووضعها.

(2) قوله (مقام الفرقان): مقام الفرقان الظلماني يوصل صاحبه إلى توهم استقلال الممكنات، وأنها قائمة بأنفسها، ولها مشاركة لله في فعل من أفعاله، فإذا تم له التوحيد العلمي، وشهد قيومية الله سبحانه، وأن الخلق مجرى الأقدار، ومظهر الأفعال بقلبه، ثم أثبت الخلق من حيث مخاطبة الله لهم بالأمر والنهي، وأقام الحدود عليهم كان من أهل الفرقان.

وفي الحكم: متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم المنّة عليك. (ع).

كما ذكر سيدنا الشيخ عبيد الله الأحرار ـ قدس الله سره ـ انه بعد انتقال حضرة الشيخ إلى حظيرة القدس تبعه جميع أصحابه، حتى الشيخ محمد پارسا، إذعاناً لعلوّ رتبته وقوة تربيته.

قال: ورأيت بخط الشيخ محمد پارسا أنه سمع الشيخ علاء الدين ـ قدس الله سرهما ـ في مرض موته يقول: إن لي بعون الله تعالى، وببركة سيدنا شاه نقشبند قوة، لو توجهت إلى جميع الخلائق لجعلتهم من الواصلين(١).

واختلف علماء بخارى في إمكان رؤية الله تعالى(٢)، فمنهم من نفى ومنهم من أثبت، وكانوا جميعاً من مخلصي الشيخ قدس الله سره، فأتوا إليه وقالوا له:

إنا رضيناك حكماً علينا في هذه المسألة، فقال للنافين: أقيموا في صحبتي ثلاثة أيام متطهرين، ولا تتكلموا بشيءٍ مّا أصلا أجبكم، فلما مضت ثلاثة أيام حصل لهم حال قوي فصعقوا، فلما أفاقوا جعلوا يقبلون قدمه الشريف، وقالوا: آمنا أن الرؤية حق، ثم لم ينقطعوا عن خدمته، والمثابرة على تقبيل مبارك عتبته، وأنشد حالتئذٍ بعض المريدين في ذلك المجلس:

من العمى قولهم كيف الوصول إلى ذاك الجناب فما في ذاك من طمع
ضع في أكفهم شمع الصفا ليرّوا أن الوصول إليه غير ممتنع

ومن آثار أنواره وأنوار آثاره

ما وجد بخط سيدنا الشيخ محمد پارسا ـ قدس الله سره ـ أنه رضي الله عنه قال:

---

(١) قوله (من الواصلين): إذا وافق ذلك المشيئة الإلهية يفتح الله على قلبه، وعلى يديه، ويهدي به ويوصل. (ع).

(٢) قوله (رؤية الله تعالى): أي في الدار الآخرة، ويحتمل أن الرؤية قلبية في هذه الواقعة، للإجماع بأن الرؤية بالبصر في الدنيا ممتنعة. قال الشاعر:

أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي إليها قلوب الأولياء تسارع (ع).

التعلق بالمرشد، وإن كان تعلقاً بالغير الواجب نفيه في النهاية، لكن لما كان سبباً للوصول في البداية[1]، وكان إثباته موجباً لنفي ما سواه، تعين على كل حال طلب رضاه.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: المقصود من الرياضة إنما هو نفي العلائق النفسانية، والتوجه الى عالم الأرواح والحقيقة.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: المراد من السلوك أن يدع السالك باختياره كل علاقة دنيوية تحجبه عن الله تعالى، ولا يتحقق بذلك إلا إذا عرض على نفسه هذه التعلقات، فكل ما استوى عنده وجوده وعدمه، فهو الذي لا تعلق له به، وما ليس كذلك يعلم أنه له به تعلق. فيعالج نفسه بصرفها عنه.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: كان سيدنا شاه نقشبند رضي الله عنه إذا أراد أن يلبس ثوباً جديداً يهبه لغيره، ثم يستعيره منه ويلبسه.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: قولهم: التوفيق مع السعي: هو عبارة عن إمداد روحانية المرشد للطالب، بحسب طلبه وقابليته، وسعيه على طبق أمر المرشد، فإنه إذا لم يكن للطالب سعي، فلمن يتوجه المرشد، ومن عناية الله بي أن الشيخ دادرك، وهو من أقدم أصحاب سيدنا شاه نقشبند ـ قدس الله سرّهما ـ أمرني بادىء بدء بالسعي والمجاهدة، فمنّ الله تعالى عليّ بالتوفيق، حتى أني لم أتركه في جميع أوقات صحبة الشيخ، ولم أر من ثابر عليه من أصحابه إلا قليلاً.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: إذا أنسى الله تعالى المريد الملك والملكوت فهو الفناء، وإذا أنساه فناءه فهو فناء الفناء.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: إذا خلا قلب المريد بأمر مرشده عما سوى حب المرشد، وعما يكون مانعاً من حبه، وتمكن من محبته، يكون حينئذٍ قابلاً لورود الفيوضات الإلهية الغير المتناهية عليه، فإن القصور لا يكون من

---

(١) قوله (في البداية): وذلك لأن الأسباب لها أحكام المقاصد، وما لا يتم الواجب فهو واجب، إذا تعين طريقاً للمقصود. وفي الحكم: ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح (ع).

الفيوضات، بل من الطالب، فمتى ارتفعت عنه الموانع، لا جرم يصل إليه بهمة المرشد حال يتحير في إدراكها من مقولة: ربِ زدني فيك تحيراً[1].

ثم إن في جعل العبد مختاراً حكماً كثيرة، فإنه لما تمكنت الموانع الطبيعية منه، لزمه أن يلتفت باختياره إلى إزالتها، والملائكة وإن كانوا مجبولين على الطاعة والعبادة، معصومين من المخالفة، مستغرقين في الخوف والخشية، غير أن كمال الاعتبار للاختيار في السعادة والشقاوة، والترقي والتدلي[2].

وقال: ينبغي للمريد أن يظهر جميع أحواله للمرشد[3]، ويتيقن أنه لا ينال المقصود الحقيقي إلا برضائه وحبه، فيطلب رضاه[4]، ويعتقد أن كل الأبواب مسدودة دونه ظاهراً وباطناً، إلا ذلك الباب الذي هو مرشده، فيفديه بنفسه.

وآية المريد الكامل: أنه مهما كان عنده من علوم وعرفان، وهمة عالية في السلوك والمجاهدة، لا يجد لها في نفسه أثراً ولا قدراً، ولا يراها إلا بقدر

---

(١) قوله (فيك تحيرا): أي تحير دهشة لا تحير التباس. ومن كلام ابن الفارض:

زدني بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشاً بلظى هواك تسعرا

إلى:

فدهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عني مخبرا (ع).

(٢) قوله (والتدلي): يشير إلى أن العبد ينال بالمجاهدة والوصول رتبة المَلَك، ويزيد ترقياً، فعبادة الملك ذاتية، أما عبادة المؤمنين زادت عن معرفة الذات بأنها صفاتية بتعدد حضرات الأسماء والتخلق بها. (ع).

(٣) قوله (للمرشد): وإذا كانت معصية لا يدري كيف يتخلص منها، لا يقول: أنا أعصي الله بكذا وكذا! بل يسأل شيخه بقوله: من ابتلي بكذا، فكيف يتخلص؟! مراعاة لأدب الشريعة في ستر العبد نفسه. (ع).

(٤) قوله (فيطلب رضاه): ومن كلام الغوث أبي مدين رضي الله عنه في الرائية:

وراقب الشيخ في أحواله فعسى ... يرى عليك من استحسانه أثرا

وقدم الجدَّ وانهض عند خدمته ... عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا

ففي رضاه رضا الباري وطاعته ... يرضى عليك فكن من تركها حذرا

وطلب رضا الشيخ الوارث طلب لرضا رسول الله ﷺ المطلوب من كل مسلم مؤمن بقوله تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾. (ع).

الذرة بالنسبة إلى ما عند مرشده.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: لا ترجى الفائدة إلا لمن يشاهد دائماً قصور أعماله، ويعد نفسه من الناقصين، ويلتجيء إلى كرم ألطاف رب العالمين.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: على المريد أن يفوض أموره إن دينيةً وإن دنيوية، كلية أو جزئية، لاختيار المرشد، وتدبيره بحيث لا يكون له أدنى اختيار معه أصلاً، وعلى المرشد أن يفحص عن أحواله، فيهتم بإصلاحها، ويأمره بما ينفعه في معاشه ومعاده، فيقتدي به.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: عليك بمراعاة أحوال أهل العلم، وإخفاء أحوالك ومقامك عنهم، فقد ورد عنه ﷺ: «أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم».

وإياك وإيذاء قلوب الصوفية، وإغفال آداب مخالطتهم، فإذا أردت صحبتهم، فتعلم أولاً آدابها، ثم صاحبهم تنتفع بهم، وإلا فتضر نفسك، وقد قيل: لا طريق لمن لا أدب له، وكونك مع الأدب خطأ يعني: أن رؤيتك لنفسك أنك مؤدب خطأ في الأدب.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: المقصود من التوجه إلى أسماء الجلال التذلل والبكاء، والمسارعة إلى التوبة والإنابة، وعلامة صحة التوبة الميل إلى العبادة والمناجاة، لا إلى المعاصي ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[1] [الشمس: ٨] وثمرة ذلك أنه إذا وجد ميلاً إلى مرضاته تعالى يشكره ويمضي، وإذا رأى ميلاً لمعصيته يبكي ويلتجيء، أو يخاف من مقام ﴿إن الله لغنيّ عن العالمين﴾.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: الولاية لا تثبت إلا لمن لا تسلط لنفسه عليه، ولو وقع منه أدنى قصور يعفى عنه، قال الله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس: ٦٢].

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: أولياء الله تعالى لا يخافون من غلبة أحوال

---

(١) قوله (وتقواها): فألهمها فجورها ـ لتبتعد عنها وتجتنبها ـ وتقواها ـ لتعمل بها وتتخلق. (ع).

الطبيعة[1]، كما قيل الفاني لا يرد إلى أوصافه.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: ينبغي للمريد أن يكون في الظاهر معتصماً بحبل الله تعالى، وفي الباطن معتصماً بالله تعالى، فالجمع بينهما لازم.

وقال: النفع في زيارة قبور المشايخ على قدر معرفتك بهم.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: القرب من قبور الصالحين له تأثير كثير، ومع ذلك فالتوجه إلى أرواحهم المقدّسة أولى منه، إذ لا يتوقف تأثيره على القرب والبعد، بدليل قوله ﷺ: «صلوا عليّ حيثما كنتم»[2] وشهود صور أهل القبور المثالية عند زيارتهم لا يوازن معرفة صفاتهم، فإن معرفتها أقوى فائدة.

ولذلك قال سيدنا شاه نقشبند قدّس الله سره العزيز: لأن تكون جاراً للحق، أولى من أن تكون جاراً لخلق الحق، وكثيراً ما أنشد:

حتى م تعبد أرماس الأكابر قف واعمل بأعمالهم تخلص وتسترح

ثم الأدب في زيارة القبور أن تتوجه إلى الله تعالى، وتجعل أرواح أصحابها وسيلة إليه تعالى، وهكذا في تواضعك للخلق، فتتواضع إليهم ظاهراً، وإليه تعالى باطناً، فإن التواضع للخلق لا يجوز، إلا إذا نظرت إليهم بأنهم مظاهر للحق تبارك وتعالى، فيكون التواضع حينئذٍ إلى الظاهر بهم لا إليهم.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: طريق المراقبة أعلى وأرفع من طريق النفي والإثبات، وأقرب إلى الجذبة، ويصل السالك بدوام المراقبة إلى مرتبة الوزارة الباطنية، والتصرف في الملك والملكوت، والاطلاع على الخواطر، وتنوّر

---

(١) قوله (أحوال الطبيعة): اعتماداً على حسن ظنهم بالله وصدق توجههم والتجائهم إليه، يعينهم الله بإمدادات غيبية على دفعها عن نفوسهم، أو التوبة منها وعدم الإصرار عليها. والولاية الخاصة من المواهب غير المتوقفة على الأسباب لا عطاءً ولا سلباً. وفي الحكم: من علامة الاعتماد على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزلل. (ع).

(٢) حديث «صلوا عليّ»: أخرجه أبو داود برقم (٢٠٤٢)، وأبو يعلى في «المسند» برقم (٦٧٦١)، وسعيد بن منصور في «سننه» كما في «الصارم» لابن عبد الهادي (ص١٤٤ ـ ١٤٥).

الباطن، والنظر إليه بعين الموهبة، ومن التمكن من المراقبة تحصل الجمعية وقبول القلوب، ويسمى جمعاً وقبولاً.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: السكوت ينبغي أن لا يكون خالياً عن ثلاثة أشياء: حفظ الخواطر، والتوجه إلى الذكر، أو مشاهدة أحوال القلب.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: حفظ الخواطر متعسر، واجتنابها متعذر، فإني حفظت خواطري عشرين سنة ثم جاءت ولكن لم تستقر.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: أحسن الأعمال في التربية المؤاخذة على الخواطر.

وكان ـ قدس الله سرّه ـ: يشكو آخر حياته من الاشتغال بتربية الخلق، ويقول: إنهم لا يراعون ما يحصل لهم.

وقال له بعض أصحابه يوماً: إن المطلوب في غاية العظمة، وما لنا للطلب لسان، إلا أن تتفضل علينا به أنت، فقال: الإبطاء من القابلية، فإنكم تجدون وتضيعون، ولا تتقيدون، ومن أين جاء لا تعلمون.

وقال: دوام صحبة أهل الله عز وجل تزيد في العقل المعادي[1].

وقال: رؤية أهل الله تعالى سنة مؤكدة في كل يوم أو يومين[2]، مع رعاية الأدب، فإن بعدت الشقة بينك وبينهم، فاكتب إليهم كل شهر أو شهرين جميع أحوالك، ولا تترك التوجه إلى أرواحهم، لئلا تنقطع عن نظرهم.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: أنا أضمن لكل من دخل هذا الطريق مقلداً، أن يصير محققاً ولا بد، فإن سيدنا شاه نقشبند ـ قدس الله سرّه العزيز ـ أمرني

---

(١) قوله (العقل المعادي): أي صحواً وقياماً بحق الخلافة في الأرض، وعدم تضييع الحقوق، وهذه الزيادة تأتي من العقل الشرفي الوهبي الذي أكرم الله به أولياءه من حضرة سيدنا محمد ﷺ. (ع).

(٢) قوله (أو يومين): لقوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾. وقوله: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾. (ع).

بتقليده، فكل ما فعلته وأفعله تقليداً له، أجد نتيجته في الحال.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ: لما كانت هذه الطائفة العلية لا تعرف إلا في مقام التلوين، علمت إذاً أنهم لا يعرفون إلا فيه، فمن وجدهم في التمكين وقلّدهم تزندق، إلا إن رحموه وأطلعوه على حقيقتهم. اهـ.

مراده ـ والله أعلم ـ بالمعرفة التقليد، كما يؤخذ من كلامه، أي: ينبغي للسالك أن لا يقلد المرشد إلا في تلوينه، وهو عبارة عن التنقل في المجاهدات من الصعب إلى الأصعب، وفي الرياضات من المتعب إلى الأتعب، والتقلب في الأحوال حتى يصل إلى درجة الكمال.

وأما تقليده في تمكينه، وهو إبان كماله وجريان الأمور الطبيعية عليه، بلا تأثير في مقامه من أكل وصوم ويقظة ونوم وممازحة وغيرها، قبل وصول السالك إلى مقام الكمال، فإنه يورثه الزندقة، والهلاك، والانقطاع، والارتباك.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ في مرضه الأخير لأصحابه: لا تقلدوني بما يصدر مني من التفرقة الظاهرة، بل عليكم بالجمعية ظاهراً وباطناً، وإلا تحصل لكم التفرقة الحقيقية. اهـ وهو يؤيد ما ذكرناه آنفاً.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ فيه: أنا راضٍ عن الشيخ محمد پارسا، كما كان رسول ﷺ راضياً عن أصحابه.

وكان مدة مرضه يتكلم بالوصايا تارة، والحكمة تارة، والدعاء للخلق آونة، والرضا والمحبة والوجد آونة، وينشد:

ذواتنا القصب الزاوي وحبكم نار فمنوا بها تحرق لذا القصب

وقال ـ قدس الله سرّه ـ عند شدة المرض: إني خدمت رجلاً قوياً صورة ومعنى.

وكان كثيراً ما يقول: هل من مزيد؟! ويخاطب روحانية سيدنا شاه نقشبند قدس الله سره العزيز ـ، وتخاطبه.

وتكلم يوماً في أحوال سفر الآخرة، والإقامة في الدنيا، وكان ذلك قبل مرضه بخمسة عشر يوماً، فقال: إني اخترت السفر للآخرة، ولا أرجع عنه.

ابتدأه المرض ثاني يوم من شهر رجب، وانتقل إلى بحبوبة الفردوس عشاء ليلة الأربعاء لعشرين خلت منه، سنة اثنين وثمانمائة، ودفن في جغانيان - بجيم، فغين معجمة، فألف، فنونين، بينهما ياء، وألف - بلدة من أعمال بخارى، ومقامه يقصد، ويستغاث به رضي الله عنه.

ورآه بعض أحبابه من السادة الصوفية في المنام بعد أربعين يوماً من وفاته، فقال له - قدس الله سرّه -: إن ما أعطانيه الحق تعالى، هو فوق اعتقاد المخلصين.

وكان - قدس الله سرّه - قد زار ضريح سيدنا شاه نقشبند - رضي الله عنه - قبل وفاته بسبع سنين، ومعه زمرة من أصحابه، فرأى أحدهم في المنام خيمة كبيرة قد ضربت قال: وعلمت أن هذه الخيمة لرسول الله ﷺ، فجاء سيدنا النقشبند، ومعه الشيخ علاء الدين إلى هذه الخيمة لزيارته ﷺ، وخرجا بعد ساعة فرحين شاكرين، وسيدنا شاه نقشبند يقول: أكرمني الله بأن أشفع إلى مائة فرسخ من جهات قبري الأربع، والشيخ علاء الدين إلى أربعين فرسخاً، وأحبائي وأتباعي إلى فرسخ.

وله - قدس الله سرّه -: خلفاء كثيرون أجلاء، من أعظمهم:

الخليفة الأول: ولده سيدنا الشيخ حسن العطار، فإن جده - قدس الله سره - كان يحبه حباً كثيراً، ويميل إليه ميلاً كبيراً، حتى رآه مرة وهو طفل قد ركب عجلاً، والأطفال حوله، فقال قدس الله سره:

يوشك أن يركب والملوك والأمراء تمشي أمامه، فكان كما قال.

فإنه بعد بلوغه قدم خراسان، ولقي ملكها مرزاشاه رخ - رحمه الله تعالى - في بستان باغ زاغان، فقدم إليه بغلة، فلما أراد أن يركبها أخذ الملك عنانها بيده، وركابها بيده الأخرى، فركب فجمحت به البغلة، فأخذ الملك عنانها بيده

ومشى أمامه، حتى هدأت، فترجل - قدس الله سرّه - وتوجه بوجهه إلى بخاري، وطأطأ رأسه الشريف خضوعاً وتواضعاً لروحانية جده قدس الله سره العزيز، ثم ذكر للملك بشارته، وتحقق كرامته، فزاد اعتقاده ومن معه به.

ولمولانا حسن أحوال وآثار عالية.

فمن آياته الباهرة: إنه كان إذا وقع نظره الكريم أول مرة على الطالب، يحصل له الغيبة والفناء، اللذان لا يحصلان إلا بأشق الرياضات، وأشد المجاهدات، ويأمر أصحابه باستحضار رابطته الشريفة، فيحصل لهم ذلك، أينما كانوا.

ومن آثاره الشريفة: ما قاله من رسالته إلى بعض أصحابه:

اعلم أن طريق سلوك الطائفة العلية العلائية - زاد الله فتوحهم - أعلى أطوار سلوك المشايخ رضوان الله عليهم أجمعين، وأقرب السبل إلى المقصد الأسنى، وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه يرفع حجب التعينات عن وجه الذات الأحدية السارية في الكل، بالمحو والفناء في الوحدة، حتى تشرق سبحات جلاله، فتحرق ما سواه.

وفي الحقيقة نهاية سلوك المشايخ بدايتهم، لأن أول ما يحصل لهم الغيبة والفناء، وسلوكهم بعد الجذبة يعني تفصيل مجمل التوحيد، الذي هو المقصود من خلق آدم ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفون.

فإن أردت أن تشتغل بورد الباطن، فأحضر أولاً صورة شيخك في الخيال، حتى تظهر لك نسبة الغيبة، فكن متوجها مع تربية تلك الغيبة، بتلك الصورة الخيالية، التي هي مرآة الروح المطلق إلى القلب، فكلما ازدادت الغيبة ينتفي الشعور، ويسمى عدماً وغيبة، فإذا ترقيت إلى مقام عدم الشعور بما سوى الله تعالى يسمى الفناء، وظهور صفة الغيبة علامة ازدياد الأحوال، وترقي الدرجات.

كان سيدنا النقشبند يقول للمريدين عند ظهور مقدمة الغيبة:

إذا غبت دعني وأعط نفسك غيبتك[1]، فإذا وردت الخواطر وشوشت عليك حالك، فاستحضر صورة شيخك في الخيال، فإن اندفعت وإلا أخرج نَفَسك بقوة ثلاثة مرات، ثم توجه إلى الذكر، وإلا فقل: أستغفر الله من جميع ما كره الله قولاً وفعلاً وخاطراً، وسامعاً وناظراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، موافقاً لسانك القلب، وإلا فقل: يا فعّال ـ بالتشديد ـ. انتهى.

وكان يتحمل الأمراض، كما هي عادة السادة، فعزم على أداء الحج، فلما وصل إلى شيراز وجد مريداً له من أكابر شيراز مريضاً، فتحمل عنه مرضه فعوفي، ومرض الشيخ وتوفي في ذلك المرض هنالك ليلة الاثنين، وكانت ليلة عيد الأضحى سنة ست وعشرين وثمانمائة، ونقل إلى جغانيان، ودفن حذاء قبر والده قدس الله سرهما.

وله أصحاب كثيرون من أشهرهم اثنان:

الأول: نجله الولي الكامل الأنوار سيدنا الشيخ يوسف العطار ـ قدس الله سرّه ـ كان آية آية في الإرشاد والهداية، عاصر الشيخ بهاء الدين عمر، وكان بينه وبينه مراسلات، ألمّ ببعضها في «الرشحات».

والثاني: الكامل الأذواق الشيخ عبد الرزاق قدس سره.

الخليفة الثاني: أعجوبة المرشدين الكاملين، الشيخ حسام الدين پارسا البلخي قدس سره: لقنه الطريقة العلية مولانا شاه نقشبند، ثم استودعه الشيخ علاء الدين، فرباه أكمل تربية ورقاه أعلى ترقية.

كان ـ قدس الله سرّه ـ شديد الورع، والتقوى، والمجاهدة على حفظ أوقاته.

---

(١) قوله (غيبتك): الصور الخيالية الظلمانية لا تنتفي إلا بأضدادها ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ ومثال الرابطة مع الشيخ قبل الشروع في الذكر مثال المصلي يستحضر الكعبة قبل الشروع في الصلاة ثم إذا كبر ووصل إلى قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ غاب عن الأشياء كلها. (ع).

قال سيدنا أحرار قدس سره: كان أحرص على وقته من الشيخ بهاء الدين عمر، بل ومن الشيخ زين الدين الخوافي، بحيث لا يقبل أحداً إلا وقت القيلولة، وقلت له يوماً: ما الفائدة في أمرهم بالذكر عند النهاية، قال: هو لرفع الدرجات.

الخليفة الثالث: كافل المراد للمريد سيدنا الشيخ أبو سعيد قدس سره، كان من كبار أصحابه، وبعد انتقاله صحب شبله الشيخ حسن قدس سرهم.

الخليفة الثالث: صاحب المقام السامي الشيخ عبد الله الامامي الأصفهاني قدس سره: هو من أجل أصحابه، وله رسالة لطيفة في الذكر ترصعت بها «الرشحات».

الخليفة الرابع: العالي النظر الشيخ عمر الماتريدي: كان مظهر نفائس الأسرار، وهو من مشايخ سيدنا أحرار قدس سرهما.

الخليفة الخامس: مَنْ بَيَّنَ هُلَكَ[1] الطريق وملكه، سيدنا الشيخ أحمد مسكه قدس الله سره:

كان من السادات الكبار، وهو ممن لقيه سيدنا أحرار، وروى عنه، فمن ذلك أنه قال:

استأذنت في بداية الأمر من الشيخ بصلة أقاربي في بدخشان، فلما رجعت وجدت في الطريق نهراً عنده جوار من البادية يغتسلن، فخطر لي أن أنظرهن، وغلب عليّ ذلك، فنظرتهن تخلصاً من الخاطر، فلما أتيت مجلس الشيخ قال لي: من أصولنا المحاسبة على الأوقات، فاذكر ما جرياتك، فطفقت أعددها له، حتى بلغت إلى قصة النهر سكت، فقال: بقي شيء آخر فقله، وإلا أنا أقوله، وأفضحك عند الناس[2]، فقلته، فحوّل وجهه، وقال: شاب شاطر[3].

---

(١) قوله (من بيّن هُلَك): بضم ففتح جمع هلكة. أي: مواقفه المهلكة. (ع).

(٢) قوله (أفضحك عند الناس): أي: أقول لهم بعدم السلوك على يديك اغتراراً بصلاحك الظاهر، حتى لا يكون ذلك غشاً لهم «ومن غشّ ليس منا». (ع).

(٣) قوله (شاب شاطر): أي قاطع طريق.

فحصل لي من الهيبة تمام الفناء، والفناء التام.

الخليفة السادس: وليّ العلماء، وعالم الأولياء، المرشد الواعظ المؤيد سيدنا أبو الميامن جمال الدين، الدرويش أحمد بن جلال الدين محمد السمرقندي قدس سره: خدم ظاهراً الشيخ زين الدين الخوافي حتى أجاز له، وباطناً حضرة الشيخ، وببركة صحبته نال دوام الترقي، والحظ التام في الوعظ.

قال سيدنا أحرار ما ملخصه: كان الشيخ زين الدين يّرفع من شأنه، ويستحث الناس على حضور مجلس وعظه، ثم وقع بينهما ما أوجب أن ينفر زين الدين الناس عنه، فحضر يوماً عندي في هراة، وقال لي: أمرت أن ألتجيء إليك، فوجدت الإذن بذلك، فنهضت بأعباء مساعدته، حتى عاد قبوله أعظم من الأول، بحيث غص المسجد الجامع بجماعته، وكنت أحب كلامه، وأحضر كثيراً إلى مجلسه الجدير بأن يحضره مثل أبي حفص الحداد، والجنيد، والشبلي. إذ كان يتكلم من الحقائق بالكلام العالي البعيد الإدراك، ولقد اعترض عليه بذلك أصحاب نظام الدين خاموش، فقلت لهم: كلامه هذا بدون اختياره، ولكن على حسب استعداد بعض الحاضرين.

وحضرت يوماً مجلسه، فأظهر أموراً عالية المدارك، فافتخر كل الافتخار بذلك، وبالغ بالامتنان على الحاضرين به، ظاناً أنه من عنده، فما أعجبني ذلك منه، وقلت في سري:من أين لك هذا؟ ولم لا تحمله على أنه من استعداد أحد الحاضرين! إذ لو لم تجد قبولهم لذلك من المبدأ الفياض كيف تتكلم بكلمة منه، ثم تقنَّعتُ بجبتي، وجعلت أصبعي في أذني، وحبست نفسي، وقلت: أنا لا أسمع كلامك، فانظر كيف تتكلم بالمعارف، ففي الحال حصر لسانه، وعرف أن ذلك مني، فجزع جزعاً عظيماً على المنبر، ثم التفت وقال: هل يجوز حبس لسان أحد وحرمان السامعين؟ ونزل فانغمست بين الناس منه. ا. هـ.

ومن آثاره: ما نقل عن خطه أنه قال: كنت في القدس متوجهاً إلى حضرة القدوس، فقال لي: تحنث لي. فقلت: كيف أتحنث يا رب؟ قال جل وعلا:

بخلو سرك عن غيري، والتوجه بالكلية إليّ.

وسمعت وأنا في بلدة درويش أباد قائلاً: إن قولك أنا ذات شريف ليس كذلك، ففهمت منه أن قول الصوفية: «الوجود المقيد عين الوجود المطلق تعالى وتقدس[1] ليس كذلك»، ثم كشف لي بعد الذكر نوراً بسيطاً، كانت جميع الكائنات في جنبه، كالذرة بالنسبة إلى الشمس، فعلمت أنه تصديق لذلك.

ورأيت الشيخ عبد الله الأنصاري في المنام يقول لي: أنت ولدي قدس الله سره.

الخليفة السابع: قدوة العلماء المحققين، وصفوة الأولياء المتقين، صاحب التصانيف الفائقة، والتحقيقات الرائقة، العلامة السيد الشريف الجرجاني قدس سره: نقل مولانا الجامي عنه:

إني لما اتصلت بالشيخ زين الدين علي كلال خلصت من الرفض، ولما وصلت إلى الشيخ علاء الدين العطار عرفت الله تعالى.

وقال سيدنا أحرار: قال مولانا نظام الدين خاموش: لما تشرف السيد بلقاء الشيخ وقبله والتفت إليه جداً، سأله أن يلحقه بأحد أصحابه، ليهيئه إلى صحبته، فأمره بصحبتي، فجلس يوماً في المراقبة، فحصلت له الغيبة، فسقطت عمامته، فقمت ووضعتها على رأسه، فلما أفاق سألته عن حاله، فقال: كنت أتمنى أن تصفى مدركتي عن نقوش العلوم الكونية، ويفرغ قلبي عن تعلقاته بها لحظة واحدة في العمر، فالحمد لله ببركة صحبتكم نلت ما تمنيت، ومن عدم شعوري وقع مني هذا، لسوء الأدب في حضوركم. اهـ. ولم يزل

---

(١) قوله (المطلق تعالى): قال في الجوهرة:

متكلم ثم صفات الذات ... ليست بغير أو بعين الذات

فالوجود المقيد الذي هو مظهر الأسماء، وجريان الأفعال ليس عين الوجود المطلق عن القيود، بل هو فيض وجوده لا عين وجوده. (ع).

حتى صار آية باهرة قدس الله سره.

الخليفة الثامن: أكمل الخلفاء العارفين، وأفضل الأصحاب الصادقين، الولي الكبير، والمرشد الشهير سيدنا الشيخ نظام الدين خاموش قدس الله سره.

تشرف أيام تحصيل العلم بنظر حضرة النقشبند ـ رضي الله عنه ـ وخدمته، وبعده صحب الشيخ صحبة صادقة، حتى حصل بين مسماه واسمه تمام المطابقة.

نقل سيدنا أحرار عنه أنه قال: كنت قبل اتصالي بالشيخ علاء الدين ذا رياضة، ومجاهدة، وخوارق، فلما قدم سمرقند قصدته، فلقيت أولاً مولانا أبا سعيد، فقال لي: أنت زاهد، ورجل لطيف ظريف، إن شاء الله تعالى تخلص من هذه اللطافة والزهد والتقوى، فكرهت كلامه.

ثم أتيت الشيخ فقال لي مثل أبي سعيد غير أنه أعجبني كلامه، وفهمت المقصود منه، ففوضت نفسي إليه.

وكان ـ قدس سره ـ في الصفاء آية عجيبة.

وله كرامات غريبة: ذكر بعض الأكابر أنه كان في مجلسه، فمرت جارية حسناء من جواريه لحاجة، فخطر بباله أنه هل يلتفت إليها أولا، فقال في الحال: احفظوا الخواطر من الألواث، فإن أولياء الله جواسيس الخواطر، يعلمون ما خطر لكم، والله تعالى منهم أعلم، والله لي اليوم أربعون سنة لم أحتلم، إذ قيل لي: احفظ نفسك منه، فإنه سبب رجوعك. ومنذ سبع عشرة سنة لم يجب عليّ غسل.

وقوّة تصرفه، وسرعة بطشه، وشدّة وطأته، وتمام غيرته، قد تكفل ببيانها في «الرشحات».

منها: أن شيخ الإسلام عصام الدين[1] النحوي الشهير، مرض مرضاً

---

(1) إبراهيم بن محمد بن عرب (٨٧٣ ـ ٩٤٥ هـ) عصام الدين: صاحب «الأطول» في شرح =

شديداً أشرف فيه على الزوال، وكان معتقداً له، فأتى أولاده إليه يبكون ودعوه أن يعوده، فذهب وتحمل مرضه، وكان ولده مشهوراً بتسخير الجان، وكانت نساء السلطان والأعيان يترددون إليه، فاتهمه أحد أولي الحسد بمحبة أحد نساء السلطان، ورفع الأمر إليه، فنفاه وأتي بالشيخ على غير حالة مقبولة، فلما وصل إليه أمر بتخلية سبيله، ولم يهتم لذلك مولانا العصام، مع أنه كان وقتئذٍ شيخ الإسلام، ومقبول الكلام، فأخرجه من ضمانته، فمات لوقته، وخرج ولد الغ بك على أبيه مساء يومئذٍ فقتله.

وقال له رجل: فلان قال في شأنك ما لا يليق، فغضب، وخط خطاً على الجدار، فمات الرجل تلك الساعة.

وأوغروا يوماً صدر الشيخ عليه، فاستقدمه من سمرقند إلى جغانيان، فلما وصل جلس بين يديه للمراقبة زمناً طويلاً، قال: فوجدتني كالحمامة، والشيخ كالباز فكنت أفر منه، وهو يتأثرني، حتى أعجزني، فدخلت في حماية رسول الله ﷺ، ومحيت في أنواره، فسمع من الحضرة النبوية: أن نظام الدين مني، فلم يقوَ على التصرف فيّ، وقام إلى بيته، فمرض أياماً لا يعلم أحد سبب مرضه قدس سره.

ولمولانا نظام الدين أصحاب بلا حساب، وأشهرهم اثنان:

الولي البركة المربي الكامل مولانا زاده الفركتي قدس سره.

ومظهر التلوين في التمكين، المرشد النور المبين، سيدنا الشيخ سعد الدين الكاشغري: كان عالماً عارفاً، وظلاً من ظلال الله في الأرض وارفاً، حصّل العلوم، وأتقن فنون الفهوم، حتى تفرد، ثم مال لطلب الحق، وكان غنياً، فتجرد، واتصل بخدمة مولانا نظام الدين وصحبه، وكان ملحوظاً بالحفظ

= تلخيص المفتاح للقزويني في علوم البلاغة. ولد في اسفرايين (من قرى خراسان) وكان أبوه قاضيها فتعلم واشتهر وألف كتبه فيها. وزار في أواخر عمره سمرقند فتوفي بها. «الأعلام» (٦٦/١).

الإلهي من حين طفوليته.

حكى نجله سيدنا كلان عنه، قال: سافرت مع أبي في تجارة، وفي الركب غلام حسن الوجه في سني، فشغفني حباً، فنزل الركب في رباط، وبت معه في بيت واحد على بساط واحد، فلما أطفأ الضوء، ونام الناس، وقع في قلبي أن آخذ يده، فأجعلها على عيني، فقبل وقوع ذلك رأيت جدار البيت قد انشق، ودخل منه رجل مهاب بيده شمعة، فنظر إليّ مغضباً، ومر مخفاً، فانشق الجدار الآخر، وخرج منه وغاب، فانتبهت، وتبت وزال عني حبه.

وقال: كنت مع أبي في سفر، فبتنا في رباط مع جماعة من التجار، جالسين يتحاسبون ويتناقشون، وبقوا من الفجر إلى نصف النهار كذلك، فغلب عليّ البكاء، فعجبوا من ذلك وسألوني، فقلت: يا أيها المسلمون! جلستم من الفجر إلى الظهر، وأنا متوجه إلى قلوبكم، فما رأيتكم إلا غافلين عن ذكر الله تعالى، فبكيت رحمة بكم.

وأقام في صحبة الشيخ سنين مديدة، ثم استأذنه في الحج، فلم يأذن له أولاً ثم أذن له، فلقي مشايخ وقته مثل: السيد قاسم التبريزي، وأبو يزيد اليوراني، والشيخ زين الدين الخوافي، والشيخ بهاء الدين عمر.

وروى الشيخ سعد الدين ـ وكان من أكابر أصحابه ـ عنه قال: رأيت ليلة دخلت هراة في المنام أنه اجتمع أولياء هراة، فأخذني واحد منهم، وأجلسني في مقام، لم أرَ فوقه غير اثنين: الشيخ عبد الله الطاقي، والشيخ عبد الله الأنصاري.

ومن أنفاسه: علَّم الله تعالى رسوله ﷺ طريق المراقبة بقوله تعالى: ﴿ما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنَّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ [يونس: ٦١] فكونوا مشغولين به، فإنه أقرب إليكم من كل شيء، بل أقرب أيضاً من قولكم: إنه قريب، لأن حال القرب لا تسعه العبارة، قال رجل: الصوفي فلان يتكلم في القرب، فقال: قل له قرب القرب عين بعد البعد، والقرب عبارة عن فنائك، فماذا تسع العبارة.

وقال: من طلب الكل فاته الكل، ومن كان المولى له، فله الكل.

وقال: في معنى قول: مولانا جلال الدين الرومي رضي الله عنه:

معي لا معي المحبوب في كل لحظة   وهذا وحق الحب من أعجب العجب[1]

لو أن رجلاً سلك ألف سنة لا يدرك معنى هو معه لا معه، فكيف يدرك قرب الحق، لكن قد يعطيه الله بالجد والاجتهاد إدراكاً يقينياً يفهم به أن الله كان معي، وكنت غافلاً عنه، فإنه يحصل لأهل الله تعالى يقين لا تردد معه ولا شبهة في وجوده تعالى، وفي معيته، كما لا يكون لأحد ريب في نفسه، فإنه وإن لبس لباساً مختلفاً، وأغمض عينيه لا ينسى نفسه أصلاً.

ومن كراماته ـ وهي كثيرة ـ سرد طرفاً منها في «الرشحات» ما ذكره الشيخ شمس الدين الكوسوي، وكان يجالسه كثيراً قال:

وقع لي في الحقائق مشكلات، وأردت أن أسافر لحلها، فقال لي: تعال عندي غداً بنية حل مشكلاتك، فربما تحل.

فأتيت صباحاً إلى مجلسه، فلما رأيت وجهه وقعت مغشياً عليّ زمناً طويلاً، فلما أفقت سمعته ينشد هذا البيت:

مرآك حقاً لي جواب السؤال   وحل إشكالي وما ثم قال

فعدلت عن السفر، فسألني أحد أحبابي عما وقع لي يومئذٍ، فقلت له: لما وقع بصري على حاجبه الأيمن انحل مشكل، ولما نظرت إلى الأيسر انحل الآخر، ومن لذة ذلك زال شعوري، فوقعت.

وقال الشيخ غياث الدين الحافظ ـ وكان من أجلاء العلماء المقربين عند السلطان ـ: حضرت مجلس الشيخ يوماً، وعنده رجل من قوهستان جالس في

---

(١) قوله (معي لامعي): قال أحدهم:

وحكم الوصول قرب في بعاد   لم يدر معنى الوصل دُرّك الأفهام
عزّ في سماه عن فكر الأريب   حاضر نراه في عين المغيب (ع)

آخر المجلس، والشيخ ساكت، فرفع رأسه، ونادى القوهستاني وأخذ بيده، وقال لي: هذا وديعتك، فعليك بحمايته وإغاثته، فقبلت، وما فهمت ولا الحاضرون سرّ وصيته، فبعد مضي خمس عشرة سنة توفي الشيخ قدس سره.

ثم ظهر رجلٌ في عهد السلطان أبي سعيد يتهم الناس باليهودية عند السلطان، ذريعة لأخذ الدراهم منهم، فاتهم هذا، فكنت راجعاً يوماً من مجلس السلطان، فرأيت قرب باب العراق ازدحاماً، فسألت عنه، فقيل رجل مسلم اتهم باليهودية يريدون قتله، فوصلت إليه، فلما رآني عرفني، وقال: يا مولاي! أنا ذلك القوهستاني الذي أسلمني مولانا سعد الدين في المسجد الجامع إليك، فعرفته وخلصته، وذكرت ذلك للسلطان، فأمر بقتل ذلك الظالم.

توفي بعد ظهر يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ستين وثمانمائة. وله نجلان:

الأول: لؤلؤة المجد، وفذلكة السعد، المرشد الكامل سيدنا الشيخ محمد الأكبر قدس سره: كان حافظاً عالماً عارفاً، صحب سيدنا أحرار، فعلمه الذكر، وأرسله إلى هراة، وقال له: لقن من يطلب منك الذكر، ولو لم تتم سلوكك، فإن والدكم لما ذهب إلى هراة ما أتم سلوكه، فاجتمع إليه الناس، فاشتغل معهم باجتهاد، فتم سلوكه قدس سره.

الثاني: عالم المرشدين، ومرشد العالمين الشيخ محمد الأصغر قدس سره: كان نادرةَ زمانه حفظاً وعلماً ورشداً، توفي سنة تسعمائة، في ديار داوز من أعمال بخارى، ونقل إلى هراة، ودفن عند قبر والده قدس سره.

وله خلفاء مثل نجوم السماء عد داً وهدى، فمن أجلّهم:

العلامة الشهير، والصوفي العارف الكبير، الشيخ نور الدين ملا عبد الرحمن الجامي ابن نظام الدين أحمد بن شمس الدين الدشتي نسبة إلى دشت محلة في أصفهان، نزح جده منها إلى جام، وكان من العلماء العظام، ففوّض إليه أمر القضاء والفتوى بها.

وجده الجامي من أولاد الإمام محمد الشيباني صاحب الإمام الأعظم.

ولد في جام على عهد السلطان شاه رخ، ملك العراق وپارس، وتخرج في العلوم على والده، حتى صار أعجوبة زمانه، ثم اختار صحبة مولانا سعد الدين، وببركته حصل له أحوال وأذواق بأدنى مدة بهر بها رفقاءه، وأصبح يترقى في معارج الكمال، حتى أدرك أعلى درجات الرجال، كيف لا، وقد نال نظر الشيخ محمد پارسا، وفخر الدين اللورستاني وهو صغير.

ولقي أبا نصر پارسا، والشيخ بهاء الدين عمر، والعارف الإمام الشيخ محمد الكوسوي.

وتشرف بلقاء سيدنا عبيد الله أحرار ولازمه، وكان يحبه، ويرفع من شأنه، وكان يسمع سيدنا كثيراً من (الفتوحات المكية)، ويستشكل عليه محالاً منها، فيحلها له، وهو أستاذه في التصوّف.

قال صاحب «الرشحات»: عزمت على زيارة سيدنا أحرار، فرأيته في المنام يقول: سبحان الله! سبحان الله! العجب أن بحر النور يتموّج في خراسان، والناس يأتون إلى سمرقند لاقتباس نور سراج، فلما وصلت إلى عتبته قال: من رأيت من مشايخ هراة، قلت: مولانا عبد الرحمن الجامي، ومولانا محمد الروجي، فقال: من رأى مولانا عبد الرحمن، لا يحتاج للمجيء إلى سمرقند.

ثم قال: سمعت أن مولانا عبد الرحمن لا يقبل المريد، ومولانا الروجي يقبل، قلت: أجل، فتمثل ـ قدس سره ـ بقول سيدنا الغجدواني: أغلق باب المشيخة، وافتح باب الصحبة.

وذكر مولانا عبد الغفور أن سيدنا الجامي كان لا يلقن الذكر لأحد للطافته، ويقول: لا أقدر أن أحمل ثقل المشيخة، ثم توجه إلى الحجاز عام سبع وسبعين وثمانمائة، فأقبلت عليه ملوك البلاد بالتحف والهدايا والخدمة، حتى قضى نفثه، وعاد إلى الشام، فتلقى الحديث عن المحدّث القاضي محمد الخضيري،

وأجازه بأسانيده العالية، ثم عاد أشرف معاد، وله تآليف عظيمة الشأن، ونفعها على فضلها أعظم برهان، ولو لم يكن منها إلا (النفحات) وشرح (الفصوص) لكفى.

وله كلمات قدسية منها: سئل عن قول الشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني: بسم الله، أي: بالإنسان الكامل[1]، فقال: الإنسان تفسير لفظ اسم، لا لفظ الله.

وسئل قدّس سره عن قوله ﷺ: «يؤجر ابن آدم في نفقته كلها إلا شيئاً وضعه في الماء والطين»[2]. إذ عليه لا أجر في بناء المساجد ونحوها؟

فقال: يحتمل أن يكون المراد بالماء والطين عالم الأجساد، فإن ما ينفقه الإنسان لحظ نفسه لا أجر له فيه.

وقال: الكهولة آخر الشباب، فما صرف العبد به أول شبابه، يظهر أثره على الوجه في آخره.

وحضر مجلسه رجل يدّعي الزهد والتقوى، فوضعوا المائدة ولم يأتوا بالملح، فقال: ائتوني بالملح حتى أبتدىء به، فقال له: الملح موجود في الخبز فكلوا، فرأى أن الشيخ يقطع الخبز بيد واحدة، فقال له: هذا مكروه، فقال له الشيخ: النظر وقت الطعام إلى لقمة أخيك وفمه أكره منه، ثم قال الرجل: التكلم في أثناء الطعام سنة، فقال له: كثرة الكلام أيضاً مكروه، فسكت إلى آخر المجلس.

وله كرامات وافرة، وكشف كالشمس السافرة، منها إحياء الموتى، وتدمير

---

(١) قوله (أي بالإنسان الكامل): ظهر سر الله الرحمن الرحيم، وبرزت تجلياته وأفعاله، وهو سيدنا محمد ﷺ، حيث أنزله منزلته بقوله ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ و﴿ما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى﴾. (ع).

(٢) حديث «يؤجر» أخرجه الترمذي برقم (٢٤٨٥) بلفظ «يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا في التراب» وقال: حسن صحيح.

الأعداء، والإخبار بالمغيبات، وقد أورد بعضها في «الرشحات».

توفي صباح يوم الجمعة ثامن عشر شهر محرم سنة ثمان وتسعين وثمانمائة.

واستخرج بعض أدباء عصره تاريخ وفاته من القرآن المجيد، وهو قوله تعالى: ﴿ومن (٩٦ دخله (٦٣٩ كان (٧١ آمناً (٩٢) ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وولد له أربع ذكور، لم يبق منهم إلا ثالثهم، وهو زهرة الأولياء الكاملين: سيدنا يوسف ضياء الدين الجامي.

ولد ليلة الأربعاء تاسع شهر شوّال، عام اثنين وثمانين وثمانمائة، وكان في الذكاء والفضل آية عجيبة، وتوفي يوم الجمعة خامس شوّال، سنة تسع وتسعمائة قدّس سره.

ومن أشهر تلامذته وأصحابه: عالم الصلحاء، ومحقق الأولياء، الشيخ رضي الدين عبد الغفور اللاري قدس سره: هو من سلالة سيدنا سعد بن عبادة[1] رضي الله عنه، تخرج على يده في سائر العلوم الظاهرة والباطنة، حتى بهر أقرانه، وقرأ أكثر مصنفاته عليه، وكتب مولانا الجامي بعد إتمام شرح «الفصوص».

تمت مقابلة الكتاب، مع صاحبي الأخ الفاضل، والمولى الكامل، ذو الرأي الصائب، والفكر الثاقب، رضي الملة والدين عبد الغفور، استخلصه الله لنفسه، وكان الله له عوضاً عن كل شيء، في أواسط جمادى الأولى، سنة ست وتسعين وثمانمائة، وأنا الفقير عبد الرحمن الجامي عفي عنه.

وله كلمات في الحقائق تدل على علوّ شأنه، ذكر شذرة منها في «الرشحات».

---

(١) سعد بن عبادة بن دليم (... ـ ١٤ هـ) الخزرجي: صحابي، من أهل المدينة كان يلقب في الجاهلية بالكامل (لمعرفته الكتابة والرمي والسباحة). شهد المشاهد وكان أحد النقباء الاثني عشر. خرج إلى الشام مهاجراً في خلافة عمر فمات بحوران. «الأعلام» (٣/ ٨٥).

توفي صبح يوم الأحد خامس شعبان، سنة اثني عشرة وتسعمائة، ورآه أحد الصوفية في المنام، فقال له: كيف وجدتم في الآخرة ما قاله سيدنا الشيخ محيي الدين ـ رضي الله عنه ـ في سر التوحيد والمعية؟

قال: لقيت الشيخ فسألته، فقال: الأمر على ما ذكرته.

قال: فهل العشق للمظاهر الجميلة موجود في الآخرة؟ فقال: ما تقول! فإن عشق الدنيا بالنسبة إلى عشق الآخرة بقدر الذرة، والحب الدنيوي يعتريه الزوال سريعاً، لأن حسن عالم الأجسام مركب من أجزاء مختلفة تتبدل، فينقطع الميل، وأما حسن العالم الأخروي، فهو من البسائط، ولهذا لا تفنى ولا تتبدّل، إذ لا تضاد في أجزائه، فيدوم العشق، لكن عند فراق الروح للجسد تتألم أياماً، بسبب صحبته السالفة، فإذا صفت مالت إلى العشق الأبدي ونسيته.

فقال له: يا مولانا ما ذكرتموه هو من أسرار الآخرة، والموتى ليسوا مأذونين في إفشائه، فكيف هذا؟ فقال: هذا من كلام الجهال، لا أصل له، لأن أكثر الناس يرون النبي ﷺ، والعارفين، والصالحين، ويحققون منهم غرائب أحوال الآخرة، وغيرها، ولو كان كذلك لما نزل القرآن الكريم، ولا وردت الأحاديث المطهرة ببيانها.

وفضله شهير، وتآليفه من أصدق الدلالات على رفعة شأنه قدس سره.

وممن ذكر من أصحاب مولانا سعد الدين الكاشغري: عالم العارفين، وعارف العالمين، مولانا شمس الدين الشيخ محمد الروجي: ولد في روج ـ بالراء المهملة، والواو، والألف، والجيم المعجمة ـ قرية على تسعة فراسخ من هراة، ليلة نصف شعبان، عام عشرين وثمانمائة، وكان لأمه ولد نجيب، فمات وهو ابن خمس سنين، فحزنت عليه، فرأت النبي ﷺ، فقال لها: لا تحزني، فسوف يعطيك الله تعالى ولداً طويل العمر، ذا دولة، فأتاها هذا العزيز، فكانت تقول له: أنت الذي بشرني النبي ﷺ بك.

وكان يحب الخلوة في صغر سنه، فسمع مرة من والدته أنَّ من قرأ كذا يرى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ ونام، فرأى أنه على باب البيت، وأمه على دكة الباب تقول له: أين كنت؟ فإني بانتظارك، لأن النبي ﷺ جاء إلى بيتي، فهلم تذهب إليه!

قال: فأخذت بيدي إليه ﷺ، فرأيته جالساً على دكة أخرى، وحوله الناس قياماً وقعوداً، وهو يبعث بالرسائل إلى البلدان، ولديه كاتب قال: وأحسبه مولانا شرف الدين الزيارتكاهي، وكان من علماء المتقين، فقدمتني أمي إليه، وقالت: يا رسول الله! هذا الذي وعدتني به أم غيره؟ فنظر إليّ، وتبسم وقال: هو هذا. وأمر الكاتب، فكتب لي ورقة نحو ثلاث أسطر، وتحتها أسماء الشهود: وقرأها وأعطانيها، ثم أفقت، فإذا بوالدتي بيدها شمعة في الباب، فقالت لي: أرأيت شيئاً في المنام؟ فقلت: نعم، قالت: وأنا رأيت النبي ﷺ بمثل ما رأيت.

ولما تضلع بالعلوم الشرعية والعقلية، مال إلى طلب الحق، فلقي في هراة الشيخ صدر الدين الرواسي، أحد خلفاء الشيخ زين الدين الخوافي.

قال قدس الله سره: لما جئته، وجدته يذكر بالجهر، فما مال قلبي لصحبته، ثم اهتديت إلى الشيخ سعد الدين، فلقيته مع أصحابه في سكوت، فقلت في نفسي: أين هذا السكوت من تلك الغوغاء، فرفع رأسه إليّ، وقال: تعال، فأتيت، فقال: لو أن أحداً في حضور السلطان شاه رخ يناديه بأعلى صوته: يا شاه رخ! يا شاه رخ! لا يستحسنه، لأنه سوء أدب، والأدب أن يقوم بين يديه بالسكوت، والسكون، ثم لقنني الذكر، فلم أبرح أن حصل لي ببركته من الأحوال العالية، ما لا يدخل تحت حيطة التقرير.

وقال مولانا شهاب الدين البرجندي: غدوت يوماً إلى سيدنا سعد الدين، فقال: أمس فتح على ولد الجمّال، وحصل له حال، غبطه ملكوت السموات والأرض، فعلمت أنه مولانا محمد، فإن ولده كان يرعى إبل السلطان.

وقال الروجي: كنت في سقاية المسجد، فدخل عليّ الشيخ، وأنا أقرأ المثنوي، فقال: ما هذا؟ فقلت: المثنوي، فقال: لا يحصل لك من قراءته شيء، فاسع حتى تظهر معانيه من قلبك.

ودخل خلوتي مرة، فرأى بيدي مصحفاً، فقال: ما هذا؟ فقلت: مصحف، فقال: هذا من علامات الغفلة، والعطلة[1].

ثم رحل بعد وفاة أستاذه إلى مكة المكرمة، فصحب العارف الكبير الشيخ عبد الكبير اليمني قدس سره، ثم عاد إلى هراة فشاع فضله في الإرشاد، وانتفع بالوصول إلى الله على يده عدد كثير من العباد.

توفي يوم السبت سادس شهر رمضان سنة أربع وتسعمائة، وكان آخر كلامه: الله! الله!

ودفن عند ضريح مولانا سعد الدين، ثم نقل بعد أربعة أشهر إلى قرب مقام سيدنا عبد الله الأنصاري في كازركاه.

ومن أشهر أصحاب الروجي: مولانا الشيخ عبد اللطيف السياوشاني قدس سره.

وممن ذكر من خلفاء مولانا الكاشغري: علامة الصلحاء، ودراكة الأولياء، الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد البرجندي قدس سره: ولد في برجند ـ قرية من بلاد قاين ـ وكان رأى والده في المنام أنه واقف على طور سيناء، فجاء شيخ الإسلام الشيخ أحمد جام، فسلم عليه، فقال: سيعطيك الله ولداً، فسمه باسمي.

---

(١) قوله (والعطلة): اعتبره من علامات الغفلة لأنه مأمور بدوام الحضور مع الله من غير احتياج إلى مذكر أو سبب ظاهر. فلما احتاج إلى ذلك استدل على أنه لم يصل بعدُ إلى دوام الحضور، لأنّ المقصود من القراءة للقرآن ليس تذكير القلوب الغافلة فحسب، بل الترقي في معرفة الله وشهوده في آياته. (ع).

يقال: انه كان مثابراً على التهجد، والضحى، والإشراق في صغر سنه، وكانت آثار الصلاح ظاهرة عليه.

تخرج على فحول علماء زمانه في كل فن، حتى صار بحراً، وقرأ كتب الحديث على الشيخ أبي نصر پارسا. ولقي المشايخ كالخوافي، والكوسوي، وغيره. ثم لازم الشيخ، حتى لقي ربه في حياة مربيه، عام ست أو سبع وخمسين وثمانمائة، وقبره عند قبر شيخه قدس سرهم.

وممن ذكر أيضاً: شرف الكاملين الشيخ علاء الدين محمد بن المؤمن الآلبيري المكتبدار قدس سره.

ولد في قرية البير ـ من قرى قوهستان ـ، واشتغل بتحصيل العلم، ثم لاحت له بارقة، فصحب الشيخ سعد الدين، ولازم خدمته حتى تكمل، وصار من العارفين الكمل، وبعد وفاته صحب مولانا الجامي.

ولقي مولانا أحرار، قال: ولما دخلت عليه في هراة قال: من أنت؟ قلت: رجل فقير من خدام مولانا سعد الدين معيلم صبيان، فقال: لا تصغره، فإنه أمر عظيم، يترتب عليه فوائد كثيرة.

ثم رحل إلى الحجاز، فلقي العارف الكبير الشيخ عبد الكبير اليمني الحضرموتي قدس سره، وحصل له منه تمام الالتفات، وغاية الترقي في المقامات.

توفي قدس سره يوم السبت أواسط جمادى الثاني، سنة اثنين وتسعين وثمانمائة، وقبره عند مقام أستاذه قدس سره.

ومن أشهر أصحابه: نجله الشيخ غياث الدين أحمد قدس سره، كان من أجلاء المرشدين وله صاحبان:

الأول: نجله الشيخ نظام الدين حسين، توفي قدس سره سنة سبع وخمسين وتسعمائة.

والثاني: مولانا زين الدين محمود كمانكر، توفي في قندهار قدس سره.

ومنهم: العالم العارف مولانا علي الباوردي قدس سره: كان كبير الشان؛ وله تآليف كثيرة في الطريق الأسنى.

ومنهم: المرشد الصالح مولانا أحمد الباوردي قدس سره.

ومنهم: الإمام الجليل الشيخ صنع الله الكوزة كياني ـ نسبة إلى كوزه كيان من أعمال تبريز ـ قدم هراة في طلب الحق، ولازم الشيخ علاء الدين المكتبدار، ثم نجله، ثم عاد إلى أوطانه، وتوفي سنة تسع وعشرين وتسعمائة، وسِنُّه ثلاث وسبعون سنة.

وله أصحاب من أشهرهم: سيدنا علي جان بادام ياري ـ قدس سره، نسبة إلى بادام يار من أعمال تبريز ـ صحب الشيخ صنع الله، حتى كمل، وتوفي في اخترين ـ قرب حلب ـ عام سبع وستين وتسعمائة، وعمره نحو السبعين قدس سره.

وممن ذكر من أصحاب سيدنا الكاشغري أيضاً عمدة الصالحين مولانا حاجي مزاري قدس سره.

وممن ذكر أيضاً نخبة الأكابر الأتقياء: الحافظ إسماعيل الروجي قدس سره.

وممن ذكر أيضاً: جوهرة العارفين: مولانا محمد الجَامي، أخو سيدنا عبد الرحمن الجامي، توفي قبل أخيه قدس سره.

وممن ذكر أيضاً: سلالة العلماء الواصلين: مولانا أحمد الزيارتكاهي قدس سره.

وممن ذكر أيضاً: كوكب فلك المرشدين: مولانا پير علي قدس سره.

وممن ذكر أيضاً: زهرة روض الإرشاد: مولانا الشيخ علاء الدين الكرماني قدس سره، رحل إلى مكة المكرمة وتوفي ثَم. قدس سره.

ومن أصحاب الكرماني الكرام: الشيخ عبد الغفور الساوجي ـ نسبة إلى ساوه من بلاد العجم ـ صحب الشيخ في مكة بعد سياحة طويلة، ثم بعد انتقاله

توجه إلى جهة العجم، وجاوز سنه المائة، وتوفي سنة سبع وسبعين وتسعمائة قدس سره.

الخليفة التاسع: من كبار خلفاء سيدنا علاء الدين العطار شيخ هذه السلسلة المنورة.

وأعظم من سرى إليه سرّ هذه النسبة المطهرة: سيدنا الشيخ يعقوب الچرخي قدس الله سره.

* * *

سيدنا الشيخ يعقوب الچرخي

قدس الله سره العزيز

عالم الأولياء، وولي العلماء، ظهر في العالَمين[1] بالعِلْمين ظهور القمرين، في أشرف الموطنين، إلى أخلاقٍ تبارك الخلاق ما أعظمَهَا، وأذواقٍ روى عن حضرة الإطلاق معظمها، أحيا الحقيقة بالشريعة، والشريعة بالحقيقة، وسلك في طريقة القوم أقوم طريقة، وورث علوم الغيوب، كما ورث النبوّة يعقوب.

ولد قدس سره: في چرخ - بجيم فارسية، ومهملة، وخاء معجمة - قرية من قرى غزنين - وهي بمعجمتين، ونونين، بينهما ياء تحتية - بلدة بين قندهار وكابل، مما وراء النهر سنة. . . . .

ورحل لتحصيل العلوم إلى هراة، ثم إلى مصر المحروسة، وتلقى العلوم الشرعية والعقلية عن علمائها.

ومن أعظمهم: علامة عصره الشيخ شهاب الدين الشيرواني، ثم عاد إلى وطنه، وصحب حضرة سيدنا شاه نقشبند قدس الله سره العزيز، إرادة تحصيل علم الباطن.

قال قدس الله سره: كنت مخلصاً في المحبة لحضرة الشيخ، قبل التشرف بلقائه، فلما فرغت من تحصيل العلوم، وأجيز لي الفتوى، وعزمت على الانصراف إلى الوطن، أتيت لزيارته قدس الله سره العزيز، فقلت له مع الخضوع: أرجو دوام ملاحظتي بإكسير أنظاركم.

فقال: جئتني وقت التوجه إلى الوطن! فقلت له: إني محبك، وخادمك.

---

(١) قوله (العالَمين): أي عالمي الملك والملكوت بالعلمين العلم بالله والعلم بأحكام دينه (ع).

قال: ولم؟ قلت: لأنك عظيم الشأن، مقبول عند الناس، فقال: ائتني بدليل أحسن من هذا، فإنه يحتمل أن يكون هذا القبول شيطانياً، فقلت: ورد في الحديث الصحيح: «إذا أحب الله عبداً ألقى محبته في قلوب عباده»[1].
فتبسم ـ قدس الله سرّه ـ ثم قال: نحن العزيزان، فلما سمعت هذه الجملة منه دهشت، لأني كنت رأيت في المنام، قبل ذلك بشهر قائلاً يقول لي: كن مريد العزيزان، ونسيت الرؤيا، فانتبهت من كلامه، وتذكرتها، ثم استأذنته، فقال: خل عندي شيئاً إذا رأيته تذكرتك، ثم قال: إني علمت أنه ما عندك ما تدعه، فخذ كوفيتي هذه، واحفظها، فإذا نظرت إليها تذكرتني، ومتى تذكرتني وجدتني، وإذا اجتمعت بمولانا تاج الدين الكولكي، فاحفظ خواطرك، فإنه من أولياء الله تعالى، فقلت في نفسي: أنا قاصد الوطن من طريق بلخ، وأين بلخ من كولك!

ثم توجهت إلى بلخ، فحدث لي في الطريق ما اضطرني إلى الرجوع إلى كولك، واجتمعت بمولانا تاج الدين ـ قدس الله سره ـ، وتذكرت ثَمَّ كلام حضرة الشيخ قدس الله سره العزيز، وزاد اعتقادي به، وحبي له، ثم إني بعد وصولي إلى الوطن رجعت إلى بخارى، فعمدت إلى زيارته قدس الله سره العزيز.

قال: وكان في بخارى مجذوب، فأحببت أن أتفاءل منه بشيء، فأتيته بهذا القصد، فلما رآني قال: أسرع، ولا تتوقف، وكان يخط في الأرض خطوطاً، فخطر ببالي أن أحسب هذه الخطوط، فإن خرجت وتراً كانت إشارة إلى صحة هذه الداعية، فإن الله وتر يحب الوتر، فحسبتها فإذا هي وتر، فبادرت إلى صحبة الشيخ رضي الله عنه، وعرضت عليه مرادي، فلقنني الوقوف العددي، وقال: راع الوتر يشير إلى الخط الوتر الذي اتخذته دليلي، وحجة لي.

---

(١) حديث «إذا أحب»: أخرج البخاري نحوه في صحيحه (٣٢٠٩ و٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧)، ومالك في الموطأ (٣/ ١٢٨)، وعبد الرزاق في المصنف (١٩٦٧٣) وغيرهم.

وقال قدس الله سره: لما جدّ بي الطلب للتحقق بهذا المشرب، جعلت أختلف إليه كثيراً، وهو يزداد رحمة بي، وشفقة عليّ، وأنا أزداد اعتقاداً به، وإخلاصاً له، حتى تيقنت أنه ليس أحد أفضل منه في وقته، وفتحت المصحف يوماً للتفاؤل، فخرج قوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠]، وكنت وقتئذٍ مقيماً في بلدة فتح أباد، فتوجهت آخر النهار لزيارة ضريح الشيخ سيف الدين الباخرزي قدس سره، فورد عليّ - وأنا متوجه للضريح - وارد أزعجني، فقصدت حضرة الشيخ قدس الله سره العزيز، فلما وصلت عنده وجدته كأنه ينتظرني، وكانت الصلاة قد حضرت، فبعد أداء الصلاة أقبل عليّ بوجهه الكريم، فوجدت له هيبة في نفسي، وعظمة في قلبي، وجلالة في نظري، حتى لم أطق الكلام في حضوره، فقال لي قدس سره:

ورد في الأخبار: «العلم علمان: علم القلب، وذلك العلم النافع علمه الأنبياء والمرسلون. وعلم اللسان: وذلك حجة الله على خلقه» وأرجو الله تعالى أن يكون لك نصيب من علم الباطن.

ثم قال: ورد في الخبر: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب يدخلونها، وينظرون إلى هممكم.

ثم قال: أنا مأمور من جناب الحق تعالى أن لا أقبل إلا من يقبله تعالى، وسأنظر الليلة، فإن قبلك الحق تعالى قبلتك، فما مضى من عمري ليلة أشدّ عليّ منها إذ بت خائفاً قلقاً، من أنه هل يفتح لي باب القبول أو لا، فلما طلع الفجر وصليت خلفه انصرف من صلاته، وقال لي: بارك الله بك لقد قبلك الله، فقبلتك، ثم عدّ مشايخ سلسلة طريقه، إلى حضرة الشيخ عبد الخالق الغجدواني رضي الله عنه، ولقنني الوقوف العددي، وقال:

هذا أول العلم اللدني، وصل من سيدنا الخضر عليه السلام، إلى الشيخ عبد الخالق رضي الله عنه، فلم أزل في خدمته، وصدق صحبته، حتى أذن لي بإرشاد الخلق إلى الله تعالى، وقال: إن ذلك سيكون سبباً لسعادتك.

وروى عنه سيدنا الشيخ عبيد الله الأحرار ـ قدس الله سرهما ـ أنه قال: أمرني الشيخ رضي الله عنه بصحبة الشيخ علاء الدين في جغانيان، فكتب إليّ أن آتي لصحبته، امتثالاً لأمر الشيخ رضي الله عنه، فقدمت جغانيان، ولزمت صحبته، حتى توفي قدس الله سره، فذهبت إلى هلغتو.

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار: كان حضرة الشيخ يعقوب، والشيخ زين الدين الخوافي أخوين في تحصيل العلوم في مصر المحروسة، على العلامة الشيخ شهاب الدين الشيرواني، فقال لي يوماً: سمعت أن الشيخ زين الدين يعبر رؤيا المريدين، ويعتمد عليها، وأنت كنت في هراة، فهل سمعت بهذا؟ فقلت له: أجل، وكان وقتئذٍ آخذاً بلحيته الشريفة، فغاب، ـ وكان من عادته أنه يغيب في أثناء كلامه ـ حتى وصل رأسه إلى صدره، ثم رفع رأسه بعد ساعة، وأنشد ما معربه:

أنا إن كنت إلا عبد شمس ... وإن حدثت إلا عن سناها
وما أنا ليل أو عبد لليل ... يربى المرء بالرؤيا يراها

توفي قدس الله سره في قرية هلغتو ـ بهاء مضمومة، ولام ساكنة، وغين معجمة مفتوحة، ومثناة فوقية مضمومة، وواو ساكنة ـ وهي من قرى الحصار.

وله قدس روحه خلفاء عظماء وأصحاب بلا حساب، وأعظم من سرى سرّ هذه النسبة المطهرة إليه، شيخ هذه السلسلة المبجلة، سيدنا الشيخ عبيد الله الأحرار رضوان الله عليه.

* * *

سيدنا الشيخ ناصر الدين عبيد الله الأحرار
ابن محمود بن شهاب الدين الشاشي السمرقندي
قدس الله سره

قطب دائرة العارفين، وبحر علم لا تنقصه كثرة الغارفين، ملك من أبكار الأنوار الذاتية أحرارها، وكشف عن أقمار الأسرار الصفاتية أسرارها، إذ مال من عهد المهد إلى الكمال، وقد أوتي الحكم صبياً، وشمر عن ساعد الجد، لتحصيل أثيل المجد، لأنه لو كان العلم في الثريا، وما مال إلى أهل ولا مال، حتى نال من مقامات الأولياء ما نال، إلى تجليات ذاتية، وعلوم غيبية، وحقائق علية، أحيا الله به هذا الطريق، فأيد أهله، وأبد فضله، وجمع شمله، ونظم نثار السلف الأسمى، وانتظم في سلك أولى الخلافة الروحانية العظمى، وسعى وسعه في إنقاذ القلوب، مما مسها في غمار الأغيار من اللغوب، إذ أصبح شمساً ترشد السالكين، إلى طريق حق اليقين، والاطلاع على كنوز المعارف الخفية، ومخدّرات الحقائق اللدنية.

ولد قدس الله سره: في شاش سنة ست وثمانمائة، في شهر رمضان، نقل أنه حصل لوالده جذبة عظيمة؛ صرفته عن أعمال الدنيا بالكلية، فصار يميل للرياضة الشاقة، وتقليل الطعام والمنام، وترك الاختلاط مع الخواص، فضلاً عن العوام، واستمر كذلك أربعة أشهر، ففي أثنائها حملت به أمّه، فسكن ما به وعاد لحاله.

وقد بشر به قبل ولادته العارف الكبير سيدنا الشيخ نظام الدين خاموش السمرقندي قدس سره.

ذكر المولى الشيخ محمد السربلي أن الشيخ نظام الدين جاء إلى بيت أبيه يوماً قال: وكان أبي مخلصاً في محبته والاعتقاد به، فبينما هو جالس للمراقبة

إذ صاح صيحة عظيمة، فلما انصرف سأله عن سبب صيحته، فقال له: ظهر من جانب الشرق رجل يقال له: عبيد الله، يوشك أن يصير شيخاً عظيم الشأن، يسخر الله له العالم كله، قال: فلما سمعت اسمه منه جعلت أنتظر ظهوره، فكنت أول من تشرف باتباعه، والانتظام في سلك أتباعه، اهـ.

وسأذكر من تفصيل أحواله إجمالاً جميلاً، مقتصراً على ما هو أقوى وأقوم قيلاً.

بداية حاله في حال بدايته

كانت سيماء السعادة في أيام الصبا عليه ظاهره، وأنوار الهداية في أسارير وجهه باهره.

نقل بعض أقاربه الكرام: أنه قدس الله سره لم يقبل حين ولد ثدي والدته، حتى طهرت من النفاس.

وكان قدس الله سره يقول: إني أحفظ كلاماً كنت سمعته، وأنا ابن سنة.

وقال قدس الله سره: إني منذ كان عمري ثلاث سنين، وأنا في الحضور مع الله تعالى، حتى كنت أذهب إلى المكتب، وأقرأ عند الشيخ وقلبي معلق مع الله تعالى، وكنت أحسب أن جميع الناس كذلك.

ولقد خرجت زمن الشتاء إلى الصحراء، فغاصت قدماي مع النعل في الطين، وكان الوقت شديد البرودة، فاهتممت بنزع قدمي، فغفلت عن الله تعالى بهذا المقدار، وكان ثم رجل يحرث على بقر، فجعلت ألوم نفسي، وأقول لها: انظري إلى هذا الحراث مع ما هو عليه من العمل، لم يغفل عن الله عز وجل.

ولا غرو إذ كان جده الأعلى لأبيه الإمام الجليل الشيخ محمد النامي: وهو من أعظم أصحاب القطب الكبير أبي بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشي.

وتربى في حجر خاله علامة وقته، وبركة عصره الشيخ إبراهيم الشاشي قدس الله أسرارهم.

وقال قدس الله سره: أول ما كتب لي خالي للتعليم هذا البيت:

بـواطـن أهـل الله مثـل ظـواهـر فطوبى لمن أبدى الخفيات تحقيقا

ثم لم يأل جهداً في أن أتعلم، حتى أرسلني من تاشكند إلى سمرقند رجاء ذلك، فكنت كلما ذهبت إلى الدرس أصابني مرض يمنعني عنه، فذكرت له حالي، وإنك إن كلفتني بالتحصيل ربما أموت، فتوقف، وقال: يا ولدي أنا لم أعلم حقيقة حالك، فاذهب، وافعل ما تريد.

وأردت أن أقرأ يوماً، فرمدت عيناي، ولم أزل كذلك خمسة وأربعين يوماً، فحينئذٍ تركت، ولم أصل في القراءة إلا إلى المصباح في النحو.

وقال قدس الله سره: بت أيام الطفولية عند ضريح الشيخ أبي بكر القفال رضي الله عنه، فرأيت في المنام سيدنا عيسى عليه السلام، فأهويت إلى قدميه الشريفتين لأقبلهما، فرفع رأسي، وقال لي: لا تحزن، فأنا أربيك، فقصصتها على بعض الفضلاء، فعبرها بعلم الطب، فلم أرض بهذا التعبير، وقلت له: تعبيرها عندي أن عيسى عليه السلام مظهر الإحياء، وكل من نال هذا المقام من الأولياء يقال له: عيسوي، وإذ تعهدني بالتربية، فلا بد أن أنال مقام إحياء القلوب، فلم ألبث أن أعطاني الله هذا المقام.

وقال قدس الله سره: رأيت رسول الله ﷺ في البداية ليلة عند ذيل جبل عظيم عال، ومعه جم غفير، فأمرني أن أحمله، فأصعد به الجبل، فحملته إلى أعلى الجبل على عنقي، فأعجبته، وقال لي ﷺ: إني أعلم أن لك هذه القوّة، غير أنني أحببت إظهارها للناس.

وقال قدس الله سره: رأيت في البداية سيدنا شاه نقشبند رضي الله عنه ليلة قد جاء وتصرف في باطني، ثم ذهب فتبعته، فلما أدركته التفت، وقال: بارك الله بك.

وكان يغلب عليّ وهم قوي، بحيث لا أقدر أن أخرج وحدي ليلاً، فورد عليّ ليلة وارد قويّ اضطرني للخروج من الدار، وكانت ليلة مظلمة، فخرجت

حتى أتيت ضريح الشيخ أبي بكر القفال رضي الله عنه، ثم ذهبت لزيارة أكثر قبور الصالحين، فذهب وهمي من حينئذٍ، حتى أني خرجت ليلة لزيارة الشيخ كوى عارفان قدس الله سره، فجلست عند قبره المبارك، وكان في مكان بعيد عن المدينة منحرف عن الطريق مخوف، وكان يومئذٍ في تاشكند مجنون، هائل الصورة، بشيع المنظر، مزعج الصوت، مغتال، تخافه الناس جداً، حتى عدا مرة على شخص فقتله، فبينما أنا جالس ثَمَّ للمراقبة إذ حضر ذلك المجنون، وجعل يصيح عليّ بصوت كريه أن اخرج من ذلك المكان، فلم ألتفت إليه، فقطع من شجر هنالك حطباً وجعله حزمة، وأتى بها ليوقدها من السراج المعلق على الضريح، ويلقيها على رأسي، فبحكمة الله تعالى ثارت نسمة أطفأت السراج، فزاد جنونه، وأخذ يشتمني أقبح شتم، ولم يزل كذلك، حتى مطلع الفجر، كل ذلك ولم أخف منه، ولم أكترث به، ولا حصل لي تفرقة أصلاً، ثم مضى، فأتى السوق فاغتال شخصاً، فأخذوه فقتلوه.

وعن نجله الشيخ كلان ـ قدس الله سره ـ أن عمته ـ قال: وكانت من النساء العارفات ـ أخبرته:

أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان في بداية حاله، وهو في تاشكند، إذا حصل له قبض، يخرج ويدخل من باب الدار، وكلما خرج بصورة يدخل بصورة أخرى، يكرر ذلك نحو عشر مرات، فكان كلما دخل بصورة فزع منه النساء اللاتي في البيت، حذراً من أن يكون أجنبياً، فيتبسم من ذلك فيذهب قبضه.

ومن نحلته في رحلته

رحل ـ قدس الله سرّه ـ من تاشكند إلى سمرقند، فصحب بها الغوث الأكبر الشيخ نظام الدين الخاموش مدة، ثم قصد بخارى، وكان وقتئذٍ سنُّه اثنين وعشرين سنة، فلقي خلال طريقه العارف الكبير الشيخ سراج الدين الپيرمسي في پيرمس ـ وهي بباء فارسية، فتحتية، فراء مهملة، فميم، فسين مهملة ـ قرية من قرى وابكن، على أربعة أميال من بخارى.

يقول قدس الله سره: لما زرته التفت إليّ كثيراً، ولكن لم يمل قلبي للبقاء عنده، فاستأذنته بالسفر إلى بخارى، ولقد رأيته يشتغل كل نهاره بالفخار، فإذا أقبل الليل جلس في مصلاه جلوس التشهد، فلا يتحوّل من جهة إلى جهة أصلاً إلى الفجر، وكان من المتضلعين في العلوم كلها. اهـ.

ثم بعد أن أقام عنده سبعة أيام قدم بخارى، فصحب بها الإمام الكبير الشيخ حميد الدين الشاشي، والقطب الشهير الشيخ علاء الدين الغجدواني، وكان من كبار أصحاب سيدنا شاه نقشبند قدس الله سرهما العزيز.

يقول نوّر الله مرقده: كان الشيخ المشار إليه يغلب عليه الاستغراق والغيبة، حتى كان يغيب في غضون الكلام، وكان حسن الحديث حريصاً على الذكر والمجاهدة، لقيته وقد بلغ التسعين - بتقديم الفوقية - فكنت أكثر من زيارته، وذهبت مرة لزيارة ضريح سيدنا شاه نقشبند رضي الله عنه ماشياً، فلما رجعت استقبلني الشيخ في نصف الطريق، فقال: حسبت أنك تبيت ثَمَّ فأتيت لأجلك، فعدت معه إلى الزيارة، حتى إذا صلينا العشاء، قال لي: هلم نحيي هذه الليلة، ثم جلس متوركاً إلى طلوع الفجر، لم ينتقل من جنب إلى جنب، ولا يتأتى مثل هذا الثبات، إلا بحضور تام، ومشاهدة كاملة، وإلا فليس هذا في طوق البشر، لا سيما مع كبر السن.

وأما أنا فقد تعبت من كثرة المشي، ولم يسعني إلا موافقته في الجلوس، فأقمت مثله إلى نصف الليل، ثم عجزت، فقمت وجئت عنده، فجعلت أهمزه ليزول عني النوم والكسل، فلما شرعت بذلك قال: أتخفيفاً لأثقالي؟ فقلت: بل لم أطق الجلوس، فأردت أن أخفف عن نفسي وأستريح.

وكنت في بداية أمري على غاية من الاضطراب، حتى صحبته، فتبدل الاضطراب بالتمكين.

وكنت أظن أن مراد المريد موقوف على التفات الشيخ، فلما صحبته قال لي: عليك بدوام الذكر، والسعي فيه، فإن كل ما يصل بلا مشقة، لا بقاء له،

فابذل الجهد في المجاهدة، وتحمل المشاق الزائدة. اهـ.

ثم ذهب إلى هراة، فلقي بها كبير العارفين السيد قاسم التبريزي - قدس الله سرّه - وهو من كبار أصحاب سيدنا شاه نقشبند رضي الله عنه.

يقول قدس الله سره: صحبت مشايخ كثيرين، فلم أر أعظم حالاً منه ولا أكبر، فإن كل ما حصلته من غيره لم أجده شيئاً، بالنسبة إلى ما نلت منه، وكنت إذا رأيته أشهد جميع الكائنات تطوف به، ثم تدخل في باطنه وتتلاشى، فكنت آتي كل يوم إلى بابه، ولا أدخل عليه إلا في كل يومين أو ثلاثة مرة، فكان الناس يعجبون لذلك، ويقولون لي: كيف يكون قد أذن لك بالدخول ولا تدخل؟! ولو أنه أذن لنا لما خرجنا من عنده.

وكان يحتجب، فلما وصلت إليه أمر حاجبه أن لا يمنعني في أي وقت أتيت.

وسألني أول ما لقيته: ما اسمك؟ فقلت: عبيد الله، فقال: عليك بالتحقق باسمك، وقال لي: أتعلم لِمَ لا تظهر المعارف والحقائق في هذا الزمن؟ لأن ظهورها موقوف على التصفية، وهي موقوفة على حل الطعام، فلما فقد فقدت، فلم تظهر المعارف، وكيف تظهر من القلوب الساهية المظلمة اللاهية.

ورأيت ليلة كأني في طريق واسع عظيم، يتشعب منه طرق عديدة، كلها ضيقة، ورأيت الشيخ زين الدين الخوافي واقفاً على طريق من تلك الطرق، فجاء وأخذ بيدي، وقال: قال رسول الله ﷺ: «السماع أهل لأهل الله»[1]، ثم أحب أن يذهب بي إلى قريته، فما مال قلبي إليه، فبينما نحن كذلك إذ طلع علينا مولانا السيد قاسم قدس الله سره، من طريق واسع، راكباً على فرس أبيض، فقال لي: هذا الطريق يوصلك إلى المدينة، فهلم أوصلك إليها، ثم أردفني خلفه، ومشى على ذلك الطريق.

ونقل عن الشيخ فتح الله التبريزي أنه قال: صحبت حضرة السيد قاسم

---

(١) حديث «السماع أهل»: لم أجده.

قدس الله سره، وبي ميل عظيم لتحصيل علم التصوّف، حتى كنت أتفكر في بعض الأوقات في مسئلة واحدة من العشاء إلى الفجر، فبينما أنا جالس عنده يوماً إذ جاءه الشيخ عبيد الله، فتوجه إليه بكليته، وبدأ يذاكره بالمعارف، ودقائق الحقائق، فلما انصرف قال لي: ذكر كلام القوم وحكاياتهم، وإن كان فيه فوائد جمة، إلا أن باب المقصود لا يفتح بمجرد القيل والقال والسماع، بل هو موقوف على الخدمة والرياضة، والمشقة والهمة، فإن شئت أن تنال ما ناله الأولياء، فتمسك بأذيال هذا الشاب، وأشار إلى الشيخ عبيد الله، فإنه أعجوبة الزمان، وعن قريب يستنير العالم بنور سرّه، وتحيا القلوب الميتة حياة أبدية ببركته، فما زلت أترقب ذلك، حتى أتى في عهد السلطان أبي سعيد إلى سمرقند، فذهبت لزيارته غير مرة، وشاهدت منه أكثر مما قاله السيد قدس الله سره.

ولقي في هراة أيضاً الإمام الجليل الشيخ بهاء الدين عمر الخراساني قدس الله سرهما يقول: ما أعجبني من بين أحوال مشايخ خراسان إلا حال الشيخ عمر وطوره، فإنه كان يجلس لملاقاة الناس يومه كله، وكل من أتى عنده كلمه بما يوافق حالته وعقله وصناعته، ولا يميز نفسه عن إخوانه إلا في الرياضة فقط.

ثم صحب سيدنا الشيخ يعقوب الچرخي قدس الله سره.

يقول نوّر الله مرقده: لما سمعت به وأنا ذاهب إلى بخارى، عزمت منصرفي منها على زيارته، فوصلت إلى جغانيان، فمكثت بها مريضاً عشرين يوماً، وكان أهلها ينكرون على الشيخ، فصاروا يغتابونه عندي، فضعف اعتقادي به من كلامهم، ثم قلت في نفسي: إنني جئت من مسافة بعيدة، فلا ينبغي أن أرجع قبل لقائه، فذهبت إليه فالتفت إليّ التفاتاً تاماً، ثم ذهبت في اليوم الثاني، فغضب غضباً شديداً، ففهمت تلويحاً أن ذلك من الإصغاء لكلام المنكرين، والعزم على ترك زيارته، فلما سكت عنه الغضب عاد إلى التفاته السابق، وجعل يذكر سبب اجتماعه بسيدنا شاه نقشبند رضي الله عنه، ومدّ يده

إليّ، وقال: بايعني، فتوقفت عن أخذها لبياض كان في جبهته كالبرص، فلما شعر بذلك قبض يده، ثم ظهر على طريقة الخلع واللبس بصورة حسنة مهابة، فزال عني اختياري، ثم مدّ يده، وأخذ بيدي، وقال: قال لي الشاه نقشبند حين بايعني: يدك يدي، فمن أخذها فقد أخذ يدي، فأنت آخذ بيد الشاه نقشبند، فبايعْ ولا تتوقف، فبايعته، ثم علمني طريق الخواجكان، بالنفي والإثبات، وهو المسمى: بالوقوف العددي، وقال: هذا ما وصل إليّ من حضرة الشاه نقشبند، وإن شئت أن تربي الطالبين بطريق الجذبة، فلك الخيار.

وروي أن بعض أصحاب الشيخ يعقوب ـ قدس الله سره ـ قال له: الآن لقنته الطريق، وتخيره في تربية السالكين بين الجذبة، والذكر، فكيف هذا؟ فقال: هو رجل كامل لا يحتاج إلا إلى الإذن، فإن الله أعطاه غاية القوة، ومن أراد أن يجيء عند الشيخ، فليكن مثل هذا، فإن الأسباب فيه موفرة، والمعدات مستحضرة، هيأ السراج، والفتيلة، والزيت، وترقب الكبريت.

ومن تفرده في تجرده

قال قدس الله سره: كنت على عهد ميرزاشاه رخ في هراة لا أملك فلساً، حتى مررت يوماً في سوق الملك فأتاني سائل يسألني صدقة تجاه دكان طباخ، فأتيت الطباخ، فأعطيته عمامتي، وكانت قد مزقت كل ممزق، حتى صارت كالفتايل، وقلت له: اغسل بهذه القدر، وأطعم هذا السائل، فأطعمه، ورد إليّ عمامتي، فما قبلتها، ومضيت.

وكنت أوائل السفر إلى هراة في الشتاء مع مولانا الشيخ مسافر ـ قدس الله سره، وكان من أصحاب حضرة شاه نقشبند رضي الله عنه ـ في خلوة واحدة، لها باب إلى الطريق، وأرض الطريق أعلى منها، فكان إذا نزل المطر تمتلىء من ماء الطريق وطينه، وثيابي رقيقة جداً، لا تدفع البرد، فأكابد من ذلك مشقة عظيمة، وبقيت في هراة خمس سنين في صحبة الشيخ بهاء الدين عمر، فما

ذقت من عنده شيئاً إلا مرتين: مرة كانت عنده وليمة، ومرة كان صائماً، فأفطر عليّ بتفاح، فأعطاني قسماً منه.

قال: وكان في هراة رجل رئيس الصياغ والصيارفة محباً للسادة الخواجكان، قد تلمذ للشيخ محمد پارسا، فبلغه أني لا آكل من طعام أحد في هراة احتياطاً، فجاءني مستهل شهر رمضان، وحلف علي بالطلاق أن لا آكل إلا عنده، فحذراً من وقوع الطلاق عليه صرت آكل من بيته، وكان على غاية من الأدب والشفقة والخدمة، ولم يكن لي وقتئذٍ قدرة على مكافأته، فلما أقدرني الحق تعالى كان توفي، فأرسلت إلى ولده عشرة آلاف دينار وغيرها.

وكان قدس الله سره: لا يقبل هدية أحد أصلاً، حتى أن الرجل الصالح العديم النظير الشيخ أحمد الكاريري ـ أحد خواص العارف الشهير الشيخ سعد الدين الكاشغري قدس سره ـ أهدى إليه بعد انتقال الشيخ جبة من صوف أبيض رقيق، وكانت من مال حلال، فقال: هذه هدية رجل صالح، كان ينبغي أن ألبسها، غير أني إلى هذا اليوم لم آخذ من أحد شيئاً، ولا قبلت هدية أحد، فاعتذروا لي منه، ثم ردها مع هدية منه إليه.

ومن إخفاء أحواله في إنماء أمواله

قال قدس الله سره: كنت أتردد، وأنا متجرد في هراة لزيارة السيد قاسم التبريزي كثيراً، فكان إذا أكل الطعام يعطيني سؤره، ويقول لي: يا شيخ زاده ستصير دنياك قبابك، وكنت يومئذٍ لا أملك شيئاً. انتهى.

وكان الأمر كما بشره، فإنه لما خرج من تاشكند مع خاله إلى سمرقند كان سنه عشرين سنة، فبقي أربع سنوات يختلف إلى المشايخ من أهل ما وراء النهر وغيرهم، ثم عزم على هراة، فأقام بها خمس سنين، ثم عاد إلى وطنه، وسنه تسع وعشرون سنة، واختار الاشتغال بالزراعة، فما تيسر له إلا فدان من بقر شركة شخص آخر، فبارك الله له في زراعته، حتى نمت نمواً عظيماً.

قال صاحب «الرشحات»: ولقد سألت مرة بعض خدامه عن عدد أماكن

زراعته، فقال: هي أكثر من ألف وثمانمائة مزرعة.

ونزلت يوماً في قرية قرش عند عامل زراعته، فسألته عن عدد مزارعه، فقال لي: أنا عامل مزرعة واحدة من ألف وثلاثمائة مزرعة، فسألته عن عدد فدادين المزرعة التي تحت يده، فقال: ثلاثة آلاف فدان.

ومن رأفته العامة للخاصة والعامة

قال قدس الله سره: نزلت في سمرقند في مدرسة قطب الدين الصدر، فوجدت فيها أربعة في الحمى، فجعلت أخدمهم وأغسل ثيابهم وأمتعتهم، فمن فرط المشقة أصابتني الحمى، وإني ذات ليلة وأنا في الحمى، أتيت بأربع جرار من ماء، وغسلت لهم الأثواب والبسط، ولم أترك خدمتهم.

وكنت وأنا في هراة أذهب إلى حمام الشيخ عبد الله الأنصاري، فأخدم الناس فيه، لا أميز بين الحر والعبد، والغني والفقير في الخدمة، حتى أني دلكت يوماً ستة عشر نفراً، وما أخذت من أحد شيئاً أصلاً.

وإن السادات الخواجكان ينظرون إلى الوقت، فيعملون بمقتضاه، فيشتغلون بالذكر والمراقبة، حيث لم تكن خدمة لأحد، فإذا احتاج مسلم لخدمة آثروها، وذلك أن الخدمة سبب لقبول القلوب، وهو مقدم على الذكر، والمراقبة، وظن بعض الناس أن الاشتغال بالنوافل أولى من الخدمة، وليس كذلك، فإن نتيجة الخدمة المحبة، وميل القلوب، لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، وفرق بين ثمرة النوافل، وثمرة الخدمة، ولهذا كان سيدنا شاه نقشبند وأتباعه ـ قدس الله أسرارهم ـ لا يقبلون خدمة أحد بسهولة، لأن الخدمة والتواضع من الإحسان، وحب المحسن أمر جبلي، وعلى قدر حبه يكون التعلق به، والتعلق حجاب، فلا يريدون التعلق بأحد بوجه من الوجوه، بل كانوا يسعون في أن يخدموا، ولا يستخدموا.

يقول حضرة الشاه نقشبند رضي الله عنه: ما أخذت هذا الطريق من الكتب، بل من الخدمة، وهذا فائدتها، ويقول: كل أحد يدخل من باب، وأنا

دخلت من باب الخدمة، فمن أحبه أمره بالخدمة، وأنشد بالفارسية بيتاً معربه:

إلى شرفات العرش يوصلك الخدم   فاسلم منها ما رقت سلماً قدم

وكان قدس الله سره شديد المراعاة للآداب الظاهرة والباطنة في كافة أحواله وأحيانه، خلوة وجلوة.

فقد قال أبو سعيد الاوبهي رحمه الله تعالى: إني صحبته خمساً وثلاثين سنة لم أفارقه قط، فما رأيته تلك المدة إذا أكل عنباً أو تفاحاً أخرج من فمه نواة أو قشرة، ولا رأيته تثاءب أو استنثر أو أخرج من فمه بصاقاً، أو صدر عنه مما يكره شيء.

وكذلك قال صاحب «الرشحات» قدس الله سره: وإنه لم يره جلس متربعاً قط، لا في خلوة ولا جلوة.

ومن آثاره في إيثاره

نقل أنه توجه بأصحابه أيام الربيع إلى بلاد كش، فلما أقبل الليل نزل قرب جبل، ولم يكن معهم إلا خيمة واحدة، فضربت له، فما لبثوا أن جاءت السماء بماء منهمر، وذلك بعد العشاء، فخرج قدس الله سره من الخيمة، وقال لأصحابه: ادخلوها فإن لي شكاً في طهارتها، وشدّد عليهم فدخلوها، وبقي - قدس الله سره - ظاهر الخيمة، والمطر تصب فوق رأسه حتى طلع الفجر، فبعد صلاة الفجر أسرّ إلى بعض أصحابه: أني استحييت أن أستظل في الخيمة، وأصحابي تحت المطر.

وخرج يوماً في شدة القيظ إلى مزرعة له، وما كان عند الزراع إلا خيمة واحدة فنصبت له، فقبل أن يشتد الحر خرج، فركب فرسه، وقال لأصحابه: اجلسوا!! إني أريد أن أنظر إلى الأرض وزرعها، فجعل يدور هكذا وهكذا، وإذا اشتد عليه الحر جداً يأوي إلى بعض المغارات، وربما كان رأسه في الظل وجسده في الشمس، ولم يزل كذلك حتى برد الهواء، فرجع إلى أصحابه وقد علموا أنه لم يقصد بذلك إلا راحتهم وإيثارهم.

ومن كراماته في كلماته

قال ـ قدس الله سره ـ في قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢]: كمال الحمد أن يحمده العبد، ويعرف أنه لا حامد إلا هو تعالى، وأنه هو عدم محض لا رسم له ولا اسم ولا فعل، وإنما يبتهج سروراً بكونه تعالى جعله مظهراً لصفاته.

وقال في قوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣]: الشكور في الحقيقة من يشاهد المنعم في النعمة.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ في قوله تعالى: ﴿وأعرض عن من تولى عن ذكرنا﴾ [النجم: ٢٩]: أي أعرض عمن استغرق واستهلك في ذات الله تعالى فلا يذكره، وإن ذكره حصل له فتور في الشهود، فلا تكلفه بالذكر[1]. اهـ.

قلت: وإليه يشير ختم الأولياء المحمديين الشيخ الأكبر محيي الدين رضي الله عنه بقوله:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنطمس البصائر والقلوب
وترك الذكر أفضل منه حالاً ... فإن الشمس ليس لها غروب

وقال قدس الله سره في قوله تعالى: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩]: هذه المعية:

إما حسية: وهي مصاحبتهم ومجالستهم، فمن داوم على ذلك نوّر الله قلبه بأنوار باطنهم، وأنعم عليه بالتحقق بأخلاقهم.

وإما معنوية: وهي أن يكون متوجهاً لروحانيتهم رابطاً قلبه بهم، بحيث يكون مستحضراً لهم غيبة وحضوراً، فإنه إذا أحكم هذا الارتباط القلبي انعكس عليه جميع أسرارهم.

---

(١) قوله (فلا تكلفه بالذكر): مثال هذا كرجل أُلقي في البحر وغاب عن نفسه وحسه، فكيف تخاطبه وتكلفه بالكلام والمحادثة، فإنْ كلفته بذلك فإنك تضره. (ع).

أو المراد من هذا الأمر الواجبِ الامتثال: أن الطالب ينبغي أن يربط قلبه بالصادق، وهو مَنْ تنزه عن الغير والسوى، يقال: رمح صدوق، أي: لا انحراف فيه ولا اعوجاج، أي: فلا ينبغي أن يلتفت إلى شيء آخر، حتى التجليات الأسمائية والصفاتية.

أو المراد: كن عاشقاً واصحب العشاق لا غير، فإن كان أستاذك نحوياً فلا بد أن تصير نحوياً، أو محوياً فمحوياً.

جليس إمام النحو في النحو يرتقي وصاحب قيس المحو يبرع في المحو

لأن الله تعالى قد أعطى الإنسان صفة التأثير والتأثر بالصحبة، ولهذا أمر بها، فلا عمل أنفع ولا أجذب للأحوال منها، بدليل جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين.

وقال في (لا إله إلا الله): قال بعض الأكابر: هي ذكر العوام، و(الله) ذكر الخواص، و(هو) ذكر خواص الخواص، وعندي أن (لا إله إلا الله) ذكر خواص الخواص، لأنه لا نهاية لتجلياته تعالى ولا تكرار فيها، ففي كل آن ينفي صفة(1) ويثبت صفة، فلا يخلو أبد الآبدين من نفي وإثبات.

وقال قدس الله سره في قوله تعالى: ﴿قل الله﴾ [الأنعام: ٩١]: المراد أن يكون العبد متوجهاً إلى الذات البحت لا إلى الصفات.

وقال ـ قدس الله سره ـ في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا﴾ [فاطر: ٣٢]: أي: يا أيها الذين ربطوا قلوبهم بالله تعالى آمنوا أنَّ هذا منه تعالى لا منكم.

وقال في قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾: يحتمل أن يكون قوله تعالى ظالم لنفسه إشارة إلى من منع نفسه عن اللذات، وما أعطاها مرادها في جميع الأحوال، فصار مستعداً لقبول الفيض

---

(١) قوله (ينفي صفة): ينفي صفة حادثة فانية، ويثبت صفة من صفات الكمال ظهوراً بعد ثبوتها بطوناً. (ع).

الإلهي، وحينئذٍ يكون مقدماً على المقتصد، وهو مقدم على السابق. اهـ.

قلت: ذكر هذا المعنى ختم الأولياء المحمديين الشيخ الأكبر محيي الدين رضي الله عنه، وفرق بين الظالم لنفسه والظالم نفسه، واستدل للأول بهذه الآية، وللثاني بقوله تعالى: ﴿بل كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [النساء: ١٣٦] فقد ظلم نفسه وأن الأول سعيد والثاني ضده.

وقال ـ قدس الله سره ـ في معنى قوله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ١٦]: يحتمل أن يكون المراد بالملك قلب السالك، فإنه إذا تجلى الحق تعالى على قلبه بالتجلي القهري يمحو منه الغير والسوى، فلا يبقى فيه إلا هو، فلا جرم يسمع في هذا القلب: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، وسبحاني ما أعظم شاني، وأنا الحق، وهل في الدارين غيري. ونحو ذلك من هذا المقام.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ يوماً لأصحابه: لِمَ لا تدخلون الأسواق وتعملون عملاً ينفع الناس، فاسعوا ليحصل لكم شهود الأحدية في الكثرة، فقد قال بعض المشايخ في معنى قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١]: أي: أعطيناك شهود الأحدية في الكثرة.

وقال ـ قدس الله سره ـ في خلال الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [الرحمن: ٢٩]:.

إن للبقاء بعد الفناء معنيين:

أحدهما: أن السالك بعدما يتحقق ويتمكن في شهود الذات، ويرجع من الاستغراق والغيبة إلى الحضور والحس، يصير مظهر تجليات أسماء الأفعال، ويجد في نفسه آثار الأسماء الكونية ويميز بينها، ويحصل له حظ خاص من كل اسم.

ثانيهما: أن يجد في نفسه في كل آن وجزء لا يتجزأ من الزمان أثراً من الآثار الذاتية التي لا توجد في خارج الأعيان، وآناً فآناً يشاهد هذه الآثار

المتنوعة المتلونة في نفسه، وباعتبار اختلافها يميز أزمنتها، وهذا نادر لا يكون إلا قليلاً وأهله في كل زمان على غاية العزة، وكل يوم هو في شأن تؤيد ما ذكرنا.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ في معنى حديث: «سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر»[1] قال المحققون: إنه كان لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كمال النسبة الحبية مع رسول الله ﷺ، فأشار بهذا الحديث إلى أن جميع الطرق مسدودة لا توصل إلا طريق الحب، والمراد من الرابطة محبة الشيخ المستحق للمشيخة، وطريق السادة النقشبندية المتصل بأبي بكر رضي الله عنه مبني على هذه المحبة، فما هو إلا حفظ هذه النسبة.

وقال ـ قدس الله سره ـ في قول علي رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً:

لو لامتناع الثاني لامتناع الأول، فيكون اليقين دائم الازدياد، لأن كشف الغطاء لا يمكن، إذ ثبت عند المحققين أن الذات لا تنكشف إلا في تجلي الصفات، أي لا تظهر إلا في مظهر، فلما لم تنكشف الذات كما هي، فلا جرم أنه يكون اليقين في ازدياد.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ في معنى قول أحد الأكابر: لو أقبل صدِّيق على الله ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة فما فاته أكثر مما ناله:

إن هذه الطائفة تصل إلى مقام تتضاعف فيه كمالاتها السابقة كل نَفَس، ومنه ما حكي أن بعض المحجوبين ذكر عند الخليفة أنه ظهرت طائفة من الزنادقة قد ضلوا، فإن تأمر بقتلهم تنل أجراً عظيماً، وتخلص الناس من طغيانهم.

فلما أحضروا إلى دار الخلافة أمر بقتلهم فأخذ السياف بيد أحدهم ليقتله،

---

(١) حديث «سدوا كل»: أخرجه البخاري برقم (٤٦٧)، ومسلم برقم (٢٣٨٢) وأحمد في «المسند» (١/ ٢٧٠) وغيرهم.

فقام واحد منهم وقال له: اقتلني أنا أولاً، فلما أخذ بيد الثاني قام آخر منهم، وقال له: بل أنا اقتلني أولاً، فلما رأى مبادرتهم إلى القتل عجب منهم، وقال: من أي طائفة أنتم؟ فإنكم لمشتاقون إلى الموت، قال: نحن من أهل الإيثار، وقد وصلنا إلى مقام نكتسب في كل نَفَس ضعف الكمالات السابقة، فكل منا يؤثر الآخر ولو بلحظة من الحياة ليغنم تلك الكمالات.

فرفع أمرهم إلى الخليفة، فلما تحقق أحوالهم تنبه، وقال: إن كان هؤلاء زنادقة فليس لله على وجه الأرض صدِّيق.

ثم اعتذر إليهم، وأعادهم إلى وطنهم بكرامة السلامة وسلامة الكرامة.

قلت: هذه القصة وقعت لأبي الحسين النوري وجماعته كما تقدم في ترجمة السري السقطي في بحث الإيثار.

وقال ـ قدس الله سره ـ: في معنى قولهم: أهل الأحوال يتبرؤن من الأحوال: ليس الاستغراق والاستهلاك من أسباب الترقي، إذ تقرر أن الترقي يكون بالعمل، وقد تعطل المستغرق عن العمل، وإنما الاستغراق والاستهلاك من الأمور الأخروية ظهر معجلاً، فمن لم يحصل له في الدنيا حصل له في الآخرة على وجه أتم وأكمل، فلهذا يتبرأ أهل الأحوال منها.

قال ـ قدس الله سره ـ كتب الشيخ محمد پارسا ـ رضي الله عنه ـ: ان حقيقة الذكر عبارة عن تجليه سبحانه لذاته بذاته في عين العبد من حيث اسمه المتكلم، ولا يكون هذا إلا بذكر دائم في زمن طويل إلى أن يحصل له دوام الحضور، فإن زال بعد ذلك عنه هذا الحال، فهو ممن أنعم الله عليه.

وقال قدس الله سره: الصلاة التي هي أفضل الأعمال تختلف باختلاف البقاع، فإنها في أماكن الفسق والفجور غيرها في مواضع العبادة والحضور، ومنه يظهر كون الصلاة في البيت الحرام بسبعين ألف صلاة في غيره.

وقال قدس الله سره: التصوّف أن تحمل أثقال الكل، ولا تضع أثقالك على أحد لا ظاهراً ولا باطناً.

وقال قدس الله سره: للشهود معنيان:

أحدهما:شهود الذات منزهاً عن الظهور في لباس المظاهر.

وثانيهما: شهوده في المظاهر والمجالي بوصف الوحدة.

وتسميه طائفة الصوفية: شهود الوحدة في الكثرة، وهذا مقام رسول الله ﷺ بعد البعثة.

وقال قدس الله سره: عجبت لمن يقول: لا تنظر لمن قال وانظر لما قال. فإن القائل والمتكلم هو الله تعالى في المظاهر والمجالي.

ومن آدابه لأصحابه

وقال قدس الله سره: إن أهل الإرادة قليلون جداً، كتب شيخ عظيم لمثله: إن كنتم تعلمون مريداً فأرسلوه إليّ، فأجابه: ليس عندنا مريد، فإن ترد شيخاً نرسل لك ما تريد.

وقال قدس الله سره: قال مولانا ركن الدين الخوافي ـ وكان فاضلاً لا نظير له في عصره محباً لهذه الطائفة ـ: إنني لا أرجو النجاة من أعمالي إلا بأمر واحد، وهو أني أتيت يوماً بأحجار لأجل استنجاء الشيخ زين الدين بن كلال، فمسحتها بخدّي أولاً ثم قدمتها له.

وقال قدس الله سره: لما أراد الشبلي ـ رضي الله عنه ـ الدخول في طريق الصوفية، وكان أبوه حاكماً في مدينة واسط تاب وأناب على يد الشيخ محمد خير النسّاج. فأرسله إلى الجنيد رضي الله عنهما، فقال صاحب كتاب «كشف المحجوب»: ما أرسله لكونه ليس له قدرة على تربيته، بل رعاية للأدب مع الجنيد، إذ كان الشبلي من أقاربه، فأمره الجنيد أن يكتسب ويرد المظالم التي وصلت إليه في زمن حكومة والده إلى أهلها من كسبه سبع سنين، ثم بتطهير الخلاء وتهيئة الأحجار والماء للاستنجاء سبع سنين، فبعد أربعة عشر سنة لقنه الذكر وأدخله الرياضة.

وقال قدس الله سره: قال بعض الأكابر: إن بعد العصر ساعة هي أفضل الساعات، فينبغي الاشتغال فيها بأفضل الأعمال.

فقال قوم: أفضل الأعمال المحاسبة، وهي أن يحسب العبد أعماله كلها، فما وجد من طاعة شكر الله تعالى عليه، وما وجد من معصية استغفر الله تعالى وتاب.

وقال آخرون: أفضل الأعمال أن يصحب شيخاً ينتفي ببركة صحبته عنه كل ما سوى الله تعالى، ويميل إلى الله تعالى وينجذب.

وقال ـ قدس الله سره ـ في معنى قولهم: صحبة الأضداد موجبة للتفرقة: إن أبا يزيد رضي الله عنه وجد يوماً تفرقة، فقال لأصحابه: انظروا هل في مجلسي أجنبي؟ فنظروا فما وجدوا أحداً فقال: دققوا النظر فإنه إذا لم يكن أجنبي فكيف حصلت لي التفرقة، فلما بالغوا بالتفتيش وجدوا عصا رجل أجنبي فرموها، فعادت له جمعيته.

وجاءه ـ قدس الله سره ـ رجل من أصحابه يوماً، فقال له الشيخ: إني أجد رائحة أجنبي، ثم قال للرجل: لقد تحققت الآن أنها منك، فلعلك لابس ثوب أجنبي، فقال له: نعم! فخرج ونزع ذلك الثوب، ثم رجع فجلس عنده.

وقال ـ قدس الله سره ـ: التوحيد عند صوفية هذا الزمان أن يذهبوا إلى الأسواق وينظروا إلى المرد، ثم يقولوا: نشاهد الجمال المطلق، فأعوذ بالله من هذا الشهود، فإنه لما قدم السيد قاسم التبريزي إلى هذه البلدة ـ يعني سمرقند ـ كان أصحابه يذهبون إلى السوق وينظرون المرد ويقولون مثل ذلك، فكان السيد يقول عنهم: أين خنازيرنا؟ أين كلابنا؟ ففهمت من فحوى كلامه أنه كان يراهم كذلك.

ونقل ـ قدس الله سره ـ عن حضرة سيدنا شاه نقشبند ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: رأيت في مكة المكرمة ـ زادها الله شرفاً وكرامة ـ رجلين، أحدهما رفيع الهمة جداً، وثانيهما دنيها جداً.

أما دنيّ الهمة: فرجل رأيته في المطاف قرب الباب ملتزماً جدار الكعبة بصدره باسطاً يديه يطلب من الله تعالى غيره.

وأما عليّ الهمة فشاب لقيته في سوق منى قد اشترى وباع بخمسين ألف دينار، وما غفل عن الله طرفة عين، ولقد خرج مني الدم غيرة منه.

وجلس رجل في مجلسه ـ قدس الله سره ـ منكساً رأسه للمراقبة، فغضب منه، وقال له: هكذا جلس رجل في مجلس مولانا نظام الدين ـ أي الخاموش ـ قدس الله سره، فقال له: ارفع رأسك، فإني أرى الدخان يخرج من فيك، فما لك والمراقبة، إنما ينبغي لك أن تحمل الماء والأحجار للاستنجاء، وتكنس الخلاء سنين عديدة، حتى يصير لك استعداد لأن أتكلم بك، فأين أنت من المراقبة.

ونقل ـ قدس الله سرّه ـ عن السيد قاسم التبريزي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كنت يوماً في مجلس مولانا زين الدين التايبادي فجاءه رجل صوفيّ، فقال له الشيخ: أنت تحب شيخك أكثر أم الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه، قال: بل شيخي أكثر، فغضب مولانا منه غضباً شديداً، حتى قال له: يا كلب! وقام فدخل بيته، ثم خرج وقد ذهب الرجل، فقال لي: يا فلان! تعال نذهب إلى هذا الرجل الصوفي ونعتذر منه، فذهبت معه، فوجدناه أثناء الطريق راجعاً إلى زيارة الشيخ ثانياً، فقال له: يا مولانا أنا رجعت لأفيدكم حالي أن لي مدة مديدة وأنا أعمل بأقوال الإمام الأعظم، فما زالت عني صفة من الصفات المذمومة، وصحبت هذا الرجل أياماً قليلة، فزال عني جميع الخصال المذمومة، فما المانع من أن أحبه أكثر من الإمام، نعم إن كان لا يجوز شرعاً أتركه وأتوب منه، فاعتذر إليه مولانا غاية الاعتذار، واستحسن رأيه.

وقال قدس الله سره: قال الشيخ أبو القاسم الكركاني رضي الله عنه: اصحب من تفنى فيه أو يفنى فيك أو تفنيان كلاكما في الله لا تبقى أنت ولا هو.

وحدّث بعض أصحابه يوماً نفسه في مجلسه ـ بأن الشيخ ـ قدس الله سره ـ

يتوجه إليّ الآن ويتصرف بي ـ فقال له في الحال: كمال التصرف لا يكون ما لم تفن فيّ أو أفنى فيك. كما قال الشيخ عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: كنت رجلاً فخرجت في طلب عين الحياة، فوصلت إلى أبي الحسن الخرقاني رضي الله عنه فوجدتها عنده، فشربت منها كثيراً، حتى ما بقيت لا أنا ولا الخرقاني.

وقال: قال الشيخ أبو سعيد قدس الله سرهما: تكلم سبعمائة من المشايخ على ماهية التصوّف. وأحسنها وأتمها: التصوّف صرف الوقت فيما هو أولى به.

وقال: قال الشيخ نظام الدين قدس الله سرهما: ينبغي للشيخ أن يلبس اللباس الفاخر، ويظهر للمريدين بصورة جميلة مع العظمة والوقار، لئلا يكون محقراً في أعينهم فتضعف رابطته، فإنه لا سبب لحصول مقصود السالك إلا الرابطة مع الشيخ، ولذلك أمر ﷺ بتسريح اللحية وغيره.

وقال قدس الله سره: سألت أكابر علماء سمرقند ان الإنسان إذا رأى في منامه أن إلهه قد مات، فما تعبيره؟ فقالوا: من رأى أنه مات النبي ﷺ فيعبر بتقصيره في متابعته، إذ موت النبي موت شريعته وهذا مثله.

قال: فقلت: ربما يعبر بأن من كان له حضور مع الله تعالى يزول حضوره وشهوده، انتهى.

وقال صاحب «الرشحات» قدس سره: سمعت مولانا الشيخ نور الدين عبد الرحمن الجامي ـ نوّر الله مرقده ـ يقول: يحتمل أن يؤخذ تعبيره من قوله تعالى: ﴿أفمن اتخذ إلههُ هواهُ﴾ بأن الرائي كان متبعاً هواه، فمات إلهه، أي هواه، فتدل رؤياه حينئذٍ على زيادة الحضور.

وقال قدس الله سره: لا أقدر أن أسكن بلدة فيها شريف، إذ لا أقدر على أداء حق تعظيمه، فقد روي أن الإمام الأعظم رضي الله عنه قام يوماً في خلال درسه وقعد غير مرة، وما علم الحاضرون ما سبب ذلك، حتى سأله بعضهم، فقال: غلام من الشرفاء يلعب بين هؤلاء الأطفال، فكنت كلما وقع بصري عليه

أقوم إجلالاً له، وإذا غاب عني أجلس.

وقال قدس الله سره: المكر مكران: مكر بالعوام وهو: أن ينعم الله على العبد مع استغراقه في القصور، ومكر بالخواص وهو: إبقاء الوجد والأحوال عليه مع تركه للأدب.

وقال قدس الله سره: لو أن صوفياً صاحب وجد وحال مشى في طريقه فوجد فيه كلباً، فأقامه حتى يمشي مستريحاً، ولم يتغير حاله بعد هذا الفعل، فليعلم أن هذا مكر من الله تعالى.

وقال قدس الله سره: متى وجدت من صحبة أحد جمعية الخاطر والتوجه إلى الله تعالى فدع الذكر، إذ المقصود منه حصول النسبة وقد حصلت.

وقال: ما دمت تشير بالهاء وهو والحروف، فأنت عبد الحروف لا تنتج شيئاً، فاجهد في أن ترفع الغبار، وحجب الأغيار من طريقك، وتصير عبداً تذكره بلا هاء ولا واو.

وقال: إن حصل لك حضور بصحبة أحد، فطريق حفظه أن تجتنب ما يكرهه.

وقال: ينبغي لمن أراد المجيء عند هذه الطائفة أن يجيء بالإفلاس التام ظاهراً وباطناً لا الغنى، لئلا يحرم من بركاتهم.

وقال: حاصل هذه الطريقة العلية الإقبال على الله تعالى دائماً إقبالاً لا تكلف فيه.

وقال: قيمة المرء بقدر إدراكه حقائق القوم.

وكان يتكلم يوماً بالحقائق والمعارف والدقائق، وكان أحد أصحابه متوجهاً بكليته إلى استماع كلامه، فقال له: أنت تحب الكلام فقط، ولا يفتح باب المرام باستماع الكلام، بل اعمل بما تسمع ينفعك.

وقال: إذا زال لون النقوش الكونية من مرآة المدركة، فما ثَمَّ إلا الذات.

وقال قدس الله سره: دفع الخواطر الرديئة، والمقتضيات الطبيعية لا يحصل إلا بأحد أمور ثلاثة:

أولها: أن يشتغل بما قرره السادات في الطريقة العلية، مع اختيار رياضة طريقتهم ومجاهدتهم.

ثانيها: أن لا يرى لنفسه حولاً ولا قوة، بحيث يتحقق أنه لا يقدر أن يزيل حجاباً ما لم يزله عنه تعالى، فيتضرع إليه سبحانه حتى يخلصه من الحجب.

ثالثها: أن يكون متوجهاً إلى شيخه يستمد منه، ويعتقد أنه لا يقدر أن يتوجه إلى الله تعالى إلا بواسطته، وهذا أقرب الطرق وأسهلها وأحسنها، ولا بد أن يصل من هذا الطريق إلى المقصود الأصلي الحقيقي.

وقال قدس الله سره: تقليل الطعام والمنام في البداية يحرق الدماغ ويحرم من إدراك المعارف الإلهية والحقائق، ولهذا يقع الغلط في كشف بعض أهل الرياضة، وأما صاحب السرور والانبساط فلا يتضرر بالسهر ولا يجف منه دماغه، فقد ذكر الشيخ علاء الدين الغجدواني نوّر الله مرقده: أن سيدنا شاه نقشبند رضي الله عنه جاء إلى الطواتسي يوماً ومعه نفر من أصحابه، فلما غربت الشمس أمر الشيخ محمد الخياط والشيخ محمد الطواتسي ـ وكان من المخلصين ـ أن يأخذا من معه إليهما ويخدماهم، وجلس بعد صلاة المغرب على مكان مرتفع، ثم طلب الطواتسي، فسأله عما هيأه للأصحاب، فقال: مرادي أن أقدم لهم دجاجاً وأرزاً، فقال: أحضر الدجاج لأنظر إليه هو سمين أو لا، فلما حضر جعل يمسه بيده المباركة ويقول: مليح! مليح! وقال لمن معه: اذهبوا إلى بيت أخيكم، وكلوا وناموا واحضروا إلينا وقت الفجر.

وقال قدس الله سره: البعد الصوري لأهل الرابطة لا يمنع القرب المعنوي.

بوارقه وخوارقه

روى الشيخ ناصر الدين الأتراري ـ وكان من أجل أصحابه عنه قدس الله سره ـ أنه قال:

رأيت في المنام قائلاً يقول لي: سيكون للشريعة المحمدية بإمدادك ترويج عظيم وقوة كاملة.

فلما استيقظت وقع في قلبي أن هذا لا يكون إلا بإعانة الملوك، قال: فلهذا تحول قدس الله سره إلى سمرقند مقر السلاطين، وذلك في عهد السلطان عبدالله مرزا بن شاه رخ، وكنت في خدمته.

فلما وصل إليها جاء رجل من أمراء السلطان لزيارته، فقال قدس الله سره له: إني أتيت لملاقاة السلطان، فلعلك تكون وسيلة لهذا الأمر فتنال تمام الثواب والأجر، قال: إن سلطاننا رجل شاب مستغن عن الكل، وملاقاته لا تخلو من عسر، ولا ينبغي للمشايخ مثل هذا الأمر.

فقال له وقد ظهر عليه الغضب: أنا ما جئت إلا بأمر الله، وإن لم يأت سلطانك يأت غيره إن شاء الله تعالى.

ثم لما انصرف الأمير من عنده كتب ـ قدس الله سرّه ـ اسم السلطان على الجدار بالمداد ومحاه بريقه الأطهر، ثم قال لأصحابه: هلم نرجع إلى تاشكند إلى أن يأتي سلطان آخر، فرجعوا ذلك اليوم، فبعد أسبوع مات ذلك الأمير، ولم يمض شهر إلا وجاء السلطان أبو سعيد من أقصى بلاد التركستان، وقتل السلطان عبد الله مرزا، وجلس على سريره.

وقال أحد أجلاء أصحابه: كنا في الفركة ذات يوم جالسين في حضوره قدس الله سره، فدعا بدواة وقرطاس، وكتب أسماء كثيرة، ثم كتب اسم أبي سعيد في كاغد مخصوص ووضعه في عمامته، فقيل له: من هذا الذي وضعت اسمه في عمامتك فقال: هذا رجل أنا وأنتم وأهل تاشكند وسمرقند وخراسان سنصير من رعيته.

فبعد برهة بلغنا خبر توجه السلطان أبي سعيد من تركستان إلى سمرقند، ولم يكن أحد سمع من قبل ذلك باسمه.

قال: وكان أبو سعيد قد رأى في المنام الإمام الكبير سيدنا الشيخ أحمد

اليسوي، وهو من أعظم خلفاء الغوث يوسف الهمداني يشير إلى الشيخ عبيد الله ـ قدس الله سرّه ـ أن يقرأ الفاتحة على نية إمداده ونصره، فسأله عن اسم الشيخ فأخبره به، فاستيقظ وقد وعى صورته واسمه، فاستحضر رجلاً من أهل تاشكند فقال: أيوجد في بلادكم رجل اسمه عبيد الله عزيز الوجود، فقال له: نعم! فقصده إلى تاشكند فلم يجده، فتوجه إلى الفركة، فلما دنا منها خرج الشيخ ـ قدس الله سره ـ لملاقاته، فلما رآه عرفه وترجل في الحال، وقال: والله إن هذا هو الذي رأيته في المنام، ثم أقبل وقبّل يد الشيخ ورجله، فرحب به قدس الله سره، والتفت إليه التفاتاً تاماً، فانجذب قلب السلطان إليه، ثم سأله قراءة الفاتحة فقال له: الفاتحة تقرأ مرة واحدة، فاستأذنه بالتوجه إلى سمرقند، فقال له: إن كنت تريد نصرة الشريعة المطهرة، والعدل بين الرعية فبسم الله والفتح معك، قال: إنّ أريد إلا ذلك، قال: فاذهب فأنت في عصمة الله، وقد حصل المراد، ثم إذا لقيت العدوّ فصابره حتى تأتي قطعة من الطير الغرابيب من ورائكم، فعند ذلك هاجمه تظفر به، فلما التقى الجمعان كانت الغلبة أولاً لجيش عبد الله مرزا لكثرته وقلة أولئك، فالتفت أبو سعيد وراءه فرأى الغرابيب مقبلة، فزحف على العدوّ فهزمه، وسقط فرس عبد الله مرزا في الطين، فأدركوه فقتلوه، واستولى السلطان أبو سعيد على ملكه، ثم استدعى الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ إلى سمرقند، فجاء إليها وأقام بها هو وأصحابه قدس الله سره.

وبلغ السلطان أبا سعيد أن مرزا بابر حفيد شاه رخ قصده من خراسان بمائة ألف فارس ليأخذ ثأر عمه ويستخلص ملكه، فذكر ذلك للشيخ ـ رضي الله عنه ـ وشكا من قلة عَدده وعُدَده، فقال له: لا تخف.

فلما قرب مرزا بابر من سمرقند استشار أبو سعيد أمراءه فأشاروا إليه بالرجوع إلى تركستان، فتهيأ للرحيل، فلما بلغ الشيخ ـ قدس الله سره ـ ذلك أتى إليه وثنى عزمه عن ذلك، وقال: أنا إن شاء الله تعالى أكفيك عدوك.

فلما نازل مرزا بابر سمرقند وقع الوباء في عسكره، فطلب من الشيخ رضي الله عنه أن يأتي إلى معسكره لعقد المصالحة، فهمّ بذلك، فأبى عليه السلطان

أبو سعيد وقال: أخاف أن يستميل قلبك بالخديعة والحيل فتبقى عنده، وأنا أموري كلها دنيوية وأخروية منوطة بأمركم مفوضة لنظركم.

ثم سمع ـ قدس الله سرّه ـ أن مرزا بابر يقول: نحن لم نقصد سمرقند إلا لسبي نسائهم وأبنائهم، فأعرض حينئذٍ عن التوسط بينهما وقال: إن في سمرقند رجالاً صالحين وعباداً عُبَّاداً زاهدين، فقد توجهت لدفعه عنها رحمة بهم، فلم يلبث أن انصرف خائباً خاسراً.

وروي: أن مرزا بابر كان من المتصوفة، فكان يضطجع وقت الحصار على جدار الحصن ويقول: العارف لا همة له، العارف لا همة له ويكررها، ثم يقول: إن لم آخذ سمرقند فليس الشيخ عبيد الله من العارفين، لأنه يكون قد ردني بهمته والعارف لا همة له، فرفع ذلك إليه قدس الله سره فقال:

كأنه ما فهم معنى هذه العبارة فإن مرادهم بها أن العارف: من فنيت ذاته وصفاته في ذاته تعالى وصفاته، فلم يبق له اسم ولا رسم، فما يصدر منه لا ينسب إليه، قال تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ [الأنفال: ١٧]، وإلاّ فإن الأنبياء كنوح وهود عليهم الصلاة والسلام صدر منهم بتسليط القوة القاهرة على قومهم ما هو أعظم من ذلك.

ولما أفضت سلطنة سمرقند إلى مرزا أحمد أحد أولاد أبي سعيد من بعده، شاع أن أخاه مرزا محمود عازم على منازلته في سمرقند، فكتب إليه الشيخ رضي الله عنه:

أما بعد، فإني أستوهبك سمرقند التي سماها الأكابر البلدة المحفوظة، فلاّ تقصدها بأذىً إذ لا يليق بكم ولا يوافق رضا الحق تعالى، ولا يطابق شريعة نبيه ﷺ، وما كتبت إليكم إلا لمحبتي لكم وابتغاء نفعكم فأنا خادمكم المؤدي حق الخدمة، والعجب أنكم قبلتم كلام أهل الأهواء ولم تقبلوا كلامي مع أن في مدينة سمرقند كثيراً من الفقراء الصلحاء، والعباد الزهاد، فالحذر من أن

تتعرض لهم فيدعون والعياذ بالله عليك فيستجاب لهم، والفقير لا أرب له بذلك إلا نصحك والسلام.

فما قَبِل وأقبل بجيش جرار فنزل على المدينة، فأتى السلطان مرزا أحمد إلى الشيخ قدس الله سره فاستأذنه بالخروج من سمرقند، فلم يأذن له وبشره بالنصر وتكفل له بالظفر، فما اطمأن قلبه، فأدخله حجرة وجلس - رضي الله عنه - عند بابها، وأحضر له ناقة سريعة السير مع زاد أيام، وقال له: متى دخل ميرزا محمود من باب السور اركب أنت والجيش واخرج من باب آخر، فسكن ما به، وهدأ روعه، ثم إنه رضي الله عنه دعا بثلاثة من أعظم أصحابه وقال لهم: اصعدوا سطح باب السور تلقاء العدو ولا تنزلوا حتى ينصرف، وإلا فلا مقام لكم عندي ولا تقربون، ففعلوا فلما تصافّ الجيشان اقتتلا من الصباح إلى وقت الضحى فكاد أن ينغلب جيش سمرقند، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً أثارت قتاماً اكفهرّ منه الجوّ، فلم يستطع الراكب أن يثبت على دابته ولا الماشي أن يخطو خطوة، وكان السلطان محمود في غارٍ مع أمراء أجناده فسمعوا من داخل الغار صيحة هائلة مات من هولها أربعمائة شخص، وأزالت شعور الباقين، ففر ميرزا محمود فراراً فظيعاً، فاتبعهم أهل سمرقند نحو خمسة أميال وأوسعوهم سبياً وسلباً وطعناً وضرباً ثم رجعوا، فنزل حينئذ أصحاب الشيخ عن ظهر السور وأخبروه بذلك، فقال لميرزا أحمد: اخرج الآن لمسندك، واطمئن على سرير سلطنتك، فخرج شاكراً بره قدس الله سره.

قال صاحب «الرشحات»: إن الله تعالى أعطى الشيخ - قدس الله سره - من تسخير الملوك له وإطاعته ما لم يعطِ أحداً من قبل، حتى أنه قال مرة: لو أني تصدّرت للمشيخة ما أبقيت لأحد من مشايخ العصر مريداً، ولكن الله أمرني بأمر آخر وهو إنقاذ المسلمين من شر الظلمة، وأيدي المخالفين، ولهذا خالطت السلاطين ابتغاء تسخيرهم لنفع المسلمين.

وقال قدس الله سرّه أيضاً: أعطاني الحق تعالى في التصرف قوّة عظيمة، بحيث لو أرسلت ورقة إلى ملك الخطا وهو يدعي الألوهية لجاء حافياً

بلا توقف، ومع هذا لا أتصرف في ملكه تعالى بقدر ذرة، بل أقف عند حدّ أمره عزوجل، فإن من آداب هذا المقام أن تكون إرادتك تابعة لإرادته جل وعلا لا العكس. اهـ.

قال: ويشهد لذلك ما وقع منه عند مصالحته للملوك الثلاثة، وذلك أنه ورد إلى سمرقند خبر بأن السلطان محمود والسلطان عمر شيخ تحالفا على منازلة أخيهما السلطان أحمد في سمرقند، وخرجا بعسكر كثيف جداً، حتى نزلا في ضاحية شاه رخية - محل منسوب لشاه رخ - وخرج السلطان أحمد فعسكر بها أيضاً، وسأل الشيخ قدس الله سرّه الصحبة فأجابه: رجاء أن يصلح الله به بين هاتين الفئتين العظيمتين، فأقاموا أربعين ليلة يرقب كل منهما الآخر، فقال للسلطان أحمد: لِمَ آتيتم بي إلى هنا إن كان مرادكم الحرب فإني لست من أهله، أو الصلح فلِمَ هذا التأخير! فقال له: يا سيدنا ومولانا! الرأي رأيكم، فقد فوّضت أمري إليكم فافعلوا ما تشاؤون، فإني لا أخالف لكم أمراً، قال: فتوجه - قدّس الله سره - إلى معسكر الفئة الثانية، فخرج الملكان لاستقباله، وبالغا في تكريمه وإجلاله، فالتفت إليهما بكليته وألجأهما إلى الصلح، فامتثلا أمره غير متوقفين.

فلما كان من الغد أمر أن يتهيأ جيش الملوك الثلاثة، ويبقى كل جيش في محله، وينصب خباء وسط الجيوش، واستدعى الملوك الثلاثة إليه فحضروا، فلما تلاقوا عانق ميرزا أحمد مع أخيه ميرزا محمود، وأخذ بيد ميرزا أحمد فمسح بها وجه أخيه ميرزا عمر شيخ، فبكوا بكاء كثيراً حتى أبكوا الجم الغفير، ثم أجلسهم تحت الخباء وكان لمجلسهم هيبة عظيمة ترتعد منها فرائص الجبال، والعساكر من حولهم وقوفاً صفوفاً، مترقبين لو حصل ما يوجب الحرب لانقضوا على بعضهم كالسيل الجارف، قال: فوضعوا المائدة وأكلوا جميعاً، ثم طلب الشيخ قدس الله سرّه ارتجالاً من ميرزا أحمد أن يتنزل لأخيه ميرزا محمود عن مدينة تاشكند، فأجابه بالحال لذلك، فختم المجلس بالتبرك

بفاتحة الكتاب، ثم انصرف كل منهم بجيوشه إلى حاضرة سلطنته شاكرين أياديه وبره قدس الله سرّه.

وعن الشيخ مصطفى الرومي رحمه الله ـ وكان من خدمة تجارته ـ أنه قال:

مررت مرة عند منصرفي إلى سمرقند على مدينة سير ـ من أعمال سمرقند ـ فلقيت أميرها ميرك حسن، فقال لي: أنت رجل صالح ومرادي أن أرسل إلى الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ رسالة، فهل تقدر أن تؤديها؟ قلت: نعم، فقال: قل له أنه ما بقي في ملك ميرزا أحمد إلا بلاد قليلة، فهلا أخذتها وخلصتنا منها، فلما بلغته ذلك تمعر وجهه الشريف وغضب غضباً شديداً، ثم قال: يأمرني الكلب أن أكون سلاخاً! وقام ودخل بيته، فجعل أصحابه يلوموننی على ذلك، ثم بعد خمسة عشر يوماً وقع من ميرك حسن أمر أغضب السلطان، فأمر به فسلخ حياً.

وتوجه ـ قدس الله سرّه ـ يوماً إلى بلدة القرشي، فأتاه أحد خدام أبله وهو قره أحمد العربي وهو يبكي، ويقول إن السيد أحمد سارد آذاني كثيراً وظلمني، فتأثر ـ رضي الله عنه ـ من ذلك تأثراً كلياً ولم يتكلم.

فلما رجع إلى سمرقند استقبله الأمراء وفيهم السيد أحمد المذكور، فلما اجتمعوا عنده توجه إليه، وقال له: أنت تضرب خادمي وتؤذيه، فاعلم أني أنا كذلك أعرف طريق الضرب والأذى، وطرده من مجلسه، ولم يزل مغضباً إلى وقت العصر لا يكلم أحداً، فبعد أسبوع مرض السيد أحمد، فلما اشتد مرضه أرسل إلى السلطان يخبره بأني وقع مني سوء أدب في جانب سيدنا ومولانا فاعتذروا لي منه، واسألوه أن يعفو عني، فأرسل بعض أمراءه المقبولين عند الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ إليه في ذلك فقال له: يطلب مني السلطان إحياء الموتى أنا لست عيسى، فمات ذلك اليوم.

وله رضي الله عنه خوارق غريبة، وكرامات عجيبة، أقلها ما اطلعت عليه من انقياد سلاطين ما وراء النهر إليه، ووقوفهم إما في رحابه وإما بين يديه.

وأما كشفه عن المغيبات، وإخباره عن الخفيات، مما أفرده العلماء

بالتأليف كصاحب «الرشحات»، فهو أجلُّ من أن يحصر أو يحصى، فالعمر يستقصر دونه ولا يستقصى.

توفي رضي الله عنه وقت العشاء ليلة السبت سلخ شهر ربيع الأول سنة ثمانمائة وخمسة وتسعين في قرية كمان كران بعد أن حُمَّ تسعة وثمانين يوماً.

قال بعض الأكابر: وحكمة مرضه هذا المقدار أن سنَّه الشريف تسع وثمانون سنة، وفي الحديث الشريف «حمى كل يوم كفارة سنة».

وذكر نجله الشيخ محمد يحيى وجم غفير من أصحابه الحاضرين أنه خرج عند نفسه الأخير من بين حاجبيه نور باهر طمس ضوء الشموع.

وقد زلزلت سمرقند وقت صلاة الجمعة عند اشتداد مرضه، فعلم الناس أن الشيخ قد آن احتضاره، ووقت العشاء عند خروج روحه الزكية أيضاً، وكان قد حضر السلطان أحمد بعسكره بعد الغروب.

ثم يوم السبت حملنا نعشه المبارك إلى محلة الشيخ كفشير ـ بكاف، ففاء، فشين، فياء، فراء ـ ودفن في محوطة ملايان جمع ملاأى مدفن العلماء، وبنى عليه أنجاله قبة عظيمة هي محط رحال الرحمات العميمة. وسنه الشريف نحو تسع وثمانين سنة.

وله شبلان من أنجب الأشبال قد بلغا في حياته مبلغ أكابر الرجال:

الأول: الشيخ عبد الله، وكان يدعى بخواجكان خواجه أي: شيخ المشايخ، وبالشيخ كلان. وكان الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ يعظمه ويقربه لفضله وعلمه، وعلوّ أذواقه وشهوده، ووفور عرفانه، ولقد أراد يوماً زيارة أبيه، وكان بيته في قرية أخرى، فلما اتصل بالشيخ خبر مجيئه وضع عمامته على رأسه ولبس خفه وجبته، ثم استقبله وأتى به إلى حجرته، وقدّمه على أصحابه وجميع من في حضرته من العلماء وسكت لحظة، ثم قال له: تكلم بما يستفيد منه الناس، فأظهر التواضع له واعتذر منه، فأخذ تفسير القاضي البيضاوي رحمه الله وقرأ له آية، فابتدر الشيخ كلان يتكلم عليها من المعاني الظاهرية والإشارات

الغيبية، والحقائق الباطنية، بما بهر به عقول أهل المجلس، ولم يستطع أحد أن يوجه أدنى اعتراض عليه، ثم حضر الطعام فأكلوا، ثم استأذنه بالذهاب، فخرج رضي الله عنه مشيعاً له إلى الباب، ولم يزل ملجأ كل مريد ومعاذ الخائف من كل شيطان مريد، حتى توفي والده المكرم، وحصل له في مدة استيلاء الأوزبك على سمرقند ما أوجب خروجه إلى اندجان، فتبوّأها حتى انتقل إلى الجنان، وقد نيف على الستين، ودفن ثَمَّ قدس سرّه.

وقد أعقب سبعة أنجال أنجاب كلهم علماء هادون، أولياء مرشدون:

أولهم: الشيخ نظام الدين عبد الهادي قدس سرّه كان تحفة الزمان، وبركة الأقران، قدم إلى القسطنطينية في عهد السلطان بايزيدخان، ونال منه تمام الحظوة، ولما توفي أعقب نجلاً عالماً صالحاً، ومرشداً فالحاً، وهو الشيخ محمد قاسم، ولد زمان مولانا أحرار، وحظي ببركة وجوده، وقدم القسطنطينية والشام قدس سرّه.

ثانيهم: الشيخ خاوند محمود قدس سرّه لقنه جده الذكر وهو ابن إحدى عشرة سنة، وبشره بأنه سيكون في مقامه، وكان كما أشار رضي الله عنه.

رابعهم: الشيخ عبد العليم قدس سرّه.

خامسهم: الشيخ عبد الشهيد قدس سرّه.

سادسهم: الشيخ أبو الفيض قدس سرّه.

سابعهم: الشيخ محمد يوسف قدس سرّه.

الشبل الثاني: الشيخ محمد يحيى وكان الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ يحبه محبة مفرطة، حتى أقامه مقامه آخر حياته مع أنه أصغر أنجاله، وكان لا يخاطب في حضوره أحداً غيره، وكثيراً ما كان يتكلم معه في الحقائق والمعارف الإلهية، وكان إذا خلا به يذكر قصة شهادة سيدنا الحسين عليه السلام ويقول له: إنك على قدمه وسينالك نصيب وافر من استعداده، فبعد انتقاله رضي الله عنه استولى السلطان بخت خان مستهل محرم سنة ست وتسعمائة على تخت

سمرقند، وانتزع جميع ما كان للشيخ قدس الله سرّه، وأمر بخروج الشيخ محمد يحيى إلى خراسان، وكان قد سعى به عنده رجل من العلماء خدم أباه ثمانية وعشرين سنة، فلم يلتفت إليه ولا لقنه الذكر، وكان من عادته قدس الله سره أنه إذا طلع على باطن أحد أنه يتولى الرياسة لا يعلمه الطريق، كما قال لأصحابه حينما شفعوا عنده في قاضي اندجان، وكان قد خدمه كذلك: إني أنظر إلى باطن الناس، فمن كان فيه طلب الرياسة والجاه ولو بعد عشر سنين لا يعجبني أن ألقنه الذكر فأرخ أصحابه ذلك، فبعد عشر سنين وقع كما أخبر رضي الله عنه.

قال في «الرشحات»: حتى إن ذلك العالم قال لي يوماً: نفسي تحدثني أن آخذ سكيناً فأجعلها في أحشائي أو أحشاء الشيخ، لأني اتخذت كل الوسائل لاستجلاب رضاه فما أمكن، وبقي يخدمه إلى أن انتقل، فلما جاء التاتار مال إليهم، ونال جاهاً عظيماً ورياسة كاملة، فيوم خروج الشيخ يحيى قدس سرّه قال أحد الأمراء الأخباث للسلطان: إن له أتباعاً كثيرة في خراسان، فإن وصل إليها ربما تجدّدت الفتنة، والفتنة أشد من القتل، فاقتله هو وأولاده، فما قبل فألحوا عليه فقال: أنتم أعرف بتدبير أمر الملك فافعلوا الأصلح، ثم أرسل إلى الشيخ خفية يخبره بذلك، وبعث له دابة تمشي كل ليلة ثلاثين فرسخاً، وقال له: انج بنفسك إلى خراسان وأنا أرسل إليك ثقلك بعد فما قبل، وقال للخادم: قل له: حصل لك الأجر والثواب فجزاك الله عنا خيراً، غير أني مبشر من والدي بالشهادة فلعل هذا وقتها، ثم خرج بمن معه، فلما أن جاوز تاشكند قال: سبحان الله لقد كدنا أن نجاوز سمرقند، فأين بشارة والدي؟ مع أني على يقين أن بشارته لا تتخلف فلِمَ لم يظهر لها أثر، فبينما يسير في صحراء قرية كراب إذ خرج عليه ثلثمائة فارس من الأوزبك، فسقوه هو وولديه الشيخ زكريا والشيخ عبد الباقي كأس الشهادة، وأعادوا ما بقي من أولاده، وهو الشيخ محمد أمين وأتباعه وأثقاله إلى سمرقند، وحمل بعض أحبابه المخلصين تلك الهياكل المقدسة إلى سمرقند إلى محلة الشيخ كفشير، ودفنهم عند الشيخ رضي الله عنه، وكان لجنازتهم هول عظيم، ومشهد كبير، حشر له الناس من كل جانب، وبكى

دماً عليه الأقارب والأجانب، وكان مولانا الشيخ عبد الرحمن الجامي معتقداً له، ويقول: إن نسبة الخواجكان والجذبات النقشبندية غالبة عليه، والنسبة العلمية على الشيخ كلان قدس الله سرهم.

وأما أصحابه: فإنهم لا يحصون عدداً، ولا يدركون مدداً، من أعظمهم:

ولي الشرفاء، وشريف الأولياء مولانا السيد حسن قدّس سرّه، كان من أعلم أصحابه وأقدمهم، أتى والده به إلى حضور الشيخ وهو صغير، وعند الشيخ ظرف من عسل فبادر إليه، فتبسم الشيخ، وقال له: ما اسمك يا غلام؟ فقال: عسل، فقال: قابليته قوية قد ذاق العسل وفنى فيه، حتى نسي اسمه فإن ذاق غيره صار كذلك، ثم تقبله وأقبل عليه بتربيته وأرسل به إلى المكتب، فلما ختم القرآن المجيد أمره بتحصيل العلوم، فأصبح من العلماء المتبحرين، ذلك والشيخ يمدّه بأنواره القدسية، ويهتم لترقيته إلى المراقي الإلهية، حتى وصل إلى مرتبة الكمال بل إلى درجة الإكمال وله فضائل وفيرة، وكشف كالشمس في الظهيرة.

قال صاحب «الرشحات» لما قدم مولانا أحرار إلى كفشير جعلت تزوره السلاطين والأمراء وأعيان سمرقند، فلم تصل الأحباب والفقراء إليه، فخطر لي أنه لو اختار سيدنا العزلة لكان أحسن، فإن الطالبين ينتفعون أكثر، وذهبت ساعتئذٍ إلى السيد حسن، فإذا عنده علماء سمرقند يقابلون معه كتاب إحياء العلوم، فلما رآني سكت مدة، ثم توجّه إليّ، وقال: قال بعض العلماء: ذهبت لزيارة سيدنا أحرار ـ قدس سره ـ وأنا أقول في نفسي: لو أن الشيخ يترك الوعظ، ويختار الخلوة وعدم الاختلاط مع السلاطين والأغنياء لكان أولى، لما في مخالطتهم من التفرقة وقلة التوجه للطالبين، فالتفت إليّ وقال:

أنت عالم فاضل وفقيه قد وقعت لي مسألة مشكلة أحب أن تحلها، وهي: أن رجلاً مقبول الكلمة عند المبتدعة والظلمة فهو يخلص المسلمين من ظلمهم، ويزيل البدع وعوائد الجبارين من بينهم، فهل يجوز له ترك الاختلاط بهم واختيار الخلوة والعبادة أو لا، وأيّ الأمرين أهم بالنسبة إليه وأولى؟

فقلت: ترك العزلة بل النوافل والحالة هذه فرض عليه، فتبسم مولانا أحرار وقال: أنت تفتي بهذا ثم تعترض، فدفع السيد حسن ـ قدس سره ـ بهذه الحكاية ذلك الخاطر عني.

ومن أشهرهم: مولانا قاسم قدس سره: وهو من أجل أصحابه المقبولين عند جنابه، وكانت الأصحاب الأعزة تسميه ظل الشيخ لملازمته له، وفنائه عن نفسه وبقائه به، حتى انه آثر الشيخ بالحياة على نفسه حينئذ مرض، فشفي الشيخ ومات هو، وذلك يوم الإثنين لستٍّ خلت من ذي الحجة عام أحد وتسعين وثمانمائة. كما سيأتي بسط ذلك في ترجمة مولانا محمد الزاهد قدس سره.

ولما توفي حزن الشيخ عليه وقال ـ قدس الله سرّه ـ في شأنه: إنه لا نظير لمولانا قاسم في التجريد والفناء، وقال: الاشتغال بالذكر أولى من التوجه، ليحصل الفناء والتجريد الباطني الذي كان عليه مولانا قاسم.

قال الإمام الغزالي: السلوك يعني: السير إليه تعالى لا يتيسر بلا إعراض وإقبال، وهو معنى الكلمة الطيبة لا إله إلا الله.

ومن أكرمهم: المير عبد الأول ـ قدس سره ـ هو صهره الأطهر، والوارث لسره الأنور، اشتغل برابطته سبع سنين مع رعاية الآداب والشروط المقررة، ولم ينل التفاته، بل كان كلما وقع نظره عليه أقامه من مجلسه، وأظهر الغضب لرؤيته، ثم عطف عليه لما تحقق من ثباته وصدق محبته، وزوجه بابنته، فأولدها ثلاث بنين وهم: الميركلان، والميرميان، والميرخورد، وبنتان.

توفي: أوائل شهر ذي الحجة عام خمسة وتسعمائة قبل استشهاد سيدنا محمد يحيى بأربعين يوماً.

ومن أعزهم: مولانا جعفر ـ قدس سره ـ كان عالماً عاملاً، وعارفاً كاملاً، يغلب عليه الاستغراق، حتى ان الشيخ كلفه للاشتغال بالزراعة ليخف ذلك عنه فما أفاد.

يقول قدس الله سره: مال قلبي إبان طلب العلم إلى طريق الصوفية، فرأيت في المنام سيدنا أحرار، فقلت له: متى يصل العبد إلى الله تعالى؟ قال: إذا فني عن نفسه. فلما انتبهت تشرّفت بزيارته ولم أكن زرته قبل، فلما جلست قال: يا مولانا جعفر! أتعرف متى يصل العبد إلى الله تعالى؟ إذا فني في عبوديته.

توفي: عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة، وصلى عليه الشيخ، وشيعه، وجلس حتى دفنوه قدس سرهما.

ومن أكبرهم: مولانا برهان الدين الختلاني ـ قدس سره ـ البحر الزاخر في علم الباطن والظاهر، صحب الشيخ أربعين سنة سفراً وحضراً، ولما مرض عاده الشيخ ـ قدس سره ـ وأخذ يتكلم عنده على قوله ﷺ: «جدّدوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله» فقال:

المراد بجددوا أن يحصل للعبد كلما كررها انجذاب ومحبة لله تعالى.

قال الحكيم الترمذي: يفهم من الأمر بالتجديد: أن الإيمان يخلق، وخلقه عدم الوله والانجذاب والمحبة من العبد، فينبغي للطالب أن يزداد محبة وشوقاً إليه، كلما قال هذه الكلمة.

توفي بعد انتقال مولانا جعفر بأسبوع قدس سره.

ومن أعرفهم: مولانا لطف الله الختلاني قدس سره: كان في العلوم الظاهرية بحراً، وفي الأسرار الباطنية بدراً، وكان الغالب عليه البسط بحيث لا يتكلم إلا متبسماً، وكان الشيخ يمازحه كثيراً، حتى قال له مرة: يا مولانا لطف الله! أي امرأة تختار إن أردت أنْ تتزوج؟ قال له: الحلوة الخضرة، فقال له: قد أخطأت إذ بعد أيام تزول حلاوتها، وتبقى خضرتها. ثم قال: التزوج بلاء عظيم للطالبين. وقال: التزوج مادة الهوى وحرص النفس، فاترك الحرص، وكن مع الله تعالى.

يقول مولانا لطف الله: رأيت النبي ﷺ وقت الطفولية في صورة لم أر لها في الجمال نظير، فلما تشرفت بلقاء الشيخ قال: إن بعض الناس يرى النبي ﷺ في صور مختلفة، ثم نظر إليّ في أثناء كلامه، فرأيته على الصورة التي رأيت النبي ﷺ فيها، فلزمت صحبته.

وكان يوماً في يده «شرح المنازل» للشيخ عبد الرزاق الكاشي، وبعض العلماء يسأله عن مسائل منه، فقلت في مسألة: يحتمل أن يكون المعنى كذا، قال: كلام القوم لا يدخل تحت تأويلات العلماء فسكتُّ، وقلت في نفسي: ما قلته لا يخالف اصطلاح القوم، فلِمَ لم يقبله فغضب وتكلم كلاماً وجدت كأن جبلاً وقع عليّ من ثقله، فنظرت إلى وجهه فرأيت أن نوراً سطع من جبهته،

وشرع يزداد حتى ملأ البيت والدار فداخلني رعب كاد أن يقتلني، ثم جعل يخف شيأً فشيأً، حتى عاد إلى حاله الأول، وكنت معه في سفر وكان راكباً على فرس سريع وأنا على فرس بطيء المشي، فتقدمت عليه لئلا أتخلف عنه، فلما وصل إليّ ضربه سوطاً، وقال: أليست دابتك سريعة؟ فصار أسرع ما يكون.

ومن أكبرهم: مولانا شيخ ـ قدس سره ـ كان ملازماً للذكر بحبس النفس. يقول قدس سره: إنني أذكر بالنفي والإثبات في نَفَس واحد خمسين مرة مع ملاحظة الوقوف القلبي والعددي، ولا يضيق نَفَسي ولا يظهر أثر على وجهي.

وقد فوّض الشيخ إليه أمور دنياه قال: فحصل تفرقة من الاشتغال بالدنيا بعدما نلت جمعية الخاطر، فذهبت مرة لحضوره أشكو إليه ذلك وأنا مغموم منه، فلما وصلت. قال قدس سره: يا مولانا الشيخ إن الخلوة في الجلوة في هذه الطريقة أصل عظيم مبنى طريق الخواجكان عليه، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ ونسبتهم محبوبية، والمحبوب لا يكون إلا مستوراً، إذ المحب غيور، فينبغي أن تستر هذه النسبة بشغل من أشغال الدنيا، فصرت أتضرع في نفسي إليه أني لا أقدر على ذلك، فقال: وجّه الهمة حتى يعطيك الله تعالى قوّة الجمع، ثم توجه قدس سره إليّ في غضون ذلك فتمكن مني الجمع، بحيث صار النوم واليقظة والأشغال الدنيوية والأخروية عندي سواء. ولله الحمد.

توفي أواخر سلطنة شيبك خان، ودفن في محوطة ملايان قدس سره.

ومن أعلمهم: مولانا سلطان قدس سره: كان من أجلاء العلماء، وعلماء الأجلاء، جمع علوم الظاهر إلى فهوم الباطن.

يقول قدس سره: ذهبت في خدمة الشيخ إلى ماتريد، فأردت وأنا ماش معه أن أشتغل بالمراقبة والتوجه فلم يتيسر لي، فاشتغلت بالنفي والإثبات، فحصل لي الحضور واللذة، فلما وصلنا وجلست معه، قال لي بعد لحظة: هل اشتغلت بالنفي والإثبات؟ قلت: نعم، قال: لما جلست ظهرت نسبته، ففهمت أن الحضور مع الله تعالى وإن كان واحداً، ولكن يختلف باختلاف النسب

ولا يظهر هذا الفرق إلا لأخص الخواص من الأولياء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن أفضلهم: مولانا أبو سعيد الأوبهتي قدس الله سره: هو من أكابر العلماء العارفين لازم خدمته خمساً وثلاثين سنة.

يقول قدس سره: سبب هدايتي أني كنت في مدرسة مرزا الغ بك مشتغلاً بتحصيل العلم، فحصل لي يوماً ملل من المطالعة، ورأيتني مائلاً لطلب الحق وصحبة المشايخ، فرأيت أحد أحبائي من الطلبة، فقلت له: من أين، وما هو حالك؟ قال: كنت في جبل النور في صحبة الشيخ الياس العشقي، وبالغ في مدحه، فقصدته فمررت على مدرسة سيدنا فإذا به قد جاء راكباً ونزل على باب المدرسة، فقلت في نفسي: أنا لم أره قط فأزوره أولاً، ثم أذهب إلى جبل النور، فدخلت على أثره إلى المدرسة، فجلس على دكة كبيرة مع أصحابه، فجلست تلقاءه، فسكت لحظة ثم أنشد بالفارسية بيتاً عربه صاحب «الرشحات» بقوله:

في صحبتي كن ولا تقصد إلى جبل ... فلا معاذ تراه اليوم في جبل

فتأثرت من سماع هذا البيت، وقلت في نفسي: إن يكن أنشده من أجلي فليعده مرة أخرى، فتوجه إليّ وقال: يا أبا سعيد هذا البيت من كلام الشيخ خجند وأعاده.

ثم قام وركب وذهب وقد جذب قلبي إليه، فتحيرت في نفسي وجعلت أقول: إنه لا يعرف اسمي، فكيف ناداني به، وقرأ هذا البيت؟!

فخرجت فلقيت بعض الأحباب، فقلت له: اذهب إلى مدرسة الغ بك، وقل لقيمها: أن جميع ما في حجرتي من كتب وغيرها هو له فليتصرف فيها، ثم مضيت فجلست عند باب الشيخ، فبقيت سنة كاملة لم يلتفت إليّ ظاهراً وباطناً، فكان يزداد الانجذاب والترقي يوماً فيوماً، ثم بعد سنة أقبل عليّ. اهـ.

وله كلمات في المعارف قدسية منها: ما فسر به سورة الإخلاص بقوله: إن

أول موجود أوجده الله تعالى بلا واسطة شيء هو التعين الأول، ولما كان إظهاره من المبدأ الفياض يشبه الولادة قال تعالى: ﴿لم يلد﴾ نفياً لشبه الولادة.

ولما ظهر تعالى في المظاهر الإلهية بحسب الذات والأسماء والأفعال وكان هذا الظهور يشبه المولودية قال تعالى: ﴿ولم يولد﴾ نفياً لشبه المولودية.

ولما جعل الحق تعالى هذا النوع الإنساني مظهر جميع أسمائه ان الله خلق آدم على صورته أو صورة الرحمن، فكان مرآة ذاته الأقدس الذي ﴿هو الله أحد الله الصمد﴾ صفته وكان هذا التوهم كفراً نفى هذه المشابهة بقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾.

وقال قدس سره: ذهبت وأنا صغير مع أبي إلى مجلس الشيخ شمس الدين محمود الكوسوي فسمعته يقول في قوله تعالى: ﴿أحسن كما أحسن الله إليك﴾:

أظهرك، فعلمك تعالى بقوله ﴿أحسن كما أحسنت﴾ أي: افن فيَّ حتى تكون باطناً وأكون ظاهراً.

ثم طفق يتكلم بكلام من الحقائق الإلهية، لشدة غموضه غلب النعاس على أكثر الناس، فقال: ما لكم لا تسمعون كلامي وتنعسون؛ وإني لو كلمت سقف المسجد لتأثر من كلامي ووعظي؟! وأومأ إلى السقف وكان من خشب، فاضطرب الخشب، وتحرك كما تتحرك الأرض من الزلزلة، ففر أكثر الناس إلى ظاهر المسجد، ومن كان في قرب المنبر أخذ بقوائمه، ثم سكت زمناً طويلاً حتى تراجع الناس، فعاد لكلامه قدس سره.

ومن أفضلهم: مولانا الشيخ حبيب البخاري التاشكندي. كان من المقربين إليه، والوارثين لما كان عليه من المعارف الغالية، والأخلاق العالية، وقد فوّض إليه خدمة المائدة، فنال بذلك من توجهاته أعظم فائدة قدس سره.

ومن أحبهم: مولانا نور الدين التاشكندي: كان من نظره الشريف بمكانة، وله تمام الارتباط برابطته الشريفة، فقال له بعض الأصحاب: الاشتغال بهذا في

الصلاة كاد أن يكون كفراً، فاتركه من التحريم إلى التسليم، ثم توجه إليه بعد، فبلغ ذلك الشيخ فقال: كيف إذا خطر ببال المصلي فرس، أو عبد أو سبب دنيوي في الصلاة لا يكفر، وإذا ربط قلبه بمؤمن يكفر.

ووقع في سمرقند طاعون وأصيب الشيخ قدس سره به، فاستأذنه أن يفتديه بنفسه، فأبى وقال: أنت شاب ولك آمال وما رأيت من الحظوظ شيئاً، فقال: ليس لي أمنية بشيء ولا نفع لأحد، وأما وجودكم الشريف فهو مظهر النفع في الدنيا والآخرة، فقد فديتك بنفسي. فانتقل مرضه إليه، وتوفي بعد ثلاثة أيام وشفي الشيخ قدس سرهما.

ومر الشيخ بقبره مرة وهو راكب مع أصحابه، فرأى بعض أهل الكشف منهم أن مولانا نور الدين انقلب في لحده، وتوجه جهة الشيخ. فقال له الشيخ: يا مولانا نور الدين توجه إلى القبلة فتوجه.

ومن أحسنهم مولانا زاده الشيخ محمد عبدالله الاترازي قدس سره. كان من المنتسبين إلى الطريقة العشقية أولاً، ثم تشرف بخدمة الشيخ، ونال عنده أعلى المراتب، وكان يغلب عليه الاستغراق.

روي: أن الشيخ كان في حجرة بعض أصحابه فظهر في مجلى جلالي، بحيث كل من دخل عنده يحصل له الغيبة، فلما أحضروا الطعام كان مولانا زاده مستغرقاً فحركوه، فما أفاق، فقال الشيخ: تريدون أن تحضروا مولانا زاده، أما علمتم أن كل أحد يستمد مني من الأحوال علي قدر استعداده، وقد تشرف مولانا زاده الآن بحال أذهله عن الكونين، فلو علم أحد حاله نسي الطعام من غيرته.

ثم استأذن الشيخ ـ قدس سره ـ بالحج فبعدما قضى فريضته قدم دمشق وأقام بها وانتفع به خلق كثير. وبها توفي قدس سره.

ولمولانا زاده صاحب جليل وهو ملا محمد البدخشي قدس سره كان من كبار المرشدين، والأولياء المحمديين، قام بعد وفاة أستاذه في دمشق الشام

مقامه، فهدى الله به كثيراً من خلقه، ولما قدم السلطان سليم خان العثماني إلى دمشق ذهب إلى زيارته مرتين، وأخلص له المحبة، وليلة وفاة الشيخ رأى السلطان في المنام وودعه، ولما أفاق دعا له وبعث بسلامه إليه، ثم توفي. وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة في دمشق قدس سره.

ومن ألطفهم: مولانا ناصر الدين الاترازي ـ قدس سره ـ هو الأخ الصغير لمولانا زاده الأترازي، كان من خدامه، وموقع نظر إكرامه، قال: كنت قبل التشرف بخدمته أتعشق غلاماً جميلاً، فلما حظيت بسعادة صحبته في تاشكند خطر لي وقت الربيع الذهاب إلى سمرقند لرؤية الغلام، وحضور موسم النوروز معه، فاستأذنت الشيخ فأبى، ثم خرج يوم النوروز إلى الصحراء، فخرجت معه وأنا على غاية من القبض والميل إلى الذهاب إلى سمرقند لذلك، فأخذ باقة من أزهار وأعطانيها، وقال: يا مولانا ناصر الدين! أما تستحي من الصحبة وتذكر الغلام والخروج معه إلى موسم النوروز، فحصل لي من الخجل ما لا مزيد عليه، فلما اطلع على حالي توجه إليّ فزال ما بي وتبدّل حب الغلام بحبه قدس سره.

ومن أعظمهم: مولانا هندو خواجه التركستاني قدس سره: كان في كثرة الذكر آية وأي آية، نال بها أحوالاً عجيبة، وأطواراً غريبة، حتى رآه سيدنا أحرار يوماً في الصحراء يطير مع الطيور في الهواء، فما أعجبه بل أغضبه، ثم سلبه، فسقط إلى الأرض، وانخدش بعض أعضائه وارتض، وعاد كالعوام بلا حالٍ ولا مقام، فكان يبكي بين يديه، ويتضرّع ليلاً ونهاراً إليه، حتى مرت سنة كاملة عليه، ولفرط الألم والضيق، فرط منه ما لا يليق، فقال له: إن لم ترد لي حالي أقتلك أو أقتل نفسي ولا أبالي، كل ذلك وهو معرض عنه.

ولقد مر مرة في طريق مظلم فتبعه مولانا هندو بسكين وأهوى بها إليه، فتبدّل الشيخ بصورة راعي غنم، فغاب هندو خواجه عن شعوره، فأخذ الشيخ السكين وعاد إلى صورته الأصلية وتبسم، وقال: ليت شعري! لو ضربتك ماذا

تفعل؟ فوضع رأسه على قدميه وطفق يبكي ويتململ، فعفا عنه بشرط أن يخفي حاله، ولا يظهر ما سلف منه.

وكان ـ قدس سره ـ جليلاً وقوراً، يتلألأ وجهه من عظمة الحضور الإلهي نوراً، وكان ينشد:

في كل لائحة وجه الحبيب بدا   فانظره في كل وجه يا أخا الهمم
كذاك وجهك مرآة له وسوى   ذاك المحيا فلا يبدو لغير عمي
لو كنت ذا نظر شاهدت صورته   لديك من رأسك الأعلى إلى القدم

وهو من أولاد مشايخ تركستان قدس سره.

ومن أفضلهم: مولانا فخر الدين الشيخ علي ابن الشيخ حسين الصفي الواعظ: هو مؤلف «الرشحات» قدس سره، وكان عالماً عارفاً، ومرشداً كاملاً. وله في الوعظ كلام عليه آثار الإخلاص والتأثير الكثير، أصله من سبزوار، وتوطن هراة، ولما فرغ من التضلع بالعلوم والفضائل تشرف بخدمة الشيخ ولازم صحبته، وألف كتابه المسمى «رشحات ماء عين الحياة» توسلاً لترجمته، وكان لفظة «رشحات» تاريخاً لتمام التأليف، إذ هو بحساب الجمل تسع وتسعمائة، وكان من كبار العارفين بالله تعالى.

توفي ظاهر هراة، ونقل نعشه إليها، وذلك سنة تسع وثلاثين وتسعمائة.

ومن أقدمهم: مولانا حبيب النجار التاشكندي قدس سره، لزم صحبة الشيخ زمناً طويلاً، وحظي بسعادة قبوله.

ومن أعلاهم: مولانا السيد علي الكردي الشهيد قدس سره، كان من العلماء الأتقياء أصله من العمادية، وقدم لخدمة الشيخ ولازمه سنين عديدة، وكان يعلم أحد أنجاله العلوم.

ولما توفي الشيخ رحل إلى قزوين وأقام عدة سنين ينفع الطالبين، ويرشد السالكين، ولما بلغ خبره الأوزبك الأوباش سقوه كأس الشهادة، وذلك سنة خمس وعشرين وتسعمائة.

وللسيد أصحاب ستة ورثوا بركته، وأحيوا سنته ونعته.

الأول: الشيخ أبو سعيد ابن الشيخ بايزيد الخلخاني قدس سره، لقي السيد وفاز ببركة خدمته، وأذن له في الإرشاد، وتوفي في قزوين سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة.

الثاني: مولانا شاه علي القزويني قدس سره. تشرف بملازمة السيد، ونال إذنه بالهداية والتربية، وكان يقول في شأنه: لا نظير لشاه علي في هذا القطر، وتوفي في قزوين سنة تسع وأربعين وتسعمائة.

الثالث: مولانا الشيخ علي القاضي القزويني الحسيني قدس سره. تشرف بتربية السيد، وأدرك مقامات صحبته النافعة، وكان من أكابر علماء قزوين وكبرائها، توفي في قزوين قدس سره.

الرابع: مولانا الشيخ عبد الله القزويني قدس سره. وصل إلى خدمة السيد، وقام بواجب خدمته، حتى تشرف بأكمل المنازل، ثم استأذنه بالحج، وذهب من طريق بغداد، فأدركه الموت في بابان، فدفن ثَمَّ. قدس سره.

الخامس: مولانا الشيخ نفيس الحكيم الفردي قدس سره. كان يغلب عليه الاستغراق والفناء الأتم، توفي في قزوين، وقبره مشهور بها.

السادس: مولانا القاضي مرك القزويني الخالدي ـ نسبة إلى سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه ـ كان عالماً متبحراً رفيع الشأن، ولما استولى الأوزبك على قزوين قتلوا الخالديين وهو معهم. قدس سره.

ومن أكبر أصحاب سيدنا أحرار أربع رجال كبار، أولو مقام جليل، كلهم يسمى إسماعيل.

أولهم: مولانا الشيخ إسماعيل الفركتي نجل مولانا سيف الدين المناري ـ أحد أجلاء أصحاب سيدنا النقشبندي قدس سره، ومر خبره في أصحاب المنوه به ـ وصل إلى خدمة الشيخ في تاشكند، فبالغ بالالتفات إليه حرمة لوالده، وتعظيماً لشأن صحبته، ونال بهمته أعلى مراتب الرجال، وأخوه

سليمان الفركتي من أخص أصحاب الشيخ محمد پارسا، وقد تقدم.

ثانيهم: مولانا إسماعيل القمري قدس سره. كان عالماً متبحراً، وعاملاً متقياً، قدم من هراة إلى سمرقند، واغتنم خدمة الشيخ، ولكن كانت نسبة العلم غالبة عليه.

كان مع الشيخ مرة في قرية شادمان هو وأصحابه حضور عنده، وبيد الشيخ شرح تائية ابن الفارض للشيخ سعيد الفرغاني قدس سره بخط مولانا محمد پارسا، فقال لأصحابه: أريد أن أحداً يكتبه لي بخط النسخ، فأروني خطوطكم، فمن جملة من تقدّم للكتابة الشيخ إسماعيل المشار إليه، فكتب: «زر غباً تزدد حباً»[1] وأراه إياه، فلما قرأ الحديث قال: يا مولانا إسماعيل إنك كنت مالاًّ من دوام صحبتي حتى طلبت الغب، فقم إلى المدرسة واشتغل بالتدريس لتخلص من ذلك، ثم أمر مولانا لطف الله ومولانا سلطان أن يذهبا به إلى مدرسة المدينة، فلذلك حرم ملازمته.

ثالثهم: الشيخ إسماعيل الشمسي قدس سره: كان هو والقمري من أتراك تبريز» وقدما على الشيخ معاً، فلقب بالشمسي فرقاً بينه وبينه، صحب حضرة الشيخ مدة، ثم أرسله كرفيقه إلى المدرسة، فجلس للتدريس بها إلى آخر العمر.

رابعهم: مولانا الشيخ إسماعيل الشيرواني قدس سره. كان عالماً تقياً، ومرشداً ولياً، قدم من هراة لزيارة الشيخ خاصة، وقد بشر أصحابه بقدوم رجل مستعد فكان هو ذاك، وحيث كان القمري والشمسي في خدمة الشيخ وقتئذٍ لقب بإسمعيل الثالث، ولما حضر مجلس الشيخ كان عنده عنب، فأمره أن يأكل فأخذ خصلة واحدة ورجع إلى موضعه، فنظر إليه فغاب عن نفسه وعن العالم

(١) حديث «زر غباً»: أخرجه البزار في المسند «كشف الأستار» (١٩٢٢)، وأبو الشيخ في «الأمثال» برقم (١٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٢٢). وبالجملة فالحديث له طرق تخرجه من ديوان الموضوعات وإن كانت طرقه معلولة. انظر «المقاصد» للسخاوي رقم (٥٣٧).

وسقط العنب من يده، وبقي زمناً طويلاً كذلك، فلما أفاق شد مئزره للخدمة، ولزمه سفراً وحضراً، ولما توفي رحل إلى مكة المكرمة وجاور ثَمَّ، حتى لحق بالرفيق الأعلى، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة.

ومن أصدقهم: مولانا الشيخ عبدالله السربلي قدس سره.

ومن أرضاهم: مولانا نجم الدين قدس سره. كان من أخص خدامه، والمخلصين في القيام بمهامه.

ومن أعظمهم: العارف بالله تعالى مولانا الشيخ عبدالله الإلهي قدس سره، ولد في سماونه ـ ناحية من نواحي ولاية كرميان من بلاد الأناطول ـ وقدم على أعتاب الشيخ، فثابر على خدمته، حتى أحرز أشرف المقامات الإلهية، ثم عاد إلى بلاد الروم، وحل في قصبة يكيجه وارطال، فطار صيت إرشاده في الأقطار، وقصد بالرحلة من كل الجهات حتى توفي، وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة. وتربى عند الإلهي سادة من كُمَّلِ الرجال:

أشهرهم العارف بالله تعالى: مولانا السيد أمير أحمد البخاري قدس سره. كان من أكابر الأولياء، صحيح النسب، وهو من سلالة سيدنا الشيخ محمود الفغنوي قدس سره، قدم من بلاد العجم مع مولانا الإلهي إلى تاشكند، ثم تلقى النسبة من سيدنا أحرار، وكان يجله ويبجله، حتى دخل عليه مرة والشيخ في شغل فالتفت فرآه، فاعتذر إليه وقال: لم نقم بواجب تعظيمك، فإني كلما رأيتك أشاهد منك نورين، نور النسبة النبوية، ونور السلالة الفغنوية.

ولما أتم مرامه لحق بمولانا الإلهي بإشارة من الشيخ إلى بلاد الروم، ولازمه إلى أن توفي، فقام مقامه في تكميل الطالبين وهداية الراغبين.

ثم توجه إلى الحج، فلما قضى تفثه أتى القسطنطينية، فقضى بها نحبه، وذلك في جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة نوّر الله ضريحه.

ولمولانا السيد الأمير خلفاء كبراء عارفون بالله تعالى من أشهرهم ثمانية:

الأول: سيدنا الشيخ مصلح الدين الطويل قدس سره. أصله من كرة

النحاس في قسطمون، وكان من أكابر العلماء، وكبار الأولياء المكرمين، وهو من مريدي سيدنا الإلهي، ثم تكمل عنده، حتى أصبح أمة وحده.

والثاني: العارف بالله تعالى سيدنا الشيخ عابد چلبي القرماني قدس سره. كان هو أيضاً من مريدي شيخه، ثم أتم سلوكه لديه، حتى صار آية في الصالحين، وهو من سلالة كبير الأولياء، وولي الكبراء، حضرة مولانا جلال الدين الرومي رضي الله عنه.

والثالث: مولانا الشيخ بدر الدين بابا قدس سره. لازم خدمة الشيخ، حتى أصبح من العارفين، وبعد انتقاله استوطن مدينة أدرنه، فكان لها بدراً منيراً، مجاب الدعوة، بركة الأنام مرشداً إلى الله تعالى على الدوام، حتى توفي ودفن بها نوّر الله مرقده.

والرابع: سيدنا الشيخ محمود چلبي قدس سره. كان من مريدي أستاذه، ثم حظي عند مولانا السيد بإتمام المقامات ببركة خدمته، وزوجه بابنته، وأقامه مقامه من بعده، وصار ممن يشار إليه بالولاية والإرشاد في كل الجهات، توفي عام ثلاثة وثلاثين وتسعمائة.

والخامس: مولانا الشيخ لطف الله الأسكوبي. ولد وثوى في مدينة اسكوب من بلاد الروم، وكان متبحراً في علمي الظاهر والباطن، ثم بنى صومعة في قصبة كوهستان، وأقام بها حتى لقي الله تعالى، وقد هدى الله به أمماً كثيرة، وأسلم على يديه زمرة من رعاة الغنم الكفار لعظم ما كانوا يرونه من عبادته وهو في صومعته، جزاه الله خير جزائه وقدس سره.

والسادس: سيدنا الشيخ محمود بن عثمان بن علي اللامعي قدس سره. تشرف بخدمة الشيخ، وكان من ذوي الوجاهة والقبول عنده، وله اليد الطولى في كل فضيلة، لا سيما في النظم والنثر.

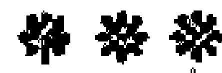
ومن آثاره المأثورة ترجمة «نفحات الأنس» من لسان الفرس إلى التركية، توفي في مدينة بروسه سنة ثمان أو تسع وثمانين وتسعمائة في محلة جكر.

والسابع: سيدنا الشيخ حكيم چلبي قدس سره: حظي بشرف صحبة الشيخ، وتوفي في القسطنطينية نوّر الله مرقده.

والثامن: مولانا الشيخ خضر بك چلبي نجل أحمد باشا قدس سره، كان من علماء الظاهر العظام في بروسه، وعليه وظائف عالية، فتركها وقدم القسطنطينية وصحب الشيخ، حتى صار من الأولياء الكرام قدس سرهم.

وأكثر هؤلاء الثمانية من رجال الشقائق النعمانية وترجمتهم ثَمَّ مستوفاة كاملة.

ومن أعظم أصحاب سيدنا أحرار شيخ هذه السلسلة، وأعلى من سرى إليه سرّ هذه النسبة المبجلة: سيدنا الشيخ محمد القاضي الزاهد قدس سره.



سيدنا الشيخ محمد الزاهد القاضي السمرقندي

قدس الله سره العزيز

خلاصة المتقين المتقنين، وفذلكة المرشدين الراشدين، وصفوة الأولياء الزاهدين، ألقت إليه الخلافة الربانية إقليدها، وأولته السلطنة الروحانية طريفها وتليدها، جمع بين العلوم الإلهية والشرعية، واستوعب فضائل الطريقة والحقيقة، فأصبح مصدر الواردات اللدنية[1]، ومظهر العلوم والمعارف الغيبية، فهو المفرد العلم في العلم والقلم، الذي قام بأعباء الأسرار والإمداد، وتدبير دولة إرشاد العباد فتبارك من شيد بالإلهامات الصادقة قدره، وسدّد بالكرامات الخارقة أمره، وأتم في أوج عرفانه بين أقرانه بدره، كان ـ قدس الله سرّه ـ من أولياء أصحابه، وعيبة[2] أسراره، وقبلة خطابه، ووارث علومه وأنواره، صنف كتاباً في ذكر فضائله، وخصائصه وشمائله، سماه «سلسلة العارفين وتذكرة الصديقين» يقول فيه ـ قدس الله سرّه ـ: إني انتظمت في سلك خَدَمَه سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة، ولم أزل حتى انتقل سنة خمس وتسعين، فكانت مدة تشرفي بخدمته اثنتا عشرة سنة. ولله الحمد على ذلك.

وكان سبب اتصالي بجنابه أني خرجت مع رجل من طلبة العلم اسمه الشيخ نعمة الله من سمرقند نقصد هراة لطلب العلم، فلما وصلنا إلى قرية شادمان أقمنا فيها أياماً من شدة الحر، فبينما نحن كذلك إذ حضر إليها سيدنا الشيخ رضي الله عنه وقت العصر فذهبنا لزيارته، فسألني: من أين أنت؟ فقلت: من سمرقند، فطفق يحدثنا أجمل الحديث، وذكر خلال كلامه جميع ما أكننته في

---

(١) قوله (اللدنية): مطالع الأنوار القلوب والأسرار. (ع).

(٢) قوله (عيبة): العَيبة: الصندوق الذي يضع به الإنسان ما غلا عنده. (ع).

سري فرداً فرداً، حتى أخبرني عن سبب سفري إلى هراة، فلما وجدت ذلك تعلق قلبي به كل التعلق.

ثم قال لي: إن كان مقصودك طلب العلم فهو متيسر هنا، فتيقنت أنه ما من خاطر إلا وقد اطلع عليه، هذا ولم يخرج من قلبي محبة السفر إلى هراة، فلما كوشف بذلك قال لي: لا تذهب إلى القرشي بل إلى بخارى، ثم انصرفت، وجئت صباحاً لأستأذنه، فقال لي أحد أتباعه: إنه مشغول بالكتابة فتربصت قليلاً، فلما فرغ قام من مقامه وأقبل نحوي، ثم قال: أخبرني بجلية أمرك، هل مرادك من هراة تحصيل الطريق أو العلم؟ فدهشت من جلالته وسكت، فقال له رفيقي: بل الغالب عليه الطريق، وإنما جعل طلب العلم تستراً، فتبسم وقال: إن كان كذلك فهو أفضل وأحسن، ثم أخذني إلى جهة بستان له، فلم نزل نسير حتى غبنا عن أعين الناس ثم وقف، ومنذ أخذ بيدي جاءتني غيبة امتدّت معي حتى استغرقت زمناً طويلاً، فلما أفقت رجع يحدثني رضي الله عنه، ثم قال: لعلك تقدر أن تقرأ خطي، وأخرج من جيبه ورقة فقرأها وطواها ودفعها إليّ، وقال: احفظها، وإذا فيها:

حقيقة العبادة خضوع وخشوع وانكسار يظهر على قلب ابن آدم من شهود عظمة الله تعالى، وهذه السعادة موقوفة على محبة الله تعالى، وهي موقوفة على اتباع سيد الأولين والآخرين عليه من الصلوات أكملها، ومن التحيات أتمها، وهو موقوف على معرفة طريقه، فلزم لذلك بالضرورة مصاحبة العلماء الوارثين لعلوم الدين، وتلقي العلوم النافعة منهم، حتى تظهر المعارف الإلهية المنوطة بمتابعته ﷺ، ومجانبة علماء السوء الذين اتخذوا الدين وسيلة لجمع الدنيا وسبباً للجاه، والمتصوفة الرقاصين وأهل السماع الذين يتناولون ما يجدون من حلال وحرام، وعدم الإصغاء للمسائل المخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة، من مشكلات علم الكلام والتصوف والسلام.

ثم رجع إلى مجلسه فقرأ الفاتحة، ورخص لي بالسفر إلى هراة، فتوجهت كما أمرني قاصداً إلى بخارى، فما سرت خطوات إلا واتبعني بكتاب إلى

حضرة الشيخ كلان نجل الإمام الجليل مولانا سعد الدين الكاشغري قدس الله سرهم، وإذا فيه:

عليك بملاحظة أحوال حامل هذا الكتاب ومحافظته من مخالطة الأغيار.

فلما رأيت منه ذلك أخذ بمجامع قلبي محبة وإخلاصاً، ولكن ما انثنى عزمي، بل أخذت الكتاب ومضيت، فوجدت في أثناء الطريق زحمة تامة، ودغدغة قوية، من جملتها أني كنت كلما سرت مرحلتين أو ثلاثاً ضعفت دابتي وعجزت، حتى أني بدلت ستة أفراس إلى بخارى، فلما وصلت إليها رمدت عيني رمداً شديداً، بقي مدة أيام، فلما شفيت تهيأت للسفر، فأصابتني حمى مزعجة جداً، فنظرت حينئذٍ في نفسي أني إذا سافرت ربما أهلك، فرجعت عن ذلك العزم وانقطع أملي من السفر، وعزمت على الرجوع إلى خدمة حضرة الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ حتى إذا وصلت إلى تاشكند أحببت أن أزور الشيخ الياس العشقي بها أولاً، فأودعت ثيابي وكتبي ودابتي عند أحد الأحباب وذهبت، فلقيني أحد خدامه، فقلت له: ارجع معي لنزور الشيخ، قال: وأين دابتك؟ قلت: قد أودعتها عند فلان، قال: اذهب فأت بها إلى داري ثم نمضي للزيارة، فبينما أنا راجع إذ سمعت قائلاً يقول لي: قد فقدت دابتك بما عليها، فتحيرت وتغيرت وجلست أتفكر في ذلك، فوقع في قلبي أنه يحتمل أن يكون ذلك لعدم رضاء حضرة الشيخ بهذه الزيارة، فإن السادات رضوان الله عليهم لهم غيرة عظيمة على أتباعهم، فكيف يكون الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ متوجهاً إليك هذا التوجه وأنت تقصد زيارة غيره، فلا بد أن تصاب بأكثر من ذلك فأعرضت عنها، وعقدت النية على زيارة سيدنا ومولانا قبل كل شيء، فما تم هذا الأمر إلا وجاءني شخص، فقال لي: وجدت الدابة وما عليها، فأتيت إلى من أودعتها عنده فقال لي: يا محمد إني كنت ربطت دابتك ههنا فبعد لحظة غابت عن نظري، فطفقت أفتش عليها فما وجدتها حتى يئست منها، ثم رجعت فوجدتها واقفة وسط السوق بين الناس، ولم ينقص مما عليها شيء مع ما في السوق من كثرة الازدحام، فعجبت لذلك كل العجب، ثم أخذتها وتوجهت إلى

سمرقند، فلما وصلت عند حضرة الشيخ رضي الله عنه تبسم، وقال: أهلاً وسهلاً ومرحباً، فلم أفارق عتبته بعد.

وقال قدس الله سره: كان رضي الله عنه إذا تكلم بالحقائق كثيراً ما يوجه خطابه إليّ، وسألني مرة فقال: هل أنت إذا سمعت مني الكلام على الحقائق تتغير عقيدتك التي تلقنتها من أبويك في صباك، وتلقيتها من أستاذك، ورسخت في قلبك، قلت: لا، قال: إذاً أنت أهل لسماعها.

وكتب فيه أيضاً: إن سيدنا ومولانا مرض مرة، فأمرني أن آتيه بطبيب من هراة، فجاءني مولانا قاسم قدس سره، وقال: يا مولانا محمد! أسرع في ذهابك وإيابك فإني لا أستطيع أن أرى سيدنا ومولانا مريضاً، وحرضني تحريضاً تاماً، فلما جئت بالطبيب وجدت الشيخ ـ قدس الله سرّه ـ قد شفي، ومولانا قاسم قد توفي، وكانت مدة غيابي عنه خمسة وثلاثين يوماً، فسألت الشيخ عن سبب وفاته، فقال: جاءني ذات يوم فقال: إني قد فديتك بنفسي، فقلت له: لا تفعل هكذا، فإن المتعلقين بك كثيرون وأنت رجل شاب، فقال: ما جئتك مستشيراً في هذا الأمر، بل قررته في نفسي وصممت عليه، وجئت وقد قبل الله مني ذلك، ولطالما راجعته في ذلك ونهيته عنه فما قبل، وما زال مصراً على جوابه الأول وانصرف.

قال: ففي اليوم الثاني انتقل مرض الشيخ بعينه إلى مولانا قاسم وتوفي به، وذلك يوم الاثنين لستٍّ خلت من شهر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وثمانمائة، وبرأ الشيخ برأ تاماً، فلم يحتج للطبيب الذي أتيت به.

ولما احتضر سيدنا ومولانا ـ رضي الله عنه ـ اجتمع عنده جميع أولاده وأحفاده وأصحابه الخاصة والعامة، فقال لهم: ليختار كل منكم إما الغنى وإما الفقر، فقال له الشيخ محمد قدس الله سره: اختياري اختيارك، فقال: أنا أختار الفقر. ثم التفت لخازنه، وقال له: أعطه أربعة آلاف شاهرخية ليستعين بها على مؤونة الفقراء الذين يجتمعون عنده ويتفرغ لخدمتهم.

وله أصحاب كالنجوم، في هداية الخصوص وبركة العموم، أعظمهم اثنان:

الأول: العارف بالله تعالى مولانا الخواجكي الكاسپاني قدس سره ـ نسبة إلى قرية كاسپان في جانب ولاية الأخصى ـ قدم بعد استيفاء حظه من كافة العلوم على أعتاب الشيخ، ونال ببركته أعلى منازل الأولياء الكاملين، ثم استوطن دهبيدة من أعمال بخارى يرشد السالكين، ويدعو إلى الله تعالى المؤمنين، حتى لقي ربه ثَمَّ وذلك سنة تسع وأربعين وتسعمائة.

ولمولانا الكاسپاني أربع أصحاب، وخلفاء أحباب، وهم:

العارف بالله الشيخ دوست الصحاف قدس سره: أصله من ولاية الأخصى خدم أعتاب الشيخ حتى صار من كبار المرشدين الكاملين، ثم رحل إلى بلخ، وتوفي بها عام أربعة وسبعين وتسعمائة قدس سره.

والعارف بالله تعالى الشيخ خرد قدس سره، اتصل بحضرة الشيخ الكاسپاني، وخدمه أصدق خدمة، حتى فاز بأتم المناقب العرفانية الجمة، وتوفي في بلخ عام خمسة وسبعين وتسعمائة نوّر الله ضريحه.

والعارف بالله تعالى مولانا لطف الله الأرجاكتي قدس سره، ولد في أرجاكت من ولاية الأخصى، وخدم رحاب مولانا الكاسپاني بصدق وإخلاص، فنال من مقامات العارفين أعلاها، ومن منازل الأولياء أسناها، ولم يزل يدعو الخلق إلى الله، حتى انتقل وذلك عام ست وتسعين وتسعمائة في أرجاكت نوّر الله مرقده.

والعارف بالله تعالى الشيخ محمد إسلام الجويباري البخاري قدس سره، ولد في جويبار ـ بلدة على نصف فرسخ من بخارى ـ ونشأ بها، ثم لما أدرك من الفضائل قصارى مرامه، قدم لأعتاب سيدنا القاضي محمد ولازم خدمته، ونال نظره وهمته، ولما توفي اتصل بخدمة مولانا الكاسپاني، فصار بأدنى مدة من أكابر أصحابه، وكان بركة زمانه، وسيد أقرانه، اشتهر بالولاية اشتهار الشمس،

وصار آية في الإرشاد، حتى انتقل إلى حظيرة القدس، وذلك في صفر سنة إحدى وسبعين وتسعمائة في بلدة سميتن من أعمال بخارى عن ثمان وثمانين سنة نوّر الله ضريحه.

ولمولانا الجويباري ثلاثة أصحاب وهم:

نجله العارف بالله تعالى الشيخ كلان قدس سره، تخرّج على يدي والده، وسلك عنده حتى بلغ مبلغ الكبراء من الأولياء، ولما توفي قام مقامه في إرشاد الخلق، إلى طريق الحق، نوّر الله روضته.

والإمام الرباني مجدّد الألف الثاني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي قدس سره، وهو أيضاً من أصحاب الخواجه محمد الباقي، وسيأتي في نظم السلسلة بعد الشيخ محمد الباقي ذكر ترجمته مفصلاً نفعنا الله به.

والعارف بالله تعالى الشيخ يونس الترك قدس سره، كان من أجلّ أصحاب مولانا الجويباري، وكان كبير الشأن رفيع القدر في الإرشاد والإمداد، والبركة للعباد نوّر الله مثواه.

الثاني: من خلفاء مولانا محمد القاضي قدس سره شيخ هذه السلسلة، وأعظم من سرى إليه سرّ هذه النسبة المبجلة: ابن أخته سيدنا الدرويش محمد قدس سره.

* * *

سيدنا الشيخ الدرويش محمد السمرقندي

قدس الله سره العزيز

غوث الأولياء الأعلام، وغيث علماء الإسلام، المُشْرِقُ في المغربِ والمشْرِقِ نور بركته، والمشرف على دولة الإرشاد وإرشاد دولته، تربى في حجر خاله، ونال مزيد فضله وافضاله، بما تضلع من العلوم الشرعية، وارتضع من ثدي التربية الربية، إلى أن ارتوى من الحقائق الإلهية والمعارف الغيبية، وصار بما أوحي إليه هو المعوّل عليه، واشتهر من بعده بالولاية العظمى، والعلم الأسمى، والقدر العلي، والفضل الجلي، حتى عرف في أيامه بالدرويش ولي، ولما حوى من الهدى ما حوى، ومال على محو الضلال كالسيل إذا انهال، والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبه وما غوى، بل جمع من الخواطر شتاتها، ووصل من العزائم بتاتها، وأحيا من النفوس أمواتها، وقدّر فيها من الخير أقواتها، حتى غدا بركة زمانه، وإنسان عين الإرشاد وعين إنسانه.

توفي في (. . . . . .) سنة (. . . . . .).

وله أصحاب كثيرون كلهم هادون مهديون.

وأعظم من سرى إليه سرّ هذه النسبة المطهرة: شيخ هذه السلسلة نجله المبجل سيدنا محمد الخواجكي الأمكنكي قدس الله سره.

***

سيدنا محمد الخواجكي الأمكنكي السمرقندي
قدس الله سره

خلاصة خاصة الأولياء، وارث علوم الأنبياء، فهو الإمام المتفق على جلالة منزلته، والمرجو بركة فضله وفضل بركته، ولد في (. . . . . . .) سنة (. . . . . .)، وتخرج على حضرة والده، وفاز بطارف مجده وتالده إلى علوم كالبحر الزاخر، ومعارف كم تركها الأول للآخر، ولم يزل في بدايته بعين هدايته ملحوظاً، وفي ظل سلطنة تربيته محظوظاً، حتى صار لمناقبه لوحاً محفوظاً، لا يدع فضيلة جليلة إلا أحصاها، ولا ضيعة وضيعة إلا أقصاها، ولا مقامات عالية إلا طواها، ولا أسراراً غالية إلا حواها، ولا أذواقاً غامضة إلا جلاها، فكان تلو والده كالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، جلس في دست الخلافة بعده، وبذل في إحياء القلوب جهده، ولبس خلعة القطبانية، فلا ذرّة في العالم إلاّ وهو يمدّها بالروحانية، فأشرق في همته بدر هذا الطريق، وصار فريق خيره خير فريق، وطار صيت إرشاده، ووفور إمداده، وبُعْد مداه، فهرع الناس إلى اقتباس هدى أنواره وأنوار هداه، حتى صار بابه محط رحال العارفين، وقبلة قلوب الصلحاء المتقين، ومستغاث الطالبين، عليه من هيبة الكرامات والكشف أكبر جلاله، ومن عظمة التجليات الذاتية ما يدل على سمو مقامه في الحضرة الإلهية أكمل دلاله.

والخواجكي اسمه الكريم: وهو نسبة إلى خواجه، وأبدلت هاؤه كافاً على عادة الفرس، قال في شرح سلسلة الذهب: وفي ذلك الاسم مدح عظيم.

والأمكنكي: نسبة إلى إمكنه ـ بكسر الهمزة، وسكون الميم، وفتح الكاف والنون، ثم هاء أبدلت كافاً كذلك ـ قرية من قرى بخارى.

وله خلفاء كاملون أولياء.

وأكمل من سرى إليه سرّ هذه النسبة العلية منهم شيخ هذه السلسلة: الشيخ محمد الباقي رضي الله عنه وعنهم.

سيدنا الشيخ مؤيد الدين محمد الباقي

قدس الله سره العزيز

العارف الفاني بالله والباقي بذاته، الراقي في أوج الشهود إلى أوجه مقاماته، كان سراً من أسرار الله وآية من آياته، جمع بين شرفي العلوم والمعارف، وجر على طرفي مجرة العلاء المطارف، آتاه الله من العلمين والتصرف في العالمين ما يدل على سموّ قدره عنده، وأنه يحشر يوم القيامة أمة وحده، وما أقصر لساني وأصغر بنان بياني في ترجمة من قال في شأنه سيدنا الإمام الرباني مجدّد الألف الثاني ما نصه: القائم مقام المشايخ العليه، والنائب مناب الأكابر النقشبندية، الواصل إلى نهاية النهاية، البالغ أقصى درجات الولاية، قطب مداد الخلائق، كاشف أسرار الحقائق، الفرد الكامل في المحبة الذاتيه، المحقق الجامع لكمالات الولاية المحمدية، مسند أهل الإرشاد والهداية، مرشد طريق درج النهاية في البداية، زبدة العارفين قدوة المحققين، شيخنا وملاذنا ومولانا الشيخ الأجل، والعارف الأكمل: محمد الباقي أبقاه الله تعالى[1]. اهـ.

ولد ـ قدس الله سرّه ـ في نواحي مدينة كابل ـ من بلاد العجم التابعة لسلطنة الهند ـ ونشأ بها، ثم قدم الهند لأمر من الأمور الدنيوية، فأدركته جذبة من جذبات الحق قوية، فأعرض عن الدنيا وأربابها، وجدّ في تلقي العلوم عن

---

(١) قوله (أبقاه الله تعالى): مثل هذا الثناء المقصود منه تربية المهابة والتعظيم لشعائر دين الله وحملة نوره «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب». والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يقولوا مثل هذا في حق رسول الله ﷺ مع امتلاء قلوبهم بتعظيمه وتوقيره، لأن المنافقين لم يكونوا يستهينون ويستخفون علانية بمقامه لشهودهم رسالته. أما هؤلاء الأولياء فالبشرية فيهم والمشابهة لأبناء جنسهم موجودة والمستخف بهم كثير. وفي الحديث: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب». (ع).

سادات العصر وفضلاء كل مصر، والأخذ عن العارفين، والاستفاضة من قلوب الأولياء وروحانية المرشدين، حتى صار في المعقول بحراً، وفي المنقول حبراً، وفي كل فضيلة فرداً.

ولم يأل في السياحة جهداً، إلى أن وصل إلى مدينة سمرقند، واتصل بحضرة الخواجكي - قدس الله سره -، فتلقى منه طريق حضرة النقشبند، فرقي في أقرب أوقاته إلى أعلى درجاته، وكانت تربيه روحانية غوث الأبرار سيدنا الشيخ عبيد الله الأحرار قدس الله سره، وشرّف في الملأ الأعلى قدره، ثم أجاز له تربية المريدين وإرشاد المسترشدين، وأمره بالعود إلى الهند، وبشره بتربية شمس سرهند، أعني الإمام الرباني، فرجع إليها وتوطن مدينة دهلى جهان أباد، فملأها بالإيمان والعرفان، والأسرار والأنوار، والإمداد والإرشاد، وما انتشرت في جميع الأقطار الهندية، عوارف معارف الطريقة النقشبندية إلا من أرج رياض فضله، إذ ما كانوا يعرفونها من قبله، فأقبلت إليه الأمم بما جذبهم به من علوّ الهمم، وقوة التصرفات الإلهية، والخصائص المحمدية، حتى صار كل من يقع بصره الشريف عليه، أو يحضر مجلس ذكره أو يجلس بين يديه يحصل له الغيبة والفناء من أول وهلة، وإن لم يحسب في الظاهر أهله، وربما انكشف له عن عالم الملك والملكوت بلا مهلة.

وتوفي يوم الأربعاء رابع عشرى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وألف في مدينة دهلى، وله أربعون سنة وأربعة أشهر، وقبره الشريف بها على غربيها عند أثر قدم النبي ﷺ يستغاث به.

وخلفاؤه أكثر من أن تذكر من أكملهم خلاصة الأولياء العارفين الشيخ تاج الدين العثماني الهندي معرب «الرشحات» و«النفحات» قدس سره، والعارف بالله تعالى المير حسام الدين قدس سره. وأعظم من تلقى سرّ هذه النسبة المطهرة منه: شيخ هذه السلسلة الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي رضي الله عنه.

الإمام الرباني مجدد الألف الثاني

سيدنا الشيخ أحمد الفاروقي السهرندي

قدس الله سره العزيز

درة إكليل الأولياء العارفين، وغرة جبين الأصفياء الغر المحجلين، كنز فضائل السلف والخلف، وجامع فرقان المحامد والمكارم والشرف، طور التجليات الذاتية، وسدرة منتهى العلوم الأحدية، ومنهل معارف الوراثة المحمدية، ومظهر إرشاد الحقائق الأحمدية، وفذلكة العلماء بالله عز وجل، والقائم بأمر الله بلا وجل، الذي تشرف العصر بوجوده، وتبسم ثغر الدهر عن جود سعوده، وسعود جوده، المرشد الكامل المكمل، والمنقذ المخوف المؤمل، بل أكمل المرشدين ومرشد الأكملين، داعي الخلق بالحق إلى الحق، القطب الأوحد، والعلم المفرد الإمام الرباني مجدّد الألف الثاني: سيدنا ومولانا الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ابن الشيخ عبد الأحد بن زين العابدين بن عبد الحي بن محمد بن حبيب الله بن الإمام رفيع الدين بن نور بن نصير الدين بن سليمان بن يوسف بن عبدالله بن إسحاق بن عبدالله بن شعيب ابن أحمد بن يوسف بن شهاب الدين المعروف بفرخ شاه الكابلي ابن نصير الدين بن محمود بن سليمان بن مسعود بن عبدالله الواعظ الأصغر ابن عبدالله الواعظ الأكبر ابن أبي الفتح بن إسحاق بن إبراهيم بن ناصر بن سيدنا عبدالله ابن أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ولد - قدس الله سرّه - يوم عاشوراء سنة إحدى وسبعين وتسعمائة في بلدة سهرند - بسين مهملة، فهاء، فراء مهملة، ونون، ودال مهملة - كذا أوردها حفيده الشيخ محمد مظهر في ترجمته.

وفي بعض نسخ السلسلة الشريفة سرهند - بتقديم الراء على الهاء - ولعلّ

الأولى هي الأولى لأن صاحب الدارادري[1]، وهي مدينة عظيمة من أعمال اللاهور في الهند.

عنوان شأنه وشأن عنوانه

تلقى العلوم كلها معقولها ومنقولها عن والده المشار إليه، وعن غيره من محققي زمانه، واشتغل بالطرق الثلاث القادرية، والسهروردية، والجشتية على والده قدّس الله سرهما، حتى أذن له بالإرشاد والاستخلاف في الطرق المنوّه بها وهو ابن سبعة عشر سنة، فما زال مشتغلاً بنشر العلوم والمعارف، وتربية السالكين، وهداية المريدين، وإرشاد الطالبين، وفي نفسه شغف عظيم وميل قوي لتحصيل نسبة الطريقة العلية النقشبندية، لعلمه بفضلها على سائر الطرق وعلوّ نسبتها على كل النسب، حتى اجتمع بغوث الزمان العارف بالله تعالى سيدنا الشيخ محمد الباقي قدس الله سره، وقد كان أرسله شيخه القطب الكبير والإمام الشهير: سيدنا محمد الخواجكي الأمكنكي ـ قدس الله سرّه ـ من بخارى إلى الهند، فأخذ عنه الطريقة النقشبندية، ولازمه ففاز بأعلى المرام، في مدة شهرين وبضعة أيام، حتى شهد له شيخه ـ قدس الله سرّه ـ بالمرادية والمحبوبية، والكمال والتكميل، وفوض إليه تربية مريديه، بل طلب منه الإمداد لنفسه، وقال في حقه: إنه القطب الأعظم.

فتصدر للإرشاد وهداية العباد، وعم نفعه كل حاضر وباد.

أتتــه الخــلافــة منقــادة ... إليــه تجــرر أذيــالهــا
فلــم تــك تصلــح إلا لــه ... ولــم يــك يصلــح إلا لهــا
فلــو رامهــا أحــد غيــره ... لــزلــزلــت الأرض زلــزالهــا

سعود وجوده ووجود سعوده

أخبر بوجوده رسول الله ﷺ فقال: «يكون في أمتي رجل يقال له صلة يدخل

---

(١) في الكلام نقص ظاهر.

بشفاعته كذا وكذا»[1] أخرجه السيوطي في جمع الجوامع.

ويدل لذلك ما كتبه ـ قدس الله سرّه ـ في أحد مكاتبته: الحمد لله الذي جعلني صلة بين البحرين، ومقتبساً لأنوار النيرين.

وذكر الشيخ المير حسام الدين أحد خلفاء إمام العارفين شيخه الشيخ محمد الباقي قدس الله سره: أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام على المنبر وهو يثني على الشيخ أحمد السهرندي، ويقول: إني أباهي وأفتخر بوجوده في أمتي، وإن الله تعالى جعله مجدداً في أمتي.

وقد بشر بظهوره كبار الأولياء أيضاً، كما ذكر ذلك في المناقب.

فمن ذلك ما نقله مولانا الشيخ بدر الدين السهرندي عن قدوة العلماء العارفين بالله تعالى الشيخ أحمد الجامي قدس سره أنه قال:

يجيء من بعدي سبعة عشر رجلاً من أهل الله يسمون أحمد، آخرهم يخرج على رأس الألف، هو أعلاهم.

وأجمع الجماء الغفير من أهل الكشف على أن المراد به صاحب الترجمة قدس الله سره.

ومنه ما قاله مولانا الخواجكي الامكنكي لخليفته الشيخ محمد الباقي قدس الله سرهما: انه يخرج رجل من الهند يكون إمام عصره يصير فتوحه على يديك، فأسرعْ إليه! فإن أهل الله منتظرون قدومه، فلما توجه من بخارى إلى الهند واجتمع به المجدد قدس الله سره وأخذ عنه قال له: أنت ذلك الرجل المبشر به.

وقال له أيضاً: لما وصلت إلى سهرند رأيت في الواقعة رجلاً قيل لي: إنه قطب زمانه، فلما رأيتك عرفتك بتلك الحلية والصورة.

وقال له أيضاً: لما دخلت سهرند وجدت هناك مشعلاً يوقد في غاية العظم

---

(١) حديث «يكون في أمتي»: أخرجه ابن سعد عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر بلاغاً. «كنز العمال» (١٢ / رقم ٣٤٥٧٩).

والعلو، حتى كأنه بلغ عنان السماء، وقد امتلأ العالم من نوره شرقاً وغرباً، والناس يستوقدون منه سراجاً سراجاً قال: وهذا هو شأنك.

ومنه: أن صفوة الأولياء العارفين شيخ أبيه الشيخ عبد الأحد في الطريق القادري الشاه كمال الكتيهلي - قدس الله سرّه - أودع عند حفيده العارف بالله تعالى شاه اسكندر جبة مباركة، موروثة كما قيل عن الغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله تعالى عنه، وقال:

احفظها حتى يظهر صاحبها. فلما ظهر المجدد أمره في الواقعة أن يوصلها إليه، وأخبره أنه أهلها فلم يوصلها، ثم خاطبه في سره فلم يفعل، فعاتبه في الثالثة، فأتى بها إليه وألبسه إياها، فنال بذلك من الأحوال العظيمة ما نال.

ومنه أن تاجراً جليلاً معروفاً بالصدق والأمانة وعليه سيما الصلاح ذكر أنه كان في بدايته عظيم الاعتقاد والمحبة للغوث الأكبر سيدنا الشيخ عبد القادر الكيلاني رضوان الله عليه، قال: وكان يظهر لي أحياناً ويبشرني بأمور نفيسة، ويغيثني في مهماتي، فقال لي يوماً في الواقعة:

إنك وإن نلت مني مدداً عظيماً لكن لا بد لك من شيخ في الظاهر، فقلت له: إلى من أرجع؟ قال: إلى الشيخ أحمد السهرندي، فإنه اليوم هو الجامع بين الظاهر والباطن وهو قطب زمانه، فلما اجتمعت به رأيت عجائب الكرامات، وغرائب الكمالات.

ودخل رجل من أكابر أولياء بلخ إلى سهرند، فلما رأى الشيخ قدس الله سره قال:

إني كنت في بلخ فحضرت جنازة قد اجتمع لها كافة أولياء ما وراء النهر من السلف والخلف، مثل العارف الكبير والقطب الشهير سيدنا الشيخ عبد الخالق الغجدواني، والغوث الأعظم سيدنا الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند رضي الله عنهما، ووقفوا ينتظرون قدوم الأقطاب، فبينما هم كذلك إذ جاء رجل جليل

المقدار باهر الأنوار، فقدّموه فأمّهم، فسألت عنه فقيل لي: إنه الشيخ أحمد السهرندي.

سلوك الملوك، وملوك السلوك

قال قدس الله سره: اعلم أن العناية الإلهية جذبتني جذب المرادين أولاً، ثم يسرت لي طيّ منازل السلوك ثانياً، فوجدت الله سبحانه أولاً عَيَّن الأشياء[١]، كما قاله أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية.

ثم وجدت الله في الأشياء[٢] من غير حلول ولا سريان.

ثم وجدته سبحانه معها بمعية ذاتية، ثم رأيته بعدها، ثم قبلها، ثم رأيته سبحانه، وما رأيت شيئاً، وهو المعنيُّ بالتوحيد الشهودي المعبر عنه بالفناء، وهو أول قدم توضع في الولاية، وأسبق كمال في البداية، وهذه الرؤية في أي مرتبة من المراتب المذكورة تحصل أولاً في الآفاق، ثم ثانياً في الأنفس[٣].

ثم ترقيت في البقاء، وهو ثاني قدم في الولاية، فرأيت الأشياء ثانياً، فوجدت الله تعالى عينها، بل عين نفسي، ثم وجدته تعالى في الأشياء، بل في نفسي، ثم مع الأشياء، بل مع نفسي، ثم قبل الأشياء، بل قبل نفسي، ثم بعد الأشياء، بل بعد نفسي، ثم رأيت الأشياء، وما رأيت الله تعالى أصلاً، وهي

---

(١) قوله (عين الأشياء): تُقرأ بتشديد الياء عَيَّن الأشياء خروجاً عن الإيهام والالتباس، والمراد عيَّن الأشياء في مراتبها الوجودية ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (ع).

(٢) قوله (في الأشياء): في الحكم العطائية: الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه فمن شهد الكون ولم يشهده فيه أو معه أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه المعارف بشهود الآثار.

وفيها: أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن فإذا شهدته كانت الأكوان معك. قال تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾. (ع).

(٣) قوله (الأنفس): قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾ (ع).

النهاية التي هي الرجوع إلى البداية، والعود إلى مرتبة العوام.

وهذا المقام هو أتم مقامات دعوة الخلق إلى الحق، وأكمل منازل التكميل والإرشاد لتمام المناسبة للخلق المقتضية لكمال الإفادة والاستفادة.

وقال قدس الله سره: لما صحبت القائم اليوم مقام المشايخ العلية، والنائب مناب الأكابر النقشبندية، الواصل إلى نهاية النهاية، البالغ أقصى درجات الولاية، قطب مدار الخلائق، كاشف أسرار الحقائق، الفرد الكامل في المحبة الذاتية، المحقق الجامع لكمالات الولاية المحمدية، مسند أهل الإرشاد والهداية، مرشد طريق درج النهاية في البداية، زبدة العارفين، قدوة المحققين، شيخنا وملاذنا ومولانا الشيخ الأجل، والعارف الأكمل: محمد الباقي ـ أبقاه الله تعالى ـ حصل لي ببركة توجهه الجذبة التي تشعبت بعد الاستهلاك في صفة القيومية، وتشرفت باندراج النهاية في البداية، ثم حصلت لي مراتب السلوك، ووصلت إلى النهاية التي هي عبارة عن الوصول إلى الاسم الرب بمدد أسد الله الغالب كرّم الله تعالى وجهه.

ثم ترقيت إلى القابلية التي هي عبارة عن الحقيقة المحمدية بمدد الشيخ بهاء الدين شاه نقشبند قدس الله سره العزيز، ثم إلى مقام اجمال تلك القابلية، وهو مقام الأقطاب المحمدية، بمدد الروح المقدسة النبوية، وفي أثناء ذلك حصل لي مدد يسير من الشيخ علاء الدين العطار قدس الله سره.

ولما وصلت إلى ذلك المقام أعطيت خلعة القطبية من الحضرة المحمدية، ثم جذبتني العناية الإلهية، فعرجت إلى مقام الأصل الممتزج بالظل، الذي فوق مقام الأقطاب المختص بالإفراد، ثم أدركتني العناية الصمدانية، فأوصلتني إلى مقام الأصل الخاص، وفي هذا العروج وصل إليّ من الغوث الأعظم: الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سره العزيز مدد عظيم، وتصرف قوي أوصلني إلى مقام أصل الأصل.

ثم نزلت إلى العالم المعبر عنه بالسير عن الله بالله، فمررت إذ ذاك على مقامات مشايخ السلاسل سوى النقشبندية والقادرية فاستقبلوني بالتعظيم

والإكرام، وألقوا عليّ من نفائس نسبهم، وخصائص مواجيدهم، وانكشفت لي حقائق كل منها، وتفاوت درجاتها، وكان حصول العلوم اللدنية لي من روحانية الخضر ـ على نبينا وعليه السلام ـ قبل وصولي إلى مقام الأقطاب المذكور سابقاً، وبعد الوصول إلى ذلك المقام يأخذ الواصل العلوم من حقيقة نفسه كل ذلك بوراثته ﷺ.

بروج عروجه وعروج بروجه

قال قدس الله سره: كثيراً ما كان يُعْرج[1] بي فوق العرش المجيد، ولقد عرج بي مرة، فلما ارتفعت فوقه بقدر ما بين مركز الأرض وبينه، رأيت مقام الإمام شاه نقشبند رضي الله عنه، ورأيت فوق ذلك قليلاً مقامات بعض المشايخ منهم:

الشيخ معروف الكرخي، والشيخ أبو سعيد الخراز رضي الله عنهما، والبعض في مقامه، وتحته الشيخ نجم الدين الكبرى، والشيخ علاء الدين العطار، وسائر المشايخ دونه، وفوق هذه الدرجات مقام أئمة أهل البيت، والخلفاء الراشدين، وكافة الأنبياء فوقهم على طرف من مقام نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومقامات الملائكة على الطرف الآخر، ومقامه ﷺ أرفع وأعلى، واعلم أني كلما أريد العروج يتيسر لي، وربما يقع من غير ما قصد.

إكراماته وكراماته

ولقد خصه الله تعالى بفضيلة نشر العلوم الدينية، والكشف عن أسرار العلوم اللدنية، وبيان مراتب الولاية والنبوّة والرسالة، وكمالات أولي العزم ودرجات الخلة والمحبة، وإظهار أسرار الذات والشؤون الإلهية بما لم يسبق

---

(١) قوله (يُعرج بي): هذا العروج رُوحاني يقع مناماً للعامة، ويقظة للخاصة، وللجميع عند الموت. قال تعالى: ﴿من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾. (ع).

إليه، إلى أذواق شريفة غالية، ومواهب لدنية عالية، لو لم يكن منها إلا رتبة تجديد الألف الثاني لكفى.

وقال قدس الله سره: روى أبو داود عنه ﷺ أنه قال: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدّد لهذه الأمة أمر دينها»[1] لكن بين من يجدد المائة، ومن يجدد الألف من الفرق، كما بين المائة والألف، بل أعظم من ذلك.

وقال قدس الله سره: بشرني رسول الله ﷺ بأنك من المجتهدين في علم الكلام، ويغفر الله بشفاعتك لألوف يوم القيامة، وكتب لي خط الإرشاد بيده الشريفة، وقال: لم أكتب لأحد قبلك مثله.

وقال قدس الله سره: العلوم والمعارف الصادرة عني هي خارجة عن طور الولاية، وإنما هي مقتبسة من مشكاة أنوار النبوة على مصدرها الصلاة والسلام، جددت بتجديد الألف الثاني بطريق التبعية والوراثة،تعجز أرباب الولاية كالعلماء عن إدراكها، لأنها وراء علوم العلماء ومعارف الأولياء، بل علوم هؤلاء بالنسبة إلى تلك العلوم قشر، وتلك العلوم لبابها، ولا تخالف الشريعة، بل هي أساس الدين وخلاصة علم الذات والصفات تعالت وتقدست، وما تكلم بها أحد من العظماء ولا الكبراء، استأثر الله سبحانه بها هذا العبد، فصاحب هذه العلوم والمعارف مجدد هذا الألف، والمجدد هو الذي لا يفيض الحق على جميع العالم مدة تجديده شيئاً إلا بواسطته.

وقال قدس الله سره: قد كشف لي التوحيد الوجودي، وألقيت إليّ علوم كثيرة ومعارف جمة، ورقائق وافية من هذا المقام، ولاحت لي معارف مظهر الصفة العلمية الشيخ الأكبر رضي الله عنه، وتشرفت بالتجلي الذاتي الذي بيّنه الشيخ، وجعله نهاية العروج، وخصه بخاتم الولاية مفصلاً موضحاً.

---

(١) حديث «إن الله يبعث»: أخرجه الحاكم (٤/ ٥٢٢)، وأبو داود (٤/ ١٠٩)، وصححه الحافظان العراقي وابن حجر.

وقال قدس الله سره: كشفت لي خفايا المتشابهات القرآنية، وأسرار المقطعات الفرقانية، فوجدت تحت كل حرف منها بحراً من العلوم الدالة على الذات العلية، لو أظهرت شيئاً منها لقطع مني الحلقوم.

وقال قدس الله سره: أطلعني الله على أسماء من يدخلون في سلسلتنا من الرجال والنساء إلى يوم القيامة، وإن نسبتي هذه تبقى بواسطة أولادي إلى يوم القيامة، حتى إن الإمام المهدي سيكون على هذه النسبة الشريفة.

وقال قدس الله سره: كنت مرة في حلقة الذكر مع أصحابي، فخطر لي أني في قصور ونقص، فألقي إليّ في الحال: إني قد غفرت لك، ولمن توسل بك إليّ بواسطة أو بغير واسطة إلى يوم القيامة.

قال قدس الله سره: كان تكويني من بقية طينة[١] حبيبه ﷺ.

وقال قدس الله سره: أريت الكعبة المطهرة تطوف بي تشريفاً منه تعالى وتكريماً لي[٢].

وقال: بشرني الحق تعالى بأن من صليت على جنازته غفر له، وأنه من وضع في قبره تراب من قبري لا يعذب[٣].

---

(١) قوله (من بقية طينة): لا تنس أنه من سلالة الفاروق عمر، وهو رضي الله عنه يلتقي نسبه بالنبي ﷺ في جده السابع أو الثامن. (ع).

(٢) قوله (تكريماً لي): أحجار الكعبة كبقية العوالم الملكية والملكوتية قال تعالى: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ فملكوتها اللطيف يسري ويطوف بمن ماثل وجانس هذا الملكوت ويحدثه ويأخذ عنه.
ولقد ورد: «أن الحجر الأسود يأتي يوم القيامة وله لسان وشفتان يشهد لكل من قبّله». (ع).

(٣) قوله (لا يعذب): التبرك بالآثار جائز مجمع عليه في الحياة وبعد الممات، وانتفاع الميت المسلم بجواره الصالحين وما يُهدى إليه مجمع عليه، ويكون سبب تخفيف للعذاب عنه. «هم القوم لا يشقي بهم جليسهم» والدعاء للميت شفاعة له يقبله الله سبحانه من عباده المخلِصين المخلَصين. (ع).

وقال: أطلعني الله على قبور الأنبياء المبعوثين إلى أرض الهند، بحيث أرى أنواراً ساطعة من قبورهم.

وقال: ألقي إليّ أن هذه الخصائص والكمالات التي أوتيتها لا ينالها أحد غيرك إلى زمن المهدي عليه السلام[(١)].

وقال: إن الله تعالى أعطاني قوة عظيمة في أمر الهداية، بحيث لو توجهت إلى خشبة يابسة لاخضرّت[(٢)].

وكتب إليه بعض المشايخ: إنّ المقامات التي تدعيها هل نالتها الصحابة أو لا؟ وعلى الأول هل نالوها دفعة واحدة أو تدريجاً؟ فأرسل إليه أن الجواب موقوف على حضورك، فحضر فتوجه إليه بجمعية المقامات فترامى في الحال على قدميه، وقال: آمنت أن جميع المقامات كانت تحصل للصحابة رضوان الله عليهم، بمجرد نظره[(٣)] ﷺ.

ودعاه للإفطار في شهر رمضان عشرة من مريديه فأجابهم، فلما كان وقت

---

(١) قوله (المهدي): لأن اسمه تعالى البديع يقتضي أن يكون إبداعاً على غير مثال سابق، فالله سبحانه يتجلى على كل دائرة إمكانية تجلياً لا يماثل تجلياته لا من قبلُ ولا من بعدُ، ويطلع عليها الأولياء الجامعين للمراتب، ومنهم من يؤذن له بالتخلق والتحقق بها ليطوي مرتبة من تقدمه، ومنهم من لا يؤذن له وإن أطلعه الحق عليها. ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾. (ع).

(٢) قوله (لاخضرت): إمداد الله لا يُحدّ، وهو قادر أن يجمع ما في العوالم كلها من الإمدادات في فرد من أفرادها، وقد ثبت من قصة السيدة مريم قوله تعالى: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أنها كانت نخلة يابسة فأحياها الله كرامة لها. (ع).

(٣) قوله (بمجرد نظره): قال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ فما رآه ببصره من الآيات يسري بنظره الشريف إلى أهل البصائر النورانية فيرونه، لكن المنافقين محرومون من هذه الرؤية لأنّ على قلوبهم راناً وعلى أبصارهم غشاوة. قال تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾. (ع).

الغروب حضر عند كل واحد من العشرة في آن واحد وأفطر عندهم[1].

ونظر مرة إلى السماء وهي تمطر، فقال لها: أقلعي إلى وقت كذا، فحبس المطر إلى ذلك الوقت[2].

وأمر السلطان يوماً بقتل رجل، فالتجأ إلى حضرته، وطلب منه أن يكتب له براءة من القتل، فكتب له ذلك، فلما بلغ السلطان لم يقدر أن يتعرض له هيبة منه قدسّ الله سره.

وقصد زيارته رجل من بلاد شاسعة، فأتى سهرند ليلاً وبات عند أحد المنكرين على الشيخ ـ قدس الله سره، وهو لا يشعر ـ فسأله عن سبب شخوصه إلى سهرند، فقال له: جئت لزيارة الشيخ، فجعل يطعن فيه، فلما رأى الرجل ذلك خاف وصار يستغيث به قدس سره، ويقول في سره: يا سيدي! إني جئت لطلب الحق، وهذا يصدني عنه، ثم نام، فلما كان وقت الفجر إذا بصاحب البيت قد مات ليلاً[3]، فأسرع الرجل إلى الشيخ وأراد أن يعرض عليه الخبر، فنظر إليه وتبسم، وقال: ما مضى في الليل لا يذكر في النهار.

---

(١) قوله (أفطر عندهم): هذا التشكل الروحاني وعالم المثال يقع لكلٍ منا في برزخ النوم فيرى الواحدَ منا عشراتُ الأشخاص في ليلة واحدة، وكل رؤيا مغايرة لبقية المرائي، فما هو لنا في النوم هو لأولياء الله في اليقظة. وللإمام السيوطي رسالة سماها: «المنجلي في تطور الولي» فلتراجع. (ع).

(٢) قوله (ذلك الوقت): ما دام من المحبوبين الذين توافق مشيئتهم المشيئة الإلهية المطلقة وبإذنه ينطلقون، فهم عنده كبعض ملائكته الذين وصفهم بقوله سبحانه: ﴿فالمدبرات أمراً﴾. وفي الحديث القدسي: «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده». فليس عجيباً أن يعطي الله بعض أوليائه ما أعطى لملائكته، فالقدرة مطلقة والمحل قابل.

وقد ثبت أن الله يعطي مثل هذا للدجال الأكبر: (يقول للسماء أمطري فتمطر). فإذا أعطى الله عدوه ألا يعطي وليه. ورسول الله ﷺ لما قال: «حوالينا ولا علينا» جعل يشير بأصبعه إلى السماء فتفرق الغيم وخرجوا يمشون في الشمس. (ع).

(٣) قوله (قد مات): معادي الأولياء محارَبٌ من الله ربِّ السماء والأرض، وإذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أهل الله. (ع).

وأتاه مجذوم يطلب منه الدعاء، فدعا له، فشفي في الحال.

وقال نجله الأكبر خازن الرحمة سيدنا الشيخ محمد سعيد قدس الله سره:

كثيراً ما كان يخبرني الشيخ نفعنا الله به بالأمر خيراً كان أو شراً قبل وقوعه، فيقع كما يقول بلا تفاوت أصلاً(١).

وقال الشيخ رضي الله عنه: جاءتني روحانية أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ، فقالت: إني بعثت إليك لأعلمك علم السموات(٢).

واجتمعت بروحانيات الإمام الأعظم أبي حنيفة وأساتذته وتلامذته، والإمام الشافعي وأساتذته فأمدّوني بإمدادهم، وأفاضوا عليّ من بركاتهم، حتى استغرقت في أنوارهم(٣).

وربتني روحانية حضرات السادات النقشبندية والقادرية والجشتية والسهروردية، فتحليت بنسبتهم الخاصة، حتى صرت لو أردت أن أربي السالكين بنسبة كل واحد منهم لفعلت.

---

(١) قوله (أصلاً): هذا من الغيب الجزئي غاب عن عالَم وظهر لآخر فهو مسطور في اللوح المحفوظ معلوم للملائكة قال تعالى: ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ وقال: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾.

والوارث له إمداد من حضرة مورِّثه وهو مرآته، فهي للوارث كرامة تمر، وللموروث معجزة تستمر. (ع).

(٢) قوله (علم السموات): الالتقاء بالأرواح المتشكلة من الملائكة والجن والإنس أمر ممكن وواقع، وللسيوطي رسالة سماها: «تنوير الحلك في رؤية النبي والملك». وعلم السموات الغيبي ندبنا الله سبحانه لمشاهدته: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ وفي الحديث: ﴿فوضع يده بين كتفي فأفاض على قلبي فعلمت ما في السماء وما في الأرض». (ع).

(٣) قوله (في أنوارهم): قال تعالى: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ وقال: ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ فمن لم يقتبس من أنوارهم في الدنيا لا يكون معه نورهم فيقول يوم القيامة: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا﴾. فالمحروم منهم هنا محروم هناك، والمحروم من حُرم أهل زمانه. (ع).

محنة المنحة ومنحة المحنة

لقد جرت عليه قدس الله سره سنة الله في عباده المخلصين من ابتلائهم بإيذاء الظلمة، وإنكار أهل الظاهر عليهم، ليرفع عنده من جليل شأنهم، ويعظّم لهم أجراً، وذلك لما رأوا من عظمة ظهوره، واشتهار فضله في الدنيا، وعموم نفعه، وامتداد سلسلته المطهّرة من الهند إلى ما وراء النهر والروم والشام والمغرب.

ثم إنه قدس الله سره كانت ترد له الكتب من أتباعه في كل جانب مشحونة بالمسائل العلمية، المتعلقة بالطريق العلية وحقائق الصوفية، فيجيب ـ قدس الله سرّه ـ عنها بما أفاض الحق تعالى عليه من توضيح لما قاله أهل الله عز وجل تارة، ومناقشةٍ تارة أخرى، وتسليم له لموافقته لكشفه، وإظهار اختيار مرة أخرى، حتى أنه خالف الشيخ الأكبر رضي الله عنه في وحدة الوجود[1]. وأبا يزيد رضي الله عنه في قوله: لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ به[2].

---

(١) قوله (وحدة الوجود): إن أريد بوحدة الوجود الاتحاد بين الوجود الواجب والوجود الجائز بحيث يصيران شيئاً واحداً وعيناً واحدة فهذا مردود وهو ليس مراداً للشيخ الأكبر.

وإن أريد بوحدة الوجود اتحاد أصل الوجود الإمكاني من حيث مصدره النوراني في التعين الأول ثم تنوعت مظاهره وتعددت حسب تعلقات الأسماء بها فهذا نجري فيه الموافقة والمخالفة حَسَب المشاهد وتجليات الأسماء والصفات.

وإن أريد بوحدة الوجود وحدانية الله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله، والوجود هنا هو الواجب فهذا موضع اتفاق بين جميع العلماء والعقلاء. (ع).

(٢) قوله (ما أحسَّ به): لأن العرش مخلوق نوراني محدود وله قيود، وهمة العارف تعلقت بما وراء العرش، وقلبه مهبط الأسرار والأنوار من حضرات الأسماء والصفات التي يتلاشى معها من مشهد العارف الكون كله بكثائفه ولطائفه «كان الله ولا شيء معه». فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل.

ولعلّ مخالفة الشيخ في هذا لأنه من القائلين بأن العرش تهبط إليه الأنوار ثم إلى =

وأظهر حقيقة الكعبة[1] والقرآن، والصلاة، وفصّل مقامات العارفين وأذواقهم.

وذكر أن الحق تعالى جمع له بين القطبية[2] والفردية والمحدثية، والولاية الخاصة الناشئة من المحبية والمحبوبية[3]، وخصه بدوام التجلي الذاتي[4].

وأشبع الكلام على كل مسألة بما لا يسع الموفق إلا الوقوف عليه، والتسليم له مما لم يسبق إليه، وربما تكلم على آية كريمة أو حديث شريف من طريق الإرشاد، فاجتمع من ذلك ثلاثة مجلدات ضخمة تكتب بماء العيون.

فانتقد بعض علماء عصره على كلام وقع منه فيها يشعر بأن مقامه أعلى من مقام الصديق الأكبر[5] رضوان الله عليه، ورفعوا الأمر إلى السلطان نور الدين جهانكير.

= قلب العارف المقابل للعرش والمرآة له، وهذا أقرب إلى مذهب القائلين بأن عطاء الله موقوف على الأسباب المحسوسة والمعنوية بما في ذلك العطاء الوهبي الغيبي، ومنهم من أطلق ولم يقيد كأبي يزيد. (ع).

(١) قوله: (وأظهر حقيقة الكعبة): من حيث عالمها الملكوتي التي هي لطيفة من اللطائف المودعة في الكثائف.
وقوله: (والقرآن): من حيث أنَّ مدلوله صفة الكلام النفسي القديم الذي هو مطلق عن القيود.
وقوله (والصلاة): من حيث أنها معراج المؤمن وأنها حضرة القرب ومحل التجليات. (ع).

(٢) قوله (القطبية): وهو المقام الجامع لمن دونه في وصف واحد كالتواضع مثلاً.
وقوله (والفردية): وهو الغوثية العظمى المقام الجامع لمن دونه في جميع الأوصاف والأخلاق.
وقوله (المحدثية): وهو المقام الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إن فيكم محدَّثين وملهمين وإنَّ منهم عمر». (ع).

(٣) قوله: (المحبية والمحبوبية): المشار إليه بقوله تعالى ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وبقوله «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ورجلاً ولساناً». (ع).

(٤) قوله (بدوام التجلي الذاتي): الناشيء من إمداد الاسم الذاتي (الله) الجامع لحضرات الأسماء والصفات. (ع).

(٥) قوله:(بأنَّ مقامه أعلى من مقام الصديق الأكبر):يحتمل أنَّ مقامه في قلوب المعتقدين له أعلى من مقام أبي بكر الصديق عندهم، وذلك لأن الإمداد على يديه لأتباعه في عالم الشهود، بينما إمداد أبي بكر لهم وهم لم يجتمعوا به في عالم الشهادة يبقى إمداداً غيبياً لا يشعر به إلا الخلفاء المتمكنون لا السالكون المبتدئون. (ع).

فلما حضر عنده قال له: أحق ما يقولون؟ قال: نعم، إلا أن ذلك بطريق التبعية لا الأصالة، فهو من قبيل ما إذا طلبتم أدنى الخدم لتسيرون إليه حديثاً، فلا يصل هذا الخادم إلى مقامكم إلا بعد طي منازل الأمراء، ثم يعود إلى محله الأول، فلا يلزم أن يكون مقامه فوق مقام الأمراء، فارتضى السلطان منه بذلك الجواب.

فلما أبصر المنكرون أنه قد أخفق سعيهم فيه، قال بعضهم للسلطان: ألم تر تكبر هذا الشيخ، فإنه ما سجد لكم وقت دخوله، بل ولا تواضع التواضع المتعارف، مع أنكم ظل الله في أرضه، وخليفته في خليقته فاستفزه الغضب، وأمر بسجنه في حصن كواليار ـ بكاف مضمومة، فواو، فألف، فلام ساكنة، فتحتية، فألف، فراء مهملة ـ من أمنع حصون الهند وأشهرها.

وكان السلطان شاه جهان ابن السلطان جهانكير مخلصاً للشيخ ـ قدس الله سره ـ جداً، فقبل أن يحضر عند والده أرسل إليه أفضل خان، والشيخ عبد الرحمن المفتي مع كتب من الفقه يقول له: جوّز العلماء سجدة التحية عند السلطان، فأنتم إن سجدتم له عند لقائه فأنا أضمن أنه لا يصل إليكم منه ضرر، فلم يقبل منه، بل قال: هذه رخصة، والعزيمة أن لا يسجد لغير الله تعالى، ولبث في السجن ثلاث سنين، ثم أخرجه بشرط أن يقيم في معسكره ويدور معه، فأقام كذلك ثلاث سنين أيضاً، ثم أطلقه، فعاد إلى سهرند والعود أحمد.

وذكر نجله الأكبر قدس سره: أن سبب إطلاقه أنه كان مع ما عليه الحصن من الحصانة والحرس الشديد المحدق به من كل الجوانب يخرج رضي الله عنه لصلاة الجمعة فيصلي ثم يرجع، ولا يعلمون من أين يخرج، فلما رأوا منه ذلك أخرجوه من السجن، ثم أطلقوه مطلقاً، وإذا لم يمكن مدة حبسه أن يرشد الناس بنفسه، جعل يرشدهم بكتبه نفعنا الله تعالى به.

نفحة من طيب عطره ورشحة من صيِّب قطره

قال قدس الله سره: اعلم يا أخي أن الذي لا بد منه، وكلفنا الله به امتثال

الأوامر، واجتناب النواهي، لقوله تعالى: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧].

وإذا كنا مأمورين بالإخلاص في ذلك، وهو لا يتصور بدون الفناء وبغير المحبة الذاتية، وجب علينا أيضاً سلوك طريق الصوفية الموصلة للفناء والمحبة الذاتية، حتى نتحقق حقيقة الإخلاص، ولما كانت طرق الصوفية متفاوتة بالكمال والتكميل كان كل طريق تلتزم فيه متابعة السنة السنية، وأداء الأحكام أولى وأنسب بالاختيار، وذلك الطريق هو طريق السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية، فإن هؤلاء الأكابر التزموا في هذه الطريقة متابعة السنة، واجتناب البدعة لا يجوّزون العمل بالرخصة، ولو وجدوا ظاهراً أن له نفعاً في الباطن، ولا يتركون الأخذ بالعزيمة، ولو علموا صورة أنه مضر بالسيرة[1]، ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعة للأحكام الشرعية، والأذواق والمعارف خادمة للعلوم الدينية، ولا يستبدلون الجواهر النفيسة الشرعية مثل الأطفال بجوز الوجد وزبيب الحال، هذا حالهم على الدوام ووقتهم، محيت نقوش السوى من بواطنهم، بحيث لو تكلفوا ألف سنة أن يتذكروها لا يتيسر لهم ذلك التجلي الذاتي، الذي هو لغيرهم كالبرق دائم لهم، والحضور الذي يعقبه غيبة لا اعتبار له عند هؤلاء الأعزة، ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور: ٣٧] حالهم، ومع ذلك فطريقهم أقرب الطرق قطعاً وموصلة البتة، نهاية غيرهم مندرجة في بداية هؤلاء الأكابر، ونسبتهم المنسوبة إلى الصديق الأكبر رضي الله عنه فوق نسب جميع المشايخ، لا يصل إلى ذوق هذه السادة فهم كل أحد:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وأي مناسبة بين أخص الخواص، وبين كل زراق ورقاص، ولو ملئت

(١) قوله (مضرّ بالسيرة) أي بالمكانة والمنزلة في قلوب الخلق لأنهم لا يلاحظون الخلق عند العمل أو الترك. (ع).

الدفاتر في بيان خصائص أولئك الصفوة وكمالاتها لكان كقطرة من بحر لا نهاية له.

وقال قدس الله سره: السير والسلوك عبارة عن الحركة في العلم، وهو من مقولة الكيف[1]، فلا مجال للحركة في الجسم هنا.

فالسير إلى الله تعالى وهو السير الأول: عبارة عن الحركة العلمية التي هي السير من علم الأسفل إلى علم الأعلى[2]، ومن ذلك الأعلى إلى أن ينتهي بعد طي علوم الممكنات كلها وزوالها باسرها إلى علم الواجب تعالى، وهذا هو المعبر عنه بالفناء.

والسير في الله تعالى وهو السير الثاني: عبارة عن الحركة العلمية في مراتب الوجوب من الأسماء والصفات، والشؤون والاعتبارات، والتقديسات والتنزيهات، إلى أن ينتهي إلى المرتبة التي لا يمكن التعبير عنها بعبارة، ولا يشار إليها بإشارة، ولا تكنى بكناية ولا يعلمها عالم، ولا يدركها مدرك، وهذا السير يسمى بالبقاء.

والسير عن الله تعالى وهو السير الثالث: عبارة عن الحركة العلمية التي هي التنزل من علم الأعلى إلى علم الأسفل، وهكذا إلى أن يرجع إلى الممكنات، وينزل عن علوم المراتب الوجوبية كلها، وهو العارف الذي نسي[3] الله بالله، ورجع عن الله مع الله، وهو الواجد الفاقد، الواصل المهجور، القريب البعيد[4].

---

(١) قوله (من مقولة الكيف):بمعنى أنه من مقامات القلب التي يتذوقها ولا يستطيع أن يكيفها بمثل محسوس أو معقول على وجه المطابقة بل على وجه التقريب. (ع).

(٢) قوله (من علم الأسفل) أي من علم المحسوس إلى الأعلى وهو المعقول، أو من عالم الخلق إلى عالم الأمر، أو من الكثائف إلى اللطائف، أو من عالم الشهادة إلى عالم الملكوت. (ع).

(٣) قوله (الذي نسيء) بالهمز وعدمه بمعنى ترك الاشتغال بعلم الألوهية، وأخره إلى عالم البرزخ من أجل القيام بما يتناسب مع برزخ الدنيا، وهو علم الأمر والنهي الذي جاء به الأنبياء والرسل وهذا معنى قوله (بالله) أي بشريعة الله. (ع).

(٤) قوله (الواجد الفاقد) أي الواجد لربّه عند قيامه بالأسباب الشرعية ـ وسائل القرب منه ـ، الفاقد لحقيقة إدراك كنه ذاته. =

والسير في الأشياء وهو السير الرابع: عبارة عن حصول علوم الأشياء تدريجياً بعد زوالها في السير الأول.

فالسير الرابع مقابل للأول، والثالث للثاني كما رأيت، فالسير إلى الله والسير في الله لتحصيل الولاية التي هي عبارة عن الفناء والبقاء، والثالث والرابع لتحصيل مقام الدعوة المختصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكل التابعين نصيب منه أيضاً، كما قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال قدس الله سره: اعلم أن مشايخ الطريقة النقشبندية ـ قدس الله أسرارهم ـ اختاروا السير في الابتداء من عالم الأمر، ويقطعون في ضمنه عالم الخلق، بخلاف مشايخ سائر الطرق، فإن ابتداء سيرهم من عالم الخلق، ثم بعد طي عالم الخلق يضعون القدم في عالم الأمر، ويصلون إلى الجذبة[1]، فلهذا صارت الطريقة النقشبندية أقرب الطرق، فلا جرم نهاية الغير مندرجة في بدايتهم.

وقال قدس الله سره: إنما اختار أكابر هذه الطريقة السير من عالم الأمر ابتداء، ورأوا أن ذلك أنسب وأولى، لأن الترقي إنما يكون من الأدنى إلى الأعلى لا العكس، وعالم الأمر أدنى وعالم الخلق أعلى، ماذا أفعل؟! هكذا مراد الواحد الصمد ما كشفوا سرّ هذا المعمى لأحد، نظروا في سائر الطرق إلى الصورة فرأوا عالم الخلق أدنى، فشرعوا في الارتقاء من الأدنى الصوري إلى

= (الواصل المهجور) الواصل بالشريعة وأحكامها وآدابها، والمهجور في مقام الحقيقة لتفرد الحق بالأحدية، فهو مثبت عند الأمر والنهي منفي عند الإرادة.

(القريب البعيد) القريب في حالة التخلق بالأسماء التي أذن له التخلق بها، البعيد عن مشاركة الله في صفة من أوصافه. (ع).

(١) قوله (الجذبة) أي القلبية لا العقلية الشرعية، وأنت تلاحظ أن بداية طريقهم الجذب، ونهايته السلوك، بينما بداية غيرهم السلوك ونهايته الجذب وهو الأسلم لأنه باقٍ في سلوكه أثناء جذبه بينما الأول لا سلوك له أثناء الجذب فربما يقع في خلل يستمر فيه إلى الممات. (ع).

الأعلى الصوري، وما عرفوا أن حقيقة الأمر بخلاف ذلك، فإن الأدنى في الحقيقة أعلى والأعلى أدنى، فإن النقطة الأخيرة التي هي عالم الخلق أقرب إلى النقطة الأولى التي هي أصل الأصول، وما تيسر هذا القرب لنقطة أخرى غيرها[1].

وقال قدس الله سره: الولاية عبارة عن الفناء والبقاء، وهي إما عامة، وإما خاصة.

ونعني بالعامة: مطلق الولاية، وبالخاصة: الولاية المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية. والفناء فيها[2] أتم، والبقاء بها أكمل.

ومن شرف بهذه النعمة العظمى فقد لان جلده للطاعة، وانشرح صدره للإسلام، واطمأنت نفسه عن مولاها، ورضي مولاها عنها، وسلم قلبه لمقلبه، وتخلصت إلى مكاشفة حضرة صفة اللاهوت، وشاهدها سره مع ملاحظة الشؤون والاعتبارات.

وفي هذا المقام يتشرف بالتجليات الذاتية البرقية، ويتحير[3] خفيه بكمال التنزه والتقدس والكبرياء، ويتصل أخفاه اتصالاً بلا كيف، ولا ضرب من المثال.

وقال قدّس الله سره: المانع من سرعة تأثر بعض سالكي هذه الطريقة العلية، ووجدانهم اللذة والحلاوة التي هي مقدمة الجذبة، مع أن ابتداء سيرهم

---

(١) قوله:(غيرها) هذا التعليل فيه نظر لأنَّ العقلاء أجمعوا أنَّ المحسوس وهو عالم الخلق أدنى من المعقول وهو عالم الأمر، لأن الأول مشترك بين الخاص والعام بينما الثاني للخاص فقط (ع).

(٢) قوله:(الفناء فيها) وهو شهود الإرادة الكونية مع عدم القيام بالإرادة الشرعية.
وقوله: (والبقاء بها) وهو شهود الإرادة الشرعية والكونية معنى، فيقابل الأسماء بالأسماء، وأقدار الحق بأقدار الحق للحق. (ع).

(٣) قوله:(ويتحير) تحير دهشة بين الجلال والجمال لا تحير التباس وخفاء. والتجليات الذاتية التي تلوح له مقيَّدة في برزخ الدنيا بالأسماء والصفات لأنه لا يطيق رؤية تجلٍ ذاتيٍ أحدٌ إلا الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام. (ع).

من عالم الأمر هو: أن عالم الأمر فيهم ضعيف بالنسبة إلى عالم الخلق الذي فيهم، ولا يزال هذا الضعف فيهم حتى يقوى عالم الأمر فيهم على عالم الخلق، والذي يناسب لعلاج هذا الضعف في هذه الطريقة العلية التصرف التام من المرشد الكامل، وفي سائر الطرق تقديم تزكية النفس والمجاهدات والرياضات الشاقة الموافقة للشريعة المحمدية على صاحبها الصلاة والتحية.

وقال قدس الله سره: اعلم أن أصل كل بلاء إنما يكون من الابتلاء بالنفس، ومتى تخلص الإنسان منها تخلص من الابتلاء بما سواه تعالى، فإن كان يعبد الأصنام، فإنما يعبد نفسه في الحقيقة ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣] خلِّ نفسك وتعال.

وكما أن الخروج عن النفس والمرور عنها فرض، كذلك الدخول إليها والغوص فيها لازم، فإن الوجدان إنما يكون فيها، ولا يكون في الخارج عنها.

السير الآفاقي بعد في بعد، والسير الأنفسي قرب في قرب، فإن كان هناك شهود ففي النفس، أو معرفة فكذلك، أو حيرة فكذلك، وليس في خارج النفس موضع قدم، فخالي الذهن يفهم الحلول والاتحاد من هنا ويقع في ورطة الضلال، إذ الحلول والاتحاد كفر[1]، والخوض في هذا المقام بالفكر قبل التحقق ذوقاً حرام.

وقال قدّس الله سره: اعلم أن مراتب الكمال متفاوتة بحسب تفاوت الاستعدادات، والتفاوت في الكمال قد يكون بحسب الكمية، وقد يكون بحسب الكيفية، وقد يكون بهما معاً.

فكمال البعض مثلاً بالتجلي الذاتي، وكمال الآخر بالتجلي الصفاتي، مع تفاوت بيِّن جداً بين هذين التجليين وبين أربابهما.

---

(١) قوله (كفر): من أقوال الشيخ محيي الدين رحمه الله: من قال بالحلول فعقله معقول، ومن قال بالاتحاد فهو من أهل الإلحاد. (ع).

وكمال البعض بسلامة القلب وتخلص الروح، وكمال الآخر بهما وبالشهود السري أيضاً.

وكمال الثالث بهذه الثلاثة، وبالحيرة المنسوبة إلى الخفي.

وكمال الرابع بهذه الأربعة، وبالاتصال المنسوب إلى الأخفى ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ [الجمعة: ٤].

وبعد حصول الكمال في أي مرتبة كانت من المراتب المذكورة، فإما رجوع قهقرى أو ثبات واستقرار في ذلك الموطن[١].

فالأول: هو مقام التكميل والإرشاد، ورجوع من الحق إلى الخلق للدعوة، والثاني: هو موطن الاستهلاك والعزلة عن الخلق.

وقال قدس الله سره: اعلم أن فيض الحق تعالى على الدوام للخواص والعوام، سواء كان من قسم الأموال والأولاد، أو من جنس الهداية والإرشاد، من غير تفاوت، وإنما نشأ التفاوت من القبول وعدمه ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فالشمس تشرق على الثوب وعلى القصار إشراقاً واحداً، فيسود وجه القصار ويبيض الثوب.

وعدم القبول لهذا بسبب الإعراض عن جانب الحق تعالى، فإن المقبل يقبل عليه، كما قال ﷺ في الحديث القدسي: «من تقرب إليّ شبراً تقربت منه ذراعاً»[٢]

والمعرض يعرض عنه، كما قال ﷺ: «فأعرض، فأعرض الله عنه»[٣] جزاءً

---

(١) قوله (في ذلك الموطن): قال في الحكم العطائية: عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد، فالأول حال السالكين، والثاني حال أرباب المكنة والمحققين. (ع).

(٢) حديث «من تقرب»: أخرجه أحمد وهناك روايات متعددة. انظر «كنز العمال» (١/ ١١٧٩).

(٣) حديث «فأعرض»: حديث صحيح رواه البخاري ومسلم. أوله «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة».

وفاقاً، قال تعالى ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: ١٥٢]. ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧]. وفي الحديث: «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم من غير زيادة ولا نقصان، كما تدين تدان «فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

وقال قدّس الله سره: إن إزالة المرض القلبي في هذه الفرصة اليسيرة بالذكر الكثير من أهم المهمات، وعلاج العلة المعنوية في هذه المهلة القليلة من أعظم المقاصد، والقلب المبتلى بالغير لا يرجى منه خير، لا يقبلون هناك إلا سلامة القلب وخلاص الروح، ونحن هنا دائماً في تحصيل أسباب ابتلائهما، هيهات! هيهات! وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وقال قدّس الله سره: في مبحث النفي والإثبات[2]:

الكمال هو أن يكون شهود مرتبة الوجوب[3] أيضاً مثل شهود مراتب الإمكان داخلاً تحت لا، فلا يلاحظ في جانب الإثبات إلا التفوه بكلمة المستثنى.

والحق أن الفطرة العليا والهمة القصوى طالبة لمطلب عظيم لا تتطاول إليه الأيدي، بل لا يصل غبار الإدراك إلى ذيله.

الرؤية الأخروية حق، ولكن تصورها يفنيني، الناس مسرورون بالرؤية الأخروية الموعودة، وليس ابتلائي بسوى غيب الغيب[4].

---

(١) حديث «إنما هي أعمالكم»: أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، وأحمد (٥/ ١٦٠)، والترمذي (٢٤٩٥).

(٢) قوله (النفي والإثبات): في كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله). (ع).

(٣) قوله (الوجوب): أي العرضي. وهو وجوب الجائزات بعد تعلق القدرة بإبرازها التعلق التنجيزي، فلا إله إلا الله فالنفي يتناول الممكنات والموجودات. (ع).

(٤) قوله (غيب الغيب): الغيب المطلق هو الله سبحانه، فلا تعلق إلا به، ولا همّ له سوى مرضاته، ويخبر أنه عند رؤية الله سبحانه في الجنة يغيب عن وجوده ويفني. وهذا معنى ما قالوه: ينعكس بصره في بصيرته فيصير كله بصراً فيرى من ليس كمثله شيء رؤية ليس كمثلها شيء قال الشاعر:

أعارته طرفاً رآها به فكان المبصر لها طرفها. (ع).

همتي بكليتها أن لا يخرج المطلوب من الغيب إلى الشهادة أصلاً، ولا من السماع إلى الشهود، ولا من العلم إلى العين ماذا أفعل؟ هكذا خلقوني.

وقال قدّس الله سره: قال عليه الصلاة والسلام: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة»[1] وعن حسان[2] رضي الله عنه قال: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إلى يوم القيامة.

بناء عليه فبعض البدع التي قال العلماء: إنها حسنة إذا تأملتها تجدها رافعة لسنة، مثلاً قالوا في تكفين الميت: العمامة بدعة حسنة، مع أن هذه البدعة رافعة لسنة، فإن الزيادة على العدد المسنون الذي هو ثلاثة أثواب نسخ، والنسخ عين الرفع، وهكذا إرسال المشايخ العذَبَة من الجانب الأيسر استحسنوها، والسنة في العذبة أن تكون بين الكتفين، فظاهرٌ غاية الظهور أن هذه البدعة رافعة لسنة.

وكذلك ما استحسنه العلماء في نية الصلاة من التلفظ بها باللسان مع وجود إرادة القلب، والحال أنه ما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام لا برواية صحيحة ولا ضعيفة، ولا عن الصحابة الكرام، ولا التابعين العظام أنهم أتوا بالنية باللسان، بل كانوا يكبرون تكبيرة التحرم حين تقام الصلاة، فالنية باللسان بدعة، ويسمونها حسنة.

والفقير يعلم أن هذه البدعة رافعة للفرض فضلاً عن السنة، فإن أكثر الناس يكتفون في جواز ذلك باللسان، ولا يبالون بغفلة القلب، فيكون قد ترك في ضمن ذلك فرضاً من فرائض الصلاة الذي هو النية بالقلب، فيؤدي ذلك إلى فساد الصلاة، وعلى هذا القياس سائر المبتدعات والمحدثات، فإنها زيادات

---

(١) حديث «ما أحدث قوم بدعة»: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٥): وإسناده ضعيف.

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر (٠٠٠ _ ٥٤ هـ) الخزرجي الأنصاري: الصحابي، شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام. وكان من سكان المدينة. وعمي قبيل وفاته. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. توفي في المدينة. «الأعلام» (٢/ ١٧٥).

على السنة، ولو بوجه من الوجوه، والزيادة نسخ، والنسخ رفع.

وقال قدّس الله سره: اعلم أن الولاية عبارة عن الفناء والبقاء، والخوارق من لوازمها، ولكنْ ما كل من كانت خوارقه أكثر تكون ولايته أتم وأكمل[1]، بل تكون خوارقه أقل وولايته أتم وأكمل.

ومدار كثرة الخوارق على شيئين، وهما: أن يكون الصعود في وقت العروج أكثر، والهبوط في وقت النزول أقل، بل الأصل العظيم في كثرة ظهور الخوارق هو قلة النزول كيف ما كان العروج، لأن صاحب النزول ينزل إلى عالم الأسباب فيجد الأشياء مربوطة بها، ويرى فعل المسبب من ورائها، والذي لم ينزل أو نزل ولكنه لم يصل إلى الأسباب، فنظره مقصور على مسبِّب الأسباب، والأسباب قد ارتفعت عن نظره، والحق سبحانه يعامل كلَّ أحدٍ على حسب ظنه، فيقضي أمر من يرى الأسباب بها، ويقضي أمر من لا يرى الأسباب بدونها قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي».

ولطالما كان يخطر ببالي أنه: ما السبب في كون الخوارق التي ظهرت على يد الشيخ عبد القادر رضي الله عنه لم تظهر على يد كثير من كمّل الأولياء السابقين؟! حتى أطلعني الله تعالى على سر ذلك، وهو أنه كان عروجه أعلى من أكثر الأولياء، وفي جانب النزول كان نزوله إلى مقام الروح الذي هو فوق عالم الأسباب.

ومما يناسب هذا المقام ما حُكي أن الحسن البصري رضي الله عنه كان واقفاً على شاطىء النهر ينتظر السفينة، فجاء حبيب العجمي رضي الله عنه، فوجده واقفاً فقال له: ماذا تنظر؟ قال: السفينة، فقال له: وأي حاجة إلى السفينة؟ أما لك يقين! فقال الحسن: أما لك علم! ثم مشى حبيب على الماء، وبقي الحسن حتى ركب في السفينة، فلما كان الحسن نازلاً إلى عالم الأسباب

---

(١) قوله (أتم وأكمل): في الحكم: (ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة). ونحن قوم نعرف الكرامة بالولي، ولا نعرف الولي بالكرامة. (ع).

عاملوه بها، وحبيب لم ينزل، فعاملوه بدونها، والفضل للحسن، فإنه صاحب علم جمع بين علم اليقين وعين اليقين، وعرف الأشياء كما هي، وفي نفس الأمر جعلت القدرة مستورة خلف الحكمة، وحبيب العجمي صاحب سكر، وله يقين بالفاعل الحقيقي من غير أن يرى للأسباب مدخلاً، وهذه الرؤية غير مطابقة لما في الواقع، فإن توسط الأسباب كائن[(١)] وحاصل، وأما شأن التكميل والإرشاد فهو بعكس طريق ظهور الخوارق، فإن في مقام الإرشاد كلما كان نزوله أكثر، كان في الإرشاد أكمل، لأنه لا بد من حصول المناسبة بين المرشد والمسترشد، وذلك منوط بالنزول.

واعلم أنه كلما كان الصعود أعلى يكون الهبوط أنزل، فلهذا لما كان ترقي نبينا عليه الصلاة والسلام أعلى وأرقى من ترقي جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كان نزوله أقوى من الجميع، فكانت دعوته أتم، ولذلك أُرسل إلى كافة الأنام، فإنه بسبب نهاية النزول حصل المناسبة بالجميع، فصار طريق الإفادة فيه أتم، وربما تحصل الإفادة من المتوسطين في هذا الطريق أكثر من المنتهيين الذين ما رجعوا لأن مناسبة المتوسط للمبتدىء أكثر من ذاك، فمدار كثرة الإفادة وقلتها على الهبوط والرجوع، لا على الانتهاء وعدمه.

وههنا دقيقة، وهي كما أنه ليس من شرط الولاية علم الولي بنفس ولايته كما هو المشهور، كذلك ليس من شرطها علمه بخوارقه، فربما ينقل الناس عنه خوارق شتى وهو لا علم له بها، وكان شيخنا قدس سره يقول: والعجب أن الناس يأتون إليّ من الأكناف والأطراف، فبعضهم يقول: رأيناك في مكة، وبعضهم يقول: رأيناك في بغداد، فيظهرون الصحبة والمعرفة، والحال أني ما خرجت من بيتي، فما هذا الافتراء؟!

وقال قدس الله سره: ما يفهم من عبارات بعض الصوفية من أنه تعالى

---

(١) قوله (كائن): من أقوالهم: السبب واجب ونفي التأثير عنه واجب، ومن نفى الأسباب فقد عطّل الحكمة، ومن أثبت لها التأثير فقد أشرك بالله. (ع).

محتاج إلينا في ظهور كمالات الأسماء والصفات. هو كلام ثقيل على الفقير جداً، فإن المقصود من خلقهم حصول الكمالات لهم، لا كمال عائد إلى جناب قدسه تعالى، ويؤيد هذا المعنى آية ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. أي: ليعرفون، أي: لحصول المعرفة لهم التي هي كمالهم، لا كمال عائد إلى جناب الحق سبحانه وتعالى.

وما ورد في الحديث من قوله تعالى: «فخلقت الخلق لأعرف»: فالمراد منه أيضاً معرفتهم، لا أني أصير معروفاً، وبواسطة معرفتهم أُحصِّل كمالاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال ـ قدس الله سره ـ في تحقيق إحاطة الحق وسريانه: اعلم أن إحاطة الحق سبحانه بالأشياء أو سريانه فيها، كإحاطة المجمل بالمفصل وسريانه فيه، كالكلمة مثلاً فإنها سارية في جميع أقسامها من الاسم والفعل والحرف، وكذا في أقسام الأقسام من الماضي والمضارع والأمر والنهي والمصدر واسم الفاعل والمفعول، والمستثنى المتصل والمنقطع، والحال والتمييز، والثلاثي والرباعي والخماسي، والحروف الجارة والناصبة، والحروف المختصة بالأفعال، والحروف المختصة بالأسماء، والحروف الداخلة عليهما، إلى غير ذلك من الأقسام الحاصلة من التقسيمات الغير المتناهية.

فهذه الأقسام كلها غير الكلمة، بل كلها اعتبارات مندرجة تحت الكلمة، ما زادت في تفصلها وتميزها عن الكلمة وفي تميز بعضها عن بعض غير اعتبار العقل في الذهن، وأما في الخارج فليست إلا الكلمة، فلهذا صح الحمل، ولكن لكل مرتبة من المراتب اسم يختص بها وأحكام لا توجد في غيرها.

مثلاً: الدال على المعنى بالاستقلال مع الاقتران بالزمان فعل، وبغير الاقتران اسم. وغير الدال على المعنى بالاستقلال حرف.

وكذا المقترن بالزمان الماضي فعل ماض، وبالزمان الحال والاستقبال فعل مضارع.

وما وجد فيه علتان من العلل التسعة المشهورة فغير منصرف وإلا فمنصرف.

وحروفٌ عملها الجر جارة، وحروف عملها النصب ناصبة.

فإطلاق اسم مرتبة على مرتبة أخرى، وإجراء أحكام إحداهما على الأخرى ـ كإطلاق الفعل الماضي على المضارع، والمنصرف على غير المنصرف، والجارة على الناصبة مع كون المراتب كلها ليست إلا الكلمة ـ ضلالة محضة[١] وخروج عن الصراط السوي.

إذا تقرر هذا فنقول والله سبحانه أعلم:

إن لكل مرتبة من مراتب تنزل الوجود سبحانه اسماً مختصاً بها وأحكاماً لا توجد إلا فيها، فالوجوب الذاتي والاستغناء الذاتي مختص بمرتبة الجمع والألوهية. والإمكان الذاتي والافتقار الذاتي مختص بمرتبة الكون والفرق.

والمرتبة الأولى مرتبة الربوبية والخالقية، والمرتبة الثانية مرتبة العبودية والمخلوقية.

فلو أطلق اسم مرتبة على أخرى، وأجريت أحكام مختصة بمرتبةٍ على مرتبة أخرى لكان زندقة صرفاً وكفراً محضاً.

والعجب من بعض الملاحدة والزنادقة أنهم كيف يخلطون المراتب بعضها ببعض! ويجرون أحكام بعضها على بعض! فيصفون الممكن بصفات الواجب، والواجب بصفات الممكن، مع علمهم بتميز صفات الممكن الذي هو مرتبة واحدة بعضها عن بعض، واختلاف حكم كل واحد منه، وعلمهم بعدم زوال ذلك التمييز وذلك الاختلاف، وكل ذلك في مرتبة واحدة، فإنهم يعلمون بالبداهة مثلاً أن الحرارة والإشراق من صفة النار المختصان بها، ولا توجد واحدة منهما في الماء، ولا يوصف بهما الماء وكذا البرودة والرطوبة

(١) قوله (ضلالة محضة): خبر قوله (فإطلاق اسم مرتبة). (ع).

المختصتان بالماء، ولا توجدان في النار، وكذا يميزون بالضرورة بين أزواجهم وأمهاتهم، ويحكمون بتفرقة أحكامهما. والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

وقال ـ قدس الله سره ـ: ورد في الحديث الشريف: «العلماء ورثة الأنبياء»[1]: فالعلم الذي بقي عن الأنبياء العلماء نوعان: علم الأحكام، وعلم الأسرار، والوارث: هو الذي يكون له من كلا النوعين نصيب، والذي يكون له نصيب من نوع واحد فليس بوارث، إذ الوارث له نصيب من جميع أنواع تركة المورث لا من بعض دون بعض، والذي له نصيب من نوع واحد داخل في الغرماء الذين تعلق نصيبهم بجنس حقهم.

وكذلك ورد في الحديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[2]. فالمراد من العلماء: العلماء الوارثون لا الغرماء الذين أخذوا نصيباً من بعض التركة، فإن الوارث بواسطة القرب والجنسية يقال: إنه مثل المورث بخلاف الغريم، فإنه خال عن هذه العلاقة، فالذي لا يكون وارثاً لا يكون عالماً إلا أن نخص علمه بنوع واحد، فنقول: عالم بعلم الأحكام، والعالم المطلق: هو الذي يكون وارثاً، ويكون له من كلا نوعي العلم نصيب وافر.

وأكثر الناس يظنون أن علم الأسرار عبارة عن علم توحيد الوجود، وشهود الوحدة في الكثرة، ومشاهدة الكثرة في الوحدة؛ وكناية عن معارف الإحاطة وسريان الوجود، والقرب ومعيته تعالى على النهج المكشوف، والمشهود لأرباب الأحوال.

حاشا وكلا! أن تكون هذه العلوم والمعارف من علم الأسرار، وتليق بمرتبة النبوّة، فإن مبنى هذه المعارف سكر الوقت، وغلبة الحال المنافي للحضور، وعلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سواء كان علم الأحكام أم علم

---

(١) حديث: «العلماء ورثة»: أخرجه أبو داود في «السنن» (برقم ٣٦٤١)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٩٦)، وابن ماجه في «السنن» (٢٢٣). وصححه ابن حبان برقم (٨٨).

(٢) حديث «علماء أمتي كأنبياء»: حديث كذب موضوع لا أصل له، كما نص على ذلك ابن حجر العسقلاني والزركشي والدميري والسخاوي انظر «المقاصد الحسنة» (رقم ٧٠٢).

الأسرار كله صحو في صحو، ما مازجه شمة من السكر، بل إنما هذه المعارف من أسرار الولاية للذين لهم قدم راسخ في السكر لا من أسرار النبوّة، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كان لهم أيضاً ولاية، ولكن أحكامها مغلوبة ومضمحلة في جنب أحكام النبوّة.

وقال قدس الله سره: اعلم أن كل مسألة يكون فيها خلاف بين العلماء والصوفية[1] إذا تأملت ودققت النظر تجد الحق مع العلماء.

وسر ذلك أن نظر العلماء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نافذ إلى كمالات النبوّة وعلومها، ونظر الصوفية مقصور على كمالات الولاية ومعارفها، فتكون العلوم المأخوذة عن مشكاة النبوّة أصوب قطعاً من العلوم المأخوذة عن رتبة الولاية.

وقال قدس الله سره: اعلم أن السماع والوجد ينفع جماعة متصفين بتقلب الأحوال، ومتسمين بتبدل الأوقات، فوقتاً حاضرون، ووقتاً غائبون، ووقتاً فاقدون، ووقتاً واجدون، وهم أرباب القلوب في مقام التجليات الصفاتية ينتقلون من صفة إلى صفة، ويتحوّلون من اسم إلى اسم، وتلون الأحوال نقد وقتهم، وتشتت الآمال حاصل مقامهم، يستحيل في حقهم دوام الحال، ويمتنع استمرار الوقت، فزماناً في قبض، وحيناً في بسط، فهم أبناء الوقت والمغلوبون، وأرباب الأحوال والمقهورون، فتارة يعرجون، وأخرى يهبطون.

وأما أرباب التجليات الذاتية الذين خلصوا من مقام القلب بالكلية، ووصلوا إلى مقلّبه، وحُرروا عن رق الحال إلى محوّله، فلا يحتاجون إلى السماع والوجد، فإن وقتهم دائمي، وحالهم سرمدي، بل لا وقت لهم ولا حال، فهم آباء الأوقات وأرباب التمكين، وهم الواصلون الذين لا رجوع لهم أصلاً، ولا فقد لهم قطعاً، فمن لا فقد له، لا وجد له.

---

(١) قوله (والصوفية): أي أرباب الأحوال الذين كانوا في عصره، وإلا فالصوفية شاركوا العلماء في جميع مراتب العلم الوراثية. (ع).

وقال قدس الله سره: أيها الأخ! رأس هذه الطريقة العلية، ورئيس هذه السلسلة السنية الصديق الأكبر الذي هو بعد النبيين أفضل البشر رضي الله عنه.

وبهذا الاعتبار قال أكابر هذه الطريق: إن نسبتنا فوق جميع النسب، إذ نسبتهم عبارة عن الحضور الخاص، ونسبتهم وحضورهم نسبة الصديق وحضوره الذي هو فوق جميع النسب والحضورات، ومن خصائص هذه الطريقة العلية اندراج نهايتها في بدايتها.

قال الشيخ النقشبند ـ قدس الله سره العزيز ـ: نحن أدرجنا النهاية في البداية.

فإن قيل: إذا كانت نهاية غيرهم مندرجة في بدايتهم، فماذا تكون نهايتهم؟ وأيضاً إذا كانت نهاية غيرهم الوصول إلى الحق، فإلى أين يكون سيرهم عن الحق، ليس وراء عبادان قرية؟!

فالجواب: إن نهاية هذه الطائفة العلية ـ إن تيسر ـ هي الوصل العريان[1] الذي علامة حصوله اليأس عن حصول المطلوب، فافهم فإن كلامنا إشارة لا يدركها إلا الأقل من الخواص بل أخص الخواص.

وإنما ذكرت علامة هذه السعادة العظمى، لأن جماعة من هذه الطائفة تكلموا في نهاية هذا الطريق، وتخيلوا أنها هي الوصل العريان. وجماعة أخرى ظنوا أنها هي اليأس من حصول المطلوب، وإذا عرض عليهما جمعهما كادوا يعدون ذلك من جمع الضدين، وإنه محال.

فالذين يدعون الوصل يقولون: اليأس حرمان. والذين يدعون اليأس

---

(١) قوله (العريان): أي العاري عن جميع التعلقات الاسمية والوصفية وهو مقام (كان الله ولا شيء غيره). (ع).

وقوله: (اليأس): أي بعد الإشراف على هذا المقام وفنائه به، ثم رجوعه عنه إلى البقاء المشروع، يجد أنه لا يعرف الله إلا الله، لأنه لو عرفه على حقيقته ولو بشيء من تجليات ذاته لكان مقدوراً عليه تعالى الله وتنزه. (ع).

يقولون: الوصل عين الفصل. وكل ذلك من علامة عدم الوصول إلى تلك المنزلة العليا.

غاية ما في الباب أن بارقة من ذلك المقام العالي برقت على بواطنهم، فجماعة تخيلوها الوصل، وأخرى اليأس، وهذا التفاوت من تفاوت استعداداتهم، فيناسب استعداد طائفة الوصل، ويوافق استعداد طائفة اليأس.

وعند الحقير: أن استعداد اليأس أحسن من استعداد الوصل، وإن كان الوصل واليأس هنا متلازمان.

وفهم من هذا جواب الاعتراض الثاني: إذ الوصل المطلق أمر، والوصل العريان أمر، وشتان ما بينهما، ونعني بالوصل العريان: رفع الحجب كلها، ولما كان أعظم الحجب وأقواها التجليات المتنوّعة، والظهورات المختلفة، فلا بد أن تنقضي تلك التجليات والظهورات بتمامها، سواء كان التجلي والظهور في المرايا الإمكانية، أو المجالي الوجوبية، فإنهما في نفس الحجب سواء، وإن كان بينهما تفاوت في الشرف والرتبة، فذلك أمر آخر خارج عن نظر الطالب.

فإن قيل: يلزم من هذا البيان أن يكون للتجليات نهاية، والحال أن مشايخ الطريقة صرحوا بأن التجليات لا نهاية لها!

فالجواب: ان التجليات لا نهاية لها على تقدير وقوع السير إلى الأسماء والصفات على سبيل التفصيل، فعلى هذا التقدير لا يتيسر الوصول إلى حضرة الذات، ولا يحصل الوصل العريان، والوصول إليها موقوف على طي الأسماء والصفات على سبيل الإجمال، فيكون حينئذٍ للتجليات نهاية.

فإن قيل: التجليات الذاتية أيضاً قد قيل بأنها لا نهاية لها، فكيف يصح لكم أن تقولوا بأنه لها نهاية؟

فالجواب: أن التجليات الذاتية لا تكون بدون ملاحظة الشؤون

والاعتبارات، إذ التجلي بدون هذه الملاحظة لا يمكن، والذي نحن في صدد بيانه أمر وراء التجليات صفاتية أو ذاتية، إذ لا يجوز إطلاق التجلي في ذلك الموطن أي تجلٍ كان، لأن التجلي عبارة عن ظهور الشيء في المرتبة الثانية، أو الثالثة، أو الرابعة إلى ما شاء الله، وهنا سقطت المراتب بالكلية وطويت المسافة بالتمام.

فإن قيل: إن تلك التجليات بأي اعتبار تكون ذاتية؟

فالجواب: أن التجليات إنْ كانت مع ملاحظة معان زائدة على الذات فصفاتية، أو مع ملاحظة معان غير زائدة على الذات فذاتية. ولهذا قالوا: إن ظهور الوحدة الذي هو التعين الأول، وليس بزائد على الذات تجلّ ذاتي، ومطلبنا حضرة الذات التي لا محل لملاحظة المعاني معها أصلاً، سواء كانت زائدة أوْ لا، إذ المعاني قد طويت على طريق الإجمال، وتيسر الوصول إلى الذات.

وينبغي أن يعلم أن الوصل في ذلك الموطن مثل المطلوب بلا كيف ولا كيفية أيضاً ليس الوصل المتعارف، فإنه لا يليق بذلك الجناب المقدس تعالى وتقدس، ولا سبيل لذي الكيف إلى اللا كيف، لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه.

وما تكلم أحد من مشايخ هذه الطريقة على نهايتها، بل تكلموا على بدايتها، وقالوا: إن نهايتها مندرجة في بدايتها، فإذا كانت بدايتها ممتزجة بالنهاية، فينبغي أن تكون النهاية مناسبة لتلك البداية، وهو الذي امتاز هذا الفقير بإظهاره، فللّه سبحانه الحمد والمنة على ذلك.

أيها الأخ! الواصلون إلى هذه النهاية من هذا الطريق ومن سائر الطرق أقل قليل يكاد إذا عدت أفرادهم أن يستبعده الأقربون فضلاً عن استبعاد الأبعدين وإنكارهم، وحصول هذا الكمال، ووصول نهاية النهاية إنما كان ببركة اتباعه عليه الصلاة والسلام.

وقال ـ قدس الله سره ـ في بيان الفرق بين قرب الصحابة والأولياء ومنشأ كل منهما: اعلموا أن القرب المنوط بالفناء والبقاء وبالسلوك والجذبة هو قرب الولاية الذي تشرف به أولياء هذه الأمة، والقرب الذي تيسر للصحابة الكرام في صحبته عليه الصلاة والسلام قرب النبوّة الذي حصل لهم بالتبعية والوراثة، وليس في هذا القرب فناء ولا بقاء ولا جذبة ولا سلوك، وهذا أعلى وأفضل من قرب الولاية بمراتب، فإن هذا القرب قرب أصل، وذلك قرب ظل، وشتان بينهما، ولكن لا يصل فهم كل أحد إلى ذوق هذه المعرفة، وربما شارك الخواص العوام في فهمها.

نعم! إن وقع السير والعروج إلى ذروة كمالات قرب النبوّة من طريق قرب الولاية، فلا بد من الفناء والبقاء والجذبة والسلوك، فإن هذه مقدمات ذلك القرب ومباديه.

وإلا بأن وقع من جادة قرب النبوّة، فلا يحتاج فيها إلى المقدمات المذكورة، والصحابة الكرام ساروا من جادة قرب النبوة الذي لا تعلق له بتلك المقدمات.

وهذا الفقير كتب في رسائله: إن معاملتي وراء السلوك والجذبة، ووراء التجليات والظهورات، فالمراد منه هذا القرب، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وقال قدس الله سره: اعلم أن المعارف التي تناسب مقام الولاية شطحات المشايخ، وعلوم تخبر عن التوحيد والاتحاد، وتنبىء عن الإحاطة والسريان، وتشير إلى القرب والمعية، وتشعر بالظلية والمرآتية، وتثبت الشهود والمشاهدة، وبالجملة:

فمعارف الأولياء الفصوص والفتوحات المكية، ومعارف الأنبياء الكتاب والسنة.

ولاية الأولياء تخبر عن قرب الحق تعالى، وولاية الأنبياء تخبر عن أقربيته تعالى.

ولاية الأولياء تدل على الشهود، وولاية الأنبياء تثبت نسبة مجهولة الكيف.

ولاية الأولياء لا تعرف الأقربية ولا الجهالة ما هي، وولاية الأنبياء مع وجود الأقربية تعرف القرب عين البعد، والشهود نفس الغيبة.

وقال قدس الله سره: اعلم أن الشريعة والحقيقة متحدان في الحقيقة، لا تغاير بينهما ولا فرق إلا:

بالإجمال والتفصيل: فالشريعة إجمال، والحقيقة تفصيل.

وبالاستدلال والكشف: فالشريعة استدلال، والحقيقة كشف.

وبالغيب والشهادة: فالشريعة غيب، والحقيقة شهادة.

وبالتعمل وعدمه: فالشريعة تعمل وتكلف، والحقيقة لا تعمل فيها ولا تكلف.

فالأحكام والعلوم التي ثبتت وتبينت بموجب الشريعة الغراء هي التي تتبين بعينها بعد التحقق بحقيقة حق اليقين، وتنكشف بالتفصيل، وتظهر من الغيب إلى الشهادة، ويرتفع تمحل العمل من البين، وعلامة الوصول إلى حقيقة حقّ اليقين مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها، وما دامت المخالفة موجودة ولو بأدنى شعرة، فذلك دليل على عدم الوصول.

وكل خلاف وقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة فهو مبني على سكر الوقت، وهو لا يكون إلا في أثناء الطريق، والمنتهون إلى نهاية النهاية كلهم في الصحو، والوقت مغلوب لهم، والحال والمقام تابع لكمالهم[1].

فتحقق أن مخالفة الشريعة علامة على عدم الوصول إلى الحقيقة، وما وقع

---

(١) قوله (لكمالهم): يقول العارف:

قال راوي السَّند ناقلاً عن سيدي
منتهى سير الرجال شرعنا المحمدي (ع)

في عبارات بعض المشايخ من أن الشريعة قشر والحقيقة لب، فهذا الكلام وإن كان مشعراً بعدم استقامة قائله، ولكن يمكن أن يكون مراده أن المجمل بالنسبة إلى المفصل حكمه حكم القشر بالنسبة إلى اللب، وإن الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كالقشر بالنسبة إلى اللب، وأما الأكابر أولو الأحوال المستقيمة، فإنهم لا يجوزون الإتيان بمثل هذه العبارات الموهمة، ولا يفرقون بينهما، إلا بما ذكرنا.

سئل الشيخ النقشبند قدس سره: ما المقصود من السير والسلوك؟ فقال: أن تصير المعرفة الإجمالية تفصيلية، والاستدلالي كشفياً، رزقنا الله سبحانه الثبات والاستقامة على الشريعة علماً وعملاً. اهـ.

وتآليفه الحافلة كافلة لنشر عوارف معارفه، والبرهنة على عظمة مواهب مشاربه، أجلها «مكتوباته القدَسية»، وهي تحتوي على مجلدين ضخمين باللغة الفارسية، وتقدّمت الإشارة إليها.

و«الرسالة التهليلية»، ورسالة «إثبات النبوّة»، ورسالة «المبدأ والمعاد» و«المكاشفات الغيبية»، و«آداب المريدين»، و«المعارف اللدنية» بيّن فيها أحواله ومقاماته الخاصة، و«رسالة» في الرد على الشيعة، و«تعليقات» على عوارف المعارف، و«شرح الرباعيات» لعبد الباقي. وغيرها. فمن له لوعة على عزة المطلوب فليرجع إليها، فإنه يجد فيها ما تسجد له القلوب.

توفي رضي الله عنه سابع عشرى صفر الخير سنة أربع وثلاثين وألف، وسنه ثلاث وستون، ودفن في مدينة سهرند.

وجاء تاريخ وفاته: رفيع المراتب. ولقد نظمت هاتين الكلمتين، فقلت:

الإمام الرباني لما توفي | جاء تاريخه رفيع المراتب ١٠٣٤

وله من الخلفاء العارفين فئة كثيرة، من أجلهم:

العارف بالله تعالى مولانا الشيخ حميد ـ قدس سره ـ أرسله إلى بلاد

نبكاله، وأعطاه نعله المباركة[1]، فقضى بها الحوائج، وشفى بها المرضى، وكانت له آية عظيمة.

والمرشد الكامل مولانا الشيخ حسن البركي قدس سره.

والعارف بالله تعالى الشيخ نور الفتني قدس سره: أخبر سيدنا المجدد ـ رضي الله عنه ـ أنه من رجال الغيب النجباء.

والإنسان الكامل الشيخ بديع الدين السهارنفوي قدس سره، رأى في واقعةٍ رسول الله ﷺ يقول له: أنت سراج الهند.

والعالم بالله تعالى الشيخ أحمد البركي قدس سره: رباه سيدنا المجدد عطر الله تربته في جمعة، وأمره بإرشاد بلاده خراسان.

وصفوة الأولياء الشيخ محمد طاهر اللاهوري قدس سره: انتهت إليه رياسة الطريقة في لاهور، ورأى في واقعة أنه في الروضة المطهرة، ورسول الله ﷺ يحدثه ويكلمه، ثم بشره بأن من بايعك فهو مغفور له، ومن رأى وجهك نجا من النار.

والولي الكامل مولانا السيد الشيخ آدم البنوري قدس سره: كان إذا توجه للمريد، بل إذا لقنه الذكر يوصله إلى فناء القلب، ولقد قبله الحق تعالى، وأعطاه طريقة جديدة تسمى الأحسنية، فهدى الله به أكثر من ألف ألف، وتكمل على يده ألف خليفة، وبُشِّر بلواء أخضر يوم القيامة يستظل في ظله من توسل به ويغفر له. ولما قدم المدينة المنوّرة وسلم على جده فخر الأمم ﷺ سمع منه رد السلام، ومد إليه يده المقدسة، وصافحه وقال له: يا ولدي! كن في جواري، فبقي في المدينة حتى لقي ربه.

وقطب زمانه السيد الشيخ نعمان البدخشي قدس سره: بلغ استيلاؤه بالإرشاد على قلوب العباد أنْ خاف السلطان منه على ملكه. وكتب له المجدّد

---

(١) قوله (نعله): لا تنس قصة قميص سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام. (ع).

قدس سره: لقد قابل هلالك شمس الهداية، فانعكس عليه جميع أنوارها، فصار بدراً كاملاً. ورأى في واقعة رسول الله ﷺ يثني على حضرة المجدد، ويقول كل من قَبِله الشيخ أحمد قبله الله ورسوله، وكل من رده رده الله ورسوله[1]، وكذلك أنت يا ولدي.

وكعبة الإرشاد الشيخ محمد الصديق البدخشي قدس سره.

ومنهل الإمداد مولانا الشيخ أحمد الديبني قدس سره.

وتحفة الواصلين الشيخ عبد الحي البلخي قدس سره.

والإمام الجليل مولانا الشيخ مزمل قدس سره.

وبحر العرفان الشيخ هاشم الكشمي قدس سره.

وزينة أهل الله الشيخ يار محمد القديم الطالقاني قدس سره.

وزبدة الكاملين الشيخ حسن كريم الدين الأبدالي قدس سره.

وروضة الصلاح الشيخ محمد أشرف الكابلي قدس سره.

ونفحة العرفان الشيخ أصفر أحمد الرومي قدس سره.

والعلامة الواصل العارف الكامل الشيخ عثمان اليمني قدس سره.

وعالم الأولياء في وقته الشيخ عبد العزيز النحوي الحنبلي قدس سره.

وبحر المحققين العارف بالله مولانا الشيخ علي المالكي قدس سره.

ومظهر العلوم الإلهية مولانا الشيخ علي الطبري الشافعي قدس سره.

وغيرهم من أهل الفضل والمعارف ممن انتشر ببركتهم وبأصحابهم في العالم أنوار الشريعة وأسرار الحقيقة، قدس الله أرواحهم الطاهرة.

وأما أنجاله الأنجاب: فهم بين نجباء وأقطاب:

---

(١) قوله (ورسوله): وفي الحكم: (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه). (ع).

أكبرهم شمس المعارف العالم العارف شيخ السلسلة القادرية سيدنا الشيخ محمد سعيد خازن الرحمة قدس سره.

وقطب الأولياء العارفين، وأعظم المرشدين المكملين،شيخ هذه السلسلة النقشبندية، وأكمل من سرى إليه سر هذه النسبة المحمدية: سيدنا الشيخ محمد المعصوم العروة الوثقى قدس سره.

* * *

سيدنا الشيخ محمد المعصوم
العروة الوثقى قدس الله سره

العروة الوثقى، والقدوة الأتقى، الجامع بين الشريعة والحقيقة، والفارق بين الضلالة والهداية، والمرشد كل المرشد، الوارث بالفرض والرد، مجد المجدد.

ولد ـ قدس سره ـ سنة سبع وألف، وارتضع ثدي العرفان من والده المرفع الشان، حتى تضلع من علوم الخواص وخواص العلوم، ما أوجب نفعه عموم الإخلاص وإخلاص العموم، ثم جلس من بعد المجدد ـ قدس الله سره ـ في دست الإرشاد، وإمداد العباد، وكان سنه حالتئذٍ ستة وعشرين سنة، فطار صيت فضله كل مطار، وانهلت بركاته على الأقطار كالأمطار، فحجت الأرواح إلى حرم قدسه الأحمى، ولبت الألباب دعوة توجهه الأسمى، ووقفت النفوس على عرفات عرفانه، آمنة بالإحرام عن السوى من حرمانه، وحلت برمي جمرة عقبة الأغيار في منى إحسانه، مستفيضة بطواف كعبته من فيض امتنانه.

نبذة من تفصيل أحواله وجميل أقواله

كان الشيخ رضي الله عنه ولياً منذ الولادة، فإنه لم يقبل الثدي في رمضان، وتكلم بالتوحيد وهو ابن ثلاث سنين، فصار يقول: أنا الأرض، أنا السماء، أنا كذا، أنا كذا، هذا الجدار حق، هذه الأشجار حق، وحفظ القرآن في ثلاثة أشهر، واشتغل بتحصيل العلم والطريق، فبلغ فيهما درجات الكمال وسِنّه سبعة عشر سنة، فتصدر للإرشاد والإفادة مع كمال الاستقامة، ونهاية الورع والتقوى، والتمسك بالسنة المطهرة، والأخذ بناصية العزيمة، واجتناب سبل البدع، ووجوه الرخص.

وشهد له والده رضي الله عنهما في صغره بعلو الاستعداد، وقال: كان

قدوم محمد معصوم كثير البركة، فإني تشرفت بعد ولادته بخدمة شيخي يعني سيدنا محمد الباقي قدس الله سره، فنلت هذه العلوم والمعارف، وإنه من المحبوبين ومستعد للولاية المحمدية.

وقال: حال محمد المعصوم في تحصيل نسبتي كحال شارح الوقاية ألفها جده سبقاً سبقاً، وهو في ميدان حفظها يجري طلقاً طلقاً.

وقال يوماً لوالده قدس الله سرهما: إني أرى نفسي نوراً سارياً في كل ذرة من ذرات العالم، والعالم يتنوّر به كالشمس، فقال: يا ولدي! أنت تصير قطب وقتك، فاحفظ ذلك عني.

وقال له يوماً: إن فيك نصيباً من الأصالة، وقد اندمج في جبلتك بقية من طينة الحبيب الأعظم ﷺ، فهذه المحبوبية الذاتية من آثارها.

وقال رضي الله عنه: أجد نفسي وهذا الولد من زمرة السابقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ [الواقعة: ١٣ـ ١٤].

وقال رضي الله عنه: إن خلعة القيومية التي كانت عليّ لقد أفرغت على محمد المعصوم.

وقال له: يا ولدي! إن علاقتي وارتباطي بهذا المجمع ـ يعني به العالم ـ كان بسبب القيومية وقد أعطيتها، فتوجه إليك المكوّنات بالشوق التام، وقربت رحلتي. اهـ.

وله ـ قدس الله سره ـ مكتوبات عالية تضمنت غوامض أسرار ودقائق عرفان.

وحل مشكلات والده مجموعة في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد رأيتها مترجمة بالتركية.

ومنها: ما نقله حفيده الشيخ محمد مظهر معرباً بقوله: حققنا الله سبحانه وإياكم بكمال الانقطاع والتخلي إليه عما سواه، بحيث لا يبقى منه في الباطن عين ولا أثر، ليحصل التبتل التام المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وتبتل إليه

تبتيلاً﴾ [المزمل: ٨]، كاملاً عن نفسك وعن سائر لطائفك المتعلقة بالخلق والأمر، وعن الكمالات الوجودية الراجعة إليها، وحقيقة التقوى إنما هو هذا التبتل والانقطاع، وكأنَّ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾. إيماء إلى ما ذكرنا، أي: الذين آمنوا صورة، وانقطعوا عما سوى الله، وتخلوا إليه سبحانه، وانخلعوا عن العوائق والتقيدات، متوجهين إلى حضرة الإطلاق حق الانقطاع والانخلاع، بحيث لا يبقى من ذواتكم وكمالاتكم الراجعة إليكم آثر، ويسرى فناؤكم في لطائف الخلق والأمر كلها.

﴿ولا تموتن﴾ قبل الموت ﴿إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي: مشرفون بالإسلام الحقيقي دائماً في جميع الأحوال، لدلالة الاسمية على الدوام.

وكأنَّ في الآية الكريمة حث على دوام الموت والفناء، ليكون الإسلام والبقاء المترتب عليه دائماً، بخلاف صاحب التجلي البرقي، فإنه لم يمت موتاً دائماً ليصير هذا التجلي أيضاً في حقه سرمداً.

وينبغي أن يعلم أن التجلي البرقي ليس من التجلي الذاتي الصرف في شيء، وإنما هو تجلٍّ ذاتي بملاحظة شأن إلهي هو سريع الاستتار والزوال، والذات إذا تجلت لا استتار لها.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ أي: بالحقيقة الجامعة الكلية المعبر عنها بالحقيقة المحمدية، ليصير الاعتصام بهذا الحبل ذريعة للوصول إلى حضرة الإطلاق.

﴿ولا تفرقوا﴾ بتفرق الأسماء والأعيان الجزئية، فإن الأسماء الجزئية والطرق المتفرقة ما لم تنته إلى حضرة الإجمال لم تصل إلى حضرة الإطلاق.

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بعد أن جمعكم في الحقيقة الجامعة.

﴿إذ كنتم أعداء﴾ بتفرق الأسماء إذ مقتضى بعضها يعارض البعض الآخر.

﴿فألف بين قلوبكم﴾ بأن جمعكم في حقيقة واحدة جامعة، وجعلكم على قلب واحد قلب محمد ﷺ.

﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣] متولدين من حقيقة واحدة آخذين منه الفيض، كما يأخذ الاخوان من الأم. اهـ.

وقال قدس الله سره: العارف الكامل المشرف بالبقاء الذاتي يشاهد جماله في مرايا العالم، ويرى نفسه كلاً وإجمالاً، والعالم مظاهره وتفصيله، ويعاين ذاته سارياً في أفراد العالم محيطاً به إحاطة الكل في أجزائه.

وقال قدس الله سره: القيوم في هذا العالم خليفة الله تعالى ونائب منابه، والأقطاب والأوتاد والأبدال والأفراد مندرجون تحت ظلاله، وأفراد العالم كلها متوجهة إليه، وهو قبلة توجههم علموا ذلك أو لا، بل قيام العالم بذاته الشريفة، لأن أفراد العالم مظاهر الأسماء والصفات، وكلها أعراض وأوصاف، ولا بد للعرض والوصف من جوهر وذات يقوم به، وسنة الله جارية بإعطاء العارف التام المعرفة بعد قرون متطاولة نصيباً من ذاته المقدسة، يعني من تصرفات الذات.

قلت: مراده ـ والله أعلم ـ بالقيوم: ما هو مرادف للإنسان الكامل، فإنه أعم من القطب بمعنى الغوث.

أو مراده به ما هو بمعنى القطب، كما يفهم من قول والده في مبشراته له: أنت تصير قطب وقتك.

وعليه فيكون المراد بالقطب في قوله: والأقطاب إلخ: ما عليه مدار أي شيء كان، كقولهم: قطب الزهد، وقطب الورع.

أو هو اصطلاح له في معنى القيومية، ولسيدنا الشيخ الأكبر رضي الله عنه في الجزء الثاني من «الفتوحات المكية» في بيان القيومية ما يخالف هذا، فانظره فإنه لا نظير له.

ومنها: ما نقله صاحب «كنز الهدايات» في الهداية الخامسة عنه أنه قال قدس الله سرّه:

الوجود مع كمالاته التابعة له مخصوص بالواجب تعالى، وما يترآى في الممكن من الوجود وتوابعه، فهو مستفاد منه تعالى، ومستعار للممكن، والذاتي للممكن هو العدم، وما فيه من الظهور فبواسطة انعكاس الكمالات فيه، وبهذا تميز عن سائر الأعدام، فالممكن بهذا الطور اللاوجودي تصور نفسه كاملاً، ومبدأ للخيرات، وادعى الاشتراك والاستقلال، وأقبل عليه وأعرض عن أصله، فإذا أراد الحق سبحانه بالسالك المستعد فضلاً منه أن يخصه بتقريبه إليه تعالى يعطيه هذه المعرفة حتى يعرض السالك عن نفسه، ويقبل على ذلك الجناب الأقدس، ويحيل الكمالات المستعارة على الأصل، ويتخلص من الشرك الخفي، ودعوى الاستقلال.

وقال قدس الله سرّه: ينبغي أن يعلم أن الأقدام في فناء النفس متفاوتة تفاوتاً كلياً، وقلما يوجد صاحب دولة يصل إلى حقيقة ذلك، وإن كان أكثر أهل السلوك يتوهمون ويتعقلون هذا المعنى، ويغوصون في بحاره عند المراقبة، فيستخرجون منها درراً، ويستكثرون عند غلبة الشوق والمحبة قليل التخلص، والنجاة الحاصل لهم ذلك بطريق اندراج النهاية في البداية، وبانعكاس أشعة أنوار الشيخ الكامل، وأما من تحقق بكمال هذا التخلص على قدر الطاقة البشرية فإنه قليل، وما لم يصل السالك إلى حقيقة ذلك التخلص لا تحصل له النجاة الكاملة من إثبات ألوهية نفسه، فإنه يثبت ألوهية نفسه بتكرار كلمة التوحيد، وهذا جاءه من جهة إثبات صفة الكمال، إمّا لنفسه ولو أحياناً نادراً، وإمّا لبعض اللطائف دون بعض، أو مما يقرب من الإثبات.

وسئل قدس الله سرّه: هل يتعرض الشيطان لسالكي هذه الطريق أو لا؟ فقال: قال الشيخ عبد الخالق الغجدواني رضي الله عنه: إن لم يصل السالك إلى حد فناء النفس، يجد الشيطان إليه سبيلاً عند الغضب، وأما السالك الواصل إلى فناء النفس، فلا يكون له غضب بل غيرة، وعند الغيرة يفر الشيطان.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ في تحقيق الفناء والعدم والفرق بينهما: اسمعوا العدم الواقع في عبارات أكابر هذه السلسلة العلية، عبارة عن ورود وجود الاسم الإلهي؛ الذي هو مبدأ تعين العارف من وراء الحجب بطريق الجذب، والحب على مدركة العارف، بحيث يستتر في جنب ذلك وجوده، ويغيب عن نفسه وأوصافه، فلا يجد شيئاً من ذلك، فوجود العدم عبارة عن التحقق بذلك الوجود، أي: الوجود والبقاء المترتبين على العدم، ويحتمل أن يكون الوجود عبارة عن التحقق بحالة العدمية، يعني: ظهور صفة العدمية في السالك، وهذا العدم، ووجود العدم بمعنى الفناء والبقاء في جهة الجذبة، وليس لهذا الظهور دوام، فلا يدوم الفناء والبقاء المرتبين عليه أيضاً، فلا يؤمن عود ذلك السالك إلى البشرية، ومتى حصل هذا الظهور، فإن وجود السالك يتوارى، وإذا توارى الظهور، فوجود البشرية يعود.

والفناء الحقيقي عبارة عن استيلاء وجود المطلوب على العارف، فحينئذٍ يجد العارف أوصافه وأخلاقه ظلال أوصاف المطلوب وأخلاقه، بحيث يحيل كل ذلك إحالة سديدة على ذلك الجناب، ويصير خالياً من جميع المنتسبات، فلا تجد نسبة ما إليه سبيلاً أصلاً، ووجود الفناء عبارة عن البقاء المترتب على هذا الفناء المذكور.

ومن هنا يكون العارف بسبب الولادة الثانية موجوداً بالوجود الموهوب، وهذا الفناء والبقاء يلزمهما العدم، ولا يعودان إلى وجود البشرية، ففي الصورة الأولى استتار السالك، وفي الصورة الثانية انتفاؤه، وشتان ما بينهما لأن المستتر قد يظهر ويعود، والزائل لا يعود، والأول ليس من المطالب، ولا الولاية مربوطة به، والثاني من المطالب وشرط للولاية، وكثيراً ما يقع للطالب خلط الأول مع الثاني، فيظن نفسه فانياً فناء حقيقياً موجود العدم، ويحسبه كاملاً، ولا يهتدي إلى هذا الفرق، وهذا من جملة مزال أقدام السالكين، ولذلك لا بد له بعناية الله جل سلطانه من شيخ كامل مكمل تربى بطريقي الجذبة والسلوك، ووصل إلى النهاية ليخلص هذا العاجز العديم القوى من هذه

الورطة، ويدله على نقصه ويهديه إلى الفناء الحقيقي.

وفي الهداية السادسة: قال قدس الله سره: إذا ترقى السالك من هذا المقام، وتحقق بالذي فقد هو فيه، وتخلق بأخلاقه وأوصافه، ووصل إلى حق اليقين، وارتقى من الفناء إلى البقاء، فحينئذٍ يتجلى له حسن الإسلام، ويتخلص من الحيرة والدهشة والهيام، فيجده به لا بنفسه وعلمه إذ هما قد فنيا، قال الله سبحانه وتعالى ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفي الحديث: «من قتلته فأنا ديته»(١).

وقال قدس الله سرّه: ما يرى في الواقعات في التحلي بالحلي، والتكلل باللآلي واليواقيت، هو تبشير بالبقاء.

وقال قدس الله سرّه: إذا رأى السالك إحاطة الأنوار به، وحلول بحار الأنوار فيه، وكون كل جزء من أجزائه جزأ من أجزاء النور، فذلك يمكن أن يكون من البقاء.

وقال ـ قدس الله سرّه ـ في الولاية الصغرى: ليعلم أن العمدة في حصول كمالات الولاية الصغرى المراقبة والأذكار القلبية، من ذكر اسم الذات، والنفي والإثبات.

وقال قدس الله سره: فناء النفس على وجه الكمال يتضمن فناء الروح، والسّر والخفي والأخفى، لأن النفس رأس هذه اللطائف، سواء قبل الفناء أو بعده «خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام إذا فقهوا»(٢).

وقال قدس الله سره: كمال فناء النفس إذا التحق عدمها الإضافي(٣)، الذي

---

(١) حديث (من قتلته فأنا ديته): لم أجده.

(٢) قوله (خياركم): هذا لفظ حديث؛ أخرجه البخاري برقم (٣٤٩٣ و٣٤٩٤)، ومسلم برقم (٢٥٢٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥). وغيرهم.

(٣) قوله (الإضافي): قيد احترازي عن العدم الأصلي وهو الذاتي الذي هو وصف الممكنات أزلاً (كان الله ولا شيء غيره).

ويصح أن يراد بقوله (العدم الإضافي) أي المضاف إلى الموجودات حال وجودها فهي=

هو مرآة للصفات الكمالية التي التحقت بالأصل حين لم يبق في السالك غير هذا العدم بالعدم المطلق، فحينئذ لا يبقى للعارف عين ولا أثر، لا تبقي ولا تذر، وبعد هذا بمقتضى «من قتلته فأنا ديته» معاملة البقاء.

وأما معاملة الولاية الكبرى فهي أمام السالك بعد، والفناء والبقاء وإن كان لهما صورة في الولاية الصغرى، ولكن حقيقتهما في الولاية الكبرى، وأظن أن لحوق العدم الخاص بالعدم المطلق من خصوص هذه الولاية.

وقال ـ قدس الله سره ـ في كمالات النبوّة: المرتبة الرابعة: إفراد الذات ـ تعالت وتقدست ـ عن الأسماء والصفات، لأن محبة الذات لا ترضى بشركة الصفات، وإن لم يتصور انفكاك الصفات عن الذات، ولا عكسه أبداً، لكن بمقتضى «المرء مع من أحب»[1] للمحب مع الذات معيته، بحيث لا يلاحظ الصفات ثمة أصلاً، فانفكاك الذات عن الصفات إنما هو في الشهود، والمحبة المثمرة للمعية المذكورة، لا في الخارج ونفس الأمر، وهذا الكمال ناشيء من كمالات النبوّة، وحصوله بالأصالة للأنبياء عليهم السلام، وبالتبعية والوراثة للخواص من أتباعهم، ولا يلزم من حصول كمالات النبوّة لبعض الأفراد من الأمة بالتبعية والوراثة أن يكون ذلك البعض نبياً أو مساوياً للنبي، لأن حصول كمالات النبوّة غير حصول منصب النبوّة، كما حققه شيخنا المجدد قدس الله سره.

وقال قدس الله سره: ما دام سير السالك في الأصول[2]، فله حظ من

= متلبسة بالعدم، والذي يظهر هو إمداد أوصافه تعالى، فإذا تمَّ إلحاق الموجودات المتلبسة بالعدم لولا القيومية بما كانت عليه قبل ترجيح وجودها على العدم المطلق تمَّ له مقام الفناء، وهذا ما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ هالك اسم فاعل وهو حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال. (ع).

(١) قوله (المرء مع من أحب): هذا لفظ حديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) قوله (في الأصول): أي في قواعد السير والسلوك العلمية والحقية المقتضية للفرق النوراني فيكون في الشهود شاهد ومشهود. (ع).

الشوق والحلاوة والمعرفة، فيطيل لسانه في بيان المعارف والأسرار، وإثبات نسبة الإحاطة[1] والسريان، ونسبة الأصالة والظلية والمراتب، وأمثال ذلك.

ثم إذا ترقت المعاملة من الأصول إلى ما فوقها، وترك الأصل كالظل كلَّ لسانه، واستترت عنه النسبة السابقة، ما للتراب ورب الأرباب، فتنتفي عنه تلك المعرفة والحلاوة التي كان يجدها، فحينئذ إن كان فيه علم والتذاذ فذلك أمر آخر أنسب ما يعبر عنه الجهل والحيرة، من لم يذق لم يدر، وليس ذلك من قبيل الجهل والحيرة التي يعرفها العوام، بل هو أمر آخر ما لم يتحقق به لم يدرك على وجه التمام، فإن هذا الجهل له ألف مزية عن العلم، وهذا الخوف والحيرة له رجحان عظيم على الشوق والحلاوة، وهذا من قبيل مدح الشيء بما يشبه الذم .

وقال قدس الله سره: الشهود والمشاهدة حيث يوجد الظل والإدراك والوصل من معاملات الأصل، فإذا ترقى من الظلال وبقي الأصل، كالظل في الطريق، واتصلت بالغيب المغيب، فحينئذ تكون المعاملات السابقة هباء منثوراً، فيتبدل الإيمان الشهودي بالإيمان الغيبي، وينقلب ما كان من اللذة والحلاوة والذوق والشوق إلى المرارة والألم والحزن، فقد كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكر، ولذة هؤلاء الأكابر مقيدة بالطاعات، مقصورة على العبودية والعبادات، فإن كان غيرهم متلذذاً بالشهود مغروراً بخيال

---

(١) قوله (الإحاطة): المثبتة في قوله تعالى: ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾.
وقوله (السَّريان) لمعاني الأسماء والصفات في متعلقاتها من الممكنات.
وقوله (الأصالة والظلية): فيشهد الأكوان ظلالاً برزت فيها قدرة المكوّن وظهر فيها فعله كما قيل:

هي شمس بدت في ظلال جلّت عن التمثال
تلاشى مذ رآها الهلال وعاد كالعرجون

وهذه الظلال لا تعيق السالك عن السير وإن أثبتها ورآها، ومثاله كمثل من ركب سفينة وجرت به في النهر وقد انعكست على صفحات الماء ظلال الأشجارِ التي على جانبيه فلا تعيقه هذه الظلال ولا يحجب بها عن مشاهدة أصلها. (ع).

الوصال، فأولئك الأكابر قد غضوا أبصارهم عن الشهود، وتصوّروا أن هذا الوصال خيال، واطمأنوا بالغيب الذي له على الشهود آلاف من المزية، وشدوا حزام الهمة للعبودية، فيرون إدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام أحسن من التجليات، وأوقع من الظهورات، والخشوع والنظر إلى محل السجود ألذ من المشاهدة والشهود، ثم يأتي بعد ذلك مقام ليس للعمل فيه نتيجة، ولا للاعتقاد فيه أثر، فالترقي هناك بمجرد الفضل والإحسان.

ثم قال: وهذا المقام بالأصالة مخصوص بالأنبياء من أولي العزم، وللأفراد من أممهم نصيب من ذلك، ثم فوق هذا كمال يترقى فيه من التفضل إلى المحبة، فالترقي في حصول هذا الكمال منوط بالمحبة المحضة، وفي المحبة كمالات المحبة والمحبوبية، فظهور كمالات المحبة الذاتية بالأصالة مخصوص بالكليم عليه السلام، وظهور كمالات المحبوبية مخصوص بالحبيب الأعظم ﷺ، ولغيرهما تطفلاً رجاء في هذين الكمالين.

وهذه ذرة من سعة أذواقه وأخلاقه، وشذرة من معادن أقواله وأحواله، وضعتها نموذجاً لبيان علو قدره، وبرهاناً لإثبات عظمة شأنه وفخامة أمره، وإلا فالفكر أحصر من أن يحيط بفضائله، واللسان أقصر من أن يمتد إلى عد شمائله.

توفي ـ قدس الله سرّه ـ تاسع شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وألف في سرهند.

وله كرامات هي أظهر من الشمس وأشهر من الخمس.

منها: أن أحد خلفائه الكرام الخواجه محمد صديق كان في سفر على فرس، فجفلت فسقط إلى الأرض، وبقيت رجله في الركاب، وجعلت الفرس تعدو به حتى أيقن بالهلاك، فاستغاث بحضرة القيوم قال: فرأيته حضر، وأوقفها وأركبني.

ومنها: أن الشيخ محمد صديق المشار إليه وقع في البحر، ولم يك يعرف

السباحة، فكاد أن يغرق، فناداه مستغيثاً به، فحضر وأخذ بيده، وأنقذه من الغرق.

ومنها: أنه رضي الله عنه كان جالساً يوماً مع أصحابه في رباطه إذ ابتلت يده الشريفة وكمه إلى إبطه، فعجبوا من ذلك وسألوه عنه، فقال قدس الله سره: استغاث بي رجل من المريدين تاجر كان راكباً في السفينة، وقد كادت أن تغرق، فخلصتها من الغرق، فابتل لذلك كمي ويدي، فوصل هذا التاجر بعد مدة وحدث بهذا الأمر، كما أخبر الشيخ قدس الله سره.

ومنها: أنه ظهر في زمانه ساحر مجوسي يوقد النار، ويدخلها هو ومن يطيعه، فلا تحرقهم، فافتتن الناس به فتنة عظيمة، فأمر حضرة الشيخ قدس الله سره بإيقاد نار عظيمة، وأمر أحد مريديه فدخلها، واشتغل بالذكر، فصارت عليه برداً وسلاماً، فبهت الذي كفر.

ومنها: ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الترمذي أحد أصحابه قال: جئت مع إخواني لزيارة جنابه العالي، فأعطى كل واحد منهم أثراً من لباسه تبركاً إلا أنا، فلما انصرفت إلى وطني غلب عليّ الحزن والغم، لحرماني من هذا الفضل الجزيل، وإذا قد شاع في البلدة خبر قدومه قدس الله سره إليها، فخرج الناس لاستقباله، وخرجت معهم فَرِحاً فرحاً شديداً، فلما بارحت البلدة رأيت حضرة الشيخ راكباً على فرس أبيض، فقال لي: لا تحزن يا عبد الرحمن! وخذ قلنسوتي تبركاً، فلما أخذتها غاب هو والناس عن عيني، وبقيت القلنسوة في يدي.

ومنها: أنه جاء أعمى يلتمس منه أن يدعو الله له في رد بصره، فأخذ من ريقه، ومسح به على عينيه، وقال: اذهب إلى بيتك. وافتح عينيك، ففعل، فعاد بصيراً بإذن الله.

ومنها: أنه ذكر عنده رجل من الرافضة بأنه يسب حضرة الشيخين رضي الله عنهما جهراً، فغضب غضباً شديداً، وكان بين يديه بطيخ فأخذ السكين، وقال: أذبح هذا الخبيث، ثم أمرّ السكين على البطيخ، فمات الرافضي من وقته.

ومنها: ماقاله قدس الله سره: إني كنت متوجهاً ليلة النصف من شعبان إلى معرفة نسبة أحوالي، ونسبة أحوال بعض المريدين الحاضرين وقتئذ عندي، فما لبثنا أن عرج بنا على أبهج هيئة وأعظمها، بحيث لم يحصل لي مثل ذلك العروج من قبل، فألقي إليّ أنه لم يقع مثل هذا العروج لأحد، فظهرت لي نسبة عالية المرتبة للغاية، ثم أعلمت انها نسبة المخلَصين - بفتح اللام - وأنها هي النسبة التي أثبتها تعالى لبعض المرسلين - على نبينا، وعليهم الصلاة والسلام - بقوله: ﴿إنه كان من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] ثم عوملت ما عوملت، ثم أتي بخلع عالية الشأن بعضها فوق بعض، فتشرفت بالأفضل منها، ووزع ما يليها على من معي على تفاوت درجاتهم، وتفاضل أقدامهم، الأفضل فالأفضل، ثم كشفت أشياء لو أظهرت منها شيئاً لقطع البلعوم، وذبح الحلقوم. والسلام على من اتبع الهدى.

ومنها: أنه حينما حج البيت الحرام، وزار النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما دخلت الحرم، وشرعت في الطواف رأيت جماعة من الرجال والنساء على غاية الحسن، يطوفون معي باشتياق وتقرب شديد، بحيث يقبلون البيت ويعانقونه في كل وقت، أقدامهم على الأرض ورؤوسهم بلغت عنان السماء، فظهر لي أن الرجال ملائكة والنساء حور.

وقال رضي الله عنه: رأيت أن الكعبة المعظمة تعانقني وتقبلني باشتياق تام، وكشف لي أن تلك البركات والأنوار ظهرت مني، وزادت حتى ملأت الصحراء، وأحاطت بجميع الأشياء، وإن محبتها إليّ بسبب التحقق بحقيقة الكعبة الربانية، ورأيت ثَمَّ كثيراً من الروحانيين حضوراً في كل وقت، كالخدم بين يدي السلطان.

وقال رضي الله عنه: لما فرغت من طواف الزيارة جاءني ملك بكتاب قبول الحج من رب العالمين.

وقال رضي الله عنه: دخلت المدينة المنورة، فلما وقفت تلقاء الوجه الأوجه، رأيت النبي ﷺ قد خرج من الحجرة المطهرة وعانقني، وحصل لي

لحوق خاص به ﷺ، وكذلك حصل لي عند زيارة الشيخين رضوان الله عليهما، وشاهدت عليّ وقتئذ خلعة صفراء، فعلمت أنها من حضرة عمر، وعليها خلعة حمراء، ففهمت انها من حضرة الصدّيق رضي الله عنه، ثم عند الانصراف شرفت بالخلعة العالية الخضراء، فألهمت أنها من سيد المرسلين ﷺ.

وقال قدس الله سره: كشف لي أن سائر الممكنات من العرش إلى الثرى محتاج إلى الحبيب ﷺ، وهو بكمال استيفائه اللازم للمحبوبية يفيض على كل فرد فرد على حده.

وقال قدس الله سره: جرى بيني وبين النبي ﷺ من المعاملات ما لو أشرت إلي بعض منها، لقطع مني البلعوم وذبح الحلقوم، حتى إني وجدت كل صلاة صُلّي بها عليه، وكل قصيد مدح به راجعاً إلى نفسي، فقال ولده حجة الله: يا سيدي إن الكمون والظهور هما الفناء والبقاء، أو هما شيآن آخران؟ فقال رضي الله عنه: هما الفناء والبقاء، ومتميزان عنهما بالخصائص، التي لا توجد فيها.

وقال رضي الله عنه: ولما تشرفت بزيارة أهل البقيع رأيت من آل البيت والأزواج والأصحاب رضي الله عنهم عناية خاصة، وخلعاً مخصوصة وظهرت نسبتي ثَمّ ظهوراً عجيباً للغاية، إذ رأيت جميع العالم من العرش إلى الثرى منوراً من نوري[1].

وقال قدس الله سره: غلب عليّ وقت الوداع الحزن والبكاء، فرأيت سيد المرسلين ﷺ قد خرج من حجرته المطهرة، وخلع عليّ خلعة فاخرة، وتاجاً مثل تاج الملوك مكللاً بأحسن الجواهر، وظهر لي أن هذه خلعة خاصة من ألبسة ذاته المقدّس، لا كالخلع السالفة شرفني بها من كمال كرمه ﷺ.

---

(١) قوله (من نوري): قال الله تعالى: ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾. والنور يرى النور وتُرى به الأشياء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. والشيخ كما يظهر كان من أصحاب الأحوال الذين تغلب عليهم أنوار الملكوت فيغيبون، وتبقى أرواحهم في الخيال المطلق سابحة من خلال ما يشاهدونه من الحقائق اللطيفة الملكوتية كحال النائم. (ع).

وبالجملة فقد كان ـ قدس الله سره ـ آية من آيات الله العظام، نوّر الله به العوالم، وهدى به الخلائق.

قيل: إنه تلقى الطريقة العلية النقشبندية منه تسعمائة ألف، وبلغ عدد خلفائه سبعة آلاف كلهم أولياء عظماء، لأنه كان يوصل الطالب في أسبوع واحد إلى الفناء، وفي شهر إلى كمالات الولاية، وأوصل بعضهم بتوجه واحد إلى جميع المقامات.

فمن أجلّ خلفائه: عالم زمانه، وبركة أوانه، الولي الأسمى، والمرشد الأسنى مولانا الشيخ محمد حنيف الكابلي قدس الله سرّه: كان ذا تصرفات قوية، وبشارات عظيمة، أوصل ببركة صحبته إلى الأحوال الشريفة، والمقامات السنية ألوفاً من الرجال.

وممن ذكر الإمام الجليل والمرشد الكامل التكميل، العارف كل العارف مولانا: الشيخ محمد صديق البشاوري قدس سره، أنقذ الله به الناس من لجة الضلالة إلى ساحل الهداية والإرشاد، حتى أصبح أكثرهم كاملاً مكملاً.

ومن كراماته: أنه توجه إلى شجرة يابسة فاخضرت، وأثمرت لوقتها. وله خلفاء حنفاء.

وممن ذكر: وليّ الخلفاء وخليفة الأولياء، العلامة الدراكة الشيخ حبيب الله البخاري قدس سره: كان من أعظم مشايخ خراسان وما وراء النهر، وقد روج الطريقة في تلك الممالك ترويجاً تاماً، قيل: إنه أذن بالخلافة لأربعمائة رجل، وبشرهم بالكمال والتكميل.

وممن ذكر: نخبة الأولياء، وكعبة الأتقياء، الشيخ محمد مراد البخاري الشامي قدس سره، فرغ القيوم من تربيته في أسبوع واحد، بحيث صار كاملاً مكملاً، ثم أرسله إلى الشام، فحصل له قبول عظيم، وكمل عنده خلق كثير، وقد ترجمه حفيده في «خلاصة الأثر» بما يسرّ الناظرين.

وممن ذكر: زبدة الكاملين وعمدة العلماء العاملين، الشيخ ملا موسى

اللنكرهاري ـ موضع من نواحي كابل ـ أظهر الله هذه الطريقة العلية ببركته في تلك النواحي إظهاراً تاماً.

ومن كراماته: أن الله تعالى خصه بالتصرف في حياته، وبعد مماته، من ذلك أن من لدغته حية يقرأ على محل لدغتها اسمه الشريف، فيشفى من بركته. وذلك جار إلى يومنا هذا.

وممن ذكر: العالم الكبير، والمرشد الشهير، مولانا الشيخ آدم السندي قدس سره ألقت إليه المشيخة مقاليدها في بلاده.

وممن ذكر: صاحب المعارف العالية، والهمم الكافية، والفضائل الوافية مولانا الشيخ أرغون الخطائي ـ قدس سره ـ اشتهر في تلك المملكة اشتهاراً عظيماً بالإرشاد، والهداية والإمداد، وألقى إليه العباد زمام الانقياد، حتى دخل سلطان كاشغر في طريقه، وصار من جملة مريديه وفريقه.

وممن ذكر: زهرة المرشدين، وزهوة العلماء المحققين، الشيخ محمد أمين البدخشي ـ قدس سره ـ بلغ في المشيخة في بلاده المقام المتين.

وممن ذكر: أكبر أولي الإرشاد، وخواص أصحاب الهداية للعباد، الشيخ حافظ الصادق ـ قدس سره ـ بلغ من علوّ قدمه أن أرسله حضرة الشيخ لإرشاد سلطان الهند عالمكير وأتباعه، فأرشدهم إلى الحق، وهداهم بمنه وكرمه إلى اتباعه.

وممن ذكر: صفوة أهل التحقيق في طريق العلوم، وعلوم الطريق، صاحب التصانيف النفيسة في المعقول والمنقول، الشيخ محمد باقر اللاهوري: مؤلف «كنز الهدايات»، وهو كتاب بديع رتبه من كلام الإمام الرباني، والعروة الوثقى على مراتب السلوك، وهو عربي العبارة، طالعته واستفدت من آثاره جزاه الله خيراً.

وممن ذكر: المرشد الكامل، والعالم العامل، الشيخ نجم الدين السلطانفوري قدس سره.

ومن ذكر: الشيخ الأفضل والمرشد الأكمل، مولانا مير محسن السيالكوتي قدس سره.

ومن ذكر: أكمل المرشدين العارفين مولانا الشيخ بدر الدين قدس سره.

ومن ذكر: العارف الهمام، والمرشد الإمام، مولانا الشيخ عطاء الله السورتي قدس سره.

ومن ذكر: عالم الصلحاء، وصالح العلماء، الشيخ كلان السمرقندي قدس سره.

ومن ذكر: أعلى الخلفاء قدراً، وأعظمهم علماً وسراً، مولانا الشيخ عبد الرحمن القرااسماني قدس سره.

ومن ذكر: ذو الأنفاس الرحمانية، والأخلاق الإيمانية، مولانا الشيخ علي اليمني قدس سره.

ومن ذكر: خلاصة العلماء الأماجد، ومظهر أهل المعارف والمشاهد، الشيخ حامد قدس سره.

ومن ذكر: كوكب الفضل والإفضال، المشرق كالشمس في سماء عظماء الرجال، مولانا الشيخ عمر الشافعي اليمني قدس سره.

ومن ذكر: بدر المعالي السنية، والأنفاس المدنية، مولانا الشيخ زين العابدين المدني قدس سره.

ومن ذكر: روضة العلم والعرفان، الباسمة في المجد أزهارها الحسان، مولانا الشيخ يوسف الملتاني قدس سره.

ومن ذكر: نجم الإرشاد الثاقب، ومنهل العلوم اللدنية والمواهب، مولانا الشيخ عبدالله القنوجي قدس سره.

ومن ذكر: علم المعارف والمعالي، وخلاصة الأيام والليالي، مولانا الشيخ إسحاق التركستاني قدس سره.

وممن ذكر: عين أعيان الأولياء، وإنسان عين الأصفياء، مولانا الشيخ أحمد البخاري قدس سره.

وممن ذكر: رحلة الشيخ والشاب، وحرم حج الألباب، مولانا الشيخ أبو تراب قدس سره.

وممن ذكر: مورد الأذواق الإلهية، ومعهد الأطوار الربانية، مولانا الشيخ عبد الله المغربي الصوفي قدس سره.

وممن ذكر: صاحب الأخلاق المصطفوية، وساحب أذيال الفضائل الصفوية، مولانا الشيخ الحاج مصطفى البنكالي قدس سره.

وممن ذكر: قاعدة السلوك إلى ملك الملوك، مولانا الشيخ عبد الله الكولابي قدس سره.

وغيرهم ممن رفعوا أعلام الهداية، ونشروا من أسرار الطريق ما محا ليلَ الغواية، وهم أكثر من أن يحصون عدداً قدس الله أسرارهم العلية.

وأما أنجاله الأنجاب، فهم ستة أنجام عجاب، نوّر الله الأقاليم السبعة بأنوارهم، وجعل كل واحد منهم من أكبر الأقطاب، كما بشر المجدد رضي الله عنه والدهم بذلك، فقال: إن أولادك يكونون مثلي.

الأول: علامة العارفين، وكعبة أهل حق اليقين، سيدنا الشيخ محمد صبغة الله قدس سره.

ولد عام اثنين وثلاثين وألف في حياة جده العزيز رضي الله عنه، فقال: إني أجد منه رائحة الأصالة، فسموه صبغة الله، ثم تلقى علمي الظاهر والباطن عن حضرة والده، حتى بلغ من العلوم غايتها، ومن المقامات الإلهية والكمالات المجددية نهايتها، وصار له رسوخ تام في الورع والتقوى، واستقامة كاملة على الطاعات والعبادات كأبيه وجده.

ومرض ـ قدس سره ـ مرة في حداثة سنه مرضاً شديداً، وصل به حد اليأس من حياته، فقال جده المجدد ـ قدس الله سره العزيز ـ لأهله: لا تخافوا عليه،

فإنه يكون معمراً ذا إرشاد وهداية عظيمة، وكأني به وهو شيخ كبير بيده عصاً، وحوله ألوف من الطلبة. فكان كذلك، فقد عاش أكثر من تسعين عاماً. ثم لما أذن له والده العزيز بالخلافة رحل إلى بلدة كابل، فصار قطب تلك الديار، وحصل له قبول عظيم، وأقبل عليه السالكون من كل فج عميق، فصار أكثرها بهمته العلية من أولي الأحوال، والولاية الكاملة.

وله ـ قدس سره ـ كرامات وتصرفات عجيبة، منها:

أنه جاء مرّة سائل، فلم يجد ما يعطيه، فنظر إلى مدر مرمي هناك، فانقلب ذهباً، فأعطاه إياه.

توفي سنة اثنين وعشرين ومائة وألف.

والثاني: المظهر الأحمدي، والوارث المحمدي، سيدنا الشيخ أبو القاسم شرف الدين حجة الله محمد نقشبند قدس سره.

ولد عام أربع وثلاثين وألف، وقال حضرة المجدد لوالده رضي الله عنهما: ولدك هذا نظيري في كمالات قرب الحق.

وقال عمه حضرة العارف الكبير مولانا الشيخ محمد سعيد خازن الرحمة قدس سره: إني لأظن أن هذا الولد كأبيه وجده، ذو كمال في الظاهر والباطن.

وكانت آثار الولاية تلوح على جبينه وهو صغير، قرأ علوم الظاهر على حضرة والده، فأتقنها قبل بلوغ الحلم، ولم يزل يتبحر فيها حتى كاد أن يدرك رتبة الاجتهاد في الفقه، والحديث، والتفسير، وطالما أتى في أسرار معاني القرآن المجيد بالعجائب والغرائب، ثم أتم مقامات السلوك على حضرة والده، فنال بأقرب وقت أعلى الدرجات، وبلغ في منصب الإرشاد غاية الغايات، فأصبح ذا شأن عظيم، ومقام كريم.

وكان والده العزيز يجله ويقربه، حتى قال مرة في حقه: كلما جاء هذا الولد عندي أحب أن أقوم تعظيماً له.

وكتب لوالده مرة: إني تشرفت في هذه الأيام بإلهامات غريبة، ومخاطبات

عجيبة، فقيل لي: أنت من أوليائي، وأنت من عبادي الصالحين، وأنت من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ورأيت يوماً أن وصولي إلى جناب قدسه تبارك وتعالى بلا واسطة أحد، وإذا بصورتكم المباركة قد ظهرت بيننا، ووجدت نفسي قد اتحدت بجنابكم، فهنالك ظهر تنزل الحق سبحانه بلا كيف، بتجلي الخير والبركة العظيمة، فأرجو التصديق على هذا من حضرتكم، فكتب إليه قدس الله سرهما: إني سررت بكتابكم، وقد بلغت ترقياتكم إلى مرتبة مشاركتي في المعاملات، فما الحاجة إلى التصديق على كشفكم، ومع ذلك فتصديق في تصديق.

ثم كتب له أيضاً بعض كلام في الحقائق الإلهية أُلقي إليه، فأجابه رضي الله عنهما بأن هذه المعارف التي تصدر عنكم مخصوصة بالإمام الرباني، وهي أسرار المقطعات القرآنية قد أتحفكم الله تعالى بها من محض فضله، وقد شرفني رسول الله ﷺ بخلعة مرصعة وتاج مكلل، هي خلعة قطبية الإرشاد القيومية، فالحمد لله! أبشركم بأنكم أعطيتم تلك القطبية والقيومية، فبارك الله لكم فيما أعطاكم.

وبالجملة فقد كان حجة الله البالغة على خلقه.

ومن أشهر خلفائه: قطب الإرشاد والخير، حفيده شمس الدين أبو البركات الشيخ محمد الزبير نجل الشيخ أبي العلاء شبل الشيخ حجة الله قدس سرهم.

ولد عام ثلاث وتسعين وألف، وكان في صباه قوي الاستغراق، بحيث كانت تغلب عليه الغيبة أثناء تحصيل العلم.

حفظ القرآن، وقرأ جميع العلوم، وسلك عند جده، فصار بأقرب آن من الأولياء الكاملين، وهو خاتمة المشايخ من أولاد الإمام الرباني، أيد الله به هذه الطريقة العلية، وهدى ببركته السالكين إلى مقامات القرب والكمال، وكانت استقامته على العبادة واتباع السُنّة السنية فوق طاقة البشر.

والتمس منه أحد طالبي الحق سبحانه أن يتوجه إليه بتمام النسبة المجددية، فقال له رضي الله عنه: إن ذلك عظيم الثقل مما يعجز البشر عن تحمله فليس بممكن، فألح الطالب عليه، فتوجه إليه، وألقى جميع النسبة عليه، فلم يقدر على تحملها، ولحق بالله عز وجل. واحتضر أحد أصحابه، وكان ذا عيال كثيرين، وصبية صغار، فلما عاده غلبت عليه الرحمة، فأخذ المحتضر إلى صدره، فشفي وعاش سنين، ثم توفي يوم وفاة الشيخ، لأنه كان قيم حياته، وذلك سنة اثنين وخمسين ومائة وألف قدس الله سره.

والثالث من أنجال الإمام المعصوم قدس الله سره: تاج هام الأولياء الكاملين، وعِقْد جيد العلماء العاملين، سيدنا الشيخ مروج الشريعة عبيد الله محمد قدس الله سره.

ولد سنة سبع وثلاثين وألف، وألهم حضرة والده حين ولادته هذه الآية: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ [مريم: ١٥].

وكان في العلم والعمل والتقوى والورع عديم النظير، ونال ببركة حضرة والده أسنى مقامات الوصول والقرب الإلهي، حتى صار قطب وقته، واستفاد من فيوضات إمداده خلق كثير.

وكان والده العزيز يحبه جداً، ويقول له: إنك تسير معي كهاتين، ويشير إلى السبابة والوسطى، عروجك ونزولك معي سواء. وبشره أيضاً بالأصالة.

وبلغ من التواضع والوقار والتمكين الغاية القصوى، ولم ينقل أنه قابل أحداً بمكروه.

وجاءه مجذوم يسأله الدعاء له بالشفاء، فسقاه ماء وضوئه، فشفي في الحال.

وتعرض لأحد أحبابه ثعبان عظيم فاستغاث به، فرآه قد حضر عنده وقتل ذلك الثعبان.

وكانت الطلبة تزدحم على حضور حلقة درسه صباحاً ومساء، بحيث

لا يبقى في حضرته مع اتساعها محل للجلوس أصلاً.

توفي عام ثلاث وتسعين وألف قدس الله سره.

الرابع: مظهر العلوم والمعارف الربانية ومفخر الأولياء المعصومية: الشيخ محمد شرف قدس الله سره.

ولد سنة ثمان وأربعين وألف، وحصل العلوم بأسرها، من معقول ومنقول، وفروع وأصول، حتى صار مفرد زمانه، وأوحد أقرانه، صنف الحواشي المفيدة على الكتب المتداولة في أكثر الفنون.

ولما أتم تضلعه في كافة الفضائل قال له والده العزيز: يا ولدي! إنه بقي من عمري سنتان، والفرصة قليلة، فهلم أتوجه إليك توجهاً واحداً، يفوق بعناية الله تعالى وبركة المجدد على توجهات سنين، فتوجه إليه وألقى نسبة الولايات الثلاثة، والحقائق السبعة عليه، فتلقى تلك الأحوال والأسرار بقلب ثابت، وقدم راسخ، وذلك أعظم دليل على قوة تصرف والده العزيز، حيث رقاه من تجليات الأفعال والصفات والشؤون، إلى تجليات الذات بتوجه والتفات واحد، وعلى كمال استعداد ولده الجليل لقبول هذه التجليات، التي تدك لها الجبال الرواسي، فاشتغل بهداية السالكين مع كمال الاستقامة على طريقة آبائه من الورع والتقوى، حتى أصبح مرجع الطالبين، ومؤمل المسترشدين، وملجأ اللائذين.

سأله مريض شديد المرض أن يدعو له بالشفاء، فقرأ عليه شيئاً، فعاد كأنما نشط من عقال.

توفي سنة سبع عشرة ومائة وألف، قدس الله سره، وكان آخر كلامه: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والخامس: نتيجة أولياء العلماء، وفذلكة علماء الأولياء، بركة هذا الطريق: الشيخ محمد صديق قدس الله سره.

ولد عام سبع وخمسين وألف، وبرع في تحصيل علمي الظاهر والباطن من

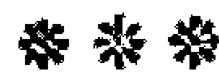
حضرة والده، وخصه الله بالترقي إلى جميع المقامات العالية، وحج البيت الحرام، وفاز بعناية إلهية، وتفضلات نبوية، وحصل له قبول عظيم في تلك الأماكن المطهرة، فأقام مقامه ثَمَّ خلفاء لإرشاد العباد، من أشهرهم:

العارف النبوي السيد عبد الله باحسين العلوي، شيخ الإمام الكبير المقام الشيخ محمد بن عقيلة صاحب المسلسلات الجليلة، قدس سرهما.

ثم انقلب إلى أهله مسروراً، ثم بنى رباطاً في مدينة دهلى، وتصدر لهداية العالمين، فقصده الأمراء والفقراء، وازدحم على بابه العلماء والشرفاء، حتى دخل سلطان الهند قزح سير في طريقه، وكان ذا علم وحلم، وتواضع، وأخلاق حسنة، وبذل تام، وله كرامات كثيرة شهيرة.

توفي عام ثلاثين ومائة وألف في دهلى، ونقل إلى سهرند، فكان يسمع عند الأذان من نعشه إجابة المؤذن قدس الله سره.

والسادس شيخ هذه السلسلة الطاهرة، وأولى من سرى إليه سرّ هذه النسبة الباهرة: سيدنا الشيخ محمد سيف الدين الفاروقي المجددي قدس الله سره.



حضرة سيدنا الشيخ محمد سيف الدين
الفاروقي المجددي قدس الله سره

الكريم ابن الكريم، محيي الطريق القويم، والصراط المستقيم، بعزيمة عظيمة عمرية، وهمة أحمدية مجددية، الإمام الجليل، والسيف الرباني الصقيل.

ولد سنة خمس وخمسين وألف في سهرند، وتربى هذا العصام في حجر والده المعصوم، وتغذى بألبان تلك المعارف والعلوم، حتى أربى الفرع على الأصل في الفضل، وتأهل لتربية أبناء العصر، ونعم الأهل، وأنجب حال صباه، فلا عجب إذا فاق أباه، فقد استمسك بالعروة الوثقى، ورقى على معراجها الأرقى، وفي حياة أبيه النبيه، جلس على عرش الهداية وتربع، واقتفى أثر سلفه الصالح وتتبع، فشاد أركان الإرشاد، وألقى إليه العباد مقاليد الانقياد، فأصبحت أعتاب بابه محط رحال الوافدين، وموارد إرشاده سائغة للواردين، وصار في سماء كواكب العارفين بدراً، وفي دولة العلماء بالله صدراً، إلى حل رموز عرفانية، وفتح كنوز ربانية، ونشر عَلَمَي عِلْمي الباطن والظاهر، وحشر فضائل الأوائل والأواخر، وحلو أخلاق، وعلو أذواق، تشهد بكمال وراثته، وأنه ثالث ثلاثته.

وقدم بأمر والده العزيز، بل بأمر الله تعالى إلى مدينة دهلى، لترويج الشريعة الغراء، ونشر أنوار الطريقة الزهراء، فتلمذ له السلطان محمد عالمكير بإرادة صادقة، واعتقاد صحيح، وانتظم الوزراء والأمراء العظام في سلك خدمه، وطفق يحيي السنة المطهرة، ويؤيد الشريعة المقررة، وينصر أعلام الإسلام، ويمحو آثار الظلم والعدوان، وببركة صحبته وفق الله تعالى السلطان المشار إليه، إلى تنفيذ ما دأب الشيخ عليه من صون المحارم، ودفع الظالم عن المظالم، وصلح حاله كل الصلاح، فحفظ الكتاب المجيد في سن الشيخوخة،

ولازم إحياء الليالي، والاشتغال بالطريقة العلية، فغلبت عليه نسبة لطيفة الأخفى، واطلع على أن مبدأ تعينه صفة العلم، فكتب الشيخ إلى والده العزيز أحوال السلطان، ففرح بذلك فرحاً عظيماً، وصدق بنظره الكشفي على ذلك وسلمه.

وكان قدس الله سرّه: يبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة عظيمة، بحيث ما نقل عن أحد من المشايخ الغابرة مثلها، حتى لقبه والده رضي الله عنه بمحتسب الأمة، فإنه كان لا يسمع بمنكر في الهند كلها إلا أزاله، وما صبر لحظة واحدة عليه، فعظم جاهه وفحل أمره، وكبر شأنه وشرف قدره، وبلغ من سمو مقامه أن السلاطين والأمراء كانوا لا يجلسون في مجلسه، بل يقفون بين يديه بالأدب التام. —

وله كرامات وافرة، وخوارق باهرة، منها: أن رجلاً من الواقفين لديه خطر بباله أن الشيخ متكبر، فالتفت إليه، وقد كوشف بخاطره، فقال له: تكبري من كبرياء الحق تعالى.

ومنها: أنه أنكر عليه ذلك منكر آخر، فرأى في منامه أن جماعة العسس أخذوه، وجعلوا يضربونه ضرباً أليماً، ويقولون له: أنت تنكر على حضرة الشيخ، وهو محبوب الحق سبحانه، فاستيقظ من شدة الضرب وتاب، وانغمر في جماعة الشيخ.

ومنها: أنه كان يسكن في رباطه ألف وأربعمائة سالك، فيغذى كل واحد منهم على وفق رغبته.

ومنها: أنه سمع مرة من بيت جاره صوت مزمار، فتأثر تأثراً تاماً، حتى خرّ مغشياً عليه، ورضخت يده رضخة شديدة، فلما أفاق قال: يزعمون أني خال من العشق، بل هؤلاء ليسوا بعاشقين، حيث يصبرون على السماع.

ومنها: أن مجذوماً طلب منه الدعاء بالشفاء، فنفث عليه، فشفي لوقته.

توفي سنة خمس وتسعين وألف، ودفن في بلدة سهرند، نوّر الله مرقده.

وله خلفاء حنفاء: ملؤوا البلاد إرشاداً، والعباد إمداداً، من أشهرهم: المرشد الكامل سيدنا شاه عباس قدس سره. والإمام الجليل الشيخ صدر الدين الصوفي قدس سره. والعارف بالله الشيخ أبو القاسم قدس سره. وبدر فلك الإمداد سيدنا الشاه عيسى قدس سره.

ومن أعظمهم، وأكرمهم شيخ هذه السلسلة المنوّرة، وأكمل من سرى إليه سر هذه النسبة المطهرة: سيدنا الشيخ السيد نور محمد البداوني قدس سره.

* * *

سيدنا الشيخ السيد نور محمد البداوني

قدس الله سره

سيد ملأ الملأ الأعلى نوراً، وذكراً حميداً مأثوراً، والعالم الأدنى عملاً مبروراً، وسعياً مشكوراً، حيث أفرغ على السرائر الحائرة سروراً، والقلوب الغافلة حضوراً، فأصبح مظهر كل فضيلة جليلة، ووسيلة إلى الله تعالى ونعم الوسيلة، تحنّ أرواح السالكين لتوجهه الأقدس، وتحنو على استنشاق نفسه الرحماني الأنفس، أظهر الله الشريعة والحقيقة في أيامه ظهور البدر ليلة تمامه، فكم أحيا من سُنَّة درست، وقطع من بدعة غرست.

ولد قدس سره سنة(. . . . .)، وربى في مهد أشرف مهدي، سيدنا السيف الصقيل الهندي، ناهلاً من مناهل فيضه النقشبندي، فشب على ما تربى، ونال ببركته أعلى المقامات قرباً، وافتخر به فريق الطريق شرقاً وغرباً، فانظر كيف سلم نفسه للسيف، لينال شهادة السعادة، وسعادة الشهادة، ويحيا الحياة الأبدية «من قتلته فأنا ديته» فأدركته العناية الأزلية، فأصبح في البلاد الهندية سراجاً وهاجاً، تقصده الناس أفواجاً، رجاء اقتباس أنواره، والفوز بأسرار بركته، وبركة أسراره، جلس من بعد سيده، خير مؤيد لطريق إرشاده ومرشده، وجدد ذكره الجميل وخلد، ولا غرو فهو نور محمد:

همام إذا ما فارق الغمد سيفه وعاينته لم تدر أيهما النصل

وإذ كان فرع الشجرة النبويّة الزاهرة، وطراز عصابة آل البيت الطاهرة، فلا عجب أن أمسى بابه قبلة للأولياء، وأعتابه رحلة للأتقياء، وأنظاره جلاء قلوب الراغبين، ووجوده مظهر تجليات حضرة الغنى عن العالمين.

توفي قدس الله سره سنة خمس وثلاثين ومائة وألف.

وكان قدس الله سره كامل الورع والتقوى، ملازماً لمطالعة كتب السير

والشمائل، والأخلاق النبوية، متأسياً بها، أدخل مرة رجله اليمنى إلى بيت الخلاء قبل اليسرى، فانقبض ثلاثة أيام من مخالفته للسنة، فجعل يتضرع ويلتجيء إلى الله تعالى، حتى بدل قبضه بسطاً، وغلب عليه في أواسط أمره الاستغراق خمسة عشر سنة، فكان لا يفيق إلا وقت الصلاة، ثم يغيب، وكان يحتاط أشد الاحتياط في أكل الحلال، حتى أنه كان يخبز بيده الشريفة أقراصاً، ويأكل عند شدة الجوع منها كسرات، ويشتغل بالمراقبة، فإذا فرغت خبز غيرها، وعاد للمراقبة، ولكثرة مراقبته تقوّس ظهره.

وقد لازم خدمة الشيخ سيف الدين عدة سنين، ثم خدم الشيخ محمد محسن الحافظ نجل علامة زمانه المحدث الكبير الشيخ عبد الحق ـ وكان الحافظ من أجل خلفاء الإمام المعصوم ـ أعواماً عديدة، حتى بلغ في الولاية أعلى درجات الكمال.

وكان يقول: منذ ثلاثين سنة لم يخطر ببالي شيء من أمر الأغذية، بل آكل وقت الحاجة ما تيسر. وكان لا يتناول من طعام الأغنياء، ويقول: إنه لا يخلو من ظلمة. وكان إذا استعار كتاباً من غني لا يطالع فيه إلا بعد ثلاثة أيام، ويقول: إن ظلمة الأغنياء قد تلبست بغلافه ودفته. وورد عنه كلمات قدسية، تثبت جلالة رتبته العلية.

وظهر على يده المباركة كرامات جلت في بابها عن المشاركة.

منها: ما نقل عن أجل أصحابه سيدنا حبيب الله المظهر ـ قدس سره ـ أنه كان إذا ذكره يبكي، ويقول لأصحابه: يا حسرة عليكم! أنتم ما رأيتم حضرة السيد ـ قدس سره ـ لو أدركتموه لجددتم إيمانكم بكمال قدرة الله تعالى، حيث خلق مثل هذا العزيز.

وكان يقول عنه أيضاً: إن كشف حضرة السيد كان على غاية من الصحة، يدرك بالبصيرة ما لا يدركه غيره بالبصر، فإنه وقع بصري في الطريق على امرأة أجنبية، فلما وقفت بين يديه قال: إني أجد منك ظلمة الزنا، ولقيت شارب خمر يوماً، فلما جئته قال: إني أجد منك رائحة الخمر.

ومنها: أنه أتته امرأة يوماً، فقالت يا سيدي: إن الجنّ قد اختطفت ابنتي، وقد عملت لردها أعمالاً كثيرة، فما نفعت فأغنني، ففكر ساعة، ثم قال: تجيء ابنتك في الوقت الفلاني، فجاءت في ذلك الوقت، فسألوا البنت عن كيفية مجيئها، فقالت: كنت في الصحراء، فإذا أنا بشيخ أخذ بيدي، وأوصلني إلى هنا.

وتكمل عنده فئة عظيمة، هم من كيد النفس، وقيد الهوى أتم تميمة. من أكملهم شيخ هذه السلسلة المبجلة، وأولى من سرى إليه سر هذه النسبة المفضلة: الشيخ شمس الدين حبيب الله جان جانان المظهر قدس الله سره.

* * *

سيدنا الشيخ شمس الدين

حبيب الله جان جانان مظهر

قدس الله سره

كان شمس السعادة الأبدية، وحبيب الله جل جلاله ونجيه، رُوح أرواح أهل اليقين، وروح أدواح الذائقين، وكعبة آمال المقربين، وعلماً من أعلام النبوّة، إذ أظهر في إعلاء الدين المحمدي، وإحياء الطريق النقشبندي المجددي، غاية العناية والقوة، فأعلى الله أعلامه، وشرف في الدارين مقامه.

ولد ـ قدس الله سره ـ عام ثلاثة عشر ومائة وألف، فهبت عليه نسائم جذبة من جذبات الحق، فوصلته بمراحم صفوة أشرف الخلق، السند المؤيد، السيد نور محمد، ففتح عيون بصيرته، ببركة أنوار سريرته، وسقاه من سر العلوم المكتوم، كأس الرحيق المختوم، فأخذه عن نفسه، وسرى به من الأنفس إلى الآفاق، فما لبث أن صعق ثم أفاق، فعرج به على معراج قدسه، وأظهره من عالم الغيب على أسراره، وأتحفه بكرامات مقاماته في طور أطواره، ثم ردّه، فلم يجد غيره، فرجع من حيرة إلى جهالة ومن جهالة إلى حيرة، فلم يزل يلحظه بأنوار تربيته، ويحفظه بأنظار تصفيته، ويتدلى به إلى مراتب الرجال، حتى بلغ الغاية في الكمال، وخلص من المحو إلى الصحو، ومن الوصل إلى الفصل، هنالك أذن له بإرشاد العباد إلى سبيل الرشاد، والصراط السوي، والطريق القويم القوي، وأوصى له خلافه بالخلافة، فنهض بأثقالها من بعده، وأشرقت شمس الهداية في برج سعده.

ثم اتصل بأعتاب كل من الأولياء الكاملين، سيدنا الشيخ محمد أفضل، ثم سيدنا الشيخ حافظ سعدالله، ثم سيدنا الشيخ محمد عابد السنامي رضوان الله عليهم أجمعين، فازداد كماله، وتمت آماله، فتموج من بعدهم بالعرفان بحراً،

وظهر في سماء القطبية كالشمس ظهراً، وقصد بالرحلة من كل مكان، وازدحمت على أعتابه الركبان، فوسع الجميع حرم رحمته، وشملتهم بركة همته، وهمة بركته، وأصبحت به الديار الهندية بيتاً معموراً، تطوف به ملائكة الأرواح آصلاً وبكوراً.

مفصل المجمل: كان قدس الله سره منذ ولد تتلألأ أنوار الهداية، وآثار النجابة في ناصيته، وقد جبل على العشق للجمال، والشغف التام به، والمحبة له، كان في حجر مرضعته، وهو ابن ستة أشهر، فأخذته امرأة جميلة إلى حجرها، فعشقها فكان إذا فارقها بكى، واشتهر في الناس تعشقه للمظاهر الجميلة، وهو ابن خمس سنين، فلما بلغ تسع سنين رأى سيدنا إبراهيم الخليل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ فشرفه بأنواع الكرامات، وكان وهو في هذا السن، كلما ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحضر صورته، ويراه بعينه، وكذلك يرى الإمام الرباني، فاعتنى والده بتربيته، وبالغ بتعليمه فنون العلوم وعلوم الفنون، فما بلغ في السن ثمانية عشر سنة إلا وفاق وبرع في كل فن، فجذبه الحق تعالى إلى خدمة حضرة السيد نور محمد قدس الله سره، فتلقى عنه الطريقة العلية النقشبندية، وبتوجه واحد جرت لطائفه الخمسة، فلازم خدمته مع كمال الصدق، والاشتغال بالرياضات الشاقة، والخلوة في الصحاری والبراري، والاقتصار على التغذي بورق الأشجار، والاكتفاء من اللباس على ساتر العورة مدة أربع سنين، ونظر يوماً في المرآة فرأى صورة شيخه بدل صورته.

ثم لما توفي حضرة السيد قدس سره جعل يختلف إلى قبره الأنور، ويستفيد منه، ويستفيض مدة سنتين، ثم أذن له بالروحانية أن يرجع إلى مرشد حي، فرجع إلى المرشد الكامل، والولي الواصل: سعد الله المعروف بشاه كلشن، وقطب الإرشاد الشيخ محمد الزبير، فاعتذر له بعدم إحالة تربيته لهما، فحضر عند حضرة العارف الكامل الشيخ محمد أفضل أحد خلفاء سيدنا حجة الله نجل الإمام المعصوم، ومن خواص الإمام الكبير الشيخ عبد الأحد

المعروف بدليل الرحمن نجل الشيخ محمد سعيد خازن الرحمة قدس الله سرهم، فقرأ عليه كتب الحديث النبوي، فكان في أثناء الدرس يحصل له تمام الاستغراق في النسبة المحمدية، ويشاهد كمال الالتفات من حضرته النبوية، ببركة صحبة الشيخ وحضوره، فصار له شيخ الحديث والصحبة، حيث فاز منه بفوائد جمة في الظاهر والباطن.

فلما تمّ له في خدمة هؤلاء المشايخ الكرام عشرون سنة، صحب حضرة المربي الأوحد الشيخ حافظ سعد الله، وهو من كمل خلفاء سيدنا الشيخ محمد صديق، فلازمه اثنا عشر عاماً، وحصل له قوّة عظيمة في عرض النسبة، واتساع الباطن، ولم يتوجه له في هذه المدة إلا توجهاً واحداً لكبر سنه وضعفه، فقد كان عمره وقتئذٍ نيفاً وثمانين سنة، ثم صحب شيخ الشيوخ حضرة الشيخ محمد عابد السنامي الصديقي أجل خلفاء الشيخ عبد الأحد المومى إليه قدس سره، وأتم السلوك الأحمدي على يده، وهذا العزيز تتصل سلسلته بسيدنا الشيخ محمد سعيد خازن الرحمة أحد أنجال المجدد المار ذكره قدس سره، فلذلك صار حضرة المظهر جامعاً لفيض الطريقين المعصومي، والسعيدي، فكان يكتب في سلسلة النقشبندية اسم حضرة سيد نور محمد، ومشايخه المعصومية، وفي السلاسل الأخر القادرية، والسهروردية، والچشتية اسم الشيخ محمد عابد المشار إليه، ومشايخه السعيدية.

وكان يقول: حصلت الولايات الثلاثة، وكيفياتها، وعلومها، وإراداتها من حضرة السيد نور محمد.

ونلت الكمالات الثلاثة، والحقائق السبعة، وغيرها من حضرة الشيخ محمد عابد في مدة سبع سنين، ثم رقاني سنة كاملة من أولها إلى آخرها بالسير المرادي، فصارت لي قوّة عجيبة في حالات كل مقام، وشرفني بخلافة الطريقة القادرية، والچشتية، والسهروردية، وخصني بضمانته، ورقاني من الولاية الإبراهيمية إلى الولاية الخاصة المحمدية، فرأيت حالتئذٍ رسول الله ﷺ تلقائي،

ثم رأيته جالساً في محلي، وأنا في مجلسه، ثم رأيته في المحلين، ثم رأيت نفسي جالساً في المحلين.

وقال رضي الله عنه: كنت مرة عند حضرة الشيخ محمد عابد قدس سره، فقال: إن الشمسين تقابلتا كمالاً بحيث لا تتميزان من كثرة أنوارهما، ولو التفتتا إلى تربية الطالبين، لأنارتا العالمين.

وقبّل مرة ركبتي من فرط تواضعه، وقال لي: ليس في أصحابي مثلك، ولكثرة حبك لله ورسوله تنال الطريقة بتوجهك عزاً عظيماً، ولقبك عند الله شمس الدين حبيب الله، وأحال إليّ تربية بعض أصحابه، ووضع حضرة السيد نور محمد ـ قدس الله سره ـ مرة نعلي قدامي، وقال لي: أبشر بالقبول التام عند الله تعالى.

وكان الشيخ محمد أفضل قدس الله سره يقوم تعظيماً لي، ويقول: إني أعظم كمالات نسبتك.

وكان الشيخ حافظ سعد الله ـ قدس سره ـ يقول لي: أنت محل نظري.

وقال الشيخ العلامة وليّ الله المحدث الشهير قدس سره: الدنيا في نظري كالكف وليس في الدنيا الآن أحد مثل حضرة المظهر قدس سره.

ولما انتقل مشايخه الأربعة المشار إليهم، زيّن مسند الإرشاد بجلوسه المبارك، وروج الطريقة العلية بوجوده المسعود، فشدت إليه الرجال الرحال، وبقي في دست الهداية أكثر من ثلاثين سنة على أتم حال من الاستقامة على اتباع السنة السنية، وإحياء آثار الطريقة الأحمدية، والزهد والورع، وعدم الركون إلى الدنيا وأهلها، وكان يختار الفقر على الغنى، ويحب الكفاف لنفسه ولأصحابه، ويدعو الله لهم بذلك، ولم يقبل من غني شيئاً من الدنيا، بل كان يأخذ أحياناً من خلص مريديه.

وكان قدس الله سره دائم الخمول والعزلة، ما بنى رباطاً قط، ولا بيتاً أبداً مع شدة إلحاح أغنياء وقته عليه، وكان له محبة عظيمة في المشايخ، لا سيما

الإمام الرباني، وكثيراً ما كان يقول: ما وجدت شيئاً إلا بمحبة المشايخ.

وقال قدس الله سره: اختيار الطريقة لغلبة حب الحق تعالى، وقد يوهب المريد ذلك بمحض فضله سبحانه، وإلا فدوام الذكر بشرائطه فرض، ولا تنفتح عين القلب إلا بكثرة الذكر، فإن ورد حال أو استغراق خلال الذكر، وجبت المحافظة عليها، فإذا ذهبت يشرع في الذكر مع التضرع التام، ويلازم ذلك مدة، حتى يحصل له دوام الاستغراق، وهو المطلوب.

وقال قدس الله سره: حاصل هذه التكلفات كلها تهذيب الأخلاق على وفق مكارم أخلاقه ﷺ إذ قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وقال: العمل بالعزيمة في هذا الزمان صعب جداً لفساد المعاملات، وعدم إمكان تطبيقها على قواعد الشريعة، فالأخذ بظاهر الفتوى مع اجتناب البدعة غنيمة عظيمة.

وله ـ نفعنا الله به ـ كرامات عظيمة، وتصرفات جسيمة، وكشوفات صحيحة عن الأمور الكونية، وأحوال أهل القبور، والحقائق الإلهية مما لا يمكن حصره، وقد جمعها سيدنا العارف بالله تعالى الشيخ عبد الله الدهلوي ـ رئيس خلفائه العظام قدس الله سره ـ في كتاب مخصوص، رأيته وطالعته، وهو في اللغة الفارسية.

فمن كراماته العالية: أنه سافر مرة مع نفر من أصحابه بغير زاد ولا راحلة، فكانوا إذا نزلوا منزلاً تأتيهم الموائد من الغيب، فأمطرت السماء يوماً مطراً شديداً، وهبت ريح عاصفة، فاشتد عليهم البرد، فتأذوا منه، فقال قدس الله سره: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجلى عنهم السحاب، وجعل يمطر حواليهم ببركة دعائه.

---

(١) حديث «بعثت لأتمم»: أخرجه أحمد (٢/٣٩٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وابن سعد في «الطبقات» (١/١٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٦١٣)، وهو حديث صحيح.

وكان له جار يحبه، فاحتضر، فغلبته الشفقة، فقال قدس الله سره: يا رب لا طاقة لي على فراقه فاشفه شفاء عاجلاً، فكأنما نشط في الحال من عقال.

وكان في جواره رجل يبيع الأفيون في دكان له، فقال يوماً لأصحابه: قد كدرت ظلمة الأفيون صفائي، فتبادر أصحابه إلى تلك الدكان، فهدموها بعنف، فلما بلغه قال: الآن زاد تكدري بسبب هذا الاحتساب إذ من أجلنا جرى هذا الأمر المخالف للشرع، فإنه كان الأولى بحقنا أن ندعوه برفق للتوبة من هذا العمل، فإن أبى نمنعه بشدة، ثم أمرهم بإحضاره إلى حضرته، فبعد فحص طويل أحضر، فأظهر له تمام اللطف، واعتذر إليه مما فرط من أصحابه، وطلب منه العفو عن تلك الجراءة، وأنعم عليه، فلما رأى الرجل منه ذلك تاب إلى الله في الحال، وصار من مخلصي جنابه.

وقال قدس الله سره: زرت مرة سيدي الشيخ الحافظ محمد محسن قدس الله سره، فحصلت لي غيبة، فرأيت جسده المبارك بحاله، وأكفانه كلها صحيحة، لم يؤثر التراب فيها، إلا بطرف من جهة أسفل قدميه، فسألته عن ذلك فقال: كنت أتيت بحجر من غير إذن صاحبه، ووضعته مكان الوضوء ناوياً أنه متى جاء صاحبه أعيده إليه، فوضعت قدمي عند الوضوء عليه، فأثر التراب من شؤم هذا العمل في قدمي كما ترى، قال: والحق أنه بقدر ما تترقى القدم في التقوى تترقى في الولاية.

وغضب مرة من رجل فقال قدس الله سره: إني رأيت كل المشايخ إلى حضرة الصديق الأكبر رضي الله عنه قد أعرضوا عنه، فمات الرجل ثالث يوم من غضبه.

وجاءه أحد أصحابه فقال: يا سيدي! قد حبس أخي في البلدة الفلانية، فادع الله في خلاصه، فقال قدس الله سره: أخوك ما هو محبوس، وإنما صدر منه مخاصمة، وخُلِّي عنه، وقد كتب إليك كتاباً يصل إليك، فكان كما أخبر بلا تفاوت.

ورأى شخص في منامه ميتاً له يعذب في قبره، فسأله أن يدعو له بالمغفرة، فدعا له، وبشره بأن الله تعالى قد غفر له، فرأى الميت في منامه، فقال له: إني نجوت من عذاب الله تعالى بدعاء حضرة المظهر قدس الله سره.

وكان كثيراً ما يبشر أصحابه ببشائر عالية، فأنكر بعض القاصرين ذلك، فكوشف بإنكارهم، فقال لهم: إن لم تصدقوني، فاختاروا حكماً من الأولياء المتقدمين، فيحضر ويصدّقني، فقالوا: الحكم الأعظم هو رسول الله ﷺ، فقال: مرحباً، فتوجهوا، ثم قرأ الفاتحة، وراقب هو والمنكرون، فرأوا في المراقبة رسول الله ﷺ، وهو يقول لهم: بشائر المظهر صحيحة، وزجر المنكرين عليه.

وقال سيدنا الشيخ محمد أفضل قدس الله سره: أُعطي حضرة المظهر مقام القطبية، فهو في هذا الوقت مدار الطريقة العلية.

ومن مكتوباته العرفانية ما معربه: سئل قدس الله سره عن قول بعض الأكابر: إذا لم ير الصوفي نفسه أقبح من كافر الإفرنج، فهو أقبح من كافر الإفرنج، فكيف يستقيم معنى هذا الكلام مع أن الصوفي لا يكون إلا مؤمناً، أو عالماً متقياً مدركاً حال صحوه وإفاقته لأوصافه وأخلاقه، ومناط تفضيل فرد على آخر من أفراد النوع الواحد إنما هو هذه الأوصاف والأخلاق، لا ذات الشخص وحقيقته، فالصوفي مع علمه باتصاف الكافر بالكفر والمعاصي، واتصافه هو بالإيمان وغيره من الفضائل، كيف يمكنه أن يرى نفسه أقبح ولو تكلف ذلك لزم عليه أن يعتقد أن تلك الفضائل أقبح من تلك الرذائل، وهذا الاعتقاد بديهي الفساد شرعاً وعقلاً؟

فقال قدس الله سره: يا سيدي! إن مذهب ساداتنا المجددية، أن حقائق الممكنات مركبة من أعدام إضافية، وظلال صفات حقيقية، يعني: أن هذه الاعدام بمقتضى تقابلها مع الأسماء والصفات حصل لها ثبوت في العلم الإلهي، وصارت الأنوار مرايا الأسماء والصفات، ومبادىء تعينات العالم، والذي في الخارج هو ظل لها، أعني: ظلاً خارجاً حقيقياً موجوداً بوجود ظلي

بصنع الله تعالى، فبناء على تركبها من العدم والوجود صارت مصدر آثار الخير والشر، فمن جهة العدم الذاتي كسب الشر، ومن جهة الوجود الظلي كسب الخير، ولا يخفى أن الإنسان إذا نظر إلى مرآة مملوءة من أنوار الشمس، فمن أوّل وهلة يقع بصره على أنوار الشمس لا على المرآة، لاختفائها واستتارها في الأنوار، وإذا نظرت هذه المرآة إلى نفسها ترى من أول نظرة تعينها المرآتي لا الأنوار، لأن نظرها لم يتعلق بالظاهر فيها، فالصوفي إذا وقع بصره على ظاهر الأشياء الشريفة والخسيسة، إنما يرى جهة الوجود الظاهر فيها الذي هو مصدر الخير، وإذا نظر إلى نفسه يقع بصره على جهة العدم الذاتي له الذي هو منشأ الشر، ويراها عارية عن الخير والكمال مطلقاً، وأن الخير والكمال مستعار ومكتسب من جهة الوجود، لا من نفسه، فلا جرم يتحقق أن نفسه أقبح من كافر الإفرنج ومن كل خسيس.

فعلم من هذا أن مقصود القائل بذلك القول: أن الصوفي الكامل هو الذي لا ينسب الخير والكمال لنفسه أصلاً، ويعلم أنه مستعار، وهذا هو معنى الفناء التام، وحاصل الشهود الصحيح، وان نظر الصوفي إلى جهة الوجود، والأنوار المستعارة، وغاب عن نظره مرتبة عدمه الذاتي يتطاول في الدعوى، فيقول: أنا الشمس.

وهذا سر قول حسين بن منصور رحمه الله: أنا الحق، فإنه وإن كان معذوراً في ذلك نظراً لغلبة السكر عليه، بحيث لم يمكنه الفرق بين جهتي العدم والوجود، لكنه مخطيء في هذه الرؤية، وقد وقع في هذا المقام مثل هذه الأغلاط من كثير من السالكين، إلا من عصمه الله تعالى ببركة حبيبه ﷺ.

ومنها في الجمع بين كلامي المجدد رضي الله عنه في حقائق الممكنات، قال قدس الله سره: كتب لي أنه كشف لـسيدنا المجدد في حقائق الممكنات أن في مرتبة الواحدية التي هي عبارة عن تفصيل الكمالات الإلهية، ظهر في مقابلة كل صفة كمال ثبوت، وتميز عدمها الإضافي في خزانة العلم الإلهي، ففي مقابلة صفة العلم عدم العلم المعبر عنه بالجهل، وفي مقابلة صفة القدرة عدم

القدرة المعبر عنه بالعجز، وقس على هذا، فصارت هذه الأعدام المتميزة، بسبب هذه المحاذاة والمقابلة مجالي ومرايا أنوار تلك الصفات، ومبادىء تعينات العالم، وحقائق الممكنات، فهذه الأعدام بمنزلة المرايا لتلك الحقائق، وتلك العكوس والظلال بمنزلة الصور الحالة فيها، وبناء على هذا الامتزاج صارت أعيان الممكنات الخارجة التي هي على طبق تلك الحقائق مصدراً للآثار، وقابلة لكل من الوجود والعدم، وبهذا الوجه صارت مصدراً للخير والشر.

وانه كشف له أيضاً أن مبادىء تعينات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الصفات التي هي أصول الظلال المذكورة، وواجبة الوجود، فيلزم أن لا يكون للعدم دخل في حقائق حضرتهم، مع أنهم من الممكنات، وحقيقة الممكن كما حققه رضي الله عنه لا تكون بدون امتزاج بالعدم، فكيف وجه المطابقة؟

والجواب: يا سيدي! إنه حيث تقررت المقابلة والمحاذاة بين الأعدام المتميزة، ووجودات الصفات المقدسة في مرتبة العلم الإلهي كانت الأعدام مجالي الصفات، والصفات أيضاً مرايا تلك الأعدام، غير أن الأمر في هذا المقام بالعكس، فالصفات هنا بمنزلة المادة، والأعدام بمنزلة الصور الحالة فيها، فوقعت جهة العدم في هذه الصورة ضعيفة وجهة الوجود قوية، وبهذا الوجه كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومين، ولم يكونوا مصدر شر، وأما وجودهم الخارجي، فهو قابل لكل من العدم والوجود، وهذا القدر من دخل العدم في حقائق حضرتهم لأجل ثبوت الإمكان كاف والسلام.

تفصيل أحواله في وقت انتقاله

غلب عليه الشوق إلى الرفيق الأعلى قبل أيام من وفاته، وإظهار كمال الملل من توجه خاطره إلى أهل هذه الدار الفانية، وكثرة استغراقه كل لحظة في مشهوده تعالى، وزاد في العبادة على وظائفه المعتادة في تلك الأيام، وازدحام السالكون على أبوابه، يدخلون الطريقة أفواجاً، فكان يوجد في حضوره كل

وقت أكثر من مائة رجل، فعين للقاء الناس وقتين فقط، وقد بلغت أنواره وبركات توجهاته الشريفة تمام الترقي.

وطلب أحد أصحابه ملا نسيم الإذن منه بالسفر إلى وطنه، فقال له: لقاؤنا معكم بعد الآن غير معلوم، فأثرت هذه الإشارة إلى قرب انتقاله في القلوب، وأفاضت الدموع من العيون..

وكتب إلى أحد خلفائه الملا عبد الرزاق: إني تجاوزت الثمانين، وقد دنا الأجل، فتذكرني بخير الدعاء، وكذلك حرر لغيره من الأعزاء بما يفيد وقوع هذا الأمر المحتوم.

وقال ـ قدس الله سره ـ يوماً مظهراً لنعم الله تعالى الموجبة للشكر عليه: إنني لم يبق في قلبي أمر رجوت الحصول عليه إلا وقد نلته بتفضلات الله تعالى، شرفني بالإسلام الحقيقي، ووهبني حظاً وافراً من العلم والاستقامة على العمل الصالح، وكل ما يلزم في مشيخة الطريقة من التصرف، والكرامات، والكشف، إلا الشهادة الظاهرية التي لها في مقام القرب الإلهي درجة عالية، فإن أكثر مشايخي قد شربوا كأس الشهادة، وأما الفقير فإني كثير العجز والضعف، فلا قوّة لي على الجهاد، فحصول هذه المرتبة في الظاهر متعسر، والعجب ممن لا يحب الموت، الموت موجب للقاء الله تعالى، الموت سبب لزيارة فخر العالم ﷺ، الموت يوصل إلى مشاهدة الأولياء، الموت يجلب السرور بملاقاة الأعزاء، وإني لمشتاق لزيارة أرواح كبراء الدين الطيبة، ومتوقع كثيراً للتشرف بلقاء حضرة المصطفى، وخليل الرحمن عليهما الصلاة والسلام، وزيارة أمير المؤمنين الصديق الأكبر، والإمام حسن المجتبى، وسيد الطائفة الجنيد، وحضرة الشاه نقشبند، وحضرة المجدد رضي الله عنهم، فإن لقلبي محبة خاصة بخدمة هؤلاء الأكابر، ا. هـ.

فجلى الله تعالى له عروس هذا الرجاء على منصة الإجابة والاجراء، وبلغه درجة الشهادة، حتى جمع بين شهادة الظاهر وشهادة الباطن التي هي في اصطلاح الصوفية عبارة عن مرتبة الفناء بالله تعالى، وارتقى في درجات القرب

إلى أعلى عليين، وذلك انه بعد ما مضى قطع من ليلة الأربعاء سابع شهر محرم سنة خمس وتسعين ومائة وألف، صفق جماعة على باب حضرته، فأخبره الخادم بأن نفراً أتوا لزيارتكم، فأمره أن يدخلهم، فدخل ثلاثة أشخاص من المغل ـ أي المجوس ـ فقام من مضجعه، ووقف معهم، فقال له المغل: أنت مرزا جان جانان؟ قال: نعم! فقال له رفيقاه أيضاً: بلى! هو مرزا جان جانان، فأخرج خنجراً وطعنه به، فأصابت خاصرته قريب قلبه، فنظراً لكبر سنه وعجزه لم يتحمل ذلك، ووقع على التراب، فلما كان وقت الفجر أرسل له الحاكم نجف خان طبيباً افرنجياً، وأمره أن يقول له: إن مرتكب هذه الجناية العظيمة لم يعلم! ومتى تحقق يجري قصاصه، فرد الطبيب، وأرسل إليه: إنه إن قضى الله بشفاء هذه الجراحة تشفى على كل حال، فلا حاجة إلى طبيب آخر، وإن علم مرتكب هذا الأمر، فهو في حل مني، واعفوا عنه أنتم أيضاً، فبقي ثلاثة أيام وهو يزداد ضعفاً، حتى صار لا يسمع صوته.

ثم في صبح اليوم الثالث، وهو يوم الجمعة قال لي: إنه قد فاتني إحدى عشر صلاة، وجسدي كله مضرج بالدم، ولا أقدر أن أرفع رأسي، وقد قالوا: إذا عجز المريض عن أن يرفع رأسه لا يكلف لأداء الصلاة بالإيماء بطرفه وحاجبه، ويجوز له تأخيرها، فماذا تعلمون في هذه المسألة؟ فقلت له: الحكم كما ذكرتم، فلما انتصف النهار رفع يديه، وهو يقرأ الفاتحة، كما قرأها سيدنا شاه نقشبند في مثل هذا الوقت، فلما كان وقت العصر قال لي: كم بقي من النهار؟ فقلت: أربع ساعات، فقال: إذاً المغرب بعيد؟ فلما كان المغرب من ليلة عاشوراء تنفس الصعداء مرتين أو ثلاثاً، ثم لحق بالرفيق الأعلى رضي الله تعالى عنه، وجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء آمين.

وقد استخرج الأدباء لوفاته تواريخ كثيرة أحسنها تاريخان:

الأول: قوله تعالى: ﴿أولئك مع الذين أنعم الله﴾ [النساء: ٦٩].

سنة ١١٩٥ ٦٧ ١١٠ ٧٩١ ١٦١ ٦٦

والثاني: قوله ﷺ في حق أحد الصحابة رضي الله تعالى عنهم: «عاش حميداً مات شهيداً». ٣٧١

٦٢ ٤٤١ ٣٢٠

ورأى أحد السادات بعد انتقاله في منامه أن القرآن المجيد قد ارتفع نصفه إلى السماء، ووقع في الدين المتين فتور. قال سيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي قدس الله سره: فعبرتها بأنها مصدقة لقول الشيخ قدس الله سره: يتوقف العروج إلى مقامات الطريقة بعدنا، ومهما ترقى أهل هذا الطريق لا يصلون إلى مقام الولاية، فإنه بعد وفاته بستة عشر سنة رأيت مريدي خلفائه، وسمعت عن أحوال أصحاب هذه الطريقة الموجودين في البلاد البعيدة انهم يحسبون الوصول إلى أحوال وكيفيات الولاية القلبية غنيمة، والوصول إلى أحوال المقامات العالية بعيد جداً عن الإدراك، بل حتى يرون الوصول إلى الولاية القلبية متعسر. والله أعلم.

والحق أن وجوده المبارك كان آية من آيات الله تعالى، وعلى طبق اسمه الكريم، فإن جان جانان هو روح الأرواح أرشد الله ببركته ألوفاً، وتكمل منهم فئة عظيمة خمسون منهم وصلوا إلى نهاية المقامات الأحمدية، وأجلهم رشداً، وأسبقهم عهداً العلامة النحرير، والعارف الكبير، والولي الشهير:

الشيخ ثناء الله العثماني الباني پتي - قدس سره - فإنه كان بحراً في العلوم المعقولة والمنقولة، لا سيما في الأصول والفقه، فإنه بلغ درجة الاجتهاد فيه، وله التصانيف المفيدة في التفسير، والحديث، والفقه، والتصوّف.

أخذ الطريقة العلية من حضرة سيدنا الشيخ محمد العابد قدس سره، واشتغل عنده، حتى وصل إلى مقام الفناء القلبي، ثم بأمر من شيخه المشار إليه تشرف بخدمة حضرة الشيخ، واشتغل بالسلوك، فأتم مراتبه في خمسين توجهاً من الشيخ قدس سره، وفرغ من تحصيل علم الظاهر والباطن في ثمانية عشر سنة، فتصدر للهداية والإرشاد.

ولقبه حضرة الشيخ قدس سره: بعلم الهدى، وكان يقول عنه: نسبتي ونسبته في العلو سواء، وهو روح مجسم من الديانة، وهو مروج الشريعة، ومنور الطريقة، وملكي الصفة، والملائكة تعظمه، ولو سألني الله تعالى يوم القيامة: بأي تحفة أتيتني؟ لقلت له: بثناء الله الياني پتي، اهـ.

وهو من سلالة كبير الأولياء الشيخ جلال الچشتي، ونسبه متصل بأمير المؤمنين سيدنا عثمان رضي الله عنه، والپاني پتي - بباء فارسية، فألف، فنون معجمة، فياء تحتية فباء فارسية فتاء فوقية - نسبة إلى پاني پت بلدة من أعمال الهند.

وممن ذكر: العالم الإمام، والولي العلي المقام، السيد: مير مسلمان - قدس سره - فإنه مع كونه شريك حضرة الشيخ في تحصيل العلوم وخدمة المشايخ كلها، عكف على خدمته، وحصل فوائد جمة، وكان الشيخ قدس سره يحترمه، ويقول كثيراً في حقه: إن نظر ألطاف السادات الكبار كانت محدقة به.

وممن ذكر: المرشد الكبير، والعالم النحرير: الشيخ فضل الله أخو الشيخ ثناء الله المشار إليه، تلقى الطريقة عن حضرة الشيخ، بعد إتمام تحصيل العلوم الظاهرة، وصرف الهمة للسلوك على يده، حتى فاز بأعلى المقامات، وقد توفي قبل أخيه المشار إليه، فحزن عليه حزناً كبيراً، فأتاه في المنام، فقال له: يا أخي! لم هذا المقدار من الغم والألم؟ والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس: ٦٢] وما أكرمنا الله تعالى في هذه الدار من الراحة والنعم أجل من أن يحصى.

وممن ذكر: الشيخ الجليل، والمرشد الذي ليس له مثيل، مولانا: الشيخ أحمد الله نجل الشيخ ثناء الله المشار إليه.حصل العلوم جميعها على والده العزيز، وتشرف بتلقي الطريق العلية عن حضرة الشيخ قدس الله سره، وصار من أخصاء أصحابه، فنال ببركة أنظاره أعلى مقامات الوصول، حتى صدق عليه في الظاهر والباطن قول القائل: الولد سر أبيه.

وممن ذكر: أكرم المرشدين، وأعلم الأئمة العارفين: الشيخ محمد مراد ـ قدس سره ـ كان من أخص خدامه، فقد لازم أعتابه خمساً وثلاثين سنة، وقال الشيخ في حقه: ليس في أصحابي من يساويه في علو النسبة.

وممن ذكر: أخ المشار إليه الإمام الكبير، والواصل المنير: الشيخ عبد الرحمن ـ قدس سره ـ بلغ ببركة توجهات حضرة الشيخ أعظم الأحوال، وكان كثير الاستغراق، عظيم الهيبة، بحيث لا يراه أحد، إلا وعظمه وكرمه، وكان من الذين إذا رؤوا ذكر الله.

وممن ذكر: أقدم خلفائه، وأعظم أخصائه: العارف الكامل السيد الشيخ مير عليم الله الكنكوئي قدس سره، كان مع كماله في مقامات الوصول لا تسكن لوعته، ولا ترقأ دمعته.

وممن ذكر: زبدة العارفين، ونخبة العلماء العاملين: الشيخ مراد الله المعروف بغلام كاكي: كان له في العلم والعمل مقام كريم، وفي الإرشاد شأن عظيم، وكان من أجلاء خلفائه الذين نالوا بيمن تربيته نهاية المقامات في الطريق العالي، وبعد فوزه بالخلافة ذهب إلى بلاد نبكاله، فحصل له هنالك شهرة عظيمة، ونال به أهلها السعادة الأبدية.

وممن ذكر: عمدة الخلفاء القدماء، ونخبة كمل أصحابه العلماء: الشيخ محمد إحسان نجل الشيخ الحافظ محمد محسن من ذرية الشيخ عبد الحق قدس سرهم، كان يغلب عليه أيام صباه الجهل، والزيغ في العقيدة، والانحراف عن الطريق المستقيم، فرأى في المنام حضرة الشيخ يأكل حليباً وأرزاً، فأعطاه بقيته بيده المباركة، فلما أصبح أنعم الله عليه بالتوبة، وشرف الإرادة، وتلقى هذه الطريقة العلية عنه، فصار من الكاملين.

وممن ذكر: أخوه أكمل المرشدين، وأفضل الخلفاء المكملين: الشيخ غلام قدس سره، كان من أخص أصحابه، وزبدة أحبابه، وقد نال ببركته مقامات نسبة أولئك السادات، وله في الذكر شأن عظيم.

ومن ذكر: العلامة الهمام، أكبر المرشدين العظام: الإمام الكبير الشيخ محمد منير قدس سره، كان من أجل خلفائه، عكف على خدمته في الزاوية مع تمام الانقطاع سنين، حتى كان يصرف الليل كله بالمراقبة، وهو من أهل الكشف والوجدان، بلغ أعلى مقامات الولاية، واجتمع عليه كثير من الطالبين.

ومن أخذ عنه الطريقة، وصار من الكاملين سيدنا الشيخ عباد الله، من ذرية حضرة إمامنا الكبير شاه نقشبند قدس سره العزيز، وهذا العزيز المترجم من سلالة العارف الكبير الشيخ فريد كنج شكر عمدة الطريق الچشتي قدس سره، وقد توفي في حياة حضرة الشيخ، فحزن عليه حزناً شديداً لما له من المنزلة الزلفى عنده، وكان يقول في حقه: انه كان قوي النسبة، ولو اجتمع عليه القطب لاستفاد منه.

ومن ذكر: علامة أيامه، ومرشد أنامه: الشيخ قلندر نجش قدس سره، كان من خلص أصحابه، وزبدة خلفائه تلقى العلوم الظاهرة، والطريقة العلية عن حضرته، وأجاز له بعد بلوغه فيهما درجات الكمال تدريس العلوم، والإرشاد المطلق، وكان له مهارة تامة في علم الطب، فأصبح ببركة توجهات حضرة الشيخ طبيب الأرواح والأجسام، وكان حسن الصوت وترتيل القرآن المجيد، فلذلك كان يقدمه في التراويح للإمامة ويسرّ بقراءته، وكان يأتي كل عام لزيارة الشيخ مرة نظراً لبعد أوطانه، حتى توفي قدس سره.

ومن ذكر: العارف كل العارف: الشيخ مير نعيم الله قدس سره، صحب الشيخ محمد أفضل، وخدم خليفته الشيخ محمد أعظم قدس سرهما، ثم لازم خدمة الشيخ، حتى أتم سلوك المقامات الأحمدية، فأجازه قدس سره بالطريقة العلية، فجعل يشتغل بالإرشاد وتدريس العلوم، وكان عالماً أديباً مجوِّداً حسن الصوت، تلقى علم القراءة عن الشيخ عبد الغفور سند، وكان يؤم حضرة الشيخ في التراويح، فيحصل له من حسن قراءته حظ كثير، وقال له يوماً: كل قدم سرت به في طريق الحق، ورضاء الله تعالى إلينا، فقد وضعته على أعيننا، ولو

لم تأتوا من أوطانكم لما حصلت لحلقة المراقبة جمعية ولا بركة، توفي في حياة الشيخ قدس سرهما.

وممن ذكر: عظيم الخلفاء، وخليفة العظماء: الشيخ ثناء الله السبنهلي - بسين مهملة، فموحدة، فنون معجمة، فهاء، فلام - كان عالماً محدّثاً قارئاً، تلقى علم الحديث والقراءة عن حضرة شاه ولي الله المحدث، والطريقة العلية عن الشيخ موسى خان خليفة حضرة الشيخ قدس سره، ثم أمر بخدمة شيخه، فنال على يده أعلى الكمالات الباطنية، وأدرك نهاية مقامات السلوك، فأجازه بالإرشاد، وتعليم الطريق للعباد، فانقطع في بلدته سبنهل لتدريس العلوم، ونشر أعلام الإرشاد، وكان صبوراً مستقيماً على العمل بالعلم، ذا أخلاق محمدية، وأطوار عالية، تكمل على يده كثير، وحصل للناس منه نفع كبير، وسيأتي في ترجمة حضرة مولانا خالد قدس سره أنه لما وصل إلى مدينة لاهور قصد قصبة فيها المولى المعمر ثناء الله النقشبندي، فزاره وبات تلك الليلة عنده، فرأى في منامه أن الشيخ يجره بأسنانه الشريفة إليه، فلم ينجر معه، فلما أصبح قال له الشيخ قبل أن يقص عليه الرؤيا: اذهب إلى أخينا الشيخ عبد الله الدهلوي، ودعا له وانصرف، فلا أدري! أهو ذا أم الشيخ ثناء الله المار الذكر.

وممن ذكر: العالم الأكبر، والمرشد الأبهر، يوسفي المظهر: الشيخ مير عبد الباقي قدس سره، كان له حظ من العلوم وقدم عال في الطريق، خدم حضرة الشيخ سنين، وفاز بأشرف أطوار الوصول، وكان له في علم تعبير الرؤيا باع طويل، حتى أحال الشيخ جميع استخارات أحبابه إليه، فكان يقع كما يقول، وحج البيت الحرام وحظي بزيارة خير الأنام خمس مرات، وفاز بعناية تلك الحضرة العلية.

وممن ذكر: العالم الفاضل المرشد الجليل: الشيخ خليفة محمد جميل قدس سره، اشتغل بتحصيل فنون العلوم، ومهر بالطب، ثم تشرف بخدمة الشيخ، ففتح عليه بالوصول إلى تمام مقامات السير والسلوك، حتى صار في أمور الشريعة والطريقة العلية آية باهرة، فأجازه إجازة عامة بالإرشاد، فاشتغل

بعلاج أمراض الظاهر والباطن، ثم توفي في زمن حضرة الشيخ قدس سرهما.

وممن ذكر: ولي الخلفاء، وسلالة الأولياء: محمد بهيك الفاروقي، من ذرية سيدنا الإمام الرباني، تلقى الطريقة العلية بعد تكميل عموم العلوم عن حضرة الشيخ، ورزق حظاً وافراً من نسبة آبائه العظام، فلما بلغ أقصى المرام في مقام السلوك، وسلوك المقام، أذن له بالإرشاد العام.

وكان له كرامات باهرة: ذكر أنه لما دخل الكفار إلى سهرند أرادوا أن يخربوا مزارات الأولياء الأحمدية، فجاؤوا إلى قبره، وحفروه وأرادوا أن يخرجوا جسده الشريف، فلطم أحدهم لطمة عظيمة، فمات في الحال، ففروا جميعاً وتركوا ذلك.

وممن ذكر بالإجمال: نخبة المرشدين المعوّل عليه الشيخ عبد الحق أخو المشار إليه قدس الله سره.

وعمدة الخلفاء الأكارم: الشيخ محمد سالم قدس سره.

وأكمل الخلفاء البررة الحنفاء الشاه رحمة الله قدس سره.

والولي الأواه الشيخ محمد شاه قدس سره.

وعارف الزمان الشيخ مير مبين خان قدس سره.

ومنقذ السالكين الشيخ مير محمد معين قدس سره.

وزبدة الخلفاء الغرر الشيخ مير علي الأصغر المعروف بمير مكهور قدس سره.

وصائم الدهر، وفلك الذكر، وأقدم خلفاء حضرة الشيخ في علو الرتب: الشيخ محمد حسن عرب قدس سره.

كان ورده كل يوم أربعين ألف تهليلة لساناً، وعشرة آلاف بحبس النفس جَناناً، وألف مرة سورة الإخلاص، والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ وظيفته، فكانت آيته ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾؛ [الجمعة: ١٠].

وحسبه ما قال الشيخ في شأنه: إنه ما أتى في حياتي كلها إلا رجل واحد

يطلب الله تعالى، ويجاهد في سبيله، وهو الشيخ حسن عرب.

وصفوة المرشدين الشيخ محمد قائم الكشميري قدس سره، تلقى الطريقة العلية من حضرة الشيخ موسى خان في بخارى، ثم تكمل عند حضرته بأمر من شيخه قدس سره.

ومنهم: علامة المرشدين الكاملين الشيخ قطب الدين قدس سره، وهو من أتباع الشيخ موسى، ثم أتم سلوكه عند حضرة الشيخ، حتى صار من أكابر الأولياء.

ومنهم: بحر العلوم، وبدر الفهوم، زينة مرشدي الدنيا: الشيخ غلام يحيى قدس سره.

ومنهم: شمس سماء المحققين، وخلاصة الفقهاء المحدثين: المرشد الكامل الشيخ غلام محي الدين سليل غوث الثقلين سيدنا عبد القادر الكيلاني رضي الله عنهما.

ومنهم: خير خلفائه الفائزين برضاه العلامة الشيخ نعيم الله البهرايجي قدس سره.

ومنهم: أكمل من سار إلى مولاه فنال مناه، من مقامات الوصول والمناجاة، الولي الكامل: الشيخ كليم الله البنكالي قدس سره.

ومنهم: ركن شريعة المسلمين، وحصن الطريق الحصين: الشيخ مير روح الأمين قدس سره.

ومنهم: صاحب المقام الرفيع: الشيخ محمد شفيع قدس سره.

ومنهم: العارفين الكاملين: الشيخ محمد واصل، والشيخ محمد حسين قدس سرهما.

ومنهم: المشرق في الفضل كالنيرين، المرشد الكامل: الشيخ غلام حسين التهانيسري قدس سره.

ومنهم: المرشدين الأرشدين، والوليين الأحمديين: الشيخ عبد الكريم، والشيخ عبد الحكيم قدس سرهما.

ومنهم: العارف العالي الشان: الشيخ نواب أرشادخان قدس سره.

ومنهم: المتفرد في دولة الإرشاد بالإتقان: الشيخ غلام مصطفى خان قدس سره.

ومنهم: المرشد الكامل القوي المدد: العلامة الشيخ أخون نور محمد القندهاري قدس سره.

ومنهم: الحائز في علوم المقام الوجه البسيم، المرشد الأقوى: الشيخ ملا نسيم قدس سره.

ومنهم: المرتقي في مدارج الوصول إلى أعلا الأذواق، العلامة الفقيه: الشيخ ملا عبد الرزاق قدس سره.

ومنهم: المربي الجليل: الشيخ ملا جليل قدس سره.

ومنهم: غريق تجليات مولاه، العلامة الشيخ: ملا عبدالله قدس سره.

ومنهم: أسبق المرشدين إلى معالي الأمور، العالم الولي الصالح: الشيخ ملا تيمور قدس سره. كان آية من آيات الله تعالى، قوي التصرف، أسلم على يده من الكفار كثير، وتاب من الرفض ببركته جم غفير.

وتكمل عنده جمع غزير من جملتهم:

ملا أوليا، وملا إبراهيم، وشاه لطف الله، وملا سيف الدين، ومحمد خان، وخواجه محمد عمر، وخواجه يونس، والشيخ قطب الدين، والشيخ أمين، والشيخ غلام حسين، وغيرهم ممن امتازوا بالمقامات الإلهية قدس سرهم.

وبالجملة فقد تربى على يد حضرة المظهر الجماء الغفيرا، فنالوا بصحبته فضلاً كبيرا.

ومن أعظمهم نفعاً، وأكثرهم جمعاً: شيخ هذه السلسلة الغراء، وأكبر من سرى إليه سر هذه النسبة العلياء: سيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي قدس الله سره.

سيدنا الشيخ عبدالله الدهلوي
المعروف بشاه غلام علي قدس الله سره

شاه العارفين، ومليك المرشدين الكاملين، مظهر علوم الدين، ومظهر سر الهداية واليقين، المحقق بمقام التلوين في التمكين، شيخ مشايخ الديار الهندية، ووارث المعارف والأسرار المجددية، سباح بحار التوحيد، سياح قفار التجريد، قطب الطرائق، وغوث الخلائق، ومعدن الحقائق، نال قدس الله سره من العلوم الإلهية ما نال، ومن المقامات العلية ما لا يخطر ببال، وذلك أن هذا العزيز، بعدما بلغ سن التمييز، أكب على تحصيل الفضائل، والتحلي بأحسن الشمائل، حتى صعد بهمته إلى سماء علوم الرسوم، فتناول من ثرياها أعظم النجوم، إلى أن أصبح في كل علم إماماً، فزاد إقداماً على الترقي في المعالي واهتماماً، فصعد النظر إلى قمر المعارف، فرأى نوره مستمداً من شمس أستاذه العارف، فقصد على جنائب العزم جنابه، أو يمم بالهمم الكبار رحابه، فأقبلت به نسمة القبول، على حرم مراحم الوصول، إلى ذلك المقام المأمول، مقام المرشد العظيم، فحنا عليه بقلبه السليم، حنو المرضعات على الفطيم، وجعل يمدّه بمدده الروحاني، ويربيه بنفيس نفسه الرحماني، ويرقيه إلى مدارج الأخيار، ويقيه أغيار الأغيان وأغيان الأغيار، حتى إذا جذبه إلى مقام حق اليقين، وانتهى به إلى سدرة منتهى المقربين، عاد إلى عالم الشهادة، وقد خلع عليه خلع السيادة، وأصبح من غيث إحسانه غوث زمانه، وعهد إليه بعده بإرشاد المسترشدين عنده، فوفى عهده، وصدق وعده، وكان خير خلف لأشرف سلف، قام بتأييد الشريعة المحمدية، وتجديد معالم السنة السنية، وأداء حقوق الحقائق، وإحياء جميع الطرائق: القادرية، والسهروردية، والكبروية، والجشتية، والنقشبندية، رافعاً لواءها بين الخلائق، فأقبلت القلوب تستظل بظله، ولبت الألباب نداء فضله، وانتهت إليه رتبة الإرشاد، ورحلت إليه الأبدال والأوتاد، فنال ببركته كل مريد أقصى المراد.

شذرة من خبره وذرة من أثره

ولد ـ قدس سره ـ عام ثمان وخمسين ومائة وألف في قصبة بتالة ضلع بنجاب، وجاء تاريخ ولادته: مظهر جود، وهو من آل البيت الكرام، غير أني لم أقف على نسبه الشريف، وكان والده الشريف الشاه عبد اللطيف عالماً عارفاً صالحاً زاهداً، كبير الشأن، قادري الطريقة، تلقاها عن العارف الكبير الفائز بصحبة الخضر عليه السلام الشاه ناصر الدين القادري قدس سره، واشتغل بالرياضات الشاقة، والمجاهدات التامة، وكثيراً ما كان يخرج إلى الصحراء، فيذكر الله تعالى، ويتغذى بالنبات، بقي مرة أربعين يوماً لم يكتحل طرفه بنوم، ولم يذق الطعام إلا قليلاً ليلاً، ومع ذلك لم ينوِ الصيام مقاومة لرعونة نفسه، وكان له انتساب أيضاً للطريقة الچشتية، والشطارية.

ورأى في منامه قبل ولادة الشيخ ـ قدس سره ـ سيدنا علياً ـ كرم الله وجهه ـ فقال له: سم ولدك باسمي، فلما ولد سماه علياً، إلا أنه لما بلغ ـ قدس سره ـ سن التمييز، سمى نفسه تأدباً غلام علي.

ورأت أمه في المنام رجلاً جليلاً يقول لها: سميه عبد القادر، قال مترجمه الشيخ عبد الغني المعصومي: ويمكن أن يكون هذا العزيز هو الغوث الجيلاني رضي الله عنه، وسيأتي أن رسول الله ﷺ سماه في المنام عبدالله.

وكان ـ قدس سره ـ في الذكاء آية باهرة، حفظ القرآن المجيد في شهر واحد، وأكب على تحصيل العلوم معقولها ومنقولها، حتى أصبح عالم عصره.

ولما كان والده في خدمة شيخه مولانا ناصر الدين ـ قدس سره ـ أرسل إليه يطلبه من الوطن، ليتلقى الطريق القادري عنه، ففي ليلة وصوله توفي الشيخ، فقال له والده: كنا طلبناك لتأخذ عنه الطريق، فما قدر الله ذلك، فالآن أي محل تنسمت منه عَرْف الإرشاد فاقصده، فلقي أكابر مشايخ الطريقة الچشتية وقتئذٍ في دهلي: كالشيخ ضياء الله، والشيخ عبد العدل خليفتي الشيخ محمد الزبير، والشيخ مير درد ابن الشيخ ناصر، ومولانا فخر الدين والشاه نانو والشاه غلام،

وغيرهم من السادات، ولازم حضورهم، حتى إذا بلغ سنه اثنين وعشرين سنة، أتى من نفسه إلى خانقاه حضرة ميرزا جان جانان قدس سره، وسأله الدخول في الطريق المجددي، فقال له: عليك بالمحل الذي فيه الذوق والشوق، وأما هذا المحل، فما فيه إلا لحس الحجر بلا ملح، فقال له: هذا أقصى مرادي، فقال له: بارك الله بك ثم تقبله.

وكتب هو في بيان أحواله ـ قدس سره ـ فقال: إني بعد تحصيل علم الحديث والتفسير، تشرفت في أعتاب حضرة الشهيد ـ قدس سره ـ فبايعني على الطريقة العلية القادرية بيده المباركة، ولقنني الطريقة العلية النقشبندية، فتشرفت بالحضور في حلق الذكر والمراقبة عنده خمسة عشر سنة، حتى تفضل على هذا الحقير بالإجازة المطلقة في الإرشاد العام.

وقد ترددت أول الأمر، في أنه هل يرضى الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه أن أشتغل في الطريقة النقشبندية أو لا، فرأيته في واقعة جالساً في مكان، وحضرة الشاه نقشبند في مكان تلقاءه، فخطر لي حينئذٍ أن أحضر عند شاه نقشبند، فقال الغوث الجيلاني في الحال: المقصود هو الله تعالى، فاذهب فلا مضايقة.

وكان لي جهة تعيش فتركتها، فاشتدت عرى الفاقة عليّ، فاعتصمت بالتوكل واتخذته سجية، ولم يكن يومئذٍ عندي غير خَلَقٍ حصير أفترشها، ولبنة أتوسدها، فبلغ بي الضعف أقصاه، فلفرط ما نالني أغلقت باب حجرتي، وقلت: هذا قبري، حتى يأتي الله بالفتح أو بأمر من عنده، فما لبثت أن فتح الله تعالى على يد من لا أعرفه، فمكثت في زاوية القناعة خمسين سنة اهـ.

قيل: لما أغلق باب الحجرة وقال ما قال، أدركته العناية الإلهية، فجاءه شخص، وقال له: افتح الباب، فقال: لا أفتح، فقال: إن لي معك شغلاً فافتح لي، فلم يفعل، فألقى إليه من خصاص الباب جملة من الدراهم الهندية المعروفة بالروبية وذهب، فمن ذلك اليوم لم تنقطع الفتوحات عنه.

ولما توفي حضرة الشهيد قام مقامه في مسند تربية المريدين، وإرشاد الطالبين، فأكب الناس عليه، وشدوا الرحال إليه من أماكن بعيدة، من الروم،

والشام، والعراق، والحجاز، وخراسان، وما وراء النهر، بل من أقصى أرض الخطا إلى غاية أرض المغرب. بعضهم بأمر رسول الله ﷺ: كحضرة مولانا خالد، والشيخ أحمد الكردي، والسيد اسماعيل المدني، وبعضهم بإشارة السادات: كالشيخ محمد جان، والبعض برؤيتهم له في المنام.

وكان موصوفاً بأعلى مراتب الأخلاق الحميدة:

فمن السخاء، بحيث كان يوجد في رباطه دائماً ولا ينقص عن مائتي مريد إلا قليلاً، وكان يقدم لهم كفايتهم على أتم وجه، ولم يدّخر لغد قط.

ومن الحياء والتواضع بأنه لم يضطجع ماداً رجليه أبداً، ولم ينظر وجهه في المرآة، وإذا دخل إلى داره كلب ليطعم شيئاً يقول: إلهي من أنا! حتى أكون واسطة بينك وبين أحبابك، فأسألك بحرمة مخلوقك هذا، وكل من قصدني إلا ما رحمتني، وقربتني إليك.

ومن التمسك بالسنة المطهرة ما لا يدرك شأوه. ومن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ما لا يهاب معه الأمراء والملوك، كما يعلم ذلك من مطالعة مكتوباته، حتى أنه لما حضر السيد اسماعيل المدني بأمر رسول الله ﷺ إلى رحابه، وأحضر معه بعض آثار نبوية بإشارة منه عليه السلام أن يضعها في المسجد الجامع الذي في دهلي فوضعها، عرض ذلك إلى حضرة الشيخ، فقال: إنه وإن تكن بركات فخر العالم ﷺ في ذلك المكان محسوسة، ولكن لا يخلو من ظلمة الكفر، ففتشوا ذلك المكان، فإذا هو فيه صور بعض الأكابر، فرفعوا الأمر إلى السلطان، وأزالوا التصاوير منه.

وحضر لأعتابه نواب شمشير بهادر رئيس ملك نبديل كهند، وعلى رأسه قلنسوة النصارى، فلما رآه الشيخ تغيظ منه، وأغلظ له القول، ومنعه من الجلوس عنده، فقال له الرئيس: إذا كنتم تنتقدون بهذا المقدار، فلا أحضر بعد! فقال له: لا أعادك الله إلى مجلسنا[1]، فقام وهو غضبان، ثم لم يبرح أن

---

(١) قوله (إلى مجلسنا): أي وأنت على هذه الحالة. (ع).

تحوّل إلى ناحية من الرباط، ونزع القلنسوة، ودفعها إلى خادمه، ثم حضر خاشعاً، وتلقى الطريق عن الشيخ قدس سره.

ومن التجرد والزهد أنه عرض عليه السلطان مراراً أن يعين لرباطه ما يفي بنفقته فلم يقبل، وكذلك عرض عليه نواب الأمير خان والي بلدة توك وسرونج، فأمر الشاه رؤوف أحمد أن يكتب إليه: إنا لا نبذل وجه القناعة والفقر، وكيف والرزق مقدّر؟ وكثيراً ما كان يقول: قد قبض على أذمتنا الوعد الإلهي في قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢]، فقد أخبرنا تعالى بأنه كفانا مهمات الدين والدنيا، اهـ، فكانت نفقات الرباط من وجه الغيب.

وكان قليل النوم جداً، فإذا قام إلى التهجد أيقظ النوام، ثم يتهجد ويجلس للمراقبة، ويتلو من كلام الله تعالى ما شاء، وكان ورده كل يوم عشرة أجزاء، ثم يصلي الصبح جماعة في وقت الغلس، ثم يلتفت إلى حلقة الذكر والمراقبة إلى وقت الإشراق، وكان رباطه لا يستوعب المريدين لكثرتهم، فلذلك كان يكرر الأذكار لطائفة بعد طائفة، ثم يجلس لقراءة الحديث والتفسير إلى قرب الزوال فيتناول الغداء، وكان إذا أرسل إليه أحد الأغنياء طعاماً نفيساً لا يأكله، بل يكره أن يأكل منه المريدون، وإنما يهديه لجيرانه ومن كان حاضراً عنده من أهل البلدة، وربما ترك أواني الطعام في مكانها، يأخذها من شاء فيأكلها، نعم لو أرسل إليه شخص دراهم، ولم يكن مظنة شبهة يخرج أولاً زكاتها، على مذهب الإمام الأعظم من جواز إخراج زكاة المال إذا بلغ النصاب قبل الحول، لأن صدقة الفرض أفضل من النفل، ثم يعمل فيما بقي حلواء وغيرها، ويرسل بها إلى فقراء الشاه نقشبند وفقراء والده، ويؤدي ما كان عليه من دين في نفقة رباطه، ويعطي من قصده من ذوي الحاجة، وربما يأخذ الشخص من هذه الدراهم شيئاً في حضوره، فيطلع عليه ويعرض بوجهه عنه، ولا يتعرض له.

وقد سرق شخص له كتباً، ثم أتاه منها بكتاب يبيعه إياه، فأثنى عليه ونقده الثمن، فقال له أحد أصحابه: يا سيدي! هذا من خزانتكم وعليه علامة. فتأذى

منه، وأسكته، وقال: هلاّ يكتب الكاتب أكثر من كتاب واحد!

ثم بعد تناول الغداء يقيل قليلاً، ويشتغل بمطالعة الكتب الدينية والحقائق وغيرهما، والتحارير الضرورية. ثم إذا صلى الظهر قرأ درسي حديث وتفسير إلى العصر، فيصلي، ثم يقرأ حديثاً وتصوفاً: كمكتوبات الإمام الرباني، وعوارف المعارف، ورسالة القشيري.

ثم يجلس في حلقة الذكر، والتوجه العام إلى الغروب.

وبعد صلاة المغرب يتوجه لخواص السالكين، ثم يتناول العشاء، حتى إذا صلى العشاء أحيا عامة ليله بالذكر والمراقبة، فإذا غلبه النوم اضطجع في مصلاه، وربما نام وهو جالس، ولم يعلم أنه مدَّ رجليه لفرط حيائه كما تقدم.

وكان لا يجلس إلا محتبياً، كما نقل عن النبي ﷺ وكبار الأولياء كالغوث الجيلاني، حتى توفي على هذه الحالة.

وكان حريصاً على إخفاء الصدقة، فإذا فتح عليه بشيء يقسمه على الفقراء وهم في المراقبة لئلا يشعر أحد منهم بالآخر.

وكان يلبس الخشن من الثياب، ولو أهدى إليه ثوب نفيس باعه، واشترى عدة أثواب وتصدق بها، وهكذا في غير ذلك، ويقول: لأن يكتسي جماعة خير من واحد، وورد في الصحيحين: «عن عائشة رضي الله عنها أنها أخرجت يوماً إزاراً ورداء خشنين وقالت: قبض رسول الله ﷺ فيّ هذين».

وكان شديد الشفقة على المسلمين، يكثر من الدعاء لهم، وأكثر ما يكون في جوف الليل، وكان له جار يسمى حكيم قدرة الله، يصرف أكثر أوقاته في مغيبته، فحبس يوماً، فسعى كل السعي في خلاصه، ولم يذكر ذلك له.

وكان مجلسه مجلس سفيان الثوري، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تنتهك المحارم، مبرأ عن حديث الدنيا، فلا يذكر فيه الأمراء ولا الفقراء، وقد استغاب بعض الحاضرين في مجلسه شخصاً، فزجره وقال: أنا أحق بما قلته منه.

ونال شخص في حضوره من سلطان الهند، وكان صائماً، فقال: واأسفاه! لقد فسد صومي، فقيل له: أنتم ما ذكرتم أحداً بسوء، فقال: نعم، ولكن سمعت! والذاكر والسامع في الإثم سواء.

وكان عاشقاً لرسول الله ﷺ فانياً فيه، بحيث إذا سمع اسمه الكريم اضطرب وغاب، وقد أحضر له خادم أقدامه يوماً ماء للتبرك، وقال له: أنت منظور رسول الله ﷺ، فارتعد عند سماع هذا الكلام، ثم قام فقبل الخادم، وقال له: من أنا حتى أكون منظور رسول الله، وبالغ في إكرامه.

وكان شديد الحرص على اتباعه ﷺ في أقواله وأفعاله، قوي التمسك بالسنة، دؤوباً على مطالعة حديثه، حتى توفي وسنن الترمذي على صدره، ولم يبلغه أنه ﷺ فعل شيئاً إلا وتأسى به، حتى أتى مرة بجبهة معز، فطبخت له وأكل منها اقتداء به.

وكان له في القرآن المجيد ذوق عظيم، كثير التلاوة له، كثير المحبة لسماعه، وكان يحب سماعه من أحد خلفائه العظام: الشيخ أبي سعيد المعصومي، ويتأثر تأثراً بليغاً، فإذا ازداد من السماع اضمحل وتلاشى، وقال له: حسبي! لا طاقة لي بأكثر. ويحب سماع أشعار القوم، والمثنوي، ويحصل له من ذلك وجد، غير أنه كان لثباته وكمال تمكنه لا يظهر عليه، ويقول: رقص أبو الحسين النوري يوماً والجنيد جالس قال: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ [الأنعام: ٣٦] فقال الجنيد: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب﴾ [النمل: ٨٨] فالجنيد كان في غاية الثبات. قال المترجم: قد تظهر في الطريقة المجددية أحياناً نسبة الطريقة الچشتية الموروثة عن حضرة المجدد، وقد نقل عنه مع كمال تمكنه حالات ذوق وشوق لذلك. اهـ.

وبلغ من نزاهة الطبع أنه لو دخل عليه شخص يشرب التنباك يتأذى منه، ويأمر بالمجمرة، فيطيّب المحل. وكانت تفوح رائحة زكية في مجلسه، فيُخرج مَنْ عنده، ويقول: هذه روحانية النبي ﷺ أو أحد السادات قد ظهرت.

من كلمات كمالاته، وكمالات كلماته

قال قدس الله سره: يكون في كمالات الوصول الوصل العريان[1]، وليس للسالك فيه غير اليأس والحرمان، إذ كلما يكون الوصول يفنى الحصول.

وقال قدس الله سره: الطريقة النقشبندية عبارة عن أربعة أشياء: عدم الخطرات، ودوام الحضور، والجذبات، والواردات.

وقال قدس الله سره: طالب الذوق والشوق لم يطلب الحق تعالى.

وقال: ينبغي للطالب أن يميز كل وقت ماذا يرد عليه من العبادات، كل وارد على حدة، فيعلم أي كيفية حصلت له من الصلاة، وأي نسبة ظهرت من التلاوة، وما الذي ناله من الذوق في درس الحديث الشريف والذكر الجهري، وكذلك ماذا حصل له من الظلمة في الطعام المشبوه؟! وعلى هذا القياس في بقية الأغيار.

وقال قدس سره: من الطعام ما فيه رضاء للنفس، ومنه ما فيه أداء لحقها، فما فيه رضاؤها الغذاء النفيس الكثير، وما فيه حقها هو ما تقوى به على أداء الفرائض والسنة.

وقال: كما ان طلب الحلال فرض على المؤمنين، كذلك ترك الحلال[2] فرض على العارفين.

وقال:الصوفي: هو التارك للدنيا والآخرة وراء ظهره، والمتوجه إلى الله تعالى.

وقال: الخطرات تضر في الولاية لا في كمالات النبوة، فإن عمر رضي الله

---

(١) قوله (الوصل العريان): أي العاري عن جميع الحظوظ النفسانية. (ع). وقد تقدمت مقولة مطولة عنه ذكرها المؤلف.

(٢) قوله (ترك الحلال): أي ترك التوسع في المباحات فلا يجمعون بين لونين ولا ثوبين، ويؤاخذون أنفسهم على كثرة النوم ومدّ الرجل أثناء الذكر وغير ذلك. (ع).

عنه يقول: إني لأجهز الجيش، وأنا في الصلاة، فلا تمنع خطرات القلب مشاهدة الشمس.

وقال: مشرب السادات الجشتية - الذين سكروا من خمرة الذوق والمحبة - السماع والطرب، إرادة أن يلون الشوق أرواحهم ألواناً، ويرفعون النقاب عن وجه محبوبهم. ومشربنا - معشر المتوسلين بالسلسلة النقشبندية، المرتشفين كأس المودة - الحديث والصلاة رغبة أن تتنوع الأذواق على قلوبنا أنواعاً.

وقال: لا يخفى أن رسول الله ﷺ هو الجامع لجميع الكمالات، غير أنه كان ظهور كماله في كل وقت في أفراد الأمة، بما يناسب استعداد ذلك الوقت:

فالكمال الذي نشأ عن جسده الشريف من الجهاد والعبادة، والصبر على المشاق من الجوع وغيره، ظهر للصحابة رضوان الله عليهم.

والكمال الذي نشأ عن قلبه المقدس من الاستغراق والفناء، والذوق، والشوق، والتواجد، وأسرار التوحيد الوجودي، ظهر على لسان حضرة الجنيد قدس الله سره لأولياء الأمة.

والكمال الذي نشأ عن لطيفة نفسه المطمئنة، من الاضمحلال والاستهلاك في نسبة الباطن ظهر لأكابر النقشبندية من زمن مولانا شاه نقشبند قدس الله سره.

والكمال الذي نشأ عن اسمه الكريم محمد، ظهر في زمن حضرة المجدد قدس الله سره.

وقال: في لفظ الفقير حروف تشير إلى أحوال: فالفاء للفاقة، والقاف للقناعة، والياء لليأس مما سوى الحق تعالى، والراء للرياضة، فإذا اتصف الفقير بها نال فضل الحق، وقربه، ويمنه، ورحمته، وإلا ابتلي بالفضيحة، وقهر الحق، واليأس من قربه، والرد من بابه.

وقال: ليلة الجوع عندنا ليلة المعراج.

قال: لا بد في هذا الطريق من أربعة أشياء: دين سالم، ويقين سالم، ويد مكسورة، ورجل مكسورة.

وقال: لما كانت الأنوار والبركات تفيض عند الدعاء، تعسرت معرفة علامة أثر الإجابة، فقال بعضهم: إن حصل في اليدين ثقل، فهو علامة على الإجابة، والذي أراه أن انشراح الصدر، هو علامة عليها.

وقال: البيعة على ثلاثة أوجه: بيعة لأجل التوسل إلى المشايخ الكرام، وبيعة لأجل التوبة من المعاصي، وبيعة لأجل كسب النسبة.

وقال: الخطرات على أربعة أقسام: شيطانية: وهي من اليسار، ونفسانية: وهي من الفوق يعني الدماغ، وملكية: وهي من اليمين، وحقانية: وهي من فوق الفوق.

وقال: كل الكمالات الممكنة في الإنسان دون النبوّة ظهرت في حضرة المجدد.

وقال: الرجال على أربعة أنواع: النوع الأول: ليسوا برجال وهم طالبو الدنيا، والثاني: رجال وهم طلاب الآخرة، والثالث: شبان الرجال وهم طالبو الآخرة والمولى، والرابع: أفراد وهم طالبو المولى.

وقال: الأولياء ثلاثة: أرباب كشف، وأرباب إدراك، وأرباب جهل.

وقال: الفائزون بمقام حضرة المجدد قليلون، ولو توجه إلى جميع الأولياء الوجودية لأوصلهم إلى جادة الوحدة الشهودية.

وقال: من أحب لقاءنا لبس لباسنا، واختار طورنا.

وقال: أرواح عامة المؤمنين يقبضها ملك الموت، وأما قبض أرواح خاصة الخاصة، فلا دخل للملائكة فيه، قال المترجم: ولعله مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ [السجدة: ١١] وقوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال: العقل النوراني: هو الذي يستدل على المقصود بلا واسطة.

والظلماني: هو الذي يحتاج في طريقه إلى مصباح هداية المرشد.

وقال: ينبغي للطالب أن لا يغفل لحظة واحدة عن ذكر مطلوبه.

وقال: حب الدنيا رأس كل خطيئة، ورأس الخطايا الكفر.

وقال: زوال العين هو أن لا يقدر السالك على قول أنا. كما قال سيدنا الشيخ عبيد الله أحرار: قول أنا الحق سهل، وزوال أنا هو الصعب.

وقال: ينبغي للسالك أن يترك في ابتداء القلب النوافل، ويكتفي بالفرائض، والسنة المؤكدة.

وقال: الطريقة المجددية تستمد من أربعة أبحر: النسبة النقشبندية، والقادرية، والجشتية، والسهروردية، لكن الأولى هي الغالبة.

وقال: كفر الطريقة: هو ارتفاع التمييز، وعدم النظر لغير ذات الحق، يقول منصور الحلاج:

كفرت بدين الله والكفر واجب ... لدي وعند المسلمين قبيح

قلت: وقد تقدم لنا في ترجمة حضرة مولانا وسيدنا الغوث النقشبند - قدس الله سره العزيز - كلام على هذا البيت، فليراجع[1].

وقال: من أحب أن يُخْدَم خدم المرشد.

وقال: جمع السعدي الشيرازي وكان ممن نال مقام الفناء في الطريقة السهروردية التصوف في بيتين، وهما:

مرا پير داناي مرشد شهاب ... دو اندرز فرمود بر روى آب

يكى آنكه برخويش خود بين مباش ... دكر آنكه برغير بدبين مباش

والشاهد في البيت الثاني، ومحصله: لا تنظر إلى نفسك بعين العجب، ولا إلى غيرك بعين الاحتقار.

---

(١) في الصفحة (٤١٤).

وله قدس سره رسائل متعددة نافعة جداً، كشف فيها للطالبين مسائل مهمة في الحقائق والمعارف.

ومكتوبات شريفة مشتملة على نصائح ومواعظ جمة، منها: أنه قال: إن التخلق بالأخلاق الحسنة واجب على كل أحد، وهي: الحلم، والتواضع، والشفقة، والنصيحة، والموافقة للأصحاب، والإحسان، والمداراة، والإيثار، والخدمة، والألفة، والبشاشة، والكرم، والمروءة، والتودد، والمودة، والجود، والعفو، والصفح، والسخاء، والحياء، والوفاء بالعهد، والسكينة، والوقار، والثناء، والدعاء إلى الله تعالى دائماً، وحسن الظن، وتصغير النفس، واحتقار ما عندك، واستعظام ما عند غيرك.

وأما المقامات: فأولها الانتباه، ثم التوبة، ثم الإنابة، ثم الورع، ثم محاسبة النفس، ثم الإرادة، ثم الزهد، ثم الفقر، ثم الصدق، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الإخلاص، ثم التوكل.

وأما الأحوال: فمن ذلك المراقبة، ثم القرب، ثم الرجاء، ثم الخوف، ثم الحياء: وهو حصر القلب عن الانبساط، ثم الشوق، ثم الانس، ثم الطمأنينة، ثم اليقين، ثم المشاهدة. وهي آخر الأحوال، وإليها الإشارة بقوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ومن ذلك ما كتبه في إجازته للشيخ أبي سعيد المعصومي، والشيخ بشارة الله، ولغرابة أسلوبها نقلتها بتمامها فقال بعد الحمد والصلاة:

من المعلوم أن المقامات والاصطلاحات التي هي في طريقة الإمام الرباني ـ مجدد الألف الثاني ـ مقررة ينبغي أن تشاهد في كل درجة منها كيفيات وأحوال وأنواع، وأسرار تلك الدرجة، وإلا فاختيار الطريقة عبث، فلِمَ إضاعة العمر؟

---

(١) حديث «أن تعبد الله»: متفق عليه وقد تقدم.

وإن لم تكن المقامات العشر التي أولها التوبة وآخرها الرضا لازمة للباطن، فما الفائدة من هذه الطريقة؟

فإنه يحصل في سير لطائف عالم الأمر كيفيات كثيرة:

ففي سير لطيفة القلب المفيدة لمراقبة الأحدية الصرفة بعد مراقبة المعية يحصل الفناء، والاستغراق، وقطع العلائق، والآمال، وغيرها.

وفي سير لطيفة النفس المفيدة لمراقبة الأقربية والمحبة يحصل الاستهلاك، والاضمحلال، وفناء أنا وغيره.

وفي سير عالم الخلق ينهل الفيض الإلهي على العناصر الثلاثة، ما عدا عنصر التراب، وتوجد المناسبة لتجليات اسم الباطن، والملأ الأعلى، وتهذيب اللطيفة القالبية، ويصير الإحسان في الكمالات الثلاثة بالصفاء، ولطافة نسبة الباطن، وتحصل في الحقائق السبعة، وسعة الأنوار، وبداهة الأمور النظرية، وزيارة حضرات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وثبوت أذواق المحبة الذاتية.

فإن أدرك سالك هذه الطريقة هذه العلوم والمعارف فهو مبارك، وإلا فقد اكتسب العجب والأنانية، فويل له، وكل شيء يحصل في الصحبة من هذه الحالات فهو حسن، وإلا فهو تحقير للطريقة، ويلحق المشايخ من ذلك الشخص عار، والمريدين عجب وترذيل للطريق، ودعوى الانتظام في سلك المشايخ هداهم الله سبحانه إلى رضائه واشتياق لقائه آمين.

وإذ قد وصل - ولله الحمد - صاحباي حضرة المولوي بشارة الله، وحضرة الحافظ أبو سعيد سلمهم الله تعالى، وجعلهم سرجاً لإشاعة أشعة الطريقة لهذه المقامات، والمرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتفضل على بقية أصحابي الأعزاء وأحبابي، وعلى هذا الدليل المقصر بالتوفيق للاستقامة، واتباع السنة، ومحبة المشايخ، والترك، والانزواء، واليأس من الخلق، والترقي لهذه الحالات، فإني مع تمام الخجل أكتب لأن المرشدين يكتبون في الإجازات

هاتين الكلمتين، فأقول: يد هذين العزيزين التي هي أحسن من يدي هي يدي، وبيعة خدمتهم التي هي أقوى ذريعة للسعادة والنجاة بيعتي، بارك الله بهما بشرط أن يعرضوا عن أهل الدنيا، ويلازمون بقدم مكسورة باب الحق مع صدق الوعد الكريم المطلق جلَّ سلطانه، فإنهم أركان طريقي، وتربية توجهات حياتي، اللهم وفقني وإياهم لمرضاتك، ومرضاة حبيبك ﷺ، واجعل آخرتنا خيراً من الأولى.

ومن معاليه في مرائيه

قال قدس الله سره:

رأيت في المنام المير روح الله أحد مخلصي حضرة جان جانان الشهيد ـ قدس الله سره ـ يقول لي: إن رسول الله ﷺ جالس في انتظارك فأسرعت من فرط الشوق للتمثل في خدمته، فعانقني ﷺ، فوجدت نفسي على هيئته، ثم تحولت إلى هيئة حضرة المير كلال قدس سره.

ونمت ليلة قبل صلاة الغشاء فإذا به عليه الصلاة والسلام قد حضر، ونهاني عن ذلك وتوعدني.

وزارني ﷺ مرة، ثم ذهب، فحزنت لفراقه، وجعلت أحثو التراب على وجهي، فوجدت ظلمة من هذا الفعل المنكر.

ورأيته مرة في المنام، فقلت له: يا رسول الله! أنت قلت: «من رآني فقد رأى الحق»[1] فقال: نعم! . . .

وكنت مثابراً على قراءة أذكار وإهداء ثوابها لمقامه المقدس، فتركتها مرة، فرأيته ﷺ بالهيئة التي وردت في شمائل الترمذي قدس سره، فعاتبني على ذلك.

---

(١) حديث «من رآني فقد رأى الحق»: أخرجه البخاري برقم (٦٥٩٦) ومسلم (٢٢٦٦).

واعتراني مرة خوف شديد من النار، فرأيته ﷺ قد شرف منزلي، وقال لي: من يحبنا لا يدخل النار.

ورأيته ﷺ مرة، فقال لي: أنت اسمك عبد الله وعبد المهيمن.

ورأيته مرة فسماني العبد الصالح.

وقلت مرة: يا رسول الله! فقال لي: لبيك.

وسمعت في سري الخطاب الإلهي ثلاث مرات: مرة وأنا في المدرسة، ومرتين في الخانقاه.

ورأيت مرة أن في صورة وجهي قدر اصبعين من صورة وجه سلطان المشايخ، يعني نظام الدين أوليا قدس سره، ولم يتشوّه بذلك.

ورأيت أن شخصاً قد أتاني بقميص المشار إليه، وقال لي: هذا شيخكم. فقلت له: بل شيخي مرزا جان جانان، فكرر عليّ ذلك، ثم قال: سلطان المشايخ شيخكم في الصحبة.

ورأيت أن حضرة الشاه نقشبند ـ قدس الله سره العزيز ـ قد حضر، ودخل معي في قميصي.

ورأيت رجلاً جليلاً جاء وجلس إليّ، فسألته عن اسمه؟ فقال: بهاء الدين.

ورأيت شخصاً قد أتاني بخلعة، وقال لي: إن الغوث الأعظم قد أهداها لك عناية بك.

قال المترجم: وكان حضرة مولانا خالد وقتئذٍ ثَمَّ فذكرها له فقال له: هذه تكون خلعة القطبية، فقال قدس الله سره مع التواضع التام: إني لم أبلغ هذا المقام. اهـ.

ورأيت حضرة المجدد قدس الله سره مرة، فقال لي: أنت خليفتي.

وكنت يوماً في خلوتي ففاحت رائحة زكية جداً عطرت المكان، فلم أنظر

إلى فوق، وإذا بروح معطرة منوّرة قد أحاط بها نور مثل نور الشمس، قد حلت فوق رأسي، فتحيرت بمعرفة ذلك! ثم خطر لي أن هذا التجمل خاص بروح سيد العالم ﷺ، أو روح الغوث الأعظم.

وذهبت لزيارة حضرة الشيخ محمد الباقي بالله قدس سره، فلما جلست رأيته قد قام، وطفق يتوجه إليّ، فدخل وقت الظهر، فقمت مسرعاً، ثم تحسرت على قيامي حسرة لا توصف.

وزرت يوماً حضرة الشيخ قطب الدين ـ قدس سره ـ فلما وقفت عند مقامه قلت: شيء لله شيء لله، فرأيت حوضاً مملوءاً ماء، والماء ينسفح من جوانبه، وألقي إليّ أن صدرك قد مليء من النسبة المجددية ليس لغيرها فيه محل.

وزرت مرة حضرة سلطان المشايخ، فلما توجهت للاستفاضة منه قال لي: إنك قد نلت الكمالات الأحمدية، فقلت: أحب أن تتفضلوا عليّ بنسبتكم، وتوجهت إليه، فوجدت صورته عين صورتي، وصورتي عين صورته، فانصرفت محظوظاً للغاية.

وحضرت تذكار وفاة الشيخ محمد الزبير قدس سره، فرأيته قد حضر، وهو يقول: عليكم بكثرة العبادة، فإنها في هذه الطريق لازمة حتى يفتح لكم باب من التصرف، فقلت له: بماذا نلتم هذه المنزلة فقال: بكثرة التعبد.

ورأيت سيدة النساء ـ يعني جدته فاطمة الزهراء عليها السلام ـ قد أتت منزلي، وقالت: إني بعثت لأجل زيارتك.

وأكلت يوماً طعاماً مشبوهاً، فرأيت حضرة الشهيد ـ قدس الله سره ـ يستقيء، ويقول: لا ينبغي الأكل من كل مكان.

وألقي إليّ مرة: إنا أعطيناك منصب القيومية، وأعطيناك طريقة جديدة.

وقلت يوماً: شيء لله يا شيخ عبد القادر، فقيل لي: قل: يا أرحم الراحمين شيء لله.

وألقي إليّ أن سلطان المشايخ قد أرسل خلفاءه إلى دكهن، فأرسل أنت إلى كابل وبخارى.

وطلبت مرة توسيع منزلي، فألقي إلي: إنه لا أهل لك ولا عيال، فأي حاجة لذلك.

وطلبت مرة من جاري مكانه، فألقي إليّ: لمَ تكلف جارك للخروج؟

وأخذت مرة بالتهيؤ للحج، فألقي إليّ: أن بقاءك ههنا أحسن.

شذرة من كراماته وخوارق عاداته

لا يخفى على سالكي الطريق الإلهي وطالبي الفيض اللامتناهي، أن أعظم الكرامات، وخوارق العادات محبة الله تعالى، واتباع رسوله ﷺ.

وقد كان له قدس الله سره في هذين المقامين المرتبة العليا.

ومن أعظم كراماته تصرفه في باطن المريدين، وإلقاء الفيوضات والأسرار في صدورهم، وما صدر عنه من ذلك لا يسعه التحرير، وتضيق عنه حوصلة التقرير، فكم أوصل إلى مقام التكميل من الرجال مئين، فصاروا من أهل الواردات والجذبات والتمكين. ونال بتوجهاته الأحمدية، المقامات الإلهية، والأحوال العالية، أمم لا تحصى.

وأما تصرفاته وكشوفاته، وحل المشكلات، وقضاء الحاجات، فإنها كثيرة جداً، طالما بها فُرِّجت كُرَب، وحُلَّت عُقَد، وقد كانت كراماته وإلهاماته، وخوارقه مقتبسة من نور معجزاته ﷺ.

وكثيراً ما رآه في المنام جماعة أنه يلقنهم الطريق، فحضروا إلى أعتابه، وبلغوا المقامات العالية وعادوا إلى أماكنهم، وكان ينقل كل واحد من المريدين مع كثرتهم المفرطة من مقام إلى مقام، ويرقيه من حال إلى حال، ويوصله بقوّة توجهاته في أيام قليلة إلى ما لا ينال بسنين كثيرة.

أما من تاب على يده من العصاة، فصاروا من أهل الاستقامة، ومن أسلم من الكفار فجم غفير.

من ذلك أنه حضر مجلسه غلام من البراهمة المجوس جميل الصورة، فوقع عليه بصر الشيخ قدس سره، فنزع في الحال ربقة الكفر من رقبته، ونطق بالشهادتين، وحلى جيده بعقد الإسلام وذهب.

ومرض خادم أعتابه المولوي الشيخ كرامة الله ـ قدس سره ـ بذات الجنب، فوضع يده المباركة عليه، وتوجه بهمته العلية إليه، فبرأ في الحال.

ونظر مرة إلى سفينة وهي جارية، فوقفت من فورها.

وكان أحد أصحابه الكرام الشيخ أحمد يار ـ قدس سره ـ مسافراً في تجارة له، فرأى منصرفه من سفره حضرة الشيخ ـ قدس إلله سره ـ قد دنا من دابته، وقال له: أسرع واسبق القافلة، فإن في الطريق قطاعاً يريدون أخذ القافلة، ثم غاب. قال: فأسرعت حتى سبقت السيارة، فجاء القطاع، فنهبوا القافلة، ونجوت، ولم أزل حتى دخلت داري سالماً.

وذكر حضرة زلف شاه قدس الله سره: أنه أتى قاصداً زيارة حضرة الشيخ ـ نوّر الله مرقده ـ من مكان سحيق فضلَّ عن السبيل، فرأى رجلاً مهاباً، فأرشده.

قال: فقلت له: من أنت؟ قال: أنا ذلك الرجل الذي تريد زيارته. ووقع لي ذلك مرتين.

وذكر الشيخ أحمد يار المومى إليه: أن حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ توجه يوماً لتعزية امرأة صالحة من مريديه ببنت لها كبيرة، وهو في خدمته، فقال لها: عوّضكم الله عنها بغلام! فقالت له بلا توقف: يا سيدي! إني عجوز عقيم، وبعلي شيخ كبير، والولادة في هذه الحالة مخالفة للعادة.

قال: إن الله تبارك وتعالى لقادر، ثم خرجنا من دارها، فدخل سيدنا إلى مسجد في جوارها، فتوضأ وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى لها، ثم التفت إليّ،

وقال: إني دعوت الله تعالى، وظهر لي أثر الإجابة، فيأتيها غلام، فكان كما أخبر قدس الله سره، فلم تلبث أن ولدت غلاماً، وعاش سنين عديدة، ولله الحمد.

ومرضت امرأة من أقارب المير أكبر علي أحد أصحابه الكرام قدس سره، فالتمس من حضرته ـ قدس الله سره ـ أن يدعو الله ـ تعالى ـ لها بتخفيف مرضها، فلم يفعل، فألح عليه، فقال له: لا تبقى هذه المرأة أكثر من خمسة عشر يوماً، فبقدر الله تعالى توفيت يوم الخامس عشر، لكن كان يتوجه المير علي لها برفع المرض خلال ذلك فلم يفد، فلما حضر الشيخ جنازتها قال: إن بركات توجه المير ظاهرة عليها.

وعاد ـ قدس الله سره ـ يوماً الحكيم نامدارخان، فوجده في حالة النزع، وقد أغمضت عيناه، وذهب شعوره، فسأله أهله أن يتوجه إلى الله بدفع مرضه، فنظر إليه ـ قدس الله سره ـ فعاد إليه إدراكه، وفتح عينيه، وكلمه برهة بكلام كثير، ثم قام، فلما وضع قدمه المبارك في باب داره قضى الحكيم نحبه رحمه الله تعالى.

وحبس عم ميان أحمد يار ـ أحد أصحابه الكرام ـ على مال للسلطان، فجاء إليه، وهو يبكي، وذكر له ذلك.

فقال له قدس الله سره: أرسل أحداً يخرجه من الحبس. فقال: كيف ذلك وقد أحيطت القلعة بالمحافظين من العساكر؟ قال: ماذا عليك! اذهب بأمري، أحضره. قال: فذهبنا وأخرجناه من الحبس، ولم يعترضنا من الحرس أحد.

وأتى رجل من بخارى إلى الهند على طريق كابل، فعبر في بحر الأنك، فغرق له جمل عليه أمتعته وتجارته، فنذر لحضرته إن أخرج الله له ماله رغيفين، فأنقذ الله له ذلك من الغرق، فلما تشرف برحابه عرض له ذلك، فقال له قدس الله سره: وهل وفيت بنذرك؟ قال: نعم!.

ومرض ولد المولوي الإمام الفضل رحمه الله تعالى مرضاً شديداً، فرأى

في منامه أن حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ أتى إليه، وسقاه شراباً، فأصبح وقد شفي من مرضه، فقدم هدية جسيمة لجنابه العالي فقبلها، وقال: هذه ثمرة سعينا في الليل.

وأتى إليه شخص فقال له: يا سيدي! قد فقد ولدي منذ شهرين، فادعُ الله أن يرده عليّ، فقال له: إن الولد في دارك فتحير الرجل، وقال له: أنا الآن جئت من الدار، فقال قدس الله سره له: هو في الدار، فامتثالاً لأمره ذهب إلى الدار، فوجد الولد ثَمَّ.

ولما تولى الحكيم ركن الدين خان الوزارة العظمى أرسل إليه يوصيه بأحد أعزائه، فلم يحتفل بوصيته، فتغير خاطره الشريف عليه، فعزل، ولم يتول بعد قط.

وتغير خاطره الكريم على والي دهلي، فعزل حالاً.

وقدم نفر من خلفائه من سفر، فقبل أن يصلوا قالوا لبعضهم: إذا وصلنا وتشرفنا بتقبيل قدمه المطهَّر، فماذا نؤمل منه، فقال أحدهم: أنا أريد سجادة، وقال الآخر: تاجاً، وقال غيره: غير ذلك، فلما تمثلوا في أعتابه أعطى كل واحد ما تمناه.

وكان له سقاء فمرض واشتد مرضه، حتى قارب النزع، فحمله أحد أصدقائه، وأتى به إليه وقت السحر، فتوجه إليه، فشفي.

وقال المولوي كرامة الله أحد أصحابه الكرام قدس الله سره:

لازمت خدمة حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ مدة، ورأيت العجائب والغرائب، فمن ذلك:

أني قمت من بين الجماعة مرة بعد صلاة الفجر، وهو زمن المراقبة والذكر، فأخذت كتابي، وذهبت لأقرأ درسي، فنظر إليّ شزراً، وقال: اجلس واشتغل، ففرط مني أن قلت له: إنما قصدتكم لأنال النسبة بلا محنة، وإلا لأمكنني تحصيلها في كل مكان، فقال لي: اجلس، فبحق بهاء الدين لألقين

إليك النسبة بلا محنة، وتوجه إليّ في الحال، فغبت عن نفسي وسقطت، وكأنه أخرج قلبي من صدري، ثم بعد زمن أفقت، فإذا به قد فرغ من الذكر، وقد أصابتني الشمس، وكان خواص أصحابه حينئذ حاضرين كالشاه أبي سعيد قدس سره، فخجلت منه. فقالوا: ما الذي اعتراك؟ فقلت لهم: غلبني النوم فتبسموا.

ووقع في دهلي قحط فخرج ـ قدس الله سره ـ إلى صحن مسجده فجلس فيه وكان شديد الحرارة من الشمس، وقال: يا رب! لا أبرح جالساً، حتى تسقينا، فمطر الناس من ساعتهم.

وسألته امرأة أن يعطيها ما تطعم مريضاً، فأعطاها خبزاً، وقطعة لحم، فلما وصلت إلى دارها انقلب اللحم حلواء، ومات مريضها. ثم صار ذلك علامة على موت مريض يرسل به إليه.

وطلب من جارة له ـ وكانت رافضية ـ مكاناً لتوسعة الرباط، فما رضيت بالبيع، وأطالت اللسان في شأنه، فرفع طرفه إلى السماء، وقال: يا رب! سمعت كلامها. فلم يلبث أن وقع في أقاربها وذريتها الموت، حتى لم يبق إلا واحد منهم، فوهبت ذلك المكان لحضرته.

وجلس رجل مبتدع عند قبر حضرة الشيخ محمد الباقي بالله ـ رضي الله عنه ـ فمنع فما امتنع، فقال له الشيخ: بحق بهاء الدين أن لا تقدر على الجلوس، فأخذه الحمى النافض في الحال، فقام مضطراً، ومات في اليوم الثالث. إلى غير ذلك.

ومن أراد الزيادة فعليه بكتاب «الجواهر العلوية» لمولانا الشاه رؤوف أحمد المعصومي، فإنّ فيه العجب العجاب.

أحوال انتقاله وانتقال أحواله

كان قدس الله سره يقول: إني أحب الشهادة في سبيل الله تعالى، ولكن أتذكر ما حصل للناس في شهادة شيخنا مرزا جان جانان ـ رضي الله عنه ـ من

البلاء، إذ قحطوا ثلاث سنين، ومات بذلك خلق كثير، ووقع قتل وحروب لا تعد، فاترك سؤالها.

وقد غلب عليه البواسير آخر مرضه، وكان الشيخ أبو سعيد وقتئذٍ في مدينة لكهنؤ، فأرسل إليه في برهة يسيرة كتباً كثيرة يحثه على الحضور، ليكون قائماً مقامه، وأن يستخلف مكانه نجله الشيخ أحمد السعيد أحد خلفاء حضرة مرشده المكرم، فترك أهله وأتى مخفاً، فلما تشرف بلقائه قال له: كان مرادي إذا لقيتكم أن أبكي كثيراً، ولكن أتيتني في وقت لا يمكنني فيه ذلك، ثم التفت بكليته إليه، وأوصى له بخلافة الإرشاد العام.

وكان من عادته المستمرة أنه إذا حصل له شائبة مرض أوصى قلماً، وأكد لساناً بمداومة الذكر، وتحسين الأخلاق، وتقوية النسبة الشريفة، ومجاملة المعاملة مع الجميع، والإعراض عن الاعتراض بلو ولِمَ على مجاري القضاء، وملازمة الاتحاد مع الإخوان، والتفرغ للعبادة بالفقر والقناعة والرضا والتسليم، والتوكل. فجدد هذه المرة تلك العادة المستمرة، وقال: إذا قضي الأمر، فاحملوني إلى المكان الذي فيه الآثار النبوية، التي في جامع دهلي، واطلبوا لي من صاحبها الشفاعة.

وقال: لما احتضر سيدنا شاه نقشبند ـ قدس الله سره العزيز ـ قال: لا أرى من الأدب أن تقرأ أمام جنازتي الفاتحة أو آية مطهّرة، أو تذكر كلمة التوحيد، ولكن أنشدوا هذين البيتين:

مفلسانيم آمده دركويتو شيء لله ازجمال روى تو
دست بكشا جانب زنبيل ما آفرين بردست وبربهلوي تو

وكذلك أقول: فأنشدوا أمام جنازتي هذين البيتين:

وفدت على الكريم بغير زاد من الحسنات والقلب السليم
فحمل الزاد أقبح ما رأينا إذا كان القدوم على الكريم

فلما كان وقت الإشراق من يوم الإثنين ثاني عشري صفر، أمر بحضور أبي سعيد من داره سريعاً، فنظر إليه، ثم وضع رأسه في صدره، وهو جالس على هيئة الاحتباء وقتئذٍ، فالتحق بالرفيق الأعلى، فغسل بأمواه الأنوار، وكفن بأثواب الأسرار، وحمل على أطراف الأصابع إلى المسجد الجامع، وقد انفضت لأجله المجامع، وهرعت لرباطه الناس، حتى غصت بالمشيعين الجواد والشوارع، فصلى عليه الإمام أبو سعيد، ووضعوه تبركاً عند الآثار النبوية، ثم أتوا به الخانقاه، فدفنوه في الجانب الأيمن من البقعة المباركة، التي ضمت مرشده الشهيد، وكان لمشهده في دهلي يوم مشهور.

وطفقت أدباء الهند تعمل الخاطر، لإنشاء ندبه ورثائه، بأنفس القصائد، وأبدع التواريخ، كلها بالفارسية إلا تاريخين، أحدهما: نثر وهو (نوّر الله مضجعه)، وثانيهما: ضمن مقطوعة بالفارسية وهو قوله تعالى: في ﴿روح وريحان وجنة نعيم﴾ [الواقعة: ٨٩]، فنظمتها تبركاً به، فقلت في الأول:

حضـرة القطـب الـدهلـوي رغـب الحـق مـرجعـه
فلهـــذا إذ أرخــوا نــوّر الله مضجعــه

٢٥٦ ٦٦ ٩١٨ ١٢٤٠

وقلت في الثاني:

الـــدهلـــوي الشـــاه عبـــد الله ذا الغـوث العظيـم
أرخـــه فـــي روح وريحـــان وجنـــات النعيـــم

٣٠٤ ٢٧٥ ٤٦٠ ٢٠١ ١٢٤٠

ومن ذلك بيت فيه تاريخ ولادته وحياته، ووفاته قدس الله سره العزيز:

بـ(مظهـر جـود) جـاء مـدة عيشـه (إمام) قضى قل (نور الله مضجعه)

١١٥٨ ٨٢ ١٢٤٠

وله قدس الله سره خلفاء حنفاء، هم علماء الأولياء، وأولياء العلماء، ملؤوا الخافقين إرشاداً، والثقلين إمداداً.

من أجلهم مجداً، وأكبرهم جداً: العارف بالله تعالى الشيخ الشاه أبو سعيد نجل العارف الكبير الشيخ صفي القدر، شبل العارف الكبير الشيخ عزيز القدر، فرع العارف الكبير الشيخ محمد عيسى، نتيجة العارف الكبير الإمام معصوم، خلاصة العارف الكبير الإمام الرباني قدس الله سرهم.

ولد في بلدة مصطفى آباد، وتعرف برامپور ـ مدينة على ثمان مراحل من دهلي ـ عام ستة وتسعين ومائة وألف، وعليه آثار الولاية والنجابة، ثم تربى في حجر والده العزيز، وكان من العارفين الزاهدين الوارثين للمعالي المجددية، المتمكنين في الحديث والتفسير والحقائق وغيرها، وتخرج على يده، وعلى مفتي تلك الديار يومئذٍ العلامة شرف الدين، وعلى العلامة المحدث رفيع الدين، وأخيه العلامة الشاه عبد العزيز ابن المحدث الكبير الشاه ولي الله، وعلى المحدث العلامة ثناء الله پاني پتي، حتى صار عالماً مفسراً متقناً لكل الفنون.

وتلقى الطريق المجددي والنقشبندي عن والده قدس الله سره، ولازم خدمته، والاستفاضة من أنوار أسراره، حتى توفي عام ست وثلاثين ومائتين وألف.

ثم قدم دهلي، وحظي بشرف خدمة حضرة الشاه عبدالله قدس الله سره، فقدمه، وعظمه، ورباه، وكلمه. حتى إذا حضرته الوفاة عهد إليه بالخلافة من بعده، فثابر على القيام بأعبائها نحو تسع سنين، وحصل على يده نفع كبير، وتكمل عنده خلق كثير.

ثم توجه سنة تسع وأربعين إلى الحجاز، فاستقبله العالم العامل، والمرشد الكامل، سيدنا الشيخ محمد جان شيخ الحرم المكي وقتئذٍ، وأحد خلفاء حضرة الشاه الدهلوي قدس الله سره، وأعيان البلد الحرام، وأكرموا نزله، فلما أتم تفثه اعتراه داء البطن، واشتد عليه المرض، فلم يزل في مكة المكرمة، وبواعث أشواق الزيارة تزداد آناً فآناً، حتى وجد في نفسه أدنى خفة، فقصد المدينة المنوّرة، فاستقبله الإمام الجليل، والمرشد الكامل التكميل، السيد

الشيخ اسمعيل المدني، أحد أجلاء خلفاء سيدنا القطب الدهلوي قدس الله سره، ومعه جماهير أهل المدينة المنوّرة، ورفعوا من شأنه، وبالغوا في خدمته، فزار تلك الحضرة المحمدية، وفاز بالمثول في هاتيك المعاهد النبوية، ثم عاد مكرماً إلى أوطانه، وقد أخذ يتزايد مرضه يوماً فيوماً.

فلما وصل إلى بلدة لونك - على إحدى عشر مرحلة من دهلي - ثاني عشرى شهر رمضان غلبه الضعف، فتخلف ثَمَّ لذلك، فما زال المرض يزداد إلى يوم عيد الفطر، فتوفي بعد الظهر من يوم الأحد، وذلك عام خمسين ومائتين وألف، فجهز ووضع في تابوت، وحمل إلى دهلي، ودفن إلى جنب حضرة مرشده الشيخ عبد الله الدهلوي، فلما أرادوا لحده أخرجوه من تابوته، فتضوّعت منه رائحة زكية عطّرت الأرجاء، حتى كأنه جهز ذلك الوقت قدس الله سره.

وممن ذكر: نجله العالم الفاضل والمرشد الكامل الشيخ أحمد سعيد قدس الله سره.

ولد في غرة ربيع الأول عام سبعة عشر ومائتين وألف في رمپور، وتربى من أول يوم في مهد والده المعلوم، وارتضع منه ثدي المعارف والعلوم، وتخرج على يد العلامة الأوحد المولوي فضل الإمام، والعلامة الشيخ سراج الدين المفتي السالف البيان في المعقول والمنقول وغيرهما، وتلقى فن الحديث والكتب الستة وغيرهما، عمن تلقى عنهم والده بروايتهم لها عن والدهم الشيخ ولي الله عن الشيخ أبي طاهر محمد المدني عن والده الشيخ إبراهيم الكردي عن الشيخ أحمد القشاشي عن الشيخ أحمد الشناوي عن شمس الدين الرملي بسنده المشهور في ثبته، وطرفاً من الحديث والتصوف بأجمعه عن مرشده سيدنا الشيخ عبدالله الدهلوي، وتلقن الطريقة العلية عن والده في حضور المرشد المعظم، فالتفت إليه، وألقى إكسير نظره العالي عليه، وجعل يقربه ويجلسه في حلقة الذكر منذ كان سنه عشر سنين، ويقول: هو بمنزلة ولدي، ولم يزل يلحظه بأنفاسه الرحمانية، ويحفظه بهمته المحمدية، حتى بلغ مبلغ الكمال،

ونال درجة الفحول من الرجال، فأذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة عامة، وأثنى عليه، وأدرجه في زمرة كبار أصحابه الأمجاد، فقال قدس الله سره في حقه: أحمد سعيد ابن حضرة أبي سعيد، قد قارب والده بحفظ القرآن المجيد، وتحصيل العلوم العقلية والنقلية، وتحصيل النسبة المجددية العلية.

وقال في شأنه: أبو سعيد أسعده الله، وأحمد سعيد جعله الله محموداً، ورؤوف أحمد رأف الله به، وبشارة الله بشره الله بقبوله سلم الله هؤلاء الأربعة الأكابر المرتبطين بالمودة، التي هي أحسن من ارتباط القرابة، وبارك فيهم، وجعلهم سبباً لترويج الطريقة، وأكثر أمثالهم.

ثم لما أن دعا حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ والده من رامپور إلى دهلي أمره أن يخلفه مكانه، فلما توفي والده قدس سره قام مقام الحضرتين، وأرشد الله به عدداً لا يحصى من الفريقين، لا سيما في اضلاع الهند وغزنين، وكلٌّ حصَّل من حضرته بقدر استعداد حوصلته، وله خلفاء كثيرون نفع الله بهم العباد، وأحيا ببركتهم أكثر البلاد، ولما ظهر في بلاد الهند ما ظهر من الفساد، خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ومعه أخواه الشيخ عبد الغني، والشيخ عبد المغني، واستوطنوا المدينة المنوّرة، وذلك سنة أربع وسبعين ومائتين وألف، واشتغل بالطريقة العلية كل الاشتغال، ونال أعلى مقامات القبول والإقبال، ثم توفي في تلك الأماكن الطيبة ثاني ربيع الأول عام سبعة وسبعين ومائتين وألف، ودفن في البقيع عند ضريح أمير المؤمنين سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ في مشهد عظيم لم يتخلف عنه أحد.

وقد قيل في تاريخه: عاش سعيداً مات شهيداً. سنة ١٢٧٧ فإنه توفي غريباً في داء البطن والحمى.

وممن أرخوا وفاته: العالم الجليل الإفاده، الشيخ عبد الجليل براده، أحد أجلاء أعيان المدينة المنورة، فقال:

قضى قطب الأقطاب الشهير بأحمد ... سعيد إمام العلم والحلم والهدى
منــار الطــريــق النقشبنــديــة التــي ... لها جده في الألف أضحى مجددا

ومذ حل في ذا القبر ناديت أرخوا سعيداً شهيداً في الجنان مخلدا
١٢٧٧

وقال غيره:

هوى البدر فاغبرّ وجه الوجود وأينع بالزهر روض اللحود
وقطب الهدى مذ قضى أرخوا لأحمد تهدى جنان الخلود
١٢٧٧

ومن أحب الوقوف على تفصيل أحوال هذا العزيز، وأحوال والده، وخلفائهما، وكراماتهما وكلماتهما، فليرجع إلى «المقامات الأحمدية السعيدية» تأليف ولده الشيخ محمد مظهر، فإنه يرى العجائب.

وممن ذكر: نخبة المرشدين، وعمدة المؤدبين المربين، المولوي الشيخ محمد شريف قدس سره، حَصّل العلوم في رامپور، وتشرف بخدمة حضرة الشيخ قدس الله سره، فأتم سلوكه، ثم ذهب، فنال في بلاد ضلعة پنجاب وكشمير غاية القبول والإقبال، وتهذب ببركته خلق كثير، ثم توفي في بلدة هوشياريور، فنقل إلى سرهند، ودفن قرب مقام الإمام المعصوم قدس الله سرهما.

وممن ذكر: العالم الجليل، والمرشد النبيل الشيخ ملا خدا بردى التركستاني قدس سره، لازم خدمة حضرة الشيخ ملازمة قوية، حتى أذن له بالإرشاد في الطريقة النقشبندية، فعاد إلى بلاده، وانتفع أهل البلغار به نفعاً عظيماً، جزاه الله خير جزائه.

وممن ذكر: الشيخ ملا علاء الدين قدس سره، كان نادرة المرشدين، ومؤمل المسترشدين، تلقى الطريقة العلية عنه قدس الله سره، فأحسن تربيته، وزاد في دولة الوصول إلى الله ترقيته، ثم أذن له بالإرشاد العام، فتوجه إلى بشاور، فأيقظ الله به نفوساً غفلاً، وفتح به قلوباً غلفاً، وفازوا ببركته بخيري الدنيا والدين.

وممن ذكر: رفيع الهمم والمراتب، الولي الكامل، الشاه سعد الله صاحب ـ قدس سره ـ تشرف في خدمة أعتابه، وأتم مقامات السلوك في رحابه، فأذن له بالإرشاد في كل البلاد، فتوجه إلى الحجاز، ثم عاد إلى دكهن حيدر أباد، ورفع عَلَم هذا الطريق المتين، فأصبح عموم أهلها له من المخلصين، وكان كريم الطبع، بحيث كان يوجد في رباطه دائماً من المريدين نحو مائة وخمسين مريداً، كل ذلك مع الإعراض والانقطاع عن أبناء الدنيا، والإقبال على رب العالمين.

وممن ذكر: العالم الرباني، الولي الكامل، الملا عبد الكريم التركستاني ـ قدس سره ـ: قدم على حضرته العلوية، ونال أعلى مقامات السلوك المجددية، وأذن له بالإرشاد المطلق، فذهب إلى مدينة سبز، فانقاد إليه أميرها ومأمورها، وكبيرها وصغيرها، وحصل للطريق ببركته رواج عظيم، وهدى الله به كثيراً من أهل ذلك الإقليم.

وممن ذكر: المرشد المسدد، والولي المؤيد، الشيخ ملا غلام محمد ـ قدس سره ـ قدم من ضلعة أنك على أبوابه فرباه، وهذبه وكمله، وأوصله إلى الله تعالى، ثم أذن له بخلافة الإرشاد، وأعاده إلى بلاده، فأرشد الله به الجم الغفير، ثم قصد البيت الحرام فحج وعاد، ففي أثناء الطريق قضى نحبه، ففاز بشهادة الغربة.

وممن ذكر: مظهر الإمداد الموفور، الولي الكامل الشيخ مرزا عبد الغفور الجرجوي ـ قدس سره ـ تشرف بخدمة حضرة الشيخ في عنفوان شبابه، فنال من جنابه تمام الالتفات، والتربية في سلوك جميع المقامات، وكان له في سلب المرض الحسي والمعنوي النظر الإكسير، وكثيراً ما كان حضرة الشيخ يرسل إليه المرضى، فربما يشفي الله المريض بتوجه واحد، ودخل الطريقة يوماً شخص، فأرسله حضرة الشيخ إليه لتنبيه لطائفه، فتوجه له مرة واحدة فجرت لطائفه، ثم أعاده إلى الشيخ، فعرف ذلك منه بمجرد النظر إليه، وأخبر أصحابه.

ومن كراماته أنه سرق لابنته مال، فأخبرته فقال: هو في المكان الفلاني. توفي في بلدة جرجة، ودفن ثَمّ قدس سره.

وممن ذكر: المرشد الأرشد، والولي الكامل الأوحد، الشاه رؤوف أحمد ـ قدس سره ـ تشرف بالسلوك عند حضرة الشيخ قدس الله سره، حتى بلغ أعلى منازل الوصول، وصار آية باهرة في إتقان العلوم الظاهرة، إلى ذوق بالمعارف الإلهية، ونَفَس بالشعر الهندي والفارسي نفيس، وهو الذي جمع مقامات، وكلمات حضرة الشيخ في تأليف سماه «الجواهر العلوية» ولم أره بعد، ونسبه يتصل بالإمام الرباني بواسطة أصغر أبنائه سيدنا الشيخ محمد يحيى قدس الله سره.

ثم لما تمَّ بدره، وانتهى سيره، أذن له بالإرشاد، فذهب إلى بلدة بهوپال، فأقبل عليه أهلها بالقبول من أمير وفقير، وسطع بها نور الطريق، وحصل له بهدايتهم تمام التوفيق، ثم عام أحد أو اثنين وخمسين قصد الحرمين الشريفين، فتوفي في السفينة حذاء يلملم، ففاز بشهادة الغربة، وهنالك دفن قدس سره.

ومن أعظمهم: المرشد الكامل، والولي الواصل، المولوي بشارة الله ـ قدس سره ـ خدم أعتاب حضرته، حتى حاز معالي نسبته، وفاز بشرف خلافته، وهو من الأربعة الماري البيان.

ومن أجلهم: خليفة العلماء، وعالم الخلفاء، المولوي المحدث الشيخ كرم الله ـ قدس سره ـ تشرف والده بالإسلام، وصار من مريدي الشيخ فخر الدين، ولأجله صنف الشاه عبد العزيز تفسيره المشهور، قدم على رحاب حضرة الشيخ، وبذل قصارى الهمة في تحصيل النسبة العلية، فظفر بالمرام، وخلفه خلافة عامة، وكان له في فن القراءة اليد الطولى، بحيث تلمذ له ولطلبته جميع أهل دهلي، وقد حج البيت الحرام أولاً، وتوفي في الطريق ثاني مرة. قدس الله سره.

ومن أفضلهم: روض الأنوار، وبحر الأسرار، المولى الشيخ عبد الرحمن

شاهجان پوري ـ قدس سره ـ خدم كثيراً من الأكابر فلم يحظ بالمراد، ثم حضر إلى خدمة الشيخ نفعنا الله به، فسلك حتى ملك عرش الخلافة، وكان في الزهد والانقطاع عن أبناء الدنيا وعدم الالتفات إلى السوى آية عجيبة، وكثيراً ما رغب نواب فرخ أباد بخدمته وإكرامه، فلم يلتفت إليه أصلاً.

وله خلفاء أولو نسبة قوية، وكشف ووجدان صحيح، حصل بهم في شاهجان بور للطريقة العلية رواج عظيم.

ومن أكرمهم: صاحب الأنفاس القدسية، والهمم النقشبندية العلية، المير طالب علي المشهور بالمولوي عبد الغفار ـ قدس سره ـ قدم بعد تحصيل العلوم الدينية على أعتاب حضرة الشيخ، لكسب النسبة المجددية، فنال ببركته مرامه، وقصد البيت الحرام، ثم توطن زبيد، فحصل بأسراره وأنواره نفع عام للعبيد، حتى أتم بها أيامه.

ومن أحسنهم: العالم الجليل، والمرشد النبيل، الشيخ السيد إسماعيل المدني ـ قدس سره ـ تلقى الطريقة العلية عن حضرة مولانا خالد ـ قدس سره ـ أولاً، ثم رأى رسول الله ﷺ في الواقعة مرة، فقال له: اذهب إلى دهلي، وتلقَّ النسبة المجددية من شاه غلام علي، فبادر بالامتثال، وحضر في الحال، فقام ـ قدس الله سره ـ بأعباء تربيته، واعتنى به حتى تأهل لخلافته، وصار من أهل الأذواق العالية، والمقامات السامية، ثم عاد إلى الحرم المدني المطهَّر.

وقد قدمنا عند ذكر كرامات حضرة الشيخ ـ نوَّر الله مضجعه ـ أنه أحضر معه آثاراً نبوية، وجعلها في المسجد الجامع في دهلي، وأخبر الشيخ، فقال: إنه يوجد في مكانها ظلمة الكفر فدققوا النظر، فإذا فيه تصاوير بعض الملوك فأزيلت.

ومن أسعدهم: دليل حيرة ليل الطالبين، وشفاء غليل العشاق الصادقين، صفوة المرشدين الهادين المهديين مرزا رحيم الله بيك المسمى بمحمد درويش العظيم آبادي ـ قدس الله سره ـ تشرف بخدمة حضرة الشيخ متجرداً عن علائقه بالكلية، فسلك حتى أتم سلوكه، وفاز بالإجازة والخلافة الروحانية، ثم لبس

مسحاً أسود، وتوجه إلى بخارى لزيارة سيدنا ومولانا شاه نقشبند قدس الله سره العزيز، وساح في أكثر بلاد الإسلام مثل: الروم والمغرب والحجاز والعراق والشام وهندستان وما وراء النهر وخراسان، ولما قدم سليمانية الأكراد لقي حضرة مولانا خالد قدس الله سره، فشكى له عدم وجود المرشد إلى الله تعالى، فأخبره بوجود مرشده القطب الدهلوي، وأنه الغوث الأعظم والمرشد الأكبر، وأنه أشار إلى قدوم عالم من بلاد الروم إليه وقال له: أرجو أن تكون أنت، فهلم أوصلك إلى حضرته، فشرح الله صدر حضرة مولانا إلى خبره وسار الدرويش محمد في خدمته، حتى وصلا إلى دهلي، فجزاه الله خير الجزاء.

وتكلم بعض الناس في حقه عند حضرة مولانا خالد بما لا يلائم، فأراه الله إياهم على صورة الخنازير، فزاد اعتقاده بحضرة الدرويش محمد، ولبث تسعة أشهر في معيته، ثم عاد لسياحته.

وكان له جراءة تامة على الملوك والأمراء في الحسبة، وقدم راسخ في الإرشاد، نفع الله به كثيراً من العباد في أكثر البلاد، ولو لم يكن من مناقبه إلا اندراج حضرة مولانا وأصحابه في صحيفته لكفى.

ثم ألقى عصا التسيار في مدينة سبز ـ بسين، فموحدة، فزاي معجمة ـ أي: المدينة الخضراء، وهي من أعمال بخارى، وتزوج من أهلها، وتمذهب للإمام الشافعي رضي الله عنه، وحصل له بها ظهور عظيم بخدمته للصادر والوارد، وأحبه واليها محبة مفرطة مع الإخلاص التام، فاغبر يوماً خاطر أحد حكام تركستان من والي سبز فدس على الشيخ سماً فقتله إغاظة للوالي، ففاز بسعادة الشهادة قدس سره.

ومن أنفسهم: نور شمس العلماء، ونور روض الخلفاء، الأخوندشير محمد ـ قدس سره ـ تشرف بعد التضلع من العلوم الشرعية بتقبيل عتبة حضرة الشيخ، وتلقى الطريقة العلية، واشتغل بتحصيل المقامات المجددية، حتى أدرك مناه بالخلافة والإذن بالإرشاد، ولفرط استغراقه في الذكر والخدمة طرأ عليه الذهول عن المسائل العلمية، بحيث صار يعسر عليه أسهل تركيب في

النحو، ثم التفت إلى العلم بكليته وجعل يقرأ للطالبين دروس الفنون، ويأمرهم بالتقوى وفعل الخير، فانتفع منه خلق كثير، ثم غلب عليه الضعف، فترك التدريس، وباع كتبه كلها، وعكف على تلاوة القرآن المجيد وصلاة الفرائض، وإذ صارت الهند دار حرب كره المقام بها، فهاجر إلى الحجاز، فتوفي في الطريق في بلده ملتان، ووقع أجره على الله عز وجل.

ومن أكملهم: كعبة الإرشاد وعرفات العرفان، شيخ الحرم المكي العلامة الجليل الشيخ محمد جان ـ قدس سره ـ حظي بعد تحصيل جميع العلوم بخدمة حضرة الشيخ قدس الله سره، ودخل الرياضة غير مرة، وكان يذهب كل يوم لزيارة حضرة الشيخ قطب الدين قدس سره سبع مرات نهاراً، ويتعبد الليل كله ثَمَّ، ويحضر صباحاً معه قلة من ماء هنالك طيب لحضرة الشيخ، ولم يزل كذلك حتى اغتنم بركة الإذن بالإرشاد والخلافة المطلقة، ثم عاد إلى مكة المكرمة فلقي من الاشتغال بالطريق أولاً شدة عظيمة، ثم ألقى الله عز وجل في قلوب الأمراء محبته والاعتقاد به، فأظهر شعار الطريق وانتشرت خلفاؤه في أكثر بلاد الروم، حتى وصلوا إلى الآستانة العلية، فحصل لهم القبول التام، وبلغ أمره والدة السلطان الغازي عبد المجيد خان فاعتقدت به، وأمرت ببناء رباط له في الحرم المكي، فتحول إليه وواظب على خدمة المريدين من كل صادر ووارد وإغاثة الطالبين، حتى عم نفعه وتم بدره، وتوفي في حدود سنة ست وستين ومائتين وألف.

من كراماته: ما ذكره خادمه فقال: كان لي غلام مراهق مرض مرضاً شديداً أشرف فيه على الهلاك، فحملته إلى رباطه ليلاً، فإذا هو في المراقبة، فوضعته أمامه، وسألته أن يدعو له بالشفاء، فتوجه بنظره الشريف إليه، فعافاه الله تعالى.

وذكر بعضهم: أنه أحب يوماً امرأة حتى كاد أن يهم بالفاحشة، فذكر ذلك له وقال له: إني لم يبق بيني وبين اقتراف الكبيرة شيء، وإن أصبت ذلك كان عاراً عليكم عند الله تعالى.

قال: فاهتم لأمري كل الاهتمام، وقال لي: قل: لاحول ولا قوة إلا بالله، فقلت: سبحان الله! إني أقولها دائماً، فقال: قل ذلك بقولي، فقلتها، فكأنه حيل بيني وبين تلك المرأة بالسد الاسكندري، وزالت قوة الشهوة مني ثلاث سنين.

ومن أسعدهم: صاحب الهمم العالية، والأنفاس القدسية الغالية، السيد أحمد الكردي ـ قدس سره ـ: تلقى الطريق عن حضرة مولانا خالد في بغداد، ثم رأى سيد العالم ﷺ يشير إليه بقصد دهلي، فحضر إلى حضرة الشيخ، وسلك عنده مقامات الطريق العلية حتى أتمها، فأجازه وخلفه، وعاد فمرض في خلال الطريق، فرأى فخر الكائنات ـ عليه أشرف الصلوات والتسليمات ـ فعلمه صيغة صلاة، فصلى عليه بها، فشفاه الله تعالى.

ومن أنجبهم: شمس فلك الأسرار الربانية، وبدر أفق المعارف الفهوانية، الشيخ السيد عبدالله المغربي. قدم على حضرة مولانا خالد ـ قدس سرهما ـ ثم أدرك فضل التشرف بالحضرة الدهلوية، ونال آماله بعد بذل قصارى الجد بتحصيل الرياضات الشاقة، والمجاهدات القوية، من الجناب العالي، وخلفه وأذن له بالإرشاد في كافة البلاد.

ومن أحسنهم: تاج هام المرشدين، وعقد جيد المهتدين، الشيخ ملا پير محمد ـ قدس سره ـ قبّل عتبة حضرة الشيخ، وفاز بنظره الشريف، وسلك على يديه حتى أتم المقامات.

وكان له استغراق عجيب، زار مقام سيدنا جان جانان الشهيد قدس الله سره مرة، فبقي جالساً من أول الليل إلى آخره، بحيث هطلت الأمطار فوق رأسه ولم يتحرك، ثم تفضل عليه بالخلافة، وأذن له بالإرشاد، فنزل كشمير، وحصل ببركته لأهلها نفع كبير.

ومن أزكاهم: روح العلوم والأسرار، وروح أئمة الهداية الأبرار، الملا الشيخ كَلْ محمد الغزنوي ـ قدس سره ـ أقبل على شريف رحاب حضرة الشيخ،

وأخلص في خدمته، والاشتغال بسلوك طريقته، حتى بلغ المراد فأذن له بالإرشاد، فعاد إلى غزنين، وأرشد كثيراً من المريدين، وخلف زمرة منهم، ثم ذهب إلى البيت الحرام، وانتقل بالوفاة إلى دار السلام.

ومن أعزهم: خلاصة أهل القلوب، والمرشد إلى علام الغيوب، الشيخ المولوي محمد جان الهروي ـ قدس سره ـ صرف العزم في سلوكه تحت أنظار حضرة الشيخ، حتى ملك منزلة الخلافة العليا، وعاد إلى وطنه، فهدى الله به في هراة وقندهار الجم الغفير، ونالوا بأنفاسه المباركة من إرشاده خيراً كثيراً.

ومن أوحدهم: الإمام الرفيع الشان، نخبة علماء الخلفاء الأعيان، الشيخ محمد عظيم ـ قدس سره ـ تشرف بالوفود على رحاب حضرة الشيخ، وبذل الهمة بنوال النسبة العلية المجددية، حتى عطف عليه بالخلافة السنية، ثم بعد انتقال حضرة الشيخ توجه إلى الحج، فتوفي ثَمَّ.

ومن أولاهم: العلامة الصالح، والولي الفالح، الشيخ المولى نور محمد ـ قدّس سره ـ انتظم في سلك خدام أبواب حضرة الشيخ، ووجه أقصى الاهتمام بالرياضات والخلوات، حتى منّ الله تعالى عليه بالفتح، وألهم حضرة المرشد أن يتعطف عليه بالإذن بالإرشاد، وينظر إليه بعين الإسعاف والإسعاد.

ذكر أنه قال ـ قدس الله سره ـ في شأنه: أربع هم فخر المريدين: المولوي شير محمد والمولوي محمد جان، والمولوي محمد عظيم، والمولوي نور محمد. وكل واحد منهم كان بحراً زاخراً في العلوم كلها.

ومن أرجحهم: زينة جبين العابدين، وتوريد وجنة المرشدين الزاهدين، الشيخ مرزا مراد بيك ـ قدس سره ـ خصه الله بمنقبة خدمة حضرة الشيخ وقبوله، والميل إليه بالتربية والترقية إلى مقامات الولاية، ففاز من علو همة الأستاذ بالمنى، وأذن له بالإرشاد وخلفه، وكان لفرط زهده يسميه جنيد الوقت، وكان ذا نسبة قوية انتفع به عالم كبير، توفي زمن حضرة الشيخ، ودفن عند قدم حضرة الشهيد قدس سرهما.

ومن أسعدهم: تحفة المرشدين، ونخبة الصلحاء المهتدين، الشيخ محمد منور ـ قدس سره ـ حاز شرف الخدمة، ونال المقامات السنية بعلو الهمة، فأذن له حضرة الشيخ بالإرشاد، وأسعده بالفيوضات والإمداد، حتى صار له نسبة تامة نفع الله بها الخاصة والعامة.

ومن أنجبهم: عمدة الصالحين، وبركة المرشدين، الشيخ ميان قمر الدين ـ قدس سره ـ كان من كبار الطريقة القادرية، وكثير الإنكار على الطريقة المجددية، فما نشب أن قدم من بشاور إلى خدمة حضرة الشيخ منقاداً وأخلص في خدمة أعتابه، والاشتغال بالسلوك والرياضات تحت قبابه، فأنعم عليه بالإجازة والخلافة العظمى، وعاد إلى أوطانه شاكراً محض إحسانه.

ومن أصدقهم: الإمام الهمام، فذلكة المرشدين العظام، الشيخ خليل الرحمن ـ قدس سره ـ هو خادم حضرته الخاص بعتبته، وكان ـ قدس الله سره ـ له التفات كبير لجهته، واعتناء تام بتكميله وتربيته، وهو على قدم الاستقامة بالتمثل بين يديه والقيام بأعباء خدمته، حتى نال شرف النسبة المجدية المجددية، وتوفي زمن حضرته شهيداً، ودفن تحت قدم حضرة الشهيد قدس سرهما.

وله ـ قدس الله سره ـ عدة خلفاء غيرهم، ممن عجز اللسان عن حصرهم، والقلم عن سبرهم، وأشرقت بهم الدنيا، وفازوا من الهداية بالمقامات العليا، ولو لم يظهر من آثاره، ويصدر عن بحار أسراره، إلا شيخ هذه السلسلة المصونة، وأعظم من سرى إليه سر هذه النسبة المكنونة قطب العارفين وشيخ مشايخنا، وحضرة مولانا: الشيخ خالد العثماني السليماني لكفى شرفاً.

***

حضرة سيدنا ومولانا

أبو البهاء ضياء الدين الشيخ خالد بن حسين الشهرزوري العثماني الشافعي النقشبندي القادري الكبروي الچشتي المجددي قدس الله سره العزيز

العالم كل العالم، الذي فاق علماء الآفاق، وشهد بفضله العالم على الإطلاق، والعارف كل العارف، مطلع أنوار بدر الطريقة الذي لا يعتريه سرار، والمطلع على أسرار الحقيقة، وحقيقة الأسرار، والمرشد كل المرشد، من سرى سرّه في الأنام سريان الأرواح في الأجسام، أحيا بهمته القوية من النفوس الغوية ما أحيا، وبكلماته الولوية ما لو لم تختم الدعوى النبوية لكان وحياً، ونشر من العلوم الشرعية ما طوى ذكر السلف، وأظهر من المعارف الإلهية ما خفي على كثير من الأولياء عرف ذلك من عرف، كما قلت:

الغوث صح وجوده إن شاءه ... والغيث أبدع جوده إنشاءه
البحر علماً والسماء مكانة ... والشمس نوراً فانظروا نظراءه
من شاء أن يلقي الفضائل كلها ... ورأى مآثره يجد ما شاءه
فازت بما فازت عزائمه الكبا ... ر وعظمت أفعاله أسماءه[1]
كيف السلوك إلى ملوك صفاته ... والله قدّس في الكتاب علاءه[2]

---

(١) قوله (أسماءه): أي عن نسبة التعطيل إليها، فكان إلى جانب الأسماء التي تسمى بها متحققاً بحقائقها متخلقاً بمعانيها. (ع).

(٢) قوله (كيف السلوك): أي كيف الوصول لأمثالنا إلى مِلك صفات القوم والله سبحانه اختصهم بها، فلا ينالها مِن بعدهم إلا مَن سرى إليه سرُّ الاختصاص. ورحم الله الشيخ أبا مدين شعيب إذ يقول:

مَنْ لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم ... على موارد لم آلف بها كدرا
أحبهم وأداريهم وأوثرهم ... بمهجتي وخصوصاً منهم نفرا =

لم يبق فخر في البرية باهر ودعـاه إلا واستجـاب دعـاءه
نفسي الفداء له وعين سعادتي إن كـان يقبـل أن أكـون فـداءه

فهو عالم الأولياء الكاملين، وولي العلماء العاملين، انتهى إليه في المعقول والمنقول، علم الفروع والأصول.

وأما بُعْد صيت إرشاده، وامتداد بركة إمداده، فهو ظاهر في الربع العامر ظهور البدور، فتبارك من جعله قطب دائرة الهداية، وغوث إدراج النهاية في البداية، وجدّد به القرن الثالث عشر، ومنحه الإقبال والقبول بين البشر، فلا غرو أن افتخرت الأرض بوجود سعوده، وسعود وجوده، وادخرت السماء جبالاً من ثواب نفعه وتقواه وجوده.

ولد ـ قدس الله سره ـ على ما حققه سيدي الوالد الماجد في حواشيه على «البهجة السنية» لسيدنا الجد ـ قدس سره ـ سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف في قصبة قره داغ، وهي من أكبر أعمال بابان، على خمسة أميال من السليمانية، ذات مدارس كثيرة، وحدائق بهجة وأمواه غزيرة، وبابان صقع بني كرد بن عمرو بن عامر المنسوب إلى قحطان، وظهرت منذ بدا إشارات أنه قطب أولياء الزمان.

بدو صلاحه ونموّ إصلاحه

نشأ ـ قدس الله سره ـ في هذه القصبة في حجر والده الجليل سليل الولي الكامل پيرميكائيل، شش انكشت: أي ذي الأصابع الست، العثماني نسبة إلى أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ووالدته السيدة الطاهرة يتصل نسبها بالولي الكبير پيرخضر الفاطمي الشهير نسباً وحالاً في بلاد الأكراد.

وأنـاس كـان النبـيّ أبـاهـم هم أناس من المعالي عيون

= قوم كرام السجايا حيث ما جلسوا يبقى الزمان على آثارهم عطرا (ع).

علــويـــون محتــداً وفخـــاراً كــل فخـر لــديهـم فهـو دون

وقرأ في بعض مدارسها القرآن، والمحرر للإمام الرافعي[1] في مذهب الشافعي، ومتن الزنجاني[2] في الصرف، وقليلاً من النحو، وبرع بالنثر والنظم قبل بلوغ الحلم، متخذاً الزهد شعاره، والتجرد دثاره، والجوع مطيته، وعدم الهجوع وسيلته، والانقطاع سميراً، والهمة سراجاً منيراً، ثم رحل الرحل العديدة إلى البلاد البعيدة، وحصل في العلوم فنون الفهوم، ثم عاد إلى نواحي وطنه، فقرأ على العالمين الكبيرين، والفاضلين النحريرين السيد الشيخ عبد الكريم، وأخيه السيد الشيخ عبد الرحيم البرزنجي، وعلى المحقق الصالح الملا محمد صالح، والعلامة ملا إبراهيم البياري، والفهامة الشيخ عبدالله الخرباني، ثم ذهب إلى أنحاء كوى وحرير، فقرأ «الجلال» على «تهذيب المنطق» بحواشيه على الإمام اللوذعي، والنحرير الألمعي الملا عبد الرحيم الزياري المعروف بملا زاده، وغيره عن غيره، ثم انقلب إلى السليمانية، فقرأ فيها وفي نواحيها الشمسية والمطول والحكمة والكلام، وغير ذلك على علمائها الأعلام، وقدم بغداد فقرأ «مختصر المنتهى» في الأصول، ورجع إلى محله المأهول.

حدثني الوالد الماجد عن الجد الأمجد عنه ـ قدس الله سره ـ أنه لما قدم بغداد أول مرة وزاره عظماء العلماء، رأوا من علمه الزاخر ما يحسد عليه الأوائل الأواخر، وكان يومئذٍ يشرب الدخان، حتى إذا خرجوا من عنده بالغوا بمدحه وحمده، غير أنهم انتقدوا ذلك عليه، فلما بلغه صنع طعاماً، ثم دعاهم إليه، فقبل أن توضع المائدة قال لهم: هلم نتذاكر في فائدة، وأخذ يبحث في أن الأصل في الأشياء الحظر أو الإباحة، حتى توصل إلى الدخان، فما برح

---

(١) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم (٥٥٥ ـ ٦٢٣ هـ) الرافعي، القزويني، الشافعي: فقيه، أصولي، محدث، مفسر، مؤرخ، توفي بقزوين ودفن بها. «معجم المؤلفين» (٦/ ٣).

(٢) إبراهيم بن عبد الوهاب (٠٠٠ ـ كان حياً ٦٥٥ هـ) الزنجاني، عز الدين: فقيه، صرفي. له متن العزي في التصريف. «معجم المؤلفين» (١/ ٥٧).

يناظرهم فيه حتى ألزمهم القول بحله بالبرهان، فلما سلموا ذلك، أتى بمعدات التبغ وكسرها هنالك.

وقال قدس الله سره: حيث تبين لكم في الشرع أمره، فاشهدوا أني أبطلته، وإنما فعلت ما فعلته، لئلا يمر في اعتقادكم أني ما تركته إلا لانتقادكم، ثم لم يمسه قط، ومن فهم غير ذلك فهو غلط.

وكان حيث حل من المدارس هو الأتقى الأورع السابق في ميادين التحقيق كل فارس، لا يسأل عن مسألة من علوم الرسوم، إلا ويجيب بأحسن جواب، ولا يختبر بغويصة من تحفة ابن حجر أو تفسير البيضاوي، إلا ويكشف عن خرائد الفوائد النقاب، وهو يستفيد ويفيد، ويقرر ويحرر فيجيد:

يقول لسان الحال من كل سائل لي البشر إذ وافيت خير وسائل
إذا رمت للأشكال حلاً وجدته يقول اقترح ما شئت منا وسائل

إلى إنصاف وذكاء خارق، وقوة حافظة بذهن حاذق، وإذا دقق في درسه على ما أراد يعجز أساتذته عن إرضاء ذهنه الحاد، وطالما ألقى السؤال واستشكل الأشكال، فلم يكن للمجيب عنه إلا هو في الحال، هذا مع تصاغره لدى أشياخه وأقرانه، وتجاهله عن كثير من المسائل مع إتقانه، حتى أنه كان يقرأ من الكتب الصعبة ما لم يصل إذ ذاك إلى قراءته، بتحقيق يتحير فيه أهل مادته، فاشتهر خارق علمه، وطار في الأقطار صيت تقواه وذكائه وفهمه، فرغب الأمير المحسان إبراهيم باشا والي بابان، كذا في «أصفى الموارد»، وفي «المجد التالد» أنه عبد الرحمن باشا، ولعل الراغب أكثر من واحد في نصبه مدرساً قبل التكميل في بعض المدارس، وأن يوظف له الوظائف ويخصه بالنفائس، فلم يجبه زاهداً فيما لديه من الحطام، واعتذر له بأني الآن لست أهلاً لذلك المقام، ثم رحل بعدها إلى سَنَنْدُج ونواحيها، وقرأ العلوم الحسابية والهندسية والاصطرلابية والفلكية على العالم المدقق قوشجي عصره، وجغميني مصره الشيخ محمد قسيم السنندجي وكمل عليه المادة على جري العادة، ورجع إلى الأوطان قاضي الأوطار، وصيته إلى أقصى الأقطار طار،

فولي بعد الطاعون الواقع في السليمانية سنة ثلاثة عشر ومائتين وألف تدريس مدرسة أجل أشياخه السيد الشيخ عبد الكريم البرزنجي، وقد كان توفي في الطاعون المذكور، فشرع يدرس في العلوم، ويحقق المسائل والفهوم، غير راكن إلى الدنيا ولا إلى أهلها، مقبلاً على الله تعالى تبتلاً إليه بأصناف العبادات فرضها ونفلها، لا يتردد إلى الحكام، ولا يحابي أحداً بتبليغ الأحكام، آمر بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، نافذ الكلمة، محمود السيرة، آخذاً بالعزائم، حتى صار محسود صنفه، عزيزاً في وصفه، مع الصبر على الفقر والقناعة، واستغراق الأوقات بالإفادة والطاعة، إلى أن جذبه سنة عشرين ومائتين وألف شوق الحج إلى بيت الله الحرام، وتوق زيارة روضة خير الأنام.

جذبته من التقى جذبات ... لترى عينه رُبى الحرمين
ودعاه الهوى فلبى سريعاً ... لمثولٍ في تينك الحضرتين

فتجرد عن العلائق، وخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله الصادق، فرحل هذه الرحلة الحجازية من طريق الموصل وديار بكر والرها وحلب والشام، واجتمع بعلمائها الأعلام، وصحب في الشام ذهاباً وإياباً العالم الهمام شيخ القديم والحديث، ومدرس الحديث: الشيخ محمد الكزبري[(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ وسمع منه، وأخذ عليه، فقربه وقرّ به عيناً وفاز بما لديه من علوم الإسناد، وإجازات المسلسلة الجليلة المفاد، وصحب كذلك تلميذه الأخص الأصفى: الشيخ مصطفى الكردي ـ رحمه الله تعالى ـ، فأجازه كشيخه بأشياء منها الطريقة العلية القادرية، ثم خرج منها على جادة العزائم ممتعاً بأرغد عيش، وأنعم حال دائم، فوصل المدينة المنوّرة، ومدح الرسول ﷺ بقصائد فارسية بليغة محررة، ومكث فيها قدر ما يمكث الحاج، وصار حمامة ذلك المسجد الوهاج.

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن محمد (١١٤٠ ـ ١٢٢١ هـ) الصفدي، العطار، الشهير بالكزبري: محدث، مسند. ولد وتوفي بدمشق. درس في جامع بني أمية. «معجم المؤلفين» (١٠/١٥٢).

يقول قدس الله سره: وكنت أفتش على أحد من الصالحين لأتبرك ببعض نصائحه لعلي أعمل بها كل حين، فلقيت شيخاً يمنياً متريضاً عالماً عاملاً صاحب استقامة وارتضا، فاستنصحته استنصاح الجاهل المقصر من العالم المتبصر، فنصحني بأمور:

منها أن لا تبادر في مكة بالإنكار على ما ترى ظاهره يخالف الشريعة، فلما وصلت إلى الحرم وأنا مصر على العمل بتلك النصيحة البديعة، بكرت يوم الجمعة إلى الحرم لأكون كمن قدم بدنة من النعم، فجلست إلى الكعبة الشريفة أقرأ الدلائل، إذ رأيت رجلاً ذا لحية سوداء عليه زي العوام قد أسند ظهره إلى الشاذروان، ووجهه إليّ من غير حائل، فحدثتني نفسي أن هذا الرجل لا يتأدب مع الكعبة، ولم أظهر عتبه، فقال لي: يا هذا! أما عرفت أن حرمة المؤمن عند الله تعالى أعظم من حرمة الكعبة، فلماذا تعترض على استدباري الكعبة وتوجهي إليك، أما سمعت نصيحة من في المدينة وتأكيده عليك، فلم أشك في أنه من أكابر الأولياء، وقد تستر بأمثال هذه الأطوار عن الخلق، فانكببت على يديه، وسألته العفو وأن يرشدني بدلالته إلى الحق، فقال لي: فتوحك لا يكون في هذه الديار، وأشار بيده إلى الديار الهندية، وقال: تأتيك إشارة من هناك فيكون فتوحك في تلك الأقطار، فأيست من تحصيل شيخ في الحرمين يرشدني إلى المرام. ورجعت بعد قضاء النسك إلى الشام. اهـ، فاجتمع ثانياً بعلمائها، وحل في قلوبهم محل سويدائها، ثم أتى إلى وطنه بعد قضاء وطره بالبركات، وباشر تدريسه بزيادة على زهده الأول، وعده الحسنات[1] الأول سيآت، مستقيماً على أحسن الأحوال، متشوّقاً إلى مرشد يسلك عنده طريق فحول الرجال، إلى أن أتى السليمانية نجم الهداية العرفانية، مولانا مرزا رحيم الله بك المعروف بمحمد درويش العظيم آبادي: أحد أجلاء خلفاء شيخه الأعظم

---

(١) قوله (وعده الحسنات): هذا من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين. ويحكى أن الإمام الغزالي بعدما رجع من سياحته عاد إلى المواضع التي كان يدرس بها من قبل وهو يقول: ههنا كنا نعصي الله. أي معصية العجب والكبرياء. (ع).

القطب الدهلوي قدس سره فاجتمع به، وأظهر احتراقه واشتياقه لمرشد كامل يوصله إلى أربه، فقال له: إن لي شيخاً كاملاً مرشداً عالماً عاملاً، عارفاً بمنازل السائرين إلى ملك الملوك، خبيراً بدقائق الإرشاد والسلوك، نقشبندي الطريقة، محمدي الأخلاق، علماً في علم الحقيقة، فسر معي حتى نرحل إلى خدمته في جهان آباد، وقد سمعت منه إشارة بوصول مثلك ثَمَّ إلى المراد، فانتقش القول في قلبه، وأخذ بمجامع لبه، وعزم على المسير بالتجريد، تاركاً منصب التدريس بلا ترديد لمن يريد:

حب السلامة يثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

فرحل سنة أربع وعشرين ومائتين وألف الرحلة الأخرى الهندية من طريق الري، يطوي بأيدي العيس بساط البيد أسرع طي، فوصل طهران وبعض بلاد إيران، والتقى مع مجتهدهم إسماعيل الكاشي المتضلع بضبط المتون والشروح والحواشي، فجرى بينهما البحث الطويل بمحضر من جمهور طلبة إسماعيل، فأفحمه إفحاماً أسكته، وأنطق طلبته بأن ليس لنا من دليل، وقد أشار إلى هذه القضية في قصيدته الآتية العربية التي مدح بها شيخه عند وصوله إلى رحابه العلية، ولما أفحمه غالطه بأشياء كلية.

منها: أنه قدس سره قد كان وقف على ما في بعض تفاسير الشيعة من أن قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] نزلت عتاباً مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال الشيخ للكاشي: ما تقول في عصمة الأنبياء عليهم السلام؟ فقال الكاشي: كلهم معصومون. قال الشيخ: فما تقول في قوله تعالى ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ والعفو يستلزم الذنب، فقال الكاشي: هذا عتاب مع أبي بكر لا مع النبي ﷺ قال الشيخ: فإذا أخبر الله تعالى بأنه قد عفا عن أبي بكر، فأنتم معاشر الشيعة! لم لا تعفون عنه؟ فانبهت الكاشي وخجل خجلاً عظيماً.

ثم دخل بسطام وخرقان وسمنان ونيسابور، وزار إمام الطرائق البحر الطامي الشيخ أبا يزيد البسطامي قدس الله سره العزيز، ومدحه بمنظومة

فارسية، وزار من في تلك البلاد من الأولياء الأمجاد، حتى وصل إلى طوس، وزار بها مشهد السيد الجليل المأنوس، نور حدقة البتول والمرتضى الإمام علي الرضا، ومدحه بقصيدة غراء فارسية، أذعن لها الشعراء الطوسية.

ولظهور البدع فيها عجل الارتحال والقيام إلى تربة شيخ مشايخ الجام شيخ الإسلام: الشيخ أحمد النامقي الجامي، فزاره ومدحه بمقطوعة فارسية بديعة، ثم دخل بلدة هراة من بلاد الأفغان، واجتمع مع علمائها بالجامع، فجاروه في ميدان الامتحان، فوجدوه بحراً لا ساحل له، وأقر كل منهم بالفضل له، ولما رحل عنهم ودعوه بمسير أميال، لما شاهدوه فيه من بديع الحال:

ومودع أمست هراة لدن نأى تبكي عليه بدمعها الهتان
تمشي على أقدامها أشرافها وتودّ أن تمشي على الأجفان

فسار في مفاوز يضل فيها القطا، ويخفق قلب الأسد مخافة خوارج الأفغان المقتحمين مهالك السطا:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

حتى وصل قندهار وكابل، ودار العلم بشاور، فاجتمع بجم غفير من علمائها الأكابر، وامتحنوه من علم الكلام وغيره بمسائل رأوه فيها كالسيل الهائل، والغيث الهاطل، ثم إلى بلاد لاهور، فسار منها إلى قصبة فيها العالم النحرير والولي الوقور أخو شيخه في الطريق والإنابة إلى مولاه: الشيخ المعمر المولى ثناء الله النقشبندي، فطلب منه الإمداد ببركة دعاه.

قال قدس الله سره: فبت في تلك القصبة ليلة، فرأيت في المنام أنه قد جذبني من خدي بأسنانه المباركة يجرني إليه وأنا لا أنجر. فلما أصبحت قال لي: من غير أن أقص عليه الرؤيا: سر على بركة الله تعالى إلى خدمة أخينا وسيدنا الشيخ عبد الله، مشيراً إلى أن فتوحي سيكون عند الشيخ المقصود، وهنالك تؤخذ المواثيق والعهود، وتنجز الوعود، فعرفت أنه قد أعمل همته الباطنية العلية ليجذبني إليه، فلم يتيسر لقوّة جاذبة شيخي المحوّل فتوحي عليه، فرحلت من تلك القصبة أقطع الأنجاد والوهاد، إلى أن وصلت دار

السلطنة الهندية دهلي المعروفة بجهان أباد بعد مسير سنة كاملة، ولقد أدركتني نفحاته وإشاراته قبل وصولي بنحو أربعين مرحلة، وهو قد أخبر قبل ذلك بعض خواص أصحابه بوفودي إلى أعتاب قبابه اهـ.

لا تنكر النفحات إن هي أسرعت ... من مرشدٍ هادٍ لقلب مريده
سرّ الشيوخ إذا سرت أنفاسه ... شملت فؤاد قريبه وبعيده
لا يبلغ المجذوب غاية قصده ... إن هام في تيه السلوك ببيده
إلا إذا جذبت موله قلبه ... نفحات أرباب الهدى من جيده

وليلة دخوله بلدة جهان أباد أنشأ قصيدته العربية الرنانة من بحر الكامل يذكر فيها السفر، وسائلاً لمدح شيخه قدس سره الأنور، وسائلاً من الله القبول والشكر على نعمة الوصول، فقال:

كملت مسافة كعبة الآمال ... حمداً لمن قد منّ بالإكمال
وأراح مركبي الطليح من السرى ... ومن اعتوار الحط والترحال
وأزاح عني قيد حب مواطني ... وعلاقة الأحباب والأموال
وهموم أمهتي وحسرة أخوتي ... وغموم عم أو خبال الخال
وتشاحن الأقران في رتب العلا ... وملامة الحساد والعذال
وأعاذني من فرقة أفاكة ... وأجارني من أمّة جهال
وهم روافض أذربيجان الألى ... هم أشنع المخلوق في الأفعال
ومضلها الكاشي إسماعيل إذ ... قد حار لما شب نار جدال
سحقاً له من مدّع متزخرف ... بعداً له من منكر مضلال
وغلاة فرس في حديثٍ مسند ... قد بشروا بإطاعة الدجال
وشرار أهل الطوس من سموا الرضا ... ونفوسهم سموا أحبة آل
ومن الهزارة والبلوج ذوي الشقا ... وتمرّد الأمراء والأقيال
ومن الأفاغنة الألى جبلوا على ... خوض المفاسد واقتحام قتال
وفساد قطاع الطريق بخيبر ... ومن المجوس وما لهم من وال
منعوا الأذان دعاية الإسلام إذ ... ضلوا وخاضوا أبحر الإضلال

وهجوم أمواج البحار زواخراً ... وأذيـة المكـاس والعمـال
ومـن المثلثة العلـوج وطغيهـا ... ما مثلهم في الأرض عالٍ غال
وأنالني أعلى المآرب والأما ... ني من لقاء المرشد المفضال
مـن نـوّر الآفـاق بعـد ظـلامهـا ... وهدى الخلائق بعد طول ضلال
الشاه غلام عليّ القرم الذي ... من لحظة يحيي الرميم البالي
تمثيلـه مـا سـاغ إلا أنـه ... ما ناقش الأدباء في التمثال
هو يم فضل طود طول شامخ ... ينبـوع كـل فضيلـة وخصـال
نجم الهدى بدر الدجى شمس التقى ... كنز الفيوض خزانة الأحوال
كالأرض حلماً والجبال تمكناً ... والشمس ضوأ والسماء معالي
عين الشريعة معدن العرفان والـ ... إحسـان والإيقـان والإفضـال
قطب الطرائق قدوة الأوتاد بل ... غوث الخلائق رحلة الأبدال
شيخ الأنام وقبلة الإسلام صد ... ر للعظـام ومـرجـع الإشكـال
هاد إلى الأولى بهدي مختف ... داع إلى المولى بصوت عال
محبوب رب العالمين من اقتدى ... بهـداه أصبـح قـدوة الأمثـال
كم من جهول كان مكبول الهوى ... نجـاه مـن لحـظ كحـلّ عقـال
كم من وليّ كامل من صدّه ... قد صدّ عنه عجائب الأحوال
كـم منكـر لجـلالـه عنـه لـوى ... فـأذاقـه المـولـى أشـدّ نكـال
معطي كمال جميع أهل نقيصة ... ومزيل نقص جميع أهل كمال
أخفاه رب العرش جل جلاله ... فـي قبـة الإعـزاز والإجـلال
يا من بمكة(١) حوله دُرْ طائفاً ... واهجر حجازاً إن سمعت مقالي

---

(١) قوله (يا من بمكة): هذا النداء لمن يطوف بالأحجار وهو جاهل بالله، عليه أن يصحب الشيخ المرشد الذي يجعل طواف قلبه بالأنوار والأسرار مقروناً بطواف جسمه بالأحجار، فصحبة العلماء بالله فرض عين لمن هو من رؤية الأغيار في غين.

وقالوا: يجب شدُّ الرحال لصحبة أصحاب الحال، العلماء بالله الذين ورثوا الخشية والمراقبة وآداب السنة وأحكامها صدراً عن صدر، قال تعالى: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾. (ع).

ومبيت خيف دع وركض محسر ... ومُنى مِنى والرمي للأميال
واسكن بذا الوادي المقدس خالعاً ... نعلي هوى الكونين باستعجال
حجر مقامك بالمقام بلا صفا ... من طوف حضرة كعبة الآمال
ما السعي ملتزم لغير رضائه ... ما الطوف إلا حوله بحلال
من شام لمعاً من بروق دياره ... بمشام روض الشام كيف يبالي
انست من تلقاء مدين مصره ... ناراً تهيج البال بالبلبال
فهجرت أهلي قائلاً لهم امكثوا ... ارجع إليكم غب الاستشعال
ونويت هجران الأحبة كلهم ... وركبت متن الأجرد الصهال
فطوى منازل في مسيرة منزل ... واهاً لجار سائح شملال
فنسيت أصحابي على ميثاقهم ... ومواعدي من فرط شوق جمال
من لي بتبليغ السلام لإخوتي ... وببسط عذر الغدر والإهمال
سلب الهوى لبي فما في خاطري ... غير الحبيب وشوق طيف وصال
قد حان حين تشرّفي بوصاله ... من لي بشكر عطية الإيصال
يا رب لا أحصي ثناءك انه ... سفه على من شم ريح زوال
والله لو أعطيت عمراً خالداً ... وتركت غير الحمد كل فعال
وأتيح لي في كل منبت شعرة ... ألفا لسان في ألوف مقال
وأميط عني النفس والشيطان كي ... لا يلهيان بخطرة في البال
فصرفت عمري كله في حمده ... بشراً شرى أبداً بلا إمهال
ما أقدرنّ على كفاء عطية ... فضلاً عن التفصيل بالإجمال
أين العطايا وهي غير عديدة ... كيف التشكر وهو بعض نوال
أم كيف أحمد ناظماً أو ناثراً ... ذاتاً ترقت عن حضيض خيال
سلب التجوز[1] وهو أبلغ في الثنا ... مني تقدّسه عن الأمثال

---

(١) قوله (سلب التجوز): أي سلبني تقدُّسه عن الأمثال التجوزَ بمعنى التجاوز الحَدِّي في الثناء عليه: فلا أتجاوز قدري لأنه مسلوب عني بتقديسه كما في الحديث: «سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». (ع).

إله الخلائق في نعوت كماله　　سبحانه من خالق متعال
فالعجز نطقي والتحير فكرتي　　ما ينبغي إلا السكوت بحال
فكما قضيت الهنا في أشهر　　طياً لبعد مسافة الأحوال
ووهبت أقداماً على طي الفلا　　ونزول غور وارتقاء جبال
ورحمتنا بالحفظ من آفاتها　　ومنحتنا أمناً من الأهوال
فارزق إله العالمين بحقه　　أدباً يليق بذا الجناب العالي
وأمدّنا بلقائه وبقائه　　وعطائه ونواله المتوالي
زد من حياتي في إطالة عمره　　أدم الورى بحماه تحت ظلال
واجعلن مسعوداً بحسن قبوله　　وامنحن ما يرضيه من أعمال
زد كل يوم في فؤادي وقعه　　ما دمت حياً في جميع الحال
وامتنِ مرضياً لديه وراضياً　　عنه رضا يجدي مفاز مآل
والحمد للرب الرحيم المرتجى　　القادر المتقدّس الفعال
ثم الصلاة على الرسول المجتبى　　خير الورى والصحب بعد الآل

وما أثبتُّه هنا في روايتها هو الصحيح المعوّل عليه، وما وقع في ديوانه المطبوع وغيره لا يخلو من غائلة التحريف في أكثر أبياتها فلا ينظر إليه.

ثم مدحه بقصيدة فارسية أطنب فيها غاية الإطناب، وأتى من المعاني المخترعة باللباب، ولو أن لها محلاً من الإعراب لأوردتها في هذا الباب.

وبعد وصوله تجرد ثانياً عن حوائج السفر، وأنفقها كلها على المستحقين ممن حضر، ثم أخذ الطريقة العلية النقشبندية من حضرة الشيخ قدس الله أسراره الزكية، واشتغل بخدمة الزاوية والذكر الملقن بفرط المجاهدة، فلم يمض عليه خمسة أشهر إلا وصار من أهل الحضور والمشاهدة، وبشره شيخه ببشارات كشفية قد تحققت بالعيان، وحل منه محل إنسان العين من الإنسان، مع كثرة تصاغره بالخدم، وكسره لدواعي النفس بالرياضات الشاقة، وتكليفها خطط العدم، وما تمت له سنة حتى صار الفرد الكامل، المصفى الواصل، إلى المقام الأعلى، والمشهد الأنور الأجلى، مع الرسوخ في الدراية، والفناء والبقاء

الأتمين، والوصول إلى مقام الولاية الكبرى بلامين، كما شهد له بذلك الشيخ ـ قدس سره ـ عند أصحابه، وفي مكاتيبه المرسلة إليه بخطه المبارك بعد رجوعه إلى العراق، فعند ذلك خلَّفه الخلافة التامة، وأذن له بالإرشاد في الطرائق الخمسة العلية.

الأولى: النقشبندية، بتلقيه لها عن رجال هذه السلسلة المسطرة الزكية.

والثانية: القادرية، بتلقيه لها أيضاً عن سيدنا الشيخ جان جانان المظهر عن سيدنا الشيخ محمد عابد السنامي عن سيدنا الشيخ عبد الأحد، عن والده سيدنا الشيخ محمد سعيد خازن الرحمة، عن والده سيدنا الشيخ أحمد الفاروقي السهرندي المعروف بالإمام الرباني مجدّد الألف الثاني، عن سيدنا الشاه سكندر، عن سيدنا الشاه كمال الكيتهلي، عن سيدنا الشاه فضيل، عن سيدنا السيد كدارحمان الثاني، عن سيدنا شمس الدين عارف، عن سيدنا كدارحمان الأول، عن سيدنا شمس الدين الصحرائي، عن سيدنا السيد عقيل، عن سيدنا السيد بهاء الدين، عن سيدنا السيد عبد الوهاب، عن سيدنا السيد شرف القتال، عن سيدنا السيد عبد الرزاق، عن سيدنا السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني، عن سيدنا أبي سعيد المخزومي، عن سيدنا الشيخ أبي الحسن الهنكاري، عن سيدنا الشيخ أبي الفرج يوسف الطرطوسي، عن سيدنا الشيخ عبد الواحد بن عبد العزيز اليمني، عن سيدنا أبي بكر الشبلي، عن سيدنا وسيد الطائفة الجنيد البغدادي، عن سيدنا السري السقطي، عن سيدنا معروف الكرخي، عن سيدنا الإمام علي الرضا، عن سيدنا الإمام موسى الكاظم، عن سيدنا الإمام جعفر الصادق، عن سيدنا الإمام محمد الباقر عن سيدنا الإمام زين العابدين، عن سيدنا الإمام حسين، عن سيدنا الإمام حسن، عن سيدنا الإمام علي المرتضى عن رسول الله ﷺ.

والثالثة: السهروردية، بتلقيه لها عن سيدنا جان جانان مظهر الشهيد، عن سيدنا الشيخ محمد عابد، عن سيدنا الشيخ عبد الأحد، عن سيدنا الشيخ محمد سعيد، عن سيدنا الإمام الرباني، مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد الفاروقي

السهرندي، عن سيدنا الشيخ عبد الأحد، عن سيدنا الشيخ ركن الدين الكنكوهي، عن سيدنا الدرويش محمد بن قاسم الأودهي، عن سيدنا الشيخ بدهن البهرائجي، عن سيدنا الشيخ السيد أجمل، عن سيدنا الشيخ جلال الدين، عن سيدنا الشيخ ركن الدين، عن سيدنا الشيخ صدر الدين، عن سيدنا الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني، عن سيدنا الشيخ شهاب الدين السهروردي، عن سيدنا الشيخ ضياء الدين أبي النجيب السهروردي، عن سيدنا الشيخ وجيه الدين عبد القادر السهروردي، عن سيدنا الشيخ عبد الله عموية، عن سيدنا الشيخ يار محمد، عن سيدنا الشيخ أحمد الأسود الدينوري، عن سيدنا الشيخ ممشاد الدينوري، عن سيد الطائفة الجنيد البغدادي، عن سيدنا السري السقطي، عن سيدنا معروف الكرخي، عن سيدنا داود الطائي، عن سيدنا حبيب العجمي، عن سيدنا الحسن البصري عن سيدنا علي المرتضى، عن رسول الله ﷺ.

والرابعة: الكبروية، بتلقيه لها عن سيدنا جان جانان المظهر، عن سيدنا نور محمد البداوني، عن سيدنا سيف الدين، عن والده سيدنا الإمام المعصوم، عن والده سيدنا الإمام الرباني، عن والده سيدنا الشيخ عبد الأحد، عن سيدنا الشيخ ركن الدين، عن سيدنا الشيخ عبد القدوس الكنكوهي، عن سيدنا الدرويش محمد، عن سيدنا الشيخ بدهن، عن سيدنا الشيخ أحمد الجوينوري، عن سيدنا الشيخ حميد الدين السمرقندي، عن سيدنا الشيخ شمس بن محمود، عن سيدنا الشيخ أبي عطار، عن سيدنا الشيخ أحمد، عن سيدنا بابا كمال، عن سيدنا الشيخ نجم الدين الكبري، عن سيدنا الشيخ عمار الياس، عن سيدنا الشيخ أبي النجيب السهروردي، عن سيدنا الشيخ أبي بكر الخير النساج، عن سيدنا الشيخ أبي القاسم الكركاني، عن سيدنا أبي عثمان المغربي، عن سيدنا الشيخ أبي علي الكاتب، عن سيدنا الشيخ أبي علي الرودباري، عن سيدنا الجنيد البغدادي، عن سيدنا السري السقطي، عن سيدنا معروف الكرخي، عن سيدنا الإمام علي الرضا، عن سيدنا الإمام موسى الكاظم، عن سيدنا الإمام

جعفر الصادق، عن سيدنا القاسم بن محمد، عن سيدنا سلمان الفارسي، عن سيدنا أبي بكر الصديق، عن رسول الله ﷺ.

والخامسة: الچشتية، بتلقيه لها عن سيدنا جان جانان المظهر، عن سيدنا الشيخ محمد عابد، عن سيدنا الشيخ عبد الأحد، عن سيدنا الشيخ محمد سعيد، عن سيدنا الإمام الرباني، عن والده سيدنا الشيخ عبد الأحد، عن سيدنا الشيخ ركن الدين، عن سيدنا الشيخ عبد القدوس، عن سيدنا الشيخ محمد عارف، عن سيدنا الشيخ أحمد عارف، عن سيدنا الشيخ عبد الحق الردولوي، عن سيدنا الشيخ جلال الدين الپاني پتي، عن سيدنا الشيخ شمس الدين الترك الپاني پتي، عن سيدنا الشيخ علاء الدين بن علي صابر، عن سيدنا شيخ الإسلام الشيخ فريد الدين كنج شكر، عن سيدنا الشيخ قطب الدين بختيار الكاكي، عن سيدنا الشيخ معين الدين حسن السجزي الچشتي، عن سيدنا الشيخ عثمان الهاروني، عن سيدنا الشيخ شريف الزندي، عن سيدنا الشيخ مودود الچشتي، عن سيدنا الشيخ ناصر الدين يوسف الچشتي، عن سيدنا الشيخ أبي محمد الچشتي، عن سيدنا الشيخ أبي أحمد إبدال الچشتي، عن سيدنا الشيخ أبي اسحاق الشامي، عن سيدنا الشيخ ممشاد علو الدينوري، عن سيدنا الشيخ هبيرة البصري، عن سيدنا الشيخ حذيفة المرعشي، عن سيدنا الشيخ إبراهيم بن أدهم، عن سيدنا فضيل بن عياض عن سيدنا عبد الواحد بن زيد، عن سيدنا الحسن البصري، عن سيدنا علي المرتضى عن رسول الله ﷺ، وأجاز له رواية جميع ما يجوز له روايته من حديث وتفسير وتصوّف وأحزاب وأوراد.

واجتمع بإشارة من الشيخ بالعالم المحدث الواعظ الصوفي صاحب التآليف النفيسة في التفسير، ومترجم التحفة الاثني عشرية التي ليس لها في الرد على الروافض نظير؛ الشيخ المعمر المولى عبد العزيز الحنفي النقشبندي نجل العالم العامل، المسند المحدّث الفاضل، صاحب كتاب «القول الجميل في سواء السبيل». الشيخ وليّ الله ابن العارف الشهير الشيخ عبد الرحيم النقشبندي الحنفي، أحد أصحاب المرشد الكامل السيد عبد الله، خليفة الشيخ الكامل آدم

البنوري، خليفة الإمام الرباني قدس الله تعالى سره، فأجاز له رواية الكتب الستة، وبعض الأحزاب؛

وكتب له إجازة لطيفة وصفه فيها بقوله: صاحب الهمة العلية في طلب الحق. ثم أرسله الشيخ ـ قدس الله سره ـ بأمر مؤكد لم يمكنه التخلف عنه إلى بلاده، ليرشد المسترشدين، ويربي السالكين بأتقن إرشاده، وشيعه بنفسه نحو أربعة أميال عن جهان آباده، فسار في طريق البر والبحر خمسين يوماً لا يغتذي بغير الحضور والذكر، حتى خرج من بندر مسقط إلى نواحي شيراز ويزد واصفهان، يعلن الحق أينما كان، وكثيراً ما تجمع بعض الروافض لضربه وقتله، بعد عجزهم عن أجوبة أدلة عقله ونقله، فهجم عليهم بسيفه البتار، فنكصوا على أعقابهم وولوا الأدبار، ثم أتى همدان وستندج، فوصل السليمانية سنة ست وعشرين ومائتين وألف، فاستقبله أعيان وطنه بكمال الاحتفال والاحتفاء، وقدم في تلك السنة بإشارة من شيخه بلدة الزوراء ليزور الأولياء أيام وزارة المرحوم سعيد باشا ابن سليمان باشا، فنزل في زاوية الغوث الأعظم سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه. وابتدأ هناك بإرشاد الناس على أحكم أساس، فمكث نحو خمسة أشهر، ثم رجع إلى وطنه بشعار الصوفية الأكابر، مرشداً في علمي الباطن والظاهر.

فساد الحساد

ولما اطردت سنة الله في الذين خلوا من قبل، أن يجعل حساداً لكل من تفرد بالفضل، وكلما كان الكمال والمحبوبية الإلهية أسدّ، كان الإنكار والحسد أشدّ، هاج عليه بعض معاصريه ومواطنيه بالحسد والعدوان والبهتان، ووشوا عليه عند حاكم كردستان بأشياء تنبو عن سماعها الآذان، وهو بريء منها كلها بشهادة البداهة والعيان.

قل لقوم حسدوه سؤدداً كم رأينا من شريف حسدا
فتسامى للمعالي وهووا تحت رايات علاه سجداً

فلم يقابل صنيعهم الشنيع إلا بالدعاء لهم وحسن الصنيع، فلم تخب نارهم، وما زاد إلا شرهم وشرارهم:

كل العداوات قد ترجى إزالتها   إلا عداوة من عاداك عن حسد

فخلاهم وشأنهم في السليمانية، ورحل إلى بغداد سنة ألف ومائتين وثمانية وعشرين مرة ثانية، ونزل في المدرسة الإحسائية الأصفهانية، وعمرها بعد الخراب بالعلوم والأذكار آناء الليل وأطراف النهار، فألف أحد المعروفين من المنكرين الذي تولى البهتان كبراً وغروراً رسالة ملئت منكراً من القول وزوراً، وأرسلها مع سعاة الفساد إلى سعيد باشا والي بغداد، متخذين الجراءة فيها على تكفيره لتنفيره منه سبباً ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ [الكهف: ٥] فلما قرأ الوزير الرسالة المذكورة ألقاها من يده، وقال: إن لم يكن حضرة الشيخ خالد مسلماً، فمن المسلم سبحان الله! ما صاحب هذه الرسالة إلا مجنون أو أعمى الله تعالى بصيرته من شدة حسده نعوذ بالله! نعوذ بالله! . وأمر بعض العلماء برد ذلك الافتراء، فانتدب له عمدة علماء الملة الشيخ محمد أمين أفندي مفتي الحلة بتأليف رسالة طعن باسنة أدلتها اعجازهم، فولتهم الأدبار ثم لا ينصرون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وختمت بأختام علماء بغداد، وأرسلت إلى المنكرين، فسلقتهم بألسنة حداد، فانطفأت نارهم، وانطمست آثارهم.

من كان فوق محل الشمس موضعه   فليس يرفعه شيء ولا يضع

ورجع بعد هذه الأمور إلى السليمانية محفوفاً بالكمالات الإحسانية، ذكر أكثر ذلك العلامة الشيخ محمد بن سليمان البغدادي النقشبندي في «الحديقة الندية»، وإنما اخترتها مع إسهابها تيمناً بتعلق نظر حضرة مولانا بها، كما أثبته سيدي الجد الأمجد في خطبة «البهجة السنية».

قلت: ثم اعترف معروف بافترائه، وتشفع إليه ـ قدس سره ـ مع جملة من أحبائه، فقبل به شفاعتهم، وكتب له ما أوجب مسرتهم.

ونصه: من العبد المسكين، والفقير المستكين إلى جناب سيدي الجامع

لشرفي العلم والأدب، الحائز لكرامتي الحسب والنسب، سيدنا ومولانا السيد معروف، سامحه بفضله الكريم الرؤوف.

وبعد: فقد بلغني ما وصيتم به أخي ملا حسين القاضي، وأمرتموه بتبليغه إلينا من حسن العبارات، ولطائف الإشارات، ثم ما ألقيتموه مع قرة عيني العالم العامل السيد إسماعيل من مكارم الأخلاق، والاشتياق إلى التلاق، وإظهار الأسف على ما صدر منكم في حق الفقير على سبيل الاتفاق، بسعاية أرباب الأغراض وأهل الشقاق، والاعتذار عن جميع ما جرى به اليراع في رسالتكم المعهودة الناشئة عن تقليد الوشاة وعن عدم الاطلاع، المهيجة عند بعض عوام المريدين لفرط الوحشة وشدة النزاع، الحاكمة على هذا المسكين بأمور تنبو عن استماعها الأسماع، من استحلال المحرم والكلمات الدالة على الكفر وداعية الاستيلاء على البقاع، وغير ذلك مما لا يليق بشأن الأوغاد والرعاع، وتفصيله لا يخفى على ذهنكم الوقاد، وطبعكم النقاد، وإني لبريء عما نسبتم إليّ من فنون المثالب والفساد والإفساد، وأمرتم السيد المذكور أن يستكتب مني الوكة تنطق ببراءة الذمة من جميع ما صدر وغبر، وجرى به القلم بمقتضى القضاء والقدر، لتصير مفتاحاً لأبواب الائتلاف، ومصباحاً لدياجير المراء والخلاف، وبلغني من السفيرين تصميمكم على الإمساك فيما بعد عن أمثال ما مضى من النزاع والمناحرة، وملافاة ما فات بطيب التحاب وحسن المعاشرة، وتبديل المعارضة والمنافرة بالمفاكهة والمسامرة، فسرّتني هذه الحكاية غاية المسرة، وحمدت الله تعالى على هذه النعمة مرة بعد مرة، شكراً لمن بدّل الشقاق بالاتفاق، وهيأ أسباب الوصول بعد طول الفراق. أدامنا الله على هذه النية، وأتم لنا بمنه هاتيك الأمنية، ثم الأمر بإرسال المكتوب امتثلناه وهو أحسن المطلوب، ونريد جوابه على أبلغ أسلوب، وأما الإبراء فهو يصدر مني ليلاً ونهاراً، وأفصحت به في المحافل جهاراً، كما قرع سمعكم مراراً، وأما حب الالتئام وترك الاختلاف، فأمر يشتاق إليه أهل الإنصاف، فكيف بمن يدعى له قدم في طريق التصوّف ولو بالجذاف؟! ولا يخفى عليكم أن السبب

الأصلي لهذه الوحشة إنما هو ترك التردد وتقليد أقوال الناس، فإن صح ما بلغني عنكم، فعليكم بالإعراض عن الكلمات المؤدية إلى الشك والوسواس، فإن أحوال أهل الفقر وراء العقل، والعلم يدرك بالقياس، وبعد اللتيا والتي! يضمن لك هذا المسكين إن ثبت قدمك، وما طغى قلمك بعد اليوم أن ترى نتائج لا يحمل أكثرها السفير، وتزيد على حوصلة التقرير والتحرير.

ومن بعد هذا ما تدق صفاته   وما كتمه أحظى لديّ وأجمل

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأخبرني الوالد الماجد: أنه وقع لحضرة مولانا خالد وهو في دمشق الشام نظير ما وقع له في بغداد من بعض الفئام، وذلك أنه كان أرسل من اتباعه رجلاً اسمه عبد الوهاب السوسي ليث الطريقة العلية في دار السلطنة السنية، فما لبث أن اعتقد فيه شيخ الإسلام، وجمهور علمائها ووزرائها العظام، فزاغ بصره ومال إلى حب الشهرة، فبلغ الشيخ أمره، فاستحضره واستخلف غيره، واستتابه فأضمر المكر وأظهر الإنابة، فأطلعه الله على جلية أمره، بأن وصل إليه مراسلات بخطه إلى أتباعه في القسطنطينية تنبىء عن مكره، فطرده طرداً عاماً من طريقته، وكتب بقلمه المبارك ثلاثة كتب إلى إخوانه في دار الخلافة بحقيقته.

ونص الأول: بعد السلام من العام الأول الفقير تبرأت من عبد الوهاب لما ظهر منه من الأمور المخالفة للطريقة والشريعة، وإنه صار سبباً للدسائس التي اختلقها المتشيخون، حتى توهم كثير من الناس في حقنا أموراً لا تليق بأرذال العوام، وأردت أن أكتب هذا إلى الآستانة العلية صينت عن البلية، ليعلم الناس أنه مطرود عن الطريقة، فلا يلتفت إليه أحد، لئلا يصير مظهراً لجلال سادات الطريقة البهية البهائية، فتوسل بي، وجعل روحانية مشايخ السلسلة شفيعاً أن لا أكتب هذا، وحلف الأيمان المؤكدة أنه يكتب هذا المضمون بخطه، ثم ظهر أنه بلغ تقريراً مع بعض المرسلين من طرفه، وتحريراً إلى بعض المخلصين أنه

كان بعض إخوانه في الطريقة افتروا عليه عندي، ثم ظهر افتراؤهم لديّ، وأنه صار هو مثل الأول وأكثر، حتى أن بعضكم ترك طلب الدعا والمكاتبة إلى بعض أهل الطريقة رعاية لجانبه، والمرء يعذر لجهله، فالآن أخبركم بأني وجميع رجال السلسلة تبرأنا من عبد الوهاب فهو مطرود عن الطريقة، فكل من تصادق معه لأجل الطريقة، فليترك مصادقته ومكاتبته، وإلا فهو بريء من إمداد هذا الفقير، وإمداد السادات الكرام. ولا أرضى أن يكاتبني، ولا أن يستمد همتي بعد وصول هذا المكتوب إليه، وأنت مأمور بإيصاله إلى كل مخلص، فمن كان مريد الطريقة فليظهر البراءة منه، ومن كان مريد نفسه فلا يلومن إلا نفسه، إذا هلك مع الهالكين.

ونص الثاني: بسم الله الرحمن الرحيم من العبد الفقير خالد النقشبندي إلى منظوره فلان، سلام يرجى وصوله، ودعاء يؤمّل قبوله. أما بعد: فليكن معلوماً لكم أن عبد الوهاب رجل أخل بكثير من أصلي الطريقة والشريعة، وجعل نور الولاية إلى جلب جيفة الدنيا والاعتبار عند أهلها ذريعة، وصار سبباً في الآستانة العلية، صينت عن البلية، وفي العراق وغيرهما لإنكار الناس، وتولد من حركاته الأوهام والوسواس، وأكثر ما صدر منه بسبب تعظيم جنابك له مع المبالغة التي أوردته مورد الغرور، وترك من حقوق تربيتي عليه، وظهرت منه المخالفة الكثيرة غاية الظهور، فصدرت الإرادة الإلهية في طرده عن الطريقة لأسرار لا تخفى على أهل البصائر، والغرض أني ما أرضى بعد وصول هذا المكتوب إليك أن تخاطبه بنقير أو قطمير، وإلا فلا يبقى لك علاقة مع سادة السلسلة، ولا مع هذا الفقير، فأخبرتك رعاية لحق محبتك، لئلا يصيبك ضرر ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤] وسائر المخلصين والأحباب مخاطبون بعين هذا الخطاب، والسلام خير ختام.

ونص الثالث: بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المسكين خالد النقشبندي إلى جماعة من الإخوان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد: فاعلموا أنه ظهرت الإرادة الإلهية، بطرد عبد الوهاب عن هذه الطريقة العلية، فلا تذكروا

اسمه في الختم والسلسلة، فإنه خلاف رضاء السادة الكبار، ومن توقف من المأذونين بختم الخواجكان في هذا فليترك الختم، وليس من عادتي أن أكتب بنفسي طرد أحد، لكن بسبب كثرة دسائس عبد الوهاب خفت إذا أمرت أحداً بالتحرير إليكم من أن يبلغكم أن الكاتب لم يكتب برضا فلان، إنما كتب ما كتب عن حسده وهواه، فأخبرتكم بخطي لئلا يبقى عندكم ريب، وكل من بقي له أدنى علاقة معه حساً ومعنى، فقد بريء من إمداد الفقير ومشايخه، ومن أنذر فقد أعذر ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا البشير النذير ما هبت القبول، وصار مريد لأهل الطريق مورد الرد والقبول. انتهى.

فطارت عنه تلك الأنوار، وذهبت وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فنزح إلى المدينة المنورة، واجتمع على بعض الفجرة:

وإذا أراد الله نشـــر فضيلـــة طويت أتاح لها لسان حسود

ولفقوا من قول الزور والبهتان رسالة بتكفيره لما زعموا من أنه يدعي رؤية الجان، وأرسلوها إلى دمشق مع أحد هوام الأكراد العوام يقال له: اسماعيل الزلزلومي، فلما وصل إليها، توسل بعض خدام الشيخ بكل وسيلة جميلة، واستحضرها لحضرته الجليلة ليظهر عليها، فطار خبرها إلى والي الشام، فأمر بتشهيره في البلدة وتعزيره، فمروا به وهو كذلك من تحت قصر الشيخ قدس الله سره، فحانت منه إلى الطريق نظرة، فأمر بتحويله إلى رحابه، وتطهيره وتخويله حلة من ثيابه، وأدناه منه فقبل الرجل رجله، فعفا عنه.

وانتهض علامة المحققين، أمين فتوى الشام السيد الشيخ محمد أمين عابدين، وكان من أخص أحبابه المعتقدين ـ رحمه الله تعالى ـ لتأليف رسالة في الرد على أولئك المعتدين سماها: «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا الشيخ خالد النقشبندي» فحسم ذلك الحسام دعواهم، وقسم ظهورهم وقواهم، وخذل من نصرهم وآواهم، إن الله لا يصلح عمل المفسدين.

ونظير ذلك: ما كتب بعض مشايخ حلب إلى ساكن الجنان، السلطان

الغازي محمود خان، يحذره على مملكته من قوة شوكته، بما حشد من العدد والعدد، فكاد أن يسبق السيف العذل، ويبلغ الكتاب الأجل، لولا أن ألهمه الله عز وجل فاستشار في ذلك الإمام الهمام، مكي زاده مصطفى عاصم أفندي شيخ الإسلام، فقال له: يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ [الحجرات: ٦] فأرى أن ترسل لاستكشاف حاله معتمداً، وليتلطف ولا يشعرن به أحداً، فأنفذ إليه رجلين، قد تحليا بحلية درويشين جليلين، فلما وصلا إليه، وقد أخفيا الأمر وأظهره الله عليه، أحسن لهما الوفادة، وأكرمهما فوق العادة، ودعاهما إلى طعامه قدس الله سره، وأطلعهما بوسيلة تأخر الطعام، وتسليتهما برؤية كيفية بيوت الشام، على مساكن داره حجرة حجرة، فلما لم يجدا فيهن سوى أثاث الإقامة، علما أن ذلك منه أكبر كرامة، فقبلا قدميه وأوضحا الأمر إليه، وأخذا عنه الطريقة العلية، وأبيا أن يرجعا إلى القسطنطينية، فقال: بل الأولى أن تعودا فتفيدا حضرة السلطان ما أرسلتما إليه، ومن شاء أن يرجع بعد فلا جناح عليه، فلما رفع الرجلان صحة الأمر إلى السلطان ـ حمد الله عز وجل ـ وشكر شيخ الإسلام على ما فعل، ثم عاد أحدهما إلى خدمته، وتوفي بدمشق ودفن في تربته.

عوداً على بدء

ثم لما رجع كما تقدم إلى السليمانية، ومعه الخلفاء الحنفاء من فحول علماء بغداد وغيرهم، وعليهم أبهة الأنوار الفهوانية، ورأى أميرها محمود باشا ابن عبد الرحمن باشا طاب ثراهما ما جبل الشيخ قدس سره عليه، من إقبال العباد من كل البلاد إليه، والتجائهم إلى مقامه، واغتذائهم بإنعامه الروحاني والجثماني، بنى له زاوية ومسجداً، ليكونا للعلوم والمعارف مصدراً وموردا، وتحرى أوجه الحل للنفقة في ذلك، ورتب الرواتب الكافية لكل طالب مواظب بها وناسك سالك، فأبى الشيخ ما أجراه، فألح عليه حتى أرضاه، فشرع بالإرشاد كما أرشد في بغداد، فأقبلت إليه أهل الهمم، كالعالم الرباني الشيخ

إسماعيل الشيرواني، والفاضل الكامل الشيخ أحمد الأغربوزي، وغيرهم من أقصى البلاد أمداً، ومن أقربها من لا يحصون عدداً، فطفق يربي سالكهم، ويرشد ناسكهم، ويدرس كافة العلوم، ويحيي رسوم الأولياء وأولياء الرسوم، لا يشغله الخلق عن الحق، ولا الجمع عن الفرق، حتى أصبح بابه محط رحال الأفاضل، ومخيم أهل الحاجات والمسائل، وقد مدحه أدباء عصره وقتئذٍ بقصائد فرائد عربية وفارسية، ومؤلفات بديعة الأسلوب، تأخذ بمجامع القلوب، فمن النوع الأول قصيدة صاحب «الحديقة الندية» القافية، القافية التي أوردها سيدي الجد في «البهجة السنية» ومطلعها:

تبدّت لنا أعلام علم الهدى حقاً فصار لشمس الدين مغربنا شرقاً

وهي طويلة جميلة، تدل على براعته النبيلة، وغيرها من المدائح الجليلة.

ومن النوع الثاني كتاب «أصفى الموارد من سلسال أحوال مولانا خالد» للعالم الأديب، والمنشىء الغريب الشيخ عثمان بن سند النجدي البغدادي، فإنه شحنه بالقصائد الباهره، والفقر الزاهره، غير أنه ما زاد على ما ذكره الشيخ محمد بن سليمان في «الحديقة الندية» في ترجمة أحوال حضرة مولانا قدس سره. وقد تصفحته كله، ونقلت من نظمه هنا بعض أبيات لطيفة في الجملة، ورأيت من أحسن ما فيه قوله:

أيها اللائم دع عنك الملاما وأدر لي من سلاف القوم جاما
وارو لي من نشر أخبارهم خبراً تفصح رياه الخزاما
واسأل الأرواح أن يهببن هل ضمنوهن مع الصبح السلاما
إنني صب بهم إذْ اثخنوا وسط القلب وهم فيه كلاما
عفر الخدّ على ما وطئوا لثمك الترب لهم يشفي السقاما
إن عز الصب في شرع الهوى أن يمس الثغر للحب الرغاما
مت بمن أحببت لم يدرك فتى لم يمت في حب من يهوى المراما
إن تمت في حب من أحببته تحيَ عرفاناً وإن ذقت الحماما
فز بإقبال عليهم تلقهم سادة يلقون بالبشر كراماً

فـاز بـالإقبـال منهـم شيـق | لم يسم في روضة الجفن مناما
يـا خليلـيَّ بسلـع أسعـداً | مقلـة تسبـق بـالـودق الغمـامـا
إن أجفـانـاً أسـامـوا بـالحشـا | فتقت من حبة القلب الكماما
يـا رعـى الله أويقـاتـاً مضـت | وعقود الوصل قد رقن انتظاما
إذ ليـاليـنـا قصـار بهـم | وأمـانينـا يـولـين الـزمـامـا
فقضـى الـدهـر بـإبعـادهـم | وسقـانـا للضنـا جـامـاً فجـامـا
يا أويقاتاً قداماً لي ارجعي | واديري من صفاهم لي المداما
ارجعـي لـي زمنـاً بـالمنحنـى | إذ وجوه العيش يغربن ابتساما
زمنـاً قضيتـه فـي قـربهـم | يغبقوني الأنس كهلاً وغلاما
لاتحـاشـي فـي التصابـي نفـراً | نقـل السلـوان أو ذام ولامـا
أنـا ظمـآن لـوصـلٍ منهـم | مـرجـع للحـب أيـامـاً قـدامـا
لـذ لـي خلـع عـذاري فيهـم | فبخلعـي لعـذاري أتسـامـى
شام طرفي بارقاً من صوبهم | فحكي المزن انهماراً وانسجاما
نفـد الصبـر ومـالـي جلـد | مذ نضوا عن وجنة الهجر اللثاما
قسمـاً مـا سـام أذواد الكـرى | في رُبى طرفي لدن للنوض شام
قلبي المضنى أما هم ارتعوا | في روابيك من الوجد سواما
وهم الساقوك كاساً لو سقوا | جبلـي نعمـان مـن فيهـا لهـامـا
لا تحد عن مهيع قد أوضحوا | ونفـوا عنـه رعـاعـاً ولئـامـاً
أوسعـوه لكـرام هجـروا | زهرة الدنيا وأولوها انفطاما
جـردوا لله مـن نيـاتهـم | أوجهـاً تهـدي إلـى الله الأنـامـا
أعمـل العيـس المـراقيـل إلـى | ربعهـم تلفهـم حيـاً كـرامـا
كم قروا لله من ضيف سرى | لاطماً بالعيس بالليل الأكاما
لمعـت فـي طـرفـه نـار لهـم | مذ رآها شق بالعزم الظلاما
ونحـاهـا يقتفـي آثـارهـا | مبرداً بالقرب للقلب الضراما
لا عجيـب أن نـاراً أوقـدوا | قـربهـا يطفـيء للصـب الأوامـا
فهـي نـار وهـي بـرد للحشـا | فتنورْها متى اشتقت إلى ما

لا تلم من أسكرت أحوالهم قلبه المضنى فأمسى مستهاما
إن أحـــوالهــمُ إن أسكــرت فرقف القرب إلى مولى تساما
فـاسقنيهـا سحـراً والليـل قـد نظمت يمناه للـزهـر النظـامـا
أو إذا مـا الفجـر أبـدى غـرة أشبهت من خالد الفضل ابتساما
وأدرهـــا فـــي أنـــاس خلعــوا مذ حسوا منها عن الشرب احتشاما
واستـــداروا ولهــم قطــب إذا صرع القوم من السكر استقاما
جبـــلاً تحسبـــه فـــي حلقـــة وهو كالسحب إذا مرت تراما
رتبـــة قـــد أكسبـــت أبهـــة واحـداً فـاق بمـا فيـه لهـامـا
قـال للدنيـا ابعـدي إنـي امرؤ منع الألحاظ أن ترنوا الحطاما
بـذل الـروح لإحيـاء الهـدى وثنى عن مورد الغي اللجاما
عفت ما يفنى لما يبقى فلي همة تطلب مـا يسمـو مقامـا
مـازج التـوحيـد منـي خلـداً شـع نبـراسـاً لمـا فيـه أقـامـا
لم يرم قلبي مذ صح الهوى غير ما ود الذي أصبى وراما
رام منـــي مهجـــة أهـــرقهـــا ما أرى الوجد به إلا حساما
مـذ سقـانـي قهـوة أسكـرنـي وأرانـي كـل مـا رمـت إمـامـا
هـــو أفنـــانـي وأبقـــانـي فمـا ألطف الإفنـاء والابقـا التـآمـا
مـن يـذق ممـا سقـانـي نغبـة ينظـر الحـق ولا خلـق تسـامـى
دونكم يا أهل عصري مشرباً ندب السلاك إن يسعو إلى ما
فرِدُوه واحتسوا من خمره[1] قدحاً ما ملك الفدم الفداما
قـدمتـه يـد سـري فـارشفـوا فعلام البعد عن خمري علاما

---

(١) قوله (من خمره): الخمر كل ما يخامر العقل أي يخالطه إلى حدِّ الغلبة عليه فيستره عن غيره، وهذا في المحسوس ويستعار لكل معنى، قال ابن الفارض:

شـربنـا علـى ذكـر الحبيـب مـدامـة سكـرنـا بهـا مـن قبـل أن يخلـق الكَرْم
يقولون لي صفها فأنت بوصفها خبير أجل عندي بأوصافها علم
صفـاء ولا مـاء ولطـف ولا هـوى ونـور ولا نـار وروح ولا جســم
تقـدم كـل الكـائنـات حـديثهـا قديماً ولا شكل هناك ولا رسم (ع).

فأجابوا صوت داعيه إلى ... رشف ما يذهب للقلب الأواما
زمراً تتلو إليه زمراً ... كلهم خاض له البحر وعاما
فتخلفت لحظ قاعد ... عن رنوي ذلك البدر التماما
غير أني أتمنى أن أرى ... ذلك النور وإن كان مناما
إذ سرت لي من صبا أنفاسه ... نفحة رقت فهاجت لي الغراما
أيها الداعي إلى الله أزح ... برئو عن حشا الصب السهاما
صبك المضنى فلو أسعدته ... كنت أرسلت مع الريح سلاما
إن تسليمك يحيي رمقاً ... منه فابعثه ليبقى مستهاما
لا تؤاخذه لحرب صده ... وخطوب أوهنت منه العظاما
ولك الفضل عليه ما سرى ... منك رشد يبهر المسك ختاما

وقوله:

ليالينا بالرقمتين وحاجر ... سقاكن ثجاج الرضا بالمواطر
مضى فيك أنس رق صهباؤه لدن ... نزلت للذات الهوى بالنواظر
سقانا زجاج الحب قرقف مشرب ... سكرنا بها عن كل باد وحاضر
فنينا عن الأشباح حتى كأننا ... من الراح أرواح وأوهام خاطر
هوى دق معناه دعانا برمزه ... إلى رشف صهباء له بالخواطر
فلباه منا كل من رق شوقه ... وعاناه منا كل صافي السرائر
لقد ضمنتنا مقلة الحب ماقها ... فها كلنا للحب إنسان ناظر
صفونا فلا أقذاء فيما أدراه ... علينا من الصهباء ألطف دائر
فلذاتنا في الحب أمست افالها ... رواتع في روض من الأنس زاهر
وكم لامنا فدم الطباع ولو درى ... بمحبوبنا ألقى لنا بالمعاذر
عذيري ممن لامني في سلافة ... هي الروح بل واللب من جسم ذاكر
مشعشعة أبدت حباباً هو التقى ... ورقت كأنفاس الشمول لسائر
بها نفس مقتول الهوى تعشق الفنا ... فكم فنيت منها نفوس أكابر
هم رشفوها والظلام رواقه ... سرادقهم عن كل خب وماكر

فغابوا عن الأجسام والكل حاضر ... يـلاحـظ سـاقيـه منـه بنـاظـر
فكم واصلوا ليلاً بصبح وشوقهم ... إليـه ثنـى منهـم زمـام الضمـائـر
فلم يبق للأكوان رسم لديهم ... لدن شاهدوا محبوبهم بالبصائر
فهـات اسقنيهـا قهـوة قـادريـة ... فلست على ترك احتساها بقادر
وهات اسقنيها والندامى أكارم ... لدى روضة أضحوا لها كالأزاهر
وهات اسقنيها لم يدنس مزاجها ... بفـدم ولـم تقـدم بغيـر سـرائـر
وهات اسقنيها من يدي عاصر لها ... بـراووق أذكـار بـأفيـح سـامـر
لقطب له الأذكار صهباء وارد ... سوى الله لم يرمق بإنسان خاطر
من النفر القوم الذين وجوههم ... إلى الحق تهدي كل سار وسائر
وأبيـض نظـار بعيـن إلهـه ... ضمائر غيب نيرات المظاهر
ومـوقـد نـار يهتـدي بشعـاعهـا ... سراة سراة للهدى بالشراشر
وكم قائل هذا ابن عثمان خالد ... أراه فضيلاً أو أويـس بن عامر
رموز له أضحت رموزاً لواصل ... إلـى الله سبـاق لعـز المـآثـر
تخالف فيه الواصفون فقائل ... هو القطب لولا أنه ذو مواطر
وآخـر هـذا البـدر لـولاه نيـر ... مع الشمس نساخ خضاب الدياجر
سقى من سقى من طالبيه سلافة ... من الذكر لم تدنس براحة عاصر
دعت للهدى منه علوم زواخر ... إذا زخرت لم تبق دراً لزاخر
زواخر يرويها عن الخضر سره ... جرين فحلين النهى بالجواهر
فيا حاسديه إنه الشمس فانظروا ... لأشباه فضل لسن ذات نظائر
نسبن إلى القوم الذين تسنموا ... بعثمان أكوار العلى والمفاخر
فكانوا بذي النورين أفضل معشر ... إذا ما دعوا كانوا أنوف العشـائر
لعبد مناف أحرزوا كل سؤدد ... صميم ومجد لم يكن بمفاخر
فيا قر داغ افخر فإنك مطلع ... لبدر تسامى عن وجود مناظر
ومعدن عرفان سما بمعارف ... أوابد لم تدرك بإعمال خاطر
معارف أضحت للجنيد مطالب ... وإن كن للجيليّ سر السرائر
فدع عنك ما قال الحواسد إنما ... هو الغوث كم غاث النهى بالمواطر

إذا أخذته نشأة الذكر خالد ... لدى السكر رضوى كل سام وسامر
أبان لنا نهج السلوك فأصبحت ... مناهجه تهدي لأسنى الذخائر
فلم يبق في بيدائه غير مهتد ... ولم يبق في ظلمائه غير سائر
فديناه بالأرواح إذ كان للتقى ... هو الروح فانشقه بأنف خواطر
رياض التقى لولاه روض زهرها ... لما كن في ذا العصر ذات أزاهر
تخبـرنـا منـه العلـوم بـأنـه ... هو البحر لولا أنه غير زاخر

ومن هذا النوع: «الأساور العسجدية في المآثر الخالدية» للعالم الفاضل، المرشد الكامل، خليفة حضرة مولانا في بلاد الحسا الشيخ حسين الدوسري قدس الله سره. فإنه رتبه على أربع مقالات أسندها لحامد الأمين مع نبهان شبه المقامات، غير أنه وضع لكل مقالة خطبة، توصل فيها بالأسود والأحمر إلى ما أحبه، ثم ختم المقالة بقصيدة فريدة فيها هذه الحالة، وسأورد لك طرفاً من كلامه تستدل به على لطيف مرامه.

قال في المقالة الرابعة: بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله الذي أنقذنا بخالـ)ـص نوره المديـ(ـد الإمداد)،من ظلمات الإلحاد، و(سا)ئر مكا(ئد الأ)عداء والحساد، ومنّ علينا بإ(فرا)غ الوسع في أخذ الزا(د) ليوم المعاد، بواسطة (قائد الأوتاد) الأكابر، (بحر البحور) الزاخر، (بدر الوجود) الظاهر، و(شمس السعود) لاولي البصائر، (ومحل السمع و)المفيض على الجمع من فيض (الشهود) الغامر، في (حضرة) المعية لدى (مولانا) الناصر، فأكرم (بخالـ)ـع ثوب المعرة الكائن من صدفة الزمان عين الدرة، الراقي من مقام الإحسان ذروة الطور، متقمصاً بقميص النور، المزيل حنا(د)س المظاهر بظهور بدر (النجابة) في سماء الصبابة، لـ(ـكاملـ)ـي (الإنابة) المشرفين على الخواطر، حين تدريس (أريس العصابة معدن الإصابة) في هاتيك القدسية الحضائر، بحبوحة الجليل، المان بها على عبده الجميل، الفاضل ذي الباع الطويل، في معالم التنزيل، سيدنا المحقق وشيخنا المدقق الشيخ اسماعيل (أتم الله عليه نعمه) السنية، (وبنعيم قربه نعمه) في الحضرة العندية، (وأعلى

رتبته مع السابقين) أولي الخصوصية، (وقدمه) على اللاحقين في إخلاص العبودية. آمين.

قال: فلما سمع مقاله، سعر خده عنه وأماله، وتنكر عليه وأظهر لقوله الملاله، فأدركته شفقة الأبوة عليه، فالتفت ناظراً إليه فقال: أي بني! أما قلت لك: لا تذكر لي اسماً، ولا تجعل لي في ذلك الدفتر رسماً، واجعلني نسياً منسياً، عسى أن لا أكون بدعاء محبوبي شقيا، فقال له: جعلت فداك دائماً، إنما جعلتك خادماً، ولأقدام المحبوب لاثماً، ليجري عليك ألطافاً ومراحما، فلا تكن لي لائما. فقال: إذا كان هذا قصدك لأستعطفن المحبوب أن ينجح سعدك فتلحق من قبلك، ولتقدم على من بعدك، فاروِ عنّي بعض ما أمليته في المحبوب من الإنشاء والإنشاد، مما يعرفك أني أذبت في محبته الفؤاد، وهجرت الأهل والأولاد، ودأبت الليل والنهار، وأجريت الدموع الغزار، واشهد عليّ أني فارقته بعض حين، فأبديت الحنين والأنين، ونحت ولا نياحة فاقدة الجنين، فناديته وهو مني قريب، وأنا منه بعيد، يا حبيبي! لا تبعدني إن البعاد شديد، يا حبيبي بسعدك أسعدني إن سعيداً من جملة العبيد. يا حبيبي! إلى متى تهجرني أما آن لهجرك أن يبيد؟ يا حبيبي! أنت فائدتي وما غيرك لي بمفيد، يا حبيبي! أنت البادي بالفضل، وأنت بالفضل تعيد، يا حبيبي! أنت والله مرادي وحق ذاتك وأنا لك مريد، يا حبيبي! لأنوحن عليك مدة حياتي، ولا أترك النوح والتعديد، ثم أنشد يقول:

حبيبي إنّي من نواك أنوح ... فلا ريب أني بالغرام أبوح
وأعرب عن معناك جهدي وإن يكن ... نصيبي أني من هواك طريح
وما حاجتي بالحج لولاك محرماً ... تلبي وفي رد الجواب تصيح
ولولا مناني في منى ما أتيتها ... ورسمك فيها ذابح وذبيح[1]

(١) قوله (ذابح وذبيح): الذابح هو سيدنا إبراهيم والذبيح سيدنا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، واستعار هذين الوصفين المخبرين عنه وعن محبوبه، فأقام محبوبه مقام الذابح، وأقام نفسه مقام المذبوح في السمع والطاعة ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾. (ع).

وذاك يمين للذي أنت سمعه إذا طاف مسك النسك منه يفوح
وهذا حجاب رسمه الوهم أنت في مغـالطتـي تغـدو بـه وتـروح
أتحجبني بي لست أنت ولا أنا[1] وتوهم تعريضاً وأنت صريح
وتنعت لي لا وهي إلا وأنت لي تعـن وان شـط المـزار تلـوح
وتزعم أني من هواك بمعزل وجفني من وجدي عليك قريح
لئن كانت الأجفان مني سخية فقلبي على سرّ الغرام شحيح
أبـوح بـه لكننـي لا أبيحـه ومـالـي وحـالـي دونـه لأبيح
حبيبـي أمـا القلـب فهـو مـروع دواماً ومن فرط الزفير جريح
وأما صباباتي سلمت فإنها لها كل متن لي عليه شروح
وأما كآباتي وقيت فكم لها بقلبـي محـل والمحـل فسيـح
فلا يبعدن الله ما منك جاءني على أي نوع كان فهو مليح

ليت شعري هذه المظاهر من بدها، وما حدها، ومن يمدها، وعن جمالك ما يصدها، أرؤيتها إياك سواك أم دهاها هواها، فما عقلت هداها؟ لعمري إن هذه الممالك المعمورة بك عين السراب، وما عمارتها بها إلا الخراب، ولولاك لظهر عوضها المحاق والذهاب، أنت فيها بائن، وما أنت عنها بائن، والغبي يعرض عنك ولها يعائن، ما على هذا الظهور من مزيد، فكيف به

---

(١) قوله (ولا أنا): من ظنَّ أنَّ الممكنات لها قيام بأنفسها وأنها منفكة عن صفة القيومية فهو محجوب بهذا الحجاب الذي رسمه له وَهْمُه وخياله، ثم أوضح أن حجابه منه وهو نفسه لأنها من العالم الإمكاني مع أن الحقيقة أنها لا غيره ولا عينه، لأنه لا حلول من الإله، ولا اتحاد للعبد مع الإله، وفي العالم متعلقات قدرته التي يبرز بها، وإرادته التي يخصص بها، وعلمه المحيط وسمعه وبصره المتعلقين بالموجودات، ولا انفكاك للصفات عن ذاته، فهذه الحيرة أدهشته، فلـتَ أنت عين الممكنات، ولا أنا مستقل قائم بنفسي، بل قيامي بك وأوصافي إمداد منك، وأفعالي بحولك وقوتك.

ومن أقوال الجنيد: إذا اقترن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم.

ومن كلام ابن عطاء الله: يا عجباً كيف يظهر الوجود مع العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم. (ع).

قصور؟ ولعل هذا النور ما يفيد لمن عيونه عور، ما أدري ما حال بينك وبينه، وما الذي أعمى عينه، وأي شيء جعلك غينه، والله لو أحببته لأريتك أنه، فاتخذك فنه، وأردف عليك حسرة بأنه، فيا من ظهر جماله المكتوم في جميع الأشباح، من كان في طلبك يقعد ويقوم، كيف لا تعتريه الهموم في المساء والصباح؟ ومن غدا في محبتك وراح، كيف لا تتوالى عليه الأفراح؟ بحر محبتك عميق، وكم نجا من غرق فيه من سباح! ما حبك شيء هين يحصل بغير بذل الأرواح.

ما لصب مستكن في الضمير ... منه حب غير حزن وسرور
ذا لـه وقـت وذا وقـت وقـد ... يدخل الأول في طي الأخير
ولعـل العكـس يجـري فيهمـا ... ذاقه الذائق فاسأل عن خبير
فـإذا مـا اجتمعـا هـذا وذا ... واستوى الأمرانِ يا بدر البدور
فأجـرنـي يـا حبيبـي مـن لظـى ... أو فـزد قلبـي مـن حـرّ السعيـر
(فـ)ـالحظ (المقصود مني) أبداً ... إنمـا(أنـت)الـذي أهـواه نـوري
فـأنـا الـولهـان مـلآن الحشـا ... مـن شهيـقٍ واحتـراقٍ وزفيـر
وأنـا المفتـون فـي ظبـي النقـا ... صائد الآساد معشوق الصدور
وأنا الطائش في حب الرشا ... وهـو الفـاتـن ربـات الخـدور
ذي صفات أنت موصوف بها ... كامل الإحسان والحسن الخطير
فـأتنـي كـم فتنـي فيـك الهـوى ... فتنـي نجيـت مـن كـل الشـرور
فالرضا في مرضي (إذ غرضي ... خالـ)ـص الحب وإفرا(د) النضير
أنـا أهـوى كلمـا تهـوى فـإن ... تهوَ تهوي بي لظى أنت مجيري
أترى أضرب عنك الذكر صفـ ... ـحاً وقد أفصح نطقي عن ضميري
قـائـلاً إنـي جميـل فـي جميـ ... ـل إليها المحبوب ذود مع درير
أنـا إن يبلـغ كـلامـي مسمعـاً ... فهـو النـاطـق عنـي بحضـوري
كيـف لا تهمـل عينـي أدمعـاً ... كسحاب هل بالمزن الغزير
وضيـاء الـوجـه مـن كـل جهـا ... تـي محيـط مشـرق خيـر منيـر
ذا مقال العكس من نفس الوعا ... كيـف لا والبذل من كيس الأمير

كيف لا تأخذ قلبي جذبا ت الهوى وهو محل للبدور
أي شمس بزغت من مشرقي سجدت للجمع في جمع كبير
أين أمسى مرَّ أو يأتي غدا ذا غدا الحاضر أو ذا نفخ صوري
أو ما تنظرني مجتهداً إذ أنا المشرف في كل أموري
إن عيناً تنظر الآن غداً طبق ما تنظر من قول البشير
ويحها كيف يوافيها الكرى كيف لا تصنع كالعبد الشكور
كل شهد من شهود موجب لجمود تحت طيات الخدور
ما أراه مذهباً لي في الهوى وهو عندي في سلوكي نهج زور
أين حبي لك إن كنت أرى باختياري هادئاً فوق السرير
كل وقت أنا والله أرا ك به فرداً به أعلى سروري
من لعيني أن ترى وجهك با دِ لها يا قمري يا نور نوري
كل شيء يتعدى حدّه قل أن يسلم من ستر الظهور
فلهذا حسن حبي في البطو ن بدا كالشمس من خلف الستور
فهو مقصودي الذي وجهت وجـ ـهي له في غيبتي مثل حضوري
فادعني إن شئت عبداً للجما ل وإن شئت فللوجه المنير

ألا وإن من قصر نظره منك على الجمال، يا حبيب! يا بغية الآمال، وتخلى بك عن القواطع الأيام والليال، وتحلى من إحسانك بسواطع الخصال، وتشرف من امتنانك بخلع الإقبال، وصرف في طلبك موانع الوصال، وحل بإنزالك إياه من إقليمك في مدينة النوال، ودخل معك في خدر الشوق وقال، وغرّدت في حديقة عشقه لك بلابل البلبال، وصادف كؤوس محبتك على هذه الحال، فشرب أرطالاً بعد أرطال، وتحكمت منه النشوة فمال، كيف لا ينقدح منه زناد الاشتعال؟ ويخلع في مقدّس وادي مديحك النعال، ويشرع في تحقيق وصف معانيك على رغم شانيك لأولي الغرام بأدق مثال، وأرق قريض يفوق الزلال، ويقول على الارتجال، في آن هيجان الحال:

روِّ قلبي صرف الهوى السلسال وارو عني مديد مدح الجمال

فالهوى والغرام والعشق والشو ق شعاري وحرفتي واحتيالي
فتنوّر بدري الذي أسفر الكو ن بـإشـراق نـوره المتـلالـي
حين يبدو على الوجود تراه جامعاً فرق طالبين المعالي
رافلاً في البها على أمة العشـ ـق الميامين زمرة الانتحال
مدمني السكر من كؤوس مناجا ة الحَبيب الجميل جم النوال
مالك الحسن والمحاسن والإحـ ـسان والجود والندا والكمال
فبعـذري إذا تفننـت فـي مـد حي له في غريب كل مثال
هو في حسنه غريب عجيب بـائـن عـن نظـائـر الأمثـال
كم على حسنه النفوس تفانت وفنـاء النفـوس خيـر الخصـال
ما على من به اضمحل ملام وهل الحب غير الاضمحلال
وهل الحب غير ما سلب العقـ ـل بتكـرار لسبـه المتـوال
وهل الحب غير ما زلزل الأعـ ـضاء بالوجد أعظم الزلزال
وهل الحب غير ما أمطر الأجـ ـفان من سحب دمعها السيال
ما اعتذار المحب في عدم النو ح وسكب الدموع والانحلال
أتـرى يسكـن الحبيـب فـؤاداً لـم تلـج فيـه حـرقـة الاشتعـال
ويـورد النـواح[1] يجهـر ليـلاً ونهـاراً مكـرّراً ومـوالـي
طالب الوصل طيب الأصل يجري في مجاري الهوى بثوب الموالي
ولعمـري إن الـوصـال محـال مع أني طمعت في ذا المحال
ليـس للـوصـل غـايـة منتهـاه عدم الفصل وهو غير وصال

---

(١) قوله (وبورد النّواح) الوِرد هو السبيل الذي يسلكه الإنسان للوصول إلى مقصودٍ ما، أو ما يوظفه الإنسان لنفسه من أنواع العبادات.
والنواح: رفع الصوت عند المصيبة. وهو عندما أصيب بفقد محبوبه والاحتجاب عنه رفع صوته بالأنين والحنين.
ويحتمل أن النواح جمع ناحية وهي كمالات المحبوب وتعداد صفاته فجعل ذلك ورداً له في ليله ونهاره. (ع).

إذ هو الآن مثل ما كان لكن ... كان خافٍ فبان بعد انصقال
فإذا نحت فاعرفوا لي نواحي ... وإذا صحت فاتركوا لي حالي
فعجيب وليس عندي عجيب ... فيض دمعي كفيض مزن العزالي
ما أرى غير واكف الدمع يروي ... صادياً من زلال صرف الجمال
أو ما أنت أيها البدر في الخد ... ر ولا خدر أنت بدر الكمال
أو ما هذه البلاد أضاءت ... بضياء الحبيب ذي الأفضال
هذه غاديات سكر حميا ... ه الذي ميزت ببذل النوال
هذه غاديات نور محيا ... ه الذي حيرت عقول الرجال
تسكر الدن تمطر المن تجري ... سحب الحزن من قلوب خوال
وهل الحزن فيك يا باهر الحسـ ... ـن سوى القدن والهنا المتوالي
ته وألَّبْ جموع حسنك إني ... جامع الشوق ساحب الأذيال
ولقد قلت فيك أسفار مدح ... تليت في الإبكار والآصال
وبودي يمر فيك زماني ... وبذكراك كل قيلي وقالي
إنما أنت مالك القلب والرو ... ح ومعنى معنى الشروح الطوال
أنا رويت علم ظلم ثنايا ... ك عن الوجد قرب آن الزوال
وتضلعت من علوم مزايا ... ك كما لا يخفاك صدق مقالي
كم رأيت الحبور تغرف من بحـ ... ـرك ذي النور مثمنات اللآلي
ورأيت الصدور تصدر من نو ... رك بالوفر من عصور خوالي
ملك الحسن أنت يا حسن المـ ... ـلك فلا ريب إن ذكرك عالي
فإلى باب فضلك الرحب أمت ... تتجارى يعامل الآمال
أمّل الآملون منك فما خا ... بوا وآبوا على نجائب مال
أي مال إلا ومفتاحه في ... كفك البسط كف قابض حالي
وبه كم فككت قيد أسير ... أسر الوهم قلبه في المحال
فنجا إذ لجا إليك وهل غيـ ... ـرك حصن يحمي من الأوحال
أنت رب البها كريم السجايا ... فاصل الوصل واصل الانفصال
أنت جم الندا الجميل الموالي ... سحب المن يا ضياء الموالي

أنت ذو الطول حيث لا حول إلا ... أن ينادي بالقول يا ذا الجلال
شرع شعري عريشه من يواقيـ ... ـتك يبنى فهو الغريب المثال
فلهـذا ينـم جـم المعـانـي ... من مثاني كشف الحرام الحلال[1]
كـل شـيء إليـك ينمـي حـلال ... وجلالي أرعى كرعي جمال
وبحـق أقـول أنـت الـذي مـن ... حرف معناك كوكبي وهلالي
مذهبي الحق أنت تعرفه فيـ ... ـك فجـدع مجـادل الجهـال
وإذا مـا أزال خصبـك محلـي ... كيف أرضى بعيش أهل الهزال
وإذا مـا أزال نـورك حلكـي ... كيف أمشي في نهج أهل الضلال
وإذا عـنّ فـي سمـائـك بـدري ... بانعكاسي فمن سواك وما لي
لا تكلني وزن نضاري وكلني ... تلفني أنـت صـاحـب المكيـال
أنت بدري وأنت شرفت قدري ... ونصيـري إذا ينـادى نـزال
أنت ذخري وأنت صاحب خدري ... أنت تدري سلافتي من زلالي
أنت إن تحبني المدائح أحمد ... ك بجهدي حمداً على كل حال
أو تجد لي بالشكر أشكرك ما دمـ ... ـت فذالي وأنت مبدي مقالي
يـا حبيبـاه والحبيـب مجيـب ... أنت قصدي في حلتي وارتحالي

قال حامد: فقلت: أي نبهان! والله لقد أزلت عني الأحزان، وهيجت عليّ الأشواق، وأودعت قلبي الاحتراق، زيادة على ما كان، بما أتيت به من هذه النقول، التي تحير العقول، ما أرى هذه الأسجاع والقصائد، إلا للعقول مصائد، وكأني بها من مدارج مكرك، ومن نتائج فكرك، لكني لا أكلفك الاخبار عنها، لأن المقصود حصل منها، فهل بقي عندك في الخريدة شيء من المقالات المفيدة؟

قال: فتبسم ثم تنسم، وقال: أي حامد! مكر يعرفك بعيبك ويبصرك بترقيع جيبك نعم المكر، وفكر يعمل في جذب قلبك إلى مشاهدة حبك،

(١) قوله (كشف الحرام الحلال): أي يكشف ويوضح الحلال والحرام بالنور الفرقاني في الأمور المتشابهة التي لا يعلمها كثير من الناس. (ع).

ما أجله من فكر! ثم قال: نعم بقيت مدحتي الجديدة لمحاسن محبوبي العديدة، وهي هذه أنشأتها لما سرى في أحشائي الحب ودب، ونهض قلبي لداعي الغرام وانتدب، وتعرض لوارد الهيام وارتقب، ونوديت في محافل العرب بالهائم الصقب، فكان لي أشرف لقب، فناديت حينئذٍ بلسان من على الدنان أكب، ولا تقهقر ولا نكب، فقلت:

صدى المتيم والتهب ولديك راقود العنب
فنحا جمالك راجيا من خمر حبك ما طلب
فغدا وقد رفض الهدى من غير حسنك وانقلب
وإذا الهوى سلب القوى لا تعتبوه إذا أكب
أوليس حسنكم عقو ل أولي النباهة قد سلب
وبدا وقد عمر الوجو د فإن يحنَّ فلا عجب
لا غرو ان لعبت به صهبا المحبة فانتحب
طوراً يقول أنا المحب وتارة وأنا المحب
ولربما خرس اللسا ن مع الجنان فما اضطرب
ولربما غنى وصا ح وناح من فرط الكرب
ولربما ولّى من الـ ـحسرات كي يطفي اللهب
وبهاء وجهك من رآ ه فما عليه إذا انسلب
ولكون لو يبدو له من نور وجهك ما احتجب
لرأيته يهتزُّ من ذوق اللذاذة والطرب
يكفي المحب إلى جنا بك يا جميل إذا انتسب
فعليه عند أولى الغرا م الصرف حبك قد وجب
ولعشق حسنك عند أر باب الهيام هو الأحب
فلأولينك مدحة غرأ تخط بما الذهب
أنت الذي ملك الجما ل جميعه أني ذهب
أنت الذي سكر الزلا ل بفيك حين هو انسكب

والخمر فيك أراه قد … سكر الزمان وما أهب
والبدر جاء إليك يـر … ـجو منك نوراً أن تهب
والشمس تأمل أن تزيـ … ـد ضياءها خوف العطب
والنار ترعد خشية … أن يبد نوركم تصب
وأنا الذي أرجو أرا … ك مع الجمال فلا عجب
والماء يخشى أن يصـ … ـير هوى يطير من الرهب
والريح مضطرب الحشا … من أن يحل به الغضب
فيكون ماء أو ترا … باً أو جديداً أو خشب
ولأنت أجمل ما رأيـ … ـت ومن رأيت من العرب
وأجل من لبس الردا … ء مع الإزار وما اعتصب
وأعز من فوق السر … ير علا على أعلى الرتب
فاعقل كلامي إنما … أنت الذي خطب الخطب
وتلا كتاب العاديا … ت وللمقانب قد كتب
وأفاد شرح المرسلا … ت على الخميس بما طلب
وأجاد فائدة الحوا … شي والفروع بما أحب
ولقد صرفت إليك حا … جاتي وأنت هو الطلب
والأعجميّ القلب يـنـ … ـكر مدحتي وأخو الريب
وشبيهه الأشقى فقل … تبت يداه أبو لهب
لو كان يبصر ما نفى … صدق الحديث وما كذب
الله أصدق قائل … وحبيبه زاكي الحسب
صلى عليه الله ما … غيث توالى وانسكب

ثم إنه قدّس الله سره عاد إلى بغداد ثالث مرة، ونزل في المدرسة الإحسائية التي جددت لحضرته الضيائية، فأخذ ينشر ما طوي من العلوم الدينية، ويطوي ما نشر من الرسوم الدنية، ويحيي ما فني من السنة السنية، ويظهر ما خفي من المعارف اللدنية، إلى إفاضة أنوار، وإفادة أسرار، فانقاد إليه علماؤها

وعظماؤها، ووزراؤها وأمراؤها، وأصبحت به بغداد ملتقى البحرين، ومطلع القمرين، وشاع فضله شرقاً وغرباً، ففرت إليه الناس عجماً وعرباً، فطفق يربيهم بنفسه الأنفس، ويمدّهم بإمداد نظره الأقدس، حتى إذا تكمل أحدهم بعث به إلى أهل الأقطار، ليحيي موات قلوبهم بفيضه المدرار، ولقد أقدم أقدم خلفائه الأعلام، جدي لوالدتي الشيخ أحمد الخطيب الأربيلي ـ قدّس سره ـ إلى دمشق الشام، وكان عالماً عاملاً متفنناً، ومنشئاً شاعراً محسناً، ومرشداً كاملاً متقناً، ذا كرامات مشهودة، ومقامات محمودة، وله عندي رسالة في الطريق تشهد برسوخ قدمه، وعلوّ قدره وهممه، فلما وصلها ولقي أهلها ونشر بينهم أعلام الإرشاد؛ ألقوا إليه بحذافيرهم مقاليد الانقياد، بحيث لم يبق حاضر ولا باد إلا وأخذ الطريق عنه، أو طلب الإمداد والبركة منه.

أولهم مفتيها الهمام خاتمة الأكابر الأعلام: حسين أفندي المرادي رحمه الله تعالى، فامتلأت به دمشق نوراً، وأصبح علم علمه وعمله منصوراً، فكتب إلى الشيخ ـ قدّس الله سره ـ شرح فتح الباري عليه، وحبب الشام وأهلها إليه، فانشرح صدره الكريم لهذا الشرح في الحال، وتوجه إلى الله تعالى في ذلك فورد الإذن الإلهي بالارتحال، فتفضل الحق تعالى على أهل الشام وأنعم، إذ هبت عليهم قبول إقبال هذا القطب المعظم، واختارها مطلع أنواره، ومهبط أسراره، فأبقى أهله في مدينة السلام، وحضر مع السيارة من طريق الدير إلى الشام، فدخلها سنة ثمان وثلاثين بخدمه وحشمه، وجملة من العلماء الخلفاء والمريدين، ونزل في خلوة السادة الغزيين التي في جامع بني أمية، فلم يألوا جهداً بالقيام بخدمته، حتى زوجه السيد اسماعيل أفندي بشقيقته السيدة عائشة التقية، ثم أمر بإحضار أهله من الزوراء، وأرسل الشيخ اسماعيل الأناراني يستقبلهم إلى حلب الشهباء، فذهب ينشر خلال الطريق أسراراً، وينثر على كل فريق في البلاد أنواراً، حتى وصل إلى حلب، وقد خلب من القلوب بإرشاده ما خلب، وجذب من الأرواح إلى الطريق ما جذب، إلى أن قدم إليها الحرم المحترم، وقد توفي معهم في أرفة سيدي شهاب الدين نجل الحضرة، فرجع

بهم الشيخ اسماعيل إلى الشام، فتهلل وجهه بوصولهم من مدينة السلام بسلام، ثم اشترى داراً رفيعة في محلة القنوات، وتحوّل إليها ووقف بعضها مسجداً وأقام فيه الصلوات الخمس بالجماعات، فغصت أبوابه بالزحام، وهرع إلى خدمته الخاص والعام، وصارت رحابه مهبط جباه السالكين، وأعتابه معترك شفاه الناسكين، والوزراء عند قبابه وقوفاً، والفضلاء على محبته عكوفا، يدخلون في طريقته أفواجا، فيفيض عليهم من بحار أنواره أمواجا، تتوارد عليه المراسلات من أعيان الدولة المنصورة، وأمراء عامة الأقطار المعمورة، والقصائد الغراء من كبراء الشعراء، فمنها ما مدحه به عمدة العلماء الأجلة، الشيخ محمد الجملة الخلوتي الدمشقي مؤرخاً عام وصوله إلى دمشق الشام فقال:

أضحت دمشق ببهجة ومسرّة ... والنور والإشراق منها صاعد
والطير غنى والغصون رواقص ... تهتز من طرب وهنّ موائد
والوقت طاب وهيمنت أهل الصفا ... والزهر يحدق والعنا متباعد
مذحل بالشام الشريفة سيد ... وعليه من حلي الكمال فرائد
فسألت عنه بين أرباب الهدى ... قالوا ضياء الدين هذا خالد
وهو المجدّد بل هو الداعي إلى ... سبل الرشاد فنعم ذاك الماجد
فلقيته فوجدته كالليث في ... سطواته وهو الإمام الواحد
فدهشت منه محبة ولطافة ... وأتت إليّ منافع وفوائد
وأزيل عن قلبي الصدا بلقائه ... وانحل ما هو قبل ذلك عاقد
عالي الجناب فيا له من عارف ... بالله وهو مجاهد ومكابد
بحر غدا تمتد منه أبحر ... يدري بذا الشهم الذكي الواجد
يلقي العلوم بداهة من صدره ... وبه عليه فيه منه شاهد
في كل علم ماهر متمكن ... متحقق متضلع ومجاهد
في عصرنا ما ان رأينا مثله ... والفضل لا يخفيه إلا الحاسد
من أمّ ساحته ينل ما يبتغي ... من فيضه ما خاب فيه القاصد

وإذا أتـــاه حـــائـــر بطـــريقـــه يهـــديـــه منـــه نـــوره المتـــزايـــد
فتـــراه مـــن نفحـــاتـــه فـــي نشـــوة بغـــــدوّه ورواحـــــه متـــــواجـــــد
ويمدّه في القلب من عرفانه ويذوب منه كما يذوب الجامد
مصباح رشد لائح من وجهه وجليســه منـــه يطيـــب الـــوارد
والهدي والإرشاد فاض على الورى لا ينكـرنْ هـذا التقـيّ العـابـد
هـذا جلـيّ ظـاهـر لـم يخفـه إلا غبـيّ جـاهـل ومعـانـد
ولنقشبنـدٍ قطبنـا هـو ينتمـي أعني بهاء الدين ذاك الواحد
من صدقه وتقاه فانظر يا فتى كم من زوايا عمرت ومساجد
ومدارس درست فأحياها بذكـ ـر الله مذ وافى وقام القاعد
وبـه طـريقتـه العليـة قـد نمـت مـن كـل نـاحيـة أتـاهـا الـوافـد
فلأنها طبق الكتاب وسنة الـ ـمختار ما في ذاك ينقد ناقد
لمـا أتـانـا فيـه قـرة أعيـن فازت بنور هداه لما شاهدوا
ولـه تـلامـذة بـدوا ككـواكـب مـن نـورهـم حقـاً يـرد الشـارد
جمعتهم أسرار حضرة شيخهم وعلى العبادة والعفاف توادوا
وهم أولو وجد بطاعة ربهم مـا منهـم إلا تقـيّ زاهـد
قد حل فيهم منه إكسير الصفا فصفوا وصافوا إذ عليه عاهدوا
فعليهـم منـي جـزيـل تحيـة ما خرّ للرحمن عبد ساجد
والسالكين طريقه أهل الهدى طول المدى ما إن تنبه راقد
إن قيل من قطب الورى أرخ بقي قطب الورى ياسائلي هو خالد
سنة ١٢٣٨

وهو مع ذلك لم يشتغل عن نشر العلوم الشرعية، وإشادة أركان الطريقة النقشبندية، وإرشاد العباد في كل البلاد، وإحياء كثير من مساجد دمشق الشام؛ قد آلت إلى الاندراس والانهدام بإقامة الصلوات والأوراد والأذكار، وهداية الخلق إلى طريق السادة الأبرار، فأنقذ جامع العداس[1] من مخالب الاندراس،

(١) جامع العداس: في دمشق، حي القنوات، الشابكلية. «ذيل ثمار المقاصد» (ص٢٣٩).

واتخذه لقربه من حضرته دسكرة لخلفائه، وجماعة مريديه وصلاة جمعته، وفوّض أمر تربيتهم للإمام الجليل الرباني: سيدنا الشيخ اسماعيل الأناراني.

وقرر سيدي وعمدتي وجدي لوالدتي الشيخ أحمد الخطيب السالف البيان، على إقامة ذكر الخواجكان، والتوجه كما كان في جامعي المعلق والياغوشية[1].

وأذن لسيدي الجد الثاني العلامة الفاضل، والولي الكامل: الشيخ محمد الخاني بالختم والتوجه في جامع المرادية[2]، المعروف الآن بجامع السويقة في جهة الميدان.

وأذن لمثل ذلك للمرشد الواصل الشيخ عبد القادر الديملاني، في جامع الصاحبة[3] في الصالحية.

وقرأ غدوة في مدرسة داره شرح المنهاج للشمس الرملي، فأظهر خفيّ أسراره وحقق أبحاثه، وأخذ يجمع بين أقوال المشايخ الثلاثة عمدة علماء البشر، الخطيب والرملي وابن حجر، بتقرير أوضح منهاج الفوائد، وشرح الصدور بمصابيح الأمثال والشواهد، وأطلع في أرجاء الافهام شموس الفرائد، كما قال صاحب أصفى الموارد:

إن كنت تكذب ما أقول بقدره فاسأل مآثره التي لم تحصر
ومباحثاً فقهية كشف النقا ب لها فأبدت عن صحاح الجوهر

---

(١) جامع الياغوشية: في دمشق، الشاغور الجواني، وهو جامع سياغوش باشا بحارة القصاعين داخل باب الجابية. «ذيل ثمار المقاصد» (ص٢٥٨).

(٢) المرادية: في دمشق، الميدان التحتاني، السويقة. عمره مراد باشا، ودفن بمدفنه بجواره. «ذيل ثمار المقاصد» (ص٢٥٠). أقول: وهو المعروف اليوم بجامع النقشبندي.

(٣) جامع الصاحبة: في دمشق - حي الأكراد - زينبية، وهو مدرسة أنشأتها ربيعة خاتون أخت صلاح الدين ودفنت بها. وقد كانت مسجداً إلى عهد قريب فأخذتها وزارة المعارف وجعلتها مدرسة لأهل الحي. «ذيل ثمار المقاصد» (ص٢٣٥). أقول: ولا تزال مدرسة وهي بقرب جامع أبي النور.

شكــر النـــواويُّ التقـــيُّ ذكــاءه   فــي مبحــث لــولاه لــم يتنــوّر
غــرراً آراهــا فــي وجــوه مبــاحــث   كــالشمــس لــولا فكــره لــم تسفــر
علمــاً إلــى عمــل أضــاف فقــل بــه   مــا شئــت مــن مــدح ولا تستكثــر

وعاد شقيق أهله سليل العلماء السيد عمر أفندي الغزي سعيداً، إذ جعله من فضله لدرسه معيداً، حتى حضر الجد الأمجد، وكان قد دعاه بتحرير منير من حماه إلى حماه فجعله محله، وخلع عليه من سعادة الإعادة أفخر حله، وقد خدمه أديب الألباء، ولبيب الأدباء الشيخ موسى السباعي بكلمة محكمة؛ عام تسع وثلاثين وقدمها إليه، فقال رحمة الله عليه:

كــن بــالصبــابــة والــعَ الأشــواق   وادلــج بليلــك وانــح ركــب عــراق
واحضر بقلبك ثم غِبْ عن خاطر   وإرادة وارتـــــع ببيـــــد سبـــــاق
ودعِ السوى يكشف عن القلب الغَطا   وتلــوح شمــس الفتــح بــالإشــراق
وبنــار شــوقــك لــن فــؤاداً قــاسيــاً   واركــب مطــايــا السهــد لــلإلحــاق
والزم حمى التجريد للتوحيد إن   رمــت ارتشــافــاً مــن مــدام البــاقــي
واخرج بكلك عنك في سبل الهدى   تسقـــــى مـــــن الآداب والأذواق
واحــرق بنــار الجهــد نفســك وادّرع   ثــوب افتقــارك وابــك بــالآمــاق
وارتــع بــروض الــذكــر تجــن ثمــاره   والحــق بــركــب الســادة العشــاق
وارقــب مــع الأوراد وراد الصفــا   بمـــــوارد الإمـــــداد والأرزاق
واحــي الفــؤاد بــوارد الغيــب الــذي   يدني المريد إلى الطريق الواقي
واحلل بوادي الأنس تشهد مشهد الـ   أســرار فيــك بسيــرك المصــداق
فــإذا انجلــت عيــن البصيــرة اشهدتـ   ـك الجم فرداً في سما الإشراق
وادخــل بــروحــك حضــرة قــدسيــة   حلــت عــن الإفصــاح بــالأوراق
فهنــاك تمنحــك الحقــائــق كشفهــا   وتــزول حجــب الــرق بــالإعتــاق
وترى استتار القلب بعد فناك في   شمــس البقــايــا واحــد الآفــاق
واخلع نعالك إن حللت بحيّ من   هــو فــي طــريــق الله أكمــل راق
هــو خــالــد التمكيــن عــارف وقتــه   ملجــا الــرجــال بحضــرة الإطــلاق

النقشبندي الكامل البحر الذي لذوي الهدى والحب أضحى الساقي
هو ذو الحقائق والمعارف والهدى عين الزمان حديقة الأحداق
بدر المطالع جامع العرفان إذ يعلوه نور الفضل بالأذواق
شمس بدت للعارفين وأشرقت بدمشق فهو الطيب الأعراق
عقد السلوك المرشد الفرد الذي فاق الأنام بأطيب الأخلاق
فاستل سيف العزم واقصد حيه تنجو به من قاطع معواق
واصرف له دينار فكرك طالباً منه الطريق ذخيرة الإنفاق
إياك عنه تحيد وانشد معلناً كن بالصبابة والع الأشواق

وقد عارض بها قصيدة أديب هذه الأقطار الشيخ شاهين العطار، التي مدح بها حضرة مولانا عامئذٍ ومطلعها:

روّح فؤادك من رضاب الساقي واغرس مرادك في رياض الباقي
واغنم صفا الأيام قبل غروبها واحيي نياط القلب بالأشواق
واسلك طريق العارفين بلا مرا وابري سموم الجهل بالترياق
فإذا استنار حشاك من شمس البقا وبدت لك الأنوار بالإشراق
فاشهد جمال مصور طول المدى واجني ثمار الوصل بالأذواق
واقبل على كنز العلوم وحصنها الظاهر المعروف بالمصداق
إن الغرام مقرّه في خالد وشعاعه ضاو على العشاق
كالشمس تغرب عند عين حمأة وإذا بدت عمت على الآفاق
صور المحامد جمعت بكماله فأنارها بمحاسن الأخلاق
مالت له الأرواح منذ ألستها وبحبه سعدت على الإطلاق
ما في العوالم حكمة إلا له شرح كنظم الدرّ بالأعناق
طوبى لمن علقت يداه بذيله وسعى لحضرته على الأحداق
قطر المكارم غيثه ممن بحره وأجازه الصدّيق بالإنفاق
يا مظهر القرآن حبك شاغلي عن كل ممدوح وعن إرفاق
ولذا أتيتك راجياً بالمصطفى وبآله الوافين بالميثاق

فامنن عليّ بنظرة أغني بها ... فقرا أذاب الجسم بالإحراق
واسلم ودم تحيي الأنام ببث ما ... ترويه من علم العليم الباقي

وقد ذكرها الجد الأمجد في «البهجة السنية».

ثم سرى هذا البحر براً إلى المسجد الأقصى، وسار في ركابه سراة فضلاء لا تحصى، فما أقبل على منزله، إلا وأنزله أهلها من التجلة منزله، وهو يفيض عليهم من إكرامه أنهاراً، ومن كراماته ما يجعل الليل نهاراً، حتى إذا دنا من القدس الشريف خرج خليفته الإمام الفاضل السيد: الشيخ عبدالله الفردي بموكب منيف، لم يتخلف عنه أحد من أهل البلد، وتلقوا حضرته بالتعظيم، ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم، فنزل بمن معه منازل الوحي ومواطنه، وأسبغ الله عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وقابل أهلها ببركات توجهاته، وتوجهات بركاته.

وأخبرني الوالد الماجد عن الجد الأمجد عن حضرة مولانا خالد: أنه تقدم وقتئذٍ إليه بعض الواقفين بين يديه، بأن يدخل كنيسة القيامة، فأبى ذلك عليه، فقال له: إن الشيخ عبد الرحمن الكزبري[1] قد دخل، فقال: عجباً له مما فعل، إذ هو من المحدثين، وقد سمع قول النبي المختار: «من دخل كنيسة فكأنما دخل بيتاً من نار»[2].

ثم أمر بالرحيل إلى مدينة الخليل والد الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام، فاستقبله الكبير والصغير، وأجله المأمور والأمير، وتمثلوا بين يديه، وسلموا نفوسهم إليه، فأفرغ عليهم من إحسانه ما أفرغ، وسوّغهم من عرفانه ما سوّغ.

وبه إليه أنه لما دخل مسجد خليل الرحمن، جعل يلتجىء إلى الجدران، فقيل له في ذلك فقال: كل ما تحت المسجد غار، إلا ما كان محاذياً للجدار،

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (١١٨٤ ـ ١٢٦٢ هـ) الكزبري، الدمشقي، الشافعي: عالم، محدث. ولد بدمشق، وتوفي بمكة حاجاً. «معجم المؤلفين» (٥/ ١٧٧).
(٢) حديث «من دخل كنيسة»: لم أجده.

وإن الجد فعل كذلك لما ذهب إلى هنالك، ولا غرو فإن آداب الأولياء أولياء الآداب.

ثم انقلب قدس الله سره إلى أهله مسروراً، كالشمس ضياء والقمر نوراً.

وبه إليه رضوان الله عليه، أنه نام ليلة عن القيام فرأى السموأل اليهودي في المنام، فلما أفاق ذكر ذلك لبعض عشيره، فسأله عنه فقال في تعبيره: إنه إشارة إلى أن السموأل كان يضرب به المثل في حفظ الأمانة، وهو يهودي الديانة، فكيف ينبغي لمن تشرف بالإسلام النوم عن محافظة أمانة الحق تعالى وهو القيام.

ثم إنه خرج مع ركب الشام، حاجاً إلى بيت الله الحرام، عام أحد وأربعين، وفي خدمته الجم الغفير من فضلاء الخلفاء والمريدين، مؤيداً من الله عز وجل بالإقبال والقبول أينما حل، فأقبل عليه العلماء والأولياء من أهل الحرمين المحترمين، وعرفه أهل عرفه، وأجمعوا على محبته، واجتمعوا على قبول طريقته، فكم جبر بنظره الإكسير كسيراً، وأجرى في سبيل الله خيراً كثيراً، يبشره بأن له من الله فضلاً كبيراً، واستدار جمهور العارفين بقطبه، وطاف بالبيت بل طاف البيت به، ورجع هذا البر من طريق البر، وكان مع الركب من كتب بحقه من أهل حلب إلى ساكن الجنان السلطان الغازي محمود خان، فتوسل أمير الحاج إلى الحضرة قدس الله سره: أن يعفو عنه فقبل توسله، ولكن بشرط أن يكتب بخطه أن ما ذكره في حقه لا أصل له، فاستسهل الأمير هذا الأمر الخطير، وكلف الحلبي فأبى وأخفق سعي الأمير، ثم لم يزل محمولاً على أجنحة الاحترام، حتى وصل إلى دمشق الشام، فقوبل بغاية الإجلال، ونهاية الاحتفاء والاحتفال، ودخلها بموكب مكوكب منير عديم النظير، محفوفاً بالعلماء والوزراء، والأغنياء والفقراء للتبرك به والتماس مجاب دعائه، والمباركة له والمشاركة في هنائه، مستبشرين بكرامة سلامته، وسلامة كرامته، فكان يوماً مشهوداً، وموسماً معدوداً، واستدر الشعراء بالقصائد الغراء دره، فابتدرهم بالعطاء بالبدر مرة بعد مرة، فمنها ما مدحه به بعض الفضلاء الأعلام،

مؤرخاً عام وصوله من الحج الشريف إلى الشام، فقال:

كأس الزمان بخمر الأنس قد طفحا والعندليب بروض الحب قد صدحا
وجاوبته زهور الروض باسمة والدهر أصبح في نيل المنى فرحا
وشمس حسن الهنا بالبشر مشرقة وطالع الفتح أهدى للورى منحا
والطير غرّد والأغصان راقصة والسعد والى فطب بالبسط وانشرحا
أما ترى ساجعات الورق صادحة فوق الغصون وعرف الورد قد نفحا
إن سالمتك الليالي استل عزمك من غمد الخمول وكن بالصدق ملتفحا
واكرع بكأس مدام طاب منهله والثم ثغوراً حَلَتْ واستجلب الملحا
وانظر فواضل أرواح النسيم ترى عند المرور لمتن الروض قد شرحا
في دوحة أشبهت راحاً ونحن بها والنرجس الغض إذ طرفي له لمحا
صدغ تنمنم أو ثغر تنظم أو خدّ تكلم أو طرف الرشا جرحا
وغادة بأبي أفدي إذا برزت تختال عجباً بأذيال البها مرحا
إذا بدت أخجلت شمس الضحى وغدت تأسو على مغرم من وجده شطحا
سألتها الوصل قالت وانثنت عجباً لا كان هذا ولا تغدو به فرحا
إلا بمدح الإمام النقشبند ومن به سبيل الهدى للسالك اتضحا
قد جاء والشام في هرج وفي مرج فكان خير إمام بالهدى نصحا
الوافي عهداً لقمع النفس قام وفي كفيه سيف الهدى المسلول لا برحا
فكم أماط حجاباً بالسلوك وكم أنار قلباً بميدان التقى صرحا
وكم مريد حماه من هواه وكم تراه بالحق باب الرشد قد فتحا
رعياً له من همام مسعف كرماً بصدق عهد تراه منجداً سمحا
زينت به الشام لما حلّ ساحتها وربعها بلقاه لم يزل فرحا
طوبى لكم سالكي طريق عهدته كم فاز بالقرب صب أمّه ونحا
إذ لاح يتلو بإرشاد دروس هدى ومتن منهج قرب الحق قد شرحا
هذا ووجدان وجدي في محبته وكأس شوقي إلى لقياه قد طفحا
لم أنس إذ حج بيت الله معتمراً وزار طه وفيه كان منشرحا

طوبى له هَجَرَ الأوطان ممتثلاً | أداء فرض له الرحمن قد سمحا
أهلاً به طاف بيت الله معتمراً | نال المنى في منى ثم العلا ربحا
طوبى له بَذَلَ الأموال محتسباً | بالله لا لثواب يبتغي جنحا
بل خالصاً مخلصاً والحق بغيته | يرقى العلا بزناد الشوق قد قدحا
ونال من روضة المختار مأمله | ولاح في صدق عهد الله متشحا
أهلاً به حينما قال السلام على | طه الشفيع ملاذي أنت شمس ضحى
يهنيك ذلك يا بحر الهداة ويا | بدر الكمال كفيت الهمّ والترحا
فاسلم بأطيب عيش سيدي كرماً | في الهدى تسمو وما طير الهنا صدحا
ما قال صب لك البشرىٰ بحجتكم | تاريخها جل فضل الله قد صلحا

وعاد إلى ما اعتاد من الإقبال على نفع المسلمين، وإحياء شعائر الدين، وبث علوم الظاهر والباطن، وتعميم نفحاته إلى جميع المواطن، حتى دخل العشر الأخير من شهر رمضان، فطفق يتذاكر مع الاخوان، بالذهاب إلى القدس، وأظهر تمام الاهتمام والأنس، ووعدهم إلى خروج ركب الحاج من الشام، ففرحوا ولم يدركوا ما أضمر في النفس:

أراد للقدس ترحالاً فكان إلى | حظيرة القدس حقاً ذلك السفر

فظهر الطاعون في شوّال، فسألوه إنجاز الوعد فقال: ما نحن فيه من مصابرة الطاعون خير ثواباً مما ترغبون، وذكر أحاديث وأخباراً في فضل شهيده، وجزاء الفار منه ووعيده، وكثيراً ما كان ينشد:

له ملك ينادي كل يوم | لدوا للموت وابنوا للخراب

وقال له رجل: ادعو الله لي أن ينجيني منه فدعا له، فقال: يا سيدي! ولكم أيضاً، فقال: إني لأستحي من ربي أن لا أحب لقاءه، وقال: ما جئنا إلى الشام إلا لأن نموت في هذه الأرض المقدسة، وهذه الشهادة إن تمت فهي السعادة الأبدية، فما نشب أن طعن قرة عين المريدين نجله سيدي بهاء الدين، وتوفي ليلة الجمعة في اليوم الثامن والعشرين من شوال، فما زاد على أن قال: الحمد لله رب العالمين، هذا مغناطيسنا وستتبعه كلنا، ودفن في سفح قاسيون المشهور

في مكان موات بعيد عن القبور، وكان سنه خمس سنين وأيام، وقد أتقن اللغة الفارسية والعربية والكردية، وأكثر القرآن، ثم تبعه يوم الإثنين تاسع شهر ذي القعدة الحرام أخوه سيد عبد الرحمن، وكان أكبر منه بأكثر من عام، فشيعه هو والإخوان إلى ذلك المكان، وأمر وقتئذٍ أن يحفر قبره الأنور، وعين محله ومحل قبور حرمه الأطهر والخلفاء، وأن يحوط عليها بجدار ويبنى ثُم صهريج في مسيل الماء، وقال: أظن أنه سيبنى هنا تكية الفقراء.

ثم نزل فأرسل إلى خلفائه وأحبائه، وأشهدهم أنه كان منذ سنتين من تاريخه وقف كل كتاب يخصه، ثم حرر على ظهر قاموسه ما نصه: وقفت هذا الكتاب وبقية كتبي لله تعالى على أن التولية والنظر بيد أولادي الأرشد فالأرشد، ثم أولادهم ما تناسلوا، ثم بيد صاحبي اسماعيل الأناراني، ثم محمد الناصح، ثم عبد الفتاح، ثم اسماعيل أفندي الغزي، ومتى صار واحد من أولادي قابلاً للتولية بعد فقد قابليته يرجع الأمر إليه، ويخرج من أيدي الذي سميتهم، فإذا انقرضوا تنقل التولية والنظر إلى أقاربي الأقرب فالأقرب، بشرط العلم والصلاح، ثم إلى أصلح وأرشد وأعلم من يوجد من الطائفة النقشبندية الخالدية، ثم إلى سائر المسلمين من المخلصين لهذه الطريقة وسائر طرق الأولياء، وقفت تلك الكتب نفيسها وغير نفيسها على مذهب الإمام الهمام، قبلة أساطين الإسلام، إمامنا محمد بن إدريس الشافعي المطلبي رضي الله تعالى عنه، فمن بدّله بعدما سمعه ولو في رسالة صغيرة منها، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وكان ذلك سنة أربعين بعد المائتين والألف. قاله بلسانه ورقمه بنانه العبد المسكين خالد النقشبندي المجددي سومح بالفضل الخفي والجلي من المولى المهيمن العلي.

ثم أتى لزيارته مساء يوم الثلاثاء نخبة المحققين السيد الشيخ محمد أمين عابدين، فقال له:

إني رأيت في المنام منذ ليلتين أن سيدنا عثمان ذا النورين رضي الله عنه

ميت وأنا واقف أصلي عليه، فقال له: أنا من أولاده. يشير إلى أن هذه الرؤيا تومىء إليه.

ثم لما صلى المغرب أقبل على خلفائه وعترته، وأشهدهم أنه أوصى بثلث ماله، وجعل نظار كتبه السابقين على التعاقب أوصياء عليه وعلى أنجاله، وأنه أقام الشيخ العلامة اسماعيل الأناراني في دست الإرشاد مقامه آمراً ناهياً على جميع خلفائه الأمجاد، من خالفه فهو مطرود من طريقته.

وقال قدس الله سره لهم: اتفقوا ولا تختلفوا ولا تخالفوا رأي اسماعيل.

وقال: أنا ما مت حيث تركت لكم الشيخ اسماعيل.

وقال: أنا أضمن لكل من لازم خدمته وامتثال أمره أن ينال ما لا يحيط به عقل العقلاء، ويقصر عنه علم العلماء.

وأمر أن لا يبكى عليه ولا يعد شمائله، وأن يذبح من أحبه له أضحية، وأن يهدى لروحه الزكية القرآن والأدعية، وأن تقضى عنه جميع صلواته من بلوغه إلى حين وفاته، وأن لا يبنى على ضريحه، ولا يكتب عليه إلا هذا قبر الغريب خالد لتوضيحه.

ثم بعد العشاء من ليلة الأربعاء دخل إلى الحرم فجمع أهله وأوصاهنّ، واستبرأ الذمة من كل حق عليه لهنّ، وأخبرهن أنه يقبض ليلة الجمعة، ولا زلن في حديث معه، حتى مضى من الليل خمس ساعات، قام فتوضأ وصلى ركيعات، ثم قال قدس الله سره: إني طعنت الآن، فلا يدخل عليّ أحد إلا مرة، ثم اضطجع على هيئة السنة، لا يسمع منه تأوّه ولا توجع ولاأنة، إلى صبيحة يوم الخميس، فدخل الخلفاء عليه، وسأله الشيخ اسماعيل عن مزاجه فأومأ بيده الشريفة إليه أن يقصر الكلام، ولا يطيل المقام، ثم قدّم له الماء فلم يقبل، وأشار إليه أن أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الله عز وجل، وبقي يذكر الله تعالى حتى سمع مؤذنه الملا عمر يقول في أذان المغرب: الله أكبر! ففتح عينيه وقال: الله حق الله حق ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية

فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] ثم لحق بالرفيق الأعلى في دار السلام، ليلة الجمعة رابع عشرة ذي القعدة الحرام، سنة اثنين وأربعين ومائتين وألف، وسنه خمسون سنة سوى شهر ونصف، فحمل ليلتئذٍ إلى مدرسته، فغسل بالأنوار، وكفن بالأذكار، بمباشرة كل من الشيخ اسماعيل، والشيخ محمد الناصح، والشيخ عبد الفتاح، والشيخ محمد الصالح طبق وصيته.

ثم أحيوا تلك الليلة بقراءة القرآن حوله، فلما أسفر النهار حمل إلى جامع يلبغا[1] على أنامل الأخيار:

خرجوا به ولكل باك حوله صعقات موسى حين دك الطور

فأشار الشيخ اسماعيل للعلامة الجليل الشيخ السيد محمد أمين عابدين بالصلاة عليه، ولما لم يستوعب الجامع أهل الشام، وعدهم الشيخ اسماعيل بإعادة الصلاة عليه عند المقام، ثم رفع على أجنحة الملائكة إلى حظيرة قدسه، ولم يرغب أحد عن تشييعه إلى الجبل بنفسه، فأعيدت عليه الصلاة، ونزل إلى لحده من غسله من الخلفاء فواراه.

عجبت لأيدٍ هالت الترب فوقه ضحى كيف لم ترجع بغير بنان

ولقنه بلبل منبره وهزار محرابه: العلامة الملا أبو بكر البغدادي أحد أجلاء أصحابه.

وكان ـ قدس الله سره ـ ذا هيبة عظيمة، وهيئة فخيمة، طويل القامة، عظيم الهامة، أبيض اللون، أحمر الخدين، أسود الشعور والعينين، أقنى الأنف، مديد الحاجبين، ذريع الذراعين، عريض ما بين المنكبين، كثير شعر الجسد، أشد وقاراً من الأسد، فاخر اللباس، لا يدع الطيلسان والعصا بين الناس،

---

(١) جامع يلبغا: على شط نهر بردى تحت قلعة دمشق في المرجة، بناه سيف الدين يلبغا الناصري سنة (٧٥٧ هـ)، وله ثلاثة أبواب. «ثمار المقاصد وذيله» (ص١٢١ ـ ٢٥٩).
أقول: وقد هدم المسجد حالياً ويشيد مكانه مجمع ومسجد.

جليلاً مهاباً، رحيماً وهاباً، قد وفى الإرشاد رسومه على قواعده المرسومة، لا يظهر لأحد إلا لدرس أو ذكر أو عبادة أو عيادة أو زائر من أهل العلم لا سيما ذوي السيادة، فإنه كان يبالغ في تعظيم آل البيت فوق العادة، حتى أخبرنا سيدي الجد الأمجد عنه قدس الله سره: أنه مر معه في الدرس ذكر الأشراف مرة، فأطنب في مدحهم إطناباً غريباً، وأثنى عليهم ثناء عجيباً، ثم قال: لولا ولولا لألفت رسالة بديعة بفضلهم لم أسبق إليها أصلاً، قال سيدي الجد: أي لولا مخافة نسبته إلى التشيع. اهـ.

وإنما وضعت لحليته الشريفة هذه الضابطة تسهيلاً للمريدين، إذ لا يجوز لهم اتخاذ غير صورته الشريفة رابطة، خلافاً لما يقع من المشايخ القاصرين، كما ذكره سيدي الجد في «البهجة السنية»، واستدل عليه بأدلة قوية، فارجع إليها إن شئت.

وقد انتدب لندبه أدباء علماء العصر بما ذاع في كل مصر، وأحصر عنه نطاق الحصر، فمن أجلّه وأجمله في التأبين ما قاله علامة المتأخرين السيد الشيخ محمد أمين عابدين بوّأه الله أعلى عليين:

أي ركـــن مـــن الشـــريعـــة مـــالا … فـــرأينـــاه قـــد أمـــال الجبـــالا
مـــذ رزئنـــا بـــأوحـــد العصـــر علمـــاً … وبهـــــاء وبهجـــــة وكمـــــالا
واجتهـــاداً وطـــاعـــة وصفـــاء … وسخـــــاء وعفـــــة ونـــــوالا
هـــو بحـــر العلـــوم شـــرقـــاً وغـــربـــاً … يمينـــــاً وقبلـــــة وشمـــــالا
فـــإذا عـــنّ مشكـــل كـــلّ عنـــه … كـــل شهـــم يحـــل عنـــه الشكـــالا
مـــذ تجلـــى سنـــاه فينـــا أرانـــا … كـــل بـــدر وقـــت الكمـــال هـــلالا
وسقـــى أهـــل عصـــره كـــأس قـــرب … وحســـاهـــم منـــه الـــرحيـــق الـــزلالا
هـــو قطـــب عليـــه دارت رحـــى العـــر … فـــان وهـــو الفـــريـــد قـــالاً وحـــالا
هـــو شيـــخ السلـــوك مـــن نـــال هـــديـــا … مـــن سنـــاه فقـــد تـــزكـــى فعـــالا
ولعثمـــان ذي الحيـــاء وذي النـــو … ريـــن صـــح انتســـابـــه إجـــلالاً
وبـــه ازدان ديننـــا وطـــريـــق النـــ … ـقشبنـــدي زاد منـــه جمـــالا

مـا رأينـا كعلمـه وتقـاه ولجـدواه مـا رأينـا مثـالا
دمـث الخلـق لـم يكـدّر صفـاه جـاهـل رام منـه شيئـاً محـالا
كثـرت حـاسـدوه فـازداد هـديـا مـذ أشـاعـوا الـردى وزادوا ضـلالا
ورمـوه بـالإفـك ظلمـاً وراموا ذلـه مـذ رأوه فـاق خصـالا
فتغـاضـى عـن القبيـح وأبـدى مـا بـه زاد رفعـة وجـلالا
أيظـن الحسـود يطفـيء نـوراً قـد أراد الإلـه أن يتـلالا
دأبـه نشـر حكمـة وعلـوم كـم بـه مبعـد تقـرب حـالا
كعـداد النجـوم اتبـاعـه فـي كـل قطـر بـه صفـوا أعمـالا
كـم لـه مـن خليفـة زاد قـربـا وامتطـى فـي التقـى مقـامـاً تعـالا
كـم بـه مسجـد أعيـد سنـاه واكتسـى مـن جمـالـه سـربـالا
ولكـم عـال عـاجـراً وفقيـراً فقضـى مـن نـوالـه آمـالا
ولكـم شـاد سنـة قـد تـداعـت وشفـى بـاللسـان داء عضـالا
ولكـم حـاز خصلـة قـد تسـامـت دونهـا النجـم فـي عـلاه منـالا
ومـزايـا إذا أردت عـداد الـ ـقـل منهـا فلسـت تحصـى الرمـالا
قـد أجـاب الإلـه لمـا دعـاه ولـدار النعيـم دام انتقـالا
فبكتـه العيـون دمعـاً غـزيـراً فكـأن العيـون أضحـت ثكـالا
خـالـد القطـب ان يـزل فهـداه خـالـد فـي الأنـام ليـس مـزالا
فعليـه مـن المهيمـن رحمـى كـل فحيـن علـى ثـراه تـوالـى
مـا سـرى فـي الضميـر ذكـر خفـي وارتضـاه سبحـانـه وتعـالـى

وقد شطرها العالم الفاضل الشيخ داود البغدادي النقشبندي تشطيراً لطيفاً مطبوعاً في ذيل رسالة «سل الحسام الهندي».

ومن ذلك القصيدة البهية التي أوردها سيدي الجدّ في «بهجته السنية»، ومطلعها:

مـا للجبـال الـراسيـات تميـل مـا للبـدور يـرى بهـن أفـول
مـا للظـلام يجـر ذيـل ردائـه فـوق الضيـاء فلـم يقلـه مقيـل

ومخدّرات الحيّ تنثر لؤلؤاً	من دمعها فوق الخدود يسيل
والورق أكثرت النواح مخضبا	كف البطائح دمعها المهمول
والدهر ألبس أهله حلل العنا	وعلا رياض الشام منه ذبول
والحزن قام على منابر حينا	أبدا خطيباً لا يكاد يزول
والأرض ترجف والنوائب أدهمت	والبين يهجم والخطوب تجول
هذا مصاب ليس يحدث مثله	تالله كم دهشت لديه عقول
ماذا بدا في الكون يا أهل النهى	هل مخبر عني الشكوك يزيل
هل كان يوم الصعقة الأولى وهل	دهم الورى بالصور إسرافيل
أم زلزلت تلك القيامة وانطوت	حجب الحياة وعاجل التهويل
أفصح لنا عما بدا يا ذا الحجا	فغدا لسان الحال عنه يقول
قف وانتبه ما قد بدا فيما استوت	فيه الخلائق عالم وجهول
قد مات كهف العلم سلطان التقى	حبر له المعقول والمنقول
سند السيادة والرياسة للورى	قاص ودان فضله مأمول
صدر المجالس إن بدا فكأنه النـ	ـعمان يروى عن عطا ويقول
بحر أفاض على الورى مدراره	فروى العطاش زلاله المعسول
وتفجرت منه ينابيع حلا	منها لوراد الهدى التعليل
بكت العيون على فراقك سيدي	وبكاؤها لك بالدماء قليل
وافى ضياء الدين بدر زمانه	قطب الوجود وللعلا إكليل
عند المليك الحيّ قد أضحى له	في مقعد الصدق الأجلّ مقيل
هيهات أن يأتي الزمان بمثله	إن الزمان بمثله لبخيل
يا خالداً في حضرة القدس التي	كم طاح دون فنائها مقتول
أدناك ربك منزلاً ترقى به	فلك الشهود وكم بذاك نزول
وأباح روحك حضرة قدسية	عند المهيمن ما لها تبديل
وأناح سحب الفضل تهطل دائماً	بفناء رمسك لا تكاد تزول
ما قال اسماعيل يرثي سيدا	ما للجبال الراسيات تميل

ومن ذلك القصيدة الجميلة التي شرحها العلامة المفسر محمود افندي الآلوسي[(١)] مفتي بغداد للسيد محمد جواد السياه پوشي رحمه الله تعالى:

خدين الهوى خف الخليط المعاضد ... وأطلال أحباب هويت هوامد
معاهدهم عاف القطين قراره ... لديها وحاكتها الحمام الفواقد
وأقوت عراص الأنس منها كأنما ... ألمت بها بعد الأنيس الأوابد
وإن أصيحابا ألفت اصطحابهم ... خلت منهم بالأبرقين المعاهد
تطارحك الأرزاء في كل آنة ... بفن ولا سفن الرحيل رواكد
نذير الفنا وافي ونفسك لم تكن ... لتفنى وأحكام القضاء نوافذ
لئن هتفت ورقاء سعدك بالمنى ... فلم تنف عن حدّ الحتوف الحدائد
هو الزمن العادي وصارمه الردى ... وآجالنا للحدّ منه مغامد
ترث ثياب العيش فيه كما ترى ... وأثواب أعمار الخطوب جدائد
زمان به زهر اللطائف ذابل ... ودهر به سوق المعارف كاسد
عقدت الحبا في حبك اللهو غافلاً ... عن المقصد الأسنى وسعيك قاعد
تروم الغنى في غفلة بعد غفلة ... وصرف الردى في حط قدرك جاهد
يخاتلك الدهر الغشوم بمكره ... وجهلك يقظان وطرفك راقد
نظرت بآل الله سوء صنيعه ... وعاينت من أهواله ما نكابد
أثار جوى الأعلام أعلام دينه ... بوقع له السبع الطباق رواعد
مصاب رئيس العارفين عصامها ... ومرشدها إذ أعوزتها المراشد
تهدّم بيت الدين بعد عماده ... ومادت بنا أركانه والقواعد
أمن بعده يحلو الوصال لعاشق ... بحضرة قدس وهو للشيخ فاقد
ألا مَنْ مغيث السالكين إذا كبت ... وزلت بهم أقدامهم تتمايد

---

(١) محمود بن عبد الله الحسيني (١٢١٧ ـ ١٢٧٠ هـ) الآلوسي: مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي، مشارك في بعض العلوم. ولد ببغداد، وتقلد الإفتاء فيها، وعزل، وسافر إلى الموصل، فالقسطنطينية، ومرَّ بماردين وسيواس، وأكرمه السلطان عبد المجيد، وعاد إلى بغداد، وتوفي فيها. «معجم المؤلفين» (١٢/ ١٧٥).

ألا مَنْ لتدريس التصوف بعده ... يفيد متى تخفى هناك الفوائد
ألا من لتلقين الأوامر بعده ... يلقن أن يسهو عن الذكر حافد
ومن قدوة التعريف والكشف بعده ... ومن لأباليس المخائل طارد
ومن لامارات الشهود ورمزها ... وغامضها إن جاء ينشد ناشد
ومن يرع في عين العناية وهو في ... مراقبة والذكر من ذاك خامد
يسوس بأشخاص المريدين حيثما ... بدت قبسات تنجلي ومشاهد
رأينا عظيم الهول في خطبه كما ... رأت بشرها في الخلد منه الخرائد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد
دعاه لصقع القدس مولاه عنده ... فلباه سراً وهو إيّاه قاصد
نحاه ولا ينحو سواه لأنه ... إليه به منه عليه لوافد
وما أمّ غير الله مدّة عمره ... وحاشى وما للغير في السير عائد
مراحل لم يستقصها قط ناسك ... سواه ولا يرقى لها قط زاهد
نفى ظلمة الشرك العميم وقد محا ... غياهبه كيما تصح العقائد
بصيرته القلبية استنهضت به ... إلى سبل للسير فيها مراصد
تقرب من قوس الصعود حمى فلا ... يقاس به إلاه والله صاعد
وشاهد من شمس الحقيقة مشرقاً ... يذوب بسيماه الحصى والجلامد
وما بدليل الان ترعاه نسبة ... أجل بطريق اللم للعلم حاشد
وما نافع دين العجائز لامرىء ... بمرئى نهاه للجمال يشاهد
أمير رياضات النفوس وإن من ... أساطينها تلقى إليه المقالد
عليه رحى العرفان دارت لأنه ... هو القطب والإبدال فيها فراقد
فتى قصده عرفان باريه هل ترى ... تقوم به أبياتنا والقصائد
فيا كهف أبناء الطريقة والذي ... تكفل في إرشادها وهو والد
سريت من الناسوت حزماً وهمة ... إلى ملكوت عنده الملك خالد
مقامك جمع الجمع فيه لأنه ... مقام به للأكرمين مقاعد
بعيداً يراه الجاحدون وإننا ... نراه قريباً لا يرى الحق جاحد
وجانبت أهل التيه والغي والعمى ... بنور يقين صح أنك ناقد

لعلمك أهل الحال عقبى مآلهم وصال وأهل القال طراً أباعد
نحوت بلاد الهند تكتسب العلا بتكميل نفس للتروحن رائد
أخذت طريق النقشبندية التي بدقتها تعيا الفحول الأساود
فعادت تباهي للطرائق إذ غدت لها صلة من ذا الجناب وعائد
بنفسي سياح الأقاليم طالباً لمرضاة مولاه بحق يجاهد
وما عام في بحر السلوك موحد كما عمت فيه واعترتك الشدائد
وخضت بأصناف العلوم مكملاً نهاك ولم يردعك عن ذاك حائد
ولم ترض في علم التقشف راغباً بجوهر علم منه تبدو الفراقد
وما ظاهر يختاره ذو فطانة على باطن إلا جهول معاند
وما القشر مثل اللب يدرك كنهه أخو اللب لا من حظه متقاعد
لحى الله خبا خامر الوهم عقله بليد جنان في الطبيعة جامد
تعرض للإنكار فينا بجهله ولم يجده الإنكار والحق شاهد
ألا أصلح الله العباد وشأنهم وأنهجهم في الصدق ما زاد زائد
قد ابتهرت آراؤنا فيك مثل ما بك انتشرت بين الأنام المحامد
دعوت إلى الذكر الخفي وإنه لأفضل ذكر الله فيه المقاصد
لسيدنا عثمان أصلك ينتمي فأكرم به أصلاً نمته الأماجد
هو الحسب الوضاح والشرف الذي فضائل ذي النورين فيه شواهد
لباذخ هذا الفضل لقبك الورى بحق ضياء الدين والاسم خالد
ومن أجل ذا كنيت ثَمَّ أبو البها بهذا صفت للسالكين الموارد
أجاد يراعي في الرثاء وإنني الـ ـجواد ولا يرقى لما أنا واجد
بكاك بعين الرفق كل موحد لأنك فرد في الكرامة واحد
ولما هويت الحق قلت مؤرخاً هوى للقاء الحق في القدس خالد
١٢٤٢

وفي رسالة «حصول الأنس بانتقال حضرة مولانا إلى حظيرة القدس» لاسماعيل أفندي الغزي:

رزء ألـم بـذي النهـى ومصيبـة	عمـت بمـوت الحبـر محيـي السنـة
روح الـورى نـادت لفقـد دوائهـا	أرخ طبيبـي خـالـد فـي الجنـة

١٢٤٢

وعند كتابتي في هذا المجال، ورد عليّ هذه الأبيات فأثبتها في الحال تبركاً بخدمته، نفعنا الله ببركته:

اه لكـن كيـف يكفـي	ألـف آه أو ألـف ألـف
مـا رثـى حضـرة مـولا	نـا ولا بـالمـدح وفـي
مـا الـذي يـدعـى بـه غـو	ث الـورى ممـا يـوفـي
أي نظـم أي نثـر	أي مـدح أي وصـف
مبلـغ العلـم بـه إن	شئـت عنـه بعـض كشـف
مـا يقـول العبـد أرخ	خـالـد قطـب تـوفـي

١٢٤٢

ولم أقف له قدس الله سره مع تنقيري في آثاره غير مرة على كلام في الحقائق أو الرقائق، ولعله كان جنيدي المشرب، أو صدفه عنه كثرة ما صادفه من العوائق، وأما مكتوباته القدسية، فهي إما في آداب الطريقة العلية، وقد ذكر بعضها الجد الأمجد في «البهجة السنية»، وطبع جزء منها في دمشق الشام مع عقيدته الإسلامية.

وأما في المسائل العلمية النادرة، وهي أيضاً غزيرة وافرة، فمن ذلك باللغة العربية ما كتبه إلى بعض خلفائه في بغداد فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، من العبد الساعي في هلاك نفسه، الملتهي بشغل يومه عن جزاء غده وذنوب أمسه، خالد إلى مخاديمه السيد عبد الغفور، والملا محمد الجديد، وموسى الجبوري، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فأوصيكم وآمركم بالتأكيد الأكيد، بشدة التمسك بالسنة السنية، والإعراض عن الرسوم الجاهلية، والبدع الردية، وعدم الاغترار بالشطحات

الصوفية، وترك تصحب العوام المسمين أوباشا، بالترجي لهم عند وزير أو أمير أو باشا؛ لأنه ينجر إلى اتهامكم بما يشين، وإذا تعارضت المفسدتان فارتكاب أهونهما لازم، والسعيد من اتعظ بغيره، فلا يوهمنكم أن قضاء حاجة الإخوان من أعظم العبادات، لأنه مخصوص بما إذا لم يتولد منه ما هو أكبر منه، ولا تتداخلوا مع الملوك والأمراء والاغوات وأعوانهم، فإنكم لستم ممن له قوّة إصلاح هؤلاء، ولا تغتابوهم ولا تسبوهم بطراً وغروراً أنهم ظلمة وأنتم صلحاء، فإنه عجب وجهل،إذ ما منا أحد ليس بظالم، بل عليكم بالدعاء لوليّ الأمر وأعوانه بالتوفيق والإصلاح، فقد روى الطبراني في معجميه الكبير والأوسط بإسناده أنه ﷺ قال: «لا تسبوا الأئمة، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم لكم صلاح» اهـ.

ولا تدخلوا الطريقة بعد هذا اليوم أحداً منهم ومن أعوانهم، ولا من التجار المتفكهين بالدنيا المنهمكين في الشهوات، ولا من العلماء وطلبة العلم الذين جعلوا العلم وسيلة الجاه عند الخلق وجمع الحطام، ولا من البطالين الذين يستندون إلى الطريق بسبب البطالة، فيحملوا أثقالهم إلى رقاب الناس باسم الصلاح والإرادة، ولا من الذين إذا تيسر لهم رتبة من مناصب الدنيا وثبوا إليها وثبة النمر، وقد كانوا يغضبون إذا تساوى بهم أحد من الخلفاء فضلاً عن غيرهم من المريدين، ولا من الذين يريدون الخلافة ليشتهروا لما رأوا أن بعض الناس صارت لهم الشهرة وجمع الفلوس بسبب الخلافة.

واعلموا أن أحبكم إليّ أقلكم اتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا، وأخفكم مؤنة وأشغلكم بالفقه والحديث، وقد ورد في بعض الأحاديث: «ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه»(١).

---

(١) حديث «ما ازداد رجل من السلطان»: أخرجه هنّاد السري في «الزهد» عن عبيد بن عمير التابعي مرسلاً. «كنز العمال» (٦/ ١٤٨٨٦).

وحينئذٍ لم يبق وجه للميل إلى تكثير السواد بهؤلاء إلا الطمع وحب الشهوة والجاه وأخذ الدنيا بالدين، وجميع هذه النيات فسادها غني عن البيان، ولا يخدعكم الشيطان بأن فائدة الخلافة وقدرة إلقاء الجذبات إيصال النفع إلى الخلق، وبأنكم إذا كثرت أتباعكم تيسرت لكم الختوم القرآنية كل يوم، لأني تركت لكم الطلاب الصادقين الذين لا يتصفون بشيء من الذمائم المارة، وهم وإن كانوا نادرين لكن واحداً منهم أحسن من ألوف من البطالين، وختم القرآن يكفيه نحو ثلاثين مريداً مع أنه يمكن بالمخلصين من الجيران، وإن لم يتيسر فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وليترك تردد النساء إلى بيت عبيد الله أفندي للتوجه، فإنه لخروجه عن الطريقة ودخوله فيما دخل بطوعه صار له هبوط عظيم، وسادة هذه الطريقة لا يتلاعب بهم، وأمر عبيدالله بسبب وقوع الخلافة عليه، وزعم كونه أقدم من غالب الخلفاء لا يشبه أمر الذي دخل في الطريقة وهو من أهل الدنيا، ولا الذي لم يدخل وهو من أهل الدنيا من المحبين كأخيه المرحوم طاب ثراه، أئمة هذه الطريقة طردوا المريدين بأدنى انصراف بعد الإرادة فضلاً عن الخلافة، فراجعوا «الرشحات» عند رد إمام الطريقة بهاء الدين النقشبند، وعبيد الله الأحرار لبعض من استأذن للحج، أو قبل التدريس في بعض المدارس من المريدين، فإن خالفتم فلستم على عهدي وأنتم تعلمون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

أضعف العباد خالد النقشبندي

ومن ذلك ما كتبه في بيان مقر أرواح الأنبياء عليهم السلام في البرزخ فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد ورد مرسومكم الناطق بأنه وقع الخلاف بين السادة الموجودين عندكم بأن أرواح الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام أين تكون في البرزخ، هل هي حالّة في أجسادها المكرمة كما كانت في الدنيا، أم في

أعلى عليين، أم غير ذلك، فما تحرر الأمر؟ فطلبتم التحقيق من العبد المسكين.

فيقول وبالله التوفيق:

الأدب أن لا يعين مقر معين لأرواح الأنبياء صلوات الله تعالى وتسليماته عليهم، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين. فلا يعتقد أن في عالم الإمكان من السموات والأرضين بقعة تخلو عن مدد روحانيتهم عموماً وخصوصاً، وروحانية سيدهم وخاتمهم خصوصاً، بل يجب اعتقاد أنهم أحياء، وأجسادهم في قبورهم وحياتهم فوق حياة الشهداء، يصلون ويحجون ويلبون ويقرؤون القرآن ويسبحون تلذذاً بطاعة الله تعالى، ويزيدهم الله تعالى بذلك من فضله.

فلا يرد أن الآخرة ليست دار تكليف، لاحتمال حياة الجسم بدون الروح، كما هو المقرر عند أهل السنة، ولا ينبغي التصريح بأن حياتهم فيها كحياتهم في الدنيا، ولا بأنها بمقارنة الروح للجسد، وإن جاز ذلك، لاحتمال حياة الجسم بدون الروح كما هو المقرر عند أهل السنة، لأن الروح عندهم من الأسباب العادية، كالشراب والطعام للري والشبع، فلله تعالى خلق تلك المسببات بلا هذه الأسباب، فيجوز كون أرواحهم في أجسادهم وأجسادهم في قبورهم، ويجوز كونها فيها وهي متنعمة بسيرانها في الملك والملكوت على طريق خرق العادة، ثم تعود إلى قبورهم متى شاء الله، ويجوز كون أجسادهم أحياء في قبورهم بلا أرواح كما تقدم، والأرواح حيث شاء الله، وكون أرواحهم في أعلى عليين أو في الرفيق الأعلى أو في الفردوس، أو غير ذلك مما تدل عليه الأخبار الصحيحة لا يقتضي كون هذه المذكورات مقراً لها مخصوصاً، إما لجواز انتقالها من حال إلى حال ومن متنزه إلى متنزه، وإما لأن للروح شأناً غير شأن البدن، فتكون في الرفيق الأعلى وهي متصلة بالبدن، وإذا سُلِّم على البدن ترد الروح السلام، وهي في مكانها هناك، كما قال ابن القيم[1] في

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) الزرعي، الدمشقي، الحنبلي، المعروف بابن=

«كتاب الروح»، وأقره في «كتاب المنجلي في تطور الولي».

وإما لأن الكُمَّل حتى بعض الأولياء يمكنهم الله تعالى من التصور بصور عديدة بحصر أو بغير حصر، وقد يكون لهم صورة واحدة تملأ الكون، ويظهر بالكشف أحياناً أن السموات والأرضين والعرش والكرسي مملوءة من رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وكَرَّم، ومنه يظهر انحلال كون سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم رأى ليلة المعراج سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عند الكثيب الأحمر يصلي في قبره، ثم رآه في الأقصى اقتدى به مع الأنبياء، ثم في السماء السابعة أو غيرها مع جماعة من الأنبياء في السموات، فكلَّمه في أمر الصلوات ومراجعة ربه.

وهنا أحاديث ضعيفة باطلة تدل على خلو قبره ﷺ عنه ظاهراً مطلقاً، أو بعد ثلاثة أيام، أو بعد أربعين يوماً اغتر بها بعض الناس، لا يجوز التعويل عليها لأنها مع ضعفها أو تأويلها لا تعارض الأحاديث الصحيحة الدالة على بقاء الأنبياء في قبورها، كحديث: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[1]، وحديث نقل يوسف من قبره بمصر إلى مقبرة آبائه الكرام بأرض الشام عليهم الصلاة والسلام في البدء والختام.

ومن ذلك ما كتبه رضي الله عنه إلى عبدالله باشا والي عكة إذ طلب الدعاء بالذرية منه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المسكين إلى خادم الفقراء، وخيرة الوزراء، لا زال بعين العناية محروساً، وبنيل المآرب مأنوساً. آمين.

أما بعد: فقد بلغني مرسومكم الحاوي لشدة الاعتقاد، والمبالغة في الاستمداد لطلب الذرية لكم، أما الدعاء فقد صدر مني مراراً، وأما الهمة فلست

= قيم الجوزية: فقيه، أصولي، مفسر، متكلم، نحوي، محدث. ولد بدمشق، وتفقه وأفتى، ولازم ابن تيمية، وسجن معه في قلعة دمشق. «معجم المؤلفين بتصرف» (٩/ ١٠٦).

(١) حديث «أنا أول من تنشق»: أخرجه الترمذي برقم (٣٦٩٣) وقال: حديث حسن غريب.

من أهلها، ولئن سلم فلا تستعمل الهمة إلا بعد ظهور أن المطلوب قضاء معلق، وإلى الآن ما تبين أن مطلوبنا كذلك، لعمى بصائرنا بسبب البدع والشبهات، ولا يجوز اعتقاد أن القضاء المبرم[1] يرد بهمم الأنبياء فضلاً عن الأولياء، وكل ما يُرَدُّ فهو معلق، وإن لم يظهر تعليقه في الوحي والكشف، بل لا رد مطلقاً، إذ المقضي في صورة وقوع شيء وقوعه، وفي عدمه عدمه، لأن معنى إبرام وقوع شيء مثلاً إحكامه والقطع بوقوعه، بحيث لا يرده أحد ولا يصرفه صارف، فإذا فرض أنه يرده لزم محالات:

أحدها: عجز الباري تعالى حيث أبرم شيئاً ونقضه غيره.

وثانيها: الكذب في كلامه النفسي، لأنه تعالى قال في نفسه في الأزل: هذا الأمر سيقع حتماً، وإلا لما كان مبرماً. مع أن الغرض عدم وقوعه.

وثالثها: الجهل، لأنه تعالى تعلق علمه بأنه لا يرده شيء، ووقوع خلاف ما علمه تعالى وتقدس عما لا يليق بجنابه الأقدس، لا يجوز تعلق إرادة الباري تعالى بنقض ما أبرمه، إذ الإرادة لا تتعلق بالمحال الذاتي، كما تقرر في علم الكلام، وكل ما يستلزم نقصاً عليه تعالى، فهو محال ذاتي.

وما يحكى عن بعض أصحاب الغوث الأعظم الكيلاني: أن الله تعالى رد له مبرم القضاء، فغير ثابت بهذا اللفظ، وبفرض ثبوته وهو الشائع، فالولي يعذر في نطقه بغير المشروع لسكره ومحوه، ولا يجوز تقليد غيره له لشعوره وصحوه، ولا يسقط التكليف إلا عمن سقط عنه شرعاً.

وأيضاً الخطأ الكشفي كالخطأ الاجتهادي يعذر صاحبه ولا يقلد فيه، ومن لم يجوّز الخطأ على الأولياء لم يفرق بين النبي والولي تماماً.

وأيضاً قد يكتب في اللوح المحفوظ أمر من غير تعليق، فيظنه بعض أهل الكشف مبرماً، لعدم رؤية تعليقه له في اللوح فيخبر بإبرامه، وهو صادق بحسب الظاهر، لأنه لم يره إلا مبرماً مع أنه معلق في علم الله تعالى، فالمعلق

---

(١) قوله (القضاء المبرم): في الحكم: سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار. (ع).

قسمان: أحدهما معلق في العلم واللوح، والثاني معلق في العلم مبرم في اللوح، وما وقع للغوث الأعظم قدس سره الأقوم من القسم الثاني، وقد وقع لغيره من الأولياء أيضاً.

وكما يجب التحرز عن إنكار الأولياء، يجب التحرز عن الغلو في الاعتقاد بهم، بحيث يؤدي إلى خلل في فرض العقيدة، وهذا كثير من المفرطين في حسن الظن بالأولياء، والشيطان ذو مكر ومكيدة، وإذا أراد الله بأحد أن يأخذ حظاً من فيض شيخ يظهر عليه كمال ذلك الشيخ فوق ما هو فيه، فلا ينبغي الإصغاء إلى قول اسماعيل فينا، فوالله أنا دون ما يعتقد هو فيّ بكثير، ولا ينبئك مثل خبير. انتهى.

ومن ذلك ما كتبه إلى العلامة الشهير، والوزير الكبير، والي بغداد يومئذٍ داود باشا رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم سلام يفوح منه فوائح تستطاب، ودعاء ينال به الفوز والفلاح في المبدأ والمآب، وغالب الظن إن شاء الله تعالى بظهر الغيب مستجاب.

من العبد المسكين، والفقير المستكين، إلى حضرة الوالي، الراقي مراقي المجد والمعالي، المشهود له بالهمم العوالي، والإنعام المتوالي، النحرير العلم، صاحب السيف والقلم، أيده الله لحماية الأنام، ومنّ عليه بحسن البداية والختام.

أما بعد: فقد وصل مكتوبكم الصادر عن مصدر الجلالة والصدارة، الوارد من مورد الايالة والوزارة، إلى فقير إن حضر لا يلتفت إليه بالفحص والسؤال، وإذا غاب لا يخطر من قلة خطره بالبال، مصحوب قرة العين، منظور سادة الطريق النقشبندي، أعني ولدنا الأعز صبغة الله أفندي، فاستحسنا هذا الصنيع الناشىء من ذلك القدر الرفيع، والمقام المنيع، مع هذا العبد الوضيع، وكيف لا تستحسن المبادأة بالتواضع من الملوك، ولا سيما بالنسبة إلى الفقير الصعلوك، ولعمري إن التفقد عن أحوال مثلي من أمثالكم لحري بالاستغراب،

وحضور هذا المسكين الخامل ببالكم مع الارتداء برداء الوزارة لشيء عجاب، رفعكم الله بهذا التواضع وصانكم عن التكبر، ورقاكم بفضله يوماً فيوماً في مراقي التمكن والتصدر، فالتواضع من أرباب الملك شرف وزين، والتكبر - حفظتم عنه - سرف وشين، ثم لا يخفى على الجناب العالي أن صلاح الملوك - حلاّكم الله به - صلاح البرايا، وفسادهم - خلاّكم الله عنه - فساد جميع الرعايا، وقد ورد الأمر بتعميم الدعاء، فلا جرم أن شيمة الفقراء، الاعتناء التام بالدعاء، للوزراء الكرام، وسائر الإسلام، ولو بلا تبليغ وإعلام، فعلى مقدار صدق نيتكم، وتعلق همتكم، برعاية الأنام، وحماية الأرامل والأيتام، لكم الانتظام في سلك الدعاء العام، ونخصكم إن شاء الله المهيمن المنعام، بعد هذه الأيام، امتثالاً لأمركم وأداء لجزاء مالكم من الإنعام، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في البدء والختام.

وأما باللغة الفارسية فهي كثيرة جداً لا يسعني أن أحصيها عداً.

وله قدس الله سره من المؤلفات حاشية نفيسة لم ينسج على منوالها على «الخيال» في علم الكلام. وحاشية على «النهاية» للعلامة الرملي[1]، في فقه الإمام الشافعي إلى باب الجمعة، أبرز فيها من عرائس تحقيقه، ونفائس تدقيقه، ما يبهر عقول الفحول. وحاشية على «جمع الفوائد» من كتب الحديث تكتب بماء الذهب قد جرّدتها بخطي فجاءت مجلداً لطيفاً. ورسالة عجيبة سماها «العقد الجوهري في الفرق بين كسبي الماتريدي والأشعري»، وهي مطبوعة في دار السلطنة العلية. ورسالة في «الرابطة في اصطلاح السادة النقشبندية» تشهد بفخامة قدره. وشرح قبل ذهابه إلى الهند «مقامات الحريري» شرحاً لطيفاً لكنه لم يكمل. وله شرح على حديث جبريل جمع فيه عقائد الإسلام إلا أنه باللغة الفارسية. وحاشية على «تتمة السيالكوتي لحاشية عبد

---

(١) محمد بن أحمد بن حمزة (٩١٩- ١٠٠٤ هـ) الرملي، المنوفي، المصري، الأنصاري، الشافعي: فقيه، مشارك في بعض العلوم، ولد بالقاهرة، وولي إفتاء الشافعية، وشهر بالشافعي الصغير. «معجم المؤلفين» (٨/ ٢٥٥).

الغفور اللاري» على شرح العارف الجامي على «كافية» ابن الحاجب في علم النحو قبل سفره إلى الهند. وشرح على «العقائد العضدية»، و«جلاء الأكدار، والسيف البتار بالصلاة على النبي المختار»، ذكر فيه أسماء أهل بدر على حروف المعجم، وتوسل بهم على طراز لم يدركه من تقدم. وله تعاليق على كثير من كتب العلوم، وديوان فارسي بديع، ونثر يفوق أزهار الربيع، ومكتوبات كثيرة اجتمع عندنا منها نحو مائتين غير أن أكثرها فارسي، وغير ذلك من الرسائل المفيدة، والآثار الحميدة.

كراماته وإكراماته

هي باهرة كثيرة كالشمس في الظهيرة.

منها ما ذكره في «المجد التالد»: أنه ـ قدس الله سره ـ نظر إلى بعض النصارى وهو يمشي في الطريق مرة، فصاح النصراني صيحة عالية، وتبع حضرة الشيخ إلى الزاوية، وأسلم وسلك في طريقته، وصار من أهل الحضور ببركته.

ومنها: أن رجلاً من المنكرين في بغداد اجتمع عليه بعض الأوغاد، وعملوا حلقة كحلقة ذكر الحضرة استهزاء به قدس الله سره، فلما تقدم ذلك الرجل للتوجه إلى جماعته السفهاء على وجه الاستهزاء جنّ من ساعته، ورمى ثيابه وخرج هائماً كما ولدته أمه إلى الصحراء، وكان الشيخ ـ قدس سره ـ إذ ذاك في صحارى بغداد يتنزه مدة أيام مع خلفائه الأمجاد، فجاء أقارب المجنون يتضرعون إليه ويبكون، فأمر بإحضاره، ثم قال رضوان الله عليه لأحد خلفائه: اذهب وتوجه إليه ولا تشك أنه لا يفيق، وكان قد خطر ذلك على قلبه، فعلم أنه كوشف قدس الله سره به، فجعل يقبل قدميه، ثم أتى المجنون فتوجه إليه، فأفاق من ساعته، واستغفر الله تعالى من جنايته، وتبرأ من جماعته.

ومنها: أن الطائفة البرزنجية الذين هم أكابر بلدة السليمانية، قد أجمعوا على قتل هذا المرشد، وانحط رأيهم أن يكون ذلك يوم الجمعة على باب

المسجد، فلما كان يوم الجمعة حضر إلى الصلاة وخلفاؤه معه، فلما قضيت الصلاة خرج الخلفاء فرأوا زهاء مائتين من الأعداء وقوفاً بالأسلحة صفوفاً، فما زالوا منتظرينه، حتى خرج آخر الناس بالسكينة، فالتفت إليهم بعين الجلال، فمنهم من سقط في الحال، ومنهم من هرب، ومنهم من صاح وانجذب، ثم مشى مع جماعته، حتى وصل إلى زاويته، ولم يتعرض لهم أحد لا بلسان ولا بيد.

ومنها ما نقله فيه عن الأديب الفاضل عبد الباقي العمري الموصلي رحمه الله تعالى: أنه قدم بغداد في بعض المواد، فتأخر انقضاء مادته مده، حتى نفذ جميع ما عنده، فبات ذات ليلة في غم وهم من قلة الدينار والدرهم، حتى نام فأفاق وقد احتلم، فتألم كل الألم، وقال للخادم: إني أصبحت لا صلاة ولا دراهم، فقال الخادم: إني أراكَ تترددَ على حضرة الشيخ خالد قدس الله سره، فإن كان شيخاً حقيقة كوشف بذلك، وكشف بعطائه ضيق حالك، قال فما مضت برهة يسيرة إلا وجاءني أحد خدام الشيخ بمنديل أبيض فيه دنانير كثيرة، فأسرعت بالقيام إلى الحمام، ثم أقبلت إليه، فقبلت قدميه، فأمرني أن أجلس، فجلست بين يديه، ثم أنشأت وأنا في المجلس بيتاً ظاهره غزل وباطنه لغز في لفظ افسنتين نبت يوجد في الجبل فقلت:

بانَ لامُ العذارِ من ألفِ الـ ـقدِّ فتمَّ الوصالُ في عامين

فقبل أن أتم قراءته قال لي: يا عبد الباقي الأفسنتين في جبال العمادية كثير، فقمت وقبلت قدميه ثانياً، وعلمت أن سرعة هذا الإدراك ما هي إلا من العلم اللدني المنير في الضمير اهـ.

ومنها: أنه أخبر قبل أيام آله وعياله أنه يتوفى ليلة الجمعة، فكان كما قاله.

ومنها: ما نقله سيد الخلفاء العلماء الشيخ إسماعيل الأناراني، قدس الله سره النوراني عنه أنه قال عظم الله أجره: رأى الشيخ الأكبر رضي الله عنه رسول الله ﷺ في الواقعة مرة، فجعلها في إكليل الفتوحات المكية درّه، وإني رأيته ﷺ في نحو مائة واقعة ولم أتكلم.

ومنها: أن العارف الرباني سيدي وجدي الشيخ محمد الخاني، لما وفد على أعتابه أظهر الاعتناء به والابتهاج، واصطفاه لنفسه معيد درسه شرح الرملي على المنهاج، فلما جلس تلقاءه لم يجد معه كرّاساً للقراءة، فقال له: أين الكتاب؟ فقال: لم أجد، وأطرق رأسه من فرط الاحتشام، فقال له: كيف لا تجد كتاباً وأنت تكون شيخ الشام، ثم أمر من قدم الكتاب إليه، حتى أملى به عليه، فللّه درّ تلك الإعاده، إذ أنتجت حصول السعاده بالإشاره إلى هذه البشاره.

وإذا سخـــر الإلـــه أنـــاســـاً لسعيـــد فـــإنهـــم سعـــداء

وما لبث أن صار كما أشار، فقد انتهت إليه مشيخة العلم في هذه الديار، كما انتهت إليه مشيخة الإرشاد في جميع الأقطار، وستعلمه حين ما أترجمه.

ومنها: أنه لما بلغ في الهند من الولاية، مبلغ أرباب النهاية، وأمره الشيخ أن يعود إلى الوطن، ليحيي من العلوم ما ظهر منها وما بطن، حملته همته الكبرى، أن يسير خمسين يوماً بحراً وبراً، ولم يتغذ فيهن بغير الذكر والفكر، كما ذكرنا عند سفره في هذا السّفر، وذلك لغلبة اللذة والسرور، بالمشاهدة الإلهية والحضور، وبعد ذلك عوجل بالماء قليلاً قليلاً، ثم عولج بتدريج الغذاء زمناً طويلاً، حتى عادت له القوى، وطوى عنه وهن ما طوى.

ومنها: أنه لما شيع جنازة نجله سيدنا عبد الرحمن إلى الجبل، وأمر أن يهيء له ضريح في ذلك المحل، أخبر أنه سيبني أحد أحبائه تكية لفقرائه عند ضريحه الأنور، فكان كما أخبر، إذ أمر ساكن الجنان: السلطان الغازي عبد المجيد خان، سنة ثمان وخمسين ببناء قبة عظيمة على روضته، وتكية محتوية على مسجد وحجرات نفيسة لخدمته، وأدرّ عليها من سحائب الرواتب الغامرة، ما تكفل أن تكون إلى هذا العام عامرة.

ومنها وهي أعظمها: اجتماع السلاطين والأمراء على محبته، واتباع أساطين العلماءِ لطريقته، كشيخ الإسلام ومفتي الأنام: مكي زاده مصطفى عاصم أفندي، وغيره من علماء القسطنطينية والوزراء والحكام، وكعبة الأحبار

وسلطان العلماء الكبار: يحيى المزوري العمادي، وعلامة الفضلاء: الشيخ عبد الرحمن الروزبهاني، والعلامة الولي الشيخ عبدالله الجلي، والسادة الحيدرية والبرزنجية في بغداد والسليمانية، وغيرهم من علماء العراق على الإطلاق، وقد ذكر أكثرهم في «المجد التالد»، وإن كان فيه ما فيه من الزوائد، وكعلامة المتأخرين: السيد محمد أمين عابدين في الشام، والعالم الإمام بركة الأنام: السيد محيي الدين، ونجله أمير العارفين: السيد عبد القادر الجزايري في المغرب، وغيرهم من الأكابر الفحول أولي التآليف في المعقول والمنقول، الذين حسبوا من فريقه، وانتسبوا إلى طريقه الغرا .

وأما خبر علماء خلفائه فسأتلو عليك منه ذكراً، فانقياد هؤلاء الأئمة الأعلام بحيث كان كل واحد منهم مع جلالة علمه وقدره يعد نفسه كالجاهل والخادم بين يدي الشيخ قدسنا الله بسره، حتى أن نخبة العلماء الأمجاد: السيد أسعد الحيدري مفتي بغداد قال: لو أمرني حضرة الشيخ أن أضع قصعة فيها لبن على رأسي، وأمشي بها في أسواق بغداد كما يفعله أداني الناس لفعلته امتثالاً لأمره، لا يخفى أنه من أعظم الكرامات قدراً، وسر من أسرار الولاية الكبرى، وإلا فمعارضة علماء الرسوم لمشايخ الطريق قديماً وحديثاً أمر معلوم عند العموم، وبالجملة فلم تبق بلدة من بلاد الإسلام إلا ووصل إليها نفع هذا الإمام، إما بذاته أو بخلفائه الكرام، وما زال ولا يزال هذا النفع العام، باقياً على هذا الحال إلى يوم القيام.

إن الذي قلت بعض من مناقبه ما زدت إلا لعلي زدت نقصاناً

ومنها: أنه لما رفع إلى حضرته الضيائية: إنَّ حالت أفندي المشهور المنتسب إلى الطريقة المولوية الجلالية، قد وشي عليه عند ساكن الجنان السلطان الغازي محمود خان، قال: قد حوّلت أمره إلى إمامه قطب العارفين: مولانا جلال الدين الرومي قدس الله سره المبين، بجلبه إلى جنابة الأنيق ومجازاته بما يليق، فبعد عدة أيام ظهر سر هذا الكلام، وهو أن حضرة السلطان

غضب على حالت أفندي الأفاك، ونفاه إلى قونية التي فيها مقام حضرة مولانا جلال الدين، ثم أمر به فخنق هناك.

ومنها: أن من جالسه وتابعه، ولزم الأدب ظاهراً وباطناً معه، انتفع من لحظه، وفاز بالجوهر المكنون في لفظه، ومليء من الأنوار والأسرار، ووجد تأثير ذلك في الحال، وزهد قلبه عن حب الدنيا والجاه والمال، واستيقظ من غفلته متفكراً في المآل، ورغب عن الأهل والعيال، وهذه الخاصية لا توجد إلا عند الكمل من الرجال، فالحمد لله الذي شرفنا بأسوته، وأدخلنا في أسرته.

وأما إكراماته: فهو كما قلت:

فينعم بالآلاف من غير منة نعم يرتجى منك القبول ويكتم
يقسمها بين الأنام كأنه وكيل على إيصالها وهي مغنم
فسبحان من أعطاه ما ليس ينبغي إلى أحد من بعدُ والله أعلم

إذ كان يوجد في مسجده، عدد وافر يلبسون من برده، ويطعمون من عنده، وله صدقات كلية، ما بين خفية وجلية، وبيوت مفتوحة وعطايا ممنوحة، وربما يتصدق على السائل بكتبه، وبجميع ما يحضر من نشبه، ولم يسمع أنه منع سائلاً، أو قطع وسائلاً، نفعنا الله به، وهذه زهرة من رياض آثاره، وقطرة من حياض أسراره:

ومن بعد هذا ما تجل صفاته وما كتمه أولى لديّ وأجمل

وإنما صغتها أسجاعاً، اتباعاً للحديقة لا ابتداعاً.

وكان له ـ قدس الله سره ـ خمسة أنجال أنجاب، وهم: الشيخ بهاء الدين، والشيخ عبد الرحمن، والشيخ شهاب الدين، والشيخ نجم الدين، والكريمة فاطمة قدس سرهم.

فأما النجلان الأولان: فقد سبقا والدهما، وأخوهما شهاب الدين المتوفى في أورفة كما سلف إلى الجنان.

وأما الشيخ نجم الدين: فقد توفي حضرة مولانا وهو جنين، وعاش حتى

تنبل، وتنبه وتكمل، ثم انتقل إلى عليين، ودفن حذاءه وذلك سنة ألف ومائتين وسبعين.

وأما السيدة فاطمة: فهي لهم نعم الخاتمة، ولدت سنة إحدى وأربعين، ولم تلد أم المريدين: السيدة عائشة الغزية الحسينية غيرها من البنين، وكانت آية باهرة في الذكاء، حفظت القرآن وتعلمت الكتابة والشعر والإنشاء، وتكلمت باللغة العربية والفارسية، والكردية والتركية، وتفقهت، واشتغلت بالطريقة العلية الخالدية، فانتفع بها كثير من النساء.

ومما منّ الله به على سيدي الوالد الماجد اتصال نسبه بنسب حضرة سيدنا ومولانا خالد، حيث تزوج بها عام ثمانين، فولدت له أختي المصونة بهية بعد ثلاث سنين، ولم يزل يقدرها حق قدرها، ويبالغ في تعظيم أمرها، وخدمة خدرها، ويشكر الله تعالى على ذلك الإنعام، حتى توجهت سنة ست وثمانين إلى حج البيت الحرام، ففاجأتها المنية في منى بالوفاة، فحملت إلى مكة المكرمة ودفنت في المعلاه.

وله قدس الله سره خلفاء حنفاء، أولياء أصفياء، علماء عظماء، سايحون، عابدون، لا يدرك كثرتهم العادّون، ولكن أذكر فئة منهم، مقتصراً على من توفي وهو راض عنهم، غير جانح إلى عد خلفائهم، وخلفاء خلفائهم، فإنهم يبلغون إلى مائة أو يزيدون، وفي الأمل إن طال بي الأجل أن أفرد لهم كتاباً مخصوصاً بعونه عز وجل:

لله تحت قباب العز طائفة ... أخفاهم في رداء الفقر إجلالاً
هم السلاطين في أطمار مسكنة ... استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
هذي المكارم لا ثوبان من عدن ... خيطا قميصاً فعادا بعدُ أسمالا
هذي المناقب لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

فمن أقواهم إرشاداً، وأقومهم إمداداً، وأكبرهم جمعاً، وأكثرهم نفعاً، صفوة العلماء الورعين الأعلام الشيخ محمد البغدادي الإمام قدس سره. أمّ

بحضرة مولانا قدس سره إلى أن توفي سنة ثلاثين في بغداد، ودفن في تربة سيدنا الجنيد رضي الله عنه.

وممن ذكر: زهرة علماء المعقول والمنقول السيد الشيخ عبدالله القادري نسباً الشمزيني وطناً الهكاري: قدم سنة تسع وعشرين إلى بُغداد قاصداً حضرة مولانا للسلوك لديه، فلم يزل في مجاهدة حتى ألقى الفتوح مفاتيحه إليه.

وممن ذكر: رفيع الهمة، الصادق الخدمة، رفيق حضرة مولانا في الرحلة إلى القطر الحجازي والهندي: الشيخ عبد الرحمن العقري الكردي، وهذا الهمام أول خليفة جاء إلى دمشق الشام.

وممن ذكر: أخوه الصالح الفالح، المرشد الكامل الناصح: الشيخ عبد الفتاح العقري، رابع أوصياء حضرة مولانا وبريده الناجح، قدس سره.

وممن ذكر: قدوة العلماء، وقبلة الأولياء، المرشد الكامل السري: الشيخ ملا مصطفى ابن العلامة الشيخ جلال الدين الكلعنبري قدس سره.

وممن ذكر: العلامة والولي ابن الولي: المرشد الكامل سيدنا الشيخ عبدالله ابن الشيخ عبد الرحمن الجلي قدس سره.

وممن ذكر: أعلم الصلحاء، وأصلح العلماء، المرشد الكامل الشيخ ملا عباس الكوكي قدس سره.

وممن ذكر: أشرف الفضلاء، وأفضل الشرفاء، المرشد الكامل، السيد عبد القادر البرزنجي قدس سره.

وممن ذكر: خلاصة العلماء المحققين، وبقية السلف الصالحين، المرشد الكامل الشيخ: الملا هداية الله الأربيلي قدس سره.

وممن ذكر: شريف العلماء، وعالم الشرفاء، المرشد الكامل العزيز صفي حضرة مولانا من سن التمييز: السيد الشيخ إسماعيلَ البرزنجي قدس سره.

وممن ذكر: إمام العلماء الأكابر، وأبلغ خطباء المنابر، المرشد الكامل: ملا أبو بكر البغدادي قدّس سره، أم بحضرة مولانا منذ توفي الشيخ محمد

الإمام إلى أن انتقل سيدنا الشيخ إلى دار السلام، فتجشم تلقينه وتصبر، وطعن منصرفه من دفنه يوم الجمعة وهو على المنبر، ثم توفي في يوم الأحد تاسع عشر شهر ذي القعدة الحرام، ودفن في تربة حضرة مولانا خلف المقام، ولم يتخلف أحد من أهل الشام عن تشييع جنازته بالحزن التام.

شقــت عليــه يــد الأســى ثوب الدموع إلى الذيول

وممن ذكر: العالم التقي، والمرشد النقي: الشيخ طاهر العقري قدس سره.

وممن ذكر: الفقيه العابد، والمرشد الزاهد: الشيخ معروف التكريتي العراقي.

وممن ذكر: أصلح العلماء، وأعلم الصلحاء، المرشد الكامل: الشيخ أحمد القسطموني قدس سره.

وممن ذكر: علامة الزمان، ومظهر العرفان، المرشد الكامل: الشيخ محمد بن سليمان صاحب «الحديقة الندية»، شكر الله مساعيه المرضية.

وممن ذكر: المربي الفالح، والمرشد الصالح: الشيخ محمد عاشق قدس سره.

وممن ذكر: زينة الأتقياء، ونخبة الأولياء، المرشد الكامل: الشيخ موسى الجبوري البغدادي قدس سره.

وممن ذكر: عمدة الفقهاء الأفاضل، الدراكة الفهامة المرشد الكامل: السيد عبد الغفور الكردي الكركوكي قدس سره.

وممن ذكر: طبيب كلوم الفؤاد، وخطيب العلوم والإرشاد، عالم الأولياء، وولي العلماء، المرشد الكامل العجيب: سيدي وعمدتي، وجدي لوالدتي: الشيخ أحمد الأربيلي الخطيب، خليفة الشام الثاني، قدس سره النوراني، وقد مر في ترجمة حضرة مولانا ذكره، عاد هذا الولي الجليل صحبة حرم حضرة مولانا إلى العراق، وتوفي سنة خمسين تقريباً في أربيل.

وممن ذكر: أقدم الخلفاء، وأقوم الصلحاء، صاحب الكرامات والمآثر الجليلة، المرشد الكامل الشيخ عثمان الكردي، المشهور بطويلة. قدس سره.

وممن ذكر: عالم الخلفاء، وخليفة العلماء، المرشد الكامل: الشيخ عبدالله الأرزنجاني المكي خليفة مكة المكرمة قدس سره.

وممن ذكر: نادرة المربين، ومظهر العلم المبين: المرشد الكامل الشيخ خالد الكردي المدني، خليفة المدينة المنوّرة قدس سره.

وممن ذكر: العالم العامل، والمرشد الكامل: الشيخ اسماعيل الشيرواني قدس سره، غير أنه سهى آخر مدته، فأذن لمريديه أن يرابطوا بصورته، فكتب إليه حضرة مولانا كتاباً فيه دغدغة قوية، وقد ساقه سيدي الجد في مبحث الرابطة من «البهجة السنية».

وممن ذكر: نتيجة الأفاضل، ولوح العلوم والفضائل، المرشد الكامل الشيخ أحمد الأغربوزي قدس سره. كان خليفة الآستانة العلية بعد ما طرد عبد الوهاب السوسي، ولقد دعي أثر وفاة حضرة مولانا قدس الله سره إلى الشام؛ لخدمة حرم حضرة مولانا في بعض المهام، ثم عاد بعد فأقام في إزمير لأمور لا تقبل التنقير.

وممن ذكر: بهجة الأولياء، وحلية الأصفياء، المرشد الكامل النبوي: السيد الشيخ أحمد البرزنجي السركلوي.

ومنهم العلامة النحرير، والأديب الكبير، المرشد الكامل السيد الشيخ عبيد الله الحيدري البغدادي قدس سره، لكن تولى منصب إفتاء بغداد، فكتب حضرة مولانا كتاباً إلى خلفاء تلك البلاد، يشعر ببعض انتقاد، وأظن أنه لقبول هذه المأمورية. وقد ذكر ذلك الكتاب سيدي الجد في «البهجة السنية»، وقد أثبته بذاته ها هنا أول مكتوباته.

وممن ذكر: علامة أقرانه، وصالح شرفاء زمانه، المرشد الكامل، السيد الشيخ عبد الغفور المشاهدي البغدادي الخالدي قدس سره.

ومن ذكر: عالم الفقهاء وفقيه العلماء: الشيخ محمد الجديد البغدادي قدس سره.

ومن ذكر: الفقيه الفاضل، والمرشد الكامل: الشيخ عبد القادر الديملاني قدس سره، وقد مر في خلال هذه الترجمة أمره.

ومن ذكر: أنصح العلماء، وأعلم النصحاء، الصالح الفالح: الشيخ محمد الناصح. ثالث أوصياء حضرة مولانا إلا أنه طعن بعده بقليل، وتوفي في حياة الوصي الأول سيدنا الشيخ اسماعيل قدس سرهما.

ومن ذكر: أكبر العلماء، وأعلم الكبراء، المرشد الكامل: الشيخ حسن القوزاني الخطاط قدس سره.

ومن ذكر: العلامة الفهامة، المرشد الكامل: الشيخ محمد المجذوب العمادي المشهور بسيد قدس سره.

ومن ذكر: تاج هام العلماء العاملين، وأنفع المرشدين الكاملين: الشيخ خالد الجزيري قدس سره.

ومن ذكر: العالم الرباني، والمرشد الكامل السبحاني: الشيخ السيد طه الكيلاني الهكاري قدس سره.

ومن ذكر: أوحد العلماء الكرام، المرشد الكامل الهمام: الشيخ اسماعيل البصري قدس سره.

ومن ذكر: الإمام الهمام، المرشد الكامل: الشيخ محمد الفراقي الكردي قدس سره ناظر تربة حضرة مولانا المعظم، الذي بذل في تعمير تكيته أقصى الهمم.

ومن ذكر: التقي النقي، العالم الولي، والمرشد الكامل الماجد: الشيخ ملا خالد الكردي خليفة جامع السويقة[1] قبل سيدي الجد الأمجد قدس سرهما.

---

(١) جامع السويقة: هو جامع مراد باشا المتقدم الذكر.

وممن ذكر: حسنة أولي العلم والإرشاد، المرشد الكامل: الشيخ عبدالله الفردي خليفة بيت المقدس قدس سره.

ومن أجمعهم نفعاً، وأنفعهم جمعاً، صفوة العلماء العاملين، وقدوة الأولياء الكاملين: العارف الرباني سيدنا الشيخ اسماعيل الأناراني، وهذا الإمام هو أول القائمي مقام حضرة مولانا خالد في الإرشاد، وأول الأوصياء على ثلث المال، والأنجال الأمجاد، خدم حضرة الشيخ ولازمه ملازمة حسنة، ولم يعص له أمراً سفراً وحضراً خمسة عشر سنة، وخلفه خلافة مطلقة، وأذن له بالإرشاد، فسلك سبيل الرشاد، ولما وفد على الشام فوّض إليه في جامع العداس تربية الناس، فكان يبحث كل يوم عن أحوال السالكين فرداً فرداً، ثم يحصيها ويعدها لحضرة مولانا قدس الله سره عدا، ولا يذر قدر الذرة، فمهما رأى قدس الله سره فيهم رأياً يبلغهم إياه أمراً ونهياً، ولا يذكر من عنده أمراً، حتى يحدث له منه ذكراً.

وأخبرني سيدي الوالد عن الجد الماجد قدس سره أنه قال: كثيراً ما يقول لنا الشيخ اسماعيل: اعلموا أني أنا لوح صقيل، كل ما نقش فيه حضرة مولانا أوصلته إليكم من كثير أو قليل.

ومن آدابه الشريفة: أنه لم ينسب لنفسه خليفة، ولما توفي حضرة الشيخ قدس سره غاض دمعه، وفاض صبره، وكان أثبت إخوانه قلباً، وأصحى أصحابه لباً، فجمع كلمتهم، وجدد همتهم، وقبض بسطهم، وبسط قبضهم، وخفف أحزانهم، وأقام أوزانهم، وأجرى لهم إحسانهم، واعتنى في أمر عبادتهم وإعادتهم لعادتهم، وقبض على ذمام الإرشاد من بعده، وأبقى الأمر على ما كان عليه في عهده، وجعل يقول لهم: ألستم تعلمون أن حضرة مولانا من أهل الله وهم لا يموتون؟ ولم يتم هذا الشروع، إلا وطعن بعد نحو أسبوع، وتوفي بعد حضرة مولانا خالد بسبعة عشر يوماً خلافاً لما في «المجد التالد»، ودفن خلف مقام الحضرة قدس الله سره، وقد تزوج في حياة حضرة الشيخ، وأعقب ولداً أسماه عبدالله، وسرّ به تمام المسرة، ولم يذق اللحم في هذه

المدة، وكان يقول: إنه يورث ظلمة، وقد ذهب حضرة مولانا، فمن يزيلها عنا بعده، وقبل وفاته بأربعة أيام، أوصى بثلث ماله لفقراء الإسلام، وأقام وصياً عليه العارف الصمداني: سيدي وجدي الشيخ محمد الخاني، وأقام مقامه في الإرشاد العام سيدنا الشيخ عبدالله الهروي.

وكان للشيخ اسماعيل مقام في الطريق جليل، وكرامات عظيمات، وكلمات كريمات، وحسبه شهادة بفضله الجزيل، ما قاله عنه حضرة مولانا قدس الله سره في مرضه: إني لم أمت حيث تركت فيكم الشيخ اسماعيل.

ومنهم: العالم العامل، والمرشد الكامل، فذلكة الأفاضل المهتدين، وقلب المربين المرشدين، الوصي الثاني، والولي السبحاني، صاحب الأنفاس القدسية، والأخلاق النبوية، والمقام العيسوي: سيدنا الشيخ عبدالله الهروي المومى إليه، قدم على حضرة مولانا رضوان الله عليه في السليمانية، وأخلص بخدمته النية، وأدى السلوك حقه، فخلفه قدس الله سره خلافة مطلقة، وكان حضرة الشيخ قدس سره يحبه ويبرّه؛ حتى جعله أمين أملاكه التي في العراق، فكان يجمع ريعها على الإطلاق، ويهيء منه أكسية وأغذية ويفد بها إلى الشام، فيهتم لقدومه غاية الاهتمام، وكان إذ توفي الشيخ قدس سره في السليمانية، فلما طعن الشيخ اسماعيل أشهد له من بعده بالخلافة الروحانية، ثم خاف أن يستشهد بالطاعون الأشهاد، فأمر من يكتب له صكاً بذلك الإشهاد.

ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فقد أقمت مقامي على سجادة المشيخة والإرشاد المولى الصالح، والمجاهد الفالح درويش هذا الزمان، القائم في مقام الإحسان، السائر في طريق القوم أولي المسالك السوي: سيدي الشيخ عبد الله الهروي، وجعلته محلي كما جعلني شيخي وأستاذي، وعمدتي وملاذي، قطب هذا الوجود أبو البهاء ضياء الدين مولانا خالد النقشبندي المجددي، آمراً ناهياً على سائر الخلفاء والمريدين، كل من خالفه فهو مطرود عن طريقتنا، وقد أقررت كل أحد يتوجه في المكان الذي هو

فيه في أيام حضرة مولانا إلى أن يأتي جناب الشيخ المذكور. قاله بفمه، ورقم باذنه اسماعيل الأناراتي الخالدي، اهـ.

فلما بلغه إلى السليمانية الخبر، قبل واقبل يتعثر بأذيال الكدر، حتى إذا وصل إلى الشام جلس في دست الإرشاد العام، وتولى خدمة حرم حضرة الشيخ بذاته، وقام بأعباء ما يلزم من مهماته، وحينما سافروا إلى بغداد وأربيل، لم يأل جهداً بأداء حقهم الجزيل، من التعظيم والتبجيل.

فلما عادوا إلى الشام قدم معهم سائراً في خدمتهم على أصدق أقدام، ثم نزل من الجامع الأموي في مشهد رأس الحسين عليه السلام، فما لبث أن مرض مرضه الأخير، فأقبل إليه من الخلفاء الجم الغفير، وقالوا له:من ذا الذي تأمرنا أن نختلف بعدك إليه، ونعوّل في خلافة الإرشاد عليه؟ فقال: إني لا أرى لهذا الأمر أليق من العالم العارف الصمداني: الشيخ محمد الخاني، فإني لم أر إلا كمال الاستقامة منه، حتى توفي حضرة مولانا وهو راض عنه، فارجعوا إليه بعدي في الإرشاد، وألقوا إليه مقاليد التسليم والانقياد، ثم استشهد في ذلك المشهد، فحمل إلى الجبل محل حضرة مولانا والرعيل الأول، مشيعاً من كافة الإخوان بالأحزان والتهليل، ودفن حذاء ضريح سيدنا الشيخ اسماعيل قدس سره.

وكان قدّس سره متجرداً لخدمة حضرة مولانا حضراً وسفراً، ولخدمة حرمه، وأنجاله وخدمه، من بعده سفراً وحضراً، لم يصدر منه أدنى قصور، حتى توفي وهو حصور، وله قدس سره من الأخلاق الحميدة، والكرامات العديدة، والقدم الراسخ في الإرشاد، والتوجه المبارك بالإمداد ما لا يسع هذا السفر حصره.

ومنهم: وهو من أعظم من سرى إليه سر هذه النسبة النقشبندية، وشيخ هذه السلسلة المبجلة الخالدية: سيدي وجدي الشيخ محمد الخاني قدس سره القائم مقام الثالث سيدنا الجد الأمجد الشيخ محمد بن عبدالله بن مصطفى الخاني الخالدي النقشبندي قدس الله سره العزيز، فاتحة الأتقياء المهتدين،

وخاتمة الخلفاء المرشدين، وقبلة أولياء العلماء، ورحلة علماء الأولياء، روض المعارف الوارف، يأوي إلى ظل فضله وفضل ظله كل عارف، جامع فرق الإرشاد، وفارق جمع الإمداد، منهل أنواء الأنوار الشعشعانية، ومظهر إسراء الأسرار الربانية، إلى رقيق أخلاق، يعرفها كل من له في الطريق خلاق، وأنفاس تشف عن علو كشف وأذواق، ربى بها من السالكين نفوساً شموساً، فأشرقوا في فلك الهداية أقماراً وشموساً، وكرم وكرامات تثبت ماله من جلالة الهمم والمقامات، فهو الكوكب الذي قابل بقابليته المحمدية، ضياء شمس الذات الخالدية، فانطبعت في لوح مرآته الصقيلة كافة صفاته الجليلة الجليلة، فأشرق في سماء الولاية بدراً، وفي دولة الهداية صدراً، وأصبح منه فضلاً في وصل، والنسخة الثانية المقابلة على الأصل، وورثه رشداً فرضا وردّا.

ولد ـ قدس الله سره، وأناله بقربه تمام المسرة ـ سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف في خان شيخون محل مشهور في طريق حلب على مرحلة من حماه، منه سيدنا العارف الكبير: الشيخ قاسم الخاني صاحب كتاب «سير السلوك إلى ملك الملوك»، وشرح «عنقا مغرب» لخاتم الأولياء المحمديين: الشيخ الأكبر محيي الدين قدس الله سره، ورزقنا نظره وبرّه آمين.

وكان أبوه عبدالله معززاً في قومه موقراً في أهله، دمث الأخلاق، حسن الأوصاف، توفي هذا العزيز، والجد الأمجد في سن التمييز، واشتغل بقراءة القرآن والكتابة، وهو في حجر والدته الصالحة الأوّابة التوابة، الصوامة القوامة، الذاكرة الشاكرة: السيدة حليمة بنت السيد الشيخ محمد ابن السيد الشيخ يوسف الكيالي، وسند نسبه الشريف في تلك الديار من العوالي.

وكانت ـ قدس سرها ـ من صلحاء النساء، أخبرنا سيدي الجد الأمجد قدس الله سره غير مرة أنها رأت ليلة القدر، فسألت الله تعالى، فقالت: رب استرني واستر ذريتي، فاستجيبت دعوتها ولله الحمد.

ولما تشرف سيدي الجد بالطريقة العالية الخالدية تلقتها عنه، واشتغلت بجد واجتهاد حتى حصل لها مقام عظيم، وذوق عال، وقدم راسخ، وكثيراً ما سمعته ـ قدس الله سره ـ يقول: كنت مع فرط مجاهدتي في الطريق والرياضة، والذكر والعبادة، أجدني بالنسبة إليها مقصراً جداً.

توفيت قدس سرها في دمشق الشام سنة إحدى وخمسين، ودفنت في تربة حضرة مولانا خلف المقام، وكان والدها مشتغلاً بالطريقة العلية الكيالية، وله مريدون كثيرون وزاوية بالبركة والأنوار زاهيه، مشتملة على أدوات الذكر الوافيه، مقصوداً من كل الجهات لما له من صالح الدعوات.

ثم ارتحل الجد الأمجد ـ قدس الله سره ـ مع والدته إلى حماة المحمية، واشتغل بتحصيل العلوم الشرعية، والآداب المرضية، فتفقه في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه على العالم الفاضل الشيخ خالد السيد، والعالم الفاضل الشيخ عبد الرحيم البستاني، وقرأ النحو وطرفاً من الآلات على العالم الفاضل الأديب الشيخ حمود زهير، ولازم العبد الصالح الشيخ فارس، الذي كان في حلبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول فارس، مدة ست سنين.

ثم أخذ الطريقة العلية القادرية من السيد الشيخ محمد الكيلاني الأزهري قدس سره، واشتغل بها وبتعليم الناس الأحكام الشرعية، وصرف قصارى الهمة لإحياء السنة السنية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنفسه، فكم أزال من بدعة، ومحا من ضلالة، حتى كان يُحْضِر الناس قهراً إلى المسجد، ويعلمهم فرائض الدين والتوبة من المعاصي، وتجديد الإسلام والعقود، فحصل على يده نفع عظيم، واشتهر في أرجاء حماة كالشمس في رابعة النهار، وصار يعبر عنه بمهدي الزمان، وكان جلوسه في جامع الجامع للعلوم والعرفان: الولي الكامل بلا دفاع الشيخ علوان الحموي قدس الله سره، وإقامته كانت في زاويته، وحصل له بذلك مدد عظيم من روحانيته.

ولم يزل كذلك إلى أن شرف الديار الشامية قطب دائرة الإرشاد، وبحر الهداية والإمداد ذو الجناحين، وعلامة الثقلين: أبو البهاء ضياء الدين، حضرة

سيدنا ومولانا الشيخ خالد قدس الله سره العزيز، فتشرف بأخذ الطريقة العلية النقشبندية عنه كما ذكر ذلك في «البهجة السنية».

ودخل الرياضة حالاً في جامع العداس، فأدركته جذبة من جذبات الحق التي توازي عمل الثقلين، فحصل له بعد ثلاثة أيام النسبة، المعبر عنها بالوصول والفناء، وهو دوام مقام الإحسان، ولم يزل في ذكر وفكر يترقى إلى أعلى المقامات حتى أتم الأربعينية، فاستأذن بالذهاب إلى أهله في حماة، فأذن له، ثم لم يبرح أن عاد فأدخله الرياضة ثانياً، فلما تمت عاد إلى أهله أيضاً، ثم رجع، فدخل الرياضة ثالثاً ونفسه متشوّقة إلى ختم المقامات، والترقي إلى مراتب الأولياء، فبعد أن أكمل الرياضة انقلب إلى أهله، فمكث غير بعيد إذا بأمر من حضرة مولانا قدس الله سره بحضوره وعائلته إلى دمشق الشام، فلم يتأخر عن الإجابة لحظة، وذلك سنة إحدى وأربعين، فأقبل عليه قدس الله سره لما رأى من علو همته، وصفاء فطنته وفطرته، ووفور علمه، وتوقد ذكاء ذكائه وفهمه، وكان قد ابتدأ يقرأ النهاية شرح المنهاج في فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه، لعلامة الدنيا شمس الدين الشيخ محمد الرملي الأزهري، ـ نوّر الله مرقده ـ صباحاً في مدرسة داره، ويعيد له الدرس سليل العلماء عمر أفندي الغزي رحمه الله، فلما حضر الجد الأمجد جعله محله، وسرّ به سروراً عظيماً، وبشره بأنه سيصير شيخ الشام، وقد حقق الله بشارته كما سبق الإلماع بذلك في ترجمة حضرة مولانا قدس الله سره العزيز.

ولما توفي خليفة جامع المرادية المشهور بالسويقة العالم الفاضل، والمرشد الكامل: ملا خالد الكردي ـ قدس سره ـ عيّنه لمكانته عنده مكانه، وخلّفه خلافة مطلقة، وأذن له بالإرشاد، وتلاوة الذكر الخواجكاني، والتوجه للإخوان في الجامع المذكور، وكتب له صك الخلافة، وختمه بخاتمه الشريف، ونصه:

الحمد لله الكريم الوهاب، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا وملاذنا محمد الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم

المآب، وبعد: فقد أجزت الأخ في الله: الشيخ محمد بن عبدالله الخاني بالتوجه والإرشاد، وتلقين الذكر في الطريقة العلية النقشبندية ـ قدس الله تعالى أسرار أهاليها السنية ـ وما أجزته إلا بعد الاستخارة الشرعية من أرواح سادات السلسلة الزكية، وأوصيه بتقوى الله في السر والإعلان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينما كان بقدر الإمكان، وأن لا يرى النجاة إلا بالصدق، والسلامة إلا باتباع سيدنا محمد سيد الخلق صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان في كل وقت وأوان، آمين. حرر سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف، والحمد لله رب العالمين.

أضعف العباد خالد النقشبندي المجددي

القادري السهروردي

الكبروي الچشتي

وحضر ـ قدس الله سره العزيز ـ بنفسه إلى ذلك الجامع، ودعا له بعموم النفع، فنهض بأعباء الخلافة، واجتمع إليه الجماء الغفير من الإخوان والمريدين، وأقبلت عليه القلوب، وجعل حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ يحيل إليه تربية بعض السالكين، كالعلامة النبوي: السيد الشيخ محيي الدين، ونجله أمير العارفين السيد الأمير عبد القادر الجزايري، فإنهما حضرا سنة إحدى وأربعين، صحبة حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ من الديار الحجازية إلى دمشق الشام، ونزلا عند سيدي الجد الأمجد قدس الله سره في جامع المرادية، وأخذا الطريقة العلية بواسطته من حضرة مولانا، وجلس السيد محيي الدين في الخلوة أربعة أشهر، وكان سيدي الجد يتعاهده في كل الأوقات، ويعرض أحواله على حضرة الشيخ على عادة خلفائه العظام.

وسمعت من أحد أنجال السيد محيي الدين الكرام أنه قال: ما رأيت في جميع سياحتي في بلاد المشرق والمغرب أعلم من حضرة مولانا خالد قدس الله سره العزيز.

ولم يزل سيدي الجد ملازماً عتبة حضرة الشيخ، مثابراً على صدق

الخدمة، مشتغلاً بالطريق اشتغالاً مفرطاً بهمة قوية، وصدق نية، وخلوص طوية، لا يقرأ درساً إلا كان أول مبادر لتلقيه، ولا يأمر أمراً أو ينهى نهياً إلا كان أسرع الناس لامتثاله، وحضرة مولانا يزداد إقبالاً عليه، ويواصل إدرار فيوضاته الظاهرة والباطنة إليه، حتى بلغ عنده تمام الحظوة، وغاية المنزلة من القرب، والالتفات والاعتناء بشأنه، وكثيراً ما كان يأمره أن يكتب إلى خلفاء الأطراف فيسود الكتاب، ويعرضه عليه، فيمضي التسويد ويختمه بدون تبييض أو تصحيح لما يجده من جزالة اللفظ، وبلاغة المعنى، وفصاحة التركيب، وإصابة المرمى.

وكان يقرأ للإخوان على عهد الشيخ رسالة «الحديقة الندية» في جامع المرادية، قال: فسألني قدس الله سره مرة: ماذا تقرأ للمريدين؟ فقلت: كتاب الحديقة الندية، فقال: هل هي فصيحة العبارة؟ فقلت: لا يكون في الدنيا أفصح منها. فقال قدس الله سره: كلها من عبارتي. ذكر ذلك في خطبة «البهجة السنية».

ولما ذهب حضرة الشيخ إلى الحجاز سنة إحدى وأربعين، جعل كلما أرسل كتاباً إلى الشام يقول فيه: وسلموا لنا على شيخ الياغوشية، والسويقة، ومراده سيدي الجد الشيخ أحمد الخطيب الأربيلي، وسيدي الجد المترجم قدس سرهما، وهي منقبة من حضرة مولانا لم يدركها غيرهما أصلاً، نظراً لما كان عليه حضرة الشيخ قدس الله سره العزيز من عظمة المقام، وجلالة القدر، وهيبة الإرشاد، وعلوّ المنزلة لا سيما في قلوب نبلاء خلفائه، فإنه لا يعرف الفضل إلا ذووه.

أخبرنا سيدي الجد الأمجد ـ قدس الله سره ـ أنه دخل مرة وقت الضحى إلى دار حضرة الشيخ ـ قدس الله سره العزيز ـ فلم يجد الحاجب حتى يستأذن عليه، فرأى نعله في الباب، وقد أصابته الشمس، فاتخذه وسيلة ودخل عليه، وقال له: يا سيدي الشمس تغيره، فقال له: أُدخل وضعه في الظل، ففعل ووقف بين يديه قال: فتوجه إليّ بتلك الهمة القدسية الخالدية توجهاً أوصلني إلى مقام الفناء الأتم، فلما أفقت أقبلت عليه أقبل قدميه، فقال: بل قبل النعل الذي كان سبباً

لفوزك بذلك الخير العظيم، ففعلت، ثم خرجت، وقد نلت بهذه اللحظة ما لم أنله برياضة أربعينية اهـ.

ولما جلس يعيد له الدرس تلقاءه لم يقوَ على تحمل فيوضاته الربانية، فصعب عليه أداء وظيفة الإعادة، فذكر ذلك لسيدنا الشيخ اسماعيل فأخبر حضرة مولانا به، فقال له: ليتأخر عن قبالة وجهي قليلاً برهة أيام، فإنه لم يطق ذلك، ففعل نحو ثلاثة أيام، ثم عاد إلى تلقائه، وقد بلغ أشده، وقدر على تحمل أنواره الذاتية، وتجلياته الأحدية بهمة حضرة مولانا رضي الله عنه.

وقرر يوماً قول الخطيب الشربيني[1] ـ قدس الله سره ـ في مسألة فقهية، فقال له الجد الأمجد نوّر الله ضريحه: أظن أن ما ذهب إليه الخطيب غير ما ذكرتم، فقال له: عليك بالنص، قال: فأتيت إلى منزلي، فوجدت أن قول الخطيب عين ما ذكره حضرة الشيخ، والذي في حفظي هو لأحد محشي الخطيب العلامة المدابغي[2]، فلما كان وقت الضحى أخذت الحاشية، وذهبت إليه لأناوله الكراسة، فقبض على وجه الملاطفة بيده الشريفة على لحيتي، فاغتنمت قرب يده من فمي، فجعلت أقبلها إذ كان لا يمكن أحداً من تقبيلها، فورد عليّ حال عجيب من ذلك فأطلقني، وقد بقيت غائباً سحابة النهار.

وكان قدس الله سره العزيز يأمره أن لا يخرج من جامع المرادية، فلم يعص له أمراً، فصار بما ذكر محسود أقرانه، مغبوط إخوانه، منظوراً بعين التوقير بين كافة الخلفاء، محبوباً لهم لا سيما عند قدوة المرشدين سيدنا الشيخ اسماعيل الأناراني قدس الله سره.

وما فتيء كذلك حتى استشهد حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ في

---

(١) محمد بن أحمد (٠٠٠ ـ ٩٧٧هـ) الشربيني، القاهري، الشافعي، المعروف بالخطيب الشربيني: فقيه، مفسر، متكلم، نحوي، صرفي. «معجم المؤلفين» (٨/ ٢٦٩).

(٢) حسن بن علي بن أحمد (٠٠٠ ـ ١١٧٠ هـ) الشافعي، الأزهري، الشهير بالمدابغي: عالم، مشارك في أنواع من العلوم له مصنفات كثيرة. «معجم المؤلفين» (٣/ ٢٤٨).

الطاعون وهو راض عنه، ثم جلس سيدنا الشيخ اسماعيل المشار إليه في منصب الإرشاد، فلازم رحابه ملازمة تامة، وخدمه خدمة كاملة، واغتنم بركة أنظاره، وفيوضات أسراره إلى أن استشهد بعد حضرة مولانا بسبعة عشر يوماً، وقد أوصى له بثلث ماله بالغاً ما بلغ، وقال ما أليقه بأن يكون شيخ السجادة من بعدي.

ثم لما عهد سيدنا الشيخ اسماعيل إلى مولانا الشيخ عبدالله الهروي بالخلافة العامة، قام سيدي الجد الأمجد بواجب صحبته، وإخلاص طاعته، واستجلاب رضاه ومحبته، مع قيامه بإقامة الأذكار الخواجكانية في جامعة المذكور.

ترتيب عادته في أمور عبادته

وقد رتب ـ قدس الله سره ـ العبادات في جميع الأوقات أحسن ترتيب، فكان يقوم الليل على وجه السنة المطهرة، فإذا كان وقت السحر تلا الذكر الخواجكاني مع أصحابه إلى أذان الفجر، فيصلي بالناس، ثم يجلس معهم فيقرأ القرآن إلى الإشراق، فيركع سبحة الإشراق، ثم يعيد ذكر الخواجكان، فإذا انقضى يدخل حجرته فيقرأ للطلبة درساً أو درسين من فقه الإمام الشافعي، أو حديث رسول الله ﷺ، أو غيره من فنون العلوم الشرعية إلى الضحى، ثم يأتي إلى منزله فيقيل، ثم يصلي سبحة الضحى في الجامع حتى إذا أذن الظهر صلى بالناس، ودخل حجرته إما لقراءة درس، أو لذكر وفكر إلى العصر، فيصلي الفريضة بالناس، ثم يتلو الذكر الشريف، فإذا قضي رجع إلى منزله، فتناول ما تيسر من الطعام، ثم رجع إلى حجرته واشتغل بذكره، أو مراقبته، أو مطالعة دروسه إلى المغرب، فإذا صلى بالناس، وأتم سننه تلا الذكر المبارك، ثم جلس يقرأ درس تفسير كلام الله المجيد إلى العشاء، فبعد صلاتها يرجع إلى داره، وكثيراً ما كان يهجر فراشه، ويبقى في المسجد تنشيطاً للإخوان على قيام الليل، فيقوم إلى السحر وهكذا، ثم ليلة الثلاثاء وصبيحتها، وليلة الجمعة

وصبيحتها، وعقب صلاة الجمعة يتوجه للإخوان. ولم يزل ولله الحمد هذا الترتيب في هذا الجامع ببركته منذ وضعه عام اثنين وأربعين ومائتين إلى يومنا هذا، عام خمسة وثلثمائة، ولا يزال إن شاء الله تعالى على هذا الوجه بحوله تعالى وطوله، وبتوجهات أنفاسه قدس الله سره، فكثرت جمعيته، وعظمت كلمته، وابتهج به المريدون مع مثابرته على مراجعة حضرة القائمقام الثاني: الشيخ عبد الله الهروي ـ قدس الله سره ـ في أموره كلها. وكان يذهب إلى دار خاتمة المحدثين: الشيخ عبد الرحمن الكزبري نوّر الله مرقده حتى تلقى الكتب الستة عنه، والشفاء، وغير ذلك، فكان بركة ذلك المجلس، وتاج افتخاره، وزينة أهله.

ثم إن الشيخ عبدالله المشار إليه سافر صحبة حرم حضرة مولانا أم المريدين، ونجل مولانا الشيخ محمد نجم الدين إلى سليمانية الأكراد، وبقي سيدي الجد في دمشق الشام على أتم نظام، مثابراً على أوراده، وحافظاً مسند إرشاده، في المركز الذي أقامه فيه حضرة مولانا قدس الله سره، لم ينله من أحد إلا ما يسرُّه، وبعد حضورهم من بغداد، وكانت مدة إقامتهم هنالك نحو أربع سنوات، مرض الشيخ عبد الله قدس الله سره، وكان وقتئذٍ مقيماً في مشهد رأس سيد الشهداء سيدنا الحسين من الجامع الأموي، فاجتمع إليه خلفاء حضرة مولانا يسألونه أن يعين من يخلفه، ويقوم مقامه في منصب المشيخة العامة في الطريقة العلية الخالدية، كما عينه الخليفة الأول سيدنا الشيخ اسماعيل قدس الله سره، فقال لهم: إني لم أرَ أحسن حالاً، ولا أكمل استقامة، ولا أليق لهذا الأمر من الشيخ محمد الخاني، فإنه ممن حافظ على أصول الإرشاد، وقد توفي حضرة مولانا وهو عنه راض، فارجعوا بعدي إليه.

فلما انتقل قدس الله سره نهض سيدي الجد بأعباء الخلافة من بعده، وعكف على نشر أعلام الطريقة العلية بتربية المريدين، وإرشاد السالكين، وإرسال الخلفاء إلى الأطراف، ومراجعة الخلفاء له من كافة الأقطار في جميع

أمورها، وهرعت إليه الناس من كل جانب يستمدون بركاته، وتوجهات فيوضاته، فبقي الأمر على ما كان عليه.

ثم خرج سنة خمس وأربعين مع والدته العزيزة حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة مقام فخر الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، فأتما نسكهما وعادا إلى دمشق الشام بسعي مشكور، وعمل في سِفْر القبول مذكور، وفي هذا العام ألف رسالة «كشف اللثام عن قول من حرّم الحج إلى بيت الله الحرام»، وهي رسالة نفيسة لم ينسج على منوالها تثبت قوّة اطلاعه على العلوم، وطول باعه في أغمض الفهوم، وأنفذ آراء العلماء، جزاه الله خير الجزاء، رداً لاعتراض بعض الإخوان، المتمسكين بقول الشيخ علوان: إن الحج حرام في هذا الزمان، ولذلك أسقط كتاب الحج من تأليفه «مصباح الهداية» في فقه إمامنا الشافعي رضي الله عنه.

ثم سنة إحدى وخمسين ارتحلت والدته المصونة إلى عليين، فحزن لفراقها حزناً عظيماً حيث كانت كما تقدم من التقوى والعبادة بمكان كريم.

ولما بلغ نجل حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ الشيخ نجم الدين سن التمييز صرف الهمة التامة لتربيته وتعليمه القراءة، فكان يحضر كل يوم إلى مدرسة حضرة مولانا لذلك، ويتلو الورد الخواجكاني ثَمَّ مع الإخوان، وفاء بوصية حضرة الشيخ حيث قال: وأحب أن لا ينقطع ختم الخواجكان من مدرسة داري.

وفي عام ثلاثة وخمسين ألّف الرسالة الجليلة ذات الفوائد العميمة، والفضائل الفريدة التي سماها «البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية»، وهو تأليف شريف لم يسبق إليه في بابه، فإني اطلعت على تأليف أكثر علماء الخلفاء في هذا الشأن، فلم أجد له نظيراً، وقد ألهم الله تعالى كريم الوزراء، ووزير الكرماء: الحاج أحمد طلعت باشا أحد أركان الدولة المصرية، ومخلصي هذه الطريقة العلية، فطبعه سنة ثلاث وثلثمائة في القاهرة فعم نفعه، وكثر وجوده، وسهل حصوله، حتى انتشر في كافة البلاد الإسلامية جزاه الله

خير الجزاء، وقد قرّظت ذلك السفر وقتئذٍ فقلت:

فريق الطريق الخالدي لك البشرى فقد كملت بالطبع بهجته نشراً
كتاب على شمس العلوم محمد لقد أنزلت بالحق آياته الكبرى
ففصل ما قد أجمل القوم أمره فما أجمل التفصيل إذْ أوضح الأمرا
جزى الله هذا الحبر خير جزائه وأجرى له من بحر إحسانه أجرا
فقد كان في جيد المعارف عقده وفي دولة الإرشاد بين الورى صدراً
رقى ما رقى بالصدق من رتب العلا إلى أن غدا شمس الهدى وبدا بدرا
فكم صرف الآنات في كل طاعة فآونة ذكراً وآونة فكراً
وكم فاز من إرشاده كل سالك بما جعل السرّ الخفي له جهرا
وأسرى بأسرار الغيوب لقلبه ولم يبق أمراً في سريرته أمراً
له النظر الإكسير في كل طالب به يقلب الشر المحيط به خيرا
ويقدر أطوار المريدين قدرها فيفنى به طوراً ويبقى به طوراً
إلى هيبةٍ في هيئةٍ نبوية إذا ما تراه تذكر الله مضطرا
وتقبل مجبوراً لتقبيل كفه ولم تستطع عن حسن توقيره صبرا
إذا ما نهى الطلاب أو أرشد النهى فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرا
كراماته في كل قطر كأنها شموس وإكراماته تخجل القطرا
وأوصافه كالزهر نوراً وكثرة وذلك بالإنصاف لا يقبل الحصرا
خؤوف من المولى رؤوف على الورى عزوف عن الدنيا عكوف على الأخرى
قويّ على التقوى غني عن السوى خلي من الدعوى وليّ ولا نكرا
ويصبر للبلوى ويغفر للأذى ويشكر إن أقوى ويؤثر إن أثرى
تبارك من قد خصه بخصائص من الفضل جلت أن أحيط بها خبرا
فيا كعبة الأحبار بيت قصيدها ويا قطب أفلاك الولاية والذكرى
لك الله من برّ ببحر علومه وإمداده قد أخجل البرّ والبحرا
خلفت ضياء الدين حضرة خالد وعززت من أحيا طريقته الغرا
وأصبحت في أوج الهداية حائزاً مقامات عرفان لقد عظمت قدرا

جمالك في جمع الجلال محجب ... وصحوك بالفرقان لا يعرف السكرا
ورُبَّ قلوب بانكسار توجهت ... إليك فنالت منك ما يجبر الكسرا
تطهر يا مهدي الزمان اعتقادها ... فتملؤها عدلاً وقد ملئت جورا
وتجذب سراً كل نفس أبية ... بأنفاسك العليا التي قدست سرا
سأنظم ما يعنو له كل شاعر ... بمدحة من لولاه لا أنظم الشعرا
وأثني على إحسانه كل لحظة ... بأثنية تستغرق النظم والنثرا
فشكر أياديه الحميدة واجب ... وهل هو لا يستوجب الحمد والشكرا
وقد عمنا رشداً وعمَّرنا هدى ... وأغلى لنا قدراً وأعلى لنا ذكرا
وخص الطريق الخالديّ ببهجة ... تُعَلِّم آداب الطريقة والمسرى
فأعظم به خيراً تضاعف أجره ... وقيد في سفر القبول له ذخرا
وأحمد مسعى طلعة الوزراء مَنْ ... هو البحر مدّ بالمكارم لا جزرا
فقد جاد طبعاً حيث جاد بطبعه ... وبدّل بعد العسر في نشره يسرا
رعى الله في مصر وجود سعوده ... وعمر بالذكرى الحميد له العمرا
على روضة من جنة المنتهى ثوى ... مؤلفها في ظلها رحمة تترى
فطوبى له من مرشد طالما به ... غلبنا العدا حتى بلغنا المدى نصرا
بمثل هداه قدس الله سره ... فريق الطريق الخالدي لك البشرى

ثم إنه ـ قدس الله سره ـ ذهب إلى الديار الحجازية سنة تسع وخمسين، في معية أم المريدين، حرم حضرة مولانا قدس الله سره العزيز، فأدى حق الخدمة، وصدق الهمة، وقام بوظائف قدرها، وترفيع شأنها، ثم قضى نسكه، ووفو أعمال حجة وعمره، وعاد إلى دمشق الشام مقبول الأعمال، موصول الآمال، فعكف على القيام بسالف عباداته، وترتيب عاداته: من نشر العلوم، وإحياء الطريق، وبث الإرشاد غرباً وشرقاً، فزاد ظهور فضله، وتلألأ كواكب هدايته، وبعد صيته، وتوجهت إلى كعبة إمداده الوجوه، وخضعت له الوزراء والأمراء، وأذعنت بكماله الفضلاء والعلماء، وهو يغيث الطالبين، ويرشد المسترشدين، حتى إذا كان عام اثنين وستين خرج قاصداً حج البيت العتيق، وتلك المشاعر

الحرمية، ومعه سيدي الوالد الماجد، وجمع عظيم من أصحابه، وكان أمير الركب الشامي عامئذٍ أعظم وزراء الدولة العثمانية، والي دمشق الشام الصالح الهمام: الحاج موسى صنفوتي باشا رحمه الله تعالى، وكان من الإخلاص لسادات هذه الطريقة العلية بمكان مكين، فقام بفريضة خدمته، وواجب شأنه، ورعاية مقامه بنفسه وماله ورجاله، بحيث لا يتصور ما أجراه من فرط إكرامه، ومحض إخلاصه في تعظيمه وإجلاله، والوقوف عند إشارته، وامتثال أوامره ونواهيه، فأدوا جميع مناسكهم، وعادوا إلى مساكنهم على راحة الراحة، وكرامة السلامة، غانمي الأجور، والعمل المبرور، فانظر في هذه الحادثة بعين الاعتبار، فإن الجد الأمجد ـ قدس الله سره ـ لما صدق في خدمة حرم حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ في ذهابهم إلى البيت الحرام، حرمة لمقام مرشده المكرم ـ أعاد الله علينا من بركاته ـ سخر الله له هذا الوزير، فخدمه جزاء إخلاصه في أعماله أعظم خدمة. مَن خَدم خُدم. ولله در العارف الكبير سيدنا الشيخ مصطفى البكري المصري حيث قال:

عبيدٌ ولكنَّ الملوك عبيدهم وعبدهم أضحى له الكون خادماً

ثم ذهب عام ستة وستين إلى المسجد الأقصى براً، ومشى في ركابه جمع عظيم من أتباعه ومريديه، فلما وصل إلى مدينة صفد استقبله خليفته بها العالم الفاضل، والمرشد الكامل: الشيخ محمد حديد الصفدي في جمهور أهلها بحيث لم يتخلف أحد عن استقباله، فخيم فيها أياماً، ثم قصد نابلس، فيافا، فالقدس الشريف، فلما أدرك مرامه من الزيارة، والتبرك بتلك الأماكن المقدسة، توجه إلى مدينة جد الأنبياء ابراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، فزار واستقصى، ثم عاد إلى الأوطان نائلاً أقصى الأوطار، فاستقبله وجوه جلق، وأعيانها، ورؤساؤها وصدورها، وأقبل كافة أهلها للسلام عليه، والتماس بركة دعائه، فقابل كلا بما يليق به من الالتفات، والاحتفاء، والاحتفال.

ثم طفق عوداً على بدء يقيم وظائف أذكاره، ورواتب إرشاده، والناس تفد إليه، والأرواح تحج بيته المقدس من كل وجه، فتنال من تزكية وتقديس،

ووصول إلى الله تعالى بأقرب آن، وتوارد تجليات إحسانية، وترادف أنوار إلهية، ما لا يحيط به فكر، ولا يدركه خاطر.

ثم لما كان سنة سبعين عزم على الذهاب إلى القسطنطينية العلية، تنشيطاً للإخوان، وترغيباً للمريدين، وترويحاً لشرف الطريقة العلية، وإجابة لدعوة الوزير المشار إليه آنفاً الحاج موسى صفوتي باشا، فلما خرج من داره وجد أكثر أصحابه ينتظرونه للوداع، فمشوا في خدمته إلى ظاهر البلدة، فبدأ يعيدهم، فمنهم من رجع، ومنهم من لم يرجع، فما زال بهم حتى رجعهم عن آخرهم، وسار، فلما وصل إلى بيروت استقبله أمراؤها، وعلماؤها، وتجارها، وعظماؤها، ونزل ضيفاً كريماً عند أحد ساداتها السيد عبد الفتاح حماده الاسكندراني، فما بقي أحد من أهلها المعول عليهم إلا وتشرف بزيارته، وتحصيل بركته، ومجاب دعوته. ريثما حضرت السفينة، فركب فيها ومعه سيدي الوالد الماجد، وجملة من أتباعه، فنزل معه إلى السفينة دفتردارها وقتئذٍ، وعامة كبرائها، فودعوه بها واستودعوه الله تعالى، فلما وصلت السفينة إلى ساحل القسطنطينية استقبله الوزير المومى إليه، وأنزله أعلى منزلة، وبالغ بتعظيمه، وترقية أحواله، وترفيع قدره وشأنه، وجعلت المريدون والمخلصون يقصدون التشرف بلثم أنامله أفواجاً أفواجاً، لا سيما وكلاؤها العظام، ووزرائها الفخام.

وأما علماؤها الأعلام، فقد بلغوا بالسرور بتوجهاته، والحضور كل يوم إلى استمداد أنوار فيوضاته، الغاية التي لا توصف بلسان، ولا يفي ببيانها بنان، فنظر في أحوال الخلفاء والمريدين، ونصح الواعظين، ووعظ الناصحين، وأرشد المرشدين، وأفاد الوافدين، كل ذلك وهو لم يخرج من دار الوزير المنوه به إلا إلى زيارة الصحابي الجليل سيدنا ومولانا: أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري[1] رضي الله عنه، ولصلاة الجمعة في مسجد قرب الدار.

---

(١) أبو أيوب الأنصاري: خالد بن زيد بن كليب (٠٠٠-٥٢ هـ) صحابي، رحل إلى الشام، صحب يزيد بن معاوية في غزوة القسطنطينية، ودفن في أصل حصن القسطنطينية. له (١٥٥) حديثاً. «الأعلام بتصرف». (٢/ ٢٩٥).

ورأى ـ قدس الله سره ـ ساكن الجنان: السلطان الغازي عبد المجيد خان، أحلم ملوك بني عثمان، مرة وهو ذاهب لسماع قصة المولد النبوي في المسجد، فحصل له حال عظيم، وبكى بكاء شديداً، فعجب الحاضرون من ذلك لما يعهدونه من كمال أحواله، وأحوال كماله، ورسوخ قدمه في مقام التمكين، ولم يقدم أحد على سؤاله، فقال لهم من باب الكشف عن الخواطر: إني لما وقع بصري على عظم مظهريته حصل لي ما حصل، يريد ـ قدس الله سره ـ بذلك الكلام الإشارة إلى قاعدة عظيمة عند السادة الصوفية، وهي أن العالم كله مظاهر للحق تعالى، وهو الظاهر في كلٍ على حسب استعداده، ولا يخفى أن ظهور الحق تعالى في السلطان، أقوى من ظهوره في غيره، فرأى الشيخ ـ نور الله مرقده ـ ظهور الحق تعالى في السلطان على قدر استعداده، وهذا منه ـ نفعنا الله به ـ غاية في قوة الباطن، وعلوّ الهمة، ونفوذ البصر، كما يعلمه أرباب هذا الشأن.

ذكر: أن أحد أولياء الله تعالى كان يدخل بالخصوص عند الحكام[1] ويلمس بيده عليهم، ويمسح بها وجهه، فقيل له في ذلك، فقال: تجليات الحق تعالى عليهم أقوى التجليات.

ثم انقلب قدس الله روحه بعد أربعة أشهر إلى أهله مسروراً، وقد ملأ الآستانة بهجة ونوراً، وقد كان عامئذٍ بين الدولة العلية العثمانية، والدولة الروسية حرب عظيمة، كان ببركة أدعيته المجابة النصر فيها للخلافة الإسلامية، والعلم المحمدي المطهر، فلما دخل دمشق الشام قوبل بأنواع الإجلال، ووجوه الإقبال، ثم عمد إلى ما عهد من فضائل أعماله، وعام إرشاده، ونشر

---

(١) قوله (عند الحكام): الحاكم إن كان ظالماً جائراً فهو مظهر الانتقام الإلهي من الظلمة أمثاله قال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾. وفي الحديث: «الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به ممن يشاء من خلقه ثم ينتقم منه». فعلى هذا لا يصح حمل حال هذا الولي على أنه كان يدخل على الظلمة منهم فيتمسح بهم، بل على مظاهر العدل والرحمة، وإلا فهو حال خاص به لا يقتدى به فيه (ع).

فنون العلوم إلى سنة أربع وسبعين، فعزم على الحج الشريف، ومعه سيدي الوالد الماجد، والعم المحترم الشيخ أحمد أفندي، ونفر من أتباعه، وكان أمين صرة الركب الشامي عامئذٍ أخو الوزير المشار إليه سابقاً: الشهم الوقور الحاج مصطفى أفندي رحمه الله، فخدمه أعظم خدمة، وبذل في القيام بواجب قدره غاية الهمة، وأنفق عليه وعلى أتباعه أموالاً جمة، ولم يزل يزداد في تعظيمه، وإعلاء شأنه، وأداء فريضة خدمته بنفسه، وأمواله ورجاله، حتى أدى حجه على أسنى الأحوال، وعاد على هذا المنوال، فخرج لاستقباله من أهل دمشق من لا يحصون عدداً، وربما لم يتخلف أحد أبداً، وأقبلوا للسلام عليه، وتقديم المباركة بالسلامة إليه، فقابلهم بما يستحقونه من الاعتناء، والاستغفار، والدعاء، ثم التفت لما ثبت عليه من إفادة العلم، وإشادة الطريق، وحفظ مركز خلافته العامة إلى سنة ست وسبعين، فوقعت في الشام حادثة المسلمين مع النصارى، إذ قتل المسلمون منهم عدداً وافراً، وخربوا مساكنهم، وأحرقوا محلتهم، ونهبوا أمتعتهم، وهتكوا حرمتهم، فأقدم ساكن الجنان السلطان الغازي: عبد المجيد خان أحد وزرائه محمد فؤاد باشا إلى الديار الشامية، فأدب أهلها بأنواع التأديب، قتل واليها مشير المعسكر الخامس أحمد باشا بالرصاص، ونفى لفيف أعيانها وعلمائها، وخنق أكثر معتبريها، وأدخل شبانها في سلك الخدمة العسكرية، وضرب على الناس ضرائب من الأموال شاقة، عامة وخاصة، كل ذلك ولم ينل حضرة الجد الأمجد، ومن يلوذ به أدنى مساءة، بل استثناه نصاً من كافة ذلك، وهذا كله كما سمعته منه غير مرة ببركة أنفاس أهل هذه الطريقة العلية، وبصدق قدمه، وقدم صدقه في خدمة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة: ١٥٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «احفظ الله يحفظك»[(١)]، ولم يزل يزداد سمواً ومجداً، ويضيء إرشاداً ونفعاً كالشمس في الضحى، والبدر في الدجى، حتى خرج يوم الخميس قبل وفاته بأحد عشر يوماً مع بعض إخوانه إلى بستانه على عادته

---

(١) حديث «احفظ الله يحفظك»: أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح.

الكريمة، من تركه قراءة الدروس يومئذٍ، وسبب خروجه أنه كان يقرأ في كتاب الجنائز من شرح «المنهج» للقاضي زكريا الأنصاري[1] قدّس سره في فقه إمامنا الشافعي رضي الله عنه، وكان يغلب عليه البكاء وقت القراءة إلى أن أتمه، فأحب قدّس الله سره ترويحاً لإخوانه أن يتنزهوا في مكانه، فما زالوا في سرور، وانشراح صدور إلى وقت العصر، فأحس - قدّس الله سره - بانحراف في صحته بحيث أعرضت نفسه الزكية عن تناول العشاء، ثم نزل إلى منزله مساء، فلبث يتوعك نحو ثلاثة أيام، ثم انقلب مرضه إلى حمى معوية قوية، فهنالك أوصى، وأمر ونهى، واستقصى، ولم يزل المرض يشتد ويقوى حتى أتم أنفاسه الطاهرة سحر يوم الإثنين، تاسع عشري صفر الخير، سنة تسع وسبعين ومائتين وألف، فلما آن إبهار النهار غسل بالأنوار، وكفن في الأسرار، وحضر غسله علامة العصر، وبركة المصر: شيخنا الشيخ محمد الطندتائي الأزهري أطال الله بقاه، ورفع على أنامل الأفاضل ضحى إلى جامع يلبغا، وقد اجتمع لتشييع جنازته، والصلاة عليه الخاص والعام من أهل الشام، فأذن سيدي الوالد الماجد لشيخنا المشار إليه، فصلى عليه، ثم ساروا به، وقد قال: لسان الحال: قوموا انظروا كيف تسير الجبال، حتى إذا وصلوا إلى تربة حضرة مولانا خالد - قدّس الله سره العزيز - دفنوه حذاء ضريح القائمقام الثاني سيدنا الشيخ: عبد الله الهروي قدّس سره، فتجد ترتيب محلاتهم كترتيب مقاماتهم في حياتهم، وقد لقنه شيخنا المنوه به، فشكر له القوم ثبات جأشه في ذلك اليوم.

ثم رجعوا وقد فاضت بالبكاء عليه من العيون عيون، وشقت لمشقة فقده من القلوب جيوب، ولبس الإرشاد ثوب الحداد، ولطم العلم وَجهه في كل وِجهه، وضرب الزمان صدره لفقد عقده النظيم، وحل بالمسلمين بلاء عظيم،

---

(١) زكريا بن محمد بن أحمد (٨٢٣ - ٩٢٦ هـ) الأنصاري، المصري، الشافعي: شيخ الإسلام. قاض. مفسر. من حفاظ الحديث. ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة، وكف بصره سنة (٩٠٦ هـ). نشأ فقيراً معدماً. ولاه السلطان قايتباي الجركسي قضاء القضاة ثم عزله. فعاد إلى اشتغاله بالعلم إلى أن توفي. «الأعلام» (٣/٤٦).

واضطربوا اضطراباً عديداً، وزلزلوا زلزالاً شديداً، إذ علموا أن موت العالم ثلمة في الدين، فما بالك بموت إمام المرشدين، وعلامة المسلمين. كما قلت في هذا المقام مؤرخاً وفاته ذلك العام:

هلم خليلي نندب الجد سيدي ... محمداً الخاني علامة الملا
لعمرك ما فقد الملوك وملكها ... بلاء ولا الأموال والأهل والعلا
ولكن إذا أنصفت قلت مؤرخاً ... وفاة إمام المرشدين هو البلا
سنة ١٢٧٩

فإنه من المشهور عند الخاص والعام، أنه قدس الله سره كان من أولياء الله الكرام، والعيان برهان جليل.

وكيف يقر في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وقد جمع الله له ثلاث شهادات: الحمى، والغربة، وطلب العلم. وإليه أشرت في المرثية الآتية: أعدَّ له الله إلخ. وقد رثاه غير واحد من فضلاء الشعراء، وشعراء الفضلاء، فأحببت أن أتشبه بهم في خدمة مقامه العزيز فقلت:

متى يسعف الصبر الجميل ويسعد ... وحزن على حزن يقيم ويقعد
أثار بقلبي ما أثار من الجوى ... فنيرانه بين الجوانح توقد
ورزء يذوب الصخر من صدماته ... ويرجف قاف منه والبحر يجمد
فكم أورث الألباب بحران دهشته ... إلى أن غدت في صدقه تتردد
وشق قلوباً لا جيوباً مشقة ... ومزق أكباداً له تتكبد
وأرسل من أهواله سحب عبرة ... بلا فترة بل حين تصدر تورد
على فقد جدٍ طالما جَدَّ في العلا ... وأصبح للدين الحنيف يجدّد
على العلم والإرشاد والزهد والتقى ... على الجود والإمداد والخير يفقد
على الأمر بالمعروف والنهي زاجراً ... عن المنكر المطلوب فيه التقيد
على بحر عرفان موارده صفت ... لكل مريد فيه لله مورد
على شمس أسرارٍ تضيء هداية ... وتحيي الطريق المجتبى وتؤيد

على صائم الأيام وهي هواجر … يجاهد في الله ولله يجهد
على قائم الليلات وهي دياجر … يقسمها ذكراً وفكراً ويسجد
على مرشد يهدي إلى الحق نوره … فمن جاءه يسعى فبالله يسعد
على وارث القطب المعظم خالد … بصدق له الذكر الجميل يخلد
فمَنْ لدروس العلم يحيي دروسها … بتحريرِ تقريرٍ يحل ويعقد
ومن لعلوم القوم يظهر سرها … بذوق له العلم اللدني مسند
ومن للطريق الخالدية بعده … يشيد من أركانها ما يشيد
فيا طالما أحيا مآثر قطبه … وآثاره الكبرى بذلك تشهد
وعزّز مَنْ قاموا بحق مقامه … فكانت بهم تحمى الطريق وتحمد
كواكب إرشاد أضاءت على الورى … إذا غاب منهم مرشد لاح مرشد
هم الشيخ اسماعيل قدّس سره … وحضرة عبدالله والجد الامجد
محمد الخانيّ والمظهرِ الذي … له في مقامات الولاية مشهد
له العلم في هُلْك الطريق وملكه … وما يصلح الأحوال فيه ويفسد
تفرد عن أقرانه بمناقب … كبار وهمُ الأولياء التفرد
فقد كان في علم الحقيقة مفرداً … كما هو في علم الشريعة مفرد
فطوبى له من عارف جد عارف … إلى الله يهدي السالكين ويرشد
له مسجد بالذكر والفكر عامر … وقوم كرام رُكّع فيه سُجّد
له الجود والإيثار والزهد والتقى … له الورع الأولى به والتجرد
صبور على التقوى غفورٌ لمن أسا … شكورٌ إذا أقوى وقور ممجد
تقلد في الإرشاد أكبر منصب … بهمته الكبرى التي لا تقلد
كراماته في كل ملك شهيرة … وخيراته في كل وقت تجدد
بديع بيان في حديثِ تصوفٍ … بتفسير فقه نحوه الحق يقصد
وبهجته أسنى كتاب مؤدب … فآياته تتلى لنا وتجوّد
ولا عيب فيه غير أن وجوده … عزيز فمن أمثاله ليس يوجد
أعدّ له الله مقام شهوده … جزاء شهادات له تتعدد
وأحيا الليالي ساهد الطرف ساجداً … فأضحى له درا النعيم تمهد

بنفسي أفدي فرقداً حل مرقدا وأعظمْ به من مرقد فيه فرقد
عجبت لقوم وسدوه بلحده وما فتتت منهم قلوب وأكبد
وأعجب منه أن بحراً يقله سرير ويحويه من الأرض مرقد
علوم وعرفان وزهد ورحمة وجود وإرشاد وتقوى وسؤدد
فيا ليتني ما ذقت صاب مصابه ولا كان لي في عالم الكون مولد
عليه من الله تحية رحمة وهتّان رضوان وعفو مسرمد
ومني له حسن الثناء لأنه هو السيد المنشي الفخار المشيد
فلا أثمرت في روض طرسي يراعه براعة لفظ كاللآلي ينضد
إذا كنت لا أبكي دماً لفراقه وأندبه ما زلت أنشي وأنشد
وأشكره ما دمت حياً لعلني أكافي أياديه الكبار وأحمد
وأنى لذهني ان يكافيء فضله وإن عليه كل آن له يد
عهدت إليه أن يجيد رثاءه وعهدي به عند المهمات ينجد
فحال الجريض اليوم دون قريضه لعمرك إن الحزن للذهن يخمد
فصادمت أحزاني وقلت مؤرخاً توفي حصن الأتقياء محمد ١٢٧٩
وإلا فما دام المصاب مصاحبي متى يسعف الصبر الجميل ويسعد

ومن غريب الاتفاق أني حسبت (توفي محمد الخاني) فوجدت عدد كلماته تاريخاً لوفاته لكن بإسقاط ألف الوصل التي في لفظة الخاني، جرياً على إحدى قاعدتي حساب التاريخ في الجُمَّل، وهي:

أن يحسب ما يلفظ به ويحفظ عادة لا ما يكتب.

والثانية أن يحسب ما يكتب. كما أشار إليه الشيخ عبد الغني النابلسي قدّس سره في شرح «بديعيته».

وبالجملة فقد كان الجد الأمجد ـ قدّس الله سره ـ آية في كل فضل، ورعاً زاهداً، ذاكراً مجاهداً، كثير العبادات والرياضات الشاقات، وأغلب رياضاته في مقام حضرة مولانا قدّس سره العزيز، وكان يغتذي فيهن كل يوم بماء إحدى وعشرين زبيبة، وربما وضع معهن نحو ثلاث حبات من مشمش، ولم يترك

الرياضة في كل رمضان، وعشر ذي الحجة حتى توفي قدّس الله سره.

وكان مشغوفاً بمطالعة كتب السادة الصوفية، خصوصاً «الفتوحات المكية»، و«تائية» العارف الكبير الشيخ عمر بن الفارض قدّس الله سره العزيز وشروحها، فلما خرج إلى منتزه إلا وكان معه من كتب القوم ما يصرف بقراءته بياض نهاره، لا سيما كلام العارف الشعراني قدّس الله سره العزيز.

وكان كثيراً ما يحب لبس العباءة، والاكتساب من الزراعة، ويقول: هي إلى الحل أقرب، وبالتوكل أنسب.

وقد رزقه الله القبول في الأرض، والجاه العريض، والكلمة النافذة عند الحكام مع كثرة اجتنابه لهم، وكثيراً ما كانوا يأتون لزيارته، والتبرك به، وأخذ الطريق العلي عنه.

وكان شجاعاً فارساً يحب ركوب الخيل النفيسة، نزيه النفس، زكي الأنفاس، مجاب الدعوة، يقصد بركته كافة أرباب الأسقام المعضلة، فيعافيهم الله ببركة دعائه المطهر.

وكان ـ قدّس الله سره ـ ذا هيبة ووقار، وهيئة محمدية الذات، والصفات والأنوار، جلاه تغني عن إثبات علاه، فإنه كان كما قال رسول الله ﷺ في وصف الأولياء من: «الذين إذا رؤوا ذكر الله»(١).

وكان ـ قدّس الله سره ـ يحب الفقراء والمساكين، ولا سيما المجاذيب، فإنه كان يألفهم جداً، وهم كانوا يحبونه أيضاً، ويترددون إليه، ويتحمل منهم مشاق عظيمة.

وكان ـ قدس الله سره ـ له قوة عظيمة في إلقاء الجذبة، والتصرف في أحوال المريد، وله شفقة تامة على أصحابه، وربما هجر فراشه وبات في المسجد تنشيطاً لإخوانه على قيام الليل.

---

(١) حديث «إذا رؤوا ذكر الله»: أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٥٩). وابن ماجه (٤١١٩) وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (رقم ١٥ ـ ١٦). وغيرهم. وهو حديث صحيح له طرق عدة.

وكان ـ قدّس الله سره ـ حسن الأخلاق، يعفو عمن ظلمه لا عن عجز، صبوراً على اللأواء[1]، كريم الطبع، غزير الدمع، كثير الأحزان، متمسكاً بالسنة السنية في أحواله كلها، آخذاً في أموره بالعزائم، معرضاً عن الرخص، وكل ما لا يلائم، يعمر مجلسه بالمذاكرة في المسائل العلمية، أو مناقب الصالحين، أو أحوال الطريقة العلية، لا يستطيع أحد أن يمكن بصره منه من فرط جلالته، ولا أن يذكر عنده شيأ من أمور الدنيا، نصوحاً للمسلمين، آمر بالمعروف، ناهياً عن المنكر بالوجه اللائق. ومن نصائحه: لا تغتر بولاية الأعاجم، ولا بصحبة أهل الشام.

وله ـ قدّس الله سره ـ فضائل شهيرة، وآثار كثيرة، ولولا استغراقه بمحبة الذكر، وصرف وقته إلى المراقبة والفكر، لكان على ما لَهُ من علو الهمة، والاطلاع على العلوم المهمة، ألف تآليف جمة، ينتفع بها عامة الأمة.

وله ـ قدّس الله سره ـ كرامات كبار، وكشف كالشمس في رابعة النهار، فمن ذلك ما ذكره بعض جيرانه: أنه أتى بمومسة ليلة إلى داره، وكانت خالية، فأوقد المصباح لها، ثم خرج إلى السوق لحاجة، فلما رجع دخل الدار، وكان للمكان الذي فيه المومسة شبابيك من بلور، فنظر من البلور، فرأى حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ جالساً في المخدع، ففزع أشد الفزع، ثم خرج يعدو حتى أتى المسجد، فرأى الشيخ جالساً في محله على عادته، فعاد إلى الدار فوجد الشيخ في ذلك المحل بعينه، وهكذا ثلاث مرات، فرجع عند ذلك إلى المسجد، وقبل يد الشيخ قدّس الله سره، وقد عقد في نفسه التوبة النصوح، ولم يعرج على الدار، فلما استبطأته المومسة ذهبت، فرجع بعد العشاء، فوجد منزله خالياً، فبات يشكر الله تعالى، ويستغفره حتى أصبح، ولم يعد بعد لمثلها أبداً ببركة التفات حضرة الشيخ نفعنا الله به.

ومنها: أنه جاه محمد رشيد باشا والي بغداد المشهور بكزلك باشا رحمه

---

(١) اللأواء: الشدة. «مختار» (٥٨٨).

الله تعالى إلى الشام رئيس المعسكر الخامس، وكان ممن تربى في بلاد الإفرنج، وأشرب في قلبه حبهم وكراهية الإسلام، فاتفق أنه نزل يوم عرفة إلى سوق الغنم ليشتري الأضاحي للعسكر، وهو قريب من مسجده قدّس الله سره، فلما أنْ فرغ دخل المسجد ليغسل يده من أثر مس صوف الأغنام، فلما دنا من الحوض رأى الشيخ واقفاً يتوضأ، فجعلت نفسه تأمره أن يقبل يد الشيخ، فقال لها: كيف أقبل يد مسلم، وهم أبغض الناس إليّ، فما زالت به نفسه حتى أقبل وقبل يده، فما زاد الشيخ قدس الله سره على أن وضع يده على صدره تحية له، ثم اشتغل عنه في وضوئه، فانصرف هذا الرجل، وقلبه معلق به، فذكر ذلك لمشير المعسكر المذكور محمد نامق باشا ـ وفقه الله تعالى ـ على وجه التعجب من نفسه، فقال له: ويحك! هذا الشيخ محمد الخاني، وهو من أولياء الله تعالى، وهو الذي كنت تلومني في زيارته، فقال له: بمثل هذا العزيز يفتخر الإسلام، فإني الآن ببركته قد صدقت بصحة دين الإسلام، وأحببت أهله، وأنقذني الله على يديه من النار، ثم جعل يتردد لزيارته، ويشكره على نعمة إنقاذه، ومنة إرشاده، ولم يزل يذكرها في المحافل العالية في دار السلطنة وغيرها حتى توفي عفي عنه.

ومنها، وهي مما شاهدته: أن أكبر أعمامي الشيخ أحمد أفندي ـ حفظه الله تعالى ـ كان يشكو وجود حصاة في المثاني، ويتألم عند قضاء الحاجة أشد الألم، وربما مرض منها أياماً، فأعيا الأطباء، ولم يفرج عنه شيء، فكتب له حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ تميمة، وأمر أن تجعل في إناء، ويصب فوقها ماء، ويسقى منه، فما لبث أن خرجت الحصاة مع إفراز الحاجة بقوة، بحيث لما أصابت الطست انكسرت نصفين، وبرىء من ذلك إلى يومنا هذا. ولله الحمد.

وأما كشفه فقد أخبرني سيدي الوالد الماجد أدام الله إمداده: أنه قدّس الله سره كان يخبره بالأمر قبل وقوعه، فيقع كما أخبر عيناً، وأن هذا كان دأبه في الأمور كلها، وأنه قدّس الله سره كان في الإطلاع على خواطر المريدين مرآة صقيلة يلوح فيها أدنى الخطرات كأعلاها، وأنه كان لا يسأل مريداً عن أحواله

قط، بل هو الذي يخبر المريد بأطواره، ويرقيه في معارج سلوكه، ويأمره مرة وينهاه تارة.

وأخبرني بعض أتباعه: أنه أتى لزيارة أعتابه قدّس الله سره، وشكاية مظلمة وقعت عليه، فرأى عنده وزير الشام وقتئذٍ، فلم يمكنه الوصول إليه، فلم يلبث الوزير أن ذهب، فقام حضرة الشيخ لوداعه، فخطر في بال الرجل أن الشيخ يعظم الحكام، فالتفت إليه قدس الله سره في الحال، وقال: هذا لأجلكم، فخجل الرجل أشد الخجل، وحصل له تمام الهيبة والوجل. وغير خفي أن الصبح عنوان على النهار، والطليعة تدل على الجيش، فلنكتف بهذا القدر حذر الملل.

وكان ـ قدس الله سره ـ لفرط تعظيمه لشأن الطريقة العلية، ومعرفته لعزة قدرها، ومكانة شرفها يتمنع عن الإذن بالخلافة لأحد، إلا بعد كماله، ورسوخ قدمه في معرفة السلوك، ومع ذلك فقد تربى على يديه سادة صلحاء، وقادة علماء، وجادة أتقياء، أولو إرشادة وزهادة، وفضائل وخوارق للعادة، من أجلهم:

عالم وقته، وبركة عصره، وصالح قطره، ذو الأنفاس القدسية: الشيخ يوسف أفندي رئيس الوعاظ في مسجد ايا صوفيا في دار السلطنة القسطنطينية العلية قدس الله سره، فإنه حضر عام أربعة وخمسين إلى دمشق الشام، ودخل الرياضة، وجلس بين يدي الشيخ ـ قدس الله سره ـ وخدمه، وأخلص بتسليم قلبه إليه، فلما أكمل تربيته أذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة عامة، فعاد إلى الآستانة العلية ينشر أعلام الطريق العلية، ويربي السالكين، ويرشد الطالبين، فحصل على يديه نفع عظيم، وتوفي عام نيف وستين ومائتين وألف في القسطنطينية، ودفن بها نوّر الله ضريحه.

ومنهم: نجله العالم الفاضل المربي: الحاج محمد عارف أفندي قدس سره، وفد بعد انتقال والده على رحاب حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ في دمشق الشام، وألقى إليه مقاليد التسليم التام، فأدخله الرياضة، وبالغ بتربيته

وتكميله، فلما انقضت واجبات سلوكه أذن له بالإرشاد العام، وخلفه خلافة مطلقة، وأعاده مكان والده في الآستانة العلية شيخاً لتكية صالح الوزراء العظام: الحاج موسى صفوتي باشا رحمه الله تعالى التي بناها من ماله، وشرط أن يكون شيخها نقشبندياً خالدياً، وأن لا يكون كردياً، وهي تكية عظيمة منظمة أحسن نظام، فطفق يقيم الختومات المقدسة بها، ويرشد السالكين، ويهدي المسترشدين، حتى إذا عم نفعه، وكثر سواده وجمعه، توفي ودفن حذاء والده، وكانت وفاته في بضع وسبعين قدس سره.

ومنهم: العالم الهمام والمرشد الإمام الشيخ حسن فيض الله أفندي ـ قدس سره ـ، أتى إلى أعتاب الشيخ ـ قدس الله سره ـ عام خمسة وخمسين، وسلمه زمام نفسه بكمال الإذعان والخضوع، فرباه أحسن تربية إلى أن بلغ أشده، فأذن له بالإرشاد وخلفه خلافة عامة، فقطن في الآستانة، واشتغل بالطريقة العلية، وحصل له قبول عظيم، وجمعية كلية، وخلفاء كثيرون، إلى أن توفي هنالك في حدود سنة تسعين. نوّر الله مرقده.

ومنهم: العالم الصالح، والمرشد الناصح، الشيخ محمد المهدي الداغستاني ـ قدس سره ـ جاء إلى رحابه ـ نفعنا الله به ـ عام نيف وخمسين، وأظهر فرط الإخلاص ومحض الصدق في العبودية، فأقبل بوجهه الكريم عليه وصرف همته لتربيته أحسن تربية، وأدخله الخلوة، وما زال يرقيه في مدارج الكمال حتى أتم سيره فأذن له بالإرشاد العام، وخلفه الخلافة المطلقة، فذهب إلى أوطانه. ثم بعد تغلب الروسية عليها، هاجر إلى القسطنطينية، وطفق يبث بها أنوار الأسرار، وإمداد الإرشاد، حتى حصل به النفع العام، للخاص والعام، ثم ذهب إلى المدينة المنوّرة، فلم يزل مجاوراً بها حتى لقي وجه الله تعالى. وكان عالي الهمة، شديد الورع والزهد، عرضت عليه والدة السلطان الغازي عبد المجيد خان أن تبنى له تكية، وترتب له رواتب وافرة ليدعو للسلطان، فأبى وقال: أنا أدعو له على كل حال. قدس سره.

ومنهم: العالم العلامة، والمرشد الكامل الاستقامة، الشيخ اسماعيل

أفندي البروسوي، إمام جامع السلطان في بروسه ـ قدس الله سره ـ قدم إلى دمشق، وتشرف بدخول الخلوة عنده، وفاز بخدمته، وصدق ملازمته، والتشرف بطريقته، فلم يبرح يمده بإكسير أنظاره، ويسلكه في مقامات الوصول، حتى أدرك أوج الكمال، وبلغ درجات الرجال، فأذن له بالإرشاد العام وخلفه خلافة مطلقة، فعاد إلى بروسه بعد أداء الحج الشريف، رافع ألوية الطريقة العلية، يربي المريدين، ويرشد الطالبين وقد انتفع به خلق كثير، وتكمل على يديه الجم الغفير، وفيها توفي نوّر الله مضجعه.

ومنهم: العالم العامل، والمرشد الرباني: الشيخ ابراهيم أفندي الأزرنجاني ـ قدس الله سره ـ، قصد أبوابه بعد أداء الحج سنة بضع وخمسين بهمة صادقة، وعزم مصمم، وتسليم تام، فالتفت إليه حضرة الشيخ بنفسه، وأدخله الرياضة، ورباه ورقاه، وأدبه وهذبه، حتى كمل سلوكه، وتم إرشاده، فأذن له بالإرشاد العام، وخلفه خلافة مطلقة؛ فرجع إلى أوطانه وقد بلغ جميع أوطاره، يرشد الناس، ويغيث القلوب، وينوّر السرائر، بإظهار أسرار الطريقة العلية. فانتفع به من العالم كثير، حتى توفي هنالك قدس سره.

ومنهم: الفاضل الكامل، والمرشد الواصل، والعالم العامل: الشيخ محمود البغدادي ـ قدس سره ـ، أتى إلى قبابه بعد قضاء فريضة الحج عام ثمان وخمسين بقلب سليم، وعزم قوي، ومحض تسليم، فقبله وأدخله الخلوة، واعتنى بإرشاده وتربيته بنفسه، فنال درجات الكمال في أقرب زمان، فأذن له بالإرشاد للعباد، وخلّفه خلافة مطلقة وأعاده إلى بغداد، فانتفع به من الطالبين مالا يحصون عدداً إلى أن توفي ثَمَّ. قدس سره.

ومنهم: العالم اللوذعي، والمرشد الألمعي: الشيخ إبراهيم ابن الشيخ حامد المارديني ـ قدس سره ـ، قدم والده لأداء الحج، وأتى إلى حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ عام نيف وستين، وكان والده من خلفاء الشيخ ملا خالد الجزيري، خليفة حضرة مولانا خالد قدس الله سره العزيز، وشرح له كمال أحوال ولده واستحقاقه للخلافة؛ فأذن له بالإرشاد وخلفه خلافة مطلقة، وهو

الآن ولله الحمد في ماردين[1] يرشد الطالبين، ويربي السالكين. حفظه الله تعالى.

ومنهم: صالح المرشدين، ومرشد الصالحين: الشيخ أحمد الكارازي ـ نسبة إلى كاراز من أعمال آمد[2] ديار بكر ـ قدم على أعتابه سنة بضع وستين وجلس مجلس الاستسلام، حتى أدرك من فيوضات تربيته وتوجهات بركته غاية المرام، فأذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة مطلقة وأعاده إلى أوطانه بعدما خرج منها كارهاً لما وقع له هنالك، وهو أنه لما توفي الشيخ ملا خالد الجزيري المومى إليه، ودفن في قرية الباصرة من أحواز الجزيرة قام مقامه صهره الشيخ صالح فكتب لكافة خلفاء ملا خالد أنه يجب على كل واحد منهم أن يأتي إلى الباصرة لزيارة ضريح الشيخ في كل عام، وأن من تخلف فهو مطرود. فأنكر ذلك عليه أكثرهم، من جملتهم الشيخ أحمد المنوه به، وكتبوا إلى حضرة الجد الأمجد بذلك، فكتب إلى الشيخ صالح ينهاه أشد النهي، ويأمره بالكف عن ذلك ويبين له ما فيه من المحظور شرعاً، فلما وصل إليه الكتاب، أذعن وأناب، ثم لما بلغ الشيخ أحمد أوطانه طفق يبث أسرار الطريق فيه حتى حصل على يده نفع عظيم للمسلمين؛ وكان عالماً فاضلاً، ورعاً زاهداً، له كرامات مأثوره في تلك الجهات نفعنا الله به.

ومنهم: أكمل الخلفاء صالح عصره، وبركة وقته، العلامة الفهامة: الشيخ إسماعيل أفندي القولي ـ نسبة إلى قولة، بلدة من بلاد الأناضول ـ إمام جامع السنجاغدار[3] في دمشق الشام ـ قدس سره ـ صحب حضرة الشيخ وصدق في

---

(1) ماردين: قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيسر ودارا ونصيبين. فتحها عياض بن غنم في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. «معجم البلدان» (٥/ ٣٩).

(2) آمِد: هي أعظم مدن ديار بكر، بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نَشْز دجلة. فتحت سنة عشرين من الهجرة، سار إليها عياض بن غنم بعدما افتتح الجزيرة فنزل عليها وقاتله أهلها، ثم صالحوه عليها. «معجم البلدان» (١/ ٥٦).

(3) جامع السنجاغدار: في دمشق، شارع السنجقدار تحت القلعة من الجانب الغربي، فيه ضريح الصحابي العباس بن مرداس ـ رضي الله عنه ـ حامل لواء النبي ﷺ وهناك قبر غيره. «ذيل ثمار المقاصد» (ص٢٢٧).

صحبته، وكمال خدمته، فأدخله الخلوة، وبالغ في حسن تربيته، مؤدياً حق قابليته، حتى بلغ درجة الكمل من الرجال، وأدرك في الطريقة العلية أعلى الأحوال. فأذن له بالإرشاد وخلفه خلافة مطلقة، فلم يزل ملازماً عتبة حضرة الشيخ حتى أنه ـ قدس سره ـ جعله وصياً على أولاده، وقائماً مقامه من بعده، غير أنه اخترمته المنية في حياته، شهيداً في وباء رمضان سنة أربع وستين، ودفن في تربة حضرة مولانا ـ قدس سره ـ وقد جمع الله له ثلاث شهادات: طلب الحق، والوباء، والغربة. أهلّ الله عليه سحائب رحمته وغفرانه.

ومنهم: العالم الصالح، والمربي الفالح، الشيخ محمد حديد الصفدي ـ قدس سره ـ أخذ الطريقة العلية عن قطب الإرشاد، حضرة مولانا خالد ـ قدس الله سره العزيز ـ ثم لازم خدمة حضرة الشيخ، ودخل عنده الخلوة، فنظر إليه بعين عنايته وخصه بمزيد رعايته، ولم يزل يرقيه مراقي الفلاح حتى أصبح مرشداً كاملاً، فخلفه خلافة مطلقة، وأذن له بالإرشاد العام، فذهب إلى مدينة صفد يربي المريدين، ويرشد الطالبين، متمسكاً بأذيال الزهد والعفة، والاستقامة على السنة السنية، ونشر راية الطريقة العلية في تلك البلاد، حتى انتفع به خلق كثير من تلك الأقطار، وقصد بالرحلة من كل جانب، وشوهد له كرامات كريمات، وأحوال وأطوار عظيمات، وصار له خلفاء أفاضل صلحاء، ولم يزل حتى انتقل بعد عام ثمانين إلى لقاء الله عز وجل في صفد، وقبره يزار ويتبرك به.

ومنهم: العامل الفاضل: الشيخ أحمد جعفر ـ حفظه الله ـ تشرف بأخذ الطريقة العلية عن حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ وعكف على خدمته وصدق صحبته، فقابله بالقبول، وأدخله الرياضة، وسلكه في درجات الوصول، حتى أشرف على الكمال، ونال ببركته ما نال، فأذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة مطلقة، وعقد له على أكبر بناته البرة التقية الصالحة خديجة ـ رحمها الله تعالى ـ فأقام معها في دمشق الشام مدة، ثم رحل بها إلى البيت الحرام بقصد المجاورة في تلك الأماكن المقدسة، فلم تزل حتى توفيت عام احد وثمانين ودفنت في

المعلاة، ثم عاد إلى المدينة المنورة واتخذها موطناً إلى يومنا هذا غير أنه يغلب عليه الانزواء وحب الوحدة، فلم يرد لذلك منه مريد.

ومنهم: العابد الذاكر، الصالح المربي، الشيخ علي الحزوري الحمصي ـ قدس سره ـ تلقى الطريقة العلية عن غوث الزمان، حضرة مولانا خالد ـ قدس الله سره العزيز ـ ثم بعد انتقاله لازم عتبة حضرة الشيخ وفاز بتربيته وتسليكه حتى حصل رتبة الكاملين، فأذن له بالإرشاد وخلفه خلافة مطلقة، فلم يبارح رحابه حتى توفي عام سنة ٨٩ يوم عيد الفطر. ودفن في تربة حضرة مولانا ـ قدس سره ـ.

وكان من الاستقامة بمكان، بقي أكثر من أربعين سنة وهو يخرج من بيته إلى المسجد في ليل ويدخل في ليل، وكان يكتسب من كتابة الكلام القديم، ولا يُرى إلا في ذكر أو عبادة، وهو الذي أقرأنا القرآن المجيد جزاه الله عنا خيراً جزيلاً.

ومنهم: العالم الصالح والمرشد الفالح: الشيخ محمد شامو الكردي ـ قدس سره ـ تشرف بأخذ الطريقة السنية عن حضرة الشيخ واشتغل بالسلوك والخلوة حتى حظي بالمرام، فأذن له بالإرشاد، وخلفه الخلافة المطلقة، فلم يزل مثابراً على خدمة أبوابه، واستجلاب أنواره، وحضور دروسه. وكان يقيم الأذكار الخواجكانية في مدرسة الصاحبة في الصالحية، حتى توفي سنة بضع وسبعين، ودفن في تربة مولانا قدس سره.

ومنهم: نخبة الصالحين الشيخ عمر الأصبحي القادري ـ قدس سره ـ وفقه الله تعالى لتلقي الطريقة العلية عنه ـ قدس الله سره ـ فألقى عليه من أنظاره المحمدية ما ألقى، وأدخله الخلوة مراراً واعتنى بتربيته وترقيته وبإرشاده وإمداده،فحصل له في سلوكه أحوال غريبة، وأطوار نادرة عجيبة، بحيث كان فانياً في الشيخ ـ رضي الله عنه ـ الذي هو مقدمة الفناء في الله فناء أتم. حتى أن الشيخ توعك يوماً ففصده الحجام فخرج الدم من يد الشيخ عمر وهو في مكانه فعجب من ذلك، ثم أتى لزيارة حضرة الشيخ فذكر له ذلك ففرح ـ قدس الله سره ـ به وأخبره أنه كان فصد ساعتئذ، فلما تم سير سلوكه على مدارج ملوكه؛

أذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة مطلقة، فلم ينفك في عتبة بابه مستقيماً على خدمة رحابه، حتى توفي عام خمسة وسبعين، ودفن في تربة حضرة مولانا خالد ـ قدس الله سره العزيز ـ.

ومنهم: زينة الزاهدين، العالم المربي: الشيخ أحمد الكردي، خطيب قرية زملكا ـ قدس سره ـ تشرف بأخذ الطريقة العلية عن سيدي وجدي الشيخ أحمد الاربيلي السالف البيان، واشتغل بهمة قوية وصدق طوية، حتى استعمل في بعض أعمال حضرة مولانا وهو في الشام، فلما توفي ـ قدس الله سره العزيز ـ لازم خدمة حضرة الشيخ، فأفاض عليه أنظار إرشاده، وأمده ببركة إمداده، وأدخله الرياضة غير مرة، وصرف العناية لترقيه وتكميله، ففاز بأحسن الأحوال، وبلغ مبلغ الرجال، فأذن له بالإرشاد وخلفه خلافة مطلقة، فأقام في القرية المذكورة ينشر أعلام الطريقة العلية ويهدي الطالبين، ويفيد الراغبين. وكثيراً ما ساح في أرجاء دمشق لبث أسرار الطريقة العلية حتى حصل على يديه نفع عظيم، ولم يزل مثابراً على خدمة حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ حتى لحق بالرفيق الأعلى، فبقي على ما كان عليه يتردد إلى حضرة سيدي الوالد الماجد ـ أيده الله تعالى ـ حتى توفي سنة تسع وتسعين ومائتين وألف، ودفن في تربة حضرة مولانا قدس سرهما.

ومنهم: العبد الصالح الهمام، والمرشد الإمام: الشيخ سعيد الصمصام الحموي ـ قدس سره ـ قدم على أعتاب حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ من حماة إلى الشام، وتشرف بدخوله للخلوة، فأدركته عناية أنفاسه المقدسة، فأتم حركة سيره في الطريقة العلية، فأذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة مطلقة، وأعاده إلى حماته يربي المريدين، ويرشد السالكين، فلم يزل كذلك حتى أتم أنفاس حياته عام بضع وخمسين.

ومنهم: سلالة الأولياء الشيخ أحمد علوان الحموي ـ قدّس سره ـ وفد على رحاب حضرة الشيخ ـ أمدنا الله بمدده ـ وبذل جهده في الرياضة والخدمة، فلم يزل يلحظه بنظره الاكسير، ويربيه تربية خاصة ويرقيه إلى منازل السائرين،

حتى أذن له بالإرشاد، فعاد إلى حماة مالكاً عروس المراد، حاملاً لواء الهداية بالجد والاهتمام مظهراً أسرار الطريقة العلية بين الخاص والعام، وما زال على هذا المنوال حتى توفي عام بضع وثمانين قدّس سره.

ومنهم: نخبة الصلحاء، أحد خواص القراء، وإمام اربه جيلر جامع في القسطنطينية: الشيخ الحاج أحمد حافظ أفندي ـ قدّس سره ـ اجتمع به وهو في الآستانة ولازمه مدة بقائه ثَمَّ، ثُمَّ قدم على أعتابه عام ثلاثة وسبعين وتلقى الطريقة العلية عنه بصدق قويم، وقلب سليم، وخضوع وتسليم، فأدخله الرياضة في مقام حضرة مولانا خالد ـ قدّس الله سره العزيز ـ وطفق يدر عليه من فيض أسراره، وينفق عليه من كنز أنواره، ويعرج به معارج الرجال، حتى نال منازل الكمال، فأذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة مطلقة، ثم أعاده إلى دار السلطنة القسطنطينية، فأقبل عليه أكثر أهلها، وانتفع به جم غفير، غير أنه كان يغلب عليه الانزواء. ثم جاء مرة ثانية إلى دمشق الشام، صحبة أمين صرة ركب الحاج الشامي الحاج مصطفى أفندي السالف بيانه ـ رحمه الله ـ فخرج حضرة الشيخ إلى الحج عامئذ، وخرج هو في خدمته، ثم ذهب من البحر إلى الآستانة العلية، ثم تحول إلى المدينة المنوّرة، وعيّن له رواتب سنية فأقام في جوار فخر الأنام، حتى توفي عام خمسة وثلثمائة. برّد الله مضجعه.

ومنهم: صالح العلماء، وعالم الصلحاء، وسبيل الأولياء، ذو الأنفاس الأنسية، والهمم القدسية، العم المحترم: الشيخ أحمد الخاني حفظه الله تعالى.

ولد سنة اثنين وخمسين، ونشأ في حجر سيدي والده، وتربى على موائد فوائده، وأخذ عنه وعن شيخنا العلامة الطندتائي أكثر العلوم العقلية والنقلية، ثم تلقى عنه الطريقة العلية، وألقى إليه مقاليد الإذعان بالكلية، وصرف قصارى الهمم في الاشتغال بالذكر والفكر، مع صدق إخلاص وثبات قدم، فأدخله الرياضة هو والحاج أحمد حافظ أفندي المشار إليه صحبته في شهر رمضان بمقام حضرة مولانا خالد ـ قدّس الله سره العزيز ـ سنة ثلاث وسبعين كما تقدم،

وأخذ يربيه بنفيس أنفاسه، ويرقيه بهمة توجهاته، فحصل له في السلوك أحوال عاليه، وأطوار وجذبات وافيه، بلغ بها درجة الكمال، ونال من أسرار الطريقة العلية ببركته ما نال. فأذن له بالإرشاد، وخلفه خلافة مطلقة، فهو ولله الحمد في حضرة سيدي الوالد الماجد يغيث الوافدين، ويربي السالكين. حفظه الله تعالى. آمين.

ومن أعظمهم إرشاداً، وأعمهم إمداداً، شيخ هذه السلسلة السنية، وأفضل من سرى إليه هذه النسبة العلية، سيدي الوالد الماجد: الشيخ محمد بن محمد الخاني أدام الله سعود وجوده.

القائم مقام الرابع سيدي الوالد الماجد: الشيخ محمد بن محمد بن عبد الله الخاني نسباً، الشافعي مذهباً، الصوفي معتقداً الخالدي النقشبندي طريقة ومشرباً، الدمشقي مولداً، أدام الله سعود وجوده، ووجود سعوده. آمين.

الإنسان الكامل بالكمالات الإلهية، في مواقف فتوحات الأسرار القدسية، مفتاح غيب عروش الكلم المكنونة في نقوش فصوص الحكم، بيت قصيد نظم السلوك، إلى ملك الملوك، قوت قلوب الطالبين، وقوة مسامع الراغبين، الكبريت الأحمر الموزون بالموازين الذرية لفضله، المتكفل بكشف السر الغامض في قُرَب النوافل ومكتوبات الفرائض، المضنون به على غير أهله، قاموس لغة الخواص، فيه من منن اليواقيت والجواهر بلغة الغواص، من آل إليه عمود إحياء العلوم، بتنزلات الوجود لتدبيرات مواقع النجوم، وانتهت بمعرفة منطق الطير، وترجمان أشواق الحضرة الإشارة إليه، وامتاز بتمييز اصطلاحات واردات طريق الخلوة في الجلوة عما لا يعول عليه كشاف أسرار التنزيل الجامع، المؤيد من فتح الباري بالآيات البينات المطالع، القائمقام الرابع: سيدي الوالد الماجد لا زال مقامه مظهر جمع الفوائد، ومشكاة مصابيح سنن المقاصد، ومغناه مغنى اللبيب القاصد، بإرشاده إلى الطريقة المحمدية، ومنهج روضة السيرة الخالدية المحامد.

ولد ـ أدامه الله تعالى ـ في دمشق الشام خلال شهر رجب عام سبعة وأربعين ومائتين وألف. وقرأ أوائل القرآن المجيد، صحبة نجل حضرة مولانا الشيخ نجم الدين على والده. وأتمه عند العبد الصالح، المرشد الفالح؛ الشيخ علي الحزوري أحد خلفاء والده ـ قدّس الله سره ـ. وكان سنه وقتئذ خمس سنين.

وأجاز له بركة عصره، وعالم مصره: المحدث الحجة الثبت، الشيخ عبد الرحمن الكزبري ـ نور الله ضريحه ـ جميع ما تجوز له وعنه روايته بعدما

اسمعه طرفاً من دلائل الخيرات. وهو في ذلك السن ودعا له بالفتوح والبركة.

وحضر دروس والده كلها من نحو وفقه وحديث وتفسير، وكلام وتصوّف، وحساب وفرائض. وتخرج على يد شيخ الكل في الكل، الشيخ: محمد الطندتائي.

استطراد بيان وجيز لأحوال هذا العزيز: ولد زهاء عام أربعين ومائتين وألف في بلدة طندتا ـ مقر ضريح الغوث النبوي سيدنا أحمد البدوي رضي الله عنه ـ من أحواز مصر القاهرة، وحفظ القرآن المجيد، وحصل أكثر العلوم العقلية والنقلية في تلك الديار، وقدم سنة خمس وخمسين إلى دمشق الشام، فأقام بها خمس سنين، ولقي سيدي الجد الأمجد ـ قدس سره ـ وتلقى الطريقة العلية عنه، واشتغل بها بجد تام، وبقي نزيله هذه المدة. وخاتمة المحدّثين الشيخ عبد الرحمن الكزبري، وعلامة الشام الشيخ سعيد الحلبي، والشيخ عبد الرحمن الطيبي رحمهم الله تعالى. وحضر كثيراً من دروسهم بعد أن مر على حلب، فقرأ على العلامة الشيخ: أحمد الترمانيني طرفاً من العلم.

ثم عاد بإذن سيدي الجد الأمجد ـ قدّس سره ـ إلى مصر واشتغل في الجامع الأزهر بإتمام المادة على فحول علمائه كالعلامة الكبير الشيخ: إبراهيم الباجوري، والعلامة الشهير الشيخ: إبراهيم السقا، والعلامة الفهامة الشيخ: محمد الخضري، وغيرهم خمس سنين. ثم رجع إلى دمشق الشام وقد أتقن كافة العلوم، من صرف ونحو، ومنطق وبيان، ومعان وكلام، وحديث وتفسير، وفقه وهيئة، وحساب وميقات، وحكمة وغيرها. حتى صار آية في المعقول والمنقول باهرة. وكثيراً ما كان يقول: لم يحصل لي سرعة هذا الفتح؛ إلا ببركة الاشتغال بهذه الطريقة العلية. فطفق ينشر لواء العلوم، ويبث في الأذهان البالية أرواح الفهوم، وانتفع به من الطلبة جم غفير لا سيما عائلتنا فإنه ليس لأحد منة المشيخة على أحد منها غيره، زيد خيره.

وله في كل فن تدقيقات عالية المنزع، وآثار جليلة الفوائد.

ومن آثاره التي يفتخر فيها عصره، ويزهر بها مصره، أنه لما طرأ ـ على

حجرة البسيط التي وضعها علامة زمانه الشيخ: علاء الدين علي بن إبراهيم الفلكي ـ المتوفى سنة ٧٧٧ والشهير بابن الشاطر، لمعرفة الأوقات في منارة العروس التي في الجامع الأموي ـ قليل خلل لتقادم عهده، صنع بسيطاً أحسن منه، وحسبه على الأفق الحقيقي، وزاد فيه قوس الباقي للفجر وأنزل القديم، وجعل هذا مكانه في يوم مشهور مشهود، غبطه عليه أجلاء الفضلاء، فجاء في غاية الضبط والإتقان. جزاه الله خير الجزاء. وقد أرخت ذلك مادحاً له وشاكراً فضله فقلت:

رسم البسيط بغاية التأسيس ... بحر العلوم رئيس كل رئيس
علامة الشام الذي بعلومه ... أحيا دروس العلم بعد دُروس
هو حضرة الحبر الجليل محمد ... الطندتائي الأزهري المحروس
لبيك يا شمس العلوم إجابة ... خصتك بالتنزيه والتقديس(١)
تحمي شريف حماك وهو مشيد ... بحماية الضرغام دون الهيس
خلدت في رسم البسيط مآثراً ... حجت لها الفضلاء فوق العيس
نعم البسيط وليس يجهل قدره ... إلا البسيط مكابر المحسوس
صلت عليه العالمون وسلمت ... أحكامه في الصبح والتغليس(٢)
لله يوم أبرزته من القوى ... للفعل أيدي فضلك المغروس
شخّصت له الأبصار حين بدا لها ... بشواخص ترنو إلى البرجيس
يلقى الشباك إلى السما متصيداً ... أنوار أقمار العلا وشموس
تبدي عجائب صنعه في مجمع ... حشر الرئيس إليه بالمرؤوس

---

(١) قوله (لبيك): ورد الجواز بقول لبيك في إجابة النداء.
وقوله (خصتك بالتنزيه والتقديس): أي منزَّهاً سرُّه عن غير ما يجب اعتقاده، ومقدساً بروحه وقلبه عن الالتفات إلى غير ربه وهذه كقوله: قدس الله سره. أو المعنى: أن هذا المجيب أجاب الشيخ مع تنزيهه عن النقائص التي يشيعها عليه الحسدة وتقديسه له وتعظيمه الواجب شرعاً لما حمل من معاني العلوم وأسرارها. (ع).

(٢) قوله (صلت): الصلاة هنا بمعنى الثناء. أي أثنت عليه العالمون. أو بمعنى الدعاء أي دعت لمؤلفه العالمون. (ع).

والجامع الأمويّ غص فضاؤه بالناس من حبر ومن هندوس
قرت عيون وجوه جلق إذ غدا مجلى قلوب ذوي النهى ونفوس
وتفاخروا في رفعه شرفاً له فوق الرؤوس على منار عروس
تلك المنارة لم تزل معمورة قد أشعرت بمحاسن التقييس
لما رأت أن الذي حملته من طول الزمان عراه بعض طموس
طرحته أرضاً واغتدت تحنو على درّ صحيح الانتظام نفيس
لا زلت يا علم الشريعة باسماً بالعز والإقبال دون عبوس
وظهرت بالحق المبين معززاً أبداً وراس عداك بالتنكيس
تختار سرد الهمة العلياء قد زرّت على العرفان خير لبوس
ما قال أهل الشام في تاريخه تم البسيط بنفحة القدوس
سنة ١٢٩٣

ثم رسم عام خمسة وثلثمائة بسيطاً ثانياً، وجعل حسابه على الأفق المرئي، ووضعه في جامع كريم الدين المشهور بالدقاق في قسم الميدان من دمشق الشام. فكان كذلك. وهو موضع شريف لا نظير له أصلاً قد تفرد به بعد ابن الشاطر.

وله في حساب البسيط ورسمه رسائل تكتب بالذهب، وكذلك في حساب الربع ورسمه. وله «كشف القناع عن معرفة الوقت من الارتفاع»، وله «تقريرات» على كافة الكتب التي يقرؤها مشتملة على حل إشكالات، وتوضيح معضلات، أكثرها بخطه تشهد بعلو أذواقه في كل العلوم. زاد الله في عموم نفعه ونفعه العموم.

ثم بعد كتابتي هذه الكلمات بأيام توفي يوم الأربعاء ضحىً، سلخ ربيع الثاني سنة ست وثلثمائة، فحضر الوالد الماجد غسله، مكافأة له على حضوره غسل الجد الأمجد، ودفن بعدما صلي عليه في حضور سيدنا يحيى الحصور عليه السلام، بمشهد عظيم جداً في جوار سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه.

وكتب على ضريحه ما نظمته مؤرخاً بقولي:

روض به فاز الإمام محمد بشهود نور الله نعم المشهد

علامة العصر الحسيني الطندتا ئي الأزهري بحر الفنون الأوحد
لله مـن جنـات عـدن أرخـوا روض بـه فـاز الإمـام محمـد

أغدق الله على روضته صيب طيب عفوه ورحمته.

عوداً على بدء

فقرأ الوالد الماجد عند شيخنا المنوّه به حاشية الخضري على ابن عقيل، وحاشية الصبان على الأشموني في النحو، والتحفة في فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه بحواشي ابن قاسم العبادي. وجمع الجوامع بحواشي البناني، والآيات البينات لابن قاسم المشار إليه مع مراجعة الأطول في الأصول، وأشكال التأسيس في الهندسة، وتشريح الأفلاك للبهاء العاملي في الهيئة، والشنشوري في الفرائض، وشرح المختصر بحواشيه تجريد البناني، والدسوقي في المعاني والبيان، وطرفاً من المنهج بحواشي البجيرمي، وشرح الملوي على السلم بحواشي الصبان في المنطق، وبعض ابن قاسم الغزي بحواشي الباجوري في الفقه، وشرح الجوهرة بحواشي الأمير الكبير، وشرح العقائد النسفية للسعد بحواشي الكمال بن أبي شريف، وشرح المسايرة للمشار إليه في الكلام، وشرح الملوي على السمرقندية بحواشي الخضري والأمير، ورسالة الوضع بحاشية العصام، وآداب البحث، والكافي في العروض بحواشي الدمنهوري، والرقائق في الدرج والدقائق، ورسالة الربع المجيب، وشرح اللمعة في الكواكب السبعة في الميقات.

وجلس تحت قبة النسر بين يدي محدث الديار الشامية الشيخ عبد الرحمن الكزبري المنوه به ـ نور الله مرقده ـ فسمع منه دروساً من صحيح البخاري، وأجاز له يوم ختم الدرس ليلة السابع والعشرين من رمضان عام اثنين وستين روايته عنه وجميع ما تجوز له روايته مما هو مذكور بثبته المشهور، المشتمل على كافة العلوم الظاهرة والباطنة. وحضر عنده ختم الصحيحين، ومسند ابن ماجه في داره، وقرأ عليه شرح العقائد للسعد وغيره.

وسمع حديث الأولية من العلامة المرشد الكامل الاستقامة أحد خلفاء حضرة مولانا خالد ـ قدس الله سره العزيز ـ الشيخ: إسماعيل البرزنجي ـ قدس سره ـ بروايته له عن قطب العارفين المشار إليه، بروايته له عن العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد الكزبري بسنده المشهور، وأجاز له رواية جمع مروياته عنه؛ وسمعه أيضاً من علامة العصر، وبركة كل مصر، الشيخ: محمد التميمي أحد فحول علماء الأزهر.

وتلقى الطريقة العلية عن والده الجد الأمجد ـ قدس الله سره ـ عام أربع وخمسين.

وكان يومئذ ـ حفظه الله ـ سنه سبع سنين، فألقى إليه مقاليد التسليم والخضوع، وجعل يشتغل بالذكر وتحصيل العلوم، وأنوار النجابة وآثار التقدم واللوعة في كسب المعالي ظاهرة عليه، حتى إذا كان عام اثنين وستين زوجه ـ قدس الله سره ـ بسيدتي الوالدة المغفور لها خديجة بنت العلامة الهمام، والمرشد الإمام، أكبر خلفاء حضرة مولانا خالد الشيخ: أحمد الاربيلي الخطيب ـ قدس سرهم ـ وكانت من الصلاح والتقوى والذكر الخالدي بمنزلة رفيعة، ونسبها من جهة جدها لأمها السيد مصطفى الرفاعي متصل بسيدنا قطب العارفين الشيخ أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ توفيت خامس عشرى جمادى الأولى عام أربع وثلثمائة وألف، ودفنت في تربة حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ.

وذهب عامئذ في خدمة حضرة الشيخ ـ قدس الله سره ـ إلى الديار الحجازية صحبة الركب الشامي؛ فلقي في مكة المكرمة العلامة الكبير والمحدث الشهير شيخ الحرمين الثاني الشيخ عثمان الدمياطي ـ قدس الله روحه ـ وقد أسن، فأجاز له جميع ما تجوز له وعنه روايته إجازة عامة بسنده المشهور في تلك الأقطار. وكنت وقتئذ حملاً فقبل مقدمه من الحجاز بأيام قليلة ولدت تاسع شهر صفر الخير عام ثلاثة وستين ومائتين وألف، فلما قدم في خدمة الجد الأمجد حنكني الجد، وسماني ودعا لي بالبركة، ثم عاد لما كان

عليه من الالتفات إلى العلم والطريقة العلية، وبذل قصارى الهمة في نيلهما، فلما كان عام سبعين خرج في خدمة والده العزيز إلى دار السلطنة السنية، ومكثا أربعة أشهر. فلما رجعا إلى الأوطان، عرج على ما عليه كان، وزاد في بذل الجهد في تلقي العلوم ولا سيما الطريقة العلية، فإنه اغتنم وجود المرشد الكامل والده ـ قدس الله سره ـ واشتغل بها اشتغالاً عظيماً، وأدخله الجد الأمجد إلى الخلوة والرياضة مرات عديدة. منها في مسجده المشهور بجامع السويقة، ومنها في مقام حضرة مولانا خالد.

قرأت من خطه وسمعت من لفظه يقول: كان والدي ـ قدس الله سره ـ يشدد في رياضته ومجاهداته جداً. وكنت أسأله عن كل حال يعرض لي وعن أحوال أهل الرياضة، وكان يفيدني من هذه العلوم أشياء كثيرة ويقرر لي أحواله في رياضته زمن حضرة مولانا ـ قدس الله سره العزيز ـ وكثيراً ما ذكر لي أحوال حضرة مولانا وأحوال خلفائه، فلذلك كنت بحمده تعالى أكثر الناس معرفة بأحواله وأحوال مولانا ـ قدس الله سرهما ـ اهـ.

ثم سنة أربع وسبعين خرج في خدمته حاجاً مع الركب الشامي، فلما أتما نسكهما، عادا مأجورين، غير مأزورين. وعكف سيدي الوالد على الاشتغال بالعلم والطريقة العلية باجتهاد عظيم في الذكر والفكر، والرياضات الشاقات، ولم يزل حضرة الجد يعرج به في معارج السلوك، ويربيه تربية الملوك، في مهد الهداية والإرشاد، والترقية إلى مقامات الكمالات، وكمال المقامات، ويخلقه بأخلاقه المحمدية، ويغذيه بلبان النسبة الخالدية، ويحمله على مصابرة المجاهدة في الله، والسير الافاقي والأنفسي، نظراً لما رأى منه من قوّة القابلية، وسمو الاستعداد، حتى بلغ مبلغ الفحول من كمل الرجال، وفاز بما فاز من فضيلة الوصول إلى أكمل الأحوال. فأذن له وقتئذ بالإرشاد العام عام خمسة وسبعين، وخلفه خلافة مطلقة، وقدّمه على سائر خلفائه الكرام. فكان يتوجه معه للمريدين في وجوده، ويقيم الأذكار الخواجكانية في غيابه، ويتوجه للاخوان وحده. وكان له ـ قدس الله سره ـ به اغتباط عظيم وازدهاء وافر، وله

إليه ميل تام، ومحبة راجحة، وتكريم زائد.

حدثتني جدتي ـ رحمها الله تعالى ـ أنه ـ قدس الله سره ـ كان يقول لها: إني كلما دخل عليّ ولدي محمد تحدثني نفسي أن أقوم إجلالاً له، وأضعه في مكاني، لمكان فضله وفرط مودتي له.

وكان يقول له: أنت أخي وابني. كل ذلك مع اشتغاله بقراءة العلوم وإقرائها والقيام بفريضة خدمة الجد الأمجد ـ قدس الله سره ـ بالصدق والثبات في أعماله كلها والمحافظة على خواطره معه حق المحافظة، سراً وجهراً، وملازمته ليلاً ونهاراً، والاستفادة من معارف أسراره، وأسرار معارفه، ومطالعة أكثر كتب التصوف عليه.

رأيت بخطه ـ أيده الله تعالى ـ ما نصه: وقرأت عليه كثيراً من كتب الطريق مثل «الإحياء» للإمام الغزالي، و«عوارف المعارف» للعارف السهروردي، وبعضاً من «الفتوحات المكية»، وبعضاً من «شرح تائية» قطب العارفين الشيخ: عمر بن الفارض للشيخ علوان الحموي، وشرحه على «تائية» ابن حبيب الصفدي، وكثيراً من مؤلفات العارف الشعراني مثل «الميزان» و«العهود الصغرى» و«الكبرى»، وشرح «المقامات» لابن عفيف التلمساني[1] و«تنبيه المغترين»، و«الزواجر» لابن حجر الهيتمي، و«الأذكار النووية» بشرحه لابن علان، و«منهاج العابدين» بشرحه له، اهـ. وغيره مما تقدم الإلماع به.

وفي سنة خمس وسبعين سافر إلى دار السلطنة السنية وحده، فنزل ضيفاً كريماً عند المغفور له الحاج موسى صفوتي باشا، وتقدم في ترجمة الجد الأمجد التنويه بشأنه، فبقي نحو شهر ثم انقلب إلى أهله مسروراً، والتفت لما ثبت عليه أولاً من الاستغراق بالإفادة، والاهتمام بالطريقة العلية حسب العادة.

---

(١) سليمان بن علي بن عبد الله (٦١٠ ـ ٦٩٠ هـ) التلمساني، المعروف بالعفيف التلمساني، صوفي، شاعر، مشارك في النحو والأدب والفقه والأصول. توفي بدمشق، ودفن في مقابر الصوفية. «معجم المؤلفين» (٤/ ٢٧٠).

وما زال على هذا المنوال حتى سافر سنة ثمان وسبعين إلى الديار المصرية. صحبة شيخنا الشيخ محمد الطندتائي ـ حفظه الله تعالى ـ إرادة اغتنام زيارة الأولياء والعلماء الكرام. فأدرك العلامة الشهير الشيخ: محمد الخضري من أكبر العلماء الأزهريين، صاحب حواشي ابن عقيل وغيره من التآليف النادرة، واستجازه فأجاز له رواية جميع مروياته التي في ثبت الأمير الكبير، ونمق له إجازة بخطه المبارك، ودعا له وأثنى على همته خيراً. ولقي الشيخ الصالح، والعلامة الفالح، الشيخ: مصطفى المبلط، أعظم علماء الأزهر، وأجاز له أيضاً ثبت الأمير الكبير، وكتب له ذلك بخطه الشريف، وبارك عليه وسرّ به. وزار أعلم الكبراء، وأكبر العلماء، شيخ الجامع الأزهر يومئذ الشيخ إبراهيم السقا فأجاز له بما في الثبت المذكور، وحرر له ذلك بقلمه الأنور، وابتهج به ودعا له بالبركة والفتوح. وغيرهم من علمائها وصلحائها. وزار حضرة الإمام الشافعي، والإمام السيد أحمد البدوي، وباقي الأولياء العظام.

ثم رجع إلى الأوطان دائباً على ما ألفه من الدروس والطريقة العلية، حتى مرض سيدي الجد ـ قدس الله سره ـ فجعله وصياً على ابنته، وكانت يومئذ حملاً، وقائماً مقامه على سجادة الإرشاد العام وعلى خلفائه الكرام.

وقال في وصيته: من أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني. وكتب له صك الوصية بخطه الشريف، وأوصاه بوصايا عظيمة، وأخبره بأمور كثيرة أنها ستقع، فوقعت على طبق ما أخبر. فلما انتقل إلى عليين تاسع عشرى صفر الخير سنة تسع وسبعين ـ كما سلف بيانه في ترجمته ـ نهض سيدي الوالد أدام الله إرشاده بأعباء الخلافة من بعده، وجمع كلمة المريدين، وحافظ على ترتيب المسجد بالأوراد الخواجكانية، والعبادات القوية، والدروس العلمية.

حتى إن الجد ـ قدس الله سره ـ كان يقرأ «شرح المنهج» للقاضي زكريا بحواشي البجيرمي.

فلما أتم كتاب الجنائز توفي ـ قدس الله سره ـ فاجتمع على سيدي الوالد كافة الطلبة وطلبوا منه إكماله فأجابهم لسؤالهم، فجعل يقرؤه ويقرره بأحسن

تقرير إلى أن ختمه. وكذلك فعل في دروس ما بين العشاءين، فظهر فضله وتلألأ نوره وشاع خبر إمداده وإرشاده، وانضمت إليه الخلفاء وانتظم أمر الطريقة العلية به، ودخلت الناس فيه أفواجاً مستجدين أسراره، ومستمدين أنواره.

ثم إنه أدامه الله تعالى خرج عامئذ حاجاً صحبة والدته الصالحة التقية العابدة الناسكة، الذاكرة الطاهرة، السيدة عادلة، كريمة الولي الصالح الشيخ، السيد ياسين ابن الشيخ السيد محمد ابن الشيخ البركة الصالح السيد يوسف الكيالي - رحمه الله تعالى - بحراً، فمرا على مصر لزيارة أوليائها وصلحائها. ثم ذهبا إلى البيت الحرام، فبعد أداء حجهما وزيارة روضة نبيهما عليه الصلاة والسلام رجعا بحراً أيضاً، متشحين بوشاح القبول، غانمين غاية المأمول.

ولقي في سفره عامئذ أمير العارفين السيد عبد القادر الجزايري - قدس الله سره - مجاوراً في مكة المكرمة، يشتغل في الخلوات وأشق العبادات والمجاهدات. وقد منّ الله تعالى عليه بالفتح المبين، فأشار إليه بالبقاء معه، فلم يمكنه لوجود والدته معه.

وفي عام ثمانين منّ الله تعالى عليه باتصال نسبه بنسب حضرة مولانا - قدس الله سره العزيز - فتزوج بكريمته أصلح نساء زمانها، المغفور لها، فاطمة - قدس سرها - فنال بذلك سروراً فوق سرور، وزاد نوراً على نور، وأبد الله تعالى اتصال هذا الفخر بأن ولدت له بنتاً سماها بهية، وذلك عام ثلاثة وثمانين.

ولما قدم الأمير الجليل المشار إليه إلى دمشق الشام محل إقامته اتصل به سيدي الوالد ولازمه ملازمة صدق وإخلاص، فأقبل عليه الأمير المشار إليه لمكان حضرة والده، وجعل يجله ويبجله ويعظمه ويكرمه، ويقول له: إنما أنت أخي، وكلنا أولاد الشيخ محمد الخاني - قدس الله سره -.

وحيث كان هذا العارف الجليل منتظماً في سلك هذا الرعيل، أحببت أن أستطرد تعطير هذه الحدائق بنشر شمة من حديثه الجميل، مستنداً في أكثر أمره

إلى ما وجدته بخطه في كناشه وغيره، فقلت:

شذرة بل ذره من أمر هذا الأمير قدس الله سره

هـذا الأميـر السيـد الكـرم الـذي ... أضحى عباب نداه عذب الكوكب
هـذا سليـل المصطفـى فمقـامـه ... فلـك النبـوّة وهـو أنـور كـوكـب
هذا الكريم ابن الكريم ابن الكر ... يم ابن الكريم ابن الكريم الكوكب
هـذا الـذي اتخـذ المعـارف حلـة ... والملك حلياً وهو ألطف كوكب
هـذا الـذي إن قـال يـا خيـل اركبي ... مـلأ الفضـاء بفـارس أو كـوكـب
هذا الذي اهتزت ملوك الأرض من ... سطـواتـه إذ كـان مـاضي الكـوكـب
هـذا الـذي سلـب الفحـول رقـادهـا ... بالبيض والسمر البوادي الكوكب
هذا الذي جعل الفضاء على القيا ... صـر هيبـة مـن بطشـه كـالكـوكـب
هذا الذي طلب الولاية فاغتدى ... فـي حلبـة الأفـراد أول كـوكـب
هـذا إمـام المتقيـن المـرتقـى ... من مشهد الإحسان أعلى كوكب
هـذا طبيـب الـواصليـن المجتنـى ... من روضة العرفان أعطر كوكب

هو ترجمان الحضرة القرآنية، ووارث العلوم الأكبرية العرفانية، السيد عبدالقادر بن محيي الدين بن مصطفى بن المختار بن عبدالقادر بن أحمد المختار بن عبدالقادر بن خدّه بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن أحمد بن محمد مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر ابن عبدالله الكامل ابن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ولد في أم عسكر من أحواز جزاير الغرب في رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف، وتربى في ربى الشرف والولاية، وتقوّى في مهد التقوى والهداية، وارتضع ألبان الفتوة من ثدي سلالة النبوة، ثم حفظ القرآن المجيد، وعكف على تحصيل العلم. وعلى أسارير وجهه علائم السعادة، وكرائم

أخلاق السيادة، إلى أن ساح مع والده العزيز في بلاد الشرق سنة إحدى وأربعين، فوصلا إلى مكة المكرمة. ثم جاآ إلى دمشق الشام صحبة ركب الحج الشامي، وكان عامئذ في الركب حضرة مولانا خالد ـ قدس الله سره العزيز ـ فاجتمعا عليه في بلدة معان راجعين من مكة، ولما قدما إلى الشام أخذا منه الإذن في الطريقة العلية النقشبندية، ودخل والده في الرياضة عند جدي في جامع السويقة بإشارة من الشيخ المشار إليه مدة. ثم توجها إلى بغداد لزيارة الغوث الكيلاني، ثم إلى الحج مرة ثانية، ثم إلى بلادهما. ثم لما استولت دولة فرنسا على الجزائر وبعض سواحلها بايعه أهالي بر الجزائر بالسلطنة عليهم، والجهاد في سبيل الله تعالى، وخطب له على المنابر باسمه. فجاهد في الله حق جهاده، وبسط بساط العدل ونشر لواء التوحيد، واستأصل شأفة الظلم والشرك، وطهر أكثر البلاد من أدناس الفساد، وسار سيرة عمرية في الرعية، وأحيا ما اندرس من أحكام الشريعة المحمدية، ووقع بينه وبين الفرنساويين وقائع عظيمة، وحروب جسيمة، تجعل الولدان شيباً. وامتدت خمسة عشر سنة تقريباً حتى إذا يئست فرنسا من الاستيلاء عليه ألجأت السلطان عبد الرحمن ملك مراكش أن يقاتله أو تقاتله، فأرسل إليه جيشين كثيفين أمّر عليهما ولديه السلطان محمد والأمير أحمد. وساق الفرنساويون جيشاً هائلاً وأحاطوا به في واقعة أشهر من أن تذكر اضطرته إلى التسليم إلى الفرنساويين على شروط تقررت بينهما، بعدما أفنى منهم أمماً لا تحصى عدداً. وذلك عام أربع وستين ورحل إلى بلاد فرنسا فدخل قصر قرية أمبوازيوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، وبقي هو وعائلته إلى أن أتاه سلطان فرنسا لويز نابليون الثالث بنفسه مبشراً له بتسريحه إلى بلاد الإسلام يوم السبت ثاني شهر محرم سنة تسع وستين، وخرج من القصر يوم السبت تاسع عشرى صفر هذه السنة متوجهاً إلى القسطنطينية في زمن السلطان الغازي عبد المجيد خان ـ بوّأه الله الجنان ـ فدخلها نهار الجمعة سابع عشرى ربيع الأول من العام المذكور، فاجتمع به وأكرمه وعظمه، ثم ذهب إلى بروسة مستوطناً لها قرير العين ناعم البال. فوصل إليها نهار الاثنين سابع ربيع الثاني من هذا العام، وأقام بها إلى خامس ربيع الأول سنة اثنين

وسبعين. فحصل بها زلازل شديدة اقتضت أن يتوجه إلى دمشق الشام لسعادتها وحسن حظها، فدخلها في العشرين منه واتخذها دار إقامته بأهله وخدمه وحشمه. وفي سنة تسع وسبعين توجه إلى الحجاز متجرداً لطلب المرشد إلى الله، فأخذ الإذن بالطريقة الشاذلية من المرشد الناصح الشيخ محمد الفاسي ـ قدّس سره ـ وفتح عليه بها ومدح شيخه بقصيدة عظيمة رنانة يشير فيها إلى الفتوح الإلهي الذي حصل له، وتلك السعادة الأبدية ومطلعها:

أمسعود جاء السعد والخير والبشر ... وولت ليالي النحس ليس لها ذكر

وجاور في مكة المكرمة مدة، وفي المدينة المنوّرة، وحج حجتين. كان الوالد الماجد معه في أولهما، ورجع إلى الشام فرحاً ظافراً مسروراً.

ثم في سنة إحدى وثمانين توجه إلى القسطنطينية مرة ثانية لمبايعة ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان، فاجتمع به وأكرمه وعظمه، وأعطاه أكبر وسام عنده. ثم منها إلى باريز مركز دولة فرنسا لأجل سلطانها لويز السالف البيان، فاجتمع به وأنزله أعلى نزل. ثم منها إلى لوندره مركز دولة الانكليز فأكرموه وفخموه. ثم منها إلى الشام محل إقامته.

ثم في سنة ست وثمانين توجه إلى مصر القاهرة، بدعوة من واليها اسماعيل باشا، لأجل رؤية البرزخ الذي فتحوه بين بحري الأبيض والأحمر. ثم عاد إلى محل إقامته مبجلاً معظماً.

وفي تلك السنة قرأ في مدرسة دار الحديث في رمضان صحيح البخاري رواية كالدراية، وحضرت أكثره عليه وأجازني به.

ولم يزل ـ قدّس الله سره ـ مشتغلاً بعباداته ومجاهداته ومساعداته للمظلوم والضعيف بماله ونفسه وبقلمه، محبوباً لكل الطوائف لا تأخذه في الله لومة لائم، إلى أن اعتراه داء حصار البول، فما برح يعاوده حتى أتم أنفاس حياته تاسع عشر رجب سنة ثلثمائة وألف. فغسل بأمواه الأنوار، وكفن في نفائس الأسرار، وحمل على أنامل الأخيار، إلى جامع بني أمية. وصلى عليه الوالد الماجد إماماً، ورفع إلى حظيرة القدس في قبة سيدنا الشيخ الأكبر محيي

الدين بن عربي رضي الله عنه في مشهد عظيم لم يسمع له بنظير.

وكان ـ قدس الله سره ـ له الجاه العريض في كل دولة من دول كل ملة، والباع الطويل في تحصيل المآثر والمحامد والمناقب التي قل أن تجتمع في واحد، أو يفي ببيانها بنان أو لسان إنسان، كما قلت:

ولـع بـأخـلاق النبـوّة كلهـا — لا حلم أحنف أو ذكاء إياس

فكان إذا نظرت إلى شجاعته تهزأ بالليوث الضارية، أو إلى سماحته لا تعبأ بالغيوث الجارية، أو إلى سيادته تستدني البدور العالية، أو إلى عبادته تستجد الأمم الخالية، أو إلى علومه تجد الفنون الوافيه، أو إلى شعره ونثره تشهد الأذهان الصافيه، أو إلى حقائقه وكشفه لا يخفى عنك خافيه.

فمن أعظم آثاره الدالة على جلالة مقداره: كتاب «المواقف العرفانية» الجدير بأن يكتب بالنور على نحور الحور، وهو كتاب جليل من توفيقات توقيفاته الإلهية، وواردات مشاهداته الربانية، وتفسير الآيات الكريمة والأحاديث النبوية، وأجوبة الأسئلة الإخوانية التي كانت ترد إليه من كل ذائق في علم الحقائق. مثل الوالد الماجد، فإنه كثيراً ما كان يراجعه في بعض المسائل الخفيه، ويسأله حل محال من الفصوص والفتوحات المكية، وغيرهما. فلكثرة حبه للخير وبذله مع وفرة موانعه وشغله، كان يقيد ما ظهر له بالكشف ويوضحه ويرسل به إليه، فكان من فرط حرصه عليه يلحقه في المواقف بإذنه، كما يشير إلى ذلك قوله في بعضها:

سألني بعض الإخوان، والتصريح باسمه في مواقف شرح فص شعيب، وفص إسماعيل، وفص آدم عليهم السلام، وخطبة الفتوحات المكية وغيرها. فما زال يضم كل مسئلة إلى أخدانها، ويقرنها بأقرانها حتى اجتمع من ذلك ثلاث مجلدات ضخمة. وقد ذيل الوالد الماجد بعد وفاته الجزء الثالث بما وجده في كناشه بخطه من مبشرات والقاآت روحية عالية المنزع، غالية المُطَّلَع. وها أنا أثبت ههنا من كلامه ـ قدس الله سره ـ ما تطيق ولا تضيق عنه حوصلة هذه الذره مما يثبت علوّ مقاماته. قال ـ نفعنا الله ببركاته ـ في بيان الروح:

الموقف الخامس والستون وثلثمائة

قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال: ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾ [الطلاق: ٥] اعلم أن الروح أمره غريب وشأنه عجيب، لا تكشف عن محياه عباره، ولا ينفتح بابه بإشاره، العلم بكنهه محال، إلا للكبير المتعال.

وإن قميصاً خيط من نسج تسعة ... وعشرين حرفاً عن معاليه قاصر

ولهذا لما تعدت العقول أطوارها، ووجهت إلى العلم بحقيقته أفكارها، انقلبت خاسئة حاسره، بائرة خاسره، ولعجز العقول عن الوصول إلى العلم بالروح لم يرد في الكتب الإلهيه، والإخبارات النبوية وصف الروح إلا بضرب أمثال وإشارات، وتلويحات واستعارات، رحمة بالعباد ورفقاً بالعقول، فإن من أطلعه الله تعالى على شيء من صفات الروح من غير المتشرعين ظن أنه الإله المعبود، وإنما يدرك بعض صفات الروح بالوهب الإلهي لا بالنظر العقلي، فإن للعقول حداً تقف عنده فإذا تعدّته ضلت، ولكن لها القبول لما يهبها الوهاب تعالى، وليس في قوله: ﴿الروح من أمر ربي﴾ إشارة إلى الكف عن السؤال والجواب عن الروح كما قيل، بل هو جواب إجمالي، أي: الروح أمر ربي فمن بيانية كما قال تعالى: ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾ [الطلاق: ٥] إخباراً لجميع المخلوقات، ولما كان الروح لا تنقضي إشكالاته، ولا تنتهي بالنسبة إلى إدراك العقول محالاته، جنح إلى الإجمال بقوله: ﴿من أمر ربي﴾ أي هو أمر ربي الصادر عنه بالأمر بلا واسطة مادة. فأقول لك مقالاً وأضرب لك أمثالاً، تخييلاً وتقريباً، وإلا فأين الثريا من يد المتناول؟! فاعلم أن الله تعالى لما توجه لخلق العالم، خلق روحاً كلياً سماه حضرة الجمع والوجود، لكونه جامعاً لحقائق الوجود. وسماه بالحقيقة المحمدية، لكون محمد ﷺ أكمل مظاهرها، على أنه ما في الجنس الإنساني أحد إلا وهو مظهر هذه الحقيقة، كل إنسان يكون فيه ظهورها وبطونها على كماله ونقصانه، ولا بد من ظهورها في كل إنسان كامل.

وما زال الحق تعالى يخلق الموجودات من الحقيقة المحمدية، علوية وسفلية، لطيفة وكثيفة، بسيطة ومركبة، وكلما خلق صورة قبضها إلى صورتها الأولى، حتى انتهى الأمر إلى الإنسان فخلقه منها ولم يقبضها، فكان الإنسان صورة حضرة الجمع والوجود، لأنها بسطت فيه ولم تنقبض عنه.

ثم خلق الله العماء الذي كان فيه الرب قبل خلق الخلق، وكان أول ما خلق الله في العماء الأرواح المهيمة والعقل والنفس الكلية، فهم مخلوقون من حضرة الجمع والوجود وهم مظاهر لها، لكن دون مظهرية الإنسان الكامل.

ومحمد ﷺ الإنسان الأكمل فإنه لا إنسان يماثل محمداً ﷺ، وكل ما عداه فهو مخلوق منه، فهو عين الوجود الصادر من الله تعالى بلا واسطة سوى الأمر، فهو صورة الأمر الإلهي الذي لا صورة له في نفس الأمر، وكلما فعلت الطبيعة الكلية صورة نفخ فيها روحاً على قدر قابليتها واستعدادها، فالطبيعة ظاهرة وهو باطنها، بل ليست الطبيعة غير الروح إلا باعتبار كثافة بعض الصور ولطافة بعضها، فقيل: الطبيعة مغايرة للروح، فإذا أراد الله تعالى إيجاد شيء توجه إليه الروح، وتوجهه عينه وعين ما توجه إليه، بمعنى أن شعوره بمراد الله عينه وعين ما شعر به وهو الشيء الذي أراد الله إيجاده، كالتوجه على المرآة هو عين وجود صورة المتوجه، عين التوجه عين الصورة وعين وجود الصورة في المرآة، ولا ترتيب إلا في العقل لا في زمان، كالبرق عين لمعانه عين الإضاءة به، عين انكشاف الأشياء به عين تعلق البصر، لا ترتيب بين هذه الأشياء إلا في العقل لا في الزمان، وهذا التوجه هو المعنى بالنفخ في قوله: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [الحجر: ٢٩] أي نفخت فيه روحي. فمن للبيان.

والمراد من النفخ لازمه، وهو: إيصال نفس النافخ في المنفوخ فيه، والنفس المنفوخ هو: نَفَس الرحمن، وهو: الروح. ولهذا عبر بالنفخ فإنه لا ينفخ إلا النَفَس، وهو لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، ولا ممتزج بشيء، ولا يخرج عنه شيء، ولا هو في جهة لشيء، بل هو منزه عن جميع صفات الحوادث، وله جميع الكمالات إلا الوجوب بالذات، وتدبيره للعالم

طبيعي لا عن إرادة، وبعض تدبيره بإرادة، يدبر كل صورة حسب مزاجها واستعدادها، ومرتبتها، وقابليتها، فلا تدبر صورة بأزيد من من قابليتها ومرتبتها ولا أنقص، فليس المنع من جهة الروح، وإنما المنع من الصور، فهي التي لا تقبل غير استعدادها، كالشمس تشرق على العالم، والصور تقبل تدبيرها حسب قابلياتها، فتذيب أشياء وتجمد أشياء، وتسيل أشياء، وتربى أشياء، وتيبس أشياء، وتضر أشياء، وتنفع أشياء. والشمس حقيقة واحدة، كذلك هو الروح في تدبير كل صورة بما قلنا لا يتبعض ولا يتغير. فلا يقال: روح الفرس أكبر أو أزيد من روح البعوض من حيث الحقيقة. كما لا يقال في الحقائق الكلية: إنها تجزأت أو زادت أو نقصت، كالإنسانية فإنها حقيقة واحدة وهي موجودة بكمالها في كل فرد من أفراد الإنسان، لا تزيد ولا تنقص، متعددة بتعدد أشخاصها التي لا تنحصر كثرة. فلا يقدح في وحدتها الحقيقية كثرة ظهورها في الأشخاص، وكالبياضية فإنها حقيقة واحدة غير متعددة. فلا يقال: أنها زادت في هذا الأبيض، ونقصت في هذا. ولا تعددت وهي على وحدتها الحقيقية ولا تزيد بظهوراتها في كل أبيض، ولا تنقص. فكل شيء فيه كل شيء، وهذه الحصص التي تختص بكل صورة حسب استعدادها ومرتبتها من تدبير الروح وإمداده هي المسماة عند الحكماء بالنفوس الجزئية، وعند أهل الله بالأرواح الجزئية، ولما كان المدبِّر اسم فاعل على صورة المدبَّر اسم مفعول كان الروح يعلم في تدبير صورة زيد مثلاً لاستعداده للعلم، وقابليته ما يجهله في تدبير صورة عمرو، لاستعداده للجهل وقابليته. والروح هو ما تبدل ولا تغير، ولهذا يقول المحققون من أهل الله: «المدبر لصور العالم كله روح واحد» يريدون وحدة التدبير والامداد، ولأنه يلزم أن ما يعلمه زيد لا يجهله عمرو، إذ العالم منهما واحد، فتعددت الأرواح بتعدد الصور، مع وحدة حقيقة الروح، ولم يعقل الروح نفسه إلا في صورة. وأول الصور النور المحمدي لما روي: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». فإن كانت الصور جمادية لا تقبل ظهور شيء من آثار الروح وإمداده إلا تماسك أجزاء صورها أمدها الروح بذلك لا غير فإنها لا تقبل، وسمي ذلك الإمداد نفساً جمادية من الجمود على حالة

واحدة وعدم التحرك والانتقال، وهي من حيث وجهها الذي لخالقها عالمة مسبحة حية إلى سائر الإدراكات، خلاف الوجه الذي لنا، فإذا أراد الله فناء تلك الصورة الجمادية قطع الروح إمداده عنها، فتداعت للفناء والانحلال فتحللت وذهب عنها اسم صورة وذلك موتها. فإن موت كل صورة بحسب مرتبتها، وحينئذ رجعت العناصر التي كانت الصورة مركبة منها إلى أصولها، فرجع التراب إلى عنصره الأعظم، وكذلك الماء والهواء والنار. وإن بقي شيء من الصورة لم يتحلل، يدبره الروح على مراد الله إلى أن يتحلل ويلتحق بالكل، ويلبس روح هذه الصورة التي تحللت وفنيت صورة برزخية، وتذهب تسبح الله وتمجده أبد الآبدين، ودهر الداهرين.

وإن كانت الصورة نباتية تقبل التغذي والنموّ باستعدادها وقابليتها، فإن النبات أمده الروح بقوّتين قوّة تمسك أجزاء الصورة، وقوّة تقبل الغذاء والنموّ، وسميت نفساً نباتية. فإذا أراد الله موت شجرة مثلاً قطعت، ذهبت عنها القوّة المغذية المنمية وبقيت عليها النفس الجمادية، وذلك موتها. فإذا أراد الله فناءها بالكلية فاحترقت وصارت رماداً أو طال عليها الأمر فتحللت أجزاؤها، رجع كل عنصر إلى أصله الأعظم كما قدمنا، ولبس ذلك الروح صورة برزخية وذهب يسبح الله كما قدّمنا.

وإذا كانت الصورة حيوانية أمدها الروح زيادة على القوّتين الجمادية والنباتية بجميع القوى ما عدا القوّة المختصة بالإنسان وهي الفكر واكتساب العلوم بالنظر. فإذا أراد الله موتها وفناءها كان الأمر على ما تقدّم.

وإذا كانت الصورة إنسانية أمدها بجميع صفاته وكمالاته إذا كانت الصورة كاملة فاضلة قابلة كصور الأنبياء وورثتهم صلى الله عليهم، وإلا فبحسب مزاجها وقابليتها ما بين كامل وأكمل، وناقص وأنقص. فإذا أمات الله إنساناً انتقلت روحه إلى جسد برزخي مناسب لأحوال صاحب الجسم التي كانت عليها في الدنيا بجميع صفاته، نقصاً وكمالاً، وأخلاقه الباطنة. فإن الله وعد الأرواح الإنسانية أن ينشئها نشأة أخرى كما قال مخاطباً للأرواح ﴿وننشئكم فيما

لا تعلمون﴾ [الواقعة: ٦١] وقد علمت النشأة الأولى فهذه غيرها بلا شك.

والأرواح الإنسانية لها انتقالات في الصور كانت يوم أخذ الميثاق في صورة، وفي الدنيا في صورة، وبعد الموت تصير إلى صورة، فإذا وضعت في القبر رجعت إلى صورتها للسؤال والجواب، ثم تصير إلى صورة برزخية ثم بعد البعث تصير إلى صورة لا نعلمها الآن، وهي في كل صورة تنسى ما كان لها(١) من العلوم والأحوال في الصورة التي قبلها.

والجسم الإنساني إذا فارق روحه يبقى كسائر الأجسام الجمادية تدبره الروح الجمادية إلى أن يتحلل ويفنى. ولهذا قد يسمع من بعض القبور بعد مضي أيام أو شهور أو سنين صراخ أو صياح أو كلام، فهذا من كلام النفس الجمادية(٢) إنذاراً وتحذيراً للسامع، أو إظهاراً لإهانة صاحب القبر خرقاً للعادة. كما يخرق الله لبعض الناس العادة فيسمعون كلام الجمادات والأحجار والأشجار، كما سمع الصحابة حنين الجذع، وتسبيح الحصا، ومن هذا كلام

---

(١) قوله (تنسى ما كان لها): هذا الكلام فيه نظر! وذلك أن الروح درّاكة للأشياء، فما كان من حقائقها العلمية فهو باقٍ معها ممتزج بها، أما ما كان مما يتعلق بمظهرها وصورتها فهذا الذي تنساه عند انفصالها عنه، والصورة التي تكون عليها يوم القيامة هي حقيقة هذه الصورة التي نحن عليها، وبهذا الجسد الترابي، ومنه يركب الإنسان وإن اختلف حجمه وقدره، مثل تنوع الصور والهيئات في الحياة والجسد واحد، فليقارن أحدنا صورته يوم ولد ويوم يموت يدرك ذلك. (ع).

(٢) قوله (من كلام النفس): هذا فيه نظر! وذلك أنَّ المقطوع به في العقيدة أن النعيم والعذاب البرزخي على الروح والجسد معاً، وإن فنيت صورته وصار تراباً أو أكلته السباع أو الأسماك يصل إلى كل ذرة منه نصيبها من النعيم أو العذاب، كما يصل شعاع الشمس إلى ذرات التراب، أو كما يصل البث الإذاعي مع بُعْد محطة الإرسال إلى كل جهاز لاقط لذلك البث، فالروح بقي للجسد بعد انقطاع تدبيرها له وتقيدها بآلاته وأجهزته إحساس بما هي عليه، فهو يحس بنعيمها ويتأثر به، وبعذابها ويتأثر به، وفناء صورته كفناء صورة الفخارة إذا انكسرت وعادت تراباً، فما يقع من سماع الموتى للسلام عند الزيارة أو ما يهدى إليهم من الثواب هو على الحقيقة لا على المجاز والله أعلم. (ع).

الجنازة كما ورد في الصحيح أنها إن كانت صالحة تقول: «قدموني» وإلا قالت عند ذلك: «يا ويلها أين تذهبون بها» وقوله: «تلك يهود تعذب في قبورها». وإلا فالعذاب بعد السؤال إنما هو في البرزخ، وأضيف إلى العبد لأنه المعروف للعموم. فإذا تحلل الجسم الإنساني رجع كل عنصر إلى أعظمه، كسائر الصور العنصرية، إلى أن يبعث الله الأرواح الإنسانية وينشئها نشأة أخرى في صور هو تعالى يعلمها. فالصور كلها فانية، والأرواح كلها باقية، كانت ما كانت الأرواح[١]. وإنما للأرواح صعق عند النفخة الأولى شبه الغشي لا غير.

وكان الروح قبل إيجاد العالم موجوداً معلوماً فلما وجد العالم خارجاً أعطاه العالم وجوداً خارجياً، كما يقال في الحقيقة الإنسانية مثلاً: هي معقولة، ولها وجود خارجي ضمن أفرادها وأشخاصها الموجودة خارجاً فلولا العالم ما عرف هو، ولولا هو مع وساطة الحق تعالى ما وجد العالم، وليس هو بمتقدم على العالم، ولا العالم متأخر عنه، وهو العنصر الأعظم الممد لجميع العالم، جواهره وأعراضه، ونسبه المنحصرة في المقولات العشر.

فإن قلت: هو العالم، صدقت، وإن قلت: هو غير العالم، صدقت.

واختلف هل تعيين الروح للصورة مقدم عليها أو معها أو بعدها. ولكل دليل، والأدلة كلها ظواهر، والذي أذهب إليه هو أن الروح مع الصورة[٢] كانت ما كانت الصورة، فإن وجودها عين حياتها، وحياتها عين روحها.

وأما قوله بعد ذكر أطوار الخلقة ﴿ثم أنشأناه﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله

---

(١) قوله (ما كانت الأرواح): ويذهب البعض من العلماء إلى أن الباقي من الأرواح هي أرواح المكلفين والمشرفين، أما أرواح الحشرات والبهائم وغيرها فتفنى عند انفكاكها عن أجسادها. والله أعلم. (ع).

(٢) قوله (الروح مع الصورة): هذا قريب مما ذهب إليه بعض العلماء أن الروح يخلقها الله سبحانه عند نفخة الملك بعد أربعة أشهرٍ من تكوين الجسد لا أنَّ الروح خلقت قبل ذلك ثم حملها الملك ونفخها كما ذهب إليه الأكثرون. والله أعلم. (ع).

عليه السلام: «ثم ينفخ فيه»[1] فالمراد ظهور آثار الروح للعيان، وذلك بالتغذي والحركة بعد كمال التعديل والتسوية. فالمولود حالة كونه نطفة وعلقة ومضغة جماد لا يقبل من آثار الروح إلا ما يقبله الجماد، ثم بعد يقبل من تدبير الروح ما يقبل الحيوان، فإذا ولد صارت آلاته وقواه يظهر استعدادها لقبول آثار الروح فيها شيئاً فشيئاً، فكلما كمل استعداد آلة ظهر أثر الروح فيها بحسب ذلك الاستعداد كمالاً ونقصاً.

قال إمام أهل الكشف والوجود وقدوتهم محيي الدين: إذا انفصلت النطفة من الأبوين انفصلت معها روحها، وبقيت الروح تدبر نفسها إلى أن تنفصل عنها بالموت.

فها قد سمعت من بعض ما يتعلق بالروح وما يكون به صدرك أثلج، وصبحك أبلج، فإنه كلام أهل الكشف والوجود، فارم بكل ما يخالفه من أقوال الحكماء والمتكلمين الذين تفكروا حيث لا يصح فكر، وقاسوا حيث لا يستقيم قياس، وخبطوا في الروح والإعادة خبط عشواء. والله الموفق الهادي لا رب غيره انتهى. وهو مما لم يسبق إليه رضوان الله عليه.

وكان للشعراء في ثنائه موسم عظيم، وفي رثائه مأتم جسيم، وكنت ممن تطفل على أهل هذا الفن فنظمت بمدحه قصائد عديده، واصطنعت سبع مقامات أعدت للمباركة له بكل سنة جديده. أسندت روايتها لسعد بن بشير مع أبي حفص المصري، وغير ذلك من المقاطيع فمن القصائد قولي:

خليليّ ما للناس عندي وماليا ... إذا في الهوى أنفقت عمري وماليا
وقالوا الهوى صعب المراس وأرجفوا ... بأني على السلوان ألقى المراسيا
فيا ليت قومي يعلمون بخلتي ... وإن قدروا فليصحبوا القلب خاليا
سلا جيرة الوادي المقدّس هل سلا ... فؤادي أو أمسى من الشوق ساليا

---

(١) حديث «ثم ينفخ فيه»: أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨ ـ ٣٣٣٢) ومسلم برقم (٢٦٤٣). وغيرهما.

معاذ الهوى أن يخطرنَّ بخاطري سلوٌ أو الإرجاف يرجف باليا
ألم يأن لي أنْ أقدر الحب قدره وأعلم فيه ما عليّ وماليا
وكيف ولي في دولة الحب منصب هو الصدر والعشاق طراً حواليا
ولو أنَّ قيساً في زمان صبابتي على عشقه لم يرض إلا اتباعيا
وقد جبلت من نشوة الحب نشأتي فإني ترى يا صاح نشوان صاحيا
إذا كان سكري عين صحوي بحبهم وذلي لهم عزي ومحوي بقائيا
أأسلو ونفسي للمعالي طموحة ومن ذا الذي يعطى فيأبى المعاليا
وآية حبي للعلا أن يرى الورى بمدح أمير العارفين افتخاريا
أمير وإني للملوك سلوك ما تقدس من أخلاقه وهي ما هيا
جلال ولا كبر وعلم ولا خفا وسيف ولا حيف وتقوى ولا ريا
فكم جاهد الأعداء حق جهاده وكم صام أياماً وأحيا لياليا
وهاب الملوك الصيد سطوة بأسه كما هابت الآرام في الصيد راميا
رقى ما رقى من سؤدد وإمارة وفضل وإفضال وما زال راقيا
إلى دولة أسمى وفتح مقدس أصاب من العلم اللدني التراقيا
وكشف لأسرار الحقائق شاهد على الذوق إلهاماً من الله هاميا
مواقفه يتلو الفتوحات فضلها وتجلو من العرفان ما كان خافيا
بفصل خطاب بارعات فصوله لقد طوقت قس الأيادي أياديا
نلوذ بأطراف القوافي وحسبنا من الفخر أن نهدي إليه القوافيا
ولم نتكلف نظمهن لأننا وجدنا المعالي فاخترعنا المعانيا
يخال أولو الإدراك إدراك كنهه ورب جبان يزعم العزم خاليا
ومهما تغالوا في بدائع وصفه يروا غاية التفريط ذاك التغاليا
تفرّد في الدنيا بأكبر همة وأثبت جأش يستخف الرواسيا
ونال من العلياء فوق مناله وما كل إنسان ينال الأمانيا
ولا عيب فيه غير أن حياته حياة لكل الناس لا زال باقيا

وقولي:

روى النسيم عن الأدواح إذ وصفا ... شمائل الورد في أرواحه وصفا
عن الجداول ما بين الخمائل في ... وقت الأصائل تروي السهل والشعفا
عن السحائب تبكي في الربا سحراً ... فيضحك الزهر في الأكمام منحرفا
عن الرياض زهت أنوارها وحلت ... أثمارها فزكت طيباً ومقتطفا
عن الضحى حين عاطته البلابل في ... كأس من الورد صهباء الندا أنفا
عن الهزار رخيم الصوت يرفعه ... إن الأمير هو الغوث الذي وصفا
هو الذي طوّق الدنيا بنعمته ... حتى جلا نوره عن بدرها الكلفا
هو الذي وقف العليا لقاصده ... طوبى لمن أمّ مغناه وما وقفا
هو الذي خفقت في الخافقين علا ... أعلامه إنما فرط الظهور خفا
هو الأمير الذي أضحت شمائله ... حلا الملوك وفي آذانهم شنفا
هو النسيب إذا أطرى النسيب به ... ترى سحاب الندا من كفه وكفا
هو الإمام الذي آياته نسخت ... بالعدل ذكر بني العباس والخلفا
وطبق الأرض علماً والسماء تقى ... والناس جوداً وتاج الأوليا تحفا
كم أصبح الترب تبراً حين يلحظه ... والدرّ إن لم يصادف لحظه صدفا
والشمس إن لم تسارع في إطاعته ... والبدر إن لم يقابل نوره كسفا
يخفى ويظهر جدواه وعزته ... لطفاً فيفني ويحيي المال والشرفا
لا يكتفي بعطاء اليوم عن غده ... أو ينكفي باعث الآمال منصرفا
لا يبلغ البلغاء المدح فيه وإنْ ... تطاولوا قصَّروا عما به اتصفا
يا خير من طار في الأقطار سؤدده ... شرقاً وغرباً وأعلى دولة الشرفا
رحماك كيف أولو الألباب تدرك ما ... أصبحت فيه من الأخلاق متصفا
ألست بحر علوم ساغ مورده ... ما خاب من جاءه في الدهر مرتشفا
ألست مفرد عرفان ينافس في ... وجودك الخلف الجمع الذي سلفا
ألست أشرف من جاد الوجود به ... ورصع الناس في أوصافه الصحفا
ألست نجل الألى بين الورى عرفوا ... بالقطب والغوث والأفراد والحنفا

ألست فرع الذي جبريل خادمه وحسبك الدهر فخر المصطفى شرفا
يا ماضي العزم والهندي تورده نحور أعدائك الكفار منتصفا
وصاحب النظر الاكسير كم جبرت أيدي نداك كسير القلب ملتهفا
لولاك لم يدرك العرفان طالبه والفضل لولاك بين الناس ما عرفا
وربما دخلت تلك المكارم في أخبار كان ولم نبصر لها خلفا
أنت الذي اتفق العصر الأخير على تقديمه لم نجد فيهم من اختلفا
من أمّ أبواب عبد القادر الحسنى قيل الجزائر يلق الفضل والترفا
عفواً فمالي أياد في مديحك بل منك اللآلي ومني النظم فائتلفا
والعفو يحلو من القوم الكرام ولا يدرى لذاذته إلا من اقترفا
قصرت معترفاً مدحي عليك وهل يرد من جاء بالتقصير معترفا
فاستجلِ شمس المعاني وهي مقبلة تهفو دلالاً ولكن تنثني هيفا
غريبة الحسن تهوى من يلاطفها واللطف بالغربا من عادة اللطفا
لقد ترامت على الأعتاب تلثمها واستعطفت قلبك الزاكي وكم عطفا
أطفا الظهور بها نار القصور وقد أغضت حياء وغضت طرفها وطفا
لم تلق كفؤاً لها إلا علاك فإن تنظر محاسنها تزدد بها شغفا
يا حسنها إن رأت وجه القبول ويا بشرى لها أنْ تقابلها بما سلفا
وغاية القصد شكرانُ الصنيع بها فألقِ من طَرْفك العالي لها طرفا
لا زلت مظهر هذا المجد مطلعاً في كل عام على هذا الثنا وكفى

ومن المقاطيع قولي مذيلاً:

يا سيداً أوجبت أخلاقه الحسنه تبديل سيئة الأيام بالحسنه
والله والله والله العظيم ومن آلى على نفسه أن لا يذوق سنه
لو مرّ يوم علينا لا نراك به لكان مقداره خمسين ألف سنه
لا زلت في دولة العرفان يعجز عن إدراك وصفك أهل الألسن اللسنه

ورثيته بأبيات كتبت على لوح من رخام ضريحه بالذهب، مشتملة على تاريخ وفاته وإشارة لا تخفى على أهل الأدب. فقلت:

لله أفــقٌ صــار مشــرق دارتــي ... قمــريــن هــلاّ مــن ديــار المغــرب
الشيـخ محيـي الـديـن ختـم الأوليـا ... قمـر الفتـوحـات الفـريـد المشـرب
والأمير عبد القادر الحسني السني ... قمر المواقف ذا الولى ابن النبي
مـن نـال مـع أعلـى رفيـق أرخـوا ... أزكى مقامات الشهود الأقرب ١٣٠٠

وقد جاء تاريخ وفاته «غاب بدر كامل».

وبالجملة فهو آية من آيات الله تعالى في ورده وصدره. ولو كان في الأمم الغابرة لقص الله علينا أحسن القصص من خبره، ولولا قلة مجال هذه الشذرة، لاقتطفنا من هذه الروضة ألف زهره، حباً به. قدس الله سره.

عوداً على بدء

ثم قرأ سيدي الوالد ـ أدامه الله تعالى ـ عليه «الموازين الذرية» للعارف الشعراني، وشرح «فصوص الحكم» للعارف الشيخ عبد الغني النابلسي، وباب النفس من «الفتوحات المكية»، وهو يشتمل على خمسين فصلاً قراءة ذوق وتحقيق. كل ذلك مع مواظبته على دروسه وأوراده، ومثابرته على نشر أعلام الطريق وعلومه.

وفي عام أربعة وثمانين ذهب إلى مكة المكرمة أواخر شهر رجب الفرد، ومعه كريمة حضرة مولانا رضي الله عنهما. فصام رمضان هناك، وأقبلت عليه وجوه البيت الحرام وأعيانها، وشرفاؤها وعلماؤها، لا سيما المغفور له أمير الشرفاء، وشريف الأمراء، الشريف: عبدالله باشا عون أمير مكة المكرمة. وأخوه المغفور له عظيم الأمراء وأمير العظماء، الشريف: حسين باشا أمير مكة المكرمة من بعده. وكعبة علماء الصلحاء، ذو المجد الأثيل، والمقام الجليل، الشيخ: عبدالله الشيبي ـ رحمه الله تعالى ـ فإنهم بالغوا بترفيع شأنه، وبلغوا الغاية بإجلاله وإكرامه، وصحبوه عامة إقامته ثَمَّ صحبة صادقة، وابتهجوا بمحبته ابتهاجاً تاماً. حتى ان الشيخ عبدالله ـ رحمه الله تعالى ـ كان يفتح له الكعبة المطهرة ومقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام خاصة، ويسر

سروراً عظيماً لسروره بذلك، وفيه اسمه الشريف في دفتر علماء الحرمين، وهي عند أهل الحجاز منقبة عظيمة جداً، لما يجدون في نفوسهم من عظمة خدمة البيت وجواره واستئثارهم بالعلم والفضل وهم لذلك أهل.

وعرض عليه أن يبني له رباطاً يكون للنقشبندية، ويبقى ثَمَّ لإقامة شعائر الطريقة العلية في تلك المشاعر الحرمية، فلم يجبه إلى ذلك حفظاً لمركز الطريقة العلية في مقام حضرة مولانا ـ نوّر الله مرقده ـ ولقي هنالك من أهل الله غير واحد واستمد من بركاتهم.

وممن بالغ بالإقبال عليه وإكرامه الإمام الصالح، والمرشد الناصح، الشيخ: محمد الفاسي الشاذلي، وهو أحد مشايخ أمير العارفين السيد عبد القادر الجزايري ـ قدس سرهما ـ فإنه كان له ميل عظيم إلى سيدي الوالد الماجد ومحبة تامة، بحيث كان إذا مر يوم ولم يره في الحرم المطهر يسعى إلى منزله، فيسأل عنه ويبحث عن أحواله.

ومنهم المربي الفاضل، والمرشد الكامل، الشيخ: الحاج إبراهيم الرشيدي قدس سره.

ومنهم العالم الصوفي الشيخ: محمد الطرابزوني شيخ والي مصر سابقاً: عباس باشا ـ برد الله مضجعه ـ وغيرهم ممن لا يحصون.

ثم لما قضى مناسكه وتملى بزيارة حجرة فخر العالم صلى الله عليه وسلم والروضة المباركة رجع إلى الأوطان يرفل في أثواب الثواب والسرور، بالعمل المبرور. فأقبل للسلام عليه معتبرو دمشق الشام، وكافة فضلائها وعلمائها الأعلام. ثم التفت لما كان فيه من إقامة شعائر الدين والطريق الخالدي بدروس العلم والأذكار الخواجكانية، واستأنف ملازمة أمير العارفين المار آنفاً، فجعل كلما اجتمع به يسمعه من مشكلات الفتوحات فيحلها بأقوى حل وأقوم بيان.

وفي عام ستة وثمانين سمع منه صحيح البخاري في دار الحديث في ملأ عظيم مدة سبعة وعشرين يوماً من شهر رمضان. وأجاز له روايته عنه وجميع

مروياته بروايته له عن والده العلامة الكبير الولي الصالح السيد: محي الدين، بروايته له عن العلامة البركة والده السيد: مصطفى، عن علامة زمانه الشهير السيد: مرتضى الزبيدي شارح القاموس، بسنده المشهور في ثبته.

واستجاز الأمير المشار إليه من سيدي الوالد الماجد قراءة الفتوحات المكية فأجاز له ذلك، وكتب له إجازة بخطه المبارك. كما أجاز ذلك له المحدّث الكبير الشيخ عبد الرحمن الكزبري - طيّب الله ثراه - وسمع بحضور الأمير المنوه به من شيخنا الشيخ محمد الطندتائي - رحمه الله تعالى - الفتوحات المكية بالنسخة التي صححها شيخنا على خط المؤلف - رضي الله عنه - الموجود في مدينة قونية، وكان أرسله الأمير - قدس سره - لتصحيحها إلى هنالك على نفقته ففعل. جزاهما الله خير جزائه.

وفي هذا العام ذهبت كريمة حضرة مولانا خالد - قدس الله سره العزيز - إلى الحج الشريف فأدركتها الوفاة في منى، فجيء بها إلى مكة المكرمة، ودفنت في المعلاه عند ضريح سيدتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها وكان لمشهدها يوم عظيم، لم يتخلف عنه أحد من خلفاء الطريقة العلية ومريديها قدس سرها فغم سيدي الوالد لذلك غماً عظيماً.

ولم يزل - أيده الله تعالى - مشغوفاً بصحبة الأمير ومزاولة كتب القوم واعتنائه بجمع كلام الأمير فيه من أجوبة مسائل، وحل مشكلات، وتفسير آيات على لسان أهل الله، حتى حصل لسيدي الوالد الماجد ملكة في فنّ التصوّف عظيمة جداً ببركة هذا العزيز. فابتدأ عام خمسة وتسعين بإقراء اصطلاحات العارف الكبير الشيخ: عبد الرزاق القاشاني لخواصه في داره ليلاً، منهم هذا الحقير، ويقررها أحسن تقرير، بحيث يوصل إلى الأفهام، المتوغلة في الإبهام، مراد القوم من ذلك الكلام، نظراً لقوة وقوفه على معاني كلماتهم، ورسوخ قدمه في فهم مصطلحاتهم، فنوّر الله سرائرهم به ورزقهم الإيمان به وحببه إليهم. ثم لما أتمه وقد صار عندهم أدنى مسكة في الفنّ قرأ لهم مواقف

الأمير ـ قدس سره ـ وطفق يحل غامضها ويبسط معانيها العرفانيه، ومداركها الإشاريه، إذ أكثرها تفسير آيات قرآنية.

وفي هذا العام بدأ يقرأ صبيحة الثلاثاء والجمعة في المسجد علاوة على دروسه الراتبة كتب الحديث النبوي فاجتمع إليه خلق كثير لتلقيه عنه. فقرأ صحيح البخاري بالقسطلاني مرتين، وفي داره بعد العشاء مرة، وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي مرة، وموطأ مالك، وسنن أبي داود، وهو الآن سنة ست وثلثمائة يقرأ سنن الترمذي قراءة إتقان وتحقيق في المسجد، وفي داره بعد العشاء إحياء العلوم للعارف الغزالي.

ثم بعد أن أتم قراءة المواقف العرفانية قرأ شرح العارف الكبير عبد الرحمن الجامي على فصوص الحكم لخاتم الأولياء المحمديين، سيدنا الشيخ الأكبر محيي الدين ـ قدس الله سرهما العزيز ـ مع مراجعة شرح العارف النابلسي، والعارف الجندي(١)، والعارف القيصري(٢).

وفي عام سبع وتسعين، توفيت والدته العزيزة، وكانت وفاتها خلالي ربيع الثاني منه، فلم يتخلف أحد عن تشييع جنازتها وصلى عليها في جامع درويش باشا(٣) أمير العارفين المشار إليه، وحملت إلى مقام حضرة مولانا ـ قدس الله سرهما ـ، فدفنت في مدفن الجد الأمجد قرب الباب، فحزن لفقدها حزناً عظيماً، وجعل يعتزل الناس أياماً طويلة، مع كثرة تراكمهم عليه وترددهم إليه، تخفيفاً لأحزانه وتسلية له عن مصابه بها، فإنها كانت في التقوى والذكر، وتلاوة القرآن، وقيام الليل، وصيام النهار، وصفاء القلب، وحب الخير، ومكارم

---

(١) مؤيد الدين بن محمود بن صاعد (٠٠٠ ـ في حدود ٧٠٠ هـ) الصوفي الجَنْدي، أحد شراح فصوص الحكم. «كشف الظنون» (٢/ ١٢٦٣).

(٢) داود بن محمود بن محمد (٠٠٠ ـ ٧٥١ هـ) القيصري، القراماني: صوفي. قطن مصر. من تصانيفه: «معجم فصوص الكلم في معاني فصوص الحكم». «معجم المؤلفين» (٤/ ١٤٢).

(٣) جامع الدرويشية: شارع الدرويشية بدمشق، عمّره درويش باشا وتوفي (٩٨٧) ودفن بمدفنه. «ذيل ثمار المقاصد» (ص٢١٦). قلت: ولا يزال عامراً بالصلوات وخطبة الجمعة.

الأخلاق، آية عظيمة تغمدها الله برحمته ورضوانه.

ولم يزل محافظاً على صحبة الأمير، دائباً على استفادة فضله الوفير، حتى توفي وكان الأمير ـ قدس سره ـ قد أقامه وصياً على أشباله القاصرين، وأوصى له بعشرة آلاف غرش، فقبل الوصية على أولاده بعد وفاته، وردَّ العشرة آلاف المذكورة على أنجاله القاصرين، وقال: أنا ما صحبته للدنيا وهو حيٌّ فلا أدنس صحبتي بها بعد وفاته فشكر الناس له هذه الصنيعة شكراً كبيراً.

وفي عام اثنين وثلثمائة، خرج حاجاً إلى البيت الحرام خلال شعبان بحراً، فأدرك صيام شهر رمضان في مكة المكرمة، وما زال يعتمر ويعمر قلبه بالعبادات وتلقي التجليات الحرمية والمواهب المكية، حتى أتم مناسك حجه على وجه السنة المطهرة، ثم قصد زيارة الحضرة النبوية، فأقام في المدينة عشرين يوماً يغترف من أنهار أنوار الذات المحمدية، ويقتطف من أزهار أسرار التجليات المصطفوية؛ غير ملتفت لإقبال أهلها عليه، مع تواردهم ليلاً ونهاراً إليه، ثم عاد على راحة الراحة، وكرامة السلامة إلى الأوطان، فاستقبله بها كل أهلها، وكان يوم قدومه موسم سرور، ومشهد حبور، فقابل كلاً منهم بالإجلال والإعظام، والاستبشار والدعاء والإكرام، وقد أنشدت وقتئذ هذه الأبيات وأنا بعيد عهد بصنعة القريض مبشراً له، ومؤرخاً قدومه أدام الله فضله. فقلت:

سلام على من في مساعيه مأجور ... وفي برّه عند البرية مأثور
وإجلاله فرض على كل مسلم ... وإفضاله بين الأفاضل مأثور
وبشرى له بالحج والعُمَر التي ... بها قد غدا بيت الهدى وهو معمور
وفي عرفات حيث يزدلف المنى ... مشاعر عرفان بها العقل مبهور
يطوف ببيت الله وهو فؤاده ... وثمة حِجْر بالمظاهر محجور
نعم كعبة الأسرار طافت حقيقة ... بها كعبة الأستار والأمر مستور
وأهلاً به من قاصدِ البلد الذي ... به علم الاعلام كالشمس منشور
بحبر له علم الشريعة مظهر ... وبحرٌ به علم الحقيقة محصور
هو المرشد الصوفي الملامي الذي به ... لواء الطريق النقشبندي منصور

به يجبر المكسور بالجهل قلبه ... ويطلق من أسر الغواية مأسور
إلى الخير منذور عن الشر منذر ... من اللطف معمور على الجود مفطور
فيا زائر المختار في الحجرة التي ... لخدمتها والله جبريل مجبور
منازل فخر الكائنات ودوره ... فما مكة[1] ما القدس ما الغار ما الطور
عليه من الله صلات صلاته ... وتكريم تسلمياته الدهر مقصور
لك الله بدراً قادماً خير مقدم ... وحظك موفور وذنبك مغفور
وقدرك مرفوع وعزمك جازم ... وبابك مفتوح وضدّك مكسور
قصرت اليد الطولى بكل فضيلة ... عليك ومنظوم البراهين منظور
وسرت لحج البيت تسعى ملبيا ... وسعيك في سِفر السعادة مذكور
فتقديمي التبشير أرخه واجب ... فحجك مبرور وسعيك مشكور ١٣٠٢
وإني في قصري فريضة مدحتي ... لضعفي في فن القريض لمعذور
وإلا فلا أنفك أشكر نعمة ... عليّ بها أنعمت أو ينفخ الصور
فلازلت في العرفان أكمل مرشد ... وقلبك في سر المناجاة مسرور
وجيبك مزرور على الزهد والتقى ... وذكرك في رَقّ السيادة مسطور
تكلل تاج المرشدين بجوهر ... من العلم مكنون به عمّه النور
ويستقبل الاقبال مغناك كلما ... تغنّى هزار أو ترنم شحرور
وقال لك البشري ملائكة السماء ... سلام على من في مساعيه مأجور

ثم عمد إلى دروسه العلمية، وأذكاره الخالدية العلية، وأعاد شرح الفصوص للعارف الجامي قدس الله سره لبعض خواصه، وهذا العُبيد منهم فقرأه بتحقيق، وفهم ثاقب وتدقيق، وكشف غوامض صعبة المسالك، كم زل فيها قدم السالك، مع مراجعة الشروح السالفة الذكر عليه، لا سيما ما كتبه أمير العارفين السيد عبد القادر الجزائري قدس الله سره على فص آدم وشعيب واسماعيل عليهم السلام بسؤاله له في ذلك كما تقدم، فإنه أتى بمالم يخطر على

---

(١) قوله (فما مكة): هذا مذهب راجح عند العلماء أن البقعة التي ضمت رسول الله ﷺ خير البقاع. (ع).

قلب بشر غيره، وقد أتمه ولله الحمد على هذا الحال.

ومن خصائصه: أنه لم يترك الدخول للخلوة في رمضان كله، وعشر ذي الحجة، وربما اختلى في عشر ربيع الأول الا في مرض أو سفر.

ومنها: أنه لا يخبر عن شيء أنه سيقع إلا وقع، فقد شاهدت ذلك منه كثيراً.

ومنها: أني كنت إذا شاورته في أمر فقال لي: افعل ما شئت! لا يتم ذلك الأمر، وإذا قال لي: افعل كذا ففعلت يتم بأكمل وجه.

ومنها: أنه يحب الخير، ويسعى به، ويتحمل الأذى لأجله، وينفق من ماله لقضاء حوائج الناس، ويرغب بالإحسان لكل أحد، لاسيما لارحامه وأقاربه، ويحتمل تحاملهم، ولا يستقبل الناس بما يكرهونه.

ومنها: أنه يحب طريق الملامتية[1] جداً من ستر السر، وموافقة الناس في حديثهم، وحركاتهم وسكناتهم، ومساواة أهل العلم، في لباسه وتهيئه، ولم يلبس الطيلسان قط، ولا اتخذ حجاباً أبداً، ولم يتغير من نظام الطريقة العلية شيأ بقدر الذرة عما كان عليه في زمن حضرة مولانا قدس الله سره العزيز، ولا أذن ولا يأذن لأحد من مريد الطريق أن يربط بغير صورة حضرة مولانا، ويرد على من يجوزه أقوى رد، مستنداً إلى ما ذكر الجد الأمجد قدس الله سره في «بهجته»، في بحث الرابطة وتقدمت الاشارة إليه في ترجمة حضرة مولانا.

ومنها: أنه يكتسب من الزراعة جرياً على قاعدة الجد الأمجد قدس الله سره، إذ هي إلى جهة الحل أقرب.

---

(١) الملامتية: هم الذين لم يُظهروا مما في بواطنهم على ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص، ويضعون الأمور مواضعها حسبما تقرر في عرصة الغيب، فلا يخالف إرادتهم وعلمهم إرادة الحق تعالى وعلمه، ولا ينفون الأسباب إلا في محل يقتضي نفيها، ولا يثبتونها إلا في محل يقتضي ثبوتها، فإن من رفع السبب من موضع أثبته واضعه فيه فقد سفه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه في موضع نفاه فقد أشرك وألحد وهؤلاء هم الذين جاء في حقهم: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري». «التعريفات» (ص١٥٦).

ومن فرط محافظته على أصول الطريقة العلية المرعية في زمن الشيخ قدس الله سره العزيز، لم تكثر خلفاؤه فما أذن بالإرشاد إلا لجماعة قليلين.

منهم: العالم الفاضل المربي الشيخ يونس أفندي مفتي قره حصار من بلاد الأناضول حفظه الله تعالى.

ومنهم: الرجل الصالح، والعالم الفالح، مربي المريدين الشيخ إسحق أفندي الچركسي حفظه الله تعالى.

وهو الآن يوم تحريري لهذا المكان غاية ربيع الأول، عام ستة وثلثمائة، مقيم على ما تقدم من احياء العلوم الشرعية، والآلية والصوفية، منهلا للقاصدين، ومرشداً للمسترشدين، وبابه محط الرجال الصادقين، أدام الله سعود وجوده! ووجود سعوده. آمين.

يعجب السامع من وصفي له   ووراء العجـز مــالــم أصــف

ختام الكلام بكلام الختام

اعلم أن للطريقة العلية، الخالدية النقشبندية، أركاناً محكمة من أهمها الذكر الخفى، والرابطة وإغلاق الباب.

فالأول: أعني الذكر الخفي هو: ذكر القلب ـ بلا حركة لسان، ولا إعانة نَفَس ـ الاسم الأعظم (الله، لله) فقط بدون ملاحظة أن الاسم الأعظم مبتدا محذوف الخبر، أو منادى بحرف نداء مقدر، أو غير ذلك.

وهو ذكر جليل، له شأن عظيم في تنوير قلب السالك، وطى منازل السلوك وهو أفضل من الجهري بمراحل.

وأما الدليل على كونه ذكراً؛ وأن المشتغل به يسمى ذاكراً لله تعالى، فهو ما نقل عن سيد الطائفتين الجنيد رضي الله عنه أنه قال: من الأعمال مالا يطلع عليه الحفظة وهو ذكر الله بالقلب، وما طويت عليه الضمائر من الهيبة والتعظيم، واعتقاد الخوف، وإجلال أوامره ونواهيه.

وقال: رأيت في النوم كأني أتكلم على الناس، فجاءني ملك فقال: ما أقرب ما يتقرب به المتقربون قلت: عمل خفي بميزان وفي.

وقال: إن الله يعطي القلوب من بره بحسب ما أخلصت له في ذكره.

وقال: التصوف جامع لعشر خصال، وعدّها إلى أن قال: ودوام الذكر بالقلب.

وما قاله ختم الأولياء المحمديين، سيدنا الشيخ الأكبر محيي الدين رضي الله عنه في «الفتوحات المكية» في باب الذكر، ونقله العارف الجيلي(١) في كتاب «الإسفار، شرح رسالة الأنوار» للشيخ الأكبر عند قوله: واشتغل بذكر الله بأي نوع شئت من الأذكار وأعلاها، قال الشارح: قدراً ورتبة ونتيجة الاسم الأعظم وهو قولك: الله، الله، لا تزيد عليها شيأ.

قال الشارح: قال الشيخ رضي الله عنه: وليكن ذكرك الاسم الجامع الذي هو الله الله، وإن شئت هو هو لا تتعدى هذا الذكر، وتحفظ أن يفوه به لسانك، وليكن قلبك هو القائل ولتكن الاذن مصغية لهذا الذكر، حتى ينبعث الناطق من سرك، فإذا أحسست لظهور الناطق فيك بالذكر، فلا تترك حالك التي كنت عليها، فإنها قوّة عرضية إن أخللت بجمعيتك لم تلبث أن تزول سريعة.

وقال رضي الله عنه: الذكر نعت إلهي وهو نفسي وملأي، في الحق وفي الخلق، ومع كونه نعتاً إلهياً فهو جزاء ذكر الخلق، قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: ١٥٢] فجعل وجود ذكره عن ذكره، وكذلك حاله فقال: (إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) فانتج الذكر الذكر، وحال الذكر حال الذكر، وليس الذكر هنا بأن تذكر اسمه، بل لتذكر اسمه من حيث ما هو مدح له وحمد، إذ الفائدة ترتفع بذكر الاسم من

---

(١) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم (٧٦٧ ـ ٨٣٢ هـ) الجيلي، القادري: صوفي. من تصانيفه: «الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار». «معجم المؤلفين» (٦/٣١٣).

حيث دلالته على الغير لا في حقك ولا في حقه.

فإن قلت قد رجّح أهل الله، ذكر لفظه الله وذكر لفظة هو، على الأذكار التي تعطي النعت، ووجدوا لها فوائد؟

قلت: صدقوا وبه أقول، ولكن ما قصدوا بذكرهم الله الله نفس دلالة على العين، وإنما قصدوا هذا الاسم أو الهو من حيث أنهم علموا أن المسمى بهذا الاسم أو هذا الضمير هو من لا تقيده الأكوان، ومن له الوجود التام، فإحضار هذا في نفس الذاكر عند ذكر الاسم بذلك وقعت الفائدة، فإنه ذكر غير مقيد، فإذا قيده بلا إله إلا الله، لم ينتج إلا ما تعطيه هذه الدلالة، وإذا قيده بسبحان الله، لم يتمكن له أن يحضر إلا مع حقيقة ما يعطيه التسبيح، وكذلك الله أكبر، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكل ذكر مقيد بقيد لا ينتج إلا ما تقيد به لا يمكن أن تجتنى منه ثمرة عامة، فإن حالة الذكر تقيده، وقد عرَّفنا الله أنه ما يعطيه إلا بحسب حاله في قوله: (إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) الحديث. فلهذا رجحت الطائفة ذكر لفظة الله وحدها، أو ضميرها من غير تقييد، فما قصدوا لفظه دون استحضار ما يستحقه المسمى، وبهذا المعنى يكون ذكر الحق لعبده باسم عام لجميع الفضائل اللائقة به، التي تكون في مقابلة ذكر العبد ربه بالاسم الله، فالذكر من العبد باستحضار، والذكر من الحق بحضور، لانا مشهودون له معلومون، وهو لنا معلوم لا مشهود، فلذا كان لنا الاستحضار وله الحضور، فالعلماء يستحضرونه في القوة الذاكرة، والعامة تستحضره في القوة المتخيلة، ومن عباد الله العلماء بالله من يستحضره في القوتين، فيستحضره في القوة الذاكرة عقلاً وشرعاً، وفي القوة المتخلية شرعاً وكشفاً، وهذا أتم الذكر لأنه ذكره بكله. ومن ذلك الباب يكون ذكر الله له.

ثم إن الله ما وصف شيأ بالكثرة إلا الذكر، ومأمر بالكثرة من شيء إلا من الذكر، فقال: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقال: ﴿فاذكروا الله ذكرا كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] وما أتى الذكر قط إلا بالاسم الله خاصة معرى من التقييد فقال: ﴿اذكروا الله﴾ وما قال بكذا، وقال: ﴿ولذكر الله

أكبر﴾ [الإسراء: ٤٦] ولم يقل بكذا، وقال: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ [الأنعام: ١١٨] ولم يقل بكذا، وقال عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله»[1] فما قيده بأمر زائد على هذا اللفظ، لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدين، وكل دار يكونون فيها. فإذا لم يبق في الدنيا منهم أحد، لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتزول وتخرب. وكم من قائل: الله، الله، باق في ذلك الوقت لكن ما هو ذاكر بالاستحضار الذي ذكرناه؟ فلهذا لم يعتبر اللفظ دون الاستحضار ﴿فإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفورا﴾ لأنهم لم يسمعوا ذكر شركائهم واشمأزت قلوبهم، هذا مع علمهم بأنهم هم الذين وضعوها آلهة ولهذا قال: ﴿قل سموهم﴾ [الرعد: ٣٣] فإنهم إن سموهم قامت الحجة عليهم، فلا يسمى الله إلا الله. انتهى. ما نقله الجيلي رضي الله عنه.

وما قاله: العارف بالله تعالى الشيخ حسن بن موسى الكردي نزيل دمشق المتوفى بها سنة اثنين وأربعين ومائة وألف، في شرح «مواقع النجوم» لسيدنا الشيخ الأكبر رضي الله عنه، وعبارته عند الكلام على مقام الذكر القلبي:

ومنهم من يدخله ـ أي هذا المقام ـ باسم الذات الخاصة، لأنه سلطان الأسماء كلها فإنه الجامع لمعانيها، وإليه ترجع الأسماء وهو كالعلم لها، وهو المسمى بالجلالة، لعلوّ شأنه وجلالة أمره، لا تنال أيدي الأفهام والعقول أثمار أسراره، كيف يتأتى للبشر الوصول إلى حقائق الألوهية، والاطلاع على خفايا مملكة الفردانية؟! وما لأهل الذات إلا الدهشة والحيرة، فكيف بأهل الصفات؟! وله شرف زائد على كل الأسماء، فلو أزيل حرف الألف يبقى لله، ولو أزيلت اللام الأولى يبقى له، وعند حذف الثانية يبقى هو بالإشباع، بخلاف غيره من الأسماء، فإنه ليس كذلك.

---

(١) حديث «لا تقوم الساعة»: أخرجه مسلم برقم (١٤٨)، وأحمد (٣/ ١٠٧ و١٦٢)، والترمذي (٢٢٠٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٨٤٧). بألفاظ متقاربة.

وذكر اسم الذات أي الله، هو مذهب الإمام أبي حامد الغزالي وقال في كتابه «كيمياء السعادة»: ولا تظن أن هذه الطاقة تنفتح من عين القلب بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة أيضاً لمن أخلص الجهاد والرياضة، وخرج عن أسر الشهوة، فإذا جلس في مكان خال مع تعطيل الحواس وفتح العين والسمع الباطنين وقال دائماً: الله، الله. بالقلب دون اللسان إلى أن يصير لا خبر له من نفسه ولا من العالم، ويبقي لا يرى إلا الله، انفتحت طاقة في القلب، فيرى فيها يقظةً ما يرى في النوم، من أرواح الملائكة والأنبياء والأولياء والصور الحسنا، ومالا يمكن شرحه. وهو أيضاً مذهب جماعة، ولقيتهم على ذلك الذكر: الله، الله، وأمروني به.

وعلى ذلك أيضاً جميع شيوخ الرسالة، كالجنيد البغدادي وشيخه سري السقطي، ومعروف الكرخي، وداود الطائي، وإبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن حنيف، وفضيل بن عياض، والمحاسبي، والحافي، وغيرهم قدس أسرارهم.

فمن قال: الذكر كلمة لا تكون إلا بجملة إسمية أو فعلية فقول الذاكر: الله الله مقتصراً عليه من البدع وأفعال الجهلة غير ذاكر لله ليس بصحيح، ومن القائلين بهذا العز بن عبد السلام(١) والبلقيني(٢) وغيرهما، وهو خلاف النص وجمهور مشايخ الطريق، ودعوى بلا دليل. قال الله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله كثيراً﴾ وقال ﷺ:

---

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم (٥٧٧ ـ ٦٦٠ هـ) الدمشقي الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي، ولد ونشأ في دمشق، وزار بغداد سنة (٥٩٩ هـ) ثم عاد إلى دمشق فتولى التدريس والخطابة بزاوية الغزالي ثم الخطابة بالجامع الأموي. خرج إلى مصر فولاه صاحبها القضاء والخطابة ومكنه في الأمر والنهي. ثم اعتزل ولم بيته. توفي بالقاهرة.
«الأعلام» (٤/ ٢٢١)

(٢) عمر بن رسلان بن نصير (٧٢٤ ـ ٨٠٥ هـ) البلقيني، القاهري، الشافعي، العسقلاني الأصل: محدث، حافظ، فقيه، أصولي، مجتهد، بياني، نحوي، مفسر، متكلم، ناظم ولد بيلقينة من بلاد الغربية بمصر، ونشأ بالقاهرة، ودخل بيت المقدس، وقدم دمشق وتولى قضاءها، وتوفي في القاهرة. «معجم المؤلفين» (٨/ ٢٨٤).

«لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله» وفي رواية أخرى: «حتى لا يقال في الأرض الله الله».

وقال بعضهم: هذه المقالة على القائل مقالة أو رجع عنها.

ومن هنا قال النبي ﷺ: «اتقوا زلة العالم وانتظروا فيئته»[1] أي: رجوعه إلى الحق، لأنه وإن زل لم يرد الباطل.

فلا يزال الذاكر بالجلالة على الوجه الذي ذكره الإمام أبو حامد رحمه الله، على هذه الحالة في بدء مقامات الذكر السبعة، التي يجب على كل كامل قطعها حتى يبلغ درجة التحقيق، فيذكر الله بالقلب دون اللسان، حتى يتعمر الباطن كله باحتراق الخبائث كلها فإن الذكر نار لا تبقي ولا تذر، ولا يبقى فيه - أي في الباطن - جوهر فرد - من قواه الباطنية - إلا ينطق بذلك الذكر بعينه حتى يغلب عليه - أي الذاكر - حال الذكر فلا يبصر في الوجود - شيأ يقع نظره عليه، إلا يراه معلنا - بما هو - أي الذاكر - عليه من الذكر - فهو على أي ذكر يرى الأشياء ذاكرة به أو مكتوباً عليها الذكر - ولو كان في ذلك الوقت - الذي يغلب عليه حال الذكر فيه - ألف شخص - ذاكرين، بألف ذكر مختلف - كل شخص يذكر بغير ما يذكر به الآخر - وغلب عليهم الحال - أي حال الذكر مثله - لأبصر كل واحد من العالم - منهم، ومن غيرهم - ناطقاً بذلك الذكر الذي هو عليه - وهذا هو التوحيد الصرف، وهو قطع مسافة الفرق والدخول في مقام الجمع، فلا يزال ذاكراً من أول مقامات ذلك السفر حتى ينتهي إلى المقام السابع، فيسافر من مقام الجمع إلى مقام جمع الجمع فيفنى من كان باقياً، ويبقى من كان فانياً، فما دام الذاكر فانياً لا يدخل في هذا المقام، ولا يسافر من المقام الأول، ثم يسافر إلى مقام السداجة المحضة، فيكون هيولى قابلة لكل تجل من الصور والمعاني، ثم يسافر إلى مقام مفاتح الغيب، أي الأسماء التي أظهرت صور

---

(١) حديث «اتقوا زلة العالم»: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٦٠)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢١١)، والديلمي في «المسند» برقم (٣٠٨). وفي إسناده مقال والأشبه أنه موقوف.

الكائنات من الغيب إلى الشهادة فيسبح في فلك الأسماء والصفات، فيعلم مقتضياتها على ما هي عليه في محالها، ثم يسافر إلى مقام مفاتح غيب الغيب، أي الأمهات فيعرفها بالذات، ويتحقق بها صورة ومعنى في كل الأوقات، ثم يسافر إلى مقام استكمال التحقق بالأسماء الذاتية، والنعوت الصفاتية، والأوصاف الأفعالية، فيظهر بها جملة وتفصيلا، فيتدرع بالهيبة، ويتوّج بالعظمة، ثم يسافر إلى مقام نزول الرب في الثلث الأخير من كل ليل إلى سماء الدنيا، فإذا انتهى إلى المقام السابع، وهو نهاية الذاكر ليس له ـ أي للذاكر ـ وراء ذلك ـ المقام السابع ـ مرمى، أي مكاناً يرمى فيه الذكر أصلاً، فيطلع الفجر وتظهر شمس الكمال على سائر أعضائه، كما كان لروحه وقلبه، فحينئذ يكون الحق سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي بصره به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وما بعد هذا إلا العجز والحيرة ا. هـ.

وقال الشيخ الأكبر أيضاً في «الفتوحات المكية» في الباب الأحد والستين وثلثمائة ما نصه: وأما الأثر الرابع فكقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله» فأتى به مرتين ولم يكتف بواحدة، وأثبت بذلك أنه ذكر على الانفراد، ولم ينعته بشيء وسكّن الهاء من الاسم، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكرا كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] وهو تكرار هذا الاسم، ولذكر الله أكبر، ولم يذكر إلا الاسم الله خاصة، وهو مأمور من الله أن يبين للناس ما نُزِّل إليهم، فلولا أن قول الإنسان: الله الله، له حفظ العالم الذي يكون فيه هذا الذكر، لم تعرف بزواله زوال الكون الذي زال منه وهو الدنيا، وهذا الاسم كان ذكرنا وذكر شيخنا الذي دخلنا عليه، وما في فوائد الاذكار أعظم من فائدته فلما قال الحق: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ ولم يذكر صورة ذكر آخر مع كثرة الأذكار بالأسماء الإلهية، فاتخذه أهل الله ذكراً وحده فانتج لهم في قلوبهم أمراً عظيماً لم ينتجه غيره من الأذكار، فإن بعض العلماء بالرسم لم ير هذا الذكر لارتفاع الفائدة عنده فيه، اذ كل مبتدأ لا بدَّ له من خبر فيقال له: لا يلزم ذلك في

اللفظ، بل لا بد له من فائدة وقد ظهرت في الذاكر به عند ذكره بهذه الكلمة خاصة، فتنتج له في باطنه من نور الكشف مالا ينتجه غيره، بل له خبر ظاهر في اللفظ أو إضافة إلى تنزيه، أو ثناء بفعل، ومعلوم إذا ذكر أمر ما، ثم ذُكر أمر ما، وكرر على طريق التأكيد له، أنه يعطي من الفائدة مالا يعطيه من ليس له هذا الحكم ولا قصد به، فهو أسرع وأنجح في طلب الأمور، فلا عيب في العالم جملة واحدة.

وقال في الباب الثاني والستين وأربعمائة في الأقطاب المحمديين: ثم إن جعل العالم الجسمي والجسماني في منزلين، منزل يسمى الدنيا، ومنزل يسمى الآخرة، وجعل سكانهما الإنس والجان، والمعتبر فيهما الإنس، والمعتبر من الإنس الكمل لاغير، وهم الذين ذكرهم: الله، لا يزيدون عليه في نفوسهم هذا ذكرهم في نفوسهم. ا. هـ.

وأما الدليل على أنه أفضل من الذكر الجهري، فهو ما نقله الجدُّ الأمجد ـ قدس سره ـ في كتاب الأذكار من «بهجته السنية»، فقال: اعلم أن الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، كما قاله الإمام النووي رحمه الله في كتاب «الأذكار»: الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، والأفضل ما كان بالقلب واللسان جميعاً فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل. اهـ ولكل منهما شواهد من الكتاب والسنة، والذي اختاره ساداتنا النقشبندية من الأذكار، الذكر الخفي القلبي، ولهم على ذلك دلائل من الكتاب والسنة ونقول العلماء الأئمة.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٥] وقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ الآية [الأعراف: ٥٥].

ومن السنة ما ورد في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[1] رواه البخاري وغيره.

---

(١) حديث «أنا عند ظن»: أخرجه البخاري برقم (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، وأحمد =

وعن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يفضل الذكر على الذكر سبعين ضعفاً إذا كان يوم القيامة رجع الله الخلائق إلى حسابه، وجاءت الحفظة بما حفظوا وكتبوا، قال الله تعالى: انظروا هل بقي لعبدي من شيء؟ فيقولون: ما تركنا شيئاً مما علمناه وحفظناه إلا وقد أحصيناه وكتبناه. فيقول الله تعالى: إن لك عندي حسناً وأنا أجزيك به، وهو الذكر الخفي»[1]. ومعنى قوله: الذكر، أي: الخفي الذي لا تسمعه الحفظة. وقوله: على الذكر، أي: الذي تسمعه الحفظة.

وما ورد في الجامع الصغير: «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي»[2]. والأحاديث في فضل الذكر الخفي كثيرة.

قال القاضي عياض[3] رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان. وذكر القلب نوعان: أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلها: التفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته، وآياته وملكوته في أرضه وسمواته.

وفي كتاب «بغية أولي النهي شرح غاية المنتهي» من فقه الحنابلة تأليف الشيخ الإمام والحبر الهمام: عبد الحي الصالحي، الشهير بابن العماد[4]

= (٣/ ٤٩١ و٥٣٩)، والترمذي (٢٣٨٨) وغيرهم.

(١) حديث «يفضل الذكر»: أخرجه ابن أبي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١/ ٤٠٧) برقم (٥٥٦)، ورواه البيهقي من طريق آخر مرفوعاً. وهذا منكر جداً.

(٢) حديث «خير الذكر الخفي»: أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢، ١٧٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٩١، ٩٢)، وأبو يعلى في «المسند» (٧/ ٨١، ٨٢). وغيرهم.

(٣) عياض بن موسى بن عياض (٤٩٦ ـ ٥٤٤ هـ) اليحصبي، المالكي، يعرف بالقاضي عياض: محدث، حافظ، مؤرخ، ناقد، مفسر، فقيه، أصولي، عالم بالنحو واللغة، شاعر، خطيب. أصله من الأندلس، وتحول جده إلى فاس، ثم سكن مدينة سبتة. تولى القضاء بغرناطة، توفي بمراكش. «معجم المؤلفين» (٨/ ١٦).

(٤) عبد الحي بن أحمد بن محمد (١٠٣٢ ـ ١٠٨٩ هـ) الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، يعرف بابن العماد: مؤرخ، فقيه، أديب. ولد في صالحية دمشق، وأقام في القاهرة مدة طويلة، =

الحنبلي رحمه الله، عند قول الماتن: صلاة التطوع أفضل تطوع بدن لا قلب، وقوله: لا قلب إشارة إلى أن عمل القلب أفضل.

قال الشيخ تقي الدين[1] رحمه الله تعالى: الذكر بالقلب، أفضل من القراءة بلا قلب، وهومعنى كلام ابن الجوزي، فإنه قال: أصوب الأمور أن تنظر إلى ما يطهر القلب ويصفيه للذكر والأنس فتلازمه. ونقل ههنا:الفكر أفضل من الصلاة والصوم انتهى. وكان الشبلي رحمه الله تعالى ينشد في مجلسه:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بغير عيان

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق[2] ينشد لبعضهم:

ما إن ذكرتك الا هم يغلبني ... قلبي وسرى وروحي عند ذكراكا
حتى كأنّ رقيباً منك يهتف بي ... إياك ويحك والتذكار إياكا.

انتهى.

وفي «الفتاوى الحديثية» للعلامة الإمام أحمد بن حجر الهيتمي المكي، في جواب السؤال عن الملائكة: هل خلقوا دفعة واحدة، أو تارات؟ ما نصه: وذكر لا إله إلا الله أفضل من ذكر الجلالة مطلقاً، هذا بلسان أئمة الظاهر.

وأما عند أهل الباطن فالحال يختلف باختلاف أحوال السالك، فمن هو في ابتداء أمره ومقاساته لشهود الأغيار وعدم انفكاكه عن التعلق بها، وعن إرادته

= وتوفي في مكة. «معجم المؤلفين» (٥/ ١٠٧).

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، يعرف بتقي الدين ابن تيمية: محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مشارك في أنواع من العلوم. امتحن وأوذي مرات، وحبس بقلعة القاهرة، والاسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وتوفي بها. «معجم المؤلفين» (١/ ٢٦١).

(٢) الحسن بن علي بن محمد الدقاق (٠٠٠ ـ ٤٠٥ هـ) النيسابوري الشافعي: أبو علي، صوفي، فقيه، أصولي. «معجم المؤلفين» (٣/ ٢٦١).

وشهواته وإبقائه مع نفسه، يحتاج إلى إدمان الإثبات بعد النفي، حتى يستولي عليه سلطان الذكر، وجواذب الحق المترتبة على ذلك، فإذا استولت عليه تلك الجواذب، حتى أخرجته عن شهواته وإراداته وحظوظه وجميع أغراض نفسه، فصار بعيداً عن شهود الأغيار، واستولى عليه مراقبة الحق، أو شهوده، فحينئذ يكون مستغرقاً في حقائق الجمع الاحدى والشهود السرمدي الفردي، فالأنسب بحاله الإعراض عما يذكِّره بالأغيار، واستغراقه فيما يناسب حاله من ذكر الجلالة فقط، لأن ذلك فيه تمام لذته، ودوام مسرته ونعمته، ومنتهى أربه ومحبته، بل إذا وصل السالك لهذا المقام، وأراد قهر نفسه إلى الرجوع إلى شهود غيره، حتى ينفيه أو يتعلق به خاطره لم تطاوعه نفسه المطمئنة، لما شاهدتْ من الحقائق الوهبية، والمعارف الذوقية، والعوارف اللدنية، وقد فتحنا لك باباً تستدل بماذكرناه في فتحة على ما وراءه، فافهم مقاصد القوم السالمين عن كل محذور ولوم، وسلِّم لهم تسلم، ولا تنتقد حقيقةً من حقائقهم تندم، بل قل فيما لم يظهر لك: الله أعلم.

وكذا يقال في الذكر باللسان والقلب أو بالقلب فقط. فبلسان أهل الظاهر ذكر اللسان والقلب أفضل مطلقا، وعند أهل الطريق في ذلك تفصيل تفهمه مما قبله إنْ وعيته وتأملته، فإنَّ المستغرق قد يعرض له من الأحوال ما يلتجم به لسانه، ويصير في غاية من مقام الخيرة والدهش، فلا يستطيع نطقاً أو يتفرق بسبب ما هو متحل به من معالي تلك الأحوال، وما هو مستغرق فيه من بحار العرفان والكمال.

والحاصل: أن الأولى بالسالك قبل الوصول إلى هذه المعارف أنْ يكون مديماً لما يأمر به أستاذه الجامع لطرفي الشريعة والحقيقة، فإنه الطبيب الأعظم، فبمقتضى معارفه الذوقية، وحكمه الربانية، يعطى كل بدن ونفس ما يراه هو اللائق بشفائها، والمصلح لفنائها.

إلى أن قال: والذكر الخفي قد يطلق ويراد به ما هو بالقلب فقط، وما هو

بالقلب واللسان، بحيث يسمع نفسه ولا يسمعه غيره، ومنه: «خير الذكر الخفي» أي: لأنه لا يتطرق إليه الرياء.

وأما حيث لم يسمع نفسه، فلا يعتد بحركة لسانه، وإنما العبرة في قلبه. على أن جماعة من أئمتنا وغيرهم يقولون: لا ثواب في ذكر القلب وحده، ولا مع اللسان حيث لم يسمع نفسه وينبغي حمله على أنه لا ثواب عليه من حيث الذكر المخصوص، أما اشتغال القلب بذلك وتأمل معانيه واستغراقه في شهودها، فلا شك أنه بمقتضى الأدلة يثاب عليه من هذه الحيثية سبعين ضعفاً انتهى.

وبما تقرر علم أن قول بعضهم: الذكر لابد أن يكون باللسان، أو بجملة اسمية أو فعلية، حتى يثاب عليه والا فلا ممنوع.

الركن الثاني: الرابطة، وهي: أنْ يستحضر المريد صورة شيخه الكامل المشهود له بالوصول إلى مقام الفناء والبقاء الأتمين، مستمداً من روحانيته وأنواره، وهي أشد تأثيراً من الذكر في حصول الجذبة الإلهية، وترقي السالك إلى معارج الكمال.

وحسبنا برهاناً على إثبات أصلها شرعاً، ما أورده ولي العلماء، وعالم الأولياء، حضرة سيدنا ومولانا خالد ـ قدس الله سره العزيز ـ في رسالة خاصة أرسل بها إلى القسطنطينية ـ دار الخلافة الإسلامية ـ في هذا الشأن، ونصها بعد الخطبة:

بلغنا أن بعض الغافلين، عن أسرار حق اليقين، يعدون الرابطة بدعة في الطريقة، ويزعمون أنها شيء ليس له أصل ولا حقيقة، كلا إنها أصل عظيم من أصول طريقتنا العلية النقشبندية، بل هي أعظم أسباب الوصول، بعد التمسك التام بالكتاب العزيز وسنة الرسول، ومن جملة ساداتنا من كان يقتصر في السلوك والتسليك عليها، ومنهم من كان يأمر بغيرها أيضاً مع تنصيصه على أنها أقرب الطرق إلى الفناء في الشيخ الذي هو مقدمة الفناء في الله تعالى. ومنهم من أثبتها بنص قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩] فقال من السادة الكبار الشيخ عبيد الله المشهور بخواجه أحرار ـ قدس سره ـ ما حاصله:

إن الكينونة مع الصادقين المأمور بها في كلام رب العالمين، الكون معهم صورة ومعنى، ثم فسر الكينونة المعنوية بالرابطة، وهو عند أهله مشهور، وفي كتاب «الرشحات» بالتفصيل مسطور.

فكأنهم لم يتصوروا معنى الرابطة اصطلاحاً، وإلا لما وسعهم إنكارها، إذ هي في الطريقة عبارة عن استمداد المريد من روحانية شيخه الكامل الفاني في الله، وكثرة رعاية صورته ليتأدب ويستفيض منه في الغيبة كالحضور، ويتم له باستحضاره الحضور والنور، فينزجر بسببها عن سفاسف الأمور.

وهو أمر لا يتصور جحوده إلا من كتب الله في جبهته الخسران، واتسم والعياذ بالله تعالى بالمقت والحرمان، لأنه إن كان ممن يعتقد بالأولياء، فقد صرحوا بحسنها وعظم نفعها، بل واتفقوا عليها كما لا يخفى على من تتبع كلماتهم القدسية، واستنشق نفحاتهم الأنسية، وإلا فلا بد أنْ يعتقد بكلام أئمة الشرع وأساطين الأصل والفرع، فقد قال بها من كل مذهب من المذاهب الأربعة أئمة تصريحاً وها أنا أعد بعض ما ذكروه مع تعيين الأماكن ليراجعها من ليس في قلبه مرض، ولا ينكر على الأولياء بمجرد اتباع الهوى والغرض، فأقول وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق:

قد صرح بالتصرف والإمداد الروحانيين جماهير المفسرين في تفسير قوله: ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ [يوسف: ٢٤] ومنهم صاحب الكشاف مع انحرافه عن الاعتدال، واتصافه بالإنكار والاعتزال، ولفظه: وفسر البرهان، بأنه أي: يوسف عليه السلام سمع صوتاً: إياك وإياها، فلم يكترث له فسمعه ثانياً فلم يعمل، فسمعه ثالثاً: أعرضْ عنها، فلم ينجع فيه حتى مُثِّل له يعقوب عاضاً على أنملته، وقيل: ضرب بيده في صدره إلى آخر ما قال.

وقال من الأئمة الحنفية الشيخ الإمام أكمل الدين[1] في شرح «المشارق»

---

(١) محمد بن محمد بن محمود (٧١٠ ـ ٧٨٦ هـ) البابرتي، الرومي، الحنفي (أكمل الدين): فقيه أصولي، فرضي، متكلم، مفسر، محدث، نحوي، بياني. رحل إلى حلب وأقام بها=

في حديث: «من رآني» إلى آخره[1]: الاجتماع بالشخص يقظة مناماً لحصول ما به الاتحاد، وله خمس أصول كلية: الاشتراك في الذات، أو في صفة فصاعداً، أو في الأفعال، أو في حال، أو في المراتب. وكل ما يتعقل من المناسبة بين شيئين أو أشياء لا يخرج عن هذه الخمسة، وبحسب قوته على ما به الاختلاف وضعفه يكثر الاجتماع ويقل، وقد يقوى على ضده فتقوى المحبة بحيث يكاد الشخصان لا يفترقان، وقد يكون بالعكس، ومن حصَّل الأصول الخمسة، وثبتت المناسبة بينه وبين أرواح الكُمَّل الماضين، اجتمع بهم متى شاء. انتهى.

وقال منهم أيضاً في شرح «الأشباه» أحمد بن محمد الشريف الحموي، في كتابه «نفحات القرب والاتصال، بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الانتقال» ما خلاصته:

إن الأولياء يظهرون في صور متعددة بسبب غلبة روحانيتهم على جسمانيتهم، وحمل عليه بعض روايات الحديث الصحيح، حيث قال ﷺ: «ينادى من كل باب من أبواب الجنة بعض أهل الجنة، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وهل يدخل أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم! وأرجو أن تكون منهم»[2] انتهى بالمعنى، وقالوا: إن الروح الكلية تظهر في سبعين ألف صورة في دار الدنيا، ففي البرزخ من باب أولى، لأن الروح فيه أقوى وأكثر انتقالاً بسبب المفارقة عن البدن. انتهى.

قال: ومن الأئمة الشافعية الإمام الغزالي في «الإحياء» في باب (تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن من الصلاة) ما نصه: وأحضر في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم، وقل: السلام عليك أيها النبي، وليصدق

= مدة، ثم قدم القاهرة، وكان أرباب المناصب يعظمونه، وتوفي بمصر، وحضر السلطان فمن دونه جنازته. «معجم المؤلفين» (١١/٢٩٨).

(١) حديث «من رآني»: تقدم تخريجه.

(٢) انظر صحيح البخاري رقم (١٧٩٨)، ومسلم رقم (١٠٢٧).

أملك في أنه يبلغه، ويرد عليك ما هو أوفى منه. انتهى.

وقال منهم العلامة الشهاب ابن حجر المكي[1]، شيخ الشهاب الخفاجي[2]، في شرح «العباب في بيان معاني كلمات التشهد» ما نصه: وخوطب ﷺ كأنه إشارة إلى أنه تعالى يكشف له عن المصلين من أمته، حتى يكون كالحاضر معهم، ليشهد لهم بأفضل أعمالهم، وليكون تذكر حضوره سبباً لمزيد الخشوع. ثم أيده بما مر عن الإحياء.

ولشيخ الشيوخ الإمام العارف السهروردي الشافعي في «العوارف» في باب صلاة أهل القرب مثله، وعن عباداته: ويسلم على النبي ﷺ، ويمثل له بين عيني قلبه. انتهت.

وصرح العلامة الشهاب ابن حجر في أواخر شرح «الشمائل»، وفاقاً للحافظ الجلال السيوطي في كتابه «تنوير الحلك في رؤية النبي والملك»: أنه حكى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ في النوم، فدخل على بعض أمهات المؤمنين، فأخرجت له مرآته ﷺ فرأى صورته ﷺ ولم ير صورة نفسه. انتهى.

وهذا هو الفناء في الرابطة في اصطلاح القوم، لا يقال: ليس الكلام في صورة النبي ﷺ، لأنا نقول: أن هذا ليس من خصائص الأنبياء، وكل ما هو كذلك فهو مشترك بينهم، وبين الأولياء، ولا شك في هذا عند أهله، نعم مخاطبة غيره ﷺ في الصلاة مبطلة لها، وإحضار الصورة والتسليم على صاحبها من خصائص حضرة روح الوجود، وصاحب المقام المحمود، عليه وعلى آله

---

(١) أحمد بن محمد بن محمد (٩٠٩ ـ ٩٧٣ هـ) الهيتمي، السعدي، الأنصاري، الشافعي: فقيه مشارك في أنواع من العلوم، ولد في محلة أبي الهيتم من إقليم الغربية بمصر، وتوفي في مكة. «معجم المؤلفين» (٢/ ١٥٢).

(٢) أحمد بن محمد بن عمر (٩٧٩ ـ ١٠٦٩ هـ) الخفاجي، المصري، الحنفي، شهاب: لغوي، أديب، مشارك. ولد في مصر، وتوفي فيها وقد أناف على التسعين.

«معجم المؤلفين» (٢/ ١٣٨).

وصحبه الصلاة والتسليم من الكريم الودود، وهو غير مراد فيما نحن فيه.

هذا وقال منهم الحافظ الجلال السيوطي في رسالة حافلة ألفها في مثل هذه المادة، سماها كتاب «المنجلي في تطور الولي» نقلاً عن الإمام السبكي الشافعي في «الطبقات الكبرى»: الكرامات أنواع، إلى أن قال:

الثاني والعشرون: التطور بأطوار مختلفة، وهو الذي يسميه الصوفية بعالم المثال، وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها في صورة مختلفة من عالم المثال، واستأنسوا له بقوله تعالى: ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ [مريم: ١٧] ومنه قضية قضيب البان، ثم ذكرها وذكر غيرها. انتهى.

وقال منهم الإمام العارف الشعراني ـ قدس الله سره ـ في كتاب «النفحات القدسية» عند عد آداب الذكر ما نصه: السابع: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه، وهذا عندهم آكد الآداب. انتهى بحروفه.

قلت: وليس الرابطة عندنا معاشر النقشبندية إلا هذا. كما يشهد له ما في جميع كتبهم المعتمدة.

وذكر العلامة السفيري الحلبي من الشافعية في شرح البخاري عند قوله: «ثم حبب إليه الخلاء»[1]: إن الشيطان كما لا يقدر أن يتمثل بصورة النبي ﷺ، لا يقدر أن يتمثل بصورة الولي الكامل أيضاً بشرط ذكره.

ثم قال: من أكابر الحنفية أيضاً العلامة الشريف الجرجاني[2] ـ قدس الله سره ـ في أواخر شرح «المواقف» قبيل ذكر الفرق الاسلامية: بصحة ظهور صور الأولياء للمريدين، وأخذهم الفيوض منها حتى بعد الموت. وكذا في أوائل حواشيه على شرح المطالع.

---

(١) حديث «ثم حبب إليه الخلاء»: أخرجه البخاري في «الصحيح» برقم (٣).

(٢) علي بن محمد بن علي (٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ) الجرجاني، الحسيني، الحنفي، يعرف بالسيد الشريف: عالم، حكيم، مشارك في أنواع من العلوم. ولد بجرجان، وتوفي بشيراز. «معجم المؤلفين» (٨/ ٢١٦).

وقال منهم أيضاً الإمام العارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين الحنفي النقشبندي العثماني ـ قدس الله سره ـ عند بيان طرق الوصول إلى الله تعالى في رسالته المعروفة «بالتاجية» ما نصه: الطريق الثالثة: الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة وتحقق بالصفات الذاتية، فإن رؤيته بمقتضى (هم الذين إذا رؤوا ذكر الله) تفيد فائدة الذكر، وصحبته بموجب (هم جلساء الله تعالى)، تنتج صحبة المذكور، إلى أن قال: فينبغي أن تحفظ صورة الشيخ في الخيال، وتتوجه للقلب الصنوبري، حتى تصل الغيبة والفناء عن النفس، وإنْ وقفت عن الترقي فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن، وتفرض من كتفك إلى قلبك أمراً ممتداً، وتأتي بالشيخ على ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك، فإنه يرجى لك بذلك حضور الغيبة والفناء. انتهى بحروفه.

وجرى عليه قدوة المحققين وزبدة المتأخرين، الشيخ العارف عبد الغني النابلسي الحنفي ـ قدس الله سره ـ، وأقره في شرحه على «التاجية».

وقال من أئمة الحنابلة الغوث الأعظم، والإمام الأفخم، سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي، ـ قدس سره ـ ما معناه: أن للفقير ـ أي السالك طريق القوم ـ رابطة قلبية مع الأولياء، ويستفيد منهم بسبب تلك الرابطة باطناً، فلا بأس بعدم اكرامه ظاهراً، بخلاف الأجنبي الذي ليس له رابطة معهم. انتهى. عن الإمام السهرودي في باب آداب المريدِ مع شيخه من «عوارفه».

وقال منهم أيضاً العلامة شمس الدين ابن القيم، في كتاب «الروح»: إن للروح شأناً مع البدن، فتكون في الرفيق الأعلى، وهي متصلة ببدن الميت، بحيث إذا سُلِّم على صاحبها ردَّ السلام، وهي في مكانها هناك. انتهى. نقلاً عن الحافظ في كتابه «المنجلي»، والنصوص بهذا المعنى أكثر من أن تحصى، وفيه دلالة ظاهرة على نوع تصرفٍ للأولياء بعد الموت.

قلت: وقد ألف كثير من المحققين في ذلك رسائل واضحة المسالك، فليحذر الموفق عن إنكاره فإنه من المهالك.

وقال من أئمة المالكية الإمام الجليل، صاحب «المختصر» المشهور الشيخ خليل[1] رحمه الله تعالى ما نصه: الولي إذا تحقق ولايته، تمكن من التصور في روحانيته، ويُعطى من القدرة على التصور في صور عديدة، وليس ذلك بمحال، لأن المتعدد هو الصورة الروحانية وقد اشتهر ذلك عند العارفين بالله. نقله السيوطي عنه في الكتاب المذكور.

ونقل فيه أيضاً عن الإمامين الهمامين من المالكية الشيخ أبي العباس المرسي[2] وتلميذه ابن عطاء الله قدس سره[3] ما يقاربه.

فكيف يسوغ للعوام، إنكار مثل هذه الأحكام، بعد تصريح الأولياء الكرام، والعلماء الأعلام، الذين هم أهل الحل والإبرام، ومنهم من يتلقى العلوم اللدنية بلا واسطة من الحي الذي لا ينام.

واقتصرت على هذا القدر من الكلام، خوفاً من الإملال والإسآم، وإلا لألفت فيه مجلداً حافلاً بعون المنعام.

ولولا رعاية الشفقة على الإخوان في الدين، من وقوعهم في إنكار طور الأولياء الكاملين، لما أقدمت على إظهار بعض هذه الأسرار، لكن ألجأني إليه أمران:

الأمر الأول: الذب عن الطريقة التي هي عروة الوصول، وسُلم رضوان الله تعالى واتباع الرسول، التي أصولها التمسك بعقائد أهل السنة الذين هم الفرقة الناجية، وترك التقاط الرخص، والأخذ بالعزائم، ودوام المراقبة، والإقبال

---

(١) خليل بن إسحاق بن موسى (٠٠٠ ـ ٧٦٧ هـ) المالكي، المعروف بالجندي: فقيه، مشارك في علوم العربية والحديث والفرائض والأصول والجدل. أقام بالقاهرة، وجاور بمكة، وتوفي بفرغانة. «معجم المؤلفين» (٤/ ١١٣).

(٢) أحمد بن عمر (٠٠٠ ـ ٦٨٦ هـ) المرسي، أبو العباس: فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير إلى اليوم، أصله من مرسية في الأندلس. «الأعلام» (١/ ١٨٦).

(٣) أحمد بن محمد بن عبد الكريم (٠٠٠ ـ ٧٠٩ هـ) الإسكندري: متصوف شاذلي، من العلماء. له تصانيف. توفي في القاهرة. «الأعلام» (١/ ٢٢١).

على المولى، والإعراض عن زخارف الدنيا بل وعن كل ما سوى الله تعالى، وملكة الحضور المعبر عنه في الحديث الشريف بالإحسان وهو «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] والخلوة في الجلوة مع التحلي بالاستفادة والإفادة في علوم الدين، والتزيي بزي عوام المؤمنين، وإخفاء الذكر وحفظ الانفاس، لا يخرج ولا يدخل النفس مع الغفلة عن الله الكريم، والتخلق بأخلاق رسول الله صاحب الخلق العظيم، عليه الصلاة والتسليم.

وبالجملة فهذه الطريق بعينها طريقة الأصحاب الانجاب عليهم الرضوان، من غير زيادة ولا نقصان، وهي عبارة عن عزائم الكتاب والسنة، ولهذا قال إمام الطريقة، وغوث الخليقة، الشيخ بهاء الحق والدين محمد البخاري المعروف بنقشبند قدس الله سره، ما معناه: من أعرض عن طريقتنا فهو في خطر من دينه.

والأمر الثاني: التحذير عن تمويه الغافلين وتزويرهم، لئلا يؤدي إنكار هذه الطريقة وتكديرهم، ويسري من شؤمه والعياذ بالله تعالى إلى باب لا يزال الفقراء الصادقون متضرعين إلى الله لتأبيده وبقائه، ولحفظه من فتن حساده ومكائد أعدائه، وهذا الفقير يوصيكم بجميع ما تقدم من الآداب، ويخبركم بأنه يبرأ إلى الله تعالى من كل من يخالف السنة والكتاب، ولا يتبع هدي النبي والأصحاب، ويأمركم بصالح الدعاء، في الصباح والمساء، لدوام تأييد الدولة العلية العثمانية التي عليها مدار الإسلام ونصرتها على أعداء الدين، من النصارى الملاعين، والأعجام المرتدين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته في البدء والختام انتهى.

فإذا نظرت إلى ما ذكرناه بعين الفهم تبين لك أن توقف بعض المنسوبين إلى العلم من أهل العصر، ومن تبعه في جواز الرابطة لا يعول عليه.

الركن الثالث: إغلاق الباب وقت الذكر وهو: وسيلة عظيمة لحفظ الخاطر من التفرقة، وجمع الحواس كلها، وهو من أهم الأركان عند السادة الخالدية

---

(١) حديث «الإحسان أن تعبد»: صحيح متفق عليه وقد تقدم.

النقشبندية، وسندهم في ذلك ما ذكره العارف الشعراني قدس سره، في «النفحات»: روى الطبراني والإمام أحمد والبزار وغيرهم بإسناد حسن: «إن رسول الله ﷺ كان يوماً يجمع مع أصحابه، فقال: هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب، قالوا: لا، يا رسول الله! فأمر بغلق الباب، وقال ﷺ: ارفعوا أيديكم، وقولوا: لا إله إلا الله، قال شداد بن أوس: فرفعنا أيدينا ساعة، وقلنا لا إله إلا الله، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد. ثم قال عليه السلام: ألا فأبشروا فإن الله قد غفر لكم»[1] ثم قال: وإنما أمر النبي ﷺ بغلق الباب في تلقينه جماعة أصحابه، كما تقدم. وقال: «هل فيكم غريب» لينبه على أن طريق القوم مبنية على السر، وصفاء الوقت من حضور من ليس منهم ولا يؤمن بطريقهم، فربما استهزأ به فمقته الله عز وجل.

ذكره سيدي الجد في «البهجة السنية».

وفي «الرشحات» قال سيدنا الشيخ عبيد الله أحرار ـ قدس الله سره العزيز ـ في معنى قولهم: صحبة الأضداد موجبة للتفرقة: وجد أبو يزيد رضي الله عنه عنه يوماً تفرقة، فقال لأصحابه: انظروا! هل في مجلسي أجنبي؟ فنظروا فما وجدوا أحداً، فقال: أمعنوا النظر فإنه لو لم يكن لما حصلت لي التفرقة، فلما بالغوا في التفتيش، وجدوا عصاً لرجل أجنبي، فرموها فعادت له جمعيته.

ودخل رجل من أصحاب سيدنا عبيد الله أحرار عليه، فقال له: إني أجد رائحة أجنبي، ثم قال للرجل: إني تحققت الآن أنها منك، فلعلك لابس ثوب أجنبي، فقال له: نعم! فخرج ونزع ذلك الثوب، ثم عاد فجلس عنده، نفعنا الله ببركاته.

وما قيل: من أن الغوث الدهلوي مرشد حضرة مولانا خالد ـ قدس الله

---

(١) حديث «هل فيكم غريب»: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٨٩، ٢٩٠)، والبزار «كشف الأستار» رقم (١٠).

سرهما ـ لم يكن يأمر بغلق الباب مردود بأنه إنما كان يقيم الأذكار النقشبندية في زاويته الخاصة به وبأصحابه لا في المسجد الجامع، فيأمن من دخول أجنبي لحضرته، كما روى ذلك عن حضرة مولانا خالد، وعليه فما يفعله ذرية الإمام الرباني ـ رضي الله عنه ـ، وغيرهم في الحرم المكي وغيره، من إقامة الأذكار والتوجه على رؤوس الأشهاد مغاير لآدابهم، إذ لا تخلو النظارة من جاهل.

أخبرني الوالد الماجد أنه رأى من بعض الواقفين مالا يليق بشأن الطريقة العلية من السخرية. فيكون في غلق الباب سد للذريعة، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة في أصول الشريعة. وبالكلام على ما في غلق الباب من الدقائق، قد أغلقنا بحمده تعالى باب هذه الحدائق، بعد تحسين تحصين كل الجهات، بشوكة بركة توجهات، من اشتملت عليه من السادات، راجين منه تبارك وتعالى أن يمنحها لدى أهلها وإقبالاً! ويحميها من كل من ساء حالاً وقالاً.

وإني لأرجو الله حتى كأنني ... أرى بجميل الظن ما الله صانع

ومما يرى في رجب من العجب، أنه لما صحت بياضاً قال تاريخها: صححت في شهر رجب.

اللهم إنا نتوسل إليك بحرمة هؤلاء الكرام لديك، أن لا تجعل همنا إلا أنت ولا تدلنا إلا عليك!.

يا حليماً عند فرط الغضب ... وعليماً كيف كشف الكرب
وحكيماً نفذت أحكامه ... ورحيماً بالمسيء المذنب
وكريماً ما لإكراماته ... غير وافي فضله من سبب
قد توسلت بجاه المصطفى ... سيد الخلق النبيّ العربي
رحمة الأمّة والغوث الذي ... كل من يممه لم يخب
وبجاه الأنبيا والرسل والـ ... ـأولياء والشرفا والكتب
وبجاه كل ذي جاه له ... عندك اللهم أسنى الرتب
لا تعاملني بأعمالي التي ... فرطت مني بسوء الأدب

فذنوبي من ذُنوبي ويلها ملئت جهلاً لعقد الكرب
وحمتني ذِلَّة الزلة عن لذة الخوف من المنقلب
وأعني واعف عني واهدني واغفر اللهم لي واستجب
حاش بحر العفو أن يمنعني قطرة من غيثه المنسكب
وارحم اللهم ضعفي ليس لي قوة في حمل تلك النوب
وابدل الضرّاء بالسرّاء لي كرماً والطف بأمي وأبي
وتفضل واكفني ما أشتكي يا حليماً عند فرط الغضب

متخذين ذلك وسيلة جليلة لأداء فريضة، إهداء صلات الصلاة، وتسنيم التسليم، إلى مقام صفي الأنبياء ونبي الأصفياء، من نال بختم رسالة النبوة أشرف الآمال، من أسنى معارج المعالي، وأسمى مراتب الكمال، وآله وصحبه خير صحب وآل، والحمد لله على الهداية في البداية، ثم الحمد لله على العناية في النهاية.

فهرس المواضيع

الموضوع | الصفحة

